المركز القومى للترجمة

ميراث الترجمة

يوسف أشباخ

تاريخ الأندلس

فى عهد المرابطين والموحدين

الجزء الأول

ترجمة وتعليق: محمد عبد الله عنان

تقديم وتنويه: سليمان العطار

1879/2



كيف حكم البربر الأندلس؟ تلك قصة طويلة لدولتين إمبراطوريتين قامتا فى المغرب هدمت ثانيتهما الأولى. سمت أولى الدولتين نفسها دولة المرابطين، أما الثانية فسمت نفسها دولة الموحدين. هذه القصة الطويلة هى موضوع هذا الكتاب الممتاز الذى ترجمه مؤرخ الأندلس الأكبر دون نظير له على المستوى العربى العلامة محمد عبدالله عنان.

والأهمية البالغة لهذا الكتاب ترجع لكون مؤلفه مطلعا على المصادر الإسبانية وغيرها من المصادر الأوروبية لأحداث الأندلس بأقسامه الثلاثة، وارتباطها الوثيق وتداخلها. والمؤلف أيضا ينتمى لجيل من المستشرقين بدأ يستعين بالمصادر العربية بجانب المصادر الإسبانية والأوروبية، لكن حتى وقت صدور الكتاب (1837) لم تكن معظم تلك المصادر قد خرجت للنور، رغم ما بذله المؤلف من جهد للاطلاع على مخطوطات كلفته أن يجوب مصر وبعض البلاد العربية الأخرى وغيرها من مظان وجود مخطوطات عربية تكشف عن تاريخ تلك الحقبة.

تصميم الغلاف: ياسر عبد القوى

تاريخ الأندلس

فى عهد المرابطين والموحدين

(الجزء الأول)

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: رشا إسماعيل

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1879
- تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين: الجزء الأول
- يوسف أشباخ
- محمد عبد الله عنان
- سليمان العطار
- 2014

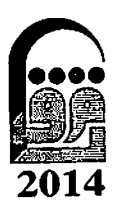
هذه ترجمة كتاب:

Geschichte Spaniens und Portugals zur Zeit der Herrschaft der Almorawiden und Almohaden
Von: Joseph Aschbach

شارع الجبلاية بالأوبرا– الجزيرة– القاهرة.   ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤   فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org   Tel: 27354524   Fax: 27354554

تاريخ الأندلس
فى عهد المرابطين والموحدين
(الجزء الأول)

تأليـــــف : يوســـف أشـــباخ
ترجمة وتعليق : محمد عبد الله عنان
تقديم وتنـويه : ســليمان العــطار



2014

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

أشباخ، يوسف.
تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين: الجزء الأول/ تأليف: يوسف أشباخ، ترجمة وتعليق: محمد عبد الله عنان تقديم وتنويه: سليمان العطار.
القاهرة: (المركز القومى للترجمة)، ٢٠١٤
٢٩٢ ص؛ ٢٤ سم
١ - الأندلس - تاريخ - الموحدون.
٢ - الأندلس - تاريخ - الخلفاء المرابطون.
(أ) عنان، محمد عبد الله (مترجم).
(ب) العطار، سليمان (تقديم).
(جـ) العنوان ٩٥٣,٠٧١٣

رقم الإيداع ٢٠١١/٥٠٤٨
الترقيم الدولى 6 - 493 - 704 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تقديم وتنويه

بقلم : سليمان العطار

الأندلس تعريب لكلمة جرمانية هي اسم علم يشير إلى مجموعة قبائل من أصل جرماني كانت تعيش في جنوب شبه الجزيرة الإيبيرية، والعرب تسمي في معظم الأحوال مكان مضرب القبيلة لخيامها وبيوتها باسم القبيلة، وهكذا ظنوا أن ذلك هو اسم البلاد التي كانوا يفتتحونها في اللحظات الأولى للفتح . وجاءت الكلمة الجديدة مليئة بإيقاعات تجذب شاعرية من رنينها الصوتي، ومن أحداث عجيبة وعالم غرائبي بالنسبة للفاتحين من عرب وبربر . كانت حياة العربي على أرض الأندلس سلسلة من المغامرات العسكرية والحضارية، خاصة في مجالات الملابس والمودة والموسيقى والتذوق الفني (لكل شيء حتى الطعام) والمعمار والشعر والخلق التزييني من لعب بالمياه والبستنة في باحات القصور بل والبيوت المتواضعة وفي الشوارع والميادين حيث ابتدعوا المنازه العامة . وعند سقوط آخر المعاقل العربية في غرناطة اكتسبت شاعرية لفظة الأندلس عمقا رومانسيا غامضا يسحر حتى من لايعرفون شيئا عن تاريخ الكلمة وما تشير إليه، فهاهي تغطي كثيرا من واجهات المحال والشركات والقرى الشاطئية، كنوافذ نحو فردوس مفقود.

وتاريخ الأندلس العربى شارك فى صنعه بجانب اللاعب العربى الرئيسى كثير من اللاعبين الثانويين من أعراق وأديان متعددة فى الداخل الأندلسى بجانب اللاعبين العالميين من عرب المشرق ومن بيزنطيين ومن ملوك الإمبراطورية الرومانية المقدسة، ومن قبائل همجية من أقصى شمال أوربا أطلق عليهم العرب اسم المجوس (النورمانديين) . وقد ظلت الأندلس بورصة عالمية للحروب والصراعات العنيفة المعلنة والسرية أكثر من ثمانية قرون، دون أن يحول ذلك بين سكانها من العرب وبين بناء حضارة مذهلة، كانت الموتور المحرك للنهضة الأوربية، وعلى غير المتوقع لم يكن لها كبير صدى فى المشرق العربى، لأنه كان يتجه نحو سبات عميق تاركا أمر الدفاع عن الدولة للفرس تارة وللأتراك أو للأكراد تارة أخرى، أما العنصر العربى الذى قام بالفتوحات الهائلة، وانفتح على حضارات العام أجمع، فقد اختفى أثره الإبداعى والمستلهم تدريجيا .

وأحد اللاعبين المهمين فى صنع بعض أهم أحداث تاريخ الأندلس دون أن يلعب دورا حضاريا واضحا هو العنصر البربرى المغربى، وهو عنصر محارب بدوى النزعة، استعان بالأندلسيين فى إقامة عمارته وموسيقاه وأدبه والأهم من ذلك فى زراعته حيث امتلك الأندلسيون أعلى تقنية فى هندسة الرى واستخراج المياه واستخدام مياه المطر . وفى رأيى أن أكثر ما يملك الشمال الأفريقى حتى اليوم من موسيقى وعمارة وصناعات يدوية وأنظمة زراعة هى كل ما تبقى حيا وفاعلا من الأندلس .

وسوف يحكم العنصر البربرى الأندلس أكثر من قرن ونصف من الزمان، منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى حتى منتصف القرن الثالث عشر، ومع ذلك، منذ الفتح وحتى السقوط كان لهم دور ملحوظ لم ينقطع

سواء بالسلب أو الإيجاب، لكن أهم دور لهم هو معاونة العنصر العربى على امتلاك النفس الطويل فى حرب القرون الثمانية، وهى أطول حرب فى التاريخ، وذلك بإمداد العرب بالعنصر البشرى المقاتل لتعويض من يستشهد فى تلك الحرب اللانهائية الأجل، فى مواجهة للنفس الطويل المسيحى الذى تحقق عبر متطوعين من الإفرنجة فى سيل لايتوقف .

لكن كيف حكم البربر الأندلس ؟ تلك قصة طويلة لدولتين إمبرطوريتين قامتا فى المغرب هدمت ثانيتهما الأولى. سمَّت أول الدولتين نفسها بدولة المرابطين، أما الثانية فسمت نفسها بدولة الموحدين . هذه القصة الطويلة هى موضوع هذا الكتاب الممتاز الذى ترجمه مؤرخ الأندلس الأكبر دون نظير له على المستوى العربى العلامة محمد عبدالله عنان، الفلاح المصرى الذى ولد فى قرية بشنا من أحواز ميت غمر دقهلية عام ١٨٩٦ . إنه ليس مجرد مترجم بين المترجمين لكنه صاحب مشروع كبير فرَّغ له نفسه ربع قرن من الزمان ١٩٥٢ - ١٩٧٧، هو مشروع كتابة تاريخ الأندلس من ناحية، ثم التفرغ لبعض الأعمال فى خدمة هذا التاريخ فيما تبقى من عمره بعد انقضاء الربع قرن المذكور الذى توَّجَه بثمانية مجلدات تضمنت كل التاريخ الأندلسى ليصبح بين القلائل على مستوى العالم الذى يؤرخ لحضارة من أطول الحضارات الإنسانية من بدايتها حتى نهايتها دون أن يفوته فى المجلد الأخير أن يصحب القارئ فى رحلة يزور به ما تبقى من آثار وبصمات الأندلس فى إسبانيا المعاصرة . ونظن أن هذا المشروع قد بدأ فى ذهنه فى الأربعينيات ولكن المناصب التى تقلدها كانت تتيح له وقتا محدودا لايتسع لتحقيق هذا الإنجاز الكبير . ويرجع ظننا لاختياره لكتاب مكتوب بالألمانية هو "تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين" للمستشرق البارز والمؤرخ الألمانى

"يوسف أشباخ "، وذلك لتقديمه للقارئ العربى، هو - كما سيأتى بعد- اطلاع مؤلفه على المصادر الإسبانية التى لا يتاح لعربى سهولة الاطلاع عليها، كتاب بالغ الأهمية لمن يتطلع لمعرفة تاريخ الأندلس حتى بدايات ظهور مملكة غرناطة، وهى الفترة التى حملت فيها شبه الجزيرة الإيبيرية اسم الأندلس، والذى انقسم إلى ثلاثة أقسام : الأندلس الأعلى وهو الذى يضم الممالك المسيحية فى شمال شبه الجزيرة، والأندلس الأدنى وهو الجنوب الذى يضم معظم الوجود العربى فى الأندلس، وبين الأندلسين الأعلى والأدنى يوجد الثغور وهى مناطق القتال على الحدود بين الشمال والجنوب، وأطلق عليها الأندلس الأوسط وكان معظمها عربيًا، بل كلها عربى الهوية حتى سقوط طليطلة واسطة عقد أندلس الثغور حيث مدن وقرى الرباط والجهاد . وقد تقلصت الأندلس - بعد رحيل الموحدين ثانى الإمبراطوريتين - إلى مملكة صغيرة، لكن ذكية ومبتكرة وماكرة تمكنت من العيش قرنين ونصف كوجود رمزى وكأندلس مصغر، ويكفى لنعرف شيئا عن حضارة هذه المملكة، ذلك المشهد الذى أذهل الإسبان عند دخولهم المدينة بعد أن سلَّم أبو عبدالله الصغير مفتاحها لملكى إسبانيا الكاثوليكيين : ظل المعلمون يلقون دروسهم فى مساجدهم، والمزارعون يفلحون أرضهم، وكل ذى شأن فى شأنه مشغول، دون أن يلتفتوا للغازين أو يعيروهم التفاتا، هكذا كانت غرناطة، وأظن أنها تكبير لقيمة أندلسية مدهشة وهى قيمة العمل وعدم السماح بانقطاعه، ولعل ذلك يشرح قيام كل هذه الحضارة وسط كل هذه الحروب والصراعات .

وأما الأهمية البالغة لهذا الكتاب - بين يدى القارئ- كما سبق ذكره فترجع لكون مؤلفه مطلعا على المصادر الإسبانية وغيرها من المصادر

الأوربية لأحداث الأندلس بأقسامه الثلاث، وارتباطها الوثيق وتداخلها . والمؤلف أيضا ينتمى لجيل من المستشرقين بدأ يستعين بالمصادر العربية بجانب المصادر الإسبانية والأوربية، لكن حتى وقت صدور الكتاب (١٨٣٧) لم تكن معظم تلك المصادر قد خرجت للنور، رغم ما بذله المؤلف من جهد للاطلاع على مخطوطات كلفته أن يجوب مصر وبعض البلاد العربية الأخرى وغيرها من مظان وجود مخطوطات عربية تكشف عن تاريخ تلك الحقبة، وهذا النقص حاول المترجم تداركه عند الترجمة التى تمت بعد قرن من الزمان على صدور الكتاب بالألمانية . ولكن يبقى الكتاب مستوفيا مصادره الأوربية دون العربية، الأمر الذى دفع محمد عبد الله عنان إلى أن يصدر فى تاريخه الكامل عن الأندلس مجلدين عن عصرى المرابطين والموحدين يتضمن كل ما ورد فى المصادر العربية عن الموضوع ليصبح المجلدان مكملين للعمل الكبير لأشباخ وللمترجم معا، وكأن تاريخ عنان يكتمل آخره التأليفى بأوله الترجمانى، وأقول الترجمانى لا المترجَم، لأن الترجمة صاحبها هوامش وإيضاحات وتصويبات ومعجم لألفاظ البلاد بالعربية مما جعل "عنان" ترجمانا أكثر منه مترجما . ومع هذه الترجمانية بدأ المشروع فى مصر بين ١٩٥٠ و١٩٧٤ وانتهى فى المغرب فى الفترة بين١٩٧٤ و ١٩٨١ حيث استدعاه الملك الحسن الثانى للاشتراك فى فهرسة خزانة الكتب الملكية بعد انتهائه من إصدار" تاريخ دولة الإسلام فى الأندلس". وخلال قيامه بذلك نهض عنان بتحقيق الموسوعة الثالثة لتاريخ الأندلس الأدبى والسياسى والحضارى (بعد موسوعتى النفح والذخيرة) : "الإحاطة فى أخبار غرناطة" للسان الدين بن الخطيب بجانب كتابه "ريحانة الكتاب ونجمة المنتاب" .

وكما بدأت بوادر مشروع عنان قبل صدور تاريخه الأندلسى بثلاثة عقود، حدث شيء شبيه ليوسف أشباخ إذ بدأ علاقته بالأندلس بدراسة تاريخ القوط الغربيين الذين كانوا يحكمون إسبانيا عند الفتح العربى، وهزم طارق ابن زياد آخر ملوكهم الذى أطلق عليه العرب اسم "ريق لذ" تعريبا ل "رودريجو" . وكان من المنطقى أن يدرس أهم فترات تاريخ الأندلس وأطولها، فبدأ بتاريخ الدولة الأموية فى قرطبة، ثم بهذا الكتاب الذى يبدأ ببسط تاريخ ملوك الطوائف، وكأن مشروعه يقترب من مشروع "عنان"، إذ لاينقصه إلا تاريخ غرناطة وسقوطها، ثم الوجود المادى والمعنوى للأندلس فى إسبانيا المعاصرة، والذى شغل المجلد الثامن من موسوعة عنان عن تاريخ الأندلس، مقابل نقص تاريخ عنان فترة ما قبل الغزو من تاريخ للقوط الغربيين الذى كان قد مهد دون جدال لاستقبال سكان البلاد للعرب بالترحاب لتخليصهم من ظلم آخر ملوك القوط الغربيين وأنصاره من طغاة الإقطاعيين. ويبقى الطريف فى أمر الرجلين عنان وأشباخ، فالأول من أصول مغربية وأندلسية، والقوط الغربيون من أصول ألمانية جديرون باهتمام عالم الإسبانيات والمستعرب فى آن الألمانى أشباخ ثانى الاثنين اللذين كانت لهما الريادة فى بلديهما للتأريخ للأندلس .

أخيرا نقف معجبين بهذا الجهد الإستراتيجى للمركز القومى للترجمة وعلى رأسه الصديق الطموح والمفكر جابر عصفور لاستكمال الغياب فى المكتبة العربية لبعض الأعمال المركزية للمستعربين والمستشرقين من إسبانيا وكل أوربا بتقديم الكتب المترجمة الكلاسيكية (أى التى لاتفقد قيمتها رغم قدمها بل تزداد قيمة وتزداد الحاجة إليها) والتى نفدت بل واختفت من المكتبات العامة والخاصة، وهنا يأتى دور دؤوب للصديق الموسوعى

مصطفى لبيب صاحب التصانيف فى تصنيف العلوم، وصاحب الذاكرة بعيدة المدى فى التنظيم والدقة والتصنيف لكل كتاب صدر بالعربية مترجما أو مؤلفا أو محققا، ليقترح اسم الكتب المشار إليها على المركز فى حدود خططه واستراتيجياته، ويقوم بعناء إيجاد نسخة منها وما يتطلبه فعل النشر من إجراءات وجهد، فللصديقين العزيزين الشكر باسم القراء وباسمى، ولاسيما أن إحياء الأندلسيات فعل مزدوج : زخم للنهضة وشعاع يصب فى التنوير.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لبث تاريخ الأندلس أو تاريخ اسبانيا المسلمة ، كما تعرضه الروايات والمصادر الاسلامية مجهولا من الغرب حتى أواخر القرن الثامن عشر ؛ وكان المؤرخون الأسبان قلما يتناولون هذا القسم الهام من تاريخ اسبانيا القوى بشيء من الإفاضة ، فاذا تناولوه كان جل اعتمادهم على المصادر النصرانية ، وهى جميعاً شديدة التأثر بالعوامل والاعتبارات القومية والدينية .

وفى أواخر القرن الثامن عشر ، وضع العلامة الغزيرى اللبنانى الذى يعرفه البحث الغربى باسم Casiri — بتكليف الحكومة الاسبانية — فهرساً جامعاً باللاتينية لمجموعة المخطوطات العربية بقصر الاسكوريال ، ظهر فى مجلدين كبيرين بين سنتى ١٧٦٠ و ١٧٧٠[١] وكشف مؤلفه عما نقل فيه من نبذ تاريخية وجغرافية وأدبية ، سواء بأصلها العربى أو مترجمة إلى اللاتينية ، عن أهمية هذه المجموعة وقيمتها بالنسبة لتاريخ اسبانيا المسلمة ، وتاريخ اسبانيا فى عهد الدول الاسلامية

(١) Casiri : Bibliotheca Arabico - Hispana Escurialensis (المكتبة العربية الاسبانية بالاسكوريال)

بوجه عام . وعندئذ اتجهت عناية البحث الغربى لأول مرة إلى مراجعة هذه المصادر العربية ، والتنقيب فيها عن كل ما يتعلق بتاريخ اسبانيا المسلمة وتاريخ الحضارة الاسلامية ، وخواص المجتمع الاسلامى ؛ وظهر أثر هذه العناية بالأخص فى بعض الآثار النصرانية الجامعة التى ظهرت فى ذلك الحين مثل كتاب أندريس Andrés فى « أصول الأدب »[1] ، وكتاب ماسدى Masdeu المسمى « بالتاريخ النقدى لاسبانيا والحضارة الاسبانية »[2] ، وهو يعنى فيه عناية خاصة بالتحدث عن الحضارة الأندلسية والتفكير الاسلامى فى اسبانيا المسلمة . ثم جاء المستشرق الاسبانى يوسف كوندى Condé ، فوضع مؤلفه الشهير « تاريخ دولة العرب فى اسبانيا » Historia de la Dominacion de los Arabes en Espana مشتقاً من المصادر العربية ، فى ثلاثة مجلدات كبيرة ظهرت بين سنتى ١٨١٠ و ١٨١١ ؛ ومع أن كوندى ينقل كثيراً من الروايات العربية بلا دقة وتمحيص ، ويقع فى كثير من الأخطاء التاريخية ، فان مؤلفه اعتبر وقت صدوره فتحاً جديداً فى التاريخ الاسبانى ، وكان فى الواقع أول مؤلف أوربى يعرض على الغرب تاريخ الأندلس وفقاً لوجهة النظر الاسلامية .

ومن ذلك الحين بدأت المصادر العربية تتخذ مكانتها إلى جانب المصادر النصرانية فى كل بحث يتعلق باسبانيا المسلمة ؛ وظهرت فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، عن تاريخ الأندلس، عدة مؤلفات أوربية جديدة ، عنيت بمراجعة المصادر الاسلامية عناية حسنة ، وعنى المستشرقون فى نفس الوقت بنشر الآثار العربية المتعلقة بتاريخ الأندلس . فنشر العلامة السويدى تورنبرج Tornberg كتاب « روض القرطاس » لأبى الحسن على بن أبى زرع ، مقرونا بترجمة لاتينية (أوبساله سنة ١٨٤٣) ، ونشر العلامة الهولندى رينهارت دوزى

---

(١) Andrés, Juan: Dell'origine progressi, estato attuale d'ogni Littrature (فى أحوال الآداب وتقدمها وأحوالها الخاصة) (7 vols, Parma 1783 - 799)

(٢) Masdeu : Historia critica de Espana y de la cultura espanola (178 - 1805

R. Dozy الجزأين الأول والثانى من كتاب « البيان المغرب » لابن عـذارى المراكشى (ليدن سنة ١٨٤٨ — ١٨٥١)، ووضع المستشرق الاسبانى جاينجوس Gayangos ، ترجمة انكليزية لـكتاب نفح الطيب للمقرى نشرت بعناية الجمعيـة الأسيوية الملـكية البريطانية بين سنتى ١٨٤٠و١٨٤٣[1] ، ثم نشر الجزآن الأول والثانى من نفح الطيب بالعربية فى ليدن ، ونشرت لهما ترجمة فرنسية (سنة ١٨٥٥ ١٨٦٢) ، ونشر المستشرق الانكليزى جونس Jones ترجمـة انكليزية للقسم الخاص بفتح الأندلس من تاريخ ابن عبد الحكم « أخبار مصر وفتوحها » (جتنجن سنة ١٨٥٨) ، ونشر المستشرق الألمـانى ميلر Mueller كتاب « أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر » مع ترجمة ألمـانية (ميونيخ سنة ١٨٦٣) ، ونشرت بعد ذلك فى أواخر القرن التاسع عشر بعناية المستشرقين طائفة كبيرة من الآثار العربيـة الأندلسية ، كان فى مقدمتها المـكتبة الأندلسية التى ظهرت فى عشرة مجلدات كبيرة من سنتى ١٨٨٣ و ١٨٩٥

ومؤلف كتابنا هذا المؤرخ الألمـانى يوسف اشباخ Joseph Aschbach ينتمى إلى هذه المدرسة التى عنيت منذ أوائل القرن التاسع عشر بدراسة التاريخ الأندلسى على ضوء المصادر العربية . وقد ولد فى هكست من أعمال ناساو بألمانيا فى سنة ١٨٠١ ، وتولى تدريس التاريخ فى جامعة فرنكفورت ، ثم فى جامعة بون ، ودرس العربية ، وعنى بدراسة تاريخ اسبانيا المسلمة عناية خاصة ، ووضع فى ذلك مؤلفين أولهما : « تاريخ الأمويين فى اسبانيا » Geschichte der Omajaden in Spanien فى مجلدين ، وهو يتناول تاريخ الأندلس منـذ الفتح حتى سقوط الدولة الأموية وقيام دول الطوائف ؛ والثانى : « تاريخ اسبانيا والبرتغال فى عهد سيادة المرابطين والموحدين » Gechichte Spaniens und Porbugals, zur

---

(١) وقد نشرت هذه الترجمة بعنوان History of the Mohammedan Dynastries in Spain (تاريخ الدول الاسـلامية فى إسبانيا) ، وهى تتضمن الجزئين الأول والثانى من نفح الطيب .

في مجلدين Zeit der Herrschaft der Almorariden und Almohaden أيضاً ؛ وهو يتضمن تاريخ الأندلس ، وتاريخ اسبانيا بوجه عام ، منذ قيام دول الطوائف حتى انحلال دولة الموحدين ، وتاريخ المغرب أيضاً في ظل دولتي المرابطين والموحدين ؛ وهو الذي نقدم اليوم إلى القارئ القسم الأول منه متضمناً لتاريخ الأندلس والمغرب في عهد المرابطين ، وقيام دولة الموحدين ، وتاريخ قشتالة وباقي الممالك الاسبانية النصرانية في تلك الفترة . وأما القسم الثاني فيتضمن تاريخ الموحدين حتى سقوط دولتهم ، وعرضاً لسياسة المرابطين والموحدين ونظامهم في الحكم والإدارة وتاريخ الممالك النصرانية المعاصرة . والكتاب بقسميه كما يقول لنا المؤلف في مقدمته ، تتمة لكتابه الأول « تاريخ الأمويين في اسبانيا » .

وقد ظهر هذا الكتاب بمدينة فرنكفورت بين سنتي ١٨٣٣ و ١٨٣٧ ؛ ومع أنه قد مضى على ظهوره أكثر من مائة عام ، فانه لا يزال محتفظاً بكثير من قيمته ، فهو يعتمد على المصادر الاسلامية ، وينتفع بها انتفاعا كبيرا بالرغم مما يرد فيه أحيانا من خطأ أو تحريف ؛ على أن أهم ما يمتاز به في نظرنا هو دراسته للمصادر النصرانية إلى جانب المصادر الاسلامية ، وتمحيص الروايات من الجانبين وتقدير وجهات النظر المختلفة ، وهي ميزة لها قيمتها في دراسة التاريخ الأندلسي ، لأن التواريخ العربية قلما تعنى بدراسة المصادر النصرانية ، كما أن التواريخ النصرانية الحديثة لبثت من جانبها معرضة عن الانتفاع بالمصادر العربية حتى ظهر معجم الغزيري ، واتجهت الأنظار إلى الانتفاع بمجموعة الاسكوريال حسبما بينا ، هذا إلى ما يمتاز به الكتاب من حسن الترتيب والتبويب ، وخصوصاً في أخبار ملوك الطوائف ، وما يتخلله من مواطن التحليل والنقد المتزن .

هذا وقد رأيت استكمالا للبحث أن أذيل الكتاب بطائفة من الهوامش والتحقيقات والشروح ، استدراكا لمواطن التحريف ، وإتماما لتمحيص المصادر ، وتحقيقاً لبعض النصوص والأعلام ، معتمداً في ذلك على مجموعة كبيرة من المصادر الاسلامية التي لم يتح لمؤلف الكتاب أن ينتفع بها ؛ كذلك رأيت نظراً

لتباين الأعلام الأندلسية العربية والأفرنجية الجغرافية والتاريخية ، ونظراً لما يقع فيها من التحريف فى معظم التراجم والدراسات المتعلقة بتاريخ الأندلس ، أن أضع لهذه الأعلام فهرساً يضم الأعلام العربية ومقابلها الأفرنجى ، ليكون مرشداً ينتفع به القراء والمشتغلون بدراسة التاريخ الأندلسى .

ولا يسعنى فى الختام إلا أن أتقدم بالشكر إلى صديق العلامة الأستاذ أحمد أمين لما تفضل به من قراءة الترجمة وما أبداه من ملاحظات قيمة ، وأن أنوه بما للمعهد الخليفى بتطوان وبيت المغرب بالقاهرة من فضل مشكور فى نشر هذا الكتاب ضمن مجموعة الآثار الاسلامية والأوربية المتعلقة بتاريخ المغرب والأندلس ، التى يعملان لنشرها ، وتعميم نفعها .

محمد عبد الله عنان

القاهرة فى ١٨ ذى القعدة سنة ١٣٥٨
الموافق ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣٩

الكتاب الأول

تاريخ الأندلس

منذ سقوط الدولة الأموية

إلى مقدم المرابطين .

الفصل الأول

تاريخ الممالك الإسبانية النصرانية

منذ اتحاد مملكتي ليون وقشتالة

إلى تقسيم مملكة البشكنس

(سنة ١٠٣٧ — ١٠٧٦ م) — (٤٢٨ — ٤٦٩ هـ)

مضت ثلاثة قرون استمر فيها تفوّق دولة الإسلام في شبه الجزيرة الإسبانية (الأندلس)، وكادت الممالك النصرانية التي أقامها السكان الجبليون في أشتوريش وبسكونس[1]، ووطدوا دعائمها تُسحقُ غير مرة؛ بيد أنها كانت إزاء الخطر تكافح بقوى مضاعفة، وحب متقد للحرية، والدين والوطن، وتنتصر دائماً على أعداء لا حصر لهم، قد فقدوا في النهاية قواهم في قتال بعضهم بعضاً. وفي أوائل القرن الحادي عشر الميلادي، اضمحل سلطان الأمويين في اسبانيا بعد ازدهاره، وسما في الوقت نفسه شأن سانشو (شانجة) الملقب بالكبير، فيما وراء الجبال البرينية (جبال البرت أو البرتات)[2]، ومكنت له قواه المظفرة من بسط

---

(١) أشتوريش: هي الاسم العربي لولاية «أستورياس» (Asturias)، وبسكونس أو بسكونية هي الاسم العربي لولاية «بسكاية» (Biscaya). وقد آثرنا أن نرجع في الترجمة إلى الأعلام الجغرافية العربية وأن نقرنها عند الضرورة بمقابلها الأفرنجي، وسنضمها في نهاية الكتاب في ثبت عام مقرونة بأصولها الأفرنجية.

(٢) تسمى الجبال البرينية أو جبال البرنيه (Pyrenees) في الجغرافية العربية بجبال البرت أو البرتات بالاشتقاق فيما يظهر من كلمة (Puertos) أي الأبواب، ومن ثم فقد سميت أيضاً بجبال الأبواب، ويشار إليها أحياناً بأنها «الجبل الحاجز بين الأندلس وبين بلاد أفرنجة =

سيادته على اسبانيا النصرانية من جبال البرنيه إلى ما وراء شنت ياقب ؛ ومن بحر بسكونس حتى نهر دويرة (نهر دورو) مما يلى هضبة الجزيرة الوسطى عند وادى الرملة الوعر[١] . وكان يحكم قشتالة وناقارا (بلاد البشكنس)[٢] سانشو وولده فرديناند . ولم يكن الملك برمود الثالث (برمند) صاحب ليون سوى تابع لسانشو . ولاح أن الفرصة قد سنحت ليسحق النصارى بأيسر أمر ، تلك الدول الإسلامية التى قامت على أنقاض الدولة الأموية . بيد أن ملك ناقارا ما كاد يوحد بين القوى النصرانية حتى أدركه الموت فى سنة ١٠٣٥م ؛ وقسمت مملكته بين أبنائه الأربعة ، وتصدع بذلك سلطان النصرانية وما كان يلتئم ، وأدى تفرق النصارى الأسبان على هذا النحو الخطر إلى نجاة الأندلس المسلمة من فناء محقق ، واستمر علم الهلال خفاقاً على شبه الجزيرة زهاء خمسمائة عام أخرى قبل أن يغيض أمام أعدائه .

١ — فرديناند الأول وإخوته

ولما توفى سانشو أصبح ولده الثانى فرديناند (فرداند) ملك قشتالة[٣] بعد ذلك بعامين ، ملكا على ليون وجليقية وأشتوريش وما إليها ، على أثر وفاة صهره الملك برمود الثالث فى موقعة «تامارون» (Tamaron) ، وغدا بذلك أقوى ملك فى اسبانيا . أما إخوته الثلاثة فكانوا يحكمون ممالك صغيرة لا تكاد تعدل ثلث مملكته ؛ فحكم جارسيا (غرسية) أكبر أولاد سانشو الوطن الأصلى ناقارا من

= العظمى» ، أو جبل البرت الحاجز بين الأندلس والأرض الكبيرة ، أو يقال لها «الحاجز» (راجع وصف الأندلس للإدريسى طبعة Saavedra) ، ونفح الطيب (مصر) ج ١ ص ٦٤ و ٦٥ و ٦٦ ، ومعجم ياقوت (مصر) تحت كلمة أندلس) .

(١) وادى الرملة (Gaudarrama) .

(٢) يسمى العرب ولاية ناقارا (Navarra) «بلاد البشكنس» (Bascons) ، وأحياناً تسمى «نبرة» ، (راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٩ وصبح الأعشى ج ٥ ص ٢٣٤) .

(٣) ويسميها صاحب البيان المغرب قشتيلة ، وهو أقرب لأصلها الأفرنجى (Castille) (ج ٣ ص ٢٣٢) .

غرب البرنيه إلى مصب الأيبرو (أبرة) . وحكم راميرو ولد سانشو غير الشرعى ، مما يلى ذلك فى شقة ضيقة من الأرض تمتد من باب شزروا (Roncesvalles) إلى «اينكا وآرا» (Einca & Ara) باسم ملك أراجون (أرغون)[1] ، وحكم كونزالو منطقة أصغر هى ولاية سوبراب فى أواسط البرنيه . وأما فى شرق البرنيه فكانت تقع إمارة (كونتية) برشلونة أو قطلونية ممتدة على شاطئ البحر حتى مصب الأيبرو ويحكمها رعوند برنجار الأول ؛ وبذا بلغت الممالك النصرانية الأسبانية فى ذلك الحين خمساً .

ولكن اسبانيا المسلمة منذ انهار صرح الدولة الأموية بسبب الحروب الأهلية وأطماع الولاة ، انقسمت إلى دول مستقلة أكثر عدداً . فكان يحكم فى المدن الكبرى وفى الولايات أمراء (أو ملوك) يتبعهم عدد من الولاة والقضاة . وكان بعض هؤلاء الولاة يحاولون الاحتفاظ باستقلالهم عن كل سيادة ، ولم يكن ذلك ممكناً إلا إذا رأى جيرانهم الأقوياء هذا الاستقلال فى صالحهم . وكان أهم هذه الدول ، فى قرطبة وإشبيلية وغرناطة ومالقة وبطليوس وطليطلة وسرقسطة . وكانت تحالف بعضها بعضاً أو تخاصم بعضها بعضاً ، حسبما تمليه بواعث الأثرة التى تسيّر أولئك الأمراء .

ولم يكن الأمراء النصارى يخشون جانب الدولة الإسلامية بعد أن مزقت إربا وسادتها الفوضى . وقد أضاع أولئك الأمراء الفرصة السانحة لحشد قوى النصرانية المجتمعة ، وانتزاع شبه الجزيرة كلها من أيدى أعدائهم فى الدين ، وغلب عليهم التباغض والتحاسد فآثروا أن يمتشقوا الحسام بعضهم ضد بعض ، فى حروب مخربة مروعة على أن يشهروا الحرب على الإسلام .

ليس أخطر على الدول من اضطرام الأمراء بشهوة الفتح . ذلك أن كل شعور بالعدالة والإنسانية والإخاء والإيمان ، يغيض عندئذ فى سبيل الطموح إلى حكم دولة أوسع مدى . ولن يحجم الأمير عندئذ عن ارتكاب أى أمر فى سبيل تحقيق

(١) تعرف أراجون فى الرواية العربية ببلاد أرغون أو أرغن أو رغونه أو الثغر الأعلى

هذه الغاية . وهكذا نجد أنفسنا فيما يتعلق بطموح أبناء سانشو الكبير وأحفاده إلى الفتح ، أمام معترك من الجرائم والشناعات التى يرتجف المرء لذكرها فرقا ، إذا استطاع أن يتتبعها بجميع تفاصيلها . ولكن التاريخ مع الأسف لايحتفظ غالباً للخلف إلا بآثام القرون الذاهبة . ومن خير الإنسانية أن يطوى ذكر هذه الآثام فى ثنايا النسيان إلى الأبد . ذلك أنه يخالجنا عندئذ شىء من الشك المحمود فى صحة أشنعها وأروعها ذكراً ؛ ومن ثمّ فإنه ليس لنا أن نشكو من أن الروايات القليلة التى انتهت إلينا عن الحروب الدموية التى وقعت بين أبناء سانشو ، تنبئنا بالقليل عنها ، وإن كانت تسمح لنا بأن نتكهن بالكثير منها .

مضى عام على توحيد « فرديناند » لتاجى « قشتالة وليون » ؛ وفى الوقت نفسه اتحدت مملكتا « أراجون » و « سوبراب » الصغيرتان . وكان « كونزالو » يحكم فقط منطقة هى أجدر بأن تسمى بالولاية من أن تسمى بالمملكة . وقد كان حكمه لها فيما يظهر سبب موته المبكر . ذلك أنه عاد ذات يوم من الصيد فقُتل فى كمين غادر دبّره أحد أتباعه . وتولى « راميرو » (رذمير) أخو القتيل غير الشرعى وملك أراجون حكم « سوبراب » بموافقة شعبها ، ولم يحصل فرديناند وجارسيا أخوا كونزالو الشرعيان على شىء منها ، وهو ما يحاول الكتّاب المتأخرون تفسيره بأن سوبراب تقع بجوار أراجون وأصلح لها أن تضم إليها ، وهو تفسير غير مقنع .

وقد قيلت أقوال كثيرة عن السبب الذى حمل فرديناند وجارسيا وهما أقوى من راميرو على العدول عن المطالبة بحقوقهما فى سوبراب . والظاهر أن الأمور سارت بسرعة مكنت راميرو من احتلال الولاية قبل أن يصل نبأ وفاة كونزالو إلى أخويه الكبيرين . كذلك كان فرديناند مشغولا قبل كل شىء بتوطيد ملكه فى مملكته الجديدة ، فلم يستطع يومئذ مغادرتها . أما جارسيا فقد كان يومئذ يحج إلى رومة طبقاً لتقاليد عصره ، وكان من الضرورى أن يكون ملك نافارا حاضراً بشخصه إذا أراد أن يختاره أهل سوبراب .

وقويت نفس راميرو بنجاح خطوته الجريئة ، فنسى روابط الدم والدين ليقوم

بفتوحات أخرى ، وتحالف مع أعداء دينه ولاة تطيلة ووشقة وسرقسطة المسلمين ، وأخذ يدبر الخطة لإسقاط ملك ناڤارّا والاستيلاء على مملكته . ولكن التوفيق حالف هذه المرة ملك ناڤارّا . ومع أن راميرو استطاع فى البداية أن يقتحم حدود ناڤارّا دون معارضة نظراً لمفاجأتها بالحرب ، فإن قلعة « تاڤالا » استطاعت أن تعترض سيره الظافر ، وتمكن جارسيا خلال الوقت الذى استغرقه حصار القلعة أن يحشد جنده ، وأن ينقض على خصمه تحت جنح الظلام وعلى غرة من الحراس . وهكذا هوجم الأرجونيون وهم نيام ، وهزموا هزيمة شنيعة قبل أن يتمكنوا من تقلد سلاحهم . ولم يتمكن راميرو من النجاة إلا بشق النفس ، فألقى بنفسه فوق صهوة جواد عار ولاذ بالفرار ناجياً بحياته ، ومُزق معظم جيشه قتلا وأسرا . وعند الفجر خرج سكان القلعة فأجهزوا على الجيش المنهزم ، ولم يفز بما فاز به راميرو من الفرار سوى القليل . وكان بين الفارين قادة الجند المسلمين وقليل من أتباعهم ؛ ولا ريب أن هذه الواقعة حدثت بعد احتلال سوبراب (بعد سنة ١٠٣٨ م على الأقل) ، وذلك بالرغم مما يرويه البعض من أنها حدثت قبل ذلك . والظاهر أنها حدثت فى سنة ١٠٤٢ م .

ومع أن راميرو فقد من جراء هذه الهزيمة معظم مملكته ، واضطر أن يلجأ إلى شعب الجبال الوعرة ، فى ريبا جرسا وسوبراب ، ليتقى هناك مطاردة أعدائه بكل مشقة ، فإنا نراه بعد ذلك بأعوام قلائل يعود فيسترد كل أراضيه ومدنه ؛ ولا نعرف — مما انتهى إلينا من التفاصيل القليلة عن تطور الحوادث — كيف حدث ذلك . بيد أنه من المحقق فيما يظهر ، أنه لم يكن ذلك بفضل تسامح من أخيه أو رضى .

وفى تلك الأثناء استطاع فرديناند خلال معارك ظافرة خاضها مع جيرانه المسلمين ، أن يوسع حدود مملكته توسيعاً كبيراً . فبعد أن قام بمكافحة أشراف ليون الثائرين الذين أبوا الاعتراف بحكمه ، وقد كانوا فيما يظهر من أقارب الأسرة الملكية السابقة ، وإخضاعهم أو إبعادهم ، سار فى جيش حسن العدة إلى

سمورة (زامورا) التى تقع اليوم فى شمال البرتغال ، والتى افتتحها المسلمون قبل ذلك بنحو خمسين عاماً ، ليحاول استردادها . وبعد أن استولى على بعض قلاع الحدود ، زحف على بازو (فيزى) وانتزعها عنوة وصيرها حطاما ، واسترق من نجا من سكانها من الموت ، ولم تأخذه فى أعداء دينه رأفة ولا إنسانية ؛ ومتى كان ثمة تأر خاص للبغض القوى ، فإن القتل المجرد لا يكفى ، ومن ثم فإن الرامى الذى قتل بسهامه الملك الفونسو الخامس أثناء حصار بازو قبل ذلك بعشرة أعوام ، عوقب أروع عقاب ، فبعد أن قطعت يداه ورجلاه عذب حتى أسلم الروح ؛ وعلى هذا النحو أيضاً افتتح فرديناند لاميجو ، وعدة قلاع أخرى أقل أهمية ، وأسكن النصارى فى تلك الأنحاء ليكونوا سداً منيعاً ضد غزوات المسلمين[١] .

وشجع ظفر النصارى فى محاربة أمير بطليوس وأتباعه ملكَ قشتالة على القيام بغزوات مماثلة ضد أميرى طليطلة وسرقسطة ، ولم يقتصر نجاحه فى ذلك على استعادة حدود قشتالة القديمة عند جبال وادى الرملة الوعرة ، وتهديده طليطلة وسرقسطة بالحصار ، بل كان أيضاً أن صاحبى طليطلة وسرقسطة فضلا أن يدفعا الجزية إلى فرديناند ، وأن يكفلا بذلك عونه لهما فى حروبهما ضد جيرانهما المسلمين ، على أن يخوضا معه وهو ملك النصرانية القوى ، حروبا لاشك فى سوء عواقبها .

وهكذا فرض فرديناند سلطانه على أعدائه ، ثم عمد فى ظل السلام إلى العناية بالإصلاحات الداخلية . ففى سنة ١٠٥٠ م دعا إلى اجتماع كنسى فى « جويانسا » اعتبر فى نفس الوقت مجلساً نيابيا ، وشهده فضلا عن الملك والملكة سانشا وعدة من الكبراء تسعة أساقفة بينهم يوحنا أسقف بنبلونة ممثلا لملكة ناقارا . وقوانين هذا الاجتماع أو البرلمان « كورتيس » (Cortes) ليست مهمة من الوجهة الكنسية

(١) وقعت هذه الغزوة فى سنة ١٠٥٧ م ، وكانت الحصون والمدن التى استولى عليها فرديناند يومئذ من أملاك أمير بطليوس ابن الأفطس . وفى تلك الغزوة استولى فرديناند على جميع الحصون التى كان المنصور بن عامر قد افتتحها من أعمال قشتالة القديمة ، ولا تقدم المراجع العربية إلينا عنها تفصيلا شافياً (راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٢ والبيان المغرب ج ٣ ص ٢٣٨ ودوزى (جديد) ج ٣ ص ٧٤) .

فقط ، ولكنها مهمة أيضاً بالنسبة لتاريخ نظم الحكم فى قشتالة . ومما قضت به أن يعمل فى جميع الأديار بدعوة القديس بندكت ، وأن يحرم على رجال الدين حمل السلاح ، والزواج ، أو شهود مآدب الزواج ، ولكن أبيح لهم أن يحتكموا إلى الأساقفة . وحصلت الكنيسة على امتيازات كثيرة أخرى فى مقدمتها أنه لا يمكن الاستيلاء على أملاكها بمضى المدة . ونظراً لأنه يوجد فى بعض المدن مزيج من السكان من مختلف العقائد ، فقد رؤى للتمييز بين النصارى واليهود والمسلمين ، أن يشدد فى الاحتفال بيوم الأحد . وشدد فى تحريم التعامل مع اليهود والأكل معهم . ومما يدل أيضاً على تغلغل أثر الشرائع القوطية ، تجديد القانون الذى يقرر بأن المجرم إذا صار على قيد ثلاثين خطوة من عتبة الكنيسة ، أصبح تحت حماية القضاء الكنسى ؛ كذلك أمر القوامس (الكونتات) ونوابهم فى القضاء الجنائى وهم المسمون (Mirini) أن يحرصوا على تحرى العدالة والحق وفقاً لكتب الأحكام القوطية ، وأن تطبق فى نفس الوقت فى مملكة ليون قوانين الفونسو الخامس المسماة : (Bueno fueros) ، وفى مملكة قشتالة تطبق لوائح الكونت سانشو المسماة (Benefactorias) . كذلك أمر سكان ليون وقشتالة أن يلزموا الولاء والطاعة لفرديناند شأنهم من قبل نحو ألفونسو وسانشو ، وقضى بمعاقبة المجرمين والعصاة بفقد الشرف والمنصب ، وبالنفى من الكنيسة .

وهكذا نرى أن الكنيسة لم تقتصر على أن تعمل لتوطيد هيبة الملوكية ، بل نراها بالأخص تعمل على توجيه السلطة الدنيوية إلى تطبيق العدالة ، وعلى استئصال شأفة الخرافات والسحر من عقول الكافة . وهذا ما تؤيده لنا القوانين التى صدرت فى الاجتماع الذى عقد فى شنت ياقب سنة ١٠٥٦ م .

هذا وبينما كان فرديناند يبسط بين أعداء النصرانية روع جيوشه ، ويعالج فى نفس الوقت تنظيم مملكته المتحدة ، كان أخواه الملكان راميرو وجارسيا يشتغلان آناً ببناء الكنائس والأديار ، وآناً بمحاربة المسلمين على ضفاف الأيبرو . وان الروايات السقيمة الموجزة التى وصلتنا عن تاريخ نافارا وأراجون فى تلك

الفترة لتتركنا بالنسبة لمعظم الحوادث فى ظلام دامس . بيد أنه يبدو من المحقق أن أكبر الأخوين وهو جارسيا كان أضعفهما شأناً ، فهو إذا استثنينا غزوة قلهُرّة لم يقم بفتوح ما ، هذا بينما قام راميرو بفتوح ذات شأن ، وعقد مع الولاة المسلمين محالفات زادته قوة وبأساً .

وكان جارسيا يضطرم حسداً لرؤية أخيه الأصغر فرديناند يفوز بهذه المملكة الشاسعة ، وتلك الفتوحات الهامة ، ويطمح إلى امتلاك هذه الأراضى . وكان يعول على الفتك الغادر بأخيه ليرقى عرش اسبانيا النصرانية . فأوعز بتبليغ ملك قشتالة بأنه مريض على فراش الموت ، وأنه يرجو رؤية أخيه للمرة الأخيرة . فبادر فرديناند إلى رؤية أخيه دون أن يظن به سوءاً . بيد أنه فطن أثناء السير إلى مشروعه الغادر ، أو نمى إليه ، فارتد إلى مملكته مسرعاً قبل أن يتمكن ملك نافارا من تنفيذ مكيدته ، وقد أقسم بأن ينتقم من ذلك الأخ الذى نسى روابط الدم وحقوق الضيافة المقدسة . ولم يفطن جارسيا إلى أن أخاه قد وقف على مشروعه ، ولم يرتب فى الأمر حينما دعاه فرديناند إلى زيارته ، بعد ذلك بأعوام قلائل ، فما كاد يصل إلى أرض قشتالة حتى هوجم وأسر . ولكن سرعان ما استطاع الفرار من أسره والعود إلى مملكته[1] .

وهكذا نشبت بين الأخوين تلك الحرب التى كانت تنذر منذ بعيد بالوقوع . ولم يكتف جارسيا بالتحالف مع راميرو الذى لبث حتى هذه الآونة ألد أعدائه ، على سحق أخيهما ، ولكنه استعان على تقوية جيشه بجنود مرتزقة من المسلمين استأجرها من ابن هود أمير سرقسطة . وحاول الأحبار عبثاً نصح الأخوين المتدبين ، وسال الدم ، واجتاح جارسيا أرض قشتالة ، وتابع سيره حتى « أتابورتا » على مقربة من برغش (برجوس) وهنالك نشبت الموقعة فى سبتمبر سنة ١٠٥٤ . وكان ثبات فرديناند وعنف الهجوم الذى قام به فرسان ليون ، وهم حرس الملك

(١) يبدى كوندى ريبه فى قصة هذا الكمين ؛ بيد أنه لا يقدم إلينا سبباً آخر عن نشوب الحرب بين الأخوين (الترجمة الفرنسية ج ٢ ص ١٧١) .

السابق برمود الثالث ، من عوامل النصر الحاسمة . وكان جارسيا يقاتل بشجاعة غير مكترث للخطر ، فأصابته طعنــة من فارس يدعى سانشو فورتيز كان من جنده ، وهجره إلى أخيه لأنه أغوى زوجه ؛ واحتاط به جنده المخلصون حتى لا يقع فى يد أعدائه ، وأسلم الروح بين ذراعى كاهنه ؛ وركن النافاريون (البشكنس) إلى الفرار . ويقال إن فرديناند أمر بالكف عن مطاردتهم حقناً لدماء النصارى ، وأن تقتصر المطاردة على المرتزقة المسلمين الذين مزقوا قتلا وأسراً .

وأسفر هذا النصر عن اتساع مملـكة قشتالة ، واحتل فرديناند كل أراضى مملـكة نافارا الواقعة على ضفة الأيبرو اليمنى . أما بقية نافارا وهى جزؤها الأكبر الواقع فيما وراء الأيبرو حتى غرب البرنيه ، فقد تركه لولد الملك المتوفى سانشو الرابع ، الذى رفعه النافاريون إلى العرش عقب موت أبيه .

وتوجس راميرو ملك أراجون شرا لنمو سلطان فرديناند على هـذا النحو ، سيما وقد غدت حدود قشتالة أقرب إليه ؛ وكان يخشى انتقام أخيه لسببين : أولهما مسألة الجند المرتزقة التى أعارها لجارسيا ، والثانى ما كان بينه وبين أخيــه من خلاف على تقاضى الجزية من بعض المدن الإسلامية الواقعة فى ولاية سرقسطة . وقد كان فى وسعه أن يعتمد على مناعة الأماكن الجبلية فى أراضيه ، ولـكنه كان يشعر أنه لا يستطيع بمفرده أن يرد عادية الفتح من جانب أخيه ؛ ومن ثم فقـد حمل الخطر المشترك ملكا نافارا وأراجون على توثيق تحالفهما فى لقاء تم بينهما على الحدود فى دير ليرا (سنة ١٠٥٧ م) . واتخذ صورة تحالف ضد المسلمين وهو فى الواقع ضد فرديناند .

ولمـا كان ملك قشتالة وليون قد عاد إلى توجيه عنايته لمحاربة المسلمين ، فقد رأى الحليفان من الصواب أن ينتهزا هذه الفرصة ليعملا على تقوية جيوشهما . وكذلك عنى راميرو بتنظيم الشؤون الـكنسية فى مملـكته ، وذلك فى اجتماع عقد فى « جاقة » سنة ١٠٦٠ فيما يظهر . وتدل القوانين التى وضعت فى هذا الاجتماع على مبلغ ما حققه الأحبار فى أراجون من نفوذ قوى . وهو اجتماع نستطيع أن

نعتبره برلماناً فى نفس الوقت ، إذ شهده تسعة من الأساقفة ، والملك وولى عهده ، وعدة من كبراء أراجون . وفيه اعتبرت جاقة مركز أسقفية ، وأخرج الكهنة من اختصاص القضاء المدنى ، وتقرر أن يرسل إلى رومة عشر إيراد الدولة سواء من المال أو المحاصيل ، وكذا عشر الجزية التى تحصل من مسلمى سرقسطة وتطيلة ؛ وهدد المخالفون بعقوبة النفى الدينى . والظاهر أن الذى حمل راميرو على التزامه بهذه الجزية لرومة ، هو تخوفه من فرديناند ، إذ تصبح أراجون بذلك تحت حماية زعيم الكنيسة ، وهى وسيلة لجأت إليها مملكة البرتغال فيما بعد لتحمى استقلالها من عدوان قشتالة . هذا وقد كانت قوانين هذا الاجتماع الكنسى هى الأساس الذى استند إليه البابا جريجورى بعد ذلك بقليل فى مطالبة اسبانيا كلها بأداء الجزية .

على أننا نرى راميرو بدلا من أن يبذل وسعه لاجتناب الحرب مع فرديناند ، يسعى إليها بنفسه . ذلك أنه لما علم أن فرديناند قد سار غازيا إلى إشبيلية ، ولما كان يخشاه من أن نجاح فرديناند يزيد فى قوته ويجعله أكثر خطراً على ممالك البرنيه الصغرى ، سار لمهاجمة المسلمين فى سرقسطة ووشقة وتطيلة ، وقد كانت من قبل تدفع الجزية إلى أراجون ، ثم تحولت عنها لتغدو تابعة لملك قشتالة القوى ؛ ولم يلق راميرو كبير معارضة فى البداية ، لأن المسلمين لم يتحوطوا لمهاجمته ، ولكنهم لم يحجموا عن طلب المعونة من ملك قشتالة صاحب الجزية عليهم ، ولم يستطع فرديناند أن يلبى نداءهم بنفسه لأنه لم يرد أن يقطع غزوته لإشبيلية ؛ ولكنه أرسل لمعاونة ابن هود صاحب سرقسطة ولى عهده سانشو على رأس جيش من الليونيين والقشتاليين ومعهم فيما يروى « السد » البطل الشهير[1] ، وبادر الجيش المتحد من المسلمين والنصارى بالزحف على قلعة جرادوس التى كان يحاصرها الأرجونيون . ونشبت بين الفريقين على مقربة من جرادوس معركة

---

(١) هو الفارس القشتالى رودريجو أوراى دياز دى بيفار المشهور فى التواريخ النصرانية باسم «السد» (Cid il Campeador) ، وتعرفه الرواية العربية باسم «السيد الكنبيطور» .

شديدة هزم فيها راميرو وقتل . ويقال إن المسلمين مثلوا بجثته دون أن يعترض على ذلك أحد من النصارى مما يدل على شناعة التباغض بين الفريقين النصرانيين . بيد أن المؤرخين الأسبان المتأخرين ينكرون هذه الواقعة ، بل ينكرون قصة الموقعة كلها ، ويقولون إن راميرو مات بعد ذلك بأربعة أعوام موتاً طبيعيا (سنة ١٠٦٧ م) . على أنه لا يوجد ما يحمل على الأخذ بهذا القول ، خصوصاً وأن الرواية العربية تقص علينا أن الأمير أحمد بن هود صاحب سرنسطة قتل « رذمير » فى موقعة دموية فى سنة ٤٦٠ ﻫ (١٠٦٨ م)[١] ويوجد على قبر راميرو فى دير القديس يوحنا فى « بنيا » كتابة مفادها أنه توفى فى ٨ مايو سنة ١٠٦٣ ؛ وهكذا لقى إخوة فرديناند الثلاثة مصارعهم ، فقتل كونزالو فى كمين نادر ، وهلك جارسيا وراميرو فى معارك نشبت ضد الجيوش الليونية والقشتالية .

ولا تحدثنا الرواية عما إذا كان فرديناند قد أفاد من مصرع راميرو أرضاً جديدة . بيد أننا نعرف أن سانشو (شانجه) ولد الملك القتيل تولى فى الحال عرش أراجون واستطاع بمؤازرة شعبه وحبه ، أن يحمى حدود مملكته ضد النصارى والمسلمين على السواء .

وفى تلك الأثناء كان فرديناند قد اختتم حربه ضد إشبيلية ظافراً ، واضطر أميرها لما آنس من روعة الجيوش النصرانية ، أن يتعهد بدفع الجزية السنوية لملكة قشتالة وليون . وبعد أن عقد فرديناند بموافقة كبراء المملكة الصلح مع المسلمين ، عاد إلى مملكته ومعه رفات القديسين يوستا وروفينا ليدفنهما فى كنيسة يوحنا فى ليون حيث كان المدفن الملكى .

وحملت هذه الغزوة الموفقة وما نشب بين الأمراء المسلمين من معارك ، وما كان من تنافسهم على ابتياع العون من ملك النصارى ، فرديناند على التفكير فى مشاريع أخرى ، أهم وأبعد مدى ؛ فسار فى العام التالى (سنة ١٠٦٤) إلى مدينة

(١) لم نجد فى المراجع العربية ذكراً لهذه الواقعة . ويقول لنا المؤلف فى تعليقاته إنه نقل هذه الرواية عن كوندى .

قلمرية (قوامبرة) فى البرتغال ، واستولى عليها بعد حصار دام ستة أشهر ، وأرغم أمير بطليوس كما أرغم أمير إشبيلية من قبل ، على دفع الجزية[١] ، وقدم إلى كنيسة ياقب (شنت ياقب) حامى اسبانيا قسطاً كبيراً من الغنائم ؛ ثم سار إلى ولاية بلنسية وافتتحها لحساب تابعه وحليفه المأمون بن ذى النون أمير طليطلة ، واختص نفسه بلا ريب بقسط من ثمار ظفره ؛ ثم عاد الملك الشيخ إلى ليون عاصمة ملكه مثقلا بالغنائم وهو شاعر بدنو أجله . ولما اشتد عليه المرض طلب أن يحمل إلى كنيسة يوحنا المعمدان الجديدة ، وكانت حافلة بآثار القديسين . وهنالك وضع الجواهر الملكية والتاج والصولجان على الهيكل الكبير ، وجثا مصليا وهو يقول : « رباه لقد منحتنى القوة والشرف ، وأنا اليوم أردهما إلى يديك فامنحنى غفرانك ورحمتك » ، ثم أمر أن يلبس الملابس الخشنة وأن يحثى الهشيم على رأسه . وما كاد يحمل إلى قصره حتى توفى فى اليوم التالى فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٠٦٥ م بعد أن حكم قشتالة سبعة وثلاثين عاماً ، وحكم ليون وتوابعها ثمانية وعشرين عاماً .

وكان فرديناند الأول من أعظم ملوك اسبانيا ؛ وقد ظفر فى جميع الحروب التى خاضها ، وأرغم أمراء طليطلة وإشبيلية وبطليوس على الخضوع ودفع الجزية ؛ ولم يكن فى حروبه مع ملوك ليون ونافارا وأراجون ظافراً فقط ، ولكن الحظ حالفه حتى قتل الثلاثة فى الحروب التى خسروها ، واستأثر هو وحده باجتناء ثمرات النصر . ولم يك ثمة ريب فى أن الأمراء المسلمين الذين أرغموا على أداء الجزية ، كانوا يعتبرون من أتباعه ، ولكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لسانشو الرابع ملك نافارا وسانشو الأول ملك أراجون ، فهما وإن لم يحكما على جميع الأراضى التى كانت لأبويهما من قبل ، كانا مستقلين عن سيادة قشتالة . ومع

(١) فى المراجع العربية أن فرديناند استولى على مدينة قلمرية من يد ابن الأفطس أبوبكر المظفر سنة ٤٥٦ هـ ، وهى توافق التاريخ الميلادى الذى يورده المؤلف (١٠٦٤ م) ، (راجع البيان المغرب ج ٣ ص ٢٣٨ و ٢٣٩) .

ذلك فالظاهر أن فرديناند كان يسعى فى أواخر حياته لحملهما على أداء الجزية . ومما يدل على ذلك اتخاذ فرديناند لقب « القيصر » وذلك عقب انتصاره على أخيه جارسيا منذ سنة ١٠٥٦ على الأقل . وكان يرمى بذلك إلى التدليل على سيادته لجميع اسبانيا ، ويرمى بالأخص إلى معارضة دعاوى القيصر هنرى الثالث إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة . ولم يكتف فى ذلك بالاعتراض بقوة على صفة هنرى الثالث كزعيم للأمم النصرانية ، وصاحب الجزية على جميع الملوك النصارى ، ولكنه ذهب إلى حد تأييد البابا إسكندر الثانى ، ضد منافسه البابا هونوريوس الثانى فى الانتخاب البابوى ، وهونوريوس هو البابا الذى اختاره الإمبراطور هنرى الرابع (سنة ١٠٦١) باعتبارة حامى الكنيسة وفقاً للحقوق التى آلت إليه من أبيه هنرى الثالث[١] .

وكانت خلال فرديناند تحمل طابع عصره بصورة قوية . فنى ميدان الحرب يبدو فارساً أكثر منه ملكا ، وفى شؤون الدولة نرى البغض الشخصى أو الحب على أهم القرارات . وكان عقب المعارك التى يخوضها مع المسلمين من غير رأفة ولا إنسانية ، يبادر فيلقى أمام هيا كل الكنائس والأديار بالهبات الثمينة . وكانت تحمله من آن لآخر نزعة من التقى والزهد والورع ، فيلجأ إلى دير ساهاجون ؛ وهناك يشاطر الرهبان حياتهم دون فارق ويضع نفسه تحت طاعة كبراء الدير . بل كان أثناء مقامه بقصره فى ليون يشهد الصلاة فى الكنيسة الكبرى مع الأحبار بانتظام . وكان كثير البر بالفقراء ، ومن ثم نراه يخصص الغنائم التى يحصلها من الحروب بشق النفس ، لتخفيف آلام الفقر والبؤس والعناية بالكنائس والأديار .

---

(١) كان الإمبراطور هنرى الرابع عند اضطرام المعركة الانتخابية البابوية بين إسكندر وهونوريوس سنة ١٠٦١ طفلا فى الحادية عشرة ، وكانت أمه الإمبراطورة أجنيس وصية عليه ، ولما انتخب البابا إسكندر الثانى لكرسى البابوية عارض فى ذلك حزب الإمبراطورية ولم يعترف به . واختار للبابوية هونوريوس . ولكن هونوريوس لم يكن « بابا » إلا بالاسم فقط ، وقد حاول غير مرة أن يزحف على رومة ليجلس مكان خصيمه إسكندر الثانى فلم يفلح ، وتوفى سنة ١٠٧٥ دون أن يجلس بالفعل على كرسى البابوية .

وبالرغم من المحن التى جازتها اسبانيا من جراء انقسام المملكة النصرانيـة ، فإن أحداً لم يعتبر بهذه الحقيقة . ووقع فرديناند فى نفس الخطأ الذى وقع فيه أبوه سانشو الكبير ، وترتب على وقوعه نفس النتائج المحزنة . نعم لقد عنى فرديناند بتربية أولاده أيما عناية ، ولكن ماذا يجدى ذلك فى تقويم خلق الجنوبيين المضطرم ؟ وقد حذا فرديناند حذو أسلافه السيء ، ورأى اجتنابا لكل نزاع بين أبنائه الذين يعرف حدة نفوسهم أن يقوم فى حياته بتسوية يحاول أن يحسم بها عوامل النزاع من أساسها . بيد أنها كانت هى سبب الحرب الأهلية فيما بعد . ذلك أنه فى سنة ١٠٦٤ قبل وفاته بعام استدعى فى ليون مجلساً للشورى ، وفيـه قرر بموافقة الأساقفة وكبراء المملكة ، أن يقسم أراضيـه بين أبنائه الثلاثة ، فاختص سانشو أكبرهم بقشتالة والسيادة على المسلمين من رعايا صاحب سرقسطة (ابن هود) الذى يؤدى الجزية لقشتالة ويخضع لها . واختص ألفونسو[١] بليون واشتوريش وحق الجزية السنوية التى يؤديهـا صاحب طليطلة (ابن ذى النون) ؛ واختص أصغرهم جارسيا بجليقية والبرتغال اللذين ضما إلى مملكة واحدة ، وحق الجزية على أمير إشبيلية (ابن عباد) وأمير بطليوس (ابن الأفطس) ؛ وأسند حق الإشراف على الأديار فى جميع المملكة إلى ابنتيـه الدونا أوراكا والدونا إلقيرا ؛ واختصت أوراكا فوق ذلك بمدينـة سموره (زامورا) وهى قلعة منيعة على نهر دويرة ؛ واختصت إلقيرا بمدينة تورو وأماكن أخرى على دويرة .

٢ — أبناء فرديناند الأول

سانشو ، وألفونسو ، وجارسيا

واستطاعت أرملة فرديناند الدونا سانشا بما لهـا من السلطة أن تسهر مدى حياتها على وحدة المملكة ، ولكن ذلك لم يطل سوى عامين . وما كادت أم الملوك

(١) وفى الرواية العربية أدفونش أو أذفونش ، ويسميه ابن خلدون بنسبة أصح هى الفنش (ج ٤ ص ١٨٢) .

الثلاثة تتبع زوجها إلى القبر ، حتى انطلقت أهواء الإخوة الجامحة من عقالها ؛ وكان سانشو ملك قشتالة[1] الذى استولى أيضاً على جزء من اشتوريش ، وعلى الجزء الذى غنمه فرديناند من نافارا يضطرم سخطاً لأنه وهو أكبر إخوته لم يضع يده على مملكة أبيه كلها ، فحاول بادىء ذى بدء أن ينتزع من ابنى عمه سانشو ملك نافارا وسانشو ملك أراجون ، بعض مدن الأيبرو العليا فلم يفلح ؛ بيد أنه لم يخسر شيئاً من مدنه أو أراضيه فيما يظهر بالرغم من كونه قد هُزم فى موقعة مالقديا (فيانا فيما بعد) سنة ١٠٦٧ م . ثم انقلب من هذه الحرب إلى مقاتلة أخويه ألفونسو وجارسيا ، أملاً فى أن يخوض معهما معركة يسيرة خصوصاً وقد اغتنم حلف كثير من أتباعهما . ونشبت بين الفريقين مدى ثلاثة أعوام حرب ضروس خربت وديان ليون وقشتالة . والتحم الفريقان فى موقعتين دمويتين ، الأولى فى بلانتادا فى ليون (١٨ يوليه سنة ١٠٦٨) ، والثانية فى جلبياريس الواقعة على نهر كاريون فى قشتالة (١٥ يوليه سنة ١٠٧١) وتكبد كلاهما خسائر فادحة ، ولكن دون أن يحرز النصر أحد منهما . ولقد كان ألفونسو فى الموقعة الأخيرة فى مركز التفوق ، ولكن حرصه على حقن الدماء حال دون تمتعه بثمرات ظفره ، بل أدى إلى اضطراب أمره ؛ ذلك أنه لم يشأ مطاردة جيش سانشو الفار ، وترك جنده الليونيين والجليقيين يحتفلون بالنصر دون تحوط وتدبر ، ومكن ذلك سانشو من اغتنام الوقت فجمع جنده ثانية ونزل حسبما تقول الرواية عند نصح قائده « السد » البطل الأشهر ، فانقض على جيش ألفونسو ليلا وأوقع به هزيمة ساحقة ، واستطاع ألفونسو أن ينجو بحياته ، ولكنه لم ينج من الأسر وأبقى سانشو على حياته ، نزولا على رجاء أختهما الكبرى أوراكا ؛ ولكن ألفونسو اضطر أن ينزل لأخيه عن عرش ليون ؛ وزج إلى ظلمات دير ساهاجون ؛ وهناك استطاعت أخته الماكرة أوراكا أن تدبر فراره ؛ وبادر الأمير الفار بالالتجاء إلى تابعه ابن ذى النون

(١) ويسميه صاحب البيان المغرب شانشه (ج ٣ ص ٣٢) ، ولكن التسمية العربية الغالبة هى شانجه .

صاحب طليطلة فاستقبله بالترحاب والتكريم[1] .

ولم يكن حظ جارسيا ملك جليقية والبرتغال بأفضل من حظ ألفونسو ، وكانت مهمة إسقاطه هينة على سانشو خصوصاً وقد قضى بطغيانه واصطفائه لوزير يبغضه الشعب على كل ولاء ومحبة له فى أرضه . وما كاد سانشو يظهر على حدود جليقية حتى هب الشعب فقتل ذلك الوزير البغيض أمام عينى مليكه (جارسيا) ، وانضم إلى عدوه (سانشو) كثير من الكبراء والناقمين الذين أعيتهم مطاردته . والظاهر أن جارسيا فر دون أن يحاول معالجة حظه بالحرب ، فغادر مملكته فى سرية فقط من حرسه ، وسار إلى تابعه ابن عباد أمير إشبيلية ، وهكذا تم لسانشو الاستيلاء على مملكتى أخويه .

ورأى سانشو أن يقطع على أخويه كل سبيل ، وأن يحول دون عودهما مع المرتزقة المسلمين أو يجعل على الأقل عودهما أمراً شاقا ، ولكن كان يعوزه لتحقيق ذلك الاستيلاء على قلعتى سمورة وتورو المنيعتين الواقعتين على نهر دويرة ، وقد كانتا فى يدى أختيه أوراكا وإلفيرا ، وهما تعطفان على الأخوين الفارين . كذلك كان قد احتشد فى هاتين القلعتين عدد جمّ من الفرسان الليونيين والجليقيين يترقبون الفرصة الملائمة لكى يعودوا فيدخلوا أرض الوطن شاهرين الحسام . ورفضت الأختان ما عرضه عليهما سانشو من تعويضهما عن القلعتين بأراض أخرى ، وتدرعتا بالشجاعة فلم تعبآ بما توعّد به من أخذهما بالنار والسيف . ومع أن تورو سقطت فى أيدى القشتاليين لضعف حصونها ، فإن أوراكا سيدة سمورة لم تخش بأساً ، وركنت إلى معونة الفرسان الشجعان الذين يحمونها بقيادة البطل آرياس كونزاليس ؛ وهكذا قامت مدينة واحدة بمقاومة سيد الممالك الثلاث وكانت قبره . ذلك أن سانشو حاول أن ينتزع سمورة عنوة فلم يفلح فعوّل عندئذ أن يأخذها بالحصار ، ولكنه سقط قتيلا فى كمين نظم لاغتياله (٤ أكتوبر سنة ١٠٧٢) ، ولم يكن بعيداً عن تدبير اخته أوراكا أو أخيه الفونسو أو تدبيرهما معاً .

---

(١) يشير صاحب البيان المغرب إلى هذا الحادث (ج ٣ ص ٢٣٢) .

وفى الحال ارتدّ الجيش المحاصر هلعاً عن أسوار سمورة عقب وفاة مليكه .
وبادرت أوراكا فبعثت إلى ألفونسو وهو فى طليطلة تنبئه بخلو العرش ، وتدعوه إلى العود بأسرع ما يستطاع . أما الروايات التى انتهت إلينا عن حكم الملك سانشو وعن ارتقاء أخيه العرش والتى اشتق معظمها من الشعر والقصص ، فتسبغ على هذه العودة كثيراً من ألوان الخيال المغرق ؛ بيد أنها ليست من التاريخ فى شىء .
ولقى ألفونسو حين عوده إلى ليون مملكته القديمة اعترافا تاما بحقوقه الملكية ؛ ولكنه لقى أعظم الصعاب فى قشتالة وفى الأراضى التى كانت تابعة لملكة نافارا من قبل ، فقد اشترطتا لكى يلى ألفونسو العرش أن يقسم فى حفل رسمى أنه برئ من كل تبعة فى مقتل سانشو ؛ فلما أعلن ألفونسو استعداده لأداء هذا القسم لم يتقدم أحد من كبراء قشتالة لتلقيه إياه إلا الكونت رودريجو دياز دى بيفار المعروف بالسد الكمبيادور وقائد جيوش سانشو ، فإنه تطوع لأداء هذه المهمة ولقن الملك اليمين مرتين فأدّاها ألفونسو على مضض ولم يغفر للسد قط جرأته ، وهكذا أعلن ألفونسو أيضاً ملكا على قشتالة .

وفى تلك الأثناء عاد الملك المبعد جارسيا (غرسية) أيضاً إلى مملكته جليقية ؛ والظاهر أن نزاعا نشب بين الأخوين بخصوص قشتالة التى كان جارسيا يدعى جزءاً منها . ونزل ألفونسو على نصح أخته الماكرة أوراكا ، فدعا أخاه إلى لقاء زعم أنه لتسوية النزاع بالتفاهم . ولكن جارسيا ما كاد يمثُل إلى مكان اللقاء حتى رأى أنه غدا أسير ألفونسو وأدرك مبلغ خديعته (فبراير سنة ١٠٧٣) ، وأنفق جارسيا فى حصن لونا المنيع فى ليون زهاء ثمانية عشر عاما يرسف فى أغلاله .
ولم يشأ ألفونسو أن يحل أغلاله خشية انتقامه إلا بعد أن أكد له الأطباء قرب موته . ولكن الأمير المنكود أبى ذلك قائلا إنه حمل أغلاله طوال هذه المدة ، وإنه يريد أن يحملها معه إلى القبر . وفى رواية أنه عجل موته بقطع شرايينه وذهب إلى القبر وهو يلعن أخاه (مارس سنة ١٠٩٠) .

وهكذا فإن ألفونسو السادس لم يعتبر بمحنته وعثار جده ، فيغدو أكثر

اعتدالاً ورفقاً ؛ ولكنه استطاع بالخيانة والجريمة أن يجمع الممالك الثلاث تحت عرشه . كذلك استطاع بعد أعوام قلائل أن يضم إلى مملكته بعض أراضى مملكة نافارا الواقعة على نهر أيبرو (أبرة) .

والظاهر أن سانشو الرابع ملك نافارا لم يكن يحكم سوى مملكة صغيرة . ذلك أن فرديناند استولى بعد وفاة أبيه جارسيا على الأراضى الواقعة على ضفة أيبرو اليمنى ، ولم ينل سانشو عرشه إلا بفضل مناعة جباله وتعلق شعبه به . كذلك لا ريب فى صحة الرواية القائلة بأنه عقد حلفاً مع مسلمى سرقسطة ضد أراجون . ذلك لأنه كان يخشى من هذا الجانب أكثر مما كان يخشى من جانب قشتالة . ولم يكن يجمع كلمة الأمراء فيما وراء البرنيه سوى خصومة قشتالة . أما فيما عدا ذلك فقد كانوا يخاصمون بعضهم بعضاً ، وكان سانشو يكفل بذلك حماية عرشه من الأعداء الخارجين . بيد أنه لقى مصرعه على يد أقرب الناس إليه . ذلك أن رعوند وأرمزنده — أسوة بما فعله ألفونسو وأورا كا ضد سانشو ملك قشتالة — أملا أن يحققا بالاغتيال مثل هذه الأمنية . فحدث أثناء الصيد أن كان الملك يرقب من صخرة عالية أفقية مصرع خنزير برى ، فانقض عليه القتلة وطعنوه من الوراء وألقوا به من حالق فسقط مهشما (سنة ١٠٧٦ م) . ولكن النافاريين سخطوا لهذه الجريمة أعا سخط ، ورفعوا إلى العرش سانشو الثانى ملك أراجون ، وذلك بالرغم من استدعاء رعوند لملك قشتالة القوى . ونفذ ملكا أراجون وقشتالة إلى نافارا وتفاهما على اقتسامها بالرغم من وجود ولدى الملك القتيل القاصرين . فاستولى الفونسو على القسم المحاذى لنهر أيبرو المشتمل على ولايتى ريوبا وبسكونية واستولى سانشو على الجزء الواقع على البرنيه ، وهو أكبر القسمين وفيه العاصمة بنبلونة ، وفر رعوند إلى أمير سرقسطة حيث قضى حياته المثقلة باللعن فى غمر الظلام . أما ولدا سانشو الرابع فقد أبقاهما ألفونسو فى ليون لينشآ فى بلاطه .

٣ — ريموند برنجار الأول كونت برشلونة

بينما كانت الممالك الأسبانية تتحول على هذا النحو بالإرهاب والعنف والقتل والحرب الأهلية إلى مملكتين هما قشتالة وأراجون ، ويحرز سلطان النصرانيـة بذلك تفوقاً ذا شأن على سلطان المسلمين ، كانت أسبانيا النصرانية تلقى عضداً فى ولاية برشلونة أو قطلونية التى كان يحكمها طوال هـذه الفترة الكونت ريموند برنجار المسمى بريموند الكبير (من سنة ١٠٣٥ — ١٠٧٦ م) . ولم يظهر الكونت فقط كأحد حماة النصرانيـة يقاتل المسلمين بشجاعة ، وينتزع منهم الأراضى الواقعة على الضفة اليمنى لنهر « لوبرجات » ، ويفرض الجزية على صغار أمرائهم المجاورين له ، ولكنه استطاع أيضاً أن يزيد فى قوة إمارته وذلك بأن ضم إلى برشلونة ولاية أورجل مرة أخرى ، ثم ضم إليها ولاية قرقشونة[1] الواقعة فى الناحية الأخرى من البرنيه ، وذلك بشرائها من ابنتى صاحبها الكونت روجر الثالث (سنة ١٠٦٧) . ولم يكن ضم هـذا الجزء الهام من أراضى لانجدوك إلى قطالونية فقط ممهداً الطريق لمغانم أعظم ، ولكنه أسفر بالأخص عن نتيجة كانت فيما بعد ذات أهمية خاصة وهى إعادة الصلة بين فرنسا وقطلونية ، بعد أن انقطعت من بينهما منذ استقلال قطلونية ، وتهيئة السبيل بذلك لنزوح الفرسان الفرنسيين المجاهدين الذين ألفوا فى محاربة المسلمين مطمح مثلهم الخيالية ، والذين هرعوا فى سريات كبيرة لمساعدة أمراء أسبانيا النصارى ، فى حروبهم ضد المسلمين وعاونوهم على تحقيق أعظم الفتوحات .

كذلك كانت قطلونية فيما يتعلق بالإصلاحات الداخليـة قدوة تحتذى لجميع اسبانيا ، فقد رأى ريموند برنجار أن القوانين القوطية التى تطبق فى الولاية لم تعد تتفق مع سير الأحوال فاستدعى جمعية من الكبراء عقدت فى برشلونة سنة ١٠٦٨ ، ووافق هذا البرلمان الذى شهدته زوجه وواحد وعشرون من الكبراء على لائحة

---

(١) هى كاركاسون الحديثة (Carcassone) ، وهى من مدن البرنيه الفرنسية .

جديدة تسمى « عرف برشلونة » (Usages de Barcellona) لتكون قانوناً يطبق إلى جانب القانون القوطى الذى كان يطبق وحده من قبل . كذلك حاول رعوند أن يحد من حق القوة الذى كان يلجأ إليه الفرسان فى غاراتهم ، وذلك بواسطة الاحتكام إلى « سلام الله » ، واستدعى لذلك جمعية أخرى شهدها فضلا عن الكبراء والأحبار نواب عن المدن وهى أول جمعية أوربية مثلت فيها الطبقة الثالثة . وأعيد حق الالتجاء إلى الكنيسة الذى نبذه الفرنج ، واتخذت قرارات للبر بالمساكين والعزل ، وحماية الزراع من ظلم الأقوياء .

أما الحملة التى بعثها الكونت رعوند لمعاونة أمير إشبيلية على افتتاح بلنسية من يد أمير طليطلة ، فترتبط ارتباطاً شديداً بتاريخ الإمارات المسلمة ، ومن ثم فإنه يجدر بنا أن نقص تاريخ هذه الإمارات بادىء ذى بدء[1] .

---

(١) يجمل ابن خلدون تاريخ إمارة برشلونة فى فقرة موجزة فى ختام حديثه عن الممالك النصرانية (ج ٤ ص ١٨٠) .

الفصل الثانى

تاريخ الدول الإسلامية

التى قامت على أنقاض الدولة الأموية فى اسبانيا

كانت أسرة أمية ذات الحول والسلطان — وهى التى بسطت خلافتها من دمشق ، حكمها على العالم الإسلامى ، والتى استطاعت بعد سقوطها على يد بنى العباس ، أن تحكم اسبانيا أحد أقطار دولتها الشاسعة ، وأن تقيم بها دولة باهرة ، ظلت بضعة قرون — قد انتهت رياستها كما ينتهى كل شىء فى هذا العالم وحاقت النقمة بعقبها ، فغاضوا فى زوايا التاريخ دون أن يتركوا لهم أثراً .

وإن دولةً تسقط صرعى نقائصها ، وليس من جراء ظفر أعدائها الخارجين ، لا تثير فى الواقع كبير عطف . بيد أنه مما يدعو إلى التأمل ، أن يكون سقوط الدولة القديمة ، مهداً لنشوء بذور وحدات جديدة . ذلك لأن كل هدم فى الواقع إنما هو عمل من أعمال الإنشاء والتجديد .

لقد ذهبت الخلافة الأموية فى اسبانيا ضحية لغطرسة الحرس الخليفى وبغيه ، وأطماع الولاة ، وانحلال شعب فقد حبه وولاءه للأسرة الحاكمة القديمة ؛ فمن كان ذا بأس ووجاهة كان يجنح إلى استخدام قواه ، لا فى سبيل الدولة ، وإنما لتحقيق مجده الشخصى . وهذه الأحزاب التى تقاسمت أشلاء الدولة وقادتها بذلك إلى الدمار ، لم تمت بذهاب الدولة الأموية ، وإنما كان ذهابها فى الواقع بدء النضال فيما بينها ؛ وانقسمت الدولة الإسلامية فى اسبانيا بادىء ذى بدء إلى دويلات

عديدة حتى كان لكل مدينة تقريباً أميرها المستقل ، متخذاً لقب الملك أو الأمير أو الوالى أو القاضى ، تبعاً لحجم المدينة أو المنطقة التى يحكمها . ولكن سرعان ماتبين أن هذه الحال لايمكن أن تطول ؛ أولا : لما كان يجيش به الجميع من الأطماع ، وثانياً : لتباين القوى والرياسات . ذلك أن الأقوى كان يحاول أن يبطش بالأضعف ، فيحاول الأضعف أن يدرأ الخطر بالتحالف مع جار أقوى ، يغدو تابعاً له ويعاونه على إحراز النصر على عدوهما المشترك أو يهزم معه . هذا إذا لم تنجده معونة الأمراء النصارى ، وهى معونة يؤجرها بثمن غال .

وهكذا تكونت بعد معركة دامية بين الأحزاب ، من هاته الدويلات الإسلامية العديدة ، أربع دول رئيسية غلبت على جميع الدويلات الأخرى أو تحالفت معها . فنى جنوب اسبانيا ، فى غرناطة وفى جزء من الأندلس غلب الحزب الأفريقى (المغربى) الأدارسة أو بنو حمود أصحاب مالقة ، وحالفهم أميرا غرناطة وقرمونة ؛ وكانوا فضلا عن ذلك يحكمون عدة مدن فى شمال المغرب مثل مليلة وطنجة وسبتة . وكان بنو عباد أمراء إشبيلية يخوضون الحرب مع الحزب الأفريقى بلا انقطاع حتى تم لهم الظفر . وكانوا قد غلبوا بالحرب والخديعة على جميع الأمراء والولاة فى جنوب غربى اسبانيا . واضطر أميرا قرطبة وبطليوس إلى الانضواء تحت لوائهم حلفاء أو مغلوبين ، ولم يقف فى سبيل محاولة بنى عباد الاستيلاء على اسبانيا المسلمة كلها سوى بنى ذى النون أمراء طليطلة الأقوياء ، الذين حكموا أواسط أسبانيا . بيدأنهم لم يحققوا ذلك إلا على حساب استقلالهم . ذلك أنهم كانوا يدفعون الجزية لملك قشتالة التماساً لعونه ضد خصومهم . وأما الفريق الرابع الذى حكم فى شرق اسبانيا فكان أضعف من الباقين وحدة وأقلهم استقلالا . ذلك أنه كان طبقاً للظروف يعقد التحالف مع الأدارسة أومع بنى عباد أو مع بنى ذى النون . وكان بنو عامر فى بلنسية ومرسية نظراً لموقعهما الجغرافى أكثر اضطراراً لهذا التقلب من بنى هود والتجيبيين ، سادة سرقسطة وتطيلة ووشقة .

١ — الأدارسة أو بنو حمود

وحلفاؤهم فى جنوبى اسبانيا

كان الأدارسة الذين يرجعون نسبتهم إلى على بن أبى طالب وفاطمة ابنة النبى (ص) قد أسسوا منذ أواخر القرن الثامن الميلادى دولة فى المغرب كانت عاصمتها فيما بعد مدينة فاس . وقد سقطت دولتهم تحت ضربات الدولة الأموية الأندلسية والدولة الفاطمية اللتين تعاقبتا فى غزوها وإخضاعها فى القرن العاشر ؛ وعاش بعض أفراد الأسرة المعزولة فى مصر والمغرب واسبانيا . فلما اضطرمت اسبانيا المسلمة فى أوائل القرن الحادى عشر ، بالحرب الأهلية ، ولىّ بعض الأحزاب المتنافسة علىّ بن حمود سليل الأدارسة الذى كان حاكما لسبتة ، قيادة الجيش الأفريقى (المغاربة) ، (وكان أخوه القاسم بن حمود قد ولى فى عهد الخليفة هشام المؤيد ولاية الجزيرة ومالقة) ، ثم نادوا به خليفة وحاكما لأسبانيا المسلمة (١٠١٥) م[1] . ومن ذلك الحين سمى الأدارسة بالأندلس بالعلويين أو بنى حمود . ومع أن عليا لم يلبث أن مات بعد ذلك بعامين ، فى مؤامرة دبرت لقتله ، فإنه كان قد وطد العرش لأسرته ، وانتخب للعرش بعده أخوه القاسم بن حمود ، ولكن حدث لسوء الحظ أن اضطرم الصراع حول العرش بين القاسم وبين ابن أخيه يحيى . ففقد بنو حمود الخلافة ، واستردها الأمويون لمدى قصير[2] . وانفض

(١) تولى على بن حمود الخلافة فى المحرم سنة ٤٠٧ هـ ، وهو ما يوافق يونيه سنة (١٠١٦ م) ، وتلقب بالمتوكل على الله .

(٢) كان خروج يحيى بن حمود على عمه القاسم الملقب بالمأمون فى سنة ٤١٢ هـ ، وفرّ القاسم من قرطبة ودخلها يحيى وتلقب بالمعتلى ؛ ثم عاد القاسم فدخل قرطبة فى ذى القعدة سنة ٤١٣ هـ ، ولكن اضطر إلى مغادرتها لثورة قامت بها فى جمادى الثانية سنة ٤١٤ هـ . وعول أهل قرطبة على رد الأمر لبنى أمية ، وبايعوا عبد الرحمن بن هشام المستظهر فى رمضان سنة ٤١٤ هـ ، فلم يلبث أن خرج عليه من أسرته حفيد للناصر يدعى محمد بن عبد الرحمن فقتله لثلاثة أشهر من ولايته ، وجلس على العرش وتلقب بالمستكفى بالله ، وهو والد ولّادة الشاعرة الأندلسية الشهيرة ، ولكنه أقصى عن قرطبة لستة أشهر فقط من خلافته ، ثم اغتاله أحد أنصاره . وعادت قرطبة إلى طاعة يحيى المعتلى ؛ ثم خرجت عن طاعته ، ورد الأمر =

من حول القاسم جميع أنصاره ، ووقع فى أسر ابن أخيه يحيى بن على . ولم يستطع يحيى أن يسترد خلافة قرطبة بادئ ذى بدء ، ولكنه استطاع أن يحتفظ بأراضيه وثغرى مالقة والجزيرة وبطنجة وسبتة فى إفريقية . ولما عادت قرطبة إلى طاعته للمرة الثانية واتخذ لقب الخلافة مرة أخرى ، ثار عليه والى إشبيلية القرى القاضى ابن عباد ، ونشبت بينهما حرب قتل فيها يحيى (٤٢٧ هـ — ١٠٣٦ م) . وأقام أخوه إدريس نفسه أميراً مستقلا على مالقة والجزيرة وبعض ثغور العدوة المقابلة لجنوبى اسبانيا ، وذلك أثناء خلافة هشام الثالث (المعتمد بالله) بعد نفيه من قرطبة . واشتهر إدريس من بين ألقابه المتعددة بلقب المتأيد بالله .

وتاريخ إدريس هذا ، وتاريخ خلفائه ، فياض بالمتناقضات ؛ والروايات العربية المختلفة لا تكاد تتفق فى شأنه على شىء ، بل إنها لا تتفق حتى على تعاقب الأمراء ، وعلى مدد حكمهم ؛ فالحروب المستمرة بين الأدارسة أنفسهم فى سبيل السلطان ، وتداول الملك بالسيف ، وانقسام الأسرة الحاكمة إلى فرعين ، أحدهما مركزه فى مالقة ، والآخر فى الجزيرة ، وعود الأمراء المعزولين إلى العرش ؛ واتحاد الأراضى المنفصلة تحت حكم أمير واحد ؛ ذلك كله مما يلقى كثيراً من الغموض على تاريخ لا نعرفه سوى معرفة ناقصة مما انتهى إلينا من الشذور والروايات المشوهة [1] .

ومع أن إدريس المتأيد أحسن السيرة فى حكمه (سنة ١٠٢٧ — ١٠٣٩ م) ، وحاول أن يهدئ ثورة الأنفس باستدعاء الأمراء المنفيين ، وإعلان العفو الشامل ؛ ومع أن الشعب قد أحبه لكثرة بره وإحسانه ، وأحبه العلماء والمثقفون لتعضيده العلوم والآداب ، فقد ثار عليه ابن عمه محمد بن القاسم بن حمود ، واستطاع بواسطة

= لبنى أمية مرة أخرى ، وبويع هشام بن محمد الأموى ، ودخل قرطبة سنة ٤٢٠ هـ . وتلقب بالمعتمد بالله ، وخلع بعد عامين لولايته ، ففر إلى الثغر الأعلى ولحق بابن هود صاحب سرقسطة حتى توفى سنة ٤٢٧ هـ ، وهو آخر ملوك بنى أمية بالأندلس .

(١) الواقع أن الروايات المتعلقة بتاريخ الأدارسة فى الأندلس كثيرة الغموض والتناقض . ويراجع فى ذلك ابن الأثير ج ٩ ص ٩٢ — ٩٦ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٥٤ و ١٥٥ وج ٦ ص ٢٢١ ، وأبو الفداء ج ٢ ص ١٤٥ و١٤٦ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٠٢ و ٢٢٤ و ٢٢٥ ، والمراكشى ص ٣٣ — ٣٩ .

الجند الرقيق الذين كانوا يؤلفون بالجيش فرقة خاصة أن يستولى على الجزيرة ، وأن يقيم بهـا حكومة مستقلة . ثم إن ابنى أخيه يحيى وهما إدريس والحسن ، وكانا معتقلين بسبتة ، استطاعا أن يفرا من سجنهما بمؤازرة بعض الزعماء من حراسهما لقاء أمل فى تحقيق جاه أو مطمع ؛ وفى تلك الأثناء قتل إدريس المتأيد ، وليس بعيداً أن يكون قتله أمراً مدبراً ؛ ولـكن إدريس والحسن اختلفا على الملك واقتتلا . فأما إدريس وهو الملقب بالعالى ، فقد أيده القائد ابن بُقَنّـه فى مالقة وأعلنه أميراً عليها . وأما الحسن فقد أعلنه الحاجب نجا الصقلبى أميراً على سبتة ؛ ثم جاز إلى أسبانيا يحاول الاستيلاء على مالقة ؛ فلما لم يوفق فى محاولته ، رأى أن يقنع بعقد معاهدة تقسم بهـا أراضى المملـكة ، ويحتفظ بمقتضاها إدريس بن يحيى بمالقة وما إليها ؛ ويحتفظ الحسن بن يحيى بالثغور الأفريقية ، وسرعان ما ظهر أن الحاجب نجا إنما يعمل لنفسه . ذلك أنه لم يمض سوى قليل حتى قتل الحسن فى سبتة بتحريضه ، بعد أن اتخذ كل أهبة لإنجاح مشروعه الغادر . وتزوج من أرملة الحسن ، واستولى على أراضى الأدارسة فى إفريقية بواسطة جيش ضوعفت أرزاقه ونادى عليها بإمارة محمد بن القاسم (المهدى) أمير الجزيرة ، وقد تردد فى البداية بين قبول الإمارة تحت ظل الحاجب القوى وبين معاونة بنى عمه . ولما وطد نجا سلطانه فى إفريقية ، عبر البحر فى أسطول كبير إلى أسبانيا ، واستطاع بالغدر والخيانة أن ينتزع مالقة ، وأن يأسر إدريس بن يحيى (سنة ١٠٥٣ م) .

فلما وقف محمد بن القاسم أمير الجزيرة على فعلة الحاجب ، بادر بالزحف فى جنده إلى مالقة ليعاقب العصاة ، ولم يدخر الحاجب وسعاً فى التأهب لمحاربته . بيد أنه ما لبث أن رأى فى روع تردد الجند فى تأييده ، فاضطر أن يسعى لسلامة نفسه ، وبادر إلى مالقة لـكى يقضى على الأمير الأسير إدريس بن يحيى ، ثم يمتنع هنالك حتى يأتيـه المدد من إفريقية ؛ بيد أنه قُتل قبل أن يصل إلى المدينة بيد جماعة من الزعماء الموالين للأدارسة ؛ وفى الحال بادر هؤلاء إلى مالقة فأطلقوا سراح إدريس بن يحيى المعتلى ، ورفعوه إلى العرش مرة أخرى (أواخر سنة ١٠٥٣م) .

ولم يكن باديس الظافر أمير غرناطة أقل عونا لإدريس على استرداد عرشه من الزعماء الأدارسة . ومن ثم فإنه يبدو من الخطأ الواضح ما تذهب إليه بعض الروايات العربية من أن الأمير باديس صاحب غرناطة قد افتتح مالقة ونزع إدريس عن عرشه (فى سنة ١٠٥٣ م) [١]. وحكم إدريس الثانى بعد ارتقائه للمرة الثانية عدة أعوام ، وبسط سلطانه على جميع الأراضى التى كانت تابعة للأدارسة ، ومنها الجزيرة انتزعها من محمد المهدى لما أساء فى حقه ، ونفاه إلى إفريقية . بيد أنه مالبث أن ذهب ضحيةً لبغض أسرته ؛ ذلك أن محمد بن إدريس وهو من عقب محمد ابن القاسم بن حمود صاحب الجزيرة ائتمر به ونزعه عن العرش وألقاه إلى السجن ، فلبث يرسف فيه أعواماً حتى توفى سنة ٤٦٠ ﻫ (١٠٦٨ م) . ولسنا نعرف إن كان محمد هـذا هو نفس محمد المهدى الذى تولى الحكم قبل ذلك بأعوام ، ثم أسقطه إدريس بمعاونة صاحب غرناطة ، وبعث به إلى المنفى فى إفريقية ؛ فإنه من المتعذر علينا أن نتحقق من ذلك نظراً لتماثل الأسماء وإيجاز الرواية وغموضها [٢] . وقد كانت هذه المعارك المستمرة بين الأدارسة أنفسهم أهم الأسباب التى أدت إلى سقوط دولتهم على يد بنى عباد أمراء إشبيلية ، الذين استطاعوا بما لهم من قوة شامخة ، أن يبسطوا سلطانهم على جنوب أسبانيا كله . وخلف محمداً القاسم أكبر أولاده الثمانية وتلقب بالمستعلى ، وأنفق كل وقته فى حروب مستمرة مع إشبيلية ، وسقطت الجزيرة فى يد بنى عباد سنة ٤٦٤ ﻫ (١٠٧٢م) [٣] ؛ ثم سقطت مالقة فى

---

(١) لم يذكر لنا المؤلف أين استقى هذه الرواية . على أنه يلوح لنا أن الأمر قد اختلط عليه هنا ، والواقع أن باديس صاحب غرناطة قد استولى فعلا على مالقة . ولكن بعد ذلك بأعوام قلائل إذ انتزعها من يد محمد بن إدريس المستعلى سنة ٤٤٩ ﻫ (١٠٥٧ م) ، والمستعلى هو آخر من تولاها من بنى حمود (راجع نفح الطيب ج ١ ص ٢٠٧ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٢١٨) .

(٢) محمد بن إدريس المشار إليه هنا إنما هو شخص آخر وهو الملقب بالمستعلى . أما محمد ابن إدريس الأول فهو الملقب بالمهدى ، وكانت ولايته سنة ٤٣٨ — ٤٤٦ ﻫ (١٠٤٧ — ١٠٥٤ م) .

(٣) القاسم المشار إليه هنا هو القاسم بن محمد بن حمود ، وهو آخر ولاة بنى حمود ولم =

أيديهم بعد ذلك بثلاثة أعوام . وعندئذ اضطر الأدارسة إلى الفرار إلى إفريقية حيث بقيت لهم بعض الثغور . أما سلطانهم فى اسبانيا فقد انتهى من ذلك الحين .

وكان حلفاء الأدارسة أمراء مالقة وأتبـاعهم فى معنى من المعانى ، أمراء غرناطة وألبيرة وجيّان وأصحاب قرمونة واستجه ؛ وكان هؤلاء يشدون أزر مالقة فى حروبها مع إشبيلية ؛ وكان مؤسس إمارة غرناطة الزعيم البربرى زاوى بن زيرى بن مناد الصنهاجى الملقب بالمنصور ؛ وخلفه فى حكمها ابن أخيه حبوس بن ماكسن (٤٢٠ هـ — ١٠٢٨ م) على أن يبقى مرتبطا بمحالفة مالقة على محاربة قرطبة وإشبيلية ، وقد كانتا مصدراً لأعظم خطر على غرناطة ؛ ومن ثم بادر حبوس وأمير مالقة ، إلى إغاثة محمد بن عبد الله البرزالى أمير قرمونة واستجه ، حينما هاجمه ابن عباد أمير إشبيلية ، فبعد أن افتتحت قرمونة ، وحوصرت استجه ، ظهرت فى الميدان أمداد مالقة وغرناطة ؛ ومع أن بداية المعركة كانت سيئة بالنسبة للجيوش المتحالفة ، فإن أمير غرناطة الذى اشتبك بجيشه فى معركة دموية ضد الأشبيليين استطاع أن يوقع بهم هزيمة فادحة وأن ينقذ قرمونة . بل استطاع أن يوغل فى أراضى صاحب إشبيلية وأن يثخن فيهـا ؛ على أنه حدث بعد ذلك أن اضطرمت مالقة بالقلاقل عقب موت إدريس المتأيد ؛ وكذلك توفى حبوس بن ماكسن روح هذه الحركة (٤٢٩ هـ — أواخر سنة ١٠٣٨) فدب الخلاف بين الجيوش المتحالفة وأخذت ترمى بعضها بعضاً بالخيانة ، وأصبح من الميسور على الأشبيليين عندئذ أن ينتهزوا هـذه الفرصة لتنظيم قواهم المختلة . وخلف حبوساً ولده باديس المظفر ، فعنى بادئ ذى بدء بتوطيد سلطانه قبل أن ينزل إلى ميدان الحرب واستطاع إدريس الثانى (العالى) بمعاونته القوية أن يستعيد عرشه فى مالقة ؛ ولبث باديس مدى حكمه الطويل (من سنة ١٠٣٨ إلى سنة ١٠٧٢م) فى حرب دائم مع إشبيلية يقتتل مع بنى عباد بلا انقطاع ، بالتحالف مع أمراء مالقة وقرمونة واستجه ؛

— يتلقب بالمستعلى ، وكانت ولايته قاصرة على الجزيرة وحدها . وقد نزعها منه المعتضد بن عباد سنة ٤٤٩ هـ أو سنة ٤٥٠ هـ (سنة ١٠٥٨ م) ، وليس فى سنة ٤٦٤ هـ كما يقول المؤلف .

وحدث أن هزم إسحاق بن سليمان الذى خلف محمد البرزالى فى حكم قرمونة ، وأخذت المدينة (سنة ١٠٥٣م) ، ولم يستطع حلفاؤه استعادتها يومئذ من صاحب إشبيلية ، ولكن بنى عباد لم يستطيعوا أن يحققوا لأنفسهم ظفراً يذكر ضد جيوش غرناطة ومالقة ؛ ومن ثم فقد عمدوا بالخيانة والدس إلى إثارة الخلافات الداخلية ، لا فيما بين الحلفاء وحدهم ، بل وفى قلب الأسر الحاكمة ذاتها ، لكى يحطموا بذلك قوى خصومهم ؛ ومن الواضح أن اضطراب سلطان الأدارسة من جراء تقلب العرش بتلك الصورة المنيفة ، يرجع بالأخص إلى الدسائس الخفية التى كان يحوكها أمراء أشبيلية .

فلما انتهز الأمير محمد المعتمد صاحب إشبيلية فرصة الاضطراب فى جنوب اسبانيا ، واستولى على الجزيرة واستجه ومالقة (سنة ١٠٧٥ م) وقضى بذلك على سلطان الأدارسة وأتباعهم أصحاب استجه ، أضحت غرناطة وما يتبعها من أراضى ألبيرة وبياسة وجيان على وشك الوقوع فى قبضة الفاتح ، ولكن وقوع إشبيلية نفسها فى يد ألفونسو السادس وحليفه الأمير المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة ، اضطر بنى عباد أن يتركوا فتوحهم فى ولاية غرناطة ؛ وكان يحكم غرناطة يومئذ أمير ذكى شجاع هو عبد الله بن بلكين بن باديس خلف باديس الظفر وحفيده ، وكان قد استقل بعد ذهاب دولة الأدارسة بغرناطة وجيان وبياسة وألبيرة واستمر فى حكمها حتى نزع المرابطون سلطانه عنها .

٢ — بنو عباد ملوك إشبيلية وحلفاؤهم بنو جهور أصحاب قرطبة
وبنو الأفطس أصحاب بطليوس فى جنوب غربى الجزيرة

كان أمير إشبيلية أقوى ملوك الطوائف أو أمراء أسبانيا المسلمة ، الذين قاموا على أنقاض الخلافة الأموية . وينتمى بنو عباد إلى أصل من أصول الشام . وقد وفدت أسرتهم إلى الأندلس فى أواسط القرن الثامن (الميلادى) . ولما قامت الحروب الأهلية التى أدت فى أوائل القرن الحادى عشر إلى سقوط الدولة الأموية

ظهر عميدهم إسماعيل بن عباد بين زعماء الأندلس بالحكمة والثراء والوجاهة الملوكية . وكان المبعدون من قرطبة يلقون منه فى إشبيلية كل عون وحماية . وقد اصطنع لنفسه بفيض جوده ، ورقة خلاله ، كثيراً من الأصدقاء والأتباع . وهذا النفوذ الكبير الذى كان يتمتع به إسماعيل ، هو الذى حمل الخليفة الإدريسى ، القاسم ابن حمود على أن يعتمد على معاونة إشبيلية ، وعلى أن يعين ابنه أبا القاسم محمداً ، من بعده والياً لأشبيلية . فلما اضطرمت الحرب الأهلية ، واضطر الخليفة ، أن يغادر الحاضرة قرطبة ، استخلص محمد لنفسه سيادة إشبيلية بالعنف والخديعة (سنة ٤١٣ هـ — ١٠٢٢ م) وعاونه فى مشروعه جماعة من الزعماء الأقوياء ، فأقطعهم بعض الأراضى على أن يؤدوا له الجزية ؛ وهكذا وثق علائقهم به وضمهم إلى جانبه . ومع أنه يدين إلى الأدارسة قبل كل شىء بولايته ، فإنه ما لبث أن انقلب عدوهم الألد . ولم يقتصر على أن كان أول من جاهر بالثورة والانفصال عن خلافة قرطبة ، بل استطاع أيضاً أن يظهر تفوقه على الخليفة يحيى بن على بن حمود فى معركة نشبت بينهما بجوار إشبيلية هزم فيها الخليفة وقتل (سنة ١٠٢٦ م) واستمر محمد من بعد ذلك يبسط سلطانه على نواحى الأندلس ، بينما كانت البقية الباقية من بنى أمية فى قرطبة تمزق بعضها بعضاً ويخرج الحكم من يدها .

ولما اضطر هشام الثالث آخر الخلفاء الأمويين ، إلى الفرار من قرطبة من جراء خيانة وزرائه وبطانته ، قبض على زمام الحكم أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور ، وكان كأسلافه من أكابر رجال الدولة ؛ وكان قد ولى الوزارة أو الحجابة لهشام وقبض على زمام الحكم من قبل . فلما خلا العرش طمح إلى استخلاص الملك لنفسه ، وهى غاية كانت تقتضى كثيراً من الحكمة والبراعة والدهاء فى مثل هذا الظرف الذى اضطرمت فيه العواصف بين مختلف الأحزاب ، وأراد كل أن يأمر ، ونكل الجميع عن الطاعة .

ورأى ابن جهور أن يضم الزعماء المتوثبين الطامحين إلى حكومته ، وأن يكبح جماح الأحزاب ، فدعا العظماء إلى مشاركته فى شؤون الحكم ، وبذا أنشأ للدولة

نوعاً من الدستور الأرستقراطى ، وهو نوع من نظم الحكم يندر أن نراه فى الدول الإسلامية ، ولم يتمتع قط بحياة طويلة . وقد انتهى ابن جهور نفسه إليه بتأثير الظروف . ذلك أنه كان من حسن السياسة أن يكسب صداقة الزعماء الأقوياء الذين لم يك من الميسور إخضاعهم بقوة السلاح ، بمنحهم بعض الامتيازات ، وإشراكهم فى مجلس الدولة . وكانت هذه « الجماعة » التى ألفت من أكابر رجال الدولة وأوجههم ، تختص بالنظر فى شؤون الدولة العليا . وكان ابن جهور يعتبر لها رئيساً فقط . بيد أنه ما لبث أن اتخذ منها فى يده أداة يوجهها كيف شاء . وكان لهذا النظام ميزة خاصة ، هى أن يستطيع أن ينسب إلى هذا المجلس الأعلى من تصرفات الحكومة ، كل ما هو بغيض وصارم ، وأن ينسب لنفسه منها ، ما يقبله الشعب ويرضاه . بيد أنه لا ريب أيضاً أنه استطاع أن يغنم رضى القرطبيين بما حققه من إصلاحات عديدة . ذلك أنه خفض الضرائب الفادحة التى كان يقتضيها بذخ الأمويين وتبذيرهم ، تخفيضاً عظيما ، وألغى البعض منها بتاتاً . وسار فى حياته الخاصة سيرة قناعة ومجانبة للإسراف ، وجنح إلى البساطة والاعتدال . بل لقد أبى بادئ ذى بدء أن يسكن فى القصور الملكية ، تفادياً لما يقتضيه ذلك من كثرة الحشم ، واستطاع أن يحقق بإقالة رجال الحاشية ، وهم جمهرة كبيرة ، وفراً عظيما فى النفقة . وأصلح القضاء الذى انهارت دعائمه فى أواخر الدولة الأموية من جرَّاء انتشار التجسس والرشوة ، وأقام جماعة قليلة من المحامين ذوى رواتب كالقضاة ، ألفوا مصلحتهم فى سرعة إنجاز القضايا ، وتبسيط سير العدالة بقدر المستطاع . ورأى فيما يتعلق بمزاولة الطب ، أن يبعد عن المدينة كل الأدعياء وألا يسمح بمزاولته إلا لمن جاز الامتحان أمام لجنة من أكبر الأطباء . وأنشأ شرطة بارعة تسهر على حسن تموين المدن بالمواد الغذائية ، وعلى رخص أسعارها . وعهد إلى الجند الشعبى (المليشيا) الذى درب خلال الحرب الأهلية بالسهر على أمن المدينة وسكينتها . ورصد إيرادات الدولة ونفقاتها فى جرائد سنوية تذاع على الشعب ، وفرض على جباة الضرائب والمكوس (الجمارك) رقابة

صارمة . وهكذا تمتعت المدينة التي عانت مصائب الحرب الأهلية حقبة طويلة بنعم السلام والرخاء في ظل حكومة رفيقة عادلة ، وازدهرت العلوم والتجارة والصناعة ، وقامت فوق الأطلال الدارسة والميادين الخربة مرة أخرى ، أبنية شامخة يعمرها قوم سعداء يدعون لسلطانهم بطول البقاء[1] .

وإذ كانت قرطبة من قبل عاصمة اسبانيا المسلمة فكذلك كان جهور يطمح إلى توسيع سلطانه شيئاً فشيئاً حتى يغدو مثلما كان عليه سلطان الأمويين من قبل ؛ وكانت هذه أمنية جريئة خصوصاً إذا ذكرنا أن سلطانه لم يكن يشمل بعد قرطبة سوى مدن قلائل ، وأن ولاة الأقاليم الذين أقاموا أنفسهم أمراء مستقلين كان في وسعهم أن يردوا أطماع جهور عن أراضيهم بالسيف . والواقع أنه لم يك ثمة عماد لأي حق أو دعوى في السلطان سوى القوة والعنف . ولما أرسل جهور إلى أمراء مالقة وغرناطة وإشبيلية وطليطلة وسرقسطة وبطليوس وبلنسية ، يدعوهم إلى الاعتراف بطاعته لم يتنازلوا حتى بالرد عليه . وحاولوا أن يذيعوا في جميع أنحاء اسبانيا مختلف الإشاعات عن حكمه الظالم . أما جهور فكان من جانبه يتجاهل استقلالهم ومزاعمهم ، ويمتدح في رسائله إليهم ، غيرتهم وعنايتهم بتأييد السلام في الأقاليم الموكولة إليهم ، وكون توطيد دعائم الدولة لا يكون إلا بالطاعة والاتحاد .

وكان أقلهم اكتراثاً بدعاوى جهور أبو القاسم محمد بن عباد أمير إشبيلية ، وكان يومئذ قد انتهى من حصار قرمونة وافتتاحها . بيد أنه لما هرع أميرا مالقة وغرناطة إلى إغاثة البرزالي صاحب قرمونة ، وهزما جيش أشبيلية ، وهددا إشبيلية ذاتها ، رأى محمد أن في مخاصمة جهور خطراً كبيراً عليه ، وفكر في حيلة يتقي بها شر أعدائه . ورأى لكي يسبغ على قضيته مسحة الحق ، ويغتنم

(١) تفيض الرواية العربية في مناقب الوزير جهور وفي رفيع خلاله وبارع حكمه ، وتصف لنا نظام الجماعة الذي أنشأه في قرطبة وبرنامجه الإصلاحي في كثير من الإعجاب والتقدير . يراجع في ذلك بالأخص ابن الأبار في كتاب الحلة السيراء ص ١٦٨ . والبيان المغرب ج ٣ ص ١٨٦ نقلا عن ابن حيان .

تأييد الشعب فى جميع الولايات ، ثم لكى يقضى بالأخص على زعامة جهور فى قرطبة ، أن يذيع فى كل مكان أن الخليفة هشاما الثانى (المؤيد) (الذى أذيع موته مرة من قبل ورفع ثانية إلى العرش)[1] لم يقتل كما يتوهم الناس ، ولكنه ما يزال حيا يقيم فى أشبيلية ، وأنه دعا محمداً إلى إغاثته وعونه ؛ ثم أمر فدعى لهشام فى الخطبة على جميع منابر إشبيلية ، ونقش اسمه على السكة بها . وطلب إلى جميع المسلمين المخلصين أن يلزموا الولاء لسيدهم الشرعى ، وأن يعترفوا به خليفة لهم . كما طلب إلى رؤساء الأقاليم والمدن أن يقيموا له البيعة . بيد أن مزاعم محمد لم تلق بين الأمراء كبير تأييد ، ولم يقبلها سوى بنى عامر أصحاب بلنسية ومرسية ، فوعدوا وحدهم بالإعانة والطاعة . أما الباقون فقد استقبلوا دعوة محمد إلى المعونة بالسخرية ، ولو ظهر هشام الحقيقى فيما بينهم لما أطاعوه . على أن محمداً استطاع مع ذلك أن يحقق غايته من بعض الوجوه ، فقد بث الشجاعة فى نفوس أصدقائه وبث التفرقة إلى أعدائه ، ورد سيرهم المظفر إلى إشبيلية . كذلك أثارت دسيسة محمد فى قرطبة قلاقل وثورات ضد حكم جهور ، وشغل جهور بقمعها ، فلم يكن بوسعه أن يتقدم لمقاتلة محمد . وكذا ثارت الفتنة فى مالقة بين الأدارسة حول العرش ، وهزم الأدارسة وحليفهم صاحب غرناطة فى ميدان الحرب (٤٢٩ هـ — ١٠٣٨ م) . وبذا أنقذ محمد ، وكافأ محمد قائده الكبير أيوب بن عامر ابن يحيى اليحصبى الذى حقق له النصر ، فأقطعه حكم ولبه[2] وجزيرة شلطيش ، على أن يؤدى الجزية .

وكان ثمة فى جنوبى غربى الأندلس ، فضلا عن مملكتى إشبيلية وقرطبة ،

(١) تختلف المصادر العربية فى مصير الخليفة هشام المؤيد اختلافا كبيراً ، وتقدم إلينا عن موته واختفائه وظهوره روايات كثيرة متناقضة ؛ وتختلف أيضاً فى شأن هذه الواقعة التى يشير إليها المؤلف ؛ فالبعض يرى أنها من حبل ابن عباد وتمويهاته ، مثل ابن حيان (البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٨) ، وابن الأثير (ج ٩ ص ٩٧) ، وأن ابن عباد اخترع هذه القصة اختراعا ليستعين بها على أمره ويهدد خصومه ؛ ويرى البعض مثل أبى الفداء أنها واقعة حقيقية (ج ٢ ص ١٤٧) .

(٢) ولبه Huelva ، ويطلق عليها أحياناً اسم « أونبه » .

بنو الأفطس يقيمون فى بطليوس مملكة ذات شأن ، ويرجع الفضل فى قيامهم على عرشها إلى سابور الفارسى ، مولى الخليفة الحكم الثانى (المستنصر) ووالى مقاطعة الغرب فى عهد هشام الثانى (المؤيد) . وعهد سابور بولاية ماردة إلى فتى من مكناسة هو عبد الله بن مسلمة بن الأفطس التجيبى وأولاه ثقته ، وكان يستشيره فى جميع شؤون الحكم . ولما توفى سابور أثناء الحرب الأهلية ، نادى عبد الله بن الأفطس بنفسه أميراً مستقلا فى « الغرب » (غرب الأندلس) وتلقب بالمنصور[1] ، واتخذ بطليوس مقرا لحكومته ، وكان له حلفاء أقوياء فى بنى عمه التجيبيين أمراء سرقسطة (بنى هود) . ولم يكترث ابن الأفطس لدعوة ابن جهور إياه إلى الطاعة . ولكى يوطد ملكه فى المنطقة التى تشمل بطليوس وماردة ويابرة وباجة وقورية وأشبونة وشلب وما إليها ، عين ولده أبا بكر محمد وليا للعهد ، وهو الذى تلقب فيما بعد بالمظفر .

وكما حاول أيوب وأحمد ابنا أحمد والى لبلة (سنة ١٠١٩ م) أن ينشئا بالأندلس فى ولبة وجزيرة شلطيش ولبلة إمارة مستقلة ، وهى إمارة سرعان ما تطلع بنو عباد وبنو الأفطس إلى إخضاعها ، فكذلك قامت إمارة صغيرة أخرى جنوبى البرتغال هى إمارة شنتمرية (سانتا ماريا) الغرب (الغربية) من أعمال ولاية الغرب الحالية وقاعدتها مدينة اكسونبه ، ويحكمها الوزير أبو جعفر أحمد بن سعيد ؛ وصهره سعيد بن هارون اعتماداً على حق الوراثة . أما شنتمرية الشرق (الشرقية) وأرضها المعروفة بالسهلة المتاخمة لولاية طليطلة ، فكان يحكمها هذيل بن خلف بالوراثة عن جده الحاجب عز الدولة أبو محمد هذيل بن رزين ، وعاصمتها شنتمرية الشرق[2] ، وكان أميرها يستظل بحماية بنى ذى النون أمراء طليطلة .

وبينما كان جهور أمير قرطبة يطمح إلى امتلاك شنتمرية الشرق ، كان

---

(١) فى أبى الفداء (٢ ص ١٤٨) ، وابن الأثير (٩ ص ٩٩) أن الذى تلقب بالمنصور هو الفتى سابور .

(٢) هى التى تعرف فى الجغرافية الحديثة باسم Albarracin ، وهو تحريف لاسم حكامها من بنى رزين .

بنو عباد يطمحون إلى امتلاك شنتمرية الغرب ، وسرعان ما رجحت كفة بني عباد رجحانا قويا بتحالفهم الوثيق مع العامريين سادة الساحل الشرقي (بلنسية ومرسية) ، وعدل أبو القاسم محمد بن عباد في أواخر عهده عن دعواه بأن هشاما الثاني حي يقيم في قصره ، ولكنه عمد إلى قصة أخرى كان يرجو من ورائها النجاح ، فزعم أن هشاما توفي حقيقة ، ولكنه اختاره لولاية عهده ، وعهد إليه بالانتقام لما حل به من المحن ، واعتمد بنو عامر على ذلك الزعم الواهي فعملوا على توثيق تحالفهم مع بني عباد ؛ وهكذا أصبحت هزيمة الأدارسة أمراً محققاً بعد أن صار الهجوم عليهم ممكناً من الناحيتين .

بيد أن ابن عباد ما كاد يجدّ في الأهبة لمحاربة الأدارسة وحلفائهم حتى أدركه الموت (٤٣٣ هـ — ١٠٤٢ م) فخلفه في الحكم ولده أبو عمرو عباد بن محمد وتلقب بالمعتضد بالله . وقد اشتهر المعتضد بوفرة ذكائه ، كما اشتهر بوسامته وروعة قوامه ؛ وكما أسبغت عليه شهرته بالقريض والغزل المضطرم والشجاعة والبذخ صورة أمير من أمراء الفروسية ، فكذلك نراه يصم هذه الصورة المثلى بشنيع لجوره ، ورائع قسوته ، وبالغ استهتاره بالدين . ومع أنه كان يشغف حبا بزوجه ابنة مجاهد العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية (البليار) ، فإنه كان يحتفظ بسرب من الحظايا يضم سبعمائة أو ثمانمائة امرأة ؛ وبالرغم من أنه كان ينفق أموالا عظيمة على الأبنية الشامخة ولا سيما القصور والقلاع ، فإنه كان يترك المساجد خرابا ولا يعني بإنشاء شيء منها خلافا لما جرت عليه سنن أمراء المسلمين . وقد كان يغمر خاصة أصدقائه بعطفه وجزيل صلاته ، ولكنهم لم يأمنوا قط روعة الموت على يده . ذلك أن بذخه الطائل كان يقتضي أموالا عظيمة ، وكان ينتزعها من أولئك الذين أثروا مما أولاهم من مناصب ووهبهم من عطايا . وقد قضى بالموت على معظم وزرائه ونزع أملاكهم ليستعين بها على بذخه المغرق . وكانت تنتظم في أبهاء قصره أقداح من جماجم الموتى محلاة بالذهب والأحجار الكريمة ، فيذكر أهل بطانته دائما برؤيتها ما يهددهم من روعة المصير[1] ، وأما إزاء جيرانه فقد كان المعتضد كثير

(١) إن هذه الصورة الباهرة القاتمة التي يقدمها إلينا المؤلف عن المعتضد بالله العبادي =

الدهاء والخديعة لا يترك فرصة سانحة إلا انتهزها لتوسيع أملاكه . وكان يوجه جل اهتمامه إلى الأدارسة باعتبارهم أخطر أعداء إشبيلية . بيد أنه لم يغفل أيضاً شأن قرطبة وطليطلة ، وكان يرى أن اشتباكهما فى حرب مما يعود عليه بأكبر نفع ، إذ يستطيع عندئذ أن يتحول من محالفتهما إلى افتتاحهما بأيسر أمر .

٣ — بنو ذى النون

كانت طليطلة فى أواسط اسبانيا يومئذ أقوى دولة إسلامية فى شبه الجزيرة . ولسنا نعرف بالتحقيق أول من حكمها عقب انهيار الدولة الأموية . فالبعض يقول إن ابن يعيش كان أول أمير استقل بها عن حكومة قرطبة . ولكن معظم الروايات تجمع على أن الذى حكمها بعد ذلك هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن عامر من بنى ذى النون أعلن نفسه أميراً عليها وتلقب بنصر الدولة الظفر (بعد سنة ١٠٣٠ م على ما يظهر)[١] . وتلقى إسماعيل بالسخرية دعوة جهور أمير قرطبة

= هى نفس الصورة التى رددتها التواريخ الإسلامية كلها والأندلسية منها بنوع خاص لا مبالغة فيها ولا إغراق . وقد أجملها لنا ابن بسام صاحب الذخيرة فى العبارات القوية الآتية : « قطب رحى الفتنة ، ومنتهى غاية المحنة ، ناهيك من رجل لم يثبت له قائم ولا حصيد ، ولا سلم منه قريب ولا بعيد ، جبار أبرم الأمر وهو متناقض ، وأسد فرس الفلا وهو رابض ، متهور تتحاماه الدهاة ، وجبان لا تأمنه الكماة ، متعسف اهتدى ، ومنبت قطع فما أبقى . . . . وكان قد أوتى أيضاً من جمال الصورة وتمام الخلقة وفخامة الهيئة وسباطة البنان وثقوب الذهن وحضور الخاطر وصدق الحدس ما فاق على نظرائه ، ونظر مع ذلك فى الأدب قبل ميل الهوى به إلى طلب السلطان أدنى نظر بأزكى طبع ... أعطته سجيته على ذلك ما شاء من تحبير الكلام وقرض قطع من الشعر ذات طلاوة فى معان أمدته فيها الطبيعة وبلغ فيها الإرادة . وكان على جرأته فى إحكام التدبير لسلطانه ذا كلف بالنساء فاستوسع فى اتخاذهن وخلط فى أجناسهن ، فانتهى فى ذلك إلى مدى لم يبلغه أحد من نظرائه ... » أوردها ابن خلكان فى ترجمة المعتضد منسوبة لابن بسام (ج ٢ ص ٣٧) ووردت فى البيان المغرب منسوبة لابن حيان (ج ٣ ص ٢٠٧) . وأما ما قيل فى قسوته وبطشه برجال الدولة وقصة الجماجم التى كانت تزين ساحة قصره فيراجع فيه المراكشى (ص ٥٠ و ٥١) . ويراجع أيضاً دوزى (ج ٣ ص ٤٣ و ٤٩) .

(١) كان مؤسس دولة بنى ذى النون فى طليطلة إسماعيل بن عبد الرحمن يلقب بالظافر وليس بالمظفر ؛ وكان بدء دولته فيها سنة ٤٢٧ هـ (١٠٣٦م) (ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٦ ، وأبو الفداء ٢ ص ١٤٧) .

إياه إلى الطاعة تحت ظل الحكومة المركزية ، ونصح إليه بأن يقنع بإغضائهم عن اغتصابه ، وكون بعض الزعماء الضعفاء يعترفون بطاعته . وأما هو فليس يدين بالطاعة لأحد سوى الله .

ولما رأى جهور أنه لايستطيع نظراً لضعفه أن يفرض طاعته على الأمراء الأقوياء بالسيف ، تذرع بالروية والحزم وآثر أن يجرب قواه مع بعض الزعماء الأصاغر ؛ وكانت محاولته الأولى ضد صاحب السهلة الذى أبى أن يعترف بسلطان قرطبة ، فهاجمته قوة من الفرسان القرطبيين ، وأخضعت إمارته الضعيفة بسرعة ؛ وعندئذ استغاث الأمير المعزول وهو هذيل بن رزين بصاحب طليطلة ؛ وكان إسماعيل بن ذى النون ينظر بعين التوجس إلى كل توسع من جانب قرطبة ، فبادر بغوث ابن رزين ، ولم يمض سوى قليل حتى استمادت قواته السهلة ورُدت لأميرها وأخذ يهدد قرطبة ذاتها .

وكأنما كل شىء كان ينذر بسقوط قرطبة ، فى نفس اللحظة التى كانت الحاجة فيها أشد ما تكون إلى حاكم قوى ، توفى الأمير النابه جهور ، ذلك الذى نعته الشعب بأبى الوطن والمدافع عن الدولة (سنة ٤٣٥ هـ — ١٠٤٣ م) . ومن سوء الطالع أن ابنه الوليد محمد بن جهورَ الذى خلفه فى الحكم ، لم يكن رجل هذا المأزق الصعب . أجل كان الوليد عاقلا عادلا ، ولكنه كان ضعيفاً مريضاً لا يقوى على أعباء الرياسة . وسرعان ما ظهر أن يديه الضعيفتين لم تكونا أهلا لقبض على زمام الحكم فى تلك الآونة العصيبة ؛ ورأى محمد أن يجتنب حرباً غير مأمونة العواقب ، فعرض الصلح على صاحبى طليطلة والسهلة ، ولكنهما رفضا عرضه بإباء ، فاضطر عندئذ أن يخوض رغم إرادته حرب حياة أو موت .

وهكذا أثخنت مدى أعوام فى المنطقة الواقعة بين قرطبة وطليطلة حرب طاحنة ؛ وكانت الهزيمة ستغدو فيما يظهر مصير ابن جهور ، لو لم يقم فرديناند الأول ملك قشتالة وليون بغزو أراضى طليطلة غير مرة ، ويرغم ابن ذى النون بذلك على عقد الهدنة مراراً مع قرطبة . فلما خضعت طليطلة لقشتالة والتزمت بأداء

الجزية ، واستطاعت بذلك أن تغنم السكينة وأن تعتمد على عون القشتاليين وقت الحاجة ، عادت إلى محاربة قرطبة بنجاح ، سيما وقد حالفها على قتال قرطبة بنو عامر أصحاب بلنسية .

٤ — بنو عامر والتجيبيون و بنو هود فى شرق اسبانيا

كان الشاطئ الأسبانى من مصب نهر أيبرو (أبره) جنوباً حتى ثغر المرية على مقربة من الجزائر الشرقية (البليار) قد اقتسمته دويلات عدة تجمعها جميعاً رابطة التحالف ، وتعترف برياسة أمير بلنسية أبو الحسن عبد العزيز المعافرى حفيد الحاجب المنصور محمد ابن أبى عامر ؛ ومع أن المنصور وأتباعه من بنى عامر كانوا أول سبب فى سقوط الدولة الأموية ، فإنهم انحازوا بعد ذلك منذ حروب الفتى خيران العامرى ضد الأدارسة إلى جانب بنى أمية . على أن الخليفة الإدريسى على بن حمود بعد هزيمته لخيران (سنة ١٠١٨ م) أقطع مع ذلك قريبه الفتى زهير العامرى ولاية دانية . واستطاع زهير خلال الحرب الأهلية بمعاونة بعض الزعماء العامريين أن يستولى على ثغر المرية بسهولة ، وقد كان يحكمها يومئذ محمد بن القاسم القيروانى من قبل أمير إشبيلية ؛ وهكذا بسط زهير حكمه على جميع الشاطئ الممتد من مرسية إلى المرية وعلى الجزائر الشرقية . وكان يحكم دانية من قبله على بن مجاهد ، ويحكم ابن عمه أبو الجيش عبد الله ، وأحمد بن رشيق الجزائر الشرقية (البليار) وأبو بكر أحمد مرسية[1] ، أما بلنسية فكانت مستقلة يحكمها أبو الحسن عبد العزيز حفيد المنصور (منذ سنة ١٠٢٢ م فيما يظهر) وكانت تربطه بزهير محالفة وثيقة ؛ فلما توفى زهير أو قتل فى المرية بعد حكم طويل قام صديقه

(١) إن أول من استقل بدانية هو مجاهد العامرى الملقب بالموفق ، واستقل بها سنة ٤١٣ هـ (١٠٢٢ م) ، وخلفه ولده على بن مجاهد الملقب بإقبال الدولة سنة ٤٣٦ هـ (١٠٤٥ م) . وأما عبد الله فكان يلى جزيرة ميورقة من قبل عمه مجاهد ؛ وأبو بكر صاحب مرسية هو أبو بكر أحمد بن طاهر (راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٥ ، وابن الأثير ج ٩ ص ١٠١ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٥٥ وما بعدها) .

عبد العزيز المتلقب بالمنصور بالأمر من بعده ، وبسط حكمه على الثغور الممتدة من المرية حتى مصب أبره (سنة ١٠٥١ م) . وكان من أتباعه أيضاً الزعيمان العامريان لبون صاحب مربيطر ، ومبارك صاحب شاطبة[1] . وكذلك وثقت أواصر التحالف بينه وبين التجيبيين أصحاب سرقسطة ، بواسطة التعاهد والمصاهرة ، ثم أقطع المنصور ولاية المرية لصهره وزوج ابنته معن أبى الأحوص ابن والى وشقة[2] .

ولا ريب أن سادة ولاية سرقسطة (الثغر الأعلى) كان مركزهم أشد حرجاً من مركز أى أمير آخر من أمراء اسبانيا المسلمة ؛ وكان يتبعهم ولاة وشقة ولاردة وطرطوشة ، وهم من بنى تجيب ؛ وقد اختلف فيما إذا كان بنو هود أمراء سرقسطة ينتمون إلى فرع من بنى تجيب ، أم أنهم ينتمون إلى أصل آخر ، والأول هو الأرجح والأصح . كذلك اختلفت الرواية فى شأن أمراء سرقسطة الأوائل . والمعروف أنه حينما اضطرمت الحرب الأهلية التى انتهت بسقوط الدولة الأموية ، استطاع المنذر بن يحى التجيبي أن يستقل بشؤون سرقسطة منذ سنة ٤٠٥ هـ — ١٠١٤ م ثم أعلن نفسه أميراً عليها وتلقب بالمنصور . والروايات القليلة التى انتهت إلينا عنه يناقض بعضها بعضا . بيد أنه يلوح لنا من المحقق ، أنه لا صحة للرواية العربية القائلة بأن حكمه قد امتد حتى سنة ١٠٣٩ م . وأن هشاماً الثالث آخر الخلفاء الأمويين قد لجأ إليه واستظل بضيافته ، وأنه قتل بيد بعض أقاربه أثناء رحلة له إلى غرناطة . ويبدو من الأصح أن موت المنذر كان فى سنة ١٠٢٦ على الأكثر ، وأن ولده يحى الملقب بالمظفر الذى لا تذكره معظم الروايات قد خلفه

---

(١) مربيطر هى بالأفرنجية Murviedro وهى Sagonto الحديثة ، وقد كان صاحبها أبو عيسى بن لبون (ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٨٦) ، وتراجع أخبار مبارك العامرى صاحب شاطبة فى البيان المغرب ص ١٥٨ وما بعدها .

(٢) هو ذو الوزارتين أبو الأحوص معن بن محمد بن صمادح التجيبي صاحب المرية ولورقة وبياسة وجيان ، وكانت له ولابنه أبى يحى بن معن الملقب بالمعتصم بالمرية دولة زاهرة دامت زهاء نصف قرن ، واشتهرت بحماية الشعر والأدب (سنة ٤٣٣ — ٤٨٤ هـ) .

فى الحكم ، ثم انتزى عليه سليمان بن أحمد بن هود والى لاردة ، فانتزع سرقسطة ؛ وحكمها بنو هود من ذلك الحين . وعلى أى حال فلا بد أن يكون ذلك قد حدث قبل سنة ١٠٣١ م ، إذ تجمع الروايات الوثيقة على أن هشاماً الثالث قد لجأ فى هذه السنة إلى سليمان بن هود أمير سرقسطة واستظل برعايته وحمايته[1] . واتخذ سليمان لقب المستعين بالله ، ووطد دعائم استقلاله بقوة وشجاعة ضد النصارى والمسلمين على السواء . ورفض ما طلبه إليه جهور من الاعتراف برياسته ؛ واعترف ولاة وشقة وطرطوشة وغيرها من المدن القريبة من سرقسطة بسيادة بنى هود ، بعضها طوعاً والبعض الآخر كرهاً . وإذ كان التحالف وثيقاً بين التجيبيين والعامريين لما بينهما من صلة القرابة ، فقد كان بوسع سرقسطة التى عانت كثيراً من غزوات جيرانها النصارى ، أن تعتمد على معاونة بلنسية ، هذا إذا لم تنقذها الحروب الأهلية بين القطلونيين والقشتاليين والأرجونيين والناڤاريين (البشكنس) . وناضل ولد سليمان وخلفه أبو جعفر أحمد المقتدر (٤٣٧ هـ — ١٠٤٦ م) بمثل حزمه وشجاعته ؛ بيد أنه اضطر أخيراً لكى يتقى غلبة البشكنس والأرجونيين والقطلونيين ، أن ينضوى تحت لواء فرديناند الأول ملك قشتالة ، وأن يؤدى له الجزية ، وأن يكفل بذلك معونته ضد جميع أعدائه .

---

(١) تختلف الرواية العربية فى شأن منذر بن يحيى التجيبى صاحب سرقسطة ، فالبعض يقول إنه حكمها حتى سنة ٤١٤ هـ ، وخلفه فى حكمها ولده يحيى الملقب بالمظفر ، واستمر فى حكمه حتى سنة ٤٣١ هـ (١٠٣٩ م) حيث انتزعها منه سليمان بن هود وقتله (ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣ ، وابن الأثير ج ٩ ص ١٠٠) . ولكن البعض الآخر يغفل ذكر المظفر ويقول لنا إن منذراً استطال حكمه حتى سنة ٤٣٠ هـ ، وأنه قتل بيد رجل يدعى عبد الله بن حكيم غلب على سرقسطة حينا ثم انتزعها منه سليمان بن هود سنة ٤٣١ (البيان المغرب ٣ ص ١٧٨ و١٧٩) . وأما ما يشير إليه المؤلف من التجاء هشام الثالث الأموى الملقب بالمعتمد إلى صاحب سرقسطة ، فقد حدث ذلك سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) حسبما يذكر المؤلف ، ولكن قبل تغلب ابن هود عليها ، وكان التجاؤه إلى منذر أو ولده المظفر .

الفصل الثالث

حروب الطوائف بمؤازرة النصارى

حتى افتتاح ألفونسو السادس لطليطلة

(سنة ٤٣٣ — ٤٧٨ هـ) — (١٠٥١ — ١٠٨٥ م)

---

١ — تفوق أمير طليطلة

هكذا كانت حال الدول الإسلامية فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر: كانت فيما بينها أشد خصومة وتطاحناً من النصارى، ولم تكن تتورع عن التحالف مع الدول النصرانيـة أو أن تستمد عونها نظير الجزية. وحتى صاحب أواسط اسبانيا الأمير القوى المأمون يحيى بن ذى النون الذى خلف أباه سـنة ١٠٤٣ م، لم يكتف باغتنام عون حليفه القوى عبد العزيز بن أبى عامر، فعمد إلى استئجار الفرسان القشتاليين ليبطش بمحمد بن جهور أمير قرطبة. وقد كان سقوط ابن جهور محققاً لو أنه اجترأ على لقاء الحلفاء واتقاء العاصفة بمفرده؛ ومن ثم فقد اضطر على مضض أن ينزل عن دعواه فى سيادة اسبانيا المسلمة كلها، وأن يعترف باستقلال جيرانه وخصومه، بنى عباد أصحاب إشبيلية، وبنى الأفطس أصحاب بطليوس، وأن يدعوهم إلى معاونته ضد طليطلة، التى كانت تهددهم جميعاً بالويل. ومع أن المعتضد بن عباد كان يشتبك يومئذ مع الأدارسة فى معارك شديدة فانه بادر مع ذلك إلى قبول التحالف المرغوب، إذ رأى فيه وسيلة طيبة لتوسيع سلطانه. أما أمير بطليوس فقد كان أقل أثرة وهوى. ذلك أنه ما كاد ابن جهور

يعترف بسيادته على « الغرب »[1] حتى بادر بوضع قواته رهن تصرفه .

وقد أثار هذا الحلف الذى عقد بين أمراء جنوب غربى اسبانيا الثلاثة (سنة ١٠٥١ م) بالأندلس حربا عظيمة ، كان من نتائجها أن زاد سلطان بنى عباد ووجاهتهم زيادة كبيرة . وأراد الأمراء الأصاغر ، أصحاب لبلة وولبة وجزيرة شلطيش واكسونبه ، الانضمام إلى هذا الحلف ؛ ولكن ابن عباد عارض فى قبولهم كحلفاء مستقلين ، فى حين أنهم يستظلون بسيادته . بيد أنهم عقدوا مع ذلك فيما بينهم تحالفا وثيقاً ، وفوضوا عبد العزيز اليحصبى صاحب لبلة (الذى خلف أحمد منذ سنة ١٠٤٢)[2] فى أن يعقد باسمهم محالفة خاصة مع قرطبة ، يتعهد الجميع بمقتضاها أن يتعاونوا فى الدفاع عن أنفسهم . وتطبيقا لهذا التحالف سار الجميع فى قواتهم إلى قرطبة لإنجادها . وعندئذ عمد ابن عباد إلى انتهاز هذه الفرصة ، فاكتفى بأن أرسل إلى محمد بن جهور خمسمائة فارس ، وزحف فى جيش قوى على لبلة وولبة وجزيرة شلطيش واكسونبه ، واستولى عليها ؛ ولاذ أمراؤها بالفرار اتقاء الأسر أو الموت ، وأسلمها ابن عباد إلى أسَر الأمراء الفارين ، على ألا تعتبر هذه المنحة ذات صفة شخصية ، بل تعتبر مقابل خدماتهم ، فلا تكون الجزية وراثية ، وإنما يزاول بمقتضاها حقه فى السيادة باختيار خلفائهم . ومن ثم فقد عهد ابن عباد إلى والى لبلة الجديد عبد الله بن عبد العزيز ، بالقيام بمحاربة قرمونة ، فحاربها وافتتحها سنة ١٠٥٣ كما قدمنا .

أما الحرب بين طليطلة وقرطبة ، فقد لبثت بضعة أعوام تتخللها معارك مضطرمة تدور سجالا بين الفريقين . بيد أنها استحالت فى النهاية بالنسبة لمحمد ابن جهور إلى وجهة محزنة . ذلك أن المأمون صاحب طليطلة ، بعد أن اجتمع

---

(١) ولاية الغرب Algarve أو غرب الأندلس .

(٢) فى إيراد ولاة لبلة على هذا النحو خطأ أو تحريف . ذلك أن أول ولاتها المستقلين هو أحمد بن يحيى اليحصبى الملقب بتاج الدين ، وخلفه فى الحكم أخوه محمد بن يحيى اليحصبى (سنة ١٠٤١ م) وتلقب بعز الدين ، ولا يوجد بين ولاة لبلة من بنى يحيى من اسمه عبد العزيز .

لديه من جراء تحالفه مع بلنسية والسهلة وقشتالة ، كثير من الجند المرتزقة ، سار إلى لقاء أعدائه فى معركة حاسمة ، واستطاع أن يوقع بقوات قرطبة وبطليوس وإشبيلية المتحدة هزيمة شديدة . ثم ظهر بجيشه الظافر أمام أسوار عاصمة الأندلس القديمة ، وضرب فى الحال حولها الحصار . ولم يك ثمة سبيل لإنقاذ قرطبة إلا أن تبادر إشبيلية إلى إغاثتها ، فبعث محمد ابنه عبد الملك إلى أشبيلية ليطالب حليفه ابن عباد ، بأن يبعث إليه المدد على جناح السرعة ، لكى يرغم المأمون على رفع الحصار ؛ فتردد ابن عباد فى البداية ، ولكنه لما رأى قرطبة قد أشرفت على السقوط بعث لإنجادها جيشا قويا تحت إمرة ابنه محمد وإمرة قائده ابن عمر (ابن عمار)(١) وزودهما بخطة وأوامر سرية خاصة ، فهوجم الجيش المحاصر واضطر إلى رفع الحصار بعد معركة دموية ، ثم ارتد أدراجه مسرعا ، وخرج القرطبيون فطاردوا أعداءهم وأتموا بذلك هزيمة الطليطليين .

وهنا رأى قائد الأشبيليين (ابن عمار) الفرصة سانحة لتنفيذ خطة سيده السرية ، فبينما كان جيش قرطبة لا يزال مشغولا بمطاردة العدو بإمرة عبد الملك ابن جهور ، سار ابن عمار إلى المدينة ، ولم يظن إنسان بالحلفاء سوءاً ، ودخلها دون معارضة واحتل مراكزها الحصينة ، قبل أن يفطن القرطبيون إلى أن

---

(١) يحدثنا المؤلف فى غير موضع عن « ابن عمر » Ibn Omar قائد المعتمد بن عباد أو مبعوثه . وقد استطعنا أن نقطع فى الحال بأن إيراد الاسم على هذه الصورة به تحريف ، وأنه يجب أن ينصرف إلى ابن عمار وزير المعتمد ؛ وهو أبو بكر محمد بن عمار الشاعر الأشهر وكان من رجالات الأندلس ومن أوفرهم ذكاء وبراعة ودهاء . وزر للمعتمد ، وتولى تصريف مهامه السياسية ، وكان يرافق حملاته ويسهر على نجاحها بحسن تدبيره . وما زال يخدم المعتمد حتى سخط عليه لأمور بدرت منه واعتقله ثم قتله (سنة ٤٧٩ هـ — ١٠٨٦ م) . وقد كان فيما يظهر مرافقاً لحملة ابن عباد التى أوفدها لنجدة قرطبة ليشرف على تنفيذ أوامره السرية فى انتزاعها بعدئذ من بنى جهور . ولم يكن قائداً لأنه ليس من رجال الحرب ، وكان يقود هذه الحملة خلف بن نجاح ومحمد بن مرتين (البيان المغرب ٣ ص ٢٦٠ ، ودوزى ٣ ص ٩٧ و ٩٨) . وكذلك كان شأن ابن عمار فى مرافقته حملات ابن عباد الأخرى إلى شرق الأندلس كما سيجىء ، فقد كان يتولى فيها ناحية الإشراف والتوجيه عند المآزق . ويشير المؤلف إلى « ابن عمر » فى عدة مواضع ، وقد صححناها فى سياق الكلام . (راجع فى حياة ابن عمار وشعره قلائد العقيان ص ٨٣ وما بعدها ، والمراكشى ص ٦٩ وما بعدها) .

أصدقاءهم قد انقلبوا عليهم . وكان الأمير محمد بن جهور مريضاً طريح الفراش ، فوقع أسيرا فى يد أعدائه ، ولم يعش بعد هـذه الخيانة المروعة سوى أيام قلائل . ولم يكن مصير ابنه عبد الملك بأفضل من مصيره ، فقد عاد من مطاردة الطليطليين إلى قرطبة ، فألفى أبوابها مغلقة دونه . ولما طُلب إليه التسليم أدرك فى الحال ما ارتكبه الحلفاء الغادرون من خيانة أثيمة . واستشاط سخطا ووجدا ، فألقى بنفسه أمام قوة كبيرة تحدق به من كل صوب . ولبث يقاتل قتال المنتقم اليائس حتى أثخن جراحا ، وسقط من فوق جواده مغشيا عليه ، ثم توفى فى الأسر بعد ذلك بأيام وهو يصب اللعنات على ابن عباد وعلى أهل قرطبة الذين استقبلوا الخونة طائعين (سنة ٤٥٢هـ — ١٠٦٠م) ، وهكذا انهارت دولة بنى جهور فى قرطبة ، ولما يمض على قيامها ثلاثون عاما فى محنة محزنة حقا ، وهى محنة افتدى بها الأولاد الأبرياء خيانة أبيهم جهور للخليفة هشام الثالث (المعتمد بالله) .

وعندئذ غدا أمير إشبيلية أقوى أمراء اسبانيا المسلمة ، وعمد ابن عباد إلى استرضاء زعماء الأراضى المفتوحة بجليل الصلات ، وإلى اجتذاب الشعب بمختلف المآدب والحفلات ومصارعة الوحوش . وسرعان ما نسى الناس حكم بنى جهور الصالح . بيد أنه كان ثمة شخص يتوق إلى الانتقام ، هو الحارث بن الحكم قائد الجيش القرطبى . وكان قد انسحب مع فرسانه إلى مدينـة الزهراء مقام الخلفاء الأمويين السالف ، فلما وقف على مصرع بنى جهور غادر ظاهر قرطبة وسار إلى المأمون صاحب طليطلة ، خصيمه الذى طالما حاربه من قبل ، وعرض عليه خدماته ضد العدو المشترك ، فاستقبله المأمون مغتبطا ، واتحد الاثنان بعد الخصومة وأخذا يدبران معاً هلاك عدوهما الظافر .

وكان المأمون يرى جزعا قوة صاحب إشبيلية فى ازدياد مستمر . ذلك أن حروبه مع الأدارسة كانت تكلل بالظفر المستمر . وقد انضم إليه معظم الزعماء العامريين أمراء قسطلون ومربيطر (مرفيدور) وشاطبة والمرية ودانية . ولما فرغ المأمون من أهبته الحربيـة دعا صهره (زوج ابنته) عبد الملك المظفر ، الذى

خلف أباه عبد العزيز فى حكم بلنسية (٤٥٢ هـ — ١٠٦٠ م) إلى معاونته بالجند . ولكن عبد الملك اعتذر عن إجابته نزولا على نصح وزيره محمد بن مروان ؛ واحتج بأن وقوف معظم العامريين إلى جانب إشبيلية ، يجعل إقدامه على هذه المعاونة خطراً على بلنسية ، فلما وقف المأمون على جواب صهره ، وخشى من جهة أخرى أن ينضم إلى ابن عباد جهز جيشه سرا ، وعقد تحالفا مع الملك فرديناند الأول صاحب السيادة عليه . وانقضت القوات المتحدة بسرعة البرق على بلنسية ، ولم يستطع البلنسيون مقاومة للفرسان القشتاليين ذوى الدروع الحديدية ؛ وسقطت ولاية بلنسية كلها فى يد المأمون (أكتوبر سنة ١٠٦٥) ولم ينقذ حياة عبد الملك سوى تدخل زوجته ابنة المأمون فأبقى المأمون عليه وأقطعه حكم « شلبة »[1] : وأما صاحب النصح المشئوم الوزير ابن مروان فقد آثر الانتحار حتى لا يشهد محنة سيده ، التى يحمل بعض تبعتها . وبعد أن نظم المأمون حكومة بلنسيه وعين واليها ، عاد إلى طليطلة وقد ضم قوات بلنسية إلى قواته استعداداً لمحاربة ابن عباد . ولكن حالت دون إتمام أهبته بعض الشؤون . ذلك أن الملك فرديناند الأول صاحب قشتالة الذى كانت واقعة بلنسية آخر غزواته المظفرة توفى بعد ذلك بأشهر قلائل . وثارت من جراء تقسيم مملكته بين أبنائه الثلاثة ، حروب شديدة ، وانتهز المأمون من جانبه فرصة اضطراب المملكة النصرانية ، فنكل عن أداء الجزية التى تعهد بها لملك قشتالة ، وأدى ذلك فى الوقت نفسه إلى حرمانه من معاونة النصارى ، وهى معاونة لم يكن يستطيع دونها لقاء أمير إشبيلية ، فلما تم الأمر لسانشو (شانجه) واستولى على مملكة أبيه كلها (سنة ١٠٧٠م) فر أخواه إلى الأمراء المسلمين ، والتجأ أحدهما

---

(١) تسمى الروايات العربية هذه الواقعة التى ترتب عليها سقوط بلنسية بواقعة بطرنه Paterna . وقد اختلف فى مصير عبد الملك المظفر بعد سقوط عاصمته ، والمعول عليه أن صهره المأمون اعتقله فى قرية شنت بريه من أعمال طليطلة وقتئذ ، أو فى قلعة قونقة من أعمال بلنسية ، أو فى قلعة أقليش ، (راجع البيان المغرب ٣ ص ٢٥٢ و ٢٦٧ و ٣٠٣ ، ودوزى ٣ ص ٧٩ والمراجع) . أما رواية المؤلف فقد نقلها عن كوندى وهى رواية ضعيفة . وأما مدينة شلبة Xelba أو Chelva الحديثة ، فهى مدينة صغيرة تقع شمال غربى بلنسية ، وهى غير مدينة شلب فى غرب الأندلس .

وهو جارسيا (غرسية) ملك جليقية إلى المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ، والتجأ الثانى وهو ألفونسو (ادفنش) ملك ليون إلى المأمون صاحب طليطلة .

وكان المعتضد بن عباد أمير أشبيلية قد توفى أثناء ذلك (سنة ٤٦١ هـ — مارس سنة ١٠٦٩م) توفى فى السابعة والخمسين من عمره بعد حكم زاهر دام سبعة وعشرين عاما . ويقال إن حزنه العميق على وفاة ابنته الحسناء طاهرة قد عجل بموته ؛ نخلفه فى حكم إشبيلية وقرطبة وقرمونة ولده الشجاع محمد الملقب بالمعتمد على الله . وكان فارسا ذا بأس (وكان يرتدى فى الحرب درعا من اللازورد الأزرق مرصعاً بنجوم من الذهب تحيط بهلال مذهب) ، وقد حالفه حسن الطالع فى حروبه مع الأدارسة وحلفائهم ؛ وفى حفل بيعته تسمى بالظافر والمؤيد بالله مضافة إلى لقبه[1] .

وكان المعتمد بن عباد كأبيه المعتضد يتمتع بخلال باهرة ؛ بيد أنه كان مثله يجيش بأهواء وضيعة . وكان يغتنم بذكائه وشجاعته وجوده تقدير الشعب وثقته . وكانت جهوده فى سبيل تعويض الذين نكبتهم قسوة أبيه ، تحيط حكمه بحب الأكابر والأصاغر على السواء . بيد أنه كان مثل أبيه فى نظر الفقهاء مستهترا بالدين ، يستبيح شرب الخمر ويبيحه للجند فى الميدان ، وكان شاعراً طائر الصيت يغدق عطفه ورعايته على العلماء ، وينافس فى ذلك صديقه معز الدولة صاحب المرية .

ولما تولى المعتمد حكم إشبيلية ، كانت بقية الدول الإسلامية الأخرى بالجزيرة قد حطمتها الحروب الداخلية أو غزوات النصارى ، فلم يكن أمام المعتمد من يخشاه إذا استثنينا أمير طليطلة الذى كان يحكم بلنسية فى نفس الوقت ، وكان تفوق هذين الأميرين على باقى الأمراء عظيما جدا حتى إنهما استطاعا أن يرغما باقى الأمراء على الوقوف إلى جانب أحدهما أو الآخر . ولما رأى المأمون أن إشبيلية مشغولة بحروبها المستمرة مع الأدارسة ، وأن بنى الأفطس يقتتلون فيما بينهم بزعامة يحيى المنصور وخصيمه عمر المتوكل على الحكم عقب وفاة محمد بن عبد الله

---

(١) تلقب أبو القاسم محمد بن عباد بالمعتمد على الله ، والظافر بحول الله ، (المراكشى ص ٥٤) .

المظفر ، وأن بنى هود والتجيبيين فى ولاية سرقسطة يشتبكون مع جيرانهم النصارى فى معارك دموية مستمرة ، رأى الفرصة سانحة للعمل ، والانقضاض على العامريين أصحاب تدمير ومرسية حلفاء إشبيلية وانتزاع تلك الأراضى منهم ، بحجة أنه وهو أمير بلنسية صاحب السيادة عليها .

وما كاد المعتمد يقف على فعلة المأمون حتى أرسل قائده الشجاع ابن عمار وأبا بكر بن عمرو والى تدمير وأحمد بن طاهر والى مرسية على رأس قوة من الفرسان لإنجاد مرسية . ولما كانت هذه القوة أضعف بكثير من القوة التى بعثها المأمون ، فقد جمع زعماء مرسية مبلغ عشرة آلاف من الذهب استأجر بها ابن عمار مددا من الكونت ريموند برنجار أمير برشلونة ، وبعد أن تبادل الفريقان العهود والرهائن سار ريموند على رأس قوة مختارة من الفرسان مخترقا بلنسية إلى مرسية ، وهنالك انضم إلى جيش إشبيلية الصغير ؛ ولكنه ما كاد يقترب من مرسية حتى تولته الدهشة واعتقد أنه قد غدر به ، إذ رأى حول المدينة عدة آلاف من الطليطليين يحاصرونها ؛ وعندئذ صرح بأنه من العبث الخطِر أن يهاجم بتلك القوات الصغيرة جيشاً يضم قوات طليطلة وبلنسية وقونقة ودانية ومربيطر وشاطبة وشنتمرية والسهلة ، وتعاونه فرق كبيرة من المرتزقة من قشتالة وجليقية ، وأعلن انسحابه فى الحال ، وأنه لا يستطيع الانتظار حتى يأتى المدد من إشبيلية . ولكن الجبن نصف الهزيمة ؛ وقبل أن يتمكن القطلونيون من الانسحاب اضطروا إلى خوض المعركة مع جند المأمون (١٠٧٣م) وأصيبوا مع حلفائهم الأشبيليين بهزيمة شنيعة ولاذ المهزومون بالفرار فى مختلف الأنحاء ، وحصل المأمون بهذا النصر الباهر على مرسية وأريولة وعدة مدن أخرى ، ونادى بنفسه فى الحال أميرا عليها . وبذا أصبح هذا الأمير القوى يسيطر على أواسط اسبانيا كلها وهو ما يعادل نحو ثلث أراضيها .

وفى ذلك الحين أيضاً انتهت الحرب الأهلية التى نشبت فى اسبانيا النصرانية عقب وفاة سانشو ملك قشتالة ، وأسر أخيه جارسيا ملك جليقية على يد الملك

ألفونسو السادس ؛ ولم ينس ألفونسو أنه لقى أثناء محنته من أمير طليطلة كل حماية ورعاية ، فعقدت عندئذ بين ألفونسو السادس والمأمون محالفة بتبادل المونة والدفاع ، وتعاهد الأميران على أن يرتبطا معاً برباط الصداقة الوثيق .

وبدا عندئذ هلاك صاحب إشبيلية ألد أعداء طليطلة ، أمراً لا مناص منه . ورأى المأمون ألا يترك لابن عباد فرصة لكى يقوى نفسه بالتحالف مع بنى هود أصحاب سرقسطة ، وبنى الأفطس أصحاب بطليوس ، وأن يقضى نهائيا على الأدارسة حسبما كان يعتزم ، فبادر بمهاجمة خصمه من ثلاث جهات ، لكى يحكم تسديد الضربة إلى قرطبة . وبينما زحف القائد ابن لبون صاحب مرسية ظافراً صوب جيّان ، وسار جيش آخر إلى حدود سرقسطة ليرقب حركات ابن هود ، وتظاهر الجيشان كل بأن الحرب واقعة فى الناحية التى قصدها ، إذ هاجم الفرسان الطليطليون بقيادة الحارث بن الحكم والمرتزقة القشتاليون قرطبة على غرة ، فسقطت فى أيديهم دون مقاومة . ولكن نشبت بين الفريقين فى الزهراء فى ظاهر قرطبة معركة دموية . ودافع حرس ابن عباد ، وهم من المغاربة بقيادة ابنه سراج الدولة عن القصور الملكية دفاعاً شديداً ، حتى أثخن قائدهم الشجاع جراحاً وأسلم الروح . وأمر الحارث أن يرفع رأس الأمير القتيل على رمح ، وأن يطاف به فى شوارع قرطبة ، وأن ينادى : هذا انتقام الله ، ويا لروعة انتقامه ، لمقتل الأمير عبد الملك بن جهور .

وسرعان ما زحف معظم جيش طليطلة على إشبيلية ، ولم يكن بها يومئذ سوى قوة يسيرة ، لأن المعتمد كان قد سار فى معظم قواته إلى مالقة لافتتاحها من يد الأدارسة . وتوج زحف المأمون السريع بالظفر التام ، فاقتحم إشبيلية (٤٦٨ هـ ١٠٧٥ م) ، ولم يلق معارضة إلا أمام القصر ؛ ودافع عنه الحرس دفاعاً قويا ، حتى سحق ومزق أمام الكثرة الغالبة ، واحتوى أمير طليطلة الظافر على جميع أموال بنى عباد ، وفرقها بين جنده جزاء شجاعتهم وهمتهم ، ولكنه حرص على ألا يمس نساء المعتمد بسوء[١] .

---

(١) إن هذه الواقعة ، أى واقعة استيلاء المأمون بن ذى النون على إشبيلية ووفاته =

بيد أن المأمون ارتكب خطأ فادحاً ، إذ لم يتم الحرب كلها بسرعة . ذلك أنه بدلا من أن يسعى بعد فتح المدينتين توًّا إلى لقاء ابن عباد فى ميدان الحرب ، لبث فى إشبيلية ستة أشهر دون عمل . وفى أثنائها استطاع المعتمد أن يختتم حربه مع الأدارسة بالظفر التام ، إذ استولى على الجزيرة وعلى مالقة ذاتها ، وقضى بذلك على سلطان الأدارسة فى الأندلس ، واستطاع أيضاً أن ينتزع بعض البقاع من عبد الله بن بلكين بن باديس صاحب غرناطة . وفى الوقت نفسه كان المقتدر بن هود صاحب سرقسطة وحليف ابن عباد يقاتل جند المأمون بنجاح ، ويهدد بلنسية ؛ ومن ثم فإن المعتمد لبث قوى الأمل . ومع أن عاصمتيه قد سقطتا فى يد أعدائه ، فإنه لم يخالجه شك فى أنه مستعيدهما . وما كاد ينتهى من حرب الأدارسة ، حتى سار فى معظم قواته ليسترد عاصمته ، ولم يك ثمة شك فى أن سكانها المخلصين له سيشدون أزره ؛ ولذا ما كاد يضع الحصار حول إشبيلية حتى بدأ يحالفه حسن الطالع . ذلك أن المأمون بن ذى النون توفى لمرضه وهرمه فى شهر ذى الحجة سنة ٤٦٨ (يونيه ١٠٧٦ م) ، وتوفى قبله ابنه هشام نائبه فى الحكم وولى عهده ؛ وعهد المأمون قبل وفاته بالحكم إلى ابنه الثانى يحيى الملقب بالقادر بالله الذى يصفه البعض بأنه حفيده[1] . ولما كان يحيى لا يزال حدثاً ، فقد عين للوصاية عليه حتى يبلغ الرشد ، بعض الولاة ، والحارث بن الحكم ، والملك ألفونسو

= بها ، ثم استرداد المعتمد لها ، وما يتعلق بذلك من التفاصيل التى يوردها المؤلف فى هذا المقام قد اشتقت جميعها من كوندى ومصادر أفرنجية أخرى . وهى رواية لا سند لها ولا تشير إليها المصادر الإسلامية بكلمة . والظاهر أن الأمر يتعلق هنا بخلط بين هذه الواقعة المزعومة وبين واقعة حقيقية أخرى ، وهى استيلاء المأمون على قرطبة ووفاته بها ثم استرداد ابن عباد لها . وهذه هى الواقعة التى تؤيدها المصادر الإسلامية ، فقد استولى المأمون على قرطبة سنة ٤٦٨ هـ بمعاونة مغامر ومتآمر يدعى جرير بن عكاشة ، ثم توفى بها بعد دخولها بأيام قلائل ، وقيل إنه توفى مسموما . فارتد جنده عنها إلى طليطلة ، وعاد ابن عباد فاسترد قرطبة وانتقم من قتلة ولده . ولم تخرج إشبيلية من قبضة بنى عباد قط حتى استولى عليها المرابطون سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) ، (راجع ابن الأثير ج ٩ ص ٩٩ ، وابن خلدون ٤ ص ١٥٩ و ١٦١ ، والمراكشى ص ٥٤ وما بعدها ، وراجع أيضاً دوزى ٣ ص ١٠٠ و ١٠١) .

(١) هو يحيى بن إسماعيل بن يحيى بن ذى النون ، وهو فعلا حفيد يحيى المأمون ، (ابن خلدون ٤ ص ١٦١) .

السادس ؛ وكان المأمون يثق بألفونسو ثقة خاصة ، ويعتبره أعز أصدقائه ، وأعظم عضد لطيطلة ، ولم يخطر بباله أنه سيجنح بعد ذلك إلى نقيض ما كان يؤمل .
وكان موت المأمون إيذاناً بأفول طالع بنى ذى النون . وكانت طيطلة إبان حياته أعظم دول أسبانيا المسلمة ، وكانت مبعث البذخ والبهاء . وقد اشتهر المأمون بالأخص بما شاده من الأبنية الشامخة التى انتهى إلينا عن بنائها كثير من القصص المغرق ، ومنها ما حكى أنه ابتنى فى نهر تاجه قصراً يستطيع الجالس فيه أن يرى من عروشه البلورية الأسماك تشق النهر .

٢ — تفوق أمير إشبيلية

لم يستطع جند المأمون أن يصبروا طويلا على المقاومة بالرغم من أن موت أميرهم قد أخفى عنهم مدى حين ، وبالرغم مما أبدى قادتهم من الشجاعة والبراعة فى رد هجمات المعتمد ؛ ومن ثم فقد آثروا ترك المدينة بعد إذ رأوا ما يجب لإخضاع أهلها من كبير جهد ؛ واستطاعت قوى الفرسان الكثيفة أن تشق لجند طيطلة بين الجيش المحاصر طريقا ؛ وأن تمكنه من الوصول إلى قرطبة دون خسارة كبيرة . بيد أن عود الجند القشتاليين إلى أوطانهم نظراً لاقتراب الشتاء ، وظهور بعض القلاقل فى المناطق التى افتتحتها طيطلة ، حملا قادة القادر على مواصلة السير . وبقى الحارث بن الحكم فى قرطبة والياً لها ، وهو يمنى نفسه أن يستقل بحكمها بالرغم من قلة جنده .

ولكن لم تتح له فرصة لتحقيق أطماعه ؛ ذلك أن المعتمد الذى حالفه التوفيق فى حصار إشبيلية بادر بالاستفادة من ظفره ، فظهر أمام أسوار قرطبة قبل أن يعلم أحد بمغادرته لأشبيلية . وفى الحال أدرك الحارث أسفاً أن أهل قرطبة يؤثرون أمير إشبيلية على حكمه وحكم القادر . ورأى الخيانة والغدر من أولئك الذين كان يعتبرهم أنصاره ، فلاذ بالفرار صوب طيطلة . ولكنه فر متأخراً ؛ وما كاد المعتمد يدخل قرطبة على رأس جيشه فى موكب رائع ، حتى انقلب إلى دنه مطار فى سرية من الفرسان وأدركه غير بعيد . ثم طعنه بحربته فى ظهره طعنة

مطاردته

نفذت إلى صدره ، وذلك انتقاماً لموت ابنه سراج الدولة . وعلقت جثته فوق سارية على قنطرة قرطبة وشنق إلى جانبه كلب مبالغة فى الإهانة . وترك الحارث ولداً هو أحمد عينه القادر والياً لقلعة رباح[1] .

وهكذا غادر طليطلة حسن طالعها وتحول عنها إلى أمير إشبيلية ولم يكتف ابن عباد باستعادة المدن والأراضى التى فقدها ، بل عمد فوق ذلك إلى انتزاع مرسية وبلنسية من القادر . ذلك أنه بعث وزيره الماكر ابن عمار إلى تلك المنطقة ليعمل على إثارة العامريين على بنى ذى النون ؛ وسرعان مارفع عبد الملك بن عبد العزيز صاحب شلبه ، وأمير بلنسية السابق علم الثورة[2] ، واستطاع أن يسترد بلنسية وسيادته القديمة عليها بلاصعوبة . ولما توفى بعد ذلك بقليل (سنة ٤٧٠ هـ — ١٠٧٨ م) خلفه فى حكمها ولده أبو بكر . ولكنه كان فى الواقع أكثر خضوعا لابن عباد منه كأمير مستقل . غير أن ابن عمار لم يستطع أن يكسب عبد الرحمن بن طاهر والى مرسية بمثل هذه السهولة ، وكان حليفا مخلصا لبنى ذى النون ، فاضطر أن يضرب الحصار حول المدينة مدى حين حتى نفدت أقواتها واضطر ابن طاهر إلى التسليم (سنة ١٠٧٩ م) . ورأى ابن عباد أن يماقبه على مقاومته فنزع منه ولاية المدينة وأعطاها لابن عمار جزاء له على جهوده الموفقة فى خدمته .

ولكن المعتمد لم يكن ليطمئن إلى هذا الظفر كله ما دام فى وسع القادر صاحب طليطلة أن يعتمد على معاونة ملك قشتالة . وكان يرى أنه لا بد من إبعاد هذا الحليف القوى عن بنى ذى النون ، مهما كلفه ذلك من عظيم التضحية ، إذا أراد أن يغنم سيادة اسبانيا المسلمة كلها ؛ ولو أنه استطاع أن يظفر بصداقة ألفونسو السادس وعمل ألفونسو من جانبه على تهديد طليطلة وشغلها ، لكان من المحقق

(١) يراجع الهامش السابق ، ويورد دوزى واقعة مطاردة ابن عباد للحارث وقتله والتمثيل بجثته منسوبة لابن عكاشة ، فهو الذى طورد وقتل ومثل بجثته وهو الأرجح (ج ٣ ص ١٠١)

(٢) أشرنا فى هامش سابق إلى اختلاف الرواية فى مصير عبد الملك المنصور صاحب بلنسية بعد سقوطها فى يد المأمون والى أن شلبه المقصودة هنا هى غير مدينة شلب فى غرب الأندلس .

أن تنتصر جيوشه الظفرة على الإمارتين الباقيتين ، وهما إمارة بنى باديس فى غرناطة وإمارة بنى الأفطس فى بطليوس . ثم إن بنى هود فى سرقسطة لا بد أن يخضعوا لسلطانه ، نظراً لأن الأعداء المجاورين يحدقون بهم من كل صوب ؛ وكان المقتدر ابن هود يحكم سرقسطة منذ سنة ١٠٤٦م ولم يتح له إنقاذ ملكه من أطماع راميرو الأول وسانشو الأول ملكى أراجون إلا بمعاونة المرتزقة القشتاليين سنة (١٠٦٣م) ثم بالتحالف مع البشكنس (نافار) . بيد أنه خسر كل ما غنمه من المزايا فى معارك استمرت أعواماً . ذلك أن سانشو الأول ملك أراجون ضم معظم نافار إلى مملكته وأخذ يهاجم أراضى سرقسطة بقوى كبيرة ويستولى على قلاع الحدود واحدة بعد أخرى .

ومن ثم كانت الظروف كلها مواتية لأطماع أمير إشبيلية . بيد أنه أدرك أنه لا بد أن يبادر إلى عقد التحالف مع ملك قشتالة قبل أن يسبقه إليه أمير آخر . ومع أنه توقعا لأسوإ النتائج ، وهى أن يأبى ألفونسو أن يترك حلفه القديم مع بنى ذى النون ، قد جدد علائق الصداقة مع أمير برشلونة على يد ابن عمار والى مرسية ، وعرض أموالا كثيرة لاستئجار الجند المرتزقة ، فإنه رأى من الأصلح والأوفق لخططه ، أن يسعى بكل ما وسع إلى صداقة ملك قشتالة وليون ، إذ هى أدعى إلى النجاح بلا ريب . فبعث مفاوضه البارع ابن عمار إلى ليون وكانت يومئذ مقرا للملك قشتالة ، وفاز ابن عمار بأن يعقد بين ألفونسو وبين سيده معاهدة يتعهد بها ملك قشتالة أن يعاون أمير إشبيلية بالجند المرتزقة ضد جميع أعدائه المسلمين ، ويتعهد ابن عباد مقابل ذلك أن يدفع إلى ملك قشتالة مقادير كبيرة من المال . ويتعهد بالأخص عما هو أهم ، وهو ألا يعترض مشروع ألفونسو فى افتتاح طليطلة . وهكذا ضحى المعتمد بمعقل اسبانيا المسلمة ، لكى يفوز ببسط سيادته على الإمارات التى لم تخضع له بعد وهى إمارات غرناطة وبطليوس وسرقسطة .

ووهب ألفونسو السادس ابن عمار منظم هذه المعاهدة خاتمين ثمينين جزاء جهوده . ومع أنه لا صحة لما يروى من أن ملك قشتالة تزوج فى هذه المناسبة

بسيدة ابنة المعتمد توثيقاً للتحالف ، فإنه من المرجح أن ألفونسو استطاع على أثر هذه المحالفة أو فى محالفة تالية (سنة ١٠٩١ م) أن يضمها إلى زوجه كحظية له ، وهو تشبه بالتقاليد الإسلامية كان ذائعاً بين أمراء أسبانيا النصرانية ، بالرغم مما كانت تثيره الكنيسة ضده من شديد الاحتجاج[١] .

٣ — افتتاح ألفونسو السادس لطليطلة

وفى سنة ١٠٧٩ م أعلن ألفونسو الحرب على طليطلة اعتماداً على المعاهدة المعقودة ، وذلك بالرغم من أنه لقى فى طليطلة من قبل ملاذاً وحماية من مطاردة أخيه سانشو وبالرغم من أنه لبث إلى تلك الآونة يرتبط ببنى ذى النون بروابط الصداقة ، وقد أقسم أن يعاون ولد المحسن إليه على الاحتفاظ بأملاكه . نسى الأمير الظمىء إلى الفتح كل ما يفرضه العرفان والصداقة ، وتفرضه العهود ، واستعان بمعرفته لنواحى طليطلة أيام إقامته منفيا بها ، على الغدر بأولئك الذين أولوه حمايتهم ورعايتهم ؛ وقد شعر المؤرخون النصارى بلا ريب بفداحة هذا العدوان ، فلم يذكروا شيئاً عن التحالف بين ألفونسو وأمير إشبيلية والتزموا الغموض فى رواية الحادث حتى لا تبدو شناعته .

وكان الأمير القادر بالله قبل أن يبدأ ألفونسو محاربة طليطلة ، قد اضطر إلى مغادرة المدينة فراراً من عواقب ثورة قامت بها ، ومن المرجح جدا أن زعماء الثورة استدعوه حينما بدأ ملك قشتالة غزوته لأراضى طليطلة .

---

(١) استقى المؤلف هذه الرواية من بعض المصادر اللاتينية والنصرانية حسبما يبين فى تعليقاته (ج ١ ص ٣٨١) وترد فيها اسم ابنة المعتمد هكذا Zaida أو Ceida . وهى رواية تحمل سيما الإغراق والبطلان . وإذا لم يكن من المعقول أن يرضى أمير مسلم عظيم كالمعتمد ابن عباد أن يزوج ابنته من أمير نصرانى ، فانه مما لا يقبله العقل مطلقاً أن يرتضى أن تكون ابنته خليلة غير شرعية لمثل هذا الأمير ؛ وإذا لم يكن ابن عباد يقيم فى مثل هذا التصرف الشائن وزناً للاعتبارات الدينية والشرعية ، وهو فى ذاته مما لا يعقل ، فمن المستحيل عليه ألا يحسب أعظم حساب لنتائجه السياسية ، وأقلها أن يضطرم شعبه المسلم بالثورة عليه وأن يسحقه ويسحق أسرته .

وفى ذلك الحين كان أمير إشبيلية قد سار فى جيشه إلى غرناطة ليخضع أميرها عبد الله بن بلكين بن باديس إلى سلطانه ؛ وكان المقتدر بن هود أمير سرقسطة يرى الخطر يشتد عليه يوماً فيوماً من سانشو الأول (شانجه) ملك أراجون ، خصوصاً بعد أن سقطت فى يده قلاع الحدود بوليه وجرادوس وبترايادا وأرجويداس ومونزون ، واحدة بعد الأخرى ، ومن ثم فإنه لم يستطع إنجاد طليطلة من بين الأمراء المسلمين سوى أمير بطليوس يحيى بن الأفطس الملقب بالمنصور ، فجمع قواته وسار إلى لقاء ألفونسو ؛ وكان ألفونسو قد أثخن عندئذ فى ولاية طليطلة حتى صيرها قفراً بلقعاً ، ولم يكن يبغى بهذا العيث والتخريب ، سوى تجريد القلاع من كل وسيلة للحصول على القوت . ومن ثم فإنه لما شعر باقتراب المنصور ، ارتد أدراجه ، فعاد المنصور عندئذ بجيشه إلى حيث أتى ؛ ولم يمض سوى قليل حتى توفى مبكيا عليه من شعبه (٤٧٣ هـ — ١٠٨٢م)[1] فخلفه أخوه أبو محمد عمر بن محمد المتوكل ، وكان والياً ليابرة (إڤورا) وجعل ولده الفضل والياً على ماردة وولده الآخر العباس والياً ليابرة .

وفى العام التالى عاد ألفونسو فعاث فى بسائط طليطلة وخربها مرة أخرى . وكان المعتمد قد استطاع عندئذ أن ينتزع جيّان وأوبدة وبياسة ومرتوس من آل باديس أمراء غرناطة ؛ ومع أنه لم يستطع أن يسير قواته ضد طليطلة ، فانه سيرها نحو الغرب ، وزحف على بطليوس ، وبذا استطاع أن يحول دون معاونة بنى الأفطس للقادر ؛ وكانت بلنسية قد عادت بعد وفاة أميرها أبى بكر إلى ولائها نحو طليطلة ولكن شغلها أمير دانية . وأما سرقسطة فكان أميرها العالم الباسل المقتدر بن هود قد توفى (٤٧٣ هـ — ١٠٨١م) . وخلفه فى حكمها ولده يوسف

---

(١) فى هذا التاريخ تحريف ، وقد توفى المظفر أمير بطليوس فى سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٨ م) وخلفه ولده يحيى المنصور واستمر فى الحكم نحو أربعة أعوام . ثم خلفه ولده الثانى عمر الملقب بالمتوكل واستمر فى الحكم حتى سقطت بطليوس فى أيدى المرابطين سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) . وعلى ذلك فقد كان أمير بطليوس وقت غزو النصارى لأراضى طليطلة هو عمر المتوكل (ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٠ ودوزى ٣ ص ٢٣٩) .

ابن أحمد المؤتمن . وكان المؤتمن يرى وجوب معاونة القادر بن ذى النون معاونة قوية حتى لا تقع سرقسطة ذاتها فريسة للنصارى أو لابن عباد ، ولكن نضاله المستمر ضد أراجون وبرشلونة ، لم يكن يمكنه من أن يسيّر ضد قشتالة قوة يعتد بها . بيد أنه حاول أن يقضى على ألفونسو فى كمين دبره . وذلك أنه أوعز إلى حاكم حصن روطة المنيع أن يتظاهر ضده بالثورة وأن يستدعى إليه ألفونسو لكى يتسلم منه الحصن بنفسه ، ثم يفاجئه بالاعتقال والأسر . ولكن ألفونسو ارتاب فى الأمر فلم يحضر بنفسه ، وأرسل ولدى أخيه ملك نافار اللذين ربيا فى بلاطه مع جماعة من أكابر قشتالة لاستلام مفاتيح القلعة . وهنالك انقض المسلمون عليهم وقتلوهم عن آخرهم ؛ ولم يستطع ألفونسو أن يثأر لهذه الخيانة الأثيمة لمناعة القلعة واستحالة أخذها .

واستطالت الحرب أعواماً وألفونسو يعيث فى بسائط طليطلة أيما عيث وقد انتسف كل زروعها وأقواتها ، واستولى على كثير من أماكنها الحصينة . وفى العام السادس لبدء الحرب زحف على طليطلة ذاتها بجيش ضخم وضرب الحصار حول المدينة الزاخرة وقطع كل علائقها مع الخارج . وكان يحيى القادر أميراً مترفاً يؤثر العيش الناعم على حياة الحرب والنضال ، ولم يكن لقسوته وبطشه ، يتمتع حتى بحب شعبه ؛ ومع ذلك فقد حاول أن يبذل آخر وسيلة للدفاع عن ملكه فاستنهض بنى الأفطس لغوثه وقد أغاثوه من قبل ، واضطروا ألفونسو إلى الانسحاب ؛ وكان عمر المتوكل يواجه عندئذ خطر إشبيلية ، ومع ذلك فقد رأى من واجبه ألا يترك القادر لمصيره ، فبعث ولده الفضل والى ماردة بجيش لإنقاذ طليطلة ؛ ولكن جيش ألفونسو كان يفوقه عدة وعدداً . وبذا هزم الفضل فى جميع المعارك التى خاضها ، واضطر أن يعود إلى ماردة ، وقلبه فياض بالأسف والحسرة إذ كان يرى أن سقوط طليطلة قد غدا أمراً مقضيا ، وأنه سيجر معه اسبانيا المسلمة كلها إلى الهلاك .

ولما رأى القادر نفسه محروماً من كل عون ، ورأى ما يهدد شخصه من شعب

عزت أقواته ، عرض على ألفونسو أن يدفع الجزية ، وأن يعترف بسلطانه ، وأمل بهذا الثمن أن يفتدى العاصفة التى تنذره بالهلاك ؛ ولـكن ملك قشتالة أبى كل عرض فى هذا السبيل ، وأصر على وجوب خضوع المدينة وتسليمها دون قيد ولا شرط ؛ ولم يلق الشجعان القلائل الذى نادوا بالموت فى سبيل الحرية والاستقلال استحساناً ولا تأييداً من الشعب ، وقد كان يتوق إلى التخلص من بؤسه . وهكذا أصبح القادر عاجزاً عن الدفاع واضطر أن يسلم المدينة بعد أن تعهد ألفونسو لسكانها بتأمين أنفسهم وكافة أموالهم ، وأن يبقى مسجدها الجامع مفتوحاً للصلاة ، وأن يستبقى المسلمون شرائعهم وقضاتهم ، وأن يسمح لهم بالهجرة إلى الأراضى الإسلامية ، وأن يحملوا أموالهم دون معارضة . وهكذا سلمت قلعة المدينة ، وكذلك جميع نقطها الحصينة إلى ملك قشتالة ، وتعهد المسلمون بأن يؤدوا له جميع المكوس التى كانت تؤدى إلى بنى ذى النون .

ودخل ألفونسو السادس عاصمة القوط القديمة (طليطلة) فى السابع والعشرين من محرم سنة ٤٧٨ الموافق ٢٥ مايو سنة ١٠٨٥ . وعادت طليطلة إلى حظيرة النصرانية بعد أن حكمها المسلمون ثلاثمائة واثنتين وسبعين عاما ؛ واتخذها ملك قشتالة حاضرة ملكه من ذلك الحين ، وغدت بذلك عاصمة اسبانيا النصرانية ؛ ولم يمض قليل حتى عاد أسقف طليطلة إلى تبوء منصبه كرئيس للكنيسة الأسبانية كما كان الشأن أيام المملكة القوطية . ولما كانت طليطلة دائماً منزل كثير من النصارى واليهود ، فقد تناقص عدد سكانها المسلمين بسرعة . ذلك أن كثيرا من النصارى هرعوا إليها عندئذ من أنحاء قشتالة وليون ؛ ومن جهة أخرى فقد هجرها كثير من المسلمين ممن تبعوا أميرهم القادر إلى بلنسية التى منحت إليه ولايتها ، إما طوعا أو كرها بمعاونة ألفونسو . وهكذا اختتمت دولة بنى ذى النون فى طليطلة .

وكان سقوط طليطلة ضربة قاضية على التفاهم بين ألفونسو وأمير إشبيلية . ذلك أن ملك قشتالة لم يقنع بالاستيلاء على تلك القاعدة الهامة ، ولـكنه استولى

أيضاً على جميع الأراضى الواقعة على ضفتى نهر التاجه ، وعلى قلاع مدريد (مجريط) ، ومقودة ووادى الحجارة وقلعة رباح ، بل غدا يهدد قرطبة وماردة وبطليوس ؛ وهكذا جزع المعتمد وساوره الندم على تحالفه مع ملك النصارى ، وصب جام غضبه أولا على الوزير ابن عمار الذى عقد هذا الحلف ، والذى اشتهر يومئذ بمقدرته فى ميدان الحرب ، كما اشتهر بروعة شعره ، وبراعته فى عقد العلائق السياسية . فقبض عليه وألقاه فى السجن ، ثم أمر به فأعدم بالرغم من عديد خدماته وشفاعة العظماء من أصدقائه ، بل قيل إن المعتمد هو الذى تولى إعدامه بنفسه[1] .

وكتب المعتمد إلى ألفونسو ألا يتعدى فى فتوحاته طليطلة ، فإن هو نمل فإن ذلك يعتبر خرقا للتعاهد ؛ ولكن ملك قشتالة لم ير فى إنذار حليفه ما يحمله على وقف سيره المظفر ، وأجاب المعتمد بقوله إنه يملك ولاية طليطلة بالاشتراك مع صديقه الأمير يحيى القادر صاحب بلنسية . ولكى يدلل على أنه من جانبه مخلص لشروط التحالف أرسل إليه خمسمائة فارس من ذوى الدروع الحديدية لمعاونته فى محاربة غرناطة ؛ ولكن المعتمد ، وقد غدا يرتاب فى جميع تصرفات ألفونسو ، خشى أن يكون هؤلاء الفرسان الذين قدموا فجأة إلى جوار إشبيلية دون دعوة منه ، قد قدموا ليدبروا له مكيدة ما ، فبادر بعقد الصلح مع غرناطة لكى يعود الفرسان النصارى فى الحال من حيث أتوا .

وما أن وصلوا إلى طليطلة حتى أبدى ألفونسو دون حرج أنه ينوى افتتاح الولايات المسلمة كلها ؛ ولما أبى المعتمد أن يسلم إلى ملك قشتالة بعض حصون من ولاية طليطلة كانت فى يده ، أعلن ألفونسو ضده الحرب ، كما أعلنها على جميع الأمراء المسلمين ؛ ورأى الأمراء المسلمون بعد فوات الوقت كيف قدموا بأنفسهم من جراء تفرقهم إلى عدوهم الوسيلة لتقوية سلطانه عليهم .

وزحف ألفونسو على سرقسطة بادئ ذى بدء ؛ والواقع أن أميرها المؤتمن لم يكن ليستحق لوماً على تقاعسه عن نجدة طليطلة ؛ ذلك أنه مثل بنى الأفطس ،

(١) راجع الهامش عن ابن عمار ص ٥١ .

بذل كل ما يستطيع لغوث القادر ، ولكن جهوده لم تغن شيئا ؛ وكان ملك أراجون وقوامس [١] قطلونية يهاجمونه بلا انقطاع ، ويشغل فى الوقت نفسه بمحاربة أمراء دانية وقسطلون المسلمين ، فلم يكن بوسعه أن يحشد قواه فى نقطة بذاتها ، وقد أبدى فى معارك لاردة ووشقة ضروبا بديعة من البسالة ، ولكن جهوده لم تتوج بالظفر . ثم شهد قبيل موته سقوط طليطلة وعزه المصاب ، فحزن لموته جميع المسلمين المخلصين أيما حزن ؛ ذلك لأنهم فقدوا بفقده عضدا لديهم ؛ وفى الروايات الشعرية ما يفيد أن الفارس القشتالى المنفى السيد الكنبيطور قد عاش فى كنفه عدة أعوام [٢] وحارب من أجله ضد النصارى والمسلمين على السواء ، بيد أن معظمها ينتظم فى سلك القصة ولا يدخل فى حيز التاريخ .

وخلف المؤتمن ولده أبو جعفر أحمد الملقب بالمستعين بالله (٤٧٧هـ — ١٠٨٥ م) وما كاد يلى الحكم حتى أغار عليه ألفونسو ، وأضحت سرقسطة مهددة بمصير كمصير طليطلة ؛ وهنا رأى الأمراء المسلمون جميعا شبح السقوط ماثلا أمام أعينهم ، فاتحدوا لأول مرة واجتمعت كلمتهم على أن يضعوا حدا لفتوح ألفونسو . وإذ كانت قواهم مجتمعة لا تكفى لرد عدوانه ، فقد اتفقت كلمتهم على الاستنجاد بالمرابطين فى إفريقية واستدعائهم إلى الجزيرة .

---

(١) القوامس فى الرواية العربية جمع قومس مشتقة من اللاتينية Comes وهى الكونت وأحيانا يعبر عنها بكلمة قط (راجع ابن خلدون ٤ ص ١٨ و ١٨١ و١٨٢) .

(٢) كان السيد الكنبيطور (الكمبيادور) يتقلب فى خدمة بنى هود وقد خدم المؤتمن أعواماً ، واشترك فى حروب كثيرة .

الفصل الرابع

نشأة المرابطين

وأسباب عبورهم إلى اسبانيا

(من سنة ٤٤٢ — ٤٧٨ هـ) (١٠٥٠ — ١٠٨٥ م)

١ — عبد الله بن ياسين

كان اللمتونيون الذين اشتق اسمهم من ثوبهم البسيط « اللمت » يرجعون أصلهم مثل أقربائهم من بنى كدالة ومسطاسة[١] إلى قبيلة صنهاجة التى نزحت من بلاد العرب إلى المغرب[٢] وكانوا من البدو الرحل يتنقلون فى صحارى إفريقية من واحة إلى أخرى حتى انفصلوا فى النهاية عن باقى القبائل ، ونزلوا فى قاصية غربى إفريقية على مقربة من المحيط الأطلانطى[٣] . وكانوا يجهلون العلوم والفنون والكتابة ، ويجهلون تعاليم الإسلام بالرغم من مجاورتهم للأمم الإسلامية ، وكان دينهم « المجوسية »[٤] ، وقد حرموا تذوق الرفاهة التى تخلقها حضارة الإنسان ، ولكنهم كانوا أيضاً بمنجاة من الرذائل التى تترتب عادة على ارتفاع مستوى الحياة

---

(١) يورد المؤلف اسم مسطاسة محرفا « مسطافة » ، وهنالك قبيلة أخرى من قبائل صنهاجة تسمى «مسوفة» ، ولكن الأرجح أنه قصد الأولى . وكدالة تكتب أحياناً جدالة . (راجع روض القرطاس (طبع أوربا) ص ٧٥ ، وابن خلدون ٦ ص ١٤٤ ، والاستقصاء للسلاوى ١ ص ٩٨ ، وأبو الفداء ص ١٧٤) .

(٢) راجع ابن خلدون ٦ ص ١٥٣ ، وروض القرطاس ص ٧٥ .

(٣) يعرف المحيط الأطلانطى فى الجغرافية العربية بالبحر المحيط والبحر الأعظم وبحر اقنابس وبحر الظلمات وغيرها .

(٤) راجع ابن خلدون ٥ ص ١٨١ .

البشرية ؛ وكما حدث فى العصر القديم بالنسبة لاناخرسيس الاسكيتى [١]، فقد خرج يحيى بن إبراهيم اللمتونى فى أواسط القرن الحادى عشر الميلادى لتحصيل المعارف التى تنقص قومه فى البلدان الأخرى ، فتجول فى بلاد المغرب ورحل إلى بلاد العرب ، ووقف على مبادئ الإسلام ، وكذا على العلوم والمعارف التى كانت ذائعة فى العالم الإسلامى فى هذا العصر ؛ وكان يحز فى نفسه ما يراه من شدة تأخر قومه عن الأمم المتمدنة . وقد عقد العزم على ألا يدخر وسعاً فى تثقيف اللمتونيين فى صحاريهم بعلوم الإسلام ، وتعريفهم بمزايا المدنيـة ؛ وكان يحتاج فى ذلك إلى عالم مسلم ، فوقع على بغيته أثناء مقامه بالقيروان على يد فقيه من معارفه ، وألفى طلبته فى رجل يضطرم غيرة لتلك المهمة الشاقة ، أعنى تثقيف أولئك البدو الصحريين هو عبد الله بن ياسين [٢] . وكانت قبائل لمتونة وكدالة ومسطاسة تعرف باسم مشترك هو : « الملثمون » وذلك إما لأنهم كانوا يتخذون فى أعراسهم نوعاً خاصاً من الحجاب ، أو لأنه حـدث ذات مرة فى بعض حروبهم ؛ أن نساءهم كن يقاتلن معهم محجبات حتى يحسبن فى عداد الرجال [٣] ؛ واستقبل « الملثمون » الرسول الجديد عبد الله بفتور ، ولكن دروسه ما لبثت أن نفذت إلى قلوب البدو البسطاء ، وما لبث أن رفعه أولئك المسلمون الجدد إلى أعظم مقام واتخذوه سيدهم وحاكمهم . ثم دانت معظم قبائل الصحراء لعبد الله تارة بالإقناع وتارة بالسيف ، واجتمعت تحت لوائه . وأعلن زعيم الملثمين نفســه أبو زكريا يحيى بن عمر أنه تلميذه وتابعه ، وقنع من الزعامة بقيادة المجاهدين «فى سبيل الله» إلى ميدان الحرب ، فاختاره عبد الله وهو الإمام وصاحب الأمر ، أميراً وقائداً ، وأطلق على الملثمين اسماً جديداً هو «المرابطون» (أى الذين يتعاهدون على أن يخصصوا أنفسهم لخدمة

---

(١) هو فيلسوف من سيكيتيا نزح إلى اليونان ليتعلم فيهـا ، ويقال إنه كان صديقاً لصولون ، وقد اشتهر بوفرة الذكاء والحكمة .

(٢) هو عبد الله بن ياسين الكزولى أو الجزولى (روض القرطاس ص ٧٨ و ٧٩ ، وابن خلدون ٦ ص ١٨٢ و ١٨٣ ، والاستقصاء ١ ص ١٠٠) .

(٣) الاستقصاء ١ ص ٩٨ .

الله أو بمعنى آخر مشتق من كلمة «الرابطة» المسلمون الورعون المنقطعون للعبادة)[١]

وبث الدين الجديد فى أهل الصحراء حماسة واضطراماً ودفعهم زعماؤهم إلى الفتح ، فسارعوا من نصر إلى نصر . وكان المغرب الأقصى (موريتانيا) قد استقل عن اسبانيا المسلمة فى أوائل القرن الحادى عشر ، وبسط آل زيرى من قبيلة زناتة سلطانهم على معظم أرجائه ، فغمرته جيوش المرابطين الضخمة ، وكانت تتألف من فرسان مهرة ، وتضم بالأخص صفوفاً من المشاة البارعين فى فنون القتال ؛ وتؤلف الخطوط الأولى من صفوف من أشجع الجند المشاة يحملون حراباً بالغة الطول . وكان المرابطون يحرزون النصر بجرأتهم وجلدهم فى كل حرب تقريباً . وكان مَثَل زعيمهم وهو يتقدمهم محارباً فى أول الصفوف يذكى شجاعتهم وبسالتهم . على أن هذا الإغراق فى الجرأة من جانب القائد يحيى أبى زكريا لم يكن مما رضى الإمام عبد الله بن ياسين حتى أنه أمر به ذات يوم فعوقب على تهوره بالجلد عشرين سوطا[٢] . ومع ذلك فإن أبا زكريا لم يفارقه شغفه بخوض المعارك فى صميم لظاها ، حتى سقط ذات يوم قتيلا مقاتلا فى أحدى الوقائع . ولكن جنده أحرزوا النصر مع ذلك .

فاختار الإمام بما له من السلطة العليا ، أخا أبى زكريا أبا بكر بن عمر مكانه ؛ وفى العام التالى لقى عبد الله حتفه حينما كان يغزو ضد أهل تامسنا ، ويقاتل دون تحوط ، واثقا فى حظه وطالعه (٤٥١ هـ — ١٠٥٩ م)[٣] .

وكان مؤسس الدولة المرابطية يضطرم بتعصب مغرق استطاع أن يبثه فى قبائل الصحراء ، وكان يرى سحق جميع الذين لا يتلقون تعاليمه كلها دون قيد ولا شرط ، وكثيرا ما فعل ذلك متى توفرت له الوسيلة . وكان شديد التقشف فى مأكله ومشربه . وكان خطيبا موهوبا قوى التأثير والإقناع ، واسع العلم والمعرفة

---

(١) هذا التفسير تنقصه الدقة فالمرابطون مشتقة من الرابطة . وأصل معنى الرباط إرتباط الخيل بإزاء العدو فى الثغور ، ومنه المرابط وهو من لازم الثغر لدفع العدو ، أخذا من قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ، اصبروا وصابروا ورابطوا ، واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

(٢) راجع روض القرطاس ص ٨١ .

(٣) راجع روض القرطاس ص ٨٤ .

يرى فيه البدو البسطاء مخلوقا فوق البشر ، وبلغ من نفوذه لدى هذه الجموع البدائية أن استطاع أن يقودها لفتح أهل المغرب والقبائل البربرية ؛ وكانت تعاليمه غاية فى البساطة تسير جنبا إلى جنب مع نظم الدولة البسيطة . وكانت أخص واجبات المرابط الورع تنحصر فى الصلاة والزكاة وأداء العشر . وكانت الغنائم التى تحصل فى الحرب بعد أن يفرز منها خمس الإمام توزع على المجاهدين فتحفزهم بذلك إلى الغزو والظفر من جديد .

• ٢ — فتوح يوسف بن تاشفين فى إفريقية

ولما توفى عبد الله بن ياسين قبض أبو بكر على زمام الحكم دون شريك ، ولم يكن قبل ذلك سوى قائد للإمام ؛ ولما كانت مدينة « إفريقية » (؟) التى جعلها الأمير — وهو اللقب الذى اتخذه أبو بكر — مقامه قد أخذت تضيق بجموع صحبه الزاخرة فضلا عن سوء موقعها ، فقد رأى أن يختار موقعا آخر يبتنى فيه عاصمة جديدة لملكه ، وسرعان ما ظفر بهذا الموقع فى بسيط حافل بالزرع والماء ؛ وأقيمت به غير بعيد قصور ومنازل عديدة ، وسميت المدينة الجديدة « مراكش » . ومع أن أبا بكر لم يشرف على بنائها ، بل أشرف عليه خلفه ، فإنه يجب أن يعتبر مع ذلك مؤسس هذه المدينة الشهيرة ، وكان تأسيسها على الأرجح فى أوائل سنة ٤٥٤ هـ — ١٠٦٢ م .

ذلك أن أبا بكر بينما كان مشغولا باختطاط عاصمته الجديدة ، إذ نشبت حرب أهلية بين قبيلتى كدالة ولمتونة ، فهرع إلى الصحراء لكى يحول بتدخله دون أن تبطش إحدى القبيلتين بالأخرى ، وكانت كلتاهما تقاتل الأخرى بمنتهى النكال والشدة دون أن تتضح أسباب هذه الخصومة . ولما تعذر إقناع القادة من الفريقين بعقد الصلح ، بادر الأمير إلى نجدة لمتونة فى خيرة جنده نصرة لها على خصومها ، واستخلف ابن عمه يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن ترقوت من قبيلة صنهاجة على العاصمة الجديدة وأمره أن يتم تخطيطها وبناءها [١] .

---

(١) راجع فى تأسيس مراكش روض القرطاس ص ٨٩ ، وابن خلدون ٦ ص ١٨٤ والاستقصاء ١ ص ١٠٧ وما يورده فى ذلك من مختلف الروايات .

وبينما كان أبو بكر يقاتل كدالة فى الصحراء ، عمد يوسف بن تاشفين إلى توطيد سلطانه فى المغرب الأقصى . وكان هذا الرجل الذى خلق للزعامة يجمع بين جمال الطلعة والجسم ، وبين أبدع المواهب العقلية . وكان يتمتع بأوفر قسط من الذكاء والرأى الثاقب والشجاعة وبعد النظر ، وهى أخص صفات الزعامة ؛ وكانت شهامته وشغفه بالحرب ، وقد كان يقودها بفطنة وحسن طالع ، يسبغان عليه خلال الفروسية ؛ وكان جوده وولاؤه ؛ واحتقاره لمظاهر الترف فى الملبس والمسكن ، تكسبه محبة شعبه ، وتقوى فى نفوسهم من جهة أخرى عواطف التوقير والشرف التى وطدتها صرامته وعدالته ؛ وقد بلغ من اعتداله وتقشفه أنه لم يكن يأكل سوى خبز الشعير ولحم الإبل ، ولا يشرب سوى لبن الإبل ؛ وإلى هذا الاعتدال والتقشف يرجع الفضل فيما كان يتمتع به من صحة بديعة ؛ وفى كونه قد عاش مائة عام ، وهو عمر نادر البلوغ [1] .

وابتنى يوسف فى مراكش مسجداً بديعاً ، وقصراً حصيناً ، وعدة أبنية أخرى (سنة ٤٦٣ هـ — ١٠٧٠ م) ، بيد أنه لم يهمل شأن الحرب ؛ وكان لديه فضلا عن حرسه الخاص المؤلف من ألفى عبد اشتراهم من ساحل غيانه ، وفضلا عن قوة أخرى تسهر على شخصه ، مؤلفة من بضع مئين من الصقالبة النصارى من اسبانيا يحذقون فنون القتال ، جيش ضخم يضم زهاء مائة ألف مقاتل ، وينقسم إلى خمسة جيوش ؛ فإذا دقت الطبول سارت الجيوش المختلفة تحت أعلامها الخاصة لمقاتلة العدو فى أكمل نظام . وقادها يوسف ببراعة ، فغلبت على أنحاء موريتانيا (المغرب الأقصى) كلها ، وافتتحت مدينة فاس الحصينة ، وملأ يوسف خزائنه بالمال مما أصاب فى غزواته المظفرة ، وبالأخص مما انتزع من اليهود الذين كانوا يقطنون المغرب يومئذ بكثرة ، وكان يشتد فى مطاردتهم .

أما أبو بكر فبعد أن أتم حربه ضد كدالة ، وفاز بالنصر عليها ، وقاد جيشه

---

(١) كان مولد يوسف بن تاشفين سنة أربعمائة من الهجرة ووفاته سنة خمسمائة . راجع فى نشأته وخلاله روض القرطاس ص٨٧ وما بعدها ، وابن خلدون ج٦ ص١٨٤ وما بعدها ، والحلل الموشية (طبع تونس) ص ١٢ وما بعدها .

المظفر حتى قلب بلاد السودان فقفل راجعا إلى مراكش (سنة ٤٦٦ هـ — ١٠٧٣م) ولما اقترب من المدينة دعا يوسف إلى لقائه متظاهرا بصداقته ، وكان قد وقف على أطماعه وعظيم فتوحه وقواته معتزماً أن يجرده من الولاية التى قلده إياها بالغدر لا بالعنف ، فسار يوسف إلى لقائه فى مكانه بجيش ضخم ؛ فارتاع أبو بكر ، ورأى أنه لم يبق له من السلطان سوى الاسم ، وأعلن فى الحال استعداده لأن يترك لابن عمه مملكة المرابطين كلها وعاصمتها مراكش ، وأن يقنع بحكم اللمتونيين فى الصحراء ، فلم يتردد يوسف فى قبول هذا العرض ، وفى الحال أخذ البيعة لنفسه من جمهرة الزعماء الحاضرين ، وارتد أبو بكر إلى اللمتونيين فى الصحراء . وهنا تختلف الروايات فى مصيره ، فيقول البعض إنه لبث هنالك يحارب قبائل السود المجاورة مدى ثلاثة أعوام حتى توفى فى سنة ٤٦٩هـ — ١٠٧٦م ويقول البعض الآخر إنه عكف على الأهبة للحرب لأنه لم يستكن إلى فقد سلطانه ، وأنه سار إلى محاربة يوسف ، ونشبت بينهما معركة هزم فيها أبو بكر ، وأن الظافر لم يشعر نحو المحسن إليه بشىء من العرفان فأمر بإعدامه[1] .

وكان يوسف بن تاشفين يبسط سلطانه يومئذ فى شمال غربى إفريقية على مملكة تمتد من حدود غيانه خلال الصحراء ، وخلال موريتانيا (مراكش) حتى البحر الأبيض المتوسط ، ويحدها المحيط الأطلانطى من الغرب ، ويحدها من الشرق ولاية قرطاجنة (تونس) التى كانت تنضوى يومئذ تحت لواء خلفاء مصر الفاطميين . وفى سنة ١٠٧٠ م سقطت فى يده طنجة ، وكانت فى يد الأدارسة الذين أخرجوا من مالقة . وعاونه فى أخذها المعتمد بن عباد أمير إشبيلية نكاية فى أعدائه ، فبعث السفن لمحاصرتها من البحر ، وحاصرها يوسف من البر حتى سقطت ، ولم ينقصه سوى سبتة ، للاستيلاء على جميع بر العدوة المقابل لشاطىء الأندلس .

ولما امتد سلطان المرابطين نحو الشرق بافتتاح تونس (سنة ٤٧٢هـ — ١٠٨٠م)

---

(١) تضع الرواية العربية وفاة أبى بكر سنة ٤٨٠هـ . راجع فى لقائه بيوسف ومصيره روض القرطاس ص ٨٧ ، وابن خلدون ٦ ص ١٨٤ ، والاستقصاء ١ ص ١٠٦

سقطت سبتة كذلك فى أيديهم ، بعد حصار طويل (سنة ١٠٨٤ م) ؛ وهنا بدت شبه الجزيرة الأسبانية لهذا الأمير المطبوع على الظفر فتحا يسير المنال ، لا سيما وقد دعاه أهلها المسلمون لنجدتهم ضد النصارى .

٣ — الأخطار المحدقة بالإسلام فى اسبانيا

اجتمعت كلمة ألفونسو السادس ملك قشتالة وسانشو الأول ملك أراجون ونافارا (نبره) ، وكذلك الكونت برنجار ريموند فيما يظهر ، على سحق الدولة الإسلامية فى اسبانيا . ذلك أنه بالرغم من أن المسلمين قد حكموا معظم أرجاء الجزيرة زهاء أربعمائة عام ، فقد كان النصارى يرون أن حقوقهم ما تزال قائمة عليها ، وأن أرض اسبانيا ما تزال ملكا لهم ، ولم يكن يخالجهم شك فى أنهم سوف يستعيدون الجزيرة كلها ذات يوم ، ويخرجون الفاتح الأجنبى منها . وكان ألفونسو السادس يرى أن هذا اليوم قد حل . ذلك أن الممالك النصرانية نبذت عندئذ كل خصوماتها ومعاركها التى كانت فيما مضى تشل قواها ، وأخذت تسدد كل قواها مجتمعة ضد أعداء النصرانية . وكان من الميسور عقد هذه الوحدة ، فمنذ بعيد لم تجتمع أطراف المملكة النصرانية كما اجتمعت يومئذ ، إذ كان ألفونسو السادس يحكم جليقية وجزءا من البرتغال وأشتوريش وليون وقشتالة وبسكونية ؛ وكان سانشو راميرز يحكم أراجون ونافارا ، وكان الكونت برنجار ريموند يحكم برشلونة وأورجل ؛ وإذن فقد كان النصارى الأسبان على حق فى أمانيهم ، خصوصاً بعد أن سقطت طليطلة الحصن العظيم فى أيديهم ، وكانت أعظم معقل للدولة الإسلامية فى اسبانيا ، وكان كل شىء يبدو عندئذ ممكناً .

وبينما سار إلى الأندلس جيش ضخم من جليقية وليون وانتزع مدينة قورية من بنى الأفطس ، ووصل إلى بسائط إشبيلية ، فأحرق قراها وانتسف حقولها ، وسارت قوة من الفرسان إلى شذونة ، ثم اخترقت جزيرة طريف قاصية اسبانيا حتى البحر ، إذ حاصر القشتاليون بمعاونة جند من الأرجونيين والقطلونيين ، وضمهم ألفونسو تحت قيادته فيما يظهر ، قلعة سرقسطة الحصينة ؛

وسقوط سرقسطة يضع منطقة الايبرو (ابره) كلها حتما فى يد النصارى ، ويجعل الشواطئ الأسبانية مما يلى البحر الأبيض عرضة لغزواتهم .

وأثخن النصارى فى ولاية سرقسطة كلها بالنار والسيف ، ولم يكن يردهم فى الحرب أى اعتبار إنسانى ما دام الأمر متعلقا بأعداء الدين ، ولكن الحصون الإسلامية قاومتهم مقاومة شديدة ، وتلقى المؤتمن بن هود وعدا بوصول المدد السريع من إخوانه المسلمين فى جنوب الجزيرة . بيد أن النصارى كانوا يشددون الضغط على سرقسطة يوما بعد يوم ، وكان المسلمون فى شبه الجزيرة يرتجفون جميعاً لاحتمال سقوط هذا المعقل المنيع ، وكانت قواتهم وأهباتهم فى حالة يرثى لها وكانت دون قوى النصارى ، ومن ثم فقد كانوا بلا ريب يتطلعون إلى عون من الخارج . عندئذ اتجهت أبصارهم إلى قوة المرابطين الناهضة فى إفريقية ، وكانوا قد استولوا على بعض مدن الأندلس دون معارض ، وعولوا على استدعائهم والتماس عونهم وغوثهم [١] .

وكان المعتمد بن عباد وهو يومئذ أعظم أمراء الأندلس يتحمل بتصرفه الطائش فى معاونة ألفونسو على محاصرة طليطلة أكبر تبعة فى تلك النكبة التى نزلت به وبإخوانه المسلمين . بيد أنه غدا بعد أن تبين خطأه أوفرهم نشاطا فى العمل على تحطيم صولة النصرانيه ، وكان يرى مثل باقى الأمراء والولاة المستقلين أن قواهم قاصرة لا تكفى . ففى خلال مؤتمرين عقد أولها فى إشبيلية ، وثانيهما فى قرطبة اتفق الأمراء المسلمون على أن يرسلوا سفيراً إلى يوسف بن تاشفين فى إفريقية يلتمسون عونه وغوثه . أجل عارض البعض فى ذلك ولا سيما عبد الله ابن سكوت والى مالقة ، وكان يرى أن المرابطين أشد خطراً عليهم من النصارى وأنه ما يزال من الميسور أن ترد عادية النصارى بالاتحاد والمثابرة ، ولكن معظم الأمراء كانوا يائسين من الاعتماد على قواهم ، فأنحوا باللوم على عبد الله ساخطين ، بل رماه بعضهم بالخيانة ، وعهدوا إلى المتوكل أمير بطليوس ، وكان يومئذ أعلم

---

(١) فى روض القرطاس تفصيل حسن لغزوات النصارى فى تلك الفترة (ص ٩٢) .

أمراء الأندلس ، بأن يكتب إلى يوسف رسالة يصف فيها ما يلقاه المسلمون من النصارى من المحن ، ويلتمس إليه أن يبادر بغوثهم قبل أن تقع الطامة الكبرى ، ووقع هذه الرسالة ثلاثة عشر من الأمراء المستقلين ؛ فلما وصلت الرسالة إلى يوسف تشاور فى أمرها مع أكابر الزعماء والقربى فيما يجب صنعه . ورأى هؤلاء القادة الذين خرجوا حديثا من القفر ، ولم يسمعوا من قبل باسم النصارى ، ولم يلهوا أن للإسلام مثل هـذا العدو القوى ، أنه يجب نزولاً على حكم الدين أن يبادر المسلم إلى غوث المسلم ضد أعداء الدين .

على أن زعيم المرابطين وقد صقلته التجارب وبلغ ذروة النضج ، (وكان يومئذ قد جاوز السبعين) لم ير أن واجبه يقتصر فى ذلك على النزول عند بواعث النعرة الدينية ؛ ونظراً لنقص معرفته بالجزيرة وبالعدو المنتظر وكونه يخشى أن محاربة النصارى الأسبان قد لا تسفر عن النجاح المحقق ، فقد رأى أن يتبع فى ذلك نصح كاتبه عبد الرحمن[١] وهو أندلسى المولد يعرف الجزيرة وشؤونها حق المعرفة ، فشرح له عبد الرحمن ما يعترض الحرب فى الجزيرة من عظيم الصعاب ، لأن معظم الجزيرة فى يد النصارى ، والجزيرة ذاتها وعرة البسائط تعترضها جبال صعبة المسالك تحول دون الفتوح السريعة ، ويمكن تشبيهها بسجن يندر أن يستطيع الداخلون إليه الخروج منه . وتساءل الكاتب أى صداقة تربط سيده بأولئك الأمراء ؟ وأى قربى تحمله على غوثهم ؟ وأى ضمان قدموه إليه ؟ قال : فاذا انتصر عليك الأعداء فقد يقطع عليك طريق العودة إلى إفريقية بأيسر أمر . ومن ثم فنصحى إليك هو أن تخطر أمير إشبيلية أنك لا تستطيع العبور إلى اسبانيا قبل إخلاء حصن الجزيرة ، وبذا تملك موضعاً أميناً تشغله حامية مخلصة ، وتبقى فى كل وقت على اتصال دائم بإفريقية[٢] .

---

(١) هو كما فى الحلل الموشية عبد الرحمن بن أسبط ، وكان أندلسيا من أهل المرية (ص ٣٢) .

(٢) يورد ابن الخطيب نص الحديث الذى أدلى به عبد الرحمن إلى يوسف فيما يأتى : «فقال (أى عبد الرحمن) له أيد الله الأمير تعمرون الثمن ، وسبعة أثمان يعمرها النصارى ، =

وفى ذلك الحين الذى وجهت فيه الرسالة إلى أمير المرابطين بطلب الغوث ، وانتظرت منه الأمداد ، كان ملك قشتالة لا يزال يثخن فى أراضى المسلمين ، وفضلا عما كانت تشعر به سرقسطة كل يوم من ازدياد الضغط عليها وكونها كانت تحارب جيرانها العامريين ، كان بنو الأفطس إزاء خطر دائم . ذلك أن ألفونسو كان ينذرهم بتخريب جميع مدائنهم إذا أبوا الخضوع لسلطانه المظفر . وقد رد الأمير العالم عمر المتوكل صاحب بطليوس على مطالبه برسالة طويلة ، بيد أنه لم يحجم عن المضى فى غزواته وفتوحه[1] .

٤ — غلبة ألفونسو السادس على أسبانيا المسلمة

وبينما كان يوسف بن تاشفين يتردد فى العبور إلى أسبانيا إما لأنه لم يستكمل أهبته أو لأن الحصون المطلوبة لم تسلم إليه ، حاول عدة من الأمراء بأداء الجزية وتسليم حصون الحدود أن يحصلوا على مهادنة ألفونسو ولو إلى حين . ولم ينج أمير إشبيلية نفسه من ذلك الإذلال المهين . وبعث ألفونسو إلى إشبيلية سفيراً تسميه الرواية العربية بقرمط البرهانس[2] ومعه إلى المعتمد رسالة تفيض كبرياء وصلفا ينعت فيها نفسه بالقيصر وسيد الشعبين ، وإمام الشريعتين[3] . وتقول

= وهى (أى أسبانيا) ضيقة عرجة صريحة سجن لمن دخلها لايخرج منها إلا تحت حكم صاحبها ؟ وإن أنت جزت إليها وحصلت فيها ما يكون لك فى نفسك من شىء ، وهو الرجل الذى استدعاك ما بينك وبينه عتاب قديم ولا صداقة متصلة ، ويتقى إذا قضى الله الغرض من العدو أمسك بها ، والحال كما ترونه ، والنظر إليكم ، فاكتبوا إليه (أى إلى المعتمد) فإنه لا يمكنك الجواز إلى أن يعطيك الجزيرة الخضراء فتجعل فيها أثقالك وأجنادك ، ويكون الجواز بيدك متى شئت » (الحلل الموشية ص ٣٢) .

(١) راجع نص هذه الرسالة فى الحلل الموشية (ص ٢٠ و ٢١) ، وهى رسالة تفيض شجاعة وإباء ونبلا .

(٢) هكذا ورد اسم السفير فى خطاب ألفونسو السادس إلى المعتمد ، حسبما ينقله إلينا ابن الخطيب فى الحلل الموشية (ص ٢٢ و ٢٣) ، ولكن يلوح لنا أن هناك تحريفاً فى كلمة « القرمط » والأرجح أنها كلمة « القومط » البرهانس ، (أى الكونت) وهو بالأفرنجية (Alvar Fanez) وقد كان من أكابر قادة ألفونسو ورجال دولته .

(٣) ألفاظها كما وردت فى الحلل الموشية « من الإنبيطور ، ذى الملتين الملك المفضل الأدفنش بن شانجه » ولعل الإنبيطور هنا هى الإمبراطور .

الرواية العربية إن المعتمد أجاب على هذه الرسالة برسالة أشد كبرياء وعنفاً ولكنها تذكر مع ذلك أن المعتمد اضطر إزاء تردد يوسف فى العبور إلى اسبانيا أن يؤدى جزية مشينة ، ومن ثم فإنه يحق لنا أن نرتاب فى صحة هذه الرسالة[1] . وكان مع سفير ألفونسو قرمط البرهانس يهودى بارع فى شؤون النقد يدعى ابن شاليب ، والظاهر أن ألفونسو وقع غير مرة على مال زائف مما يقبضه من جزية الأمراء المسلمين ، فأمر اليهودى أن يفطن إلى ذلك فيما يقبضه من المعتمد ، فلما حمل إليه الوزراء مال الجزية التى يجب أن يؤديها المعتمد إلى ملك قشتالة أبى أن يتقبله دون فحص للتحقق من صحته ، فأثار ذلك نقاشا حادا ، وحاول السفير تسوية الخلاف فاقترح أن يقدم ابن عباد بدل المال المطلوب سفناً حربية بقيمة الجزية لأن اليهودى مأمور ألا يتسلم المال دون فحص وتحقيق .

ولكن المعتمد ازداد غضباً لأقوال السفير وصاح بأنه لا يستطيع أن يحتمل بعد طغيان النصارى الأوغاد بل قيل إنه بطش بالسفير خلافا لما يقضى به قانون الأمم (القانون الدولى) . وفى بعض الروايات العربية أن المعتمد فقأ عينى السفير بنفسه وقتل رفاقه وهم ثلاثمائة ، ولم ينج منهم سوى ثلاثة لاذوا بالفرار . وضرب اليهودى حتى غشى عليه ثم صلب ؛ ولكن توجد ثمة رواية غربية أخرى أوثق من هذه (والروايات النصرانيــة لا تذكر شيئاً عن الحادث) مفادها أن المعتمد كان أقل خشونة فى معاملة السفير . ذلك أن السفير كان يقيم مع حاشيته فى الخيام فى ظاهر إشبيلية ، فانسل إلى خيمة اليهودى بعض العبيد الصقالبة وقتلوه والنصارى الذين كانوا معه . وكان ذلك بأمر المعتمد بلا ريب . أما حياة السفير فقد حفظت نزولا على قانون الأمم ، وارتد السفير إلى طليطلة وهو يتوعد بنقمة مولاه[2] .

---

(١) ورد فى الحلل الموشية نص هذه الرسالة ، وفيها ينعى ابن عباد على ألفونسو كبرياءه وصلفه ويرد إليه وعيده (ص ٢٣ — ٢٥) .

(٢) راجع فى تفاصيل هذه السفارة وما وقع للسفير النصرانى وزميله اليهودى ابن شاليب فى الحلل الموشية ص ٢٥ و ٢٦ ونفح الطيب ٢ ص ٤٧٠ وابن خلكان ٢ ص ٣٩ وابن الأثير ٩ ص ٤٨ والاستقصاء ٢ ص ١١٣ ؛ والروايات العربيــة تختلف فى بعض التفاصيل ولكنها تتفق فى هذه السفارة وفى غايتها ، راجع أيضاً دوزى ٣ ص ١١٩ .

وتبين المعتمد بعد التأمل الهادئ سوء تصرفه ، ونصح الوزراء بأن يصور الحادث كفورة سخط جاش بها الشعب ضد اليهودى لما أبداه من عدم الثقة ، وأن يمد ألفونسو بالترضية الكافية وذلك اتقاء للعاصفة التى تبدو قريبة فى الأفق ؛ ولكن المعتمد كان يرى رأياً آخر فاستدعى ابنه الرشيد ، وكان قد أخذ له البيعة بولاية عهده ، وأفضى إليه بأنه إذ يستحيل عليه مقاومة أطماع ألفونسو وطغيانه بالسيف يعتزم أن يستدعى المرابطين إليه ، وأنه يؤثر أن يسحق على يد إخوانه فى الدين على أن يسحقه ألفونسو اللعين . وحديث المعتمد مع ولده يشف عن السبب الذى حمل يوسف بن تاشفين على التريث فى إجابة دعوة أمراء الأندلس ؛ ذلك أنه طلب تسليم حصن الجزيرة فى الأندلس وهو من أراضى أمير إشبيلية ، فتردد المعتمد فى تحقيق طلبه ، ولكن المعتمد رأى عندئذ أنه يجب أن يختار بين أن يسحق على يد ألفونسو وأن يلقى بنفسه فى يد المرابطين . ولما بين الأمير الرشيد لوالده ما ينطوى عليه التجاؤه إلى المرابطين من الخطر أجابه المعتمد بما يأتى : « أى بنى والله لا يسمع عنى أبداً أننى أعددت الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى ، فتقوم علىّ اللعنة فى منابر الإسلام مثل ما قامت على غيرى ؛ فى حرز الجمال والله عندى خير من حرز الخنازير »[١] .

٥ — يوسف بن تاشفين يعتزم العبور إلى اسبانيا

وبادر المعتمد فأرسل إلى المغرب سفارة تحمل رسالة بخطه وفيها ينعت سلطان المرابطين « بأمير المؤمنين » . وكان يوسف قد تلقب بأمير المؤمنين قبل ذلك بقليل نزولا على رغبة الزعماء وشفعه بلقب « ناصر الدين » ، وكانت هذه خطوة ذات شأن ، ذلك أن أحداً لم يجرؤ على ادعاء الخلافة قبل ذلك إلا إذا كان من سلالة النبى (ص) أو ادعى ذلك على الأقل . ومع ذلك فقد كان يوسف يعترف

(١) هكذا وردت فى الحلل الموشية (ص ٢٨) ، وقد أوردها المؤلف بشىء من الزيادة فى العبارة الأخيرة هكذا : « وتالله يا بنى إننى لأوثر أن أرعى الجمال لسلطان مراكش على أن أغدو تابعاً لملك النصارى وأن أؤدى له الجزية » . وراجع أيضاً ابن خلكان ج ٢ ص ٤٨٣ فى ترجمة يوسف بن تاشفين . وما قاله ابن عباد بهذه المناسبة موضع خلاف . والمتفق عليه هو أنه قال إن رعى الجمال خير من رعى الخنازير .

بدعوة خليفة بغـداد العباسى ، بل قيل فى بعض الروايات العربية إن الخليفة المستظهر بالله قد عينه أميراً على إفريقية ، وأحيط هذا التعيين بجميع الرسوم والتقاليد المرعية [١] .

ويصف المعتمد فى كتابه (إذا صح النص الذى انتهى منه إلينا) ما وصل إليه المسلمون فى الأندلس من جراء خلافهم وتفرق كلمتهم من حال يرثى لها ويتحدث عن ألفونسو ملك قشتالة فى أعنف لهجة ، ويذكر كيف أنه فى كل يوم ينقض على أراضى المسلمين كالكلب المسعور فيعيث فيها ، ويفتتح الحصون ، ويسبى السكان ، ويثخن فى كل شىء دون أن يهب أحد من أمراء الأندلس لغوثهم والدفاع عنهم ، وذلك بالرغم من أنهم يرون بأعينهم محنة ذويهم وأصدقائهم وجيرانهم ؛ وينسب المعتمد هذا الخور والتخاذل إلى اعتدال جو الأندلس ، وإلى الشغف بالملاذ ، وإلى الحمامات ذات الماء المطر ، وإلى المآكل الشهية والعيش الناعم الرغد ، ويرجو ألا يتردد يوسف وهو سيد أمم عظيمة وملك ضخم فى أن يعبر إلى أسبانيا ، وأن يقاتل ذلك العـدو الذى يطارد المؤمنين بكل ما يملك من غدر وخديعة قاصداً محو الإسـلام فى اسبانيا [٢] ، وكتب الوزير أبو بكر [٣] كتاباً بنفس للمعنى يؤكد فيه بحق أن انهيار سلطان المسلمين فى اسبانيا لا يرجع إلا إلى تفرقهم وتخاذلهم ، وأنه بينما يقوى النصارى بالاتحاد وينتزعون أراضى المسلمين ومعاقلهم بالعنف والخديعة وبالوعيد والوعد وبالسيف والإقناع ، إذا بقوى المسلمين تنضب يوماً بعد يوم . وقد غصت المساجد المتروكة بالقساوسة من أعداء

---

(١) وردت هذه الرواية فى ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٨ وراجع الحلل الموشية ص ١٦ .

(٢) راجع نص هذا الخطاب الذى ينسب لابن عباد إرساله إلى يوسف بن تاشفين فى الحلل الموشية ص ٢٨ و ٢٩ ، وقد لخصه المؤلف تلخيصاً حسناً ؛ وقد أشار إليه فى روض القرطاس (ص ٩٢) .

(٣) جاء فى الحلل الموشية أن أبا بكر هذا الذى تنسب إليه هذه الرسالة هو « أبو بكر ابن الجـد » (ص ٢٨) ، ولـكن يلاحظ من جهة أخرى أن أبا بكر بن زيدون ولد الشاعر الأشهر أبو الوليد بن زيدون المخزومى كان يومئذ من وزراء المعتمد بن عباد ، وكان بين رسل المعتمد وسفرائه إلى يوسف بن تاشفين ، ولعله هو كاتب الرسالة المشار إليها (راجع ابن خلـكان ج ١ ص ٥٤ ، ونفح الطيب ٢ ص ٥٢٦) ، أما نص هذه الرسالة فقد ورد فى الحلل الموشية (ص ٣٠ و ٣١) .

الدين ، ونشرت الصلبان فوق المنائر التى كان يتلى فيها الأذان من قبل ، وأخذت النواقيس تقرع للقداس بعد أن كان يدعى للصلاة . ويختتم الوزير كتابه بقوله إن يوسف قد غدا معقد الآمال وإنه يعتقد أن الله قد اصطفاه لإنقاذ الإسلام[١].

ولما كان يوسف قد أبدى أنه لا يستطيع العبور إلى أسبانيا إلا إذا أعطى له حصن الجزيرة فقد ارتضى أمير إشبيلية هذه التضحية بالرغم من اعتراض ولده الرشيد . وأرسل المعتمد إلى يوسف ينبئه بهذا القبول . ثم أرسل إلى ولده يزيد الراضى بالله والى الجزيرة يأمره بأن يسلم المدينة إلى المرابطين الذين يعينهم ابن تاشفين لتسلمها[٢] .

ثم رأى المعتمد أن يسعى إلى اجتذاب زعيم المرابطين إليه خاصة ، وأن يحمله على التعجيل بمقدمه إلى أسبانيا ، فسار إلى زيارته بالعدوة خفية فألفاه فى مكان يبعد عن سبتة بثلاثة أيام يقوم بأهبات عسكرية عظيمة ، ولم يكشف المعتمد عن شخصه حتى جاز إلى قصر الأمير ، ثم طلب إلى رجال الخاص أن يخطروا أمير المسلمين بأن ابن عباد يقف ببابه ، فذعر ابن تاشفين وظن أن المعتمد قدم فى جيشه ولكنه أدرك فى الحال خطأه ، واستقبل المعتمد بود وترحاب ، وسرعان ما أشار إليه أن يعود إلى اسبانيا ليقوم بإعداد المؤن اللازمة للجيش الذى بعده للعبور إلى الأندلس . فعاد ابن عباد إلى إشبيلية مستاء لخيبة المسعى الذى قصد وهو أن يحمل يوسف على أن يختاره نائباً من قبله لأسبانيا المسلمة . وعلى أثر ذلك أمر يوسف بعبور جيشه من سبتة إلى الجزيرة[٣]

(١) تشير الرواية العربية إلى مراسلات أخرى وجهت من أمراء الأندلس إلى يوسف (ابن خلكان ج ٢ ص ٤٨٢) .

(٢) راجع ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٦ ونفح الطيب ج ١ ص ٤٧ .

(٣) فى هذه الرواية بعض الغموض ، فالمتفق عليه أن ابن عباد عبر إلى المغرب لزيارة يوسف بن تاشفين . ولكن المختلف عليه هو ما إذا كانت هذه الزيارة قد حدثت قبل موقعة الزلاقة أو بعدها . والرواية الثانية أرجح وهو أن ابن عباد عبر إلى المغرب بعد الزلاقة ليستمد عونه فى بعض شؤونه (راجع ابن خلكان ج ٢ ص ٤٩٠) . ويأخذ دوزى بهذه الرواية (ج ٣ ص ١٣٤) ويورد المراكشى (ص ٧٠) وصاحب روض القرطاس (ص ٩٣) الرواية الأولى وهى التى أخذ بها المؤلف .

الكتاب الثانى

سيادة المرابطين فى شبه الجزيرة

فى عصرى ألفونسو السادس ملك قشتالة

وألفونسو المحارب ملك أراجون

الفصل الأول

فتوح المرابطين فى اسبانيا

فى عهد يوسف بن تاشفين وولده على

حتى موقعة اقليش

(من سنة ٤٧٩ — ٥٠٢ هـ) — (١٠٨٦ — ١١٠٨ م)

---

١ — حملة يوسف لإنجاد الأندلس ضد ألفونسو السادس

فى شهر ربيع الآخر سنة أربعمائة وتسع وسبعين من الهجرة الموافق أغسطس سنة ١٠٨٦ م عبر يوسف بن تاشفين بجيشه من سبتة . وما كادت السفن تنشر قلاعها حتى صعد يوسف إلى مقدم سفينته وبسط ذراعيه نحو السماء ودعا ربه قائلاً : « اللهم إن كنت تعلم أن فى جوازى هذا خيرا وصلاحا للمسلمين فسهل علىّ جواز هذا البحر ، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا أجوزه » . ويروى المسلمون الأتقياء أن البحر ما لبث أن هدأ وجازت السفن سراعا فى أبدع جو إلى شاطئ الأندلس . وما كاد يوسف يعبر إلى الشاطئ حتى صلى مفتتحا عمله باسم الله[1] ، ثم تسلم قلعة الجزيرة الخضراء التى تعهد بتسليمها المعتمد وألفى هنالك لاستقباله والاحتفاء بمقدمه جمعا كبيرا من القضاة والفرسان وعلى رأسهم صديقه محمد المعتمد أمير إشبيلية[2] ، وأراد المعتمد أن يترجل عن جواده وأن يقبل يد يوسف إشارة

---

(١) هكذا ورد دعاء يوسف فى روض القرطاس وروايته فى جواز السفن على أثر ذلك فى ريع طيبة وصلاة يوسف على أثر عبوره هى المقصودة هنا (راجع ص ٩٣) .

(٢) تختلف الرواية الإسلامية فى هذه الواقعة فالبعض يقول إن المعتمد بن عباد استقبل =

بخضوعه ، فنعه يوسف من ذلك لأنه لم يكن سيد القوم بعد ولم يكن سوى حليفهم ، مؤثرا أن يفرض طاعته على الجميع فى فرصة أخرى . وإذ كانت الجزيرة مفتاح اسبانيا فقد أمر بتحصينها أتم تحصين ورتب بها حامية مختارة لتسهر عليها ، وشحنها بمقادير عظيمة من الأقوات والذخائر لكى تغدو ملاذا أمينا يلتجىء إليه إذا منيت حملته بالفشل[1] ، ثم غادرها فى جيشه إلى إشبيلية . وكان كل أمير من أمراء الأندلس قد تعهد بأن يجمع ما فى وسعه من الجند والمؤن ، وأن يسير إلى مكان معين فى وقت معين . وكان أمير إشبيلية قد عنى عناية خاصة بإعداد مقادير عظيمة من المؤن تكفى لتزويد جيش ضخم ، واستطاع بذلك أن يسبق زملاءه الأمراء فى اغتنام عطف يوسف . ولبث أمير المرابطين فى إشبيلية ثمانية أيام فقط رتب أثناءها قواته وينتظر مقدم الأمراء الأندلسيين فى قواتهم . وقبل السير تركت جميع الأثقال والعتاد التى لا حاجة إليها . ثم غادر الجيش إشبيلية مخترقا أراضى أمير بطليوس ، وكان أخوه المستنصر قد عنى بجمع الجند والخيل والدواب . ورتبت القوات على النظام الآتى : سار فى الطليعة فرسان المرابطين وعدتهم عشرة آلاف يقودهم أبو سليمان داود بن عائشة ، وتلتهم قوات الأندلس يقودها المعتمد أمير إشبيلية . وكانت قوات الأندلس تؤلف وحدها جيشا خاصا منفصلا عن جيش المرابطين المؤلف من جند إفريقية . وسار من بعدهم بيوم جيش المرابطين يقوده يوسف بن تاشفين ، وكان ينزل فى المساء فى المحلة التى يغادرها أمير إشبيلية فى الصباح ، ووصلت الجيوش على هذا النحو إلى « أرطوشة » على مقربة من بطليوس ولبثت هنالك ثلاثة أيام[2] .

= يوسف فى الجزيرة وهى رواية المراكشى (ص ٧٠) وصاحب روض القرطاس (ص ٩٣) وابن خلدون (ج ٦ ص ١٨٦) والبعض الآخر يقول إن المعتمد استقبل يوسف فى إشبيلية ولم يستقبله فى الجزيرة الخضراء (راجع ابن الأثير ١٠ ص ٥٢ والحلل الموشية ص ٣٧ ونفح الطيب ٢ ص ٥٢٧ والاستقصاء ج ١ ص ١١٥) والأول هى الأرجح فيما يظهر .

(١) راجع الحلل الموشية ص ٣٥ .

(٢) أرطوشه Artosa كما فى الرواية الأفرنجية ، ولكن الرواية الإسلامية تقول « طرطوشة » ، وظاهر أنها تقصد بلدة أخرى غير ثغر « طرطوشة » الشهير فى مقاطعة سرقسطة (راجع روض القرطاس ص ٩٤ والاستقصاء ج ١ ص ١١٦) .

وفى تلك الأثناء كان نبأ مقدم المرابطين إلى اسبانيا قد وصل على جناح السرعة إلى معسكر النصارى أمام أسوار سرقسطة ، وكان الملك ألفونسو السادس قد سير إليها معظم قواته لكى يعجل بسقوطها ، ولم يحمله على رفع الحصار عنها سوى الخوف على عاصمته طليطلة وعلى أراضيه الجنوبية . فعقد مجلسا من كبراء مملكته ، ثم حشد قواته ، وقام بأهبات حربية عظيمة ، ليخوض المعركة مع فاتحى إفريقية بنجاح . وإذ كانت المحنة تملى بالاتحاد فقد تحالف مع سانشو راميرز[١] Sancho Ramirez ملك أراجون وصاحب بنبلونه والكونت برنجار ريموند ، وكان الأول يشتغل يومئذ بمحاصرة طرطوشة ، وكان الثانى يتأهب لغزو بلنسية ، فعدل كل منهما عن مشروعه ، وانضما بقواتهما إلى ألفونسو ، وكان قد حشد قوات عظيمة من جليقية وليون وبسكونية واشتوريش وقشتالة ، ومن الأراضى الاسلامية التى فتحت أخيرا ، ووفدت فى الوقت نفسه لنجدة النصارى الأسبان سريات من الفرسان ، من ولايات فرنسا الجنوبية من لانجدوك وجويانه وبرجونيه وبروفانس مؤملة أن تجنى بمقاتلة أعداء الدين مغانم عظيمة ، وأن تحقق سلام روحها . وتقول الرواية العربية ، وهى تبالغ أحيانا فى أقوالها ، إن جيش ألفونسو كان يبلغ زهاء مائة ألف من المشاة وثمانين ألفا من الفرسان ، منهم أربعون ألفا من ذوى العدد الثقيلة ، والباقون من ذوى العدد الخفيفة . ومن هؤلاء نحو ثلاثين ألف فارس من المسلمين من رعايا ألفونسو . أما الرواية النصرانية فإنها تلتزم الصمت إزاء عدد النصارى أسوة بالرواية العربية إزاء عدد المسلمين ، ولكنها تقدر عدد الجيش الإسلامى ببضع مائة ألف أو تقول إنه كان لا يحصى عديده كجيش من الجراد المنتشر . وقد نقترب من الحقيقة إذا قدرنا قوات كل فريق بنحو مائة وثلاثين ألفا إلى مائة وخمسين ألفا . ذلك أن جيش المرابطين الذى قاده يوسف إلى اسبانيا لا يحتمل أن يزيد كثيرا على سبعين ألف مقاتل ، ويمكن أن يقدر ما حشده أمراء الأندلس بمثل هذا العدد . ولم يك ثمة ما يحمل النصارى

(١) هو المعروف فى الرواية العربية بابن رذمير .

على أن يحشدوا للقتال أكثر مما حشد أعداؤهم سيما وقد استطاعوا بعد ذلك بقليل أن يحشدوا مثل هذا الجيش مرة أخرى[١] .

وعسكر الجيشان المتحاربان على قيد بضعة أميال من بطليوس فى سهل تتخلله الأحراش ، وتسميه الرواية العربية بالزلاّقة أو السهلة وتسميه الرواية النصرانية « سكرالياس » sacralias وفرق بين الجيشين نهر صغير تسميه الرواية العربية بنهر حجير[٢] وضرب يوسف محلته (معسكره) وراء ربوة عالية منفصلا عن محلة الأندلسيين[٣] وعسكر الأندلسيون أمام النصارى ، وكانت جموع فرسانهم التى لا تدرك نهايتها الأبصار تبعث إلى قلوب الأمراء الأندلسيين اليأس من النجاح والظفر .

وكان احتشاد هذه الجموع الهائلة مع ما كانت تحمل من مؤن قليلة يهدد الجيشين بالجوع إذا طال مكثهما فى تلك البقعة ، ومن ثم فقد أرسل يوسف إلى ألفونسو كتابا يخيره فيه بين ثلاث : إما أن يعتنق الإسلام ، أو يؤدى الجزية لأمير المرابطين ، فإذا أبى الاثنين فعليه أن يبادر بالأهبة إلى القتال ، وأنه أى أمير المرابطين القوى قد عبر بنفسه إلى اسبانيا ليوفر على ملك النصارى هذا العناء وليلقاه بنفسه . وقد شاء الله أن يجمع الآن بينهما فى ميدان واحد ،

---

(١) هذه تقديرات مبالغ فيها ، وتبدو مبالغة الرواية النصرانية بنوع خاص حين تقدر المسلمين بمئات الألوف . كذلك تقدم إلينا بعض الروايات الإسلامية مثل هذه التقديرات المبالغ فيها بالنسبة للنصارى ، ففى رواية مثلا أن النصارى كانوا مائتى ألف راجل وثمانين ألف فارس (راجع روض القرطاس ص ٩٠ ، وفى سياق الرسالة التى قيل إن يوسف بعث بها إلى المغرب عقب النصر ص ٩٧) ، وفى الحلل الموشية أن النصارى كانوا ثمانين ألفا ، منهم أربعون ألفاً من ذوى الدروع الثقيلة (ص ٣٨) . ولكن الروايات الإسلامية المعتدلة لا تذهب فى التقدير إلى هذا الحد ، فمثلا يقدر ابن الأثير جيش النصارى بخمسين ألف مقاتل (ج ١٠ ص ٥٢) ، وفى رواية أخرى أن النصارى كانوا أربعين ألفاً غير الأتباع (نفح الطيب ٢ ص ٥٢٨) ، وفى الحلل الموشية أن المسلمين كانوا ثمانية وأربعين ألفاً نصفهم من الأندلسيين ونصفهم من المرابطين (ص ٣٨) ؛ ويقول المراكشى إن المسلمين كانوا عشرين ألفاً فقط (ص ٧١) ، وعلى أى حال فإنه يستخلص من الروايات المختلفة أن عدد المسلمين كان أقل من عدد النصارى ، (راجع أيضاً دوزى ج ٣ ص ١٢٧) .

(٢) ويسميه صاحب روض القرطاس نهر بطليوس (ص ٩٤) .

(٣) روض القرطاس (ص ٩٤) ، والاستقصاء (ج ١ ص ١١٦) .

وذلك لكي يقضي على طغيان النصارى وجشمهم [١] .

فلما قرأ ألفونسو الكتاب ألقاه على الأرض مغضبا وقال للرسول : اذهب فقل لمولاك إننا سنلتقي في ساحة الحرب . وأما عن يوم اللقاء فقد كتب ملك النصارى إلى أمير المرابطين ما معناه : « إن غدا يوم الجمعة وهو يوم المسلمين ولست أراه يصلح للقتال واليوم التالي وهو السبت يوم اليهود ومنهم كثيرون في المعسكرين وإذاً فلست أختاره للقتال أيضاً . كذلك لست أختار اليوم التالي وهو يوم الأحد لأنه يوم النصارى ، وعلى ذلك فإني أقترح للقاء يوم الاثنين ففيه يستطيع كل منا أن يجاهد بكل قواه لإحراز النصر دون الإخلال بيومه » فوقع هذا الاقتراح من يوسف موقع الرضى وتحدد للقاء يوم الاثنين ٢٦ أكتوبر سنة ١٠٨٦ وهو الموافق ١٥ رجب سنة ٤٧٩ [٢] .

ولكن ألفونسو كان يرى وفقاً لمبدإ ذميم ، أنه يحق له أن يلجأ في الحرب إلى كل خدعة ، وأن ينكث بالعهد المقطوع فيقاتل قبل اليوم المضروب ليفاجئ العدو وليتمكن بذلك من هزيمته . ومن ثم فقد اعتزم أن يلجأ إلى مثل هذه الخديعة وأن يختار للقتال يوم الجمعة وهو يوم المسلمين .

بيد أن المسلمين بالرغم من إرجاء موعد القتال إلى ما بعد أيام لم يدخروا وسعا في التحوط ضد أية مفاجأة . وكان المعتمد أمير إشبيلية يرتاب بنوع خاص في نيات ملك قشتالة سيما وقد خبر من قبل خدعه في الحرب ، وعانى من جرائها

---

(١) تورد الرواية الإسلامية ملخص كتاب يوسف إلى ألفونسو فيما يأتي : إنه بعث كتاباً على مقتضى السنة يعرض على الأذفونش الدخول في الإسلام أو الحرب أو الجزية ، ومن فصول كتابه : « بلغنا يا أذفونش أنك دعوت في الاجتماع بك وتمنيت أن يكون لك فلك تعبر البحر عليها إلينا ، فقد أجزناه إليك ، وجمع الله في هذه العرصة بيننا وبينك ، وسترى عاقبة دعائك ، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » (راجع الحلل الموشية ص ٣٥ ، وابن خلكان ٢ ص ٤٨٣ ، ونفح الطيب ٢ ص ٥٢٧ ، والاستقصاء ١١٤) ؛ هذا مع خلاف يسير في العبارات بين مختلف الروايات .

(٢) تشير الرواية الإسلامية إلى رسالة ألفونسو ليوسف (أو لابن عباد) في هذا المعنى (المراكشي ص ٧٢ ، والحلل الموشية ص ٣٩ ، ونفح الطيب ٢ ص ٥٢٩) ، وراجع أيضا دوزي (٣ ص ١٢٩) .

غير مرة ، فبث عيونه بالليل ليرقبوا كل حركة فى معسكر النصارى ، ووقف هؤلاء على أهبة النصارى للقتال فارتدوا مسرعين إلى المعتمد ، وكان قد أعد جنده للنزال قبل أن يتحرك جند ألفونسو من محلتهم . وفى الحال أخطر يوسف أيضاً بحركات النصارى وكان يقود المعسكر الثانى والقلب والجيش الاحتياطى .

وكان ألفونسو قد قسم جيشه إلى قسمين ، فسير أولهما بقيادة الكونت جارسيا والكونت رودريك وانقض هذا الجيش بمنتهى العنف على معسكر الأندلسيين بقيادة المعتمد ، وأمل ألفونسو أن يبعث بذلك الهجوم المفاجئ الروع والاضطراب فى صفوف العدو . ولكن شد ما دهش النصارى إذ رأوا أمامهم قبل أن يصلوا إلى المعسكر الأندلسى ، جيشاً من المرابطين قوامه عشرة آلاف فارس بقيادة داود ابن عائشة وهو من أشجع قادة يوسف وأقدرهم . أجل لم يكن فى وسعه أن يصمد لكثرة النصارى وعنف هجومهم وذلك بالرغم من اعتماده على قوة كبيرة من رماة السهام والنبال ، ولكنه استطاع على الأقل بوقفته الباسلة أن يحطم من عنف هجمة النصارى وأن يرغمهم بذلك على الارتداد إلى خط دفاعهم الثانى . ولم يكن ذلك بالطبع دون خسارة فادحة لحقت بالمرابطين واضطرتهم إلى الارتداد فيما بعد . وعهد ملك قشتالة بقيادة جناحى جيشه إلى سانشورامبريز صاحب أراجون والكونت برنجار رعوند ، وتولى هو قيادة القلب بنفسه . واقترن زحف النصارى وهجومهم بصياح حربى مروع وقرع هائل للطبول . وكان أمير إشبيلية يصطحب معه منجما فسأله عن سير الموقعة فأجابه فى البداية بما يثبط الهمم ولكنه عاد فبشره بحسن العاقبة ولم يكن لديه شك فى نصر المسلمين[1] ومع ذلك فقد هاله ما رأى من انقضاض العدو على معسكره فى مثل هذه الجموع الضخمة وبث منظر الفرسان النصارى فى دروعهم الحديدية — وكأنهم كتل من السحب القاتمة ، يهوون بسيوفهم على الأندلسيين كالبرق — بين الأمراء الأندلسيين أيما روع ، فأيقنوا بالهلاك قبل خوض المعركة ولاذوا جميعاً بالفرار المشين . وطوردت

---

(١) يشير ابن الخطيب فى الحلل الموشية إلى قصة ابن عباد مع منجمه (ص ٣٩ — ٤٠) .

الصفوف الفارة فى غير انتظام حتى أسوار بطليوس ، بيد أن فرسان إشبيلية يقودهم أميرهم الشجاع المعتمد استطاعوا نوعا أن ينقذوا شرف مسلمى الأندلس ، وكان أولئك الفرسان وقد أحاطت بهم من كل صوب آلاف مؤلفة من فرسان العدو يقاتلون كالأسود المجروحة ، ويؤازرهم الفرسان المرابطون بقيادة داود ابن عائشة وهم الذين قاتلوا فى البداية بمنتهى البسالة والجلد ؛ وهكذا استطاعوا أن يصمدوا لهذه المعركة الهائلة مدى حين .

وأيقن ألفونسو ببلوغ النصر حينما رأى مقاومة المعتمد تضعف تباعا ورأى حركة الفرار تتسع بين المسلمين شيئاً فشيئاً . وكان جيش المرابطين بقيادة يوسف ابن تاشفين يرابط فى المحلة الثانية وراء أكمة عالية تحجبه عن أنظار النصارى ، ولم يكن قد اشترك فى المعركة بعد . ولم يشترك فيها مع الجيش الأندلسى من الإفريقيين سوى الآلاف العشرة من الفرسان المرابطين بقيادة داود ابن عائشة ؛ ولكن ألفونسو ظن لسوء طالعه خطأ أنه قد خاض المعركة مع قوى الأعداء جميعها .

ففى تلك الآونة الحاسمة وثب الجيش المرابطى المظفر إلى الميدان فى الوقت الذى أخذت فيه قوى النصارى فى الهبوط ، وأرسل يوسف لغوث المعتمد عدة فرق من زناتة وغيرها من البربر بقيادة أبى بكر وعزز بذلك جانب الأندلسيين فى معركة مالت إلى هزيمتهم ، وبادر فى الوقت نفسه بالزحف فى حرسه الضخم من اللمتونيين والمرابطين ، وقد كان عماد ظفره فى جميع حروبه الإفريقية . واستطاع بحركة بارعة أن يباغت معسكر ألفونسو وأن يحدق به . وكان ألفونسو يدفع جنده فى غمرة المعركة دائما إلى الأمام ، حتى استطاع أن يوقع الهزيمة بالمعتمد ، وأن يلجئه إلى الفرار بالرغم من قدوم النجدة المرابطية لغوثه ؛ وبينا هو مشتغل بمطاردة العدو المنهزم ، إذا به يقع فجأة على جموع فارة من النصارى ، وقد كان أولئك حرس معسكره ، فانقض عليهم يوسف بجيشه الزاخر واضطرهم إلى الفرار . وعلم النصارى مع الروع أن يوسف قد احتوى المعسكر النصرانى وفتك بمعظم حراسه واستولى على جميع ما فيه من نفائس ، وأحرق الخيام وغث المتاع .

وما كاد ألفونسو يقف على هذا النبأ حتى ترك مطاردة الأندلسيين ومن معهم من المرابطين ، وارتد من فوره ليسترد معسكره الذى انتزعه يوسف وليوقع الهزيمة هنالك بأعدائه . ولكن يوسف لم ينتظر حتى يهاجمه ألفونسو بل انقض فى جموعه الظافرة على النصارى كالسيل يحمل من يصادره . ومع أن النصارى كانت قد خبت قواهم من استطالة النضال ، فإنهم قاتلوا قلب الجيش الافريقى بشجاعة وجلد حتى أن يوسف بالرغم من عنف وثبته وجدة قواه بدأ يرتاب فى بلوغ النصر ، فأخذ يثب بجواده السريع بين جنده من صف إلى آخر وهو يذكى حماستهم للقتال ويقول : « يامعشر المسلمين اصبروا واصبروا دائماً فى هذا الجهاد المقدس. ولقد نقص الله عدد المشركين ، وإن الجنة مثوى الشهداء ، وإن اخوانكم الذين استشهدوا لينعمون بأعظم ضروب السعادة فى جنات الخلد »[1] ولم يكن تشجيع يوسف لجنده بقدوته أقل من كلماته ، فقد كان فى مقدمة الصفوف يخوض غمار المعركة فى ذروة لظاها ، وقد قتلت تحته أفراس ثلاث ، وكأنما كانت تحميه من الطعان يد العناية . وقاتل المرابطون فى هذا اليوم وهم يضطرمون شوقا إلى الاستشهاد ، وكأنما كانوا يجدّون فى طلب الموت فى أعمق صفوف العدو حتى يفوزوا بنعيم الخلد . كذلك قاتل النصارى فى هذا اليوم المصيب بإخلاص يضطرم للدين وللوطن . ودام القتل الذريع بضع ساعات ، وسقطت ألوف مؤلفة وقد حصدهم الموت حصاد الهشيم ، وغمر دم القتلى ساحة الحرب ، وغرق بعض الساقطين فى دم الأولى قتلوهم . وأخيراً بدت طلائع الوقعة الحاسمة قبيل دخول الظلام ؛ وكان أمير إشبيلية وداود ابن عائشة قد لاحظا عند ارتدادهما فى اتجاه بطليوس أن ألفونسو قد كف عن المطاردة فجأة ؛ وسرعان ما علما كيف مال

---

(١) المفروض أن المؤلف يقصد هنا إلى معانى العبارات التى خاطب بها يوسف جنده فى ذلك الموقف ، وعلى أى حال فإن الرواية الإسلامية تصف هذا المنظر بما يأتى : « وكان أمير المسلمين على فرس أنثى يمر بين ساقات المسلمين يحرضهم ويقوى نفوسهم على الجهاد والصبر ويقول : « يا معشر المسلمين اصبروا لجهاد أعداء الله الكافرين ، ومن رزق منكم الشهادة فله الجنة ، ومن سلم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة » ، فقاتل المسلمون فى ذلك اليوم قتال من يطلب الشهادة ويرغب فى الموت (روض القرطاس ص ٩٥) .

النصر إلى جانب يوسف ، فجمعا قواتهما وهرولا إلى الميدان مرة أخرى ؛ وهكذا هوجم النصارى من الجانبين فى وقت واحد ، وهكذا حقت عليهم الهزيمة ولم يبق أمامهم إلا أن يقاتلوا قتال اليأس أو أن يركنوا إلى الفرار . على أن الظافرين فى يومهم لم يفكروا فى مسائهم إلا فى موت شريف وذلك بعد أن أفل طالعهم كل الأفول . ولما جن الليل وبسط الظلام حجابه على السهل الذى غطى بالجثث والدماء ، ركنت فلول ضئيلة من الجيش النصرانى إلى الفرار ، وهلكت البقية فى موت مجيد من أجل الوطن والدين .

وأصيب الملك ألفونسو من طعنة حربة بجرح شديد فى فخذه ، وكان يقاتل بشجاعة فائقة ويقود الصفوف بنفسه ؛ ولم يرد أن يعيش بعد الهزيمة ، ولم توجد قطرة ماء يروى بها الجريح عطشه المروع ، وأخيراً وقع بعضهم على قليل من النبيذ فسقوه للملك ؛ وقاده بالرغم منه زهاء خمسمائة فارس وحملوه معهم إلى ربوة عالية ، وانحدروا منها تحت جنح الظلام حتى مدينة قورية .

وتعرف الرواية العربية هذه الموقعة المزدوجة التى استمر لظاها فى يوم ٢٣ أكتوبر سنة ١٠٨٦ م الموافق ١٢ رجب سنة ٤٧٩ ﻫ باسم واحد هو موقعة الزلاّقة[١] ، وهو اسم السهل الذى وقعت فيه ؛ وتسمى الرواية النصرانية الموقعة الأولى التى نشبت ضد أمير إشبيلية وداود ابن عائشة بموقعة « رودا » ، وتعرف الموقعة المروعة التى نشبت ضد يوسف بموقعة « ساكرالياس » . ويبدو من الإيجاز الذى يلتزمه الرواة النصارى إزاء هذا النصر العظيم للإسلام على النصرانية

---

(١) تختلف الرواية الإسلامية فى تحديد تاريخ موقعة الزلاقة ، فيقول ابن خلكان (نقلا عن البياسى) إنها كانت يوم الجمعة ١٥ رجب سنة ٤٧٩ ﻫ (ج ٢ ص ٤٨٤) ، ويتفق ابن الأثير معه فى السنة ولكنه يقول إنها كانت فى أوائل رمضان (ج ١٠ ص ٥٣) ، ويقول المراكشى إنها كانت فى ١٣ رمضان سنة ٤٨٠ ﻫ (ص ٧٢) ، ويقول ابن خلدون إنها كانت سنة ٤٨١ ﻫ (ج ٦ ص ١٨٦) ؛ ولكن ورد فى روض القرطاس (ص ٩٦) وفى الحلل الموشية (ص ٤٠ — ٤١) أنها كانت يوم الجمعة ١٢ رجب سنة ٤٧٩ ﻫ وهذا اليوم يوافق ٢٣ أكتوبر سنة ١٠٨٦ م ، وهو التاريخ الذى تضعه الرواية النصرانية للموقعة ، وهى بذلك أصح الروايات ، راجع أيضاً دوزى (ج ٣ ص ١٢٩) والهوامش .

فى شبه الجزيرة مرة أخرى كيف يتناول المنهزمون سير هزائمهم فى غضاضة وإحجام ؛ وهذا الإيجاز والغموض اللذان أحاطا بالرواية النصرانية هو السبب فى كونها قد جعلت من الموقعة الواحدة موقعتين مختلفتين تبعاً للزمان والمكان .

والظاهر أن عدد القتلى فى الزلاقة كان فادحا جدا ، ويعترف النصارى أنفسهم بأنه قد سقطت منهم جموع عظيمة . على أنه يبدو من الإغراق ما تقصه الرواية العربية من أن عدد القتلى والأسرى من النصارى قد بلغ مائة وثمانين ألفاً . وأن ألفونسو لاذ بالنجاة إلى طليطلة فى مائة فارس فقط ، وأن المسلمين لم يفقدوا سوى ثلاثة آلاف مقاتل[١] ؛ بيد أنه من الواضح أن خسارة المسلمين لم تكن أقل بكثير من خسارة النصارى[٢] .

وقضى المسلمون ليلتهم فى ساحة القتال فوق أكداس القتلى والجرحى ، وقد امتزجت أناشيد نصرهم بأنين المحتضرين وزفراتهم . فلما بزغ الفجر أدوا صلاة الصبح فى السهل الدامى ، ثم حشدوا جموع الأسرى وجمعوا الأسلاب والغنائم لقسمتها . وأعد يوسف من عمله الدامى لجيشه منظراً مدهشاً مروعا ؛ ذلك أنه أمر رؤوس القتلى من النصارى فحزت وصفت فى ساحة القتال على شكل أهرام ، ثم أمر فأذن للصلاة من فوق أحدها . وقد جمعت على هذا النحو عشرون ألف رأس ، وهو عدد يبدو بعيداً عن المبالغة . ولكن الذى تطبعه المبالغة هو ما يقوله بعض الرواة المسلمين من أن يوسف قد أرسل من هذه الرؤوس عشرة آلاف إلى إشبيلية ، ومثلها إلى قرطبة ، ومثلها إلى بلنسية ، وعشرة آلاف إلى سرقسطة ومرسية ؛ وأرسل أربعين ألف رأس لتوزيعها على مدن المغرب ؛

---

(١) هذه رواية صاحب روض القرطاس (ص ٩٦) .

(٢) راجع أقوال الرواية الإسلامية فى هذا الوطن فى روض القرطاس (ص ٩٧) ، وابن الأثير (ج ١٠ ص ٥٣) ، وابن خلكان (ج٢ ص ٤٨٤) ، والمراكشى (ص ٧٢) ؛ وأرجح الروايات فيما يظهر هو أن ملك قشتالة فر فى بضع مائة من جنده فقط قد يبلغون ثلاثمائة أو خمسمائة ، وهى متفقة مع أقوال الرواية النصرانية (راجع أيضاً أقوال صاحب الروض المعطار فى نفح الطيب (ج ٢ ص ٥٣١) .

وذلك لكي تحتفظ جميع الحواضر بذكرى النصر العظيم[١] .

وذاع خبر هذه الموقعة الكبرى في جميع الأقطار وأمر يوسف فكتب عنها بلاغ أرسل إلى إفريقية وقرئ في المساجد في جميع مدن المملكة ، وعقدت صلوات الشكر على جانبي المضيق في إفريقية والأندلس ابتهاجا بإنقاذ الإسلام في أسبانيا : وفاض قريض الشعراء في الإشادة بعظائم يوم الزلاقة ؛ ونظم المعتمد أمير إشبيلية الباسل — وقد أصيب في الموقعة بستة جروح — في الحال قصيدة يصف فيها الموقعة الرائعة كما شهدها[٢] وكتب في نفس المساء إلى ولده الرشيد في إشبيلية يبشره بانتصار المسلمين وما أصاب النصارى من هزيمة ساحقة ، وحملت البشرى السارة حمامة كان قد حملها معه لإجراء المخابرة السريعة ، فطارت من بطليوس إلى إشبيلية في بضع دقائق[٣] وأمر الأمير فقرئت البشرى على النـاس في المسجد الجامع ، وعقدت صلوات الشكر وحفلات الابتهاج واقترنت بإضاءة المدينة وفقاً لتقاليد العصر ؛ وهكذا احتفل بالنصر في إشبيلية وهي على مسيرة أيام من الزلاقة في نفس الليلة قبل أن يغادر جيش المرابطين والأندلسيين ساحة الحرب الدامية . وقد ورد في بعض الروايات العربية والنصرانية أن يوسف تلقب عقب انتصاره في الزلاقة بأمير المؤمنين وهي رواية يشك في صحتها ولا تتفق مع ما تقدم من أنه اتخذ هذا اللقب من قبل[٤] .

---

(١) هذا هو ما تذكره الرواية العربية في الواقع بنصه وتفصيله ، وخصوصاً صاحب روض القرطاس (ص ٩٦) ، وراجع أيضاً ابن خلكان ج ٢ ص ٤٨٤ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٥٣ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٣١ . بيد أن هذه التفاصيل تحمل فيما يبدو طابع المبالغة ويقدم إلينا في الحلل الموشية رواية أكثر اعتدالا (ص ٤٤) .

(٢) راجع شعر المعتمد بن عباد في يوم الزلاقة في قلائد العقيان (ص ١٣) .

(٣) أورد صاحب الروض المعطار مضمون كتاب ابن عباد إلى ولده الرشيد (أو نصه) عن نبأ النصر العظيم (راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٥٣١) ، وأشار ابن خلكان إلى قصة الحمامة التي حملت البشرى في نفس اليوم (ج ٢ ص ٤٨٥) .

(٤) هذه هي رواية ابن أبي زرع في روض القرطاس (ص ٨٨) ، ولكن سبق أن أشرنا إلى رواية ابن خلدون في ذلك ، وأن يوسف بن تاشفين اكتفى بلقب أمير المسلمين ، وأنه كان ينضوي تحت لواء الدعوة العباسية ، وأن الخليفة العباسي أجابه إلى ما طلب من إقراره على ولاية المغرب ، وأرسل إليه بالعهد والخلع والتشاريف (ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٨) .

وقد كان حريا أن تترتب على هذا النصر الباهر الذى أحرزه المرابطون نتائج عظيمة لو أحسن استغلاله ، وكان ألفونسو أقل همة وعزما مما أبدى ؛ وكما حدث عقب موقعة شريش الفرنتيرة من انهيار المملكة القوطية فى نحو عام ، فكذلك كان حريا أن تسحق المملكة النصرانية فى مثل هذا الوقت القصير لو أن الظافرين تابعوا سيرهم فى الحال ، كما فعل فاتحا الأندلس طارق وموسى ولم يترك للنصارى وقت للنهوض من عثرتهم ؛ ولكن كان من حسن طالع أسبانيا النصرانية أنه لم يكن على رأسها يومئذ ملك ضعيف مثل لذريق (رودريك) بل كان على رأسها ملك بطل هو ألفونسو السادس . ولم تبعث المحنة يأسا إلى قلبه بل أخذ يجد فى حشد جيش جديد ، وعاونه فى ذلك ظرف موافق هو أن يوسف تلقى عقب فوزه من إفريقية نبأ بوفاة ولده أبى بكر سير الذى خلفه أثناء غيابه على حكومة مراكش ، فعجل قبل كل شىء بالعود إلى إفريقية . ولما كان فى نيته أن يعود إلى الأندلس بعد تدبير شؤون مراكش ليتابع فيها الحرب بنفسه ، فقد ولى أثناء غيابه قيادة الجيش المرابطى الذى فقد من جراء موقعة الزلاقة كثيرا من قوته قائده الشجاع سير بن أبى بكر ؛ ونفذ سير مع أمير بطليوس إلى أواسط البرتغال الحالية مما يلى نهر تاجه وأثخنا فى تلك الأنحاء تخريباً ونهباً ، وأسرا كل سكانها العزل ؛ وزحف المعتمد أمير إشبيلية فى قوة كبيرة من الفرسان على ولاية طليطلة واستولى على عدة مدن من بينها اقليش (أو اقليج) وقونقة وويذى وغيرها ، ثم نفذ إلى أرض مرسية حيث كانت جموع كبيرة من الفرسان النصارى بقيادة الكنبيطور (الكمبيادور) تغير على المدن الإسلامية لحسابها الخاص ؛ وكانت قبل ذلك بقليل قد هاجمت صاحب المرية وضيقت عليه ، حتى أنه لم يستطع أن يرسل قواته لمعاونة جيش المرابطين قبل موقعة الزلاقة . وشمخ المعتمد بما أصاب من الظفر ، ولم يأبه لقوة الفرسان النصارى لكونها كانت تقل عن قوته عدداً ، فاشتبك معهم دون تحوط فى معركة خسر فيها ثمار ظفره الأخير ، واضطر أن يركن إلى الفرار وهو يضطرم سخطاً وغما ؛ ولم ينقذه من مطاردة أعدائه سوى

التجائه إلى قلعة لورقة لدى واليها صديقه محمد بن لبون ، ثم غادرها إلى قرطبة زيادة فى التحوط لسلامته تاركا مرسية لمصيرها . أما الفرسان النصارى فقد انضمت إليهم قوة من القشتاليين أرسلها إليهم ألفونسو ، وأخذوا يهددون المدن الإسلامية فى تلك الأنحاء ، خصوصاً وقد كان لهم فى حصن لبيط (أليدو)[1] الواقع على مسيرة يوم من لورقة معقل أمين ؛ وكانوا ينطلقون منه فينقضون كالبرق الخاطف على الأراضى المجاورة ويعيثون فيها عيثاً وتخريباً .

وفى ذلك الحين استطاع ألفونسو بسرعة مدهشة أن يحشد جيشا آخر ، ووفد عليه سيل من الفرسان والمحاربين الفرنسيين والنورمانيين ؛ وكانت روح الفروسية المعاصرة التى اضطرمت بعدئذ بقليل فى الحروب الصليبية قد دفعت إلى اسبانيا بآلاف من فرنسا ومن جهات الألب لتشد هنالك أزر النصرانية فى معركتها ضد الإسلام .

ولم يمض عام حتى كان ملك قشتالة قد استعد لمحاربة أعدائه . وقد كان عندئذ أقوى منهم . ذلك أن الثغرة التى حدثت فى صفوفهم من جراء خسائرهم فى الزلاقة لم تعززها بعد جنود جديدة من إفريقية ، وقد سحب أمراء الأندلس قواتهم من الجيش العام حين عودتهم إلى أراضيهم . وتؤكد الرواية النصرانية أن ألفونسو خرج للغزو مرة أخرى فى سنة ١٠٨٧ م ، وأنه وصل فى غزوته إلى قرب إشبيلية . وسارت فى الوقت نفسه قوة أخرى من القشتاليين بمؤازرة فرسان حصن لبيط فعاثت فى ولاية مرسية . هـذا بينما شغلت سرقسطة وبلنسية برد هجمات أمراء الأقاليم الجبلية فيما وراء البرنية .

ولم تك تجمع كلمة الأمراء الأندلسيين روابط الاتحاد القوية ، بل كانت تسودهم بالعكس عواطف الأثرة والحسد . وهكذا فقد كان المعتمد يرى أنه غدا بعد الحوادث الأخيرة أشدهم خسارة من حيث الهيبة ، لأن الأمراء الذين كانوا

---

(١) تسمى الرواية العربية حصن Alédo بحصن لبيط أو لبطيط ، (راجع معجم ياقوت ج ٧ ص ٣١٩ ، وروض القرطاس ص ١٩٩ ، والاستقصاء ص ١١٩) ، ويسميها ابن الأثير بحصن ليط (ج ١٠ ص ٥٣) ، وكذلك المراكشى (ص ٧١) .

يخضعون له من قبل استردوا استقلالهم ، وكان يتطلع إلى استعادة سلطانه عليهم بل إلى تقويته وزيادته . وكان يعتمد فى تحقيق غايته على معاونة الجيش المرابطى ويحاول أن يوجهه فى سبيل مشاريعه . ومن ثم فقد سار إلى إفريقية لرؤية يوسف ابن تاشفين[1] ، وبسط له ما يسود الأمراء المسلمين من عوامل التفرق ، وكيف غدا قائد المرابطين فى الأندلس دون قوة ودون توقير ، ولم تتح بسبب ذلك فرصة للاستفادة من نصر يوم الزلاقة ، ثم طلب إليه نظرا لانتعاش قوى النصارى ، أن يعهد إليه بقيادة الجيوش المرابطية ، وأن يكل إليه تدبير شؤون الأندلس ؛ وشد ما كانت دهشة المعتمد حينما علم بأن يوسف بدلا من أن يجيبه إلى طلبه ، رأى لكى يعوض ما خسر الإسلام فى الزلاقة ويحقق له ظفرا جديدا ، أن يعبر فى جيش جديد إلى الأندلس وأن يتولى بنفسه تدبير كل شىء ، وهكذا عاد المعتمد إلى إشبيلية وهو عالم بهذا العزم .

وفى شهر يونيه سنة ١٠٨٨ الموافق شهر ربيع الأول سنة ٤٨١ هـ ، عبر يوسف بن تاشفين إلى الجزيرة الخضراء بجيش ضخم ، وأعد المعتمد ما يجب لاستقباله ؛ وفى هذه الغزوة الثانية لأسبانيا رأى يوسف أن يسير من مالقة إلى مرسية حيث كان المسلمون يومئذ فى أشد المآزق من جراء غارات النصارى . وأمر يوسف جميع أمراء الأندلس أن يوافوه بقواتهم إلى إقليم مرسية عند حصن لبيط ليجتمعوا هنالك بجيش المرابطين ، فخف الأمراء إلى دعوته ، وفى مقدمتهم المعتمد وتميم بن بلكين والى مالقة وأخوه عبد الله بن بلكين والى غرناطة ، وولاة بياسة وجيان ولورقة ومرسية ، وكانوا يعتبرون أنفسهم من الأمراء المستقلين لا من أتباع المعتمد . وظهر المعتصم أمير المرية بين فرسانه البيض فى ثوب مرابطى أسود فكان كما يصفه بعض الرواة العرب كالغراب الأسود بين الحمام الأبيض . ومع أن المدافعين عن حصن لبيط من النصارى لم يزد عددهم على ألف فارس واثنى عشر ألفا من المشاة ، فإن القوى الإسلامية المتحدة لم توفق إلى

(١) سبق أن أشرنا إلى زيارة ابن عباد للمغرب وما ورد فيها من مختلف الأقوال .

الاستيلاء عليه بالرغم من جهودها وكثرتها وآلات الحصار التى لجأت إليها . وعانى المسلمون خسائر فادحة من انقضاض المحصورين عليهم بين آونة وأخرى . ورأى يوسف والمعتمد أخيرا عبث هذه المحاولة واعتزما أن يرفعا الحصار عن القلعة حتى لا يضيع الوقت فى الحصار دون طائل ، وحتى لايتمكن ألفونسو من المضى فى أهبته . ولما أخطر المعتمد فى المجلس الذى عقد لهذه الغاية أمراء الأندلس بهذا القرار ، اعترض عليه أولئك الذين تقع مدنهم وعمالاتهم فى مرسية ، ورأوا فيه نوعا من الغدر بهم ، وثار أحدهم وهو عبد العزيز بن رشيق وهو من الولاة التابعين لإشبيلية ، حينما رماه المعتمد بأنه متحالف سرا مع ألفونسو ، وشهر على المعتمد سيفه ليبطش به . فأمر يوسف بالقبض عليه وسلم إلى المعتمد فشدد فى اعتقاله . وكان لهذه الواقعة أكبر أثر فى سير الحوادث . ذلك أن جند مرسية ما كادوا يقفون على ما وقع لأميرهم حتى اجتمعوا ساخطين ، وأبوا — رغم كل نصح — البقاء فى محلة المرابطين ، وساروا بقيادة زعمائهم إلى حدود مرسية واعتصموا بشعب الجبال ، وعملوا على قطع المؤن عن الجيش المرابطى ، وسرعان ما حل به الضيق . هذا إلى أن بعض الولاة الآخرين الذين ضاقوا ذرعا بغطرسة المعتمد آثروا مغادرة الميدان .

وهكذا أنقذ حصن لبيط . ولكن ألفونسو رأى نظرا لموقع الحصن فى قلب بلاد الأعداء أنه لا يمكن الدفاع عنه دون حامية كبيرة ، فأمر عندئذ بتقويض أسواره وإخلائه ممن بقى فيه من النصارى وكانوا مائة فارس وألف راجل هم البقية الباقية من ثلاثة عشر ألف مقاتل ؛ ثم عاد إلى طليطلة مثقلا بالغنائم ، وقد ظفر بإحباط خطط أعدائه (سنة ١٠٩٠ م — ٤٨٣ هـ)[١] .

---

(١) تتفق معظم هذه التفاصيل التى يوردها المؤرخ عن حصار حصن لبيط وما إليه من المعارك والوقائع مع ما أورده ابن زرع فى روض القرطاس (ص ٩٩) ، وابن الخطيب فى الحلل الموشية (ص ٤٩ و ٥٠) .

٢ — خضوع اسبانيا الجنوبية لسلطان المرابطين

كما أنه وجد بين النصارى وقت المحنة طائفة خانوا الوطن وتحالفوا عليه مع أعداء دينهم — ويذكر لنا التاريخ فى مقدمة هؤلاء الكونت جارسيا أردونز — فكذلك تمخضت ظروف الأندلس المضطربة عن هذه الحقيقة ، وهى أن ذوى السلطان — تسيرهم عوامل الأثرة — حاولوا توطيد سلطانهم بأى الوسائل ولو على حساب الإسلام ذاته . أجل كان المرابطون فى نظر الأمراء الأندلسيين أشد وطأة عليهم من النصارى ، ولم يتورع بعضهم عن التحالف سرا مع الملك ألفونسو أملا فى التمكن بمعونته من طرد أولئك الإفريقيين الذين استدعوهم بأنفسهم من قبل .

وقف سلطان المرابطين على جنوح الأمراء الأندلسيين إلى هذا الاتجاه من قائده سير بن أبى بكر الذى عهد إليه أثناء غيبته بقيادة الجيش فى أسبانيا ، فلم يلبث سوى قليل فى إفريقية ، ثم عاد إلى اسبانيا دون أن يستدعيه أحد من الأمراء وهو يعتزم هذه المرة أن يقضى بادئ ذى بدء على سلطان الأمراء الأندلسيين ، مؤملا أن يتمكن بعد ذلك من محاربة النصارى بنجاح وظفر .

وعبر يوسف إلى اسبانيا دون أن يقف على نيته أحد متظاهراً بأنه يعتزم محاربة النصارى بكل ما وسع ، وسير قواه الضخمة التى عبرت من سبتة إلى الجزيرة الخضراء ، إلى مختلف الأنحاء الداخلية . ولم يطلب هذه المرة من الأمراء المسلمين جنداً لمعونته ، ولم يعرضوا عليه هم معونتهم ، وقد كانوا يومئذ يرقبون حركات المرابطين جزعين أشد الجزع على سلامتهم . وسار يوسف على رأس جيشه العام إلى طليطلة ، وبعد أن عاث فيها ونفذ حتى ظاهر عاصمة قشتالة ، ارتد فجأة نحو الأندلس ، وسير فرقاً من جيشه نحو مختلف المدن ، وسار بنفسه إلى مدينة غرناطة .

وكان يوسف أشد ما يكون ارتياباً فى أمير غرناطة عبد الله بن بلكين بن

باديس . وكان يتهم بالتحالف سرا مع ألفونسو ومعاونته بالمال . فلما اقترب المرابطون من المدينة تردد عبد الله بين إغلاقها فى وجوههم ، وبين الخروج إلى لقاء سلطان المرابطين واتقاء العاصفة الوشيكة باستقبال ودى . وكان واضحاً من حركات الجند القادمين أن يوسف لم يكن ينوى بالمدينة خيراً . وتختلف الروايات العربية فى كيفية استيلاء يوسف على غرناطة . ولكن أرجحها فيما يظهر هو أنه استولى عليها بطريق الحيلة والخديعة . ذلك أنه أخفى مقاصده واستقبله عبد الله بترحاب . وما كاد جنده يدخلون المدينة حتى أسر عبد الله وأرسل مع أهله سجيناً إلى أغمات بالقرب من مراكش[1] . وأذيع تطميناً لباقى الأمراء أن عبد الله نزل عن المدينة مختاراً وعوض عنها بأملاك واسعة فى إفريقية . وأرسل أميرا إشبيلية وبطليوس كل منهما سفيراً إلى غرناطة ينتحل لسفارته عذراً ، ولكنهما ذهبا فى الواقع ليستوضحا حقيقة الأمر فى شأن غرناطة فلقيا من يوسف كل إعراض ومهانة ، حتى أنه لم يقابلهما بنفسه ، فعادا إلى أميريهما يضطرمان جزعاً وسخطاً[2] . وكانت حركات يوسف التالية تفصح بوضوح وجلاء إلى أى حد كان مصير عبد الله عبرة لباقى أمراء الأندلس . وقد أخفق يوسف فى القبض على أبى مروان عبيد الله عز الدولة ولد أمير المرية الذى أوفده والده إلى غرناطة لمثل المهمة التى قدم من أجلها سفيرا إشبيلية وبطليوس ، لأنه استطاع أن يفر متنكراً ولكنه قبض على تميم بن بلكين والى مالقة ، وبعث به سجيناً إلى إفريقية ليشاطر مصير أخيه عبد الله واستولى المرابطون على مدينته .

---

(١) تختلف الرواية الإسلامية فى كيفية استيلاء المرابطين على غرناطة ، فالبعض يقول باستيلاء المرابطين عليها بطريق الغدر والحيلة (راجع ابن الأثير ج ١٠ ص ٥٣ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٠ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٣) ، والبعض يقول بأنهم استولوا عليها عنوة ، (راجع ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧) ، وفى روض القرطاس أن يوسف استولى عليها بالأمان بعد أن حاصرها شهرين (ص ١٠٠) ، وفى الحلل الموشيه أن صاحب غرناطة هو الذى سلمها من تلقاء نفسه (ص ٥١) .

(٢) جاء فى الحلل الموشية أن المعتمد بن عباد والأفطس هما اللذان قصدا إلى غرناطة لرؤية يوسف وتهنئته فلقيا منه إعراضا (ص ٥٨) .

ثم عبر يوسف إلى سبتة لكى يعجل إرسال الجند منها إلى الأندلس ، وترك قائده سير بن أبى بكر فى غرناطة على رأس الجيش المرابطى .

وسير يوسف إلى الأندلس أربعة جيوش فى وقت واحد ، كل منها تحت إمرة قائد خاص لتقاتل أمراء الأندلس ، ولتحول دون اجتماع قواهم فى أى مكان ولتقضى على سلطانهم بأسرع وقت . وتقرر أن تصوب الضربة الأولى إلى أقواهم وأشدهم بأساً ، وهو المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية وقرمونة واستجة وقرطبة وبقاع أخرى فى مرسية ، فيفضى سقوطه حتما إلى سقوط الآخرين . وتأهب المرابطون لذلك خير أهبة ، فسار إلى إشبيلية جيش بقيادة سير بن أبى بكر ليأخذها ، ثم ينقض بعدئذ على بطليوس . وزحف جيش ثان بقيادة أبى عبد الله ابن الحاج إلى قرطبة ، وكان واليها ولد المعتمد الفتح أبو ناصر (المأمون) ، وسار جيش ثالث بقيادة جرور اللمتونى إلى أرض رندة وفيها ولد آخر للمعتمد هو يزيد الراضى بالله . وزحف الجيش الرابع والأخير بقيادة أبى زكريا بن واسنو على المرية وفيها المعتصم بن صمادح صديق المعتمد الحميم ؛ وبقى يوسف فى سبتة على رأس جيش احتياطى لكى يقوم عند الحاجة بإنجاد هذا الجيش أو ذاك[1] .

وكانت هذه الأهبة واضحة الدلالة فى كونها أعدت لسحق الأمراء الأندلسيين ، وذلك بالرغم من أن القواد المرابطين حاولوا نزولا على أمر يوسف ، إخفاء مقاصدهم العدائية مدى حين . وما كاد سير بن أبى بكر يجوز إلى أرض إشبيلية حتى ألفى المعتمد متأهباً لقتاله ، وكان قد لمح نذر العاصفة ، وبذا سقط قناع الصداقة ؛ وقاد المعتمد جنده لمقاتلة المرابطين فى الميدان بالرغم من تفوقهم عليه ؛ ومع أنه حرص على ألا يشتبك معهم فى معركة حاسمة فإنه اشتبك معهم فى عدة معارك صغيرة مؤملا بذلك أن ينهك قوى خصومه ، وأن يطاولهم مدى حين ؛ ولكن المرابطين كانوا فى وفرة من المدد وكانوا يقاتلون فى عدة أماكن ، فلم يفد المعتمد

---

(١) هذه التفاصيل فى توزيع الجيوش المرابطية تطابق ما ورد فى الحلل الموشية (ص ٥٢) .

إلا قليلا أو لم يفد شيئاً من كفاحه . وسارت قوة من المرابطين إلى جيان وانتزعتها عنوة ثم انضمت إلى الجيش الذى يقوده جرور ، وكان قد هزم أمام أسوار قرطبة . ولم يبق عندئذ فى وسع عاصمة الأندلس القديمة أن تصمد أمام هذا الجيش الزاخر ، ومن ثم فقد آثرت قرطبة أن تصغى إلى ما وعدت به من تأمين للنفس والمال إذا بادرت بالتسليم على دفاع مشكوك فى عواقبه ؛ ولكن جرور الإفريقى لم يعرف إزاء الأندلسيين قدس العهد ، كما لم يعرفه مواطنه هانيبال إزاء الرومان من قبل ، فقتل كثير من أهل قرطبة ، وأمعن الغزاة فيها نهباً وسلباً ؛ وكان بين القتلى ولد المعتمد الباسل فتح المأمون ، وكان فتى فى عنفوانه وكان معقد الآمال (صفر سنة ٤٨٤ هـ — ١٠٩١ م) . وقتل فى نفس الوقت ولد آخر للمعتمد هو يزيد الراضى بالله والى رندة ، وكان مقتله عقب أخذها انتهاكا لكل ذمام وإنسانية بعد أن قطعت لتأمين حياته أوثق العهود .

وهكذا اقتصر سلطان المعتمد على مدينتين هما إشبيلية وقرمونة ؛ وكان المرابطون قد وصلوا فى زحفهم إلى مدن الحدود مما يلى ولاية طليطلة وأخذت سراياهم تهدد الأراضى النصرانية ؛ ثم حاصروا قلعة رباح واستولوا عليها ؛ وبذا فتحت أمامهم طريق قشتالة . فى تلك الآونة العصيبة استغاث أمير إشبيلية بألفونسو السادس ، ونسى ألفونسو عداءه القديم ، وعقد الخطر المشترك بينهما أواصر الصداقة ؛ ومن المحتمل أن يكون ألفونسو توثيقاً للروابط المشتركة قد تزوج عندئذ بسيدة ابنة المعتمد وهى التى تسمت بعد تنصرها باسم ماريا أو كما يقول البعض باسم الزابيث أو اتخذها حظية فى بلاطه[1] وقد كان بعض ملوك النصارى يقلدون أمراء المسلمين يومئذ فى اتخاذ الحظايا وكان ذلك مثار سخط رجال الدين .

وسقطت قرمونة بعد حصار قصير (فى ربيع الأول سنة ٤٨٤ هـ — ١٠٩١ م) .

---

(١) سبق أن أوضحنا سقم هذه الرواية وسخفها ، والرواية الإسلامية لا تشير إليها بكلمة قط ؛ ولو صحت لأضيفت إلى ثبت التهم الشنيعة الأخرى التى تنسبها الروايات الخصيمة للمعتمد وهى لم تحجم عن اتهامه فى دينه ورميه بالإلحاد .

وكان يظن أنها لا تؤخذ لمنعتها ، فلم يبق أمام أمير إشبيلية إلا الاعتماد على أمداد النصارى . وقد سارت هذه الأمداد بقيادة الكونت جومز وعدتها أربعون ألف راجل وعشرون ألف فارس[1] ووصلت إلى مقربة من قرطبة وهنالك لقيهم قائد المرابطين إبراهيم بن إسحاق فى جنده الشجعان ، ونشبت بين الفريقين معركة دموية أصاب فيها المرابطون بالرغم من خسارتهم الفادحة نصراً مبيناً ، وغدت إشبيلية بعد فرار النصارى تحت رحمة المرابطين ؛ وكانوا قد ضربوا حولها الحصار وكان سير بن أبى بكر يقود الجيش المحاصر . ولما وقف المعتمد على هزيمة النصارى غاض منه كل أمل فى رفع الحصار ، وتقول بعض الروايات إنه استمر فى المقاومة حتى أخذت المدينة عنوة ، وهو قول غير محتمل . والأرجح أنه سلم المدينة إلى المرابطين بعد أن قطعوا له عهداً بتأمينه وآله وشعبه فى النفس والمال ، وكان سقوطها فى رجب سنة ٤٨٤ هـ الموافق سبتمبر سنة ١٠٩١ م[2] .

كانت خاتمة محمد بن عباد المعتمد مأساة أليمة ، وكانت عبرة لتقلب الدهر والجدود . ذلك أن الرجل الذى لبث زهاء ربع قرن يقبض بيديه على مصاير أسبانيا ، والذى كان يحكم سواد النصف الجنوبى لشبه الجزيرة ، والذى يرجع الفضل إليه فى استيلاء ألفونسو على طليطلة ، والذى استدعى المرابطين إلى الأندلس ،

---

(١) تسمى الرواية الإسلامية قائد القشتاليين فى هذا الموطن « بالقرمش » ، وهو فيما يظهر تحريف لاسم « جومز » ، وتتفق مع الرواية النصرانية فى عدد النصارى (روض القرطاس ص ١٠٠) . ويقول دوزى إن قائد القشتاليين عندئذ كان « القارفانيس » Alvar Fanes (وهو بالعربية البرهانس) معتمداً على الرواية النصرانية ، (راجع ج ٣ ص ١٤٩ والهامش) .

(٢) تجمع الرواية الإسلامية تقريباً على أن المرابطين استولوا على إشبيلية عنوة ، وأن المعتمد بن عباد استمر فى المقاومة حتى آخر لحظة ، وتنوه كلها بفائق شجاعته وبسالته ، (راجع ابن الأثير ج ١٠ ص ٦٥ ، وابن خلكان ٢ ص ٤٠ و ٤١ ، وابن خلدون ٦ ص ١٨٧ ، والمراكشى ص ٧٧ ، ونفح الطيب ٢ ص ٤٥٣) . وللمعتمد نفسه شعر شهير فى هذه الموقعة يصف فيه كيف لقى أعداءه يوم الصراع الأخير ، راجع قلائد العقيان ص ٢١ و ٢٢ ، والمراكشى ص ٧٧) ، ويأخذ دوزى بهذه الرواية ويترجم شعر المعتمد (ج ٣ ص ١٤٩ و ١٥٠) ، وينفرد صاحب روض القرطاس بالقول بأن المعتمد سلم المدينة بالأمان (ص ١٠١) ، ورددها ابن الأثير فقط (ج ١٠ ص ٦٥) .

اختتم حياته الباهرة فى غمر البؤس والحزن وظلام السجن . ولما أخذت إشبيلية قبض عليه وعلى نسائه وأبنائه وبناته ، وقد كان له من الولد نحو مائة ، وأرسلوا إلى إفريقية . ولما سارت السفين التى حملوا عليها ضجوا بالبكاء والنحيب فى مناظر لا توصف حينما رأوا مشارف « القصر » البديع ومنائر المساجد تغيض أمامهم كما تغيض ذكريات حلم مجد ذاهب ؛ وعامل يوسف الأسرة المنكودة دون أية مراعاة أو تقدير لسابق حالها ، فنقل المعتمد إلى أغمات على مقربة من مراكش ، وألقى به إلى غيابة سجن مروع ، ليلقى فيه موت الشهيد ببطء ؛ وهنالك فى البرج الذى زج إليه مع أسرته ، رأى المعتمد وقلبه يذوب حسرة ووجدا زوجته النابهة البارعة اعتمادا الرمكية تموت غما لما أصاب زوجها من محنة وبؤس وأسى . وحملت الفاقة بنات المعتمد على أن يشتغلن بالغزل وهن فى ثياب خلقة ، لكى يَمُلْن والدهن وكان منظرهن يذكى فى قلوب المنكودين جذوة الأسى والشجن ؛ ومع ذلك فإن المعتمد لم يطأطئ الرأس تحت غمر المحنة والبؤس ولم ينس مجده الذاهب ، بل عرف بالرغم من ثيابه الخلقة أن يحتفظ بهيبة الجلال السابق وخلاله ، فكان يشع منه الجلال كما يشع ضوء الشمس إذا أحدق بها الغمام القاتم ؛ وكان عزاؤه الوحيد أو غذاؤه الروحى فى محنته ، نظم القريض الذى لم يفارقه شغفه قط . وقد بلغ من شغفه به أنه وهو فى طريقه إلى الاعتقال وهب الشاعر أبا الحسن الحصرى ستة وثلاثين مثقالاً لقصيدة قالها فى مديحه ، فكانت آخر ما استطاع أن يبذل من الصلات الملوكية[١] وقد أكثر من رثاء محنته ؛ وذاعت قصائده الرثائية لروعتها أعظم ذيوع ، حتى كان يحفظها كل إنسان ؛ ثم جاء الموت فأنقذه من أغلاله بعد أن عانى فى معتقله أربعة أعوام (سنة ٤٨٨ هـ — ١٠٩٥ م) وحكم المعتمد وهو آخر أمراء بنى عباد إشبيلية ثلاثة وعشرين عاماً ؛ وتفرق أبناؤه بعد وفاته فى أنحاء إفريقية يغمرهم البؤس الطاحن ، ولا يقدم إلينا التاريخ من ذلك الحين عنهم أو عن عقبهم شيئا[٢] .

---

(١) راجع المراكشى ص ٨٥ .

(٢) كانت خاتمة المعتمد بن عباد مأساة مروعة مؤثرة ، وما زالت محنة هذا الأمير =

وفى نفس الوقت الذى سقطت فيه إشبيلية افتتح المرابطون ثغر المرية بإمرة قائدهم داود ابن عائشة الذى امتاز وحده بين المرابطين بالإنسانية وحفظ العهد ، وكان يحكم المرية يومئذ أبو يحيى محمد بن صمادح التجيبى الملقب بالمعتصم والواثق بالله — وأصله من وشقة — وولده معز الدولة . وكان منذ أربعين عاما قوام حكومة رشيدة عادلة يغمرها الشعب بحبه وتقديره . وقد اشتهر فى جميع أنحاء الجزيرة بمحبته للعلوم والفنون والآداب ، وكان ينافس فى هذا المضمار أعظم العلماء والشعراء والأمراء فى عصره . وأما فى الحرب فقد كان حتى بالنسبة لأعدائه الذين يقعون فى قبضته يفيض إنسانية ورحمة . ومن ثم فقد أبدى أهل الأندلس بل أبدى النصارى أنفسهم كثيرا من العطف والأسف حينما زحف المرابطون على المرية وأنزلوا بالمعتصم ما أنزلوا بصديقه المعتمد . ومع أن المعتصم كان عضد المرابطين فى كل فرصة ومناسبة وخصوصا فى حصار حصن لبيط ، حيث ارتدى رداء المرابطين الأسود فإنه لم يستطع مجانبة المصير الذى قضى به يوسف على جميع الأمراء الأندلسيين دون استثناء . فحوصرت المرية من البر والبحر أحكم حصار وأشده . ولم ير الأمير الشيخ أمامه رجاء فى الغوث ولم ير سوى شبح الأسر والمهانة فتوفى أسى وغما أو توفى مسموما[1] ، فخلفه فى الحال ولده

= الشاعر تحتفظ إلى يومنا بالرغم من كرّ العصور بكثير من ألوانها المؤسية المشجية ، وقد أثارت عطف الرواية الإسلامية وتأثرها البالغ ، ويبدو هذا العطف والتأثر بنوع خاص فى روايات مؤرخى الأندلس والمشرق ، ومنها ما يشدد الحملة على يوسف بن تاشفين ، ويصمه بأقسى الصفات (مثال ذلك ابن الأثير ج ١٠ ص ٦٥) ، وأذكت محنة بنى عباد فى الوقت نفسه دولة الشعر ، فنظم المعتمد فى رثاء نفسه ، ونظم أكابر الشعراء فى عصره جملة من القصائد الرائعة المؤثرة التى ما زالت تحتفظ إلى اليوم بكل روعتها وحياتها . وقد أسبغت قسوة يوسف نحو المعتمد ونحو باقى أمراء الأندلس على سيرته وعلى خلاله سحباً لم تمحها جميع الأعذار التى انتحلت لتبرير عمله . راجع فى سيرة المعتمد ومحنته وقصائد رثائه ، قلائد العقيان (ص ٤ وما بعدها) ، والمراكشى (ص ٧٦ — ٨٩) ، وابن خلكان (ج ٢ ص ٣٦ — ٤٥) ، ونفح الطيب (ج ٢ ص ٤٥١ وما بعدها) .

(١) راجع فى ترجمة المعتصم ووفاته ابن خلكان ج ٢ ص ٤٥ وما بعدها ، وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٧٢ وما بعدها ، والمراكشى ص ٧٣ و ٧٤ ، وقلائد العقيان ص ٤٧ وما بعدها .

أحمد أبو مروان معز الدولة ، وكان يشاطره أعباء الحكم أثناء حياته ، (وذلك فى ربيع الآخر سنة ٤٨٤ هـ) . بيد أن حكمه لم يطل سوى شهر واحد . ذلك أنه لما وقف على سقوط إشبيلية ولم يبق له أمل فى الإنقاذ ، واشتد به الضيق والجوع من جراء الحصار أخذ يفاوض فى تسليم المدينة ، ومع أنه لم يثق بوعود المرابطين لما كان يعلمه من مواقف غدرهم ، فإنه استطاع أن يحقق ما قصده بالمفاوضة وهو حمل العدو على تخفيف وطأة الحصار من ناحية البحر . وانتهز الفرصة السانحة ففر مع أسرته وأمواله فى سفين سارت به إلى شمال شرقى إفريقية[٢] ، ولم تمض أيام قلائل حتى استولى المرابطون على المرية دون مقاومة ، واستولوا فى الوقت نفسه على جميع المدن والحصون التابعة لها . وهكذا افتتح المرابطون ولايات الأندلس كلها — غرناطة ومالقة وجيان وقرطبة وإشبيلية والمرية — فى وقت قصير لم يجاوز ثمانية عشر شهرا .

ولم يمهل داود ابن عائشة جنده بل سار توا إلى ولاية مرسية حتى لا يترك للأندلسيين فرصة للاحتشاد ضد المرابطين ، وزحف على دانية وشاطبة واستولى عليهما وأخذ يهدد مربيطر وبلنسية وشنتمرية الشرق (البراسين) . ومع أن أمراء هذه النواحى قد اتحدوا جميعا وتوثق حلفهم ، ومع أنهم قاوموا من مدنهم الحصينة أشد مقاومة ، وعاونهم النصارى مرارا ولاسيما السيد الكنبيطور وفرسانه ، فإن ذلك لم يغنهم شيئا أمام طالع المرابطين وأمام تفوقهم ، وسقطت هذه المدن فى يد المرابطين واحدة بعد الأخرى . وانتهت بسقوط بلنسية عاصمة الولاية ، وكان بها الأمير يحيى بن ذى النون القادر يتولى الدفاع عنها . وبالرغم من أنه كان ينضوى تحت حماية ملك قشتالة ، وقد خفت لإنجاده فرقة كبيرة من النصارى وقوة من المرتزقة المسلمين من مرسية بقيادة ابن طاهر ، فإن الدفاع لم يطل أمده ، ووقعت خيانة عجلت بسقوط القلعة ، كذلك غادر النصارى المدينة

(١) راجع ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٧٤ — ١٧٦ ، وروض القرطاس ص ١٠١ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٦٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ .

حينما رأوا استحالة الاحتفاظ بها وشقوا لهم بين الأعداء طريقا ، وفتحت أبواب المدينة للمرابطين بطريق الخيانة على يد القاضي أحمد بن جحّاف المعافرى ، فاقتحموها شاهرى السيوف وهم يقتلون كل من لقوا فى طريقهم ؛ وهنا تختلف الرواية العربية فى مصير القادر فيقول البعض إنه سقط عندئذ بين جنده مدافعا ، ويقول البعض إنه قتل قبل ذلك بقليل فى هجوم قام به خارج المدينة ، ويقول آخرون إن ولده وسميه القادر هو الذى كان يدافع عن أنقاض ملك بنى ذى النون ، وأنه قتل وقت سقوط المدينة فى المقتلة العامة . وعلى أى حال فإن المحقق هو أن سلطان بنى ذى النون الذى سطع من قبل فى طليطلة ، ثم استقر بعد ذلك فى بلنسية لقى يومئذ مصرعه وخاتمته (سنة ٤٨٥ هـ — ١٠٩٢ م) ، واختار المرابطون القاضى الخائن أحمد بن جحاف واليا لبلنسية [١].

وبينما كان داود ابن عائشة يفتتح شرق اسبانيا ، كان سير بن أبى بكر يقتحم « الغرب » ظافراً ، فبعد أن استولى على إشبيلية زحف على ولاية بطليوس وأميرها يومئذ محمد بن الأفطس الملقب بالمتوكل ، واستولى على شلب ويابرة بعد مقاومة قصيرة . وسرعان ما ظهر فى مروج بطليوس — وقد كانت ما تزال غاصة بعظام النصارى الذين سقطوا في الزلاقة وتركوا فى العراء — جيش من المرابطين ، بيد أنه لم يقدم كما قدم من قبل لغوث مسلمى الأندلس ، بل كان عندئذ أشد خطراً عليهم من أعدائهم النصارى .

وكان الأمير المتوكل وأولاده يقاتلون على رأس جندهم بشجاعة فائقة لكن ذلك لم يغنهم شيئاً . ذلك أن الشعب كانت تروعه نبوءة خلاصتها أن الأمراء الأندلسيين يقهرهم فاتح من إفريقية ، ومن ثم فقد انحاز إلى المرابطين مؤثراً ألا يناهض القدر بمعركة لا خير فيها ، بل لقد كان الشعب عامة يؤثر تغيير الحكومة فى بعض الحواضر نظراً لأن نفقات البلاط فى الممالك الصغيرة كانت حقا تعاون فى نمو التجارة ولكنها كانت تزيد فى المكوس زيادة كبيرة . كذلك لم يكن ثمة

(١) راجع الحلة السيراء ص ١٨٩ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٧ .

أمل فى دفع عادية النصارى نظراً لمـا انتهى إليه الأمراء من التفرق والانحلال . هذا فضلا عن أن يوسف بن تاشفين كان يخص الأمراء وحدهم بقسوته . وقد استطاع أن يجد الوسيلة لـكى يفرق بين الشعب وبين حكامه بسرعة . ذلك أن التناقض بين مصلحة الشعب والأمراء كان واضحاً ، فقد كان الشعب يطلب الاتحاد وكان الأمراء يؤثرون التفرق والخلاف .

ولمـا هزم جند « الغرب » فى المعركة التى نشبت وأسر الفضل والعباس ولدا المتوكل لم يبق أمام الفاتحين سوى بطليوس التى امتنع بها أميرها ؛ وكان المتوكل يعتزم الدفاع عنها غاية جهده ، ولـكن أهلها لم يشاطروه هذا الرأى وحملوه على أن يفاوض المرابطين فى تسليمها . وهنا أيضاً يبدو غدر المرابطين فى أشنع مظاهره ؛ ذلك أن قائد المرابطين سير بن أبى بكر قطع على نفسه العهد بأن يترك الأمير وآله أحراراً فى الخروج بأموالهم ومتاعهم إلى حيث شاءوا (إلى أراضى النصارى فيما يظهر) . ولـكن هذا العهد انتهك انتهاكا صارخاً ، فما كاد المتوكل يغادر المدينة مع آله ويجتازها سير بجنده ، حتى أرسل الأمير فى طلبه سرية من الفرسان فأدركته وأسرته ؛ وبعد أن جلد المتوكل وولداه بالسياط ، وبعد أن بلغت القسوة ذروتها بقتـل الفضل والعباس أمام عينى والدهما المحزون ، أخذ المتوكل وقطعت رأسه . أما ولده الأصغر نعيم الدولة والى شنترين فقد أسر وزج إلى اعتقال طويل الأمد . وهكذا انتهى سلطان بنى الأفطس فى بطليوس فى شهر صفر سنة ٤٨٧ هـ الموافق أوائل مارس سنة ١٠٩٤ [١] .

وقد نظم أعيان شعراء العصر فى مصرع عمر وآله كثيراً من المراثى المؤثرة وفيها ينعون تقلب الجدود فى هذه الدنيا حسبما يصوره مصير بنى الأفطس ، وكان أبدعها جميعاً مرثية عبد المجيد بن عبدون وزير الأمير القتيل [٢] ، ولم يكن عمـر

(١) راجع فى أخبار المتوكل وخلاله ومحنته المراكشى ص ٤١ وما بعدها ، وقلائد العقيان ص ٣٦ وما بعدها ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٠ .

(٢) راجع مرثية ابن عبدون المشار إليها فى المراكشى ص ٤٢ — ٤٦ .

المتوكل عالماً كبيراً ونصيراً عظيما للعلوم وشاعراً مجيداً فحسب ، ولكنه كان أيضاً يشغف بقضاء معظم أوقاته فى مجالسة العلماء والشعراء ويترك فى معظم الأحيان ما عداها من الشؤون . وكان معظم وزرائه من أكابر العلماء ، ومن ثم كان طبيعيا أن تعتبر دولة التفكير والثقافة موته خسارة فادحة للعلوم والفنون .

وفى نفس الوقت الذى سقطت فيه بطليوس افتتحت سفن المرابطين الجزائر الشرقية (البليار) ، وكان واليها يومئذ من بنى شهيد أتباع أمراء بلنسية ودانية من قبل فلم يستطع لضعفه أية مقاومة ، وهكذا سقطت أسبانيا المسلمة كلها ما عدا ولاية سرقسطة فى يد المرابطين فى النصف الأول من سنة ١٠٩٤ م — ٤٨٧ هـ .

٣ — ولاية سرقسطة

كان أبو جعفر أحمد بن هود المستعين بالله هو الذى استطاع وحده من أمراء الأندلس أن يفيد من نجدة المرابطين دون أن يفقد من جرائها سلطانه . ذلك أن سرقسطة التى كان يحاصرها جنود ألفونسو السادس حين عبور يوسف بن تاشفين الأول إلى أسبانيا ، أنقذت من الحصار عندئذ . ولما هزم النصارى فى موقعة الزلاقة عاد سلطان بنى هود فتوطد فى أنحاء سرقسطة ولاردة وبربشتر ووشقة ، وطرطوشة ، وقلعة أيوب ، وتطيلة ، وأفراغة ، وقلعة دروقة ، ومدينة سالم ، ووادى الحجارة ، وما إليها من الأراضى . ولكن سرعان ما عادت السحب والعواصف تحدق كرة أخرى بمدن الحدود فى ولاية سرقسطة . ذلك أن الملك سانشو راميرز (ابن ردمير) صاحب أراجون الذى استطاع كما قدمنا أن يقوى نفسه بالاستيلاء على جزء من نافارا (بلاد البشكنس) وباستقدام عدة كبيرة من المرتزقة الفرنسيين ، سار غازياً من الجبال البرينية إلى نهر الأيبرو (أبرة) وقد قيل إن الفارس الأسبانى السيد الكنبيطور (السد الكمبيادور) الذى نفاه سيده ملك قشتالة كان يحارب يومئذ إلى جانب أمير سرقسطة ضد إخوانه فى الدين ويعرقل ظفرهم ؛ بيد أنه ليس من الميسور أن نتحقق من صحة هذه الرواية نظرا لأن تاريخ السيد كما

انتهى إلينا من الروايات والقصص النصرانية فياض بالأساطير والخرافات[١] ، وسار جيش سانشو وقوامه زهاء عشرين ألف مقاتل فالتقى فى ظاهر وشقة بجيش المستعين وهو فى مثل عدده تقريبا ، واجتمع النصارى للقتال على نفخ القرون والزمار ، واجتمع المسلمون على قرع الطبول ، ودار القتال سجالا مدى حين ، ولكن الفرسان النصارى استطاعوا فى النهاية فى فيض من الشجاعة والحماسة هزيمة المسلمين المتعبين وإرغامهم على الفرار . ولجأ الجيش المنهزم إلى قلعة وشقة ، وأنقذ بذلك من سحق شامل . وفى الحال نصب النصارى آلات الحصار حول وشقة ، ولكن المدينة المحصورة استطاعت نظرا لمنعتها الطبيعية والفنية ، أن تقاومهم بشدة ؛ وعانى الجيش المحاصر خسائر فادحة من جراء انقضاض المحصورين عليه بين آونة وأخرى . ولما رأى المستعين بن هود أن النصارى مضوا فى سيرهم المظفر واستولوا على أفراغه ، وشددوا الحصار على وشقة خبت شجاعته ، وأيقن أنه لا يستطيع الوقوف أمام هذا السيل دون معاونة من الخارج . ولكنه بعد أن اتجه فى البداية نحو ألفونسو ملك قشتالة ، وقد كان ينظر إلى فتوح سانشو بعين الحسد ، ووعده بأن يقوم بدفع الجزية نظير حمايته من اعتداء أراجون ، عاد فنبذ هذا الميثاق إذ رأى ألفونسو نفسه يواجه خطر المرابطين وليس فى وسعه أن يحول جيوشه ضد أراجون ؛ هذا إلى أن المستعين كان يؤمل بعد وفاة ملك أراجون أن تميل كفة النصر إلى جانبه ؛ ذلك أن سانشو راميرز ركب ذات يوم لرؤية قلعة وشقة التى حالت مناعة موقعها دون سقوطها وأمر جنده بمهاجمتها من نقطة لاح له أنها أقل مناعة من غيرها . ولكن المسلمين خرجوا فى الوقت نفسه لمهاجمة النصارى وأصيب ملك أراجون خلال المعركة بجرح مميت من جراء سهم أصابه . فاستدعى فى الحال كبراء جيشه مؤثراً أن يفكر فى مصير مملكته على تفكيره فى نفسه . وبعد أن طلب إليهم أن يقطعوا عهد الولاء والطاعة لولده

---

(١) تؤيد الرواية الإسلامية استخدام بنى هود للسيد الكنبيطور فى حروبهم ضد خصومهم من المسلمين أو النصارى ، وقد أشار ابن بسام فى الذخيرة إلى ذلك بشىء من التفصيل ، ونقل دوزى هذه النبذة بنصها العربى فى كتابه عن « السيد » .

الأكبر الدون بيدرو ، طلب إلى ولده أن يقطع العهد على نفسه بأن يمضى فى حصار وشقة حتى سقوطها ، وقطع ولده الثانى ألفونسو أمامه مثل هذا العهد . ولما اطمأن إلى مصير الحصار صارح الحضور بأنه يشعر بدنو أجله ، ثم انتزع السهم من جرحه ومات وهو موقن بأنه قاد شعبه إلى الظفر كما مات إبا منونداس زعيم طيبة (٦ يوليه سنة ١٠٩٣)[1] .

ولبث المستعين بن هود حيناً يساوره التردد وهو يرى جيوش النصارى تشدد الضغط عليه ، وتروعه فتوح المرابطين فى جنوبى اسبانيا وفى شرقيها . على أنه اضطر أن يعتزم أمره ، وقد آثر أخيرا محالفة إخوانه فى الدين ، أعنى المرابطين ، وكانوا يومئذ قد افتتحوا بلنسية والجزائر الشرقية ؛ وقد كان حريا بيوسف بن تاشفين نفسه أن يدرك أن أمير سرقسطة نظراً لاعتماده على وعورة أرضه ، ومنعة قلاعه ، وإخلاص رعاياه ، يستطيع إذا ما هاجم أرضه مهاجم أن يعقد الحلف مع النصارى ، ومن ثم فقد رأى يوسف أن يستجيب إلى ما عرضه المستعين ، من أن يعقد معه محالفة دفاعية ؛ وأرسل المستعين وقد كان يحرز بتجارته مع مصر والشأم ثروات طائلة ، إلى المغرب تحفاً وهدايا جليلة ، كان فى وسع يوسف أن يعتبرها بمثابة الجزية ودليل الطاعة ، كما أرسل ولده عماد الدولة عبد الملك إلى مراكش ليعقد التحالف المنشود[2] ، واستطاع عبدالملك بحسن سعيه وتصويره للخطر الذى تتعرض إليه وشقة أن يحمل يوسف على أن يمد حليفه الجديد بستة آلاف راجل وألف فارس من المرابطين كنجدة أولى مع الوعد بإرسال نجدات أخرى أوفر عدداً ، وإخطار ولاة دانية وشاطبة والسهلة ، (شنتمرية الشرق) بالمبادرة إلى غوث المستعين . على أنه بالرغم من هذه القوى الضخمة التى انضم إليها أيضاً الكونت جارسيا أردونز فى جنده ، وقد كان إلى جانب المرابطين من قبل ؛

---

(١) هو من زعماء اليونان القديمة وقادتها ، قاد بلده طيبة إلى النصر مرارا ، وتوفى قتيلا فى معركة مانتينا سنة ٣٦٢ ق . م التى ظفرت فيها طيبة بالرغم من مقتله .

(٢) راجع فى تفاصيل هذه السفارة وفى أحوال المستعين الحلل الموشية ص ٥٣ — ٥٥ ، والحلة السيراء ص ٢٢٥ .

وبالرغم من أن المستعين استطاع فيما يظهر أن يقوم ببعض الفتوح فى البداية فإن قوى المسلمين لم تستطع أن تناهض جيش النصارى الذى يقوده الدون بيدرو ملك أراجون . ورفع الدون بيدرو حصار وشقة ، وسار إلى لقاء المسلمين وهزمهم هزيمة حاسمة فى « الكرازة » ؛ وعلى أثر ذلك سقطت وشقة فى يد النصارى (أواخر سنة ١٠٩٦ م)[١] واتخذ ملك أراجون مقامه فى وشقة ، وصير مسجدها الجامع فى الحال كنيسة تلا فيها الأرجونيون أدعية الشكر لربهم لما أولاهم من نصر باهر فى « الكرازة » ، ونسبوا الفضل إلى حاميهم القديس جورج . وعندئذ فقط دفن الملك القتيل سانشو ، وكان ابنه بيدرو قد آثر أن يقوم بهذا الواجب البنوى بعد الاستيلاء على وشقة وفاء للعهد الذى قطع .

وكان لسقوط وشقة بالنسبة لشمال شرقى اسبانيا ، أعنى بالنسبة لأراجون من الأهمية مثلما كان لسقوط طليطلة قبل ذلك بأحد عشر عاماً بالنسبة لقشتالة . ذلك أنه ترتب على ذلك سقوط هذين المعقلين المنيعين لسلطان الإسلام فى اسبانيا أن فُتح طريق الأرجونيين إلى سرقسطة ، كما فتح طريق القشتاليين إلى الأندلس . بيد أن الفتوح التى كان واجباً أن تتم عقب الاستيلاء على هذين الحصنين المنيعين أرجئت إلى حين لما بذله المسلمون من عظيم جهد فى الدفاع ، ولما أصاب الأمراء النصارى من عوامل التفرق والخلاف .

وثمة معقل هام ثالث يمكن أن يهدد منه جميع الشاطئ الشرقى لأسبانيا المسلمة ، على أن افتتاحه لم يكن إلا ظفراً خلباً[٢] . هذا فضلا عن أنه لم يترتب عليه ما كان متوقعاً من الآمال الكبيرة . وليس من المستطاع أن نتحقق مما انتهى إلينا فى شأن هذا الفتح من الروايات النصرانية والعربية ما إذا كان قد وقع قبل سقوط وشقة أو بعده . فإذا كان الدون بيدرو قد افتتح وشقة سنة ١٠٩٤ م كما

---

(١) يشير ابن خلدون إلى هذه الموقعة بأنها موقعة وشقة ، ويضع تاريخها سنة ٤٨٩ هـ — ١٠٩٦ م (ج ٤ ص ١٦٣) .

(٢) يريد المؤلف هنا افتتاح بلنسية .

يقول البعض ، فمن الواضح أن استيلاء « السيد » على بلنسية كان بعد هذا التاريخ . بيد أنه يوجد لدينا من الأسباب القوية ما يحمل على الاعتقاد بأن افتتاح وشقة كان فى أواخر سنة ١٠٩٦ م ، ومن ثم فإن بلنسية تكون قد سقطت قبل ذلك فى يد النصارى ، والظاهر أن سقوطها كان فى النصف الأخير من سنة ١٠٩٤ م .

٤ — فتح السيد لبلنسية

لم يقع فتح بلنسية على يد أحد من أمراء أسبانيا النصرانية ، ولكنه وقع على يد فارس جعل منه الشعب الأسبانى بطله الأمثل . ذلك هو الكونت رودريجو دياز دى بيڤار ، المعروف بالسيد الكمبيادور (السيد الكنبيطور) . وإذا كان البحث التاريخى المحقق لأعمال السيد قبل هذا الفتح يقضى بوضعها فى عداد القصص الشعرى ، وأن معظمها يناقض المصادر التاريخية ، فإنه يبقى لبطل أسبانيا عمله الباهر ، أعنى فتح بلنسية دون نزاع .

وترجع سيرة السيد وأعماله الأولى — حتى مع التسليم بأن الشعر والروايات المنمقة اللاحقة تقص الحقيقة ، فى معظمها — إلى الحياة الخاصة أكثر مما ترجع إلى تاريخ أسبانيا العام . بيد أن ما يروى من أعماله فى الأندلس مثل قتاله إلى جانب إشبيلية ضد غرناطة ، ومعاونته لسلمى سرقسطة ضد كونت برشلونة ، والملك سانشو راميرز وبيدرو ملك أراجون والأغلب صاحب دانية ، يناقض المصادر التاريخية فى كثير من الأحيان ، ويحيط به كثير من الريب ، ومن ثم فإنه يحسن أن نعرضه فى فصل خاص .

كان ذلك فى أواخر حكم فرديناند حينما ظهر رودريجو ولد دياجو أو (دياز) لأول مرة فى المعارك التى نشبت ضد الأرجونيين والمسلمين . ولما قسم فرديناند مملكته بين أولاده الثلاثة ، انتظم الكونت رودريجو بين أكابر قشتالة وانضوى تحت لواء سانشو فقدمه على جميع الفرسان الآخرين وعينه قائداً لجيشه . وخاض

رودريجو جميع الحروب التى شهرها سانشو على أخويه وعاون فى كسبها، وطُرد الأخوان من أرضهما ، والظاهر أنه أطلق عليه يومئذ لقب الكمبيادور Campeador أو الكمبيدكتوس Campidoctus أعنى « القائد الكبير »[١] .

ولما سقط سانشو صريع الغيلة أمام أسوار سمورة (زامورا) واستولى أخوه ألفونسو الذى كان يعيش منفيا فى «طليطلة» على جميع مملكة أبيه ، أبى القشتاليون أن يعترفوا به ملكا عليهم حتى يقسم بأنه برىء من كل تبعة فى مقتل سانشو ، ولم يجرأ أحد من أكابر قشتالة على أن يلقن صيغة اليمين للملك إلا الكونت رودريجو ، فقد تقدم لأداء المهمة ، ولقن الملك صيغة اليمين مرتين ؛ وإلى هذا السبب يُنسب غضب ألفونسو المستمر على الكمبيادور ، وكونه كان يقبل على سماع وشايات خصومه .

والظاهر أن المصادر العربية تلقى ضوءاً على القول بأن الملك ألفونسو أرسل رودريجو إلى إشبيلية سفيراً إلى المعتمد لابن عباد[٢] . بيد أن التاريخ الذى تنسب إليه هذه الواقعة هو نفس التاريخ الذى تقول الرواية النصرانية إن رودريجو نفى فيه من قشتالة . أما لماذا نفى الفارس ، وأين كان يقيم أثناء نفيه الطويل ، وهل قاتل حقا فى ذلك الحين إلى جانب أمير سرقسطة ضد برشلونة وأراجون ودانية ، ومتى عاد إلى قشتالة ؛ ثم لماذا نفى للمرة الثانية والثالثة من وطنه ؛ وهل حارب عندئذ إلى جانب كونت برشلونة ؛ وماذا فعل ضد المسلمين فى بلنسية ودانية : فهذه كلها أمور تقصر سير حياته عن إيضاحها بصورة كافية ، متى قورنت بالمصادر التاريخية . بيد أن شيئاً واحداً يبدو محققاً هو أن رودريجو كان رجلا وافر

---

(١) تسمى الرواية العربية السيد الكمبيادور Cid il Campeador رذريق الكنبيطور أو القنبيطور . وتقول لنا إن الكنبيطور معناها صاحب الفحص (راجع ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٨٩ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٧ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٥) .

(٢) كان سفير ألفونسو إلى المعتمد حسبما بينا فيما تقدم هو قائده الفارقانيس المعروف فى الرواية العربية بالبرهانس . ولكن المؤلف لم يفطن إلى هذه المطابقة فى الاسم ، وظن أن البرهانس أو « البرهان » إنما هو شخص آخر ، وسنرى فيما بعد أنه يعتقد خطأ أنه هو الاسم الذى تطلقه الرواية العربية على « السد » .

الكبرياء والصلف يؤثر أن يخوض الحرب لحسابه على أن يخوضها تحت إمرة مليكه الذى لم يكن يحاسنه ولم يرتح إليه ؛ فغادر قشتالة مختاراً . ولما كان قائداً مبرزاً ، وفارساً بارعاً ، ذائع الصيت فى جميع أسبانيا ، فقد اجتمع تحت لوائه أولئك الذين يقودهم إلى السلب والفتح ، وكل من شغفه حب القتال من النصارى أو المسلمين ؛ ومن أحرز قصب السبق فى إثابة الفارس ومكافأته ظفر بعونه وعون عصبته . ويستوى فى ذلك أن يكون الطلب من أمير نصرانى أو أمير مسلم . وقد قدم الأمراء الذين يحكمون فيما بين الأيبرو والبرنيه أنفسهم أمثلة من ذلك ؛ فليس غريباً أن يتقدم فارس مبعد من وطنه على رأس سرية من الشجعان لبيع معونته دون تفريق بين أمير نصرانى وأمير مسلم . ولقد خلقت العلائق التى كانت تربط الشعب الأسبانى فى هذا العصر — بالرغم مما كان يسوده من تعصب دينى فى هذا المقام — نوعاً من التغاضى عن الاعتبارات الدينية ، ما دام الأمر يتعلق بتحقيق السلطان والمجد والتوسع . وقد كان ثمة « كمبيادور » آخر خصم للكونت رودريجو هو الكونت جارسيا أردونز الذى تقع أراضيه فى أعالى الأيبرو ، وقد باع فرسانه للمرابطين وحارب معهم ضد النصارى . ولما حاصر الملك بيدرو وشقة بعد ذلك جاء الكونت جارسيا أردونز موفداً من قبل المرابطين لمعاونة أمير سرقسطة ؛ بل يلوح أيضاً أنه حارب ضد الكونت رودريجو نفسه .

وقاتل رودريجو فى جنده النصارى والمسلمين مراراً فى شرق أسبانيا فيما بين نهر ايبرو ونهر شقر ، وخاض معارك شديدة ضد النصارى والمسلمين ، ولقب فى تلك الفترة لأول مرة « بالسد » (أى السيد) ، ولقب من أعدائه بنوع خاص « بالبرهانس » (أى الطاغية)[١] . ونستطيع لأول مرة حينما افتتح المرابطون دانية وبلنسية (سنة ١٠٩٢ م) أن نعثر فى المصادر التاريخية الحقة عادة أوثق عن أعمال السد . فبعد أن حصن السد فى بلنسية عدة قلاع شاهقة فى الجبال ،

(١) هذا تحريف سبق أن أشرنا إليه ، والواقع أن « البرهانس » الذى تشير إليه الرواية العربية إنما هو « الفارفانيس » قائد الملك ألفونسو السادس ؛ والظاهر أن المؤلف ذهب إلى هذا التفسير من عبارة مضطربة وردت فى ذلك فى ابن خلدون (ج ٦ ص ١٨٢) .

وزودها بحاميات قوية ، وعقد حلفاً مع أمراء السهلة وشاطبة ودانية ومربيطر المسلمين ، وهم من ألد خصوم المرابطين ؛ اعتزم أن يحاول انتزاع بلنسية من المرابطين ، فحاصرها بجيش كبير من النصارى والمسلمين تماونه فيما يظهر قوة من القشتاليين أرسلها الملك ألفونسو ؛ وبالغ السد فى التضييق على المدينة حتى أن سكانها الذين كانوا فوق ذلك يئنون من حكم المرابطين عمدوا إلى إرغام والى المدينة وهو القاضى أحمد بن جحّاف على أن يفتح أبوابها للجيش المحاصر ، خصوصاً وقد غاض كل أمل فى الغوث السريع الذى التمسوه ، واتُّفق على تسليم المدينة على أن يؤمن القاضى ابن جحاف وأسرته وكل سكان المدينة تأميناً تاما مطلقاً ؛ فلا يصيبهم فى النفس أو المال أى ضرر ، وأن يبقى القاضى على ولايته ، وبذا دخل السد وحلفاؤه ثغر بلنسية فى جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ (مايو سنة ١٠٩٤ م) [١].

وحافظ الظافر بادئ ذى بدء على عهده ، ولكنه لما طلب إلى ابن جحاف أموال أمير بلنسية السابق يحيى القادر بن ذى النون ، وقرر القاضى أنها ليست لديه ولا يعرف مخبأها ، أمر بالقبض عليه وعلى أسرته ، ولما لم ينجح فى حمله على الاعتراف وعد ولا وعيد ولا تعذيب ، أقيمت فى ساحة السوق بالمدينة محرقة كبيرة لكى يحرق فيها ابن جحاف وأسرته . ولما وقفت الجموع المحتشدة من المسلمين والنصارى على الخبر صاحت وأنت حسرة على مصير النساء والأطفال ، والتمست إلى السد أن يفر الأبرياء على الأقل ؛ فنزل فى النهاية عند رجائهم ، واقتيد القاضى فى أغلاله وألقى فى حفرة إلى وسطه . وأضرمت النار من حوله وأتى عليه اللهب فى الحال . وكانت هذه الواقعة لعام من سقوط بلنسية .

وكان يشترك مع السد فى حكم بلنسية حليفه الأمير أبو مروان عبد الملك صاحب السهلة ، وفوض إليه السد أن يختار لها والياً هو لبون بن عبد العزيز ، وكان قيام وال مسلم بالحكم باسم الفريقين مما يخفف على البلنسيين وطأة نير

(١) راجع فى استيلاء السيد على بلنسية البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٥ و ٣٠٦ ، وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٨٩ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٧ .

النصارى . ذلك أنه كان من الواضح أن ألفونسو ملك قشتالة وهو صاحب الجزية على السد هو أيضاً سيد بلنسية . وفى ذلك أيضاً ما يفسر كون بعض الروايات العربية تنسب افتتاح بلنسية إلى الملك ألفونسو وايس إلى السد ، وأن الروايات النصرانية تصف سقوط بلنسية عقب وفاة السد بأنه انتقاص لأراضى مملكة قشتالة .

وقد حبطت كل محاولات المرابطين لاستعادة بلنسية ما عاش السد . بيد أن كل ما روى بعد ذلك عن أعمال الكمبيادور (الكنبيطور) وسيرة حياته تحيق به نفس الريب التى تحيق بسيرته قبل افتتاح بلنسية ، ومن ذلك ما قيل عن محالفه مع بيدرو ملك أراجون ضد المرابطين وعن الموقعة العظيمة التى خاضاها معاً ضد قائد المرابطين سير بن أبى بكر فاتح الجزائر الشرقية (البليار) . هذا بينما توجد رواية تناقض هذه تمام المناقضة ، مفادها أن السد أسر الملك بيدرو هذا ؛ ومن ذلك أيضاً ما قيل عن افتتاح السد لمربيطر ، وقد كان أميرها حليف السد ؛ وعن اشتراك الكونت رعوند برنجار الثالث صاحب برشلونة — وكان لايزال يومئذ قاصراً — فى الدفاع عن مربيطر ضد السد ، وما ورد فى بعض الروايات السقيمة المتأخرة عن تعيين هيرونيموس أسقفا لبلنسية بموافقة أوربان الثانى ، وهى رواية باطلة . أما القليل الذى يؤيده التاريخ الحق ، فهو أن السد استمر فى حكم بلنسية حتى توفى على مقربة منها فى سنة ١٠٩٩ م (٤٩٢ هـ) ، وأنه بعد وفاته بثلاثة أعوام اضطر ألفونسو ملك قشتالة بعد حصار طويل الأمد ومعارك دموية عديدة ، أن يتخلى عن بلنسية للمرابطين وذلك فى سنة ١١٠٢ م (٤٩٥ هـ) .

ونريد هنا أن نختتم تاريخ السد بأن نقول كلمتنا فيه حسبما نوهنا من قبل فى فرصة سابقة . وإن الباحث ليتساءل لماذا انفرد السد دون سائر أبطال اسبانيا بأن يحرز مثل هذه الشهرة البعيدة ؛ هذا بينما نرى أعمال سادة قشتالة السابقين وغيرهم من أكابر المجاهدين فى سبيل الوطن بدلا من أن يذكرها الشعب الأسبانى ويحيطها بعرفانه يكاد يغمرها النسيان المطبق ؛ فيسفر بحثه عن أن السد مدين

بتخليد ذكره وإحرازه مركزه الرفيع بين الأبطال الأسبانيين بالأخص إلى ظروف عصره . والأمر لا يرجع هنا إلى الخلال ذاتها ، وإنما يرجع بنوع خاص إلى تقدير أهل العصر وعطفهم ، فهم الذين يتوجون هامات الأبطال كما يتوجون هامات الشعراء بأكليل الغار ، ويضمون بذلك دعامة الشهرة لجميع العصور . وقد خلدت ذكرى السد كما خلدت ذكرى أخلليس[1] على يد الرواة والمنشدين . وقد عاش السد فى ذلك العصر العاصف الذى بدأت فيه الحرب الصليبية الأولى . ولما أبى البابا على النصارى الأسبان أن يشتركوا فى افتتاح الأرض المقدسة ، عمد سيد حانق على مليكه إلى حشد المجاهدين من قشتالة وأراجون ليقوم بحملة ضد بلنسية فى نفس الوقت الذى سار فيه جودفروا دى بويون[2] على رأس الجيش الفرنجى الذاهب لافتتاح القبر المقدس . وإذ كان السد أقرب إلى تحقيق غايته ، فقد استطاع أن يستولى على بلنسية قبل أن يسير الصليبيون بعيداً فى طريقهم .

وفى نفس العام الذى توفى فيه السد وهو ما يزال سيد المدينة المفتوحة ، فتح بيت المقدس . وتقدم إلينا معظم الروايات الأسبانية منذ القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر الحادثين جنباً إلى جنب ؛ وأحياناً تضع لهما تواريخ مصطنعة لتحملنا بذلك على الاعتقاد بأنه توجد بينهما ثمة رابطة ؛ ذلك أنه ما كاد نبأ الاستيلاء على بيت المقدس يذاع بسرعة مدهشة فى جميع أنحاء أوربا ، وتتردد أسماء الأبطال الصليبيين الأوائل على جميع الألسن ، حتى حفز ذلك الشعب الأسبانى المجاهد الذى أبعد عن الاشتراك فى الحرب الصليبية أن يقدم جلائل أعمال أبطاله المماثلة ، إلى جميع المجتمع النصرانى المعاصر ، وإلى الأجيال اللاحقة فى القصائد والأناشيد . وقد كانت هذه الأعمال تعتبر إلى ذلك الحين حوادث طبيعية نظراً لظروف اسبانيا النصرانية إزاء المملكة الإسلامية ، ولذا لم تعن

(١) هو بطل إلياذة هوميروس ، وتصوره الإلياذة أشجع جندى يونانى فى حروب تروادة .

(٢) هو من أمراء الفرنج وقائد أول حملة صليبية سارت لافتتاح بيت المقدس وافتتحها فى سنة ١٠٩٩م ، وكان أول ملوكها من الصليبيين ، وتوفى بعد عام من افتتاحها فى سنة ١١٠٠م .

الرواية ولم يعن القريض بالإشادة بها . وأقرب ما يتبادر إلى الذهن عن فتح بلنسية هو أنه شبيه بفتح بيت المقدس إذ قام به الفرسان ، ولم يقم به ملك ما . ومن ثم فقد اعتبر السد البطل الأمثل فى الشعر الأسبانى . واسمه يمثل الفروسية الأسبانية ، ويعتبر عنواناً لمثل أعلى من الشجاعة المقرونة بالتقوى والجود والنبل والفروسية . وإذاً فلا غرو أن يمتزج الشعر بالحقيقة أتم امتزاج ، حتى أنه فى فاتحة القرن الثالث عشر أعنى لمائة عام بعد وفاة السد لم يبق من الميسور بعد أن يفرق بين الحقيقة والخيال .

٥ — الأعوام الأخيرة من حكم يوسف بن تاشفين

لما أخضعت أسبانيا المسلمة كلها لصولة المرابطين — وقد فقد بنو هود فى سرقسطة استقلالهم فى الواقع — عبر سلطان إفريقية الشيخ إلى اسبانيا مرة أخرى لكى يعنى بتنظيم شؤونها قبل وفاته . وكان ذلك سنة ١١٠٣ م بعد استرداد بلنسية بقليل حينما عبر يوسف إلى شبه الجزيرة للمرة الرابعة ، ولم يكن عبوره هذه المرة لمحاربة مسلمى الأندلس ، بل كانت تحدوه عندئذ بالنسبة إليهم عواطف ونيات سامية بعد أن غدوا من رعاياه ؛ واستصحب معه ولديه تميما أبا الطاهر وعليا أبا الحسن . ومع أن عليا كان أصغر من أخيه فقد اختاره يوسف لولاية عهده إذ كان يتفوق على أخيه تفوقا كبيراً فى المواهب والخلال اللازمة لحكم شعوب وأمم كثيرة .

وسرعان ما كشف يوسف عن قصده فى العبور إلى الجزيرة . ذلك أنه بعد أن وقف على حسن سير الإدارة فى الولايات ، وشكر القادة والولاة على غيرتهم فى تنفيذ أوامره ؛ دعا القادة والولاة إلى الاجتماع فى قرطبة ، وكانت قد عادت يومئذ قاعدة الحكم فى اسبانيا المسلمة ؛ ودعى إلى هذا الاجتماع الحافل أيضاً كبراء الأندلس فى مختلف الولايات ، وكذلك زعماء القبائل المغربية التى تدين بالطاعة ليوسف ؛ وأفضى يوسف إلى الجماعة بعزمه فى تعيين ولده الأصغر علىّ لولاية الحكم من بعده وأمرهم أن يؤدوا إليه يمين الولاء والطاعة باعتباره أميرهم المستقبل ؛ وعهد يوسف

إلى كاتبه بوضع وثيقة تتضمن شرح النقط الأساسيه المتعلقة بولى العهد وما يسند إليه من قسط فى الحكم ؛ وأهم ما جاء فيها هو أن أمير المسلمين نصر الدين أبا يعقوب يوسف بن تاشفين بعد أن أنعم النظار والتدبر فى كل شيء ألفى ابنه الأصغر أبا الحسن عليا أكثر أهلية وصلاحية للاضطلاع بجليل الأمور وخطيرها ، ورآه أكثر اقتدارا على تلقى أعباء الحكم ، ومن ثم فقد آثره واصطفاه وعينه ورفعه إلى مقام المُلك ، وأولاه العرش وذلك بعد أن تشاور من قبل مع أعلم الناس وأعقلهم وأقدرهم فى كافة أنحاء المملكة ، وبعد أن اتفقوا جميعاً مع زعماء المملكة وقادتها على الاعتراف بملء حريتهم دون إكراه ما ، بأنهم راضون عن هذا الأمير النابه وأنهم يقبلونه ويبايعونه مختارين ، ما دام والده قد اعتزم ذلك وأقره ، وهم يقبلون عليا ويقرونه على هذا الشرط دون سواه ؛ وهو أن يكون والده أمير المسلمين قد اختاره حقا ورآه أهلا لتبوء الملك[1] .

وبعد أن أقسم الأمير أمام الجماعة لوالده بالتزام الشروط التى بويع بمقتضاها

---

(١) لا بأس مع هذا التلخيص الحسن الذى يورده المؤلف لعهد التولية أن نورد نص العهد ذاته منقولا عن الحلل الموشية ، وهو من إنشاء الفقيه أبى محمد بن عبد الغفور ، وهذا نصه بعد الديباجة :

« أما بعد فإن أمير المسلمين وناصر الدين أبا يعقوب يوسف بن تاشفين ، لما استرعاه الله على كثير من عباده المؤمنين ، خاف أن يسأله الله غداً عما استرعاه ، كيف تركه هملا لم يستنب فيه سواه . وقد أمر الله بالوصية فيما دون هذه العظيمة ، وجعلها من أوكد الأشياء الكريمة ، كيف فى هذه الأمور ، العائدة بمصلحة الخاصة والجمهور . وإن أمير المسلمين بما لزمه من هذه الوظيفة ، وخصه الله بها من النظر فى هذه الأمور الدينية الشريفة ، قد أعمل الله رماحه ، وأحد سلاحه ، فوجد ابنه الأمير الأجل أبا الحسن أكثرها ارتياحا إلى المعالى واهتزازا ، وأكرمها سجية وأنفسها اعتزازا ، فاستنابه فيما استرعى ، ودعاه لما كان إليه دعى ، بعد استشارة أهل الرأى على القرب والتأنى ، فرضوه لما رضيه ، واصطفوه لما اصطفاه ، ورأوه أهلا أن يسترعى فى ما استرعاه ، فأحضره مشترطا عليه الشروط الجامعة بينها وبين المشروط ، فقبل ورضى ، وأجاب حين دعى ؛ بعد استخارة الله الذى بيده الخيرة ، والاستعانة بحول الله الذى من آمن به شكره » ؛ وبعد ذلك مواعظ ووصية ، بلغت من النصيحة مراى قصية ، يقول فى خاتمة شروطها ، وتوثيق ربوطها ، كتب شهادته على النائب والمستنيب ، من رضى إمامتهما على البعيد والقريب ، وعلم علما يقيناً بما وصاه فى هذا الترتيب ، وذلك فى عام خمسة وتسعين وأربعمائة » (ص ٥٦ و ٥٧) .

وضع الكاتب وثيقة أخرى جاء فيها أن الجماعة كلها أقرت هذا وشهد على ذلك الحضور بالأصالة عن أنفسهم وبالنيابة عن الغائبين ، وبعد أن أقر الأمير الشروط الموضوعة لولاية العهد وقبلها أمضى له الكاتب إشهاداً بذلك . وكان إعلان هذه البيعة فى شهر ذى الحجة سنة ٤٩٦ هـ (١١٠٣ م) .

وأما فيما يختص بالأندلس فقد أمر يوسف ولده عليا بما يأتى : ألا يعين فى مناصب الحكام والقضاة فى الولايات والحصون والمدن إلا المرابطين من قبيلة لمتونة ، وأن يحتفظ فى الأندلس بجيش دائم حسن الأجر من المرابطين قوامه سبعة عشر ألف فارس يطعمون فى المدن بلا مقابل ويوزعون كما يأتى : أربعة آلاف فى ولاية سرقسطة وسبعة آلاف فى إشبيلية وثلاثة آلاف فى غرناطة وألف فى قرطبة والباقى وقدره ألفان يحتلون قلاع الحصون كحامية[1] ويحسن أن يعهد إلى مسلمى الأندلس بحراسة الحدود النصرانية ومحاربة النصارى فهم أكثر خبرة ودربة على مقاتلة النصارى من المغاربة . ويجب لإذكاء همم الأندلسيين أن يكافأ المتفوقون فى الحرب منهم بالخيل والسلاح والثياب والمال .

ونصح يوسف أخيراً أن يعامل أهل قرطبة المعروفين بالكبر وحب الشغب باللين والرفق ، وأن توثق أواصر الصداقة مع بنى هود أمراء سرقسطة وهم طليعة الأندلسيين فى محاربة النصارى[2] .

ولما انتهى يوسف بن تاشفين من تنظيم شؤون الأندلس عاد إلى إفريقية حيث تولى الحكم بضعة أعوام أخرى وذلك بالرغم من سنه المتقدمة وضعفه المتزايد ؛ وأخيراً بلغ به ضعف الشيخوخة مبلغه . فتوفى فى قصره بمراكش فى المحرم سنة خمسمائة (سبتمبر سنة ١١٠٦) وقد بلغ من العمر نحو مائة عام بعد حياة طويلة وحكم حافل بجلائل الأعمال[3] .

---

(١) يشير فى الحلل الموشية إلى ذلك مع خلاف يسير فى توزيع القوى (ص ٥٧) .

(٢) راجع الحلل الموشية ص ٦٠ .

(٣) راجع فى أعوام يوسف الأخيرة ووفاته ابن خلكان ج ٢ ص ٤٨٨ وما بعدها ؛ وروض القرطاس ص ١٠١ و ١٠٢ ، والحلل الموشية ص ٥٥ وما بعدها .

ويوسف بن تاشفين أحد أولئك الرجال الأفذاذ الذين يلوح أن القدر قد اصطفاهم لتغيير وجهة سير الحوادث فى التاريخ ؛ فهو الذى جمل من إفريقية الممزقة شر ممزق ، مملكة عظيمة موحدة ؛ وهو الذى بث بما استحدث من نظم وأساليب روحا قوية فى القبائل والشعوب التى يحكمها ، وقد أفضت هذه الروح إلى تحقيق العجائب . أجل لم يكن هو الذى غرس بذور هذا الانقلاب العظيم فى إفريقية ، ولكنه هو الذى سيطر بذهنه الرفيع على تطورات موريتانيا (المغرب الأقصى) التى هيئت أسبابها ، وأتمها وفقاً لعزمه ورأيه . وقد وهب المملكة الجديدة عاصمة جديدة هى مراكش ، وأضاف بحروبه فى اسبانيا ضد النصارى — ولا سيما بانتصاره فى موقعة الزلاقة — إلى شهرته كفاتح ، شهرته كمجاهد فى سبيل الإسلام ؛ وقد كان الإسلام يومئذ على وشك الانهيار فى شبه الجزيرة ، فبث إليه بعونه وتدخله روحا وقوى جديدة . أجل أبدى يوسف فى إخضاع الأندلس لسلطانه كثيرا من الدهاء والعنف ، وأبدى قسوة فى معاملة الأمراء ؛ بيد أنه لما كان أولئك الأمراء هم الذين أحدثوا بأثرتهم ما كان يعانيه مسلمو الأندلس من سوء الحال فإن جمهرة الأمم الإسلامية لم تر فى يوسف فاتحا متغلبا ؛ بل رأت فيه منقذا واعتبرته يد القدر فى معاقبة الأمراء الباغين . وفى مملكة المرابطين الشاسعة الممتدة من المحيط الأطلنطى إلى مقربة من مصر ، ومن البحر الأبيض إلى حدود بلاد النيجر مشتملة على على الصحراء الكبرى التى كانت تخترقها قوافل المرابطين ، وفى أسبانيا من نهر أيبرو إلى مصب الوادى الكبير ، وفى مضيق جبل طارق لم تفرض ثمة فى عهد يوسف قط مكوس أو ضرائب أو رسوم لا فى المدن ولا فى القرى ؛ وكان دخل الدولة يتكون فقط من التبرعات ومن الأعشار ومن أخماس الغنائم التى تحقق فى الحرب . وقد كانت تجبى منها بلا ريب مقادير طائلة . ذلك أن يوسف ترك ثروة عظيمة من الذهب والفضة تقدر بملايين عديدة ، ومن المحقق أن اليهود ساهموا فى هذه الثروة بقسط وافر ، فقد كان يفرض عليهم الإسلام فرضا ، فلا يستردون حريتهم إلا إذا دفعوا مبالغ طائلة[1] .

---

(١) هذا مطابق لما أورده صاحب روض القرطاس (ص ٨٨) .

ومنذ ظفر الزلاقة العظيم غير يوسف نقش السكة ، ونقش فى أحد وجهيها ما يأتى : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، وتحته « أمير المسلمين يوسف بن تاشفين » ، وكتب فى الدائرة العبارة الآتية : « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » ، ونقش على الوجه الآخر مايفيد الاعتراف بسلطة الخلافة العباسية الروحية ونصه : « الأمير عبد الله أحمد أمير المؤمنين العباسى » ، وفى الدائرة تاريخ ضربه وموضع سكته[١].

كذلك امتُدح يوسف لمأثور عدله ؛ فانه ألغى حكم الإعدام وجعل السجن المؤبد أقصى عقاب يمكن توقيعه على مذنب[٢]. وقد عمل على تبسيط الإجراءات القضائية ، وكان يطوف بولايات مملكته من وقت إلى آخر لكى يشرف على تنفيذ أوامره ، ثم لكى يقف بالأخص على مبلغ رفاهية الشعب ورضاه ، وعلى ظلاماته وآلامه .

٦ — ولاية علىّ العرشَ وحكمه حتى موقعة إقليش

ونودى فى الحال عقب وفاة يوسف بولده أبى الحسن على فى مراكش أميراً للمسلمين : ودعى له فى الصلاة فى ألوف المساجد فى مختلف أنحاء مملكته الشاسعة ؛ ولكن أهل فاس حيث كانت الولاية لابن أخيه يحيى بن أبى بكر بن يوسف أبوا الاعتراف بسلطانه ؛ فسار علىّ إلى فاس وأرغم الخوارج عليه بالسيف على الخضوع لصولته . وكان سلطان المرابطين الجديد فى الواقع فتى فى عنفوانه ، ولم يكن قد جاوز الثانية والعشرين من عمره ، ومع ذلك فقد أبدى فى حكمه كثيراً من الحكمة والعدالة ؛ وكان يمتاض فى ذلك عما يعوزه من الخبرة والتجارب بنصح أعقل رجال بطانته وأكثرهم نضجا ، وكان إلى جانب وسامته يتمتع بكثير من الخلال التى أكسبته محبة الشعب وتقديره ؛ فقد كان وافر الجود كثير ، العطف والبر

---

(١) راجع روض القرطاس ص ٨٨ .
(٢) راجع الحلل الموشية ص ٥٩ .

بالفقراء والمساكين ، يحرص على مظاهر الجد والوقار فى المناسبات العامة مع الابتعاد عن مظاهر الكبرياء والصلف ؛ وكان أول أمير مسلم فى إفريقية استخدم النصارى فى بلاطه ، فجعل منهم فرسانا فى حرسه الخاص وأولاهم مناصب القصر ، ولم يكن هذا الميل إلى الاستعانة بالنصارى يرجع فقط إلى أن والدة على « رميكة » كانت نصرانية [(١)] ؛ بل كان يرجع بالأخص إلى الثقة بولاء النصارى وكونهم أقل عرضة للإغراء بتدبير المؤامرات من الأهلين ؛ بيد أن وجود النصارى فى بطانته لم يحل دون مضيه فى محاربة النصارى فى أسبانيا .

وعبر على كأبيه إلى اسبانيا عدة مرات فزارها لأول مرة عقب ولاية العرش ، وذلك لكى يتلقى البيعة فى الجزيرة الخضراء ، ولكى يقر الولاة والقضاة فى مناصبهم أو يعين بدلا من المعزولين منهم ، ثم عاد إلى إفريقية دون أن يقوم فى شبه الجزيرة بأمر ذى شأن [(٢)] .

وفى العام التالى فى سنة ١١٠٧ م أو فاتحة سنة ١١٠٨ م (٥٠١ هـ) عبر إلى شبه الجزيرة مرة أخرى ؛ بيد أنه كان ينوى عندئذ أن يشهر الحرب على النصارى الأسبان بكل ما وسع من عزم وقوة ، وعهد بالقيادة العليا إلى أخيه الأكبر تميم أبى الطاهر الذى عين والياً لإشبيلية ؛ فخرج تميم من غرناطة على رأس جيش ضخم متجها نحو حدود النصارى ، وكان يضطرم رغبة فى أن يدلل فى الحرب على أنه لم يكن أقل صلاحية لولاية العرش من أخيه لوشاء ذلك أبوه ؛ وحالت دون تقدمه فى قلب قشتالة قلعة إقليش أو (إقليج) المنيعة فضرب حولها الحصار فى الحال ؛ ولما وقف الملك الشيخ ألفونسو السادس على ذلك وعلم بما حاق بالمدينة المحصورة من الضيق اشتد به الألم والحزن ؛ إذ كان ضعف الشيخوخة يحول دون سيره على رأس جيشه لمحاربة أعداء دينه ؛ ولكنه رأى نزولا على رأى زوجه لكى يثير

---

(١) كانت أم على بن يوسف بن تاشفين أم ولد نصرانية تدعى « قمرا » ، وليس « رميكة » كما يوردها المؤلف واسمها العربى « فاض الحسن » (راجع روض القرطاس ص ١٠٢ والحلل الموشية ص ٦١) .

(٢) الحلل الموشية ص ٦٢ .

حماسة جنده أن يرسل إلى ميدان الحرب ولده الوحيد سانشو وهو الذى رزق به من « سيدة » ابنة المعتمد بن عباد أمير إشبيلية السابق[١] ؛ مع أنه لم يكن يجاوز الحادية عشرة من عمره ، وأمر مؤدبه الكونت جارسيا دى كبرا (قبره) وكذلك جميع القادة أن يحرصوا كل الحرص على حياة ولده ورفاهته .

فلما رأى أبو الطاهر تميم اقتراب قوات العدو من إقليش أراد أن يرفع الحصار وأن يرتد أدراجه ، ولكن أكابر القادة المرابطين استطاعوا بعد عناء إقناعه بخوض المعركة ، وكانت حال الجيش المرابطى مع ذلك تدعو إلى التوجس واليأس لأنه إذا لم يوفق إلى الظفر فقد سدت فى وجهه جميع سبل الفرار .

وعند الفجر هجم المسلمون على القشتاليين فى فيض من الشجاعة والعنف ، ولم يستطع النصارى أن يصمدوا لهجوم يحدوه اليأس ، فاضطروا إلى الارتداد رغم شجاعتهم ورباط جأشهم ؛ ومن سوء الطالع أن ازدلف الأمير الفتى سانشو إلى قلب المعمعة فبادر إليه الأعداء متحمسين ، وتقدم الكونت جارسيا مليكه يدرأ عنه الخطر بدرعه ويحاول إنقاذه بكل ما وسع ، فلم يغن دفاعه شيئاً وسقط الكونت ضحية واجبه ، وسقط إلى جانبه وريث مملكة قشتالة ؛ وما كاد يذاع بين النصارى أن سانشو قد سقط حتى ركنوا إلى الفرار أشتاتا ، وقتل الظافرون منهم مقتلة عظيمة ، وانتهزوا فرصة الروع السائد فاستولوا على إقليش عنوة ، وسقط فى ميدان الحرب عشرون ألفاً من النصارى وسبعة من كونتات قشتالة ؛ بيد أن المسلمين لم يحرزوا النصر دون خسارة فادحة ، وهذا ما يفسر كونهم لم يتابعوا ظفرهم بالتوغل فى ولاية طليطلة ، ولم يستولوا إلا على بعض المدن

(١) سبق أن أشرنا إلى سقم الرواية النصرانية بشأن زواج ابنة المعتمد من ألفونسو السادس ، ومع أن الرواية الإسلامية تشير هنا إلى نصح زوجه إليه فى أن يرسل ولده إلى ميدان الحرب ، فإنها لم تشر بكلمة قط إلى أصلها الإسلامى (راجع روض القرطاس ص ١٠٤) ، ويزيد ابن خلدون على ذلك تفاصيل عن زوجة ألفونسو السادس تؤيد بطلان الرواية النصرانية وأخصها أنها أقامت بعد موته بأمر الجلالقة ، فهل كان يقر النصارى ذلك لو أنها كانت تمت بصلة ما إلى الإسلام والمسلمين (راجع ابن خلدون ج ٢ ص ١٨٢) .

الواقعة على مقربة من إقليش مثل قونقة وأمستريجو ووبذه وأوريواله وأقونيه وقونسويجرا (١).

ويمكن أن نعتبر انتصار المرابطين فى إقليش فى ٢٩ مايو سنة ١١٠٨ م ذروة سلطانهم فى اسبانيا ومن ذلك التاريخ تنحدر قوتهم فى اسبانيا عاما بعد عام ، وتعصف روح الخروج والثورة بسلطانهم فى إفريقية والأندلس ، ويغدو سقوطهم القريب أمراً محتوما .

---

(١) راجع فى تفاصيل موقعة إقليش روض القرطاس ص ١٠٣ و ١٠٤ .

الفصل الثانى

تاريخ الدول الأسبانية الداخلى

فى عهد ألفونسو السادس

١ — الشئون الكنسية

تحدثنا فيما تقدم عن الأعوام الأولى لحكم ألفونسو السادس ، وحروبه مع أخويه سانشو وجارسيا ، وفتوحه فى قشتالة ، واستيلائه على طليطلة ، ثم عن حروبه ضد المرابطين . وسنتحدث هنا عن أحوال الكنيسة الأسبانية ، وعن نظم الدولة والتشريع فى عهد هذا الملك القشتالى العظيم ، ثم عن تاريخ إمارة برشلونة حتى خضوعها لتأدية الجزية لقشتالة .

ولقد كان النصارى الأسبان — ماخلا أهل الثغر الأسبانى — أو الأراضى الواقعة بين نهر إيبرو والجبال البرينية ، وهم الذين كانوا منذ أيام كارل الأكبر (شارلمان) ينتمون إلى المملكة النصرانية العامة — حتى القرن الحادى عشر — كأنما يفصلهم سد مانع عن باقى أوروبا النصرانية ، ولم يتح لهم بسبب معاركهم المستمرة مع المسلمين — وهى معارك كانت تستغرق كل قواهم وتهدد كيانهم أحيانا — أن يساهموا فى الحوادث الأوربيـة الكبرى ؛ بل إنه ليس من المحقق أنهم كانوا يعترفون برياسة البابا الروحية لأمم الغرب النصرانية ، وإن كانت توجد ثمة وثائق مشكوك فى صحتها تؤيد وجود العلائق بين أسبانيا والكرسى الرسولى ؛ ولكن تغير ذلك كله فى أوائل القرن الحادى عشر . ذلك أن الآباء البندكتيين[1] افتتحوا

(١) الآباء البندكتيون هيئة دينية نصرانية أسسها القديس بندكت سنة ٥٢٨ م ق =

كل هذه الممالك الملحقة إلى ممالك قشتالة وليون وجليقية واشتوريش ؛ إذ استقدمتهم الأسرة النافارية الملوكية التي كانت تحكم جميع الممالك النصرانية في شبه الجزيرة ، ودفعت بهم إلى جميع أديار أسبانيا ، ثم رفعوا بعد ذلك إلى أسمى المناصب الكنسية ، وعملوا عندئذ على توطيد السيادة البابوية .

وبعث البابا اسكندر الثاني إلى أراجون سفيراً هو هوجو كنديدوس ليعمل على إلغاء الصلاة القوطية التي قررت منذ بعيد ، فاستقبله ملكها سانشو راميرز بحفاوة ونزل على كل رغبات البابا ، وبذلت عندئذ (سنة ١٠٧١م) أول محاولة لتقرير الصلاة الرومانية ، وسن عقوبات رادعة ضد شراء المناصب الكنسية ، وشُدد في تحريم استعمال الوسائل السحرية والاعتقاد في مقدرة الأفراد الخارقة ، ووضع الملك كل أديار مملكته تحت سلطة البابا ورفع عنها سلطة الأسقف ، وحصل من البابا نظير ذلك على إذن بأن يستعمل في محاربة المسلمين دخل الكنائس الواقعة في مناطق كانت تابعة للمسلمين ؛ ولم تكن هذه مزية ذات شأن ، ومع ذلك فقد تعهد الملك بأن يدفع للكرسي الرسولي خمسمائة مثقال من الذهب كل عام . واعتبر البابا جريجورى السابع — الذى حاول فضلا عن رياسة الكنيسة النصرانية أن يخضع السلطة الزمنية للسلطة الروحية — هذه الهبة كاتاوة يجب أن تؤديها أراجون ، وأقر في مقابل ذلك الامتيازات التي منحت إليها من سلفه ، ومنها أن يستعمل دخل الكنائس التي كانت في مناطق تابعة للمسلمين في نشر الدين المسيحي ؛ ولكن سانشو رفض هذه العروض في مؤتمر « رودا » الكنسي الذى عقد في سنة ١٠٨٨ واحتج بشدة على دعاوى البابا .

ولم يقصر جريجورى دعواه على أراجون ، ولكنه جعلها شاملة لجميع اسبانيا ، فكتب إلى جميع أمراء الجزيرة النصارى يطلب إليهم الاعتراف به كسيدهم الأعلى وألا يقوموا دون إذنه بفتوح ما . ذلك لأن الجزيرة الأسبانية كانت كلها قبل

= دير مونتى كاسينى بإيطاليا ، ثم انتشرت بعد ذلك في أنحاء أوربا ؛ وامتاز الكثير من رجالها بالعلم حتى أصبحت كلمة « بندكتى » تطلق على العلماء المتبحرين .

الفتح الإسلامى تابعة للكرسى الرسولى ، وأنه لا يعترف بهم ملوكا شرعيين للممالك الأسبانية ولا يأذن لهم فى القيام بفتوح جديدة إلا إذا دفعوا الجزية لرومة ، وتعهدوا بأن يحكموا الأراضى التى ينتزعونها من المسلمين على أنها تؤدى إليه الجزية ؛ ومع أن الملوك الأسبانيين لم يكونوا على علم راسخ بتاريخ وطنهم لكى يقدروا مدى الدعاوى البابوية فإنهم استاءوا لرسالة البابا أيما استياء ، حتى أن السفير هوجو الذى عاد فأرسله البابا لتنظيم الشؤون الأسبانية نصح إليه بالرفق والاعتدال.

وعاد جريجورى فأرسل بعد قليل (سنة ١٠٧٥ م) إلى اسبانيا سفيراً آخر هو أماتوس لكى يجدد دعاوى البابوية على الأراضى الأسبانية ، ويطالب بإلغاء الصلاة القوطية والتشديد فى تحريم زواج رجال الدين ، وإقرار حق البابا فى تعيين الأساقفة وهو حق كان يزاوله الملك . ولم يوفق البابا إلى تحقيق شىء فى سبيل المطلب الأول ، ولكنه وفق إلى تحقيق المطالب الأخرى ولا سيما إلغاء الصلاة القوطية . وإذا كان الأمراء قد اعترضوا على دعوى الجزية فإنهم لم يشددوا المعارضة فى تقرير الصلاة الرومانية . فقررت فى نافار وأراجون وقطلونية وقشتالة فى آماد متقاربة ، وكانت قشتالة أشدها معارضة فى تقريرها ؛ ولكن ملكها ألفونسو السادس مال إلى تأييد البابوية فى مطلبها نظير وعد بمصادقة البابا على طلاقه من زوجه الملكة أجنيس ثم زواجه بعد ذلك مرة أخرى . ومع أن الشعب والفرسان ورجال الدين عارضوا المشروع بشدة فقد انتهى الملك بتقرير الصلاة الرومانية فى ليون ، وتليت فى كنيستها الكبرى ؛ وحصل الملك على إذن بطلاق زوجه أجنيس وتزوج من بعدها بالأميرة كونستانس ابنة أحد دوقات برجونيه الذين ينتمون إلى آل كابيه (ملوك فرنسا) وغدت ملكة لقشتالة (سنة ١٠٧٩ أو سنة ١٠٨٠ م) .

واعتزم الكرسى الرسولى حين رأى أن رجال الدين الأسبان هم أشد معارضيه أن ينظم فى اسبانيا « رجال دين » (أكليروسا) ينتمون إليه ، وقدم إليه الآباء البندكتيون الذين وفدوا من فرنسا فى هذا السبيل أجل الخدمات ، ومنهم انتخب

معظم الأساقفة الأسبان فيما بعد . وأبدى دير ساهاجون البندكتى غيرة خاصة فى تحقيق مقاصد البابا ولا سيما على يد رئيسه برنار الفرنسى وهو رجل وافر الذكاء والبراعة اشتهر قبل انتظامه فى سلك الكهنوت بشجاعته فى الحرب كفارس ؛ وحصل برنار أثناء زيارته لرومة على مرسوم بتولى الدير للقضاء الكنسى الأعلى ، ووضعه مباشرة تحت رياسة رومة وحصل من الملك ألفونسو على امتيازات ذات شأن للدير .

ولما انتزع ألفونسو مدينة طليطلة من يد المسلمين واتخذ مقامه فى عاصمة القوط القديمة ، دعا — نزولا على تقاليد العصور السالفة — مجلساً نيابيا أو اجتماعاً كنسيا إلى الانعقاد . ومع أننا لم نتلق تفاصيل ما دار فى هذا الاجتماع الذى عقد فى ديسمبر سنة ١٠٨٦ فإنه من الثابت أن الراهب برنار رئيس دير ساهاجون قد انتخب فيه مطراناً لطليطلة . كذلك تباحث الملك فى هذا الاجتماع مع كبراء دولته فيما يجب إجراؤه لتدارك ما أحدثته هزيمة الزلاقة التى وقعت قبل ذلك بقليل ، وذلك بإعداد معدات الحرب السريعة ضد المسلمين . ومن المحقق أن الكونت هنرى والكونت ريمون البورجنيين قريبى الملكة كونستانس كانا يومئذ فى أسبانيا ، وإليهما وإلى وساطة المطران برنار يرجع الفضل فى وفود جماعات كبيرة من المحاربين الفرنسيين إلى أسبانيا . وهنا يمكن القول بأن ذلك كان أول بدء للحروب الصليبية .

ولم يمض على تقلد برنار لمنصبه الرفيع عام واحد حتى كشف عن عميق تعصبه . ذلك أنه انتهز فرصة غياب الملك عن طليطلة فاقتحم بموافقة الملكة — وهى امرأة شديدة التعصب — مسجد المسلمين الذى اشترط فى المعاهدة التى عقدت عند تسليم المدينة أن يبقى مفتوحا لإجراء الشعائر . ولم يقدر الحبر المتعصب عهد مليكه وشرفه ، ولا تأثير هذا النكث فى سكان طليطلة المسلمين وهم جمهرة كبيرة ، وبعث العمال بالليل فأقاموا بالمسجد هيا كل ، ورتبوا فيه أجراساً ، وقلبوه كنيسة للنصارى . وفى صباح اليوم التالى عقد قداساً حافلا إيذاناً بتحويله رسميا إلى

كنيسة ؛ فهاج المسلمون فى طليطلة وماجوا ، ولولا وجود حامية قشتالية كبيرة فى المدينة لاستحال هياجهم إلى ثورة صريحة . وفى الحال بعثوا منهم وفداً إلى الملك ليناقشوه الحساب فى أحكام المعاهدة المعقودة . وما كاد ألفونسو يقف على تفاصيل الحادث حتى استشاط غضباً من الأسقف ومن زوجه ، وأدرك لفوره ما يمكن أن يترتب على مثل هذا النكث . ذلك أن الجيش كان يضم آلافاً من المسلمين ، وكان المسلمون أغلبية فى ولاية طليطلة . وكان التسامح الدينى ، والتزام الدقة فى تنفيذ أحكام المعاهدة التى عقدت ، مما يجعلهم ينسون أنهم خاضعون لأمير نصرانى . وكان يجد فيهم عضداً قويا فى حروبه ضد الأندلسيين والمرابطين الذين كانوا يومئذ يهددون الأراضى النصرانية بجموعهم الزاخرة . وكان عمل الأسقف الطائش المثير حريا بأن يحمل المسلمين على الخروج على ألفونسو ؛ وكانت قوى ملك قشتالة قد نقصت منذ هزيمة الزلاقة ، بحيث كانت كل زيادة فى قوى أعدائه تجعله عاجزاً عن الاحتفاظ بما وراء نهر التاجه ؛ ومن ثم فقد وصل به الغضب من فعلة المطران والملكة إلى حد أنه أمر حال وقوفه على الخبر بحرقهما لما أثارا بفعلتهما من مأزق حرج . ولعل رسل المسلمين رأوا أنهم لن يكسبوا شيئاً من توقيع مثل هذه العقوبة ، لأن رجال الدين وهم جمهرة متعصبة سينتهون بإحراز الفوز ؛ أو لعلهم أملوا أن يستعيدوا مسجدهم إذا سوى المشكل بسلام ، فكانوا أول من التمس من الملك أن يهدئ من غضبه وأن يصفح عن مثيرى الفتنة . وليس من الواضح لماذا بقى المسجد بعد ذلك منزوعاً من أصحابه ؛ بيد أن فى ذلك على الأقل ما يدل على أن رجال الدين كانت لهم اليد العليا . أما ما زعمه أحد مطارنة طليطلة[1] بعد ذلك من أن المسلمين هم الذين أحلوا عندئذ ملك قشتالة طوعا من جميع العهود التى قطعت فى المعاهدة فظاهر أنه تبرير فقط لنكث النصارى . وعلى أى حال ففى ٢٥ أكتوبر سنة ١٠٨٧ حول مسجد طليطلة الجامع إلى كنيسة جامعة فى حفل رسمى (شعبان سنة ٤٨٠ ﻫ).

(١) هو رودريك الطليطلى ، وقد عاش فى القرن الثالث عشر ووضع باللاتينية تاريخاً لأسبانيا .

وفى العام التالى أراد برنار السفر إلى رومة ليحصل على ثوبه الكهنوتى ، ولكنه ما كاد يبتعد عن طليطلة حتى بادر رجال الدين الأسبان إلى العمل لخلعه باعتباره أجنبيا لا محل لتفضيله ؛ وعلم برنار بهذه الحركة من بعض أصدقائه فارتد مسرعا إلى طليطلة وفشلت الحركة وأبعد زعماؤها أو عزلوا عن مناصبهم ، وعين برنار مكانهم رهباناً من مواطنيه الفرنسيين ، ولا سيما من دير ساهاجون ؛ ثم سافر بعدئذ إلى رومة ، وحصل من البابا أوربان الثانى على الثوب الكهنوتى ، وعلى مرسوم بتعيينه رئيساً للكنيسة الأسبانية . ورأى لكى يقضى على معارضة رجال الدين الأسبان أن يضع على رأس الأسقفيات الهامة فى أوسمه وبراجا وسيجونزا وطليطلة وبلنسية وسمورة وتلمرية رهباناً من مواطنيه . ومع أن البابا حصل على حق تعيين الأساقفة فإن ملك قشتالة لم يستمع دائما إلى رغبات البابا ؛ بيد أنه سمح للسفير البابوى بأن يعقد اجتماعا كنسيا عاما بعد أن كان ذلك من حق الملك وحده ، لأن كل اجتماع كنسى كان يعتبر مجلساً نيابيا ؛ وكان عقده فى هوسليوس بالقرب من پلانسيا[1] Palencia (سنة ١٠٨٩) وفيه حصل الملك على موافقة الأحبار باستمرار اعتقال الأسقف بلايز ديجو ، وهو الذى اتهم بتدبير مؤامرة لمعاونة وليم الفاتح على فتح جليقية . ولكن أوربان الثانى قضى ببطلان هذا الاجتماع ، وأرسل إلى أسبانيا سفيراً آخر لينظم شؤونها الكنسية وفق رغباته ، هو الكردينال رنزيوس ؛ وعقدت بدعوته جمعية كنسية أخرى فى ليون سنة ١٠٩١ ، وشهدها الملك وكبراء المملكة وتقرر فيها الإفراج عن الأسقف ديجو ، ونفذت أوامر البابا فى تعيين بعض الأساقفة وعزل البعض الآخر . وكان من أهم ما قرر فيها أيضاً إلغاء الكتابة الطليطلية ، وهى كتابة لم تكن قوطية ، ولكنها كانت تختلف عن الكتابة الرومانية اختلافا كبيرا ، وأحلت مكانها الكتابة الرومانية ، كما تقرر إدخال الطقوس الدينية الرومانية .

ولما عقد أوربان مؤتمر كليرمون ، وأذكى حماسة الأمم النصرانية كلها لخوض

(١) هى غير بلنسية ، وهى من مدن قشتالة القديمة وتقع على مقربة من بلد الوليد .

الحروب الصليبية ، أراد برنار وعدة من الأساقفة الأسبان السفر على رأس الصفوف إلى القبر المقدس ؛ ولكن أوربان حرم على الأسبان أن يشتركوا فى الحرب الصليبية فى المشرق ، لأن أعداء النصرانية (المسلمين) يهددونهم فى عقر دارهم ، وكفى النصارى الأسبان فخراً أن يقاتلوا المسلمين فى الغرب . واستمر أوربان يعمل فى تمكين سلطانه على الكنيسة الأسبانية ؛ ومع أن ألفونسو كان ملكا قويا فإنه كان يجل البابا كرئيس أعلى للكنيسة ؛ إلى حد أنه لم يفكر فى مناصبته العداء جهاراً مثلما كان يفعل القيصر الرومانى وغيره من الأمراء يومئذ ، ومن ثم فقد أعفى من عقوبة الحرمان الكنسى ، وذلك بالرغم من أنه كان كثيراً ما يعارض الأمانى البابوية ؛ وثار بينه وبين أوربان خلاف حاد بخصوص تعيين أسقف لكرسى شنت ياقب ، وتمسك كل منهما بمرشحه ، ولم تحسم المسألة إلا بعد وفاة أوربان حيث وافق خلفه على اختيار مرشح الملك .

وقد أضر نفوذ الآباء البندكتيين بنمو القومية الأسبانية ؛ ولكنهم من جهة أخرى أدوا خدمات جليلة إلى اسبانيا التى كانت متخلفة فى مضمار الثقافة عن غيرها من الأمم الأوربية ، ولطفوا من حدة النزعات الحربية العنيفة . ذلك أن الكفاح المستمر ضد المسلمين قد أسبغ على الشعب كله دون استثناء لرجال الدين لوناً حربيا عميقاً ، حتى أن الرجل لم يكن ليحظى بالتقدير والاحترام إلا إذا أبدى شجاعته على رأس الجند فى محاربة أعداء الدين . ولذا لم يك ثمة كبير فارق بين الأساقفة والنبلاء وحكام الولايات . فالأساقفة كانوا كهؤلاء يحكمون باعتبارهم أتباع الملك فى المدن والأقاليم ، وكانوا عند الحرب يدعون إلى مرافقة الجيش ، ولم يكن من النادر أن نرى الأساقفة فى المواقع على رأس السرايا ، أو نراهم يقودون الحملات أو يحاصرون المدن ؛ وكان برنار رئيس الكنيسة الأسبانية يضطرم رغبة فى أن يساهم فى الحرب الصليبية بالرغم من تحريم البابا ، وقد حشد بالفعل فرقة من الفرسان وسار على رأسها ، ولكنه حينما وصل إلى رومة أمره البابا بالعود فورا حرصاً على مصالح الكنيسة ، وأصدر مرسوماً

جديداً بتشديد التحريم على رجال الدين والفرسان الأسبان أن يساهموا فى الحروب الصليبية ، لأن محاربة المسلمين فى أسبانيا لا تقل أهمية وقدراً عن المحاربة فى المشرق ؛ وترتب على ذلك أن هرع كثير من الفرسان النصارى من مختلف الأمم إلى أسبانيا ليساهموا فى حربها الصليبية وهى أمنية أقرب وأيسر منالا ، وكان لذلك أثره أيضاً فى تقوية جانب ملوك اسبانيا النصرانية ضد المسلمين .

ولم يكن نفوذ البابا مقتصراً على ممالك اسبانيا النصرانية ، ولكنه كان يتناول أيضاً النصارى المعاهدين تحت حكم المسلمين[١] ، وكان له رأى فى تعيين أساقفة المناطق الإسلامية ؛ ومع أن مصاير الكنيسة الأسبانية كانت تجتمع فى يد رئيسها الأعلى فإن معظم المؤتمرات الكنسية كانت تعقد على يد سفراء البابا ، وذلك حرصا من رومة على ألا يستخدم رئيس الكنيسة الأسبانية استقلاله فى إنشاء كنيسة مستقلة كما حدث فى قسطنطينية .

٢ — نظم الدولة والتشريع

كانت نظم الدولة فى الممالك النصرانية الأسبانية حتى القرن الحادى عشر فيما يظهر ، مماثلة للنظم التى كانت قائمة فى أواخر عهد القوط . وكان الملك وراثيا فى قشتالة فقط ، ولكن فى باقى الإمارات الأخرى ، فى جليقية وليون واشتوريش وناقار وأراجون كان الملك ينتخب بواسطة الكبراء . بيد أنهم اجتنابا للحرب الأهليـة كانوا ينتخبون من كان بمولده أحق الناس بالعرش . وكان الملك يجمع بين يديه أكبر سلطة فى الحرب وفى السلم ، وقيادة الجيوش العليا وحكم القضاء الأعلى . وكان بطانة الملك الذين يعاونونه فى الحكم يدعون « رجال الخاص» Palatini . وكانت أسماء المناصب والمناصب نفسها مشتقة من النظم القوطية . بيد أنه كان ثمة تقليد مشتق من النظم الفرنجية ، وهو أن الوزير الأول كان يسمى «محافظ القصر» Majordomus ، وذلك دون أن يتمتع بسلطات خاصة فى الحكم ، لأن ملوك اسبانيا كانوا يتولون الحكم بأنفسهم ؛ وكان وزير الحرب يسمى «حامل السلاح»

---

(١) ويطلق عليهم بالأفرنجية Mozarabes ، والظاهر أنها تحريف لكلمة « مستعرب »

Armiger ، وقاضى الجنايات الأعلى يسمى «المرجع الأعلى» Majorinus Palatii .
وكان يدير الشؤون المالية المشرفون على الاقتصاد Oeconomi Palatii ؛ ويتولى إعداد المراسيم والوثائق المسجلون الملكيون Notarii ، وكانوا فى الغالب من رجال الدين ؛ ويعنى بخدمة الملك وتدبير شؤون القصر طائفة خاصة من الحشم ؛ وكان يخدم الملك على المائدة يوم توليه العرش أربعة من أكرم نبلاء المملكة ، وهو تقليد كان موجوداً فى الأمم الجرمانية منذ العصور القديمة .

وقد تكونت نظم الأقطاع مثلما حدث فى فرنسا وألمانيا وإيطاليا عقب عصر كارل الأكبر (شارلمان) وأدخلت لأول مرة فى قشتالة حين تبوأ ملوك نافار العارفون بالنظم الفرنجية عرش المملكة الأسبانية . بيد أننا لا نستطيع أن نقطع بأن النظم الأقطاعيــة لم تعرف قبل ذلك فى شبه الجزيرة (وقد كانت فى الثغر الأسبانى منذ القرن التاسع) ، وكل ما هنالك أنها لم تطبق بنفس الصورة التى طبقت بها فى أمم أوربا الوسطى ؛ ثم إن ظروف العصر كلها تدل على أنه لم يكن ثمة بد من أن ينتقل غرس الأقطاع إلى قشتالة ، وكان سبيل ذلك العلم بنظم الدول الإسلامية التى كانت تعرف الأقطاع .

وكان رمز الخضوع الظاهر لأحكام الإقطاع اليمين التى يؤديها صاحب الأقطاع إلى الأمير ضماناً بإخلاصه واعترافه بأنه يضع أرضه وأتباعه تحت تصرف الأمير ؛ ففى أثنــاء الحرب ينتظم فى الجيش مع أتباعه ، وفى السلم يمثل فى البلاط متى دعاه الملك . كذلك يجب عليه أن يؤدى للأمير جزية معينة . فإذا لم يحافظ التابع على عهده جاز للملك أن يقضى عليه بفقد إقطاعه . والظاهر أن الإقطاع كان فى أسبانيا فى القرن الحادى عشر وراثيا . وقد كان يقوم على فكرة المنصب (Honor) وكون الأمير يستطيع أن يهب المناصب وفق مشيئته وأن يستردها . فإذا تولت أسرة معينة المنصب طويلا فإنها تطالب نظير إخلاصها فى الخدمة بالمنصب وما يتعلق به من أرزاق تستمد من الأرض ؛ وكان الملك فى أحيان كثيرة يضطر بالرغم منه إلى ترك الإقطاع للأسرة .

وكان مجتمع الإقطاع ينقسم إلى مراتب متعددة فالدوق أو الوالى (Consul) هو التابع الذى يُقطع ولاية برمتها مثل جليقية أو اشتورية أو ألبه أو البرتغال، وكان هؤلاء الولاة فى الغالب يعملون على استقلالهم وتأسيس دولة جديدة؛ ويليه الكونت أو القومس (Comes)[1] وهو الذى يقطع منطقة، فأصحاب المنح الصغيرة وهم البارونات (Barones) وهم الملاك من أتباع الكونت. ولما كان هذا النظام عسكريا فى جوهره فقد كانت هذه المراتب يحتفظ بها فى الحرب تحت أسماء أخرى، فالدوق أو الوالى يقود جيش الولاية ويسمى قائداً، ويقود الكونت فرقته ويعتبر قائداً محليا وتتكون قواته من البارونات الذين يسمون عندئذ بالفرسان؛ والفارس أدنى مراتب النبل وهو الشخص الذى يستطيع أن يقتنى جواداً وسلاحاً؛ وكان الفرسان قوام الجيش وعليهم تتوقف مصاير الحرب، ويتكون الجند المشاة من أتباع البارونات ومن حشم الدوقات والقوامس.

وكان الملك فى منازعات ومعارك دائمة مع الدوقات والقوامس، ولم يكن يستطيع الحد من خروج الأتباع وانتهاكهم للقوانين إلا بمعاونة رجال الدين الأقوياء، والشعب والمخلصين من أصحاب الإقطاع، وأصحاب المناصب الذين يؤجر خدماتهم بأثمان فادحة؛ وكان يضطر فى أحيان كثيرة إلى عقد المعاهدات مع الخوارج أو مهادنتهم أو النزول عند مطالبهم على حساب أصحاب الإقطاع المخلصين، وبهذه الوسيلة تنتزع منه المناصب والولايات والرياسات.

وكان كبار الملاك أو الأتباع يقطعون الأحرار الأقل منهم أجزاء من أراضيهم لزراعتها على أن يؤدوا إليهم نصف الدخل أو ثلثه على الأقل. ولم تكن هذه المنح تحدد بوقت معين؛ بل كان المزارع يعتبر نفسه مالكا الأرض يزرعها، ثم تؤول من بعده إلى ولده؛ ولكنه كان ملزماً بالإقامة فيها؛ فإذا غادرها إلى منطقة أخرى فقد الحق فى امتلاكها؛ وقد فرض ألفونسو السادس ضريبة سنوية قدرها مثقالان إسبانيان على كل صاحب حقل به منزل، فإذا قسم الحقل بعد موته على

(١) وتسميه الرواية العربية بالقمط أو القومس معربة عن اللاتينية.

أولاده وجب على كل منهم أن يؤدى نفس الضريبة ؛ ومن ملك منزلا خاصا فى حقل صاحب الإقطاع وجب أن يؤدى إليه فى كل عام مقادير معينة من المحصول ، وأن يقدم إليه جياده وماشيته تعمل لديه عدة أيام بلا أجر . فإذا شاء أن يبيع منزله وعمله إلى السيد أو بعبارة أخرى إذا شاء أن يغدو من حشمه ومماليكه قام بتقدير الثمن أربعة خبراء اثنان من النصارى واثنان من اليهود .

ولا بد أن عدد الأرقاء فى اسبانيا النصرانية كان عظيما جدا . ذلك أن جميع الأسرى فى المعارك المستمرة التى كانت تنشب ضد المسلمين كان يقضى عليهم بالرق ، وكانوا يكلفون بأشق الأعمال ، وكانوا يمنحون الحرية أحياناً ولكن دائماً بشرط اعتناقهم النصرانية . ذلك أنه كان يسوغ للنصارى فقط فى الممالك النصرانية الأسبانية أن يكونوا أحراراً .

وإن ألفونسو السادس ليستحق أعظم الثناء لما وفق إليه من أن يانى « حق القوة »[١] فى جميع أنحاء مملكته فى عصر ساد فيه حكم القوة فى جميع أوربا . وقد عنى بتنظيم العدالة الصارمة ، وفرض على الدوقات والقوامس ونوابهم أن يعاقبوا مرتكبى الجرائم والجنح بحزم ودون تحيز ؛ وكان من جراء هذه السياسة الحكيمة أن كانت قشتالة هى البلد الوحيد فى أوربا الذى يستطيع التجار والنساء والعزل جوبه دون التعرض لأذى الفرسان الناهبين أو القتلة واللصوص ، حتى ولو كانوا يحملون مالا ونفائس ظاهرة . وكذلك عنى ملك قشتالة بتحسين الطرق الكبرى وإنشاء القناطر على الأنهار .

ومع أن الملك كان يتمتع أثناء الحرب بسلطات لا حد لها ، وفى السلم كان يتمتع بأسمى السلطات القضائية ، فإنه كان يشترك معه فى وضع القوانين عظماء المملكة وأكابر رجال الدين والأشراف ، وكان هؤلاء يسبغون باجتماعاتهم النيابية (الكورتيز) Cortes تحت رياسة الملك على تصرفاته لون الشرعية المطلقة . ولم

(١) المقصود ما كان سائدا فى العصور الوسطى فى معظم الأمم الأوربية ولا سيما فى عصر الفروسية من الالتجاء إلى القوة والعنف فى تحصيل الحقوق واغتصابها ؛ وتغليب الأقوى ، بصرف النظر عن الحق أو العدالة .

تكن الطبقة الوسطى تمثل فى هذه المجالس لأنها لم تكن بعد ذات أهمية تذكر . ولما كانت هذه المجالس تعنى بتنظيم شؤون الدولة والكنيسة معاً نظراً لأن الأمير كان حتى القرن الحادى عشر يعتبر ملاذاً أعلى لكنيسة مملكته ، فإنها كانت من هذه الناحية ذات أهمية مزدوجة . وكانت مسائل الكنيسة تبحث بادئ ذى بدء دون أن يشترك فى بحثها ممثلو الهيئات الزمنية ، ثم تبحث بعد ذلك مسائل الدولة . وكان الملك يدعو المجلس (الكورتيز) إلى الاجتماع كلما دعت الظروف إلى عقده ، وتوقع قراراته من المجتمعين وفى مقدمتهم الملك والملكة ، وكان حضورها ضروريا فى هذه المجالس .

وقد اشتقت ممالك اسبانيا النصرانية شرائعها من القانون القوطى وقوانين مجلس طليطلة ؛ وكان القضاة يتبعون أحكام القانون القوطى ما لم تتعارض مع قرارات المجلس النيابى ، ومع القوانين الجديدة التى يصدرها الملك بالاستناد إلى العرف ويصادق عليها المجلس (الكورتيز) وهى المسماة (Buenos Fueros) . وكانت هذه القوانين تلغى نظائرها من القوانين القوطية إلغاء جزئيا فقط ، وكانت فى الواقع قوانين بلدية وامتيازات خاصة لمدن أو أماكن معينة تطبق بمضى الزمن فى الولاية كلها . وقد نشأت بادئ ذى بدء فى قشتالة حينما كانت ولاية يحكمها القوامس الخارجون على مملكة ليون ، وكانت تمنح إلى المدن كامتياز يوطد ولاءها نحو سادتها الجدد . وإذا لم يكن الكونت سانشو جارسيا هو أول من منح مدن قشتالة هذه الامتيازات (سنة ١٠١٢ م) ، فهو فيما يبدو أول من عمم تطبيقها فى جميع أنحاء الولاية ؛ وحذا ألفونسو الخامس ملك ليون فى ذلك حذو قوامس قشتالة فسن لشعبه شريعة شاملة Fuero على يد مجلس ليون (سنة ١٠٢٠ م) . ولما وحد فرديناند الأول بين مملكتى ليون وقشتالة صادق على شريعتيهما فى مجلس كويانزا (سنة ١٠٥٠ م) وحذا حذوه ألفونسو السادس فأصدر مثل هذه المصادقة فى مجلس طليطلة (سنة ١٠٨٦ م) .

وكان قومس المدينة يباشر القضاء المدنى والجنائى ، يعاونه نواب قضائيون

وخبراء ؛ ويتولى تنفيذ الأحكام الجنائية وكلاء سموا فيما بعد Alguaciles ولهم رئيس Majorino يقضى فى المواد الجنائية وينفذ أوامر الملك .

وكل إنسان حر فى أن يدافع عن نفسه أمام القضاء وله أن يختار محامياً أو وكيلا للدفاع عنه . أما اليهود فلم يكن يحق لهم الدفاع عن أنفسهم بأنفسهم وفقاً لقانون أصدره ألفونسو السادس .

وكان يتولى أعمال الإشهاد مسجلون أغلبهم من رجال الدين ، ويتولى الإشهاد على الأوامر الملكية مسجل خاص للبلاط .

وكانت الإجراءات القضائية بسيطة سريعة . وكانت محاولة التأثير على القاضى بالرشوة تعاقب بشدة وتجعل الحكم باطلا ؛ وكان لا بد لسقوط الحق من مضى خمسين عاماً فى بعض الأحوال وثلاثين فى البعض الآخر . ولكن رجال الدين حصلوا من فرديناند الأول على امتياز يقضى بعدم سقوط حقوقهم بمضى المدة .

وأما وسائل الإثبات القضائية فكانت الكتابة والبينة ؛ واليمين إذا لم يوجدا . وفى قانون أصدره ألفونسو السادس كان يكفى لإثبات جريمة القتل على القاتل أن يذكر الكاهن الذى تلقى أقوال القتيل قبيل وفاته اسم قاتله حسبما سمعه منه ؛ فإذا عدمت الأدلة استعمل التعذيب ، ولكن فى أحوال نادرة جدا ، أو استعملت بعض الإجراءات الدينية الخرافية التى تعرف « بحكم الله » كان يؤمر المتهم مثلا بأن يستخرج بذراعه العارية عدداً من الحصى من وعاء به ماء يغلى ثم تربط ذراعه ويختم عليها ، وتترك ثلاثة أيام ، فإذا ظهرت بعدها فى ذراعه حروق اعتبر مذنباً ، وإذا لم تصب الذراع بشىء اعتبر بريئاً . وفى قانون أصدره ألفونسو السادس كان يسمح للمتهم بالقتل فى حالة الإنكار أن يبرئ نفسه باليمين ، ثم يجب عليه بعد ذلك أن يبارز متهمه ، فإذا غلبه ذاك وجبت عليه دية مالية معينة .

وكانت العقوبات تختلف من الإعدام إلى جز الشعر دلالة على العار ، ثم بتر الأطراف وسمل الأعين والجلد والغرامة والمصادرة ، وكان أندرها الحبس . وفى قطلونية كان القاتل يعاقب بالنفى إلى إفريقية ، وفى قشتالة كان القتل يفتدى بالدية ،

وفى ليون كان القانون يقضى بأن القاتل إذا استطاع الفرار والاحتجاب عن أعين مطارديه تسعة أيام ترك وشأنه ، فإذا قبض عليه قبل ذلك وكان ذا مال غرم مبلغاً يتراوح بين مائة وخمسمائة متقال يأخذ الملك ثلثه ، ويعطى الثلثان إلى أقارب القتيل ؛ وتزاد الغرامة إذا وقع القتل بالليل ، أو بطريق الغيلة ، أو كان المجنى عليه من الحكام . وكانت اليمين الكاذبة وشهادة الزور تعاقب بالغرامة ، وتهدم دار الكاذب فى عينه ، ولا يسمح له بعد ذلك بالشهادة ؛ ويُفتدى الجرح والضرب بالمال إذا شكا المجنى عليه ، ويعاقب بالغرامة أيضاً الغش فى الكيل والوزن ، أو بيع المواد الغذائية التالفة ؛ وكانت عقوبة الجلد نادرة جدا ، ولا يجلد سوى العبيد .

وأما فى الميراث فكان يطبق القانون القوطى وهو ينص على توريث البنين من الذكور والإناث على قاعدة المساواة . بيد أنه يسمح للوالدين أن يتصرفا فى الخمس بالوصية للغير لغاية دينية أو غيرها ، وفى خمس آخر لصالح الولد الأكبر أو الولد الأصغر .

وبالرغم من الحروب المستمرة بين النصارى الاسبان والمسلمين ، فإن التجارة ازدهرت لدى النصارى ؛ وكانت قطلونية نظراً لموقعها الجغرافى تتمتع بمزايا تجارية حسنة ، وكانت أيضاً تحظى بأكبر قسط من الثروات ، وكانت ترتبط بجمهوريتى بيزا وجنوه البحريتين وبولايات الرون بأوثق الصلات ، وكانت سفنها تحمل المحاصيل والمصنوعات الاسبانية وفواكه الجنوب والحرير والصوف والأقمشة والجلد إلى إيطاليا واليونان ، ثم إلى مصر وسوريا ؛ وكانت أسواق قطلونية التى كانت تعقد عادة أيام الأعياد الكنسية وتستمر أسابيع عديدة ، أشهر أسواق أوربا وأروجها ، نظراً لتنوع أصنافها وجودة بضائعها .

وكانت تعقد أيضاً فى ليون أسواق دورية عظيمة ، وكانت تقرر أثمان الحاجات الضرورية طوال العام ، ولكن أثمان السلع الكمالية كانت تترك دون تحديد ، وكان يحق لسكان ضواحى المدينة أن يأتوا بسلعهم فى كل وقت دون

مكوس أو رسوم ، ولكنهم كانوا يكلفون مقابل ذلك وقت الحرب بالدفاع عن المدينة والمساهمة فى أعمال التحصين .

وكانت المكوس تلنى أثناء الأسواق العامة والدورية ، وكان رهبان ساهاجون يتمتعون بحق احتكار بيع النبيذ والأقمشة والأسماك والأخشاب ، فلا ينافسهم فى بيعها فى هذه المنطقة أحد ، ويعاقب المخالفون بالمصادرة والغرامة .

٣ — تنظيم ألفونسو السادس لوراثة العرش

تزوج ألفونسو السادس ملك قشتالة عدة نساء ، ولكنه لم يترك ولداً يرث العرش من بعده . وكانت أولى نسائه أجات ابنة وليم الفاتح ملك إنكلترا ، خطبها بطريق الوكالة وهو ملك على ليون ، ولكنها مرضت وتوفيت أثناء سفرها من إنكلترا إلى اسبانيا ولم يتم زواجه بها . وأولى نسائه فى الواقع هى اجنيس ابنة جيوم السادس دوق جويانه وبواتييه ، وقد طلقها لأعوام من زواجه بها (سنه ١٠٨٠) بموافقة البابا جريجورى السابع دون أن يعقب منها . ثم تزوج من بعدها كونستانس ابنة روبير الأول دوق بورجونيه من أسرة كابيه الملوكية ورزق منها بابنة هى الدونا أوراكا التى زوجت وهى فى العاشرة من عمرها بالكونت ريموند البورجونى عند مقدمه إلى اسبانيا . وكانت كونستانس امرأة شديدة التعصب ، وإلى نفوذها المترتب على تأثير البابا يرجع إلغاء الصلاة القوطية والخط الطليطلى ، وانضواء الكنيسة الاسبانية تحت لواء البابا ؛ ثم توفيت سنة ١٠٩٢ ، واقترن ألفونسو عقب وفاتها بأميرة تدعى برتا يختلف المؤرخون فى نسبتها وتوفيت دون عقب . ولم يعقب ألفونسو من زوجه التالية وهى الزابيث ابنة لويس ملك فرنسا ذكورا ، ولكنه رزق منها بابنتين هما سانشا التى اقترنت بالكونت رودريك ، والفيرا التى اقترنت برجار (روجر) ملك صقلية . وتزوج ألفونسو مرة أخرى قبيل وفاته بقليل ، وذلك عقب واقعة اقليش التى هلك فيها ولده غير الشرعى سانشو أملا فى أن يرزق بوارث لعرشه ، وكانت هذه الزوجة

الخامسة والأخيرة هى بياتريس ابنة أمير أوستا وتوسكانا ، ولكنه لم يرزق منها بعقب .

ولم تكن تقاليد المسلمين وأساليب حياتهم — وإن تبرأ النصارى منها — دون تأثير فى حياة الأمراء النصارى ، فقد كان عدة من ملوك ليون وقشتالة فضلا عن الزوجة الشرعية يحتفظون بسرب من الحظايا (الحريم) ، ومع أن هؤلاء الحظايا لم يبلغن من الكثرة مبلغهن عند الأمراء المسلمين ، فقد كن يعاملن معاملة الزوجات تقريبا ، وكان أولادهن بالرغم من حرمانهم من الإرث الشرعى يرثون أحياناً بعض الأراضى . وكان آخر حظايا ألفونسو لديه اثنتان هما خمينا نونيز الجليقية ، وسيدة ابنة المعتمد أمير إشبيلية . وقد رزق من الأولى بابنتين هما تريزيا والفيرا التى اقترنت بالكونت ريموند دى تولوز وصحبته فى الحملة الصليبية إلى بيت المقدس . أما تيريزيا فقد اقترنت بهنرى دى بيزانصون ، وأقطعه ألفونسو لقاء شجاعته فى محاربة المسلمين أرضاً بين نهر دويره ونهر تاجه ، وأسس منها له ولعقبه إمارة خاصة عرفت فيما بعد بامارة « البرتغال » .

أما سيدة ابنة أمير إشبيلية ، أو ماريا اليزابث كما عرفت باسمها النصرانى فتقول الرواية النصرانية إن ألفونسو تزوجها فى سنة ١٠٩٦ ، ولكن هنالك ما يدل على أنه اقترن بها قبل ذلك ، لأن أباها المعتمد كان عندئذ قد فقد سلطانه وزج إلى الأسر فى إفريقية منذ أعوام . والمحقق أن المعتمد قدمها زوجة لألفونسو سنة ١٠٩١ وذلك لكى يوثق روابط التحالف المعقود بينهما . ولم يكن فى اتخاذ ألفونسو إياها خليلة فقط ، ما يؤذى الأمير وهو نفسه يحتفظ بعدد كبير من الحظايا . ثم ألم يعمد الملوك النصارى قبل ذلك بعصور إلى إعطاء بناتهم للأمراء المسلمين بالرغم من تحريم دينهم لذلك ؟ فلماذا يتأذى أمير مسلم من تقليد تبيحه شريعته. (كذا) ، هذا إلى أن سيدة كانت هى الوحيدة بين نساء ألفونسو التى ولدت له ولداً هو سانشو . وكان ألفونسو يحب ولده غير الشرعى حبا جما ، حتى انه اختاره لولاية عهده ، ولا سيما لما بدا من نجابته وشجاعته . ولكنه هلك

فى موقعة إقليش ، وهلك معه مؤدبه الكونت كابرا مدافعاً عنه ؛ وهنالك من يشك فى أن كبراء قشتالة لم يعنوا بالمحافظة على سلامته عناية كافية ، وأنهم عرضوه للخطر لكى يهلك فى الموقعة فلا يرث العرش ولد غير شرعى . كذلك عقد الأمراء التابعون لألفونسو مع صهريه رعوند وهنرى حلفاً سريا ضد اختيار سانشو لولاية العهد يقضى بأن يتعاون الحلفاء عند وفاة ألفونسو على الدفاع ، وأن يقتسموا المملكة والأموال والذخائر ؛ ولكن هذا المشروع انتهى بوفاة رعوند ، ثم بمقتل سانشو وتصرفات ألفونسو الأخيرة لتنظيم وراثة العرش .

وحزن الملك الشيخ لوفاة ولده المحبوب أيما حزن ، وأثقلته السنون والأوصاب ، فعول على أن يترك المملكة لابنته أوراكا أرملة الكونت رعوند . ولكنه رأى من الضرورة أن تقبض على الحكم يد حازمة ، وأن تحمى الأرمل من عواقب التسرع والشطط . ولما كان ألفونسو يرى عظمة المملكة فى سعة الأراضى المحكومة ، ويجيش فى الوقت نفسه بأمنية عزيزة هى أن يوحد بين الممالك النصرانية تحت عرش واحد ، فقد وقع اختياره على ألفونسو الأول ملك أراجون وناڤار ، وكان يومئذ أعزب ، ليكون زوجا لابنته ، وكان ملكا هماما شجاعا . واستدعى ملك قشتالة قبل عقد الزواج نواب المملكة للاجتماع فى ليون (الكورتيز) ، فاجتمع الأساقفة والقوامس ، وحكام الولايات ، ورجال الدين والأشراف والفرسان ، ونواب الطبقة الوسطى ، وكان اجتماعا شعبيا بكل معنى الكلمة ؛ وأصدر هذا المجلس قراراته بشأن وراثة العرش ، وخلاصتها : أن تكون أوراكا وارثة مملكة ليون وقشتالة واشتوريش ، وأن يمنح ولدها ألفونسو رعونديز مملكة جليقية مع بقائها تحت سلطان قشتالة ، وأن يمنح الكونت هنرى صهر ألفونسو إمارة البرتغال كتابع لعرش قشتالة ؛ فإذا لم تعقب أوراكا من زواجها بألفونسو ملك أراجون فإن المملكة جميعها تؤول إلى ولدها ألفونسو رعونديز ، أعنى إلى حفيد ألفونسو السادس ؛ وعهد بتربية الطفل إلى عمه أسقف ڤيين (وهو البابا كالكستوس الثانى فيما بعد) والكونت تراڤا ، ومنح إمارة جليقية

فى الحال تحت وصايتهما ، على أن تبقى له دون نقض أو رجوع .

وما كاد الملك الشيخ الذى أشرف على الثمانين وأوهن المرض قواه ينتهى من تنظيم هذه الشؤون حتى أدركه الموت وذلك فى ٢٩ يونيه سنة ١١٠٩ م ، فحزن الشعب قاطبة لوفاته . وقد أسس ألفونسو خلال أربعة وأربعين عاما من حكم قوى مستنير مجد قشتالة إلى قرون ؛ ولم توهنه بعد ذلك حرب أهلية ولا تقسيم ؛ وكان تقيا ، كريما ، عاقلا ، عادلا ، رقيقا ، جم التواضع . وكان فى الحرب جديرا بقيادة فرسان اسبانيا الشجعان فى عصره ؛ وأعظم فتوحه استيلاؤه على طليطلة التى سميت بحق قلب اسبانيا ، والتى يمكن منها غزو أى جزء من الجزيرة بنجاح ؛ ولولا تدفق سيل المرابطين على الجزيرة فى وقت بلغوا فيه أوج قوتهم لفقد المسلمون يومئذ كل سيادة فى اسبانيا ؛ وقد ألفى فاتح إفريقية[1] نهاية فتوحه حيثما كان جيش ألفونسو الباسل ، واستحق ملك قشتالة فى تسع وثلاثين موقعة خاضها لقب « نور اسبانيا ودرعها » وكان يلقب نفسه فى الوثائق والمراسلات « بالقيصر » .

ومذ حاول قيصر الدولة الرومانية هنرى الثالث أن يستعيد السيادة العامة التى كانت لكارل الأكبر على ملوك النصرانية ، وأن يعتبر كل ملوك الغرب النصرانى أتباعاً له ، وطلب إلى معظمهم الاعتراف بطاعته ، ظهر لقب القيصر بين ملوك قشتالة ، فتلقب به فرديناند الأول معاصر هنرى الثالث ، ثم تلقب به ألفونسو السادس ، وذلك لكى يميز نفسه بالأخص عن باقى ملوك اسبانيا النصرانية . والواقع أنه فضلا عن بسطه لسلطانه على الإمارات المسلمة التى افتتحها ، والإمارات النصرانية التى كانت تابعة لمملكته ، كان يعتبر ضمن أتباعه أمراء قطلونية وملوك أراجون ، وذلك بالرغم من أن أراجون لم تكن تعترف بمثل هذه الدعوى ، وكان لها باتحادها مع نافار من القوة ما يكفى لتدعيم استقلالها ؛ أما إمارة برشلونة فكانت من الضعف بحيث كانت تغتبط بحماية قشتالة لها .

---

(١) يشير هنا إلى يوسف بن تاشفين .

٤ — إمارة قطلونية

(من سنة ١٠٧٦ — ١١٠٦ م)

أوصى ريموند برنجار الأول الذى أتينا على سيرته فيما تقدم عند وفاته (سنة ١٠٧٦ م) بالحكم المشترك لولديه برنجار وريموند . ولكن الخلاف ما لبث أن نشب بين الأخوين ، وسُوى بادئ ذى بدء على يد كبراء الولاية ، واتُفق على أن يتسمى كل من الأخوين بكونت برشلونة ، وأن يتناوبا الحكم كل ستة أشهر . ثم قتل ريموند الثانى غيلة فى سنة ١٠٨٢ ، واتجهت الشبهة فى قتله إلى أخيه برنجار ، وفى بعض الروايات أنه هو الذى دبر بالفعل مصرعه . وقام برنجار بحكم الولاية وحده ، وكذلك بصفته وصيا على ولد أخيه القاصر ريموند الثالث .

وإذا صدقنا ما يرويه « رسكو » فى تاريخه « السيد الكنبيطور » فإن « السيد » هو الذى حال دون انتصار أمراء برشلونة على المسلمين ، إذ كان يومئذ فى خدمة بنى هود أمراء سرقسطة ؛ وتقول هذه الرواية إن الكنبيطور انتصر بادئ ذى بدء على الكونت برنجار فى موقعة « المنارة » سنة ١٠٨٣ ، ثم رده بعدئذ عن حصار بلنسية فى سنة ١٠٨٩ ؛ ولما هاجم السيد أمير دانية ، وخف برنجار لإنجاده هزمه السيد وأسره مع بضع آلاف من جنده ، ثم أفرج عنه بعد ذلك ، وانقلب العداء بينهما إلى صداقة ، وعقدت خطبة ماريا ابنة « السيد » على ابن أخى برنجار ريموند . ولما سافر برنجار إلى المشرق حاجا فى سنة ١٠٩٢ ترك الولاية كلها لابن أخيه الصبى ريموند الثالث ، تحت حماية « السيد » معتقداً أنه لن يعود إلى اسبانيا .

والروايات القطلونية عن هذا العصر موجزة وغامضة ، وعلاقة السيد بتاريخ قطلونية تثير أعظم شك ، بل إن هذا التاريخ لا يذكر اسم السيد على الإطلاق ؛ ومما يزيدنا شكا فيما ينسب إلى السيد من محاربة أمير برشلونة أن الكونت برنجار ريموند كان يومئذ يرتبط مع ألفونسو السادس ملك قشتالة برابطة التحالف ، وكان يعمل تحت حمايته وإشرافه لتوسيع أملاكه . وقد اشترك فى

الحلف الذى عقد بين ألفونسو السادس والمعتمد أمير إشبيلية لافتتاح طليطلة ، فلما انقلب المعتمد بعد سقوط طليطلة إلى خصومة ملك قشتالة بعث ألفونسو برنجار ريموند الذى تسميه الرواية العربية « القرمط البرهانس »[١] سفيراً إلى إشبيلية يطالب أميرها بالخضوع وتأدية الجزية ، وكان الكونت برنجار من شهود موقعة الزلاقة التى دارت فيها الدائرة على النصارى ، ولم يمض على ذلك عامان أو ثلاثة حتى سار الكونت فى قواته إلى بلنسية ، ولكنه لم يستطع افتتاحها . ولما سافر عقب ذلك إلى المشرق حاجا ترك الولاية لابن أخيه الصبى ريموند الثالث يحكمها تحت حماية ألفونسو السادس ، وأبدى هذا الأمير الفتى شجاعة فى محاربة المرابطين خصوصاً بعد أن كثر عيثهم فى أراضى قطلونيه منذ سنة ١٠١٦ م[٢] .

---

(١) سبق أن أشرنا إلى ما فى هذا القول من تحريف ، وأوضحنا أن « البرهانس » الذى تشير إليه الرواية العربية إنما هو الثار فانيز Alvar Fanez قائد ألفونسو السادس ، (راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٢ ، والحلل الموشية ص ٢٣) .

(٢) نرى أن نشير إلى أننا رأينا من المستحسن أن نتصرف فى ترجمة بعض أجزاء هذا الفصل أحياناً بالتلخيص وأحياناً بالحذف اليسير .

الفصل الثالث

ألفونســـو المحارب وعصره

(من سنة ١١٠٥ — ١١٣٤ م)

١ — حروب النصارى الاسبان والمسلمين منذ موقعة اقليش حتى عود ألفونسو من الأندلس

لم يحكم ملك من ملوك اسبانيا منذ عهد بلاجيوس (بلايو)[1] من أقطار شبه الجزيرة مثل ما حكم ألفونسو الأول الأرجونى من حيث سعة الملك وضخامته ، فقد ضم عقب وفاة حميه (ألفونسو السادس) إلى مملكته الأصلية ، وهى أراجون وناڤارا (نبرة) ميراث زوجه أوراكا المشتمل على ممالك ليون وقشتالة واشتوريش ، وعلى إمارتين جديدتين تؤديان الجزية هما جلّيقية والبرتغال . ولو ضمت إليه إمارة برشلونة لشمل حكمه جميع اسبانيا النصرانية ، أعنى النصف الشمالى الأكبر من شبه الجزيرة . وكان قد خلف أخاه « بيدرو » على عرش أراجون فى سنة ١١٠٥ بعد أن توفى وحيده وسميه حدثا . وكان بيدرو

(١) : بلاجيوس ، (وفى الرواية العربية بلاى أو بلايو) ، هو زعيم من زعماء القوط لعهد الفتح الإسلامى لاسبانيا ، التجأ إلى مفاوز جليقية الوعرة والتفت حوله شراذم قليلة من النصارى ، ولكنه استطاع أن يقاوم المسلمين وأن يردهم غير مرة عن تلك المعاقل الجبلية التى تسميها الرواية الإسلامية « بالصخرة » . وتركه المسلمون لما رأوا ضآلة شأنه ووعورة هذه الهضاب ، فقوى أمره ، واشتد ساعده ، وأعلنه الجليقيون ملكا عليهم . وكان هذا منشأ مملكة جليقية التى نمت فيما بعد واشتد بأسها (راجع أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ص ٢٨ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١١٠ ، وج ٢ ص ٥٧) .

قد أبدى خلال حكمه الذى دام عشرة أعوام فروسية وتقى ، واستطاع بفتحه لحصنى بربشتر ووشقة المنيعين أن يمهد الطريق إلى افتتاح تُطيلة وسرقسطة ؛ وقام بغزوة حتى ظاهر بلنســية أبدى فيها شجاعة وبراعة . وكان يقيم فى المدن المفتوحة كنائس وأديارا ، ويغدق صِلاتِه على الكنيسة ؛ ومنح النصارى فى المدن الإسلامية المفتوحة امتيازات خاصة لتشجيع الزراعة ؛ ولما كانوا ملزمين بالخدمة العسكرية وقت الخطر نظراً لقربهم من بلاد العدو ، فقد ترتب على ذلك أن نهضت الطبقة الوسطى حتى كانت على قدم المساواة مع النبلاء تقريبا ، وتغلغل نفوذها فى شؤون الدولة كلها فى وقت لم يكن لها فى باقى البلاد الأوربية شأن يذكر .

ولما أسفرت الحرب الصليبية الأولى عن النجاح ، وفاز الصليبيون بافتتاح بيت المقدس ، أعلن البابا (باسكال الثانى) الحرب الصليبية فى إسبانيا ضد المسلمين . وإذ كان النصارى الاسبان قد منعوا من مرافقة الصليبيين إلى بيت المقدس فقد رأى بيدرو وكثير من رعاياه أن يشهروا الحرب الصليبية فى اسبانيا ذاتها ضد « أعداء الدين » ، وحاصر بيدرو سرقسطة لمدى قصير (سنة ١١٠١ م) ، ولكن الفرصة لم تكن سانحة لتحقيق هذا المشروع ، لأن المرابطين استعادوا بلنسية بعد ذلك بقليل ؛ وغدوا فى مركز يسمح لهم بمعاونة المستعين بن هود معاونة قوية ، ومن ثم فقد اضطر النصارى إلى ترك الحصار .

وسار ألفونسو بعد وفاة أخيه بيدرو فى أثر أسلافه بوسائل أعظم وخلال أبرع . وغدا بزواجه بأوراكا ابنة ملك قشتالة سيد اسبانيا النصرانية ، يسيطر على قوى حربية زاخرة رأى أن يخصصها قبل كل شىء لافتتاح سرقسطه . وكان المرابطون قد احتلوا هذه القلعة المنيعة على كره من أميرها المستعين (سنة ١١٠٨ م) واتخذوها قاعدة للإغارة على قطلونية وأراجون[١] . بيد أنهم كانوا

(١) دخل المرابطون بقيادة أميرهم عبد الله بن الحاج مدينة سرقسطة لأول مرة =

يتكبدون الخسائر أحياناً ، إذ كان ألفونسو يطاردهم عند العودة ، بل لقد هُزم المرابطون بقيادة ابن الحاج وحليفهم أبو بكر بن ابراهيم والى مرسية فى معركة دموية حطمت قواهم ، واستطاع ألفونسو أن يضرب الحصار حول تطيلة . وقدر المستعين أمير سرقسطه أهمية تطيلة فخف إلى إنقاذها فى جيشه ، ولكن الأمير الباسل هزم فى الموقعة التى نشبت . بيد أنه لم يعش ليشهد عار الهزيمة ، إذ سقط فى الميدان وهو يقاتل قتال الأبطال . وعلى أثر هذا النصر المجيد الذى أحرزه الأرجونيون سقطت تطيلة فى أيديهم فى فبراير سنة ١١١٠ م (رجب سنة ٥٠٣ هـ) .

وما كاد نبأ مصرع المستعين يعرف فى سرقسطة حتى تولى الأمر من بعده ولده أبو مروان عبد الملك بن أحمد بن هود الملقب بعماد الدولة ، وكان أميراً شجاعا ولكنه لم يكن مثل أبيه ذكاء وفطنة ، ولم يستطع مثله أن يوطد لنفسه نوعاً من الاستقلال فى تلك الآونة العصيبة وإزاء جيرانه الأقوياء[١] .

ولكن أمرين أنقذا سرقسطة مع ذلك إلى أعوام أخرى ، بل مهدا السبيل لعود تطيلة إلى أيدى المسلمين[٢] ، ففى ذلك الوقت نشبت بين ألفونسو وبين زوجه أوراكا حرب ذميمة استغرقت قواه مدى حين ، وعبرت قوى المرابطين الزاخرة من إفريقية إلى اسبانيا ؛ وتقدر قوى المرابطين التى عبرت عندئذ بمائة ألف فارس وثلاثة آلاف راجل ، وهو تقدير فيه مبالغة شديدة . وبينما كان ألفونسو مشغولا بمحاربة ملكة قشتالة ، مشغولا فى نفس الوقت بحماية حدود أراجون من غزوات المسلمين ، سار على بن يوسف بن تاشفين فى نخبة جنده المرابطين إلى

= سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٩ م) ثم دخلوها للمرة الثانية بعد أشهر قلائل بقيادة محمد بن الحاج (سنة ٥٠٢ هـ) واستولوا عليها وأخرجوا منها بنى هود (روض القرطاس ص ١٠٣ و ١٠٤) وفى رواية ابن الأبار أن أهل سرقسطة استدعوا محمد بن الحاج اللمتونى والى بلنسية ، فدخلها فى ذى القعدة سنة ٥٠٣ هـ (الحلة السيراء ص ٢٢٥) .

(١) راجع ابن الأبار فى الحلة السيراء (ص ٢٢٤ و ٢٢٥) .

(٢) راجع روض القرطاس ص ١٠٦

ولاية طليطلة ، واستولى على عدد كبير من القلاع والحصون الصغيرة ، وانتسف الحقول ، واسترق السكان ، وبث الذعر والروع حتى أبواب عاصمة اسبانيا النصرانية . أجل كانت طليطلة يحميها موقعها فوق الآكام ، وأسوارها المنيعة ، وحاميتها الكبيرة من اقتحام العدو لها . ولكن مدريد (مجريط) ووادى الحجارة وطلبيرة وغيرها أخذت عنوة وقتل سكانها الذين اجترأوا على المقاومة[١] وعندئذ فقط رأى سلطان المرابطين أنه يستطيع العودة إلى قرطبة مكللا بغار الفخر فارتد تاركا وراءه آثاراً مروعة من التخريب ؛ وبعد أن عهد إلى قائده مزدلى بتكرار هذه الغزوات المخربة عاد إلى إفريقية حتى لا يطول غيابه عن مراكش عاصمته ومركز مملكته الشاسعة .

وفى نفس الوقت الذى كان علىّ يهدد فيه طليطلة ، سار جيش آخر من المرابطين بقيادة الأمير سير بن أبى بكر إلى البرتغال لمقاتلة أميرها الكونت هنرى ، وافتتح شنتره وبطليوس ويابره (أو يافورة) وشنترين وأشبونة . وهدد قلمرية عاصمة الولاية[٢] ، وسار جيش ثالث بقيادة والى مرسية ، فاخترق سرقسطة ، وحاصر برشلونة مدى عشرين يوما ، ولم يرفع المسلمون الحصار إلا عندما زحف عليهم ألفونسو فى جيش زاخر من الأرجونيين والقطلونيين ، ونشبت بين الفريقين معركة دموية أثخن فيها كل منهما فى الآخر دون أن يحرز أحدهما نصراً حاسماً ، وغادر المسلمون برشلونة وقد عاثوا فيها (سنة ١١١١ م — ٥٠٤ هـ)[٣].

وكان المرابطون يكررون هذا العيث فى أراضى النصارى كل عام تقريباً ويعودون غالباً بغنائم عظيمة وكثير من الأسرى . وفى سنة ١١١٣ م (٥٠٦ هـ)

---

(١) هذا هو الجواز الثانى لعلى بن تاشفين إلى اسبانيا ، وقد وقع فى سنة ٥٠٣ هـ (١١١٠ م) ويقدر صاحب روض القرطاس جيش المرابطين يومئذ بأكثر من مائة ألف فارس ويفصل لنا أخبار هذه الغزوة (ص ١٠٥) والتقدير مبالغ فيه بلا ريب . راجع أيضاً الحلل الموشية ص ٦٢ .

(٢) روض القرطاس ص ١٠٥ .

(٣) روض القرطاس ص ١٠٤ .

سار مزدلى إلى طليطلة وحاصرها ثمانية أيام ولكنه لم يوفق فى مشروعه ، إذ أحرق النصارى آلات الحصار . بيد أنه استطاع بالرغم من مقاومة قوامس جليقية وإسراع ألفونسو بالقدوم فى جيش ضخم ، أن يستولى على قورية بممالأة بعض النصارى الناقمين ؛ ولكن برلانية أنقذت بعد أن حوصرت حيناً[١] .

وفى العام التالى (سنة ١١١٤ م) غزا مزدلى قشتالة مرة أخرى وقفل ظافراً . ولكنه حين العودة هاجمه الكونت رودريجو نونيز صاحب وادى الحجارة فكر عليه ببراعة ورد النصارى بخسارة فادحة . وغره هذا الظفر فارتد إلى قشتالة غازياً فى قوة صغيرة واشتبك دون تحوط مع قوة كبيرة من النصارى فاستشهد وكثير من أصحابه ؛ وخلفه فى الولاية والقيادة ولده محمد بن مزدلى ، وكان مثله فى الجرأة والشجاعة[٢] وفى نفس هذا الوقت تقريباً (أوائل سنة ١١١٥ م) نقد المرابطون الجزائر الشرقية (البليار) ثم استردوها . وكان القطلونيين قد استولوا على جزيرة ميورقة بمعاونة البروفنسيين والبيزيين الذين أمدوهم بالسفن ، ولكنهم وصموا نصرهم بقتل أهلها المسلمين ؛ وسرعان ما حلت ساعة الانتقام ، ذلك أن المرابطين خشوا أن تغدو الجزيرة قاعدة لمهاجمة أملاكهم فى بلنسية وفى إفريقية ، فسيروا أسطولا إلى ميورقة واستردوها وانتقموا للمسلمين بقتل جميع سكانها النصارى .

ورأى المرابطون الانتفاع بأسطولهم المجهز فى أعمال الغزو ؛ فسيروا بعض سفنهم إلى شواطئ اشتوريش وجليقية ، وكان النصارى اعتماداً منهم على أن هذه الأنحاء بمأمن من الأعداء قد تركوا حصونها خرابا . فأثار نزول المسلمين الفجائى أعا روع بين سكان شمال غربى اسبانيا ، خصوصاً وقد انضم إليهم بعض القرصان الإنكليز . ولكن أسقف شانت ياقب استطاع أن يواجه الخطر بحكمة وروية ، فحشد سكان الريف فى المدن حماية لهم ، وطارد سرايا الأعداء التى تفرقت هنا

---

(١) يضع صاحب روض القرطاس تاريخ هذه الغزوة فى سنة ٥٠٧ هـ (سنة ١١١٤ م) (ص ١٠٥) .

(٢) يشير صاحب روض القرطاس إلى هذه الغزوة ، ويسمى رود ريجو نونيز « بالزند غرسيس » ، ولكنه يقول لنا إن الأمير مزدلى توفى فى العام التالى (سنة ٥٠٨ هـ) .

وهنالك ، وهدأ روع السكان بإنشاء عدة سفن قام على بنائها صناع مهرة من جنوه وبيزا .

وكان من أثر انتساف الحقول فى اسبانيا الوسطى خلال الحروب المتواصلة ، ونقص المحصول المترتب على سوء الأحوال الجوية : أن عصف بشبه الجزيرة الاسبانية فى سنة ١١١٧ م قحط شديد ، ذهب فى سبيله من الأرواح ما لم يذهب من قبل بالحرب والسيف .

وإذا كانت غزوات المسلمين فى أراضى قشتالة لم تقمع يومئذ بأشد مما قمعت ، فذلك بسبب الحروب التى كانت تضطرم بين الملكة أوراكا وزوجها الملك ألفونسو ، وكانا يؤثران أحياناً أن يحطم كل منهما قوى الآخر على رد المسلمين عن أراضى المملكة ؛ وكان الشعب القشتالى نفسه منقسما على نفسه ، يؤيد هذا الفريق أو ذاك .

ولما رأى ألفونسو أن فريقاً من الشعب القشتالى لا يؤيده ، حاول أن يوطد مركزه بوضع حاميات وثيقة فى الحصون ، وعمد إلى استخدام قواته الباقية فى توسيع مملكته الأصلية ، أعنى نافارا وأراجون . وفى سنة ١١١٤ م (٥٠٨ هـ) سار الكونت برش إلى تطيلة فى قوة من الفرسان الفرنسيين والإنكليز ، وكان هؤلاء يهرعون إلى مقاتلة المسلمين لبواعث دينية ولتحقيق المغانم الدنيوية ؛ واستولى عليها بالخديعة ، وأقطعه الملك إياها على الجزية . ورغب النصارى فى سكناها بمنحهم بعض الامتيازات ، فوفد عليها كثير منهم فى وقت قصير .

وهنا اتجهت أبصار ألفونسو إلى سرقسطة ؛ وكان استيلاؤه على هذه القاعدة الهامة ضروريا لتأمين مملكته ، وللسيطرة على طريق الملاحة فى نهر أيبرو . وكان يرى أمنيته فى افتتاحها تدنو شيئاً فشيئا ، وذلك بالرغم من أن المرابطين لم يدخروا وسعاً فى معاونة أميرها عبد الملك بن هود . وكان قائد المرابطين الشجاع أبو محمد عبد الله بن مزدلى قد رد ألفونسو عنها مدى حين ؛ ولكن سرعان ما دب الخلاف بين المرابطين وبين أمير سرقسطة ، فكان ذلك معجلا بسقوطها ؛ ذلك أن

عبد الملك بن هود ساءه مسلك المرابطين فى محاولة السيطرة على المدينة ، فانشق عليهم وغادرها مع أسرته إلى حصن روطة التيع ، وعقد مع ألفونسو محالفة ضمت بها قواته إلى جيش قشتالة . ولم يستطع المرابطون مقاتلة القوى المتحدة ، فهزموا هزيمة شديدة ، واضطروا إلى الانسحاب من لاردة وسرقسطة سنة ١١١٧ م (٥١١هـ) [١] .

وحاول المرابطون استرداد ما خسروا ، فسار الأمير الشجاع تميم بن يوسف (أخو على) إلى الغزو على رأس جيش ضخم ، ولكن الحملة منيت بالفشل المطبق لما أبدى ألفونسو من البراعة واليقظة . ذلك أن حرس الحدود أخطروه فى الوقت الملائم باقتراب العدو ، ومع أنه أخطر فى الوقت نفسه بكثرة عدده فإنه لم ير بدا من خوض المعركة التى أرادها تميم ، وهنا غلبت مهارة القيادة مرة أخرى على ضخامة العدد ، فهزم تميم وفر فى عشرة آلاف من جنده — هى بقية جيشه الممزق — صوب بلنسية ، واحتفل الحلفاء بالنصر فى جميع أنحاء المنطقة التى حررت من العدو .

وإذا كان التفاهم قد استمر إلى ذلك الحين بين ألفونسو وأمير سرقسطة فإنه ما لبث أن اضطرب منذ زال خطر العدو المشترك ، وطالب ملك أراجون بتسليم سرقسطه ، فأبى عبد الملك إباء قاطعا ، ولم يدخر وسعاً فى الاستعداد لرد دعاوى الأرجونيين بقوة السيف . بيد أنه قبل أن يتمكن من تزويد المدينة بالقوات الكافية قدم جيش أراجونى فأحدق بها ؛ وكانت تعاونه سريات كبيرة من الفرسان الفرنسيين قدمت فى طلب الغنيمة والكسب . وقاوم أهل سرقسطة المحاصرين فى البداية مقاومة عنيفة ، ولكنهم ما لبثوا أن شعروا بنقص وسائلهم وأهباتهم ، إذ نفدت المؤن والأقوات بسرعة ، ولم يك ثمة أمل فى الغوث والإنقاذ . ولم يك أمامهم سوى قتال يأس لا طائل تحته . عندئذ عولوا على المفاوضة ، وقبل ألفونسو أن يفاوضهم لكى يعجل بالاستيلاء على المدينة الهامة .

---

(١) راجع روض القرطاس ص ١٠٦ .

واتُفق على أن يؤمن أهل سرقسطة فى النفس والمال ، وأن يكونوا أحراراً فى مزاولة شعائر دينهم ، والاحتكام إلى قضاتهم وشرائعهم ، وأن يترك لهم الخيار فى البقاء والهجرة بأموالهم . وبعد أن قطع ألفونسو على نفسه هذه العهود فتحت له سرقسطة أبوابها ، فدخلها فى ١٨ ديسمبر سنة ١١١٨ م (رمضان سنة ٥١٢ هـ). وسار عبد الملك بأمواله وأسرته وحرسه إلى حصن روطة الشاهق ، وصحبه نفر من أهل سرقسطة . وهاجر كثير منهم إلى مرسية وبلنسية مؤثرين مغادرة الوطن حيث كانت وطأة النصارى تشتد على المسلمين يوما بعد يوم[١] .

وانهار بسقوط سرقسطة ثانى معقل للمسلمين فى اسبانيا ، بعد أن لبث فى قبضتهم أربعمائة عام . واتخذ ملك أراجون سرقسطة عاصمة للملك ، وحول مسجدها الجامع إلى كنيسة ، وجعل منها مركزاً لأسقفية ، ومنح سكانها (النصارى) حقوق الأشراف الأصاغر وامتيازاتهم ، وكافأ الفرسان الفرنسيين الذين استمروا فى معاونته حتى أخذ المدينة ، ولاسيما الكونت جاستون دى بيارن فقد أقطعه حى سرقسطة الذى كان يقطنه النصارى المعاهدون من قبل ، وأنعم عليه بلقب « سيد سرقسطة » .

وكان المسلمون ما زالوا يملكون على مقربة من سرقسطة عدة مدن هامة بجعل مواقعها الجبلية الوعرة وحصونها القوية من الصعب حصارها ، فانتهز ألفونسو فرصة الروع الذى بثه سقوط العاصمة ، وسار بعد أن نظم شؤون سرقسطة ، إلى جبال سيارا مولينا التى تفصل بين أراجون وقشتالة ، وكان للمسلمين بها عدة نقط دفاعية منيعة ، واستولى خلال ثلاثة أعوام على طرّكونة وقلعة أيوب ، ودروقة وعدة أخرى من الحصون القريبة ، وأعاد فى طركونة مركز الأسقفية القديمة . وكان أبو الطاهر تميم أخو على بن تاشفين قد خف لإنجاد قلعة أيوب بجيش قوى ونشبت بينه وبين النصارى فى كوتاندا موقعة

(١) راجع فى سقوط سرقسطة روض القرطاس ص ١٠٦ ، والحلة السيراء ص ٢٢٥ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣ ، ونفح الطيب ٢ ص ٥٨٥ .

دموية هزم فيها ، وقتل من جنده عشرون ألفاً ، وسقطت القلعة على أثر ذلك فى أيدى النصارى (ربيع الثانى سنة ٥١٤هـ — ١١٢٠ م)[١] ، وأنشأ ألفونسو على مقربة من هذه المدينة ، فى بسيط قفر ، قلعة جديدة سميت قلعة « مونريال » Monreat لتكون منزلا لجمعية جديدة من الفرسان أسست لحماية الدين .

وجاز على بن تاشفين بنفسه إلى اسبانيا فى سنة ١١٢١م ، وهو يضطرم ألما لهذه المحن ؛ وغزا أراضى طليطلة والبرتغال ، وأثخن فيها واستولى على قلعة قلمرية الهامة ، وأتى على جميع سكانها النصارى قتلا وأسرا[٢] ، وهى واقعة لم تشر إليها الرواية النصرانية . بيد أن ذلك كله لم يكن إلا تعويضاً زهيدا لما أصاب الإسلام . ثم عاد إلى قرطبة ومنها إلى إفريقية بعد أن عهد إلى أخيه تميم بالنظر فى شؤون الأندلس .

ومن ذلك الحين يغرب طالع المرابطين شيئاً فشيئا . وثارت فى قرطبة حيث كانت الحامية المرابطية ترهق السكان بكل صنوف الاضطهاد والظلم ، ثورة شديدة فاضطر على أن يعبر من إفريقية إلى الأندلس بجيش ضخم ؛ وقاومه الثوار فى البداية مقاومة شديدة ، فضيق الحصار على المدينة حتى خضع أعيانها واشتروا سلامتهم لقاء مبلغ كبير من المال[٣] وما كاد على ينتهى من إخماد هذه الثورة حتى اضطرمت فى إفريقية ثورة أخطر وأبعد أثراً ، واستغرقت كل اهتمامه وقواه ، فلم يتح له أن يولى شؤون الأندلس كثيراً من عنايته . وكان ذلك بدء نهوض الوحدين الذى انتهى بسقوط دولة المرابطين ، وهو سقوط عجلت به أحوال الأندلس واضطرابها الذى ظهرت بوادره مذ شغل المرابطون بحروب إفريقية .

وشجع ظفر الجيوش النصرانية التى استطاعت فى مدى قصير أن تفتتح قاعدتين من أهم القواعد الإسلامية ، النصارى المعاهدين Mozarabes[٤] ، وهم

---

(١) روض القرطاس ص ١٠٦ .

(٢) روض القرطاس ص ١٠٦ وهو يصف جواز على بن يوسف هذه المرة إلى الأندلس بأنه الجواز الثانى ؛ ولكن صاحب الحلل الموشية يصفه بأنه الجواز الثالث (ص ٦٢) .

(٣) يقدم إلينا ابن الخطيب فى الحلل الموشية تفصيلا حسناً لثورة قرطبة على المرابطين (ص ٦٣) .

(٤) النصارى المعاهدون ، أو المعاهدون فقط ، هم نصارى الأندلس الذين كانوا =

جمهرة كبيرة فى الأندلس ، على الأمل بأن انشغال علىّ بحروب إفريقية واضطراب سلطانه فى شبه الجزيرة ، سوف يؤديان إلى تحطيم النير الذى فرضه الاسلام على النصرانية فى اسبانيا منذ أربعة قرون ؛ وقد كان مركزهم فى الواقع لا بأس به ، إذ كانوا أحراراً فى إقامة شعائرهم الدينية ، والاحتكام إلى قضاتهم وفقاً للشرائع القوطية . ولكن هل تستطيع أمة كانت حرة مستقلة أن تشعر بالسعادة مهما بلغت من رفاهة العيش إذا استحالت من سيدة حاكمة إلى مسودة مستذلة لأمة أخرى تبغضها من أجل الدين ؟ هذا إلى ما كان يسود جميع الأمم الأوربية فى ذلك العصر من اضطراب يرجع إلى تلك الحروب التى شهرت على الاسلام فى سبيل نصرة الدين (الحروب الصليبية) .

ولم يكن فى وسع النصارى المعاهدين أن يقوموا فى الأندلس بشىء دون معاونة من الخارج ؛ ذلك أن القلاع كلها كانت فى يد المسلمين ، هذا فضلا عن تفرقهم فى مختلف الأنحاء ؛ ولم يكن فى وسعهم أن يتحدوا إلا إذا شغل المسلمون بحرب تقع فى الداخل ، ومن ثم فقد أرسلوا رسلهم إلى ألفونسو ملك أراجون الذى ارتفع صيته إلى الذروة بالاستيلاء على سرقسطة ، فشرحوا له أحوال الأندلس وأحوال قلاعها شرحا ضافيا ، ورجوه أن يجهز حملة إليها ، وتعهدوا أن يعاونوه بالنصح والعمل كمرشدين ومحاربين . فلما أبدى ألفونسو تردداً فى قبول المشروع نظراً لبعد المكان وعدم الاطمئنان إلى الوعود المقطوعة ، كرر النصارى المعاهدون السعى والرجاء ، ووعدوه بأن يحشدوا لعونه فى الحال اثنى عشر ألف مقاتل ، وبأن ينضم جميع النصارى فى جنوب اسبانيا إلى جيشه حال ظهوره ؛ وأنهم سوف يغتبطون جميعاً باعتباره سيدهم ومليكهم ، وأنه سوف يغتنم بافتتاح الأندلس أجمل وأخصب وأسعد بقاع اسبانيا[١] .

— يعيشون فى الأراضى الإسلامية ويخضعون للحكم الإسلامى ، ويسمون بالافرنجية Mozarabes بالاشتقاق من كلمة « مستعربين » على ما يظهر . وأما المسلمون الأندلسيون الذين كانوا يعيشون فى الأراضى النصرانية ، ويخضعون لملوك النصارى فيقال لهم « المدجنون » ومقابلها الإفرنجى كلمة Mudijares .

(١) راجع الحلل الموشية ص ٦٦ حيث يفصل تصرفات النصارى المعاهدين .

فتغلب هذا الإغراء فى نفس الملك على ما كان يتصوره من صعوبة المشروع ، وما يحفه من ضروب المخاطرة . ولم يفكر فى أن القلاع الاسلامية المتعددة فى ولايتى بلنسية ومرسية سوف تقدم حتما على طعنته من الوراء متى دخل ولاية غرناطة ، وأنه ليست هناك أية قاعدة ثابتة ، وليس أمامه سوى وعود النصارى المعاهدين ، وهى وعود لا يعول عليها . ومع ذلك فقد كان فى روح العصر ما يسمح باتخاذ القرارات السريعة المرتجلة ، وهى روح ترتبت على الثقة فى عون الله على تذليل الصعاب مهما عظمت . وكان فتح بيت المقدس يبدو للنصارى فى كل مكان مثلا ساطعاً لهذا العون .

ففى يوليه سنة ١١٢٥ (شعبان سنة ٥١٩ هـ) خرج ألفونسو فى جميع فرسانه ، أو حسبما تقول الرواية العربية فى أربعة آلاف فارس أقسموا أن ينتصروا أو يموتوا[1] ، وقاده النصارى المعاهدون إلى بلنسية ، ولكنه لم يقف لحصارها ، بل اخترق الولايات الإسلامية وهو يثخن فيها وينتسف حقولها ، حتى وصل إلى مقربة من غرناطة تاركا وراءه شقر ودانية ومرسية وبياسة وجيان وغيرها من الأماكن المنيعة دون افتتاح ، وجيشه يتضخم يوما بعد يوم بانضمام النصارى المعاهدين إليه ، ويغدو على المسلمين أشد نكاية وضرا . ولو نجح ألفونسو فى الاستيلاء على غرناطة وبها كثير من النصارى الموالين له لاتخذت الحرب وجهة خطرة على سلطان المرابطين ؛ ولكن والى غرناطة كان رجلا وافر العزم ، فاستطاع بالرغم من صغر الحامية أن يرهب نصارى غرناطة ، وأن يحول بما اتخذه من الاجراءات القوية دون ثورتهم ، وأن يشدد الرقابة عليهم دون أن يدفعهم بالمطاردة والاضطهاد إلى الهياج ؛ واستقدم الجند من الأنحاء المجاورة إلى المدينة بسرعة وانتظر مقدم النصارى . وكان الجيش النصرانى قد بلغ عندئذ زهاء خمسين ألف مقاتل ، فضرب الحصار حول غرناطة شاعراً بقوته وتفوقه ؛ ولكن رداءة الطقس وما اقترن بها من المطر والعواصف الثلجية حالت دون القيام

---

(١) هذا ما ورد فى الحلل الموشية ص ٦٧ .

بحصار ناجع ، واضطر النصارى إلى إضاعة بضعة أسابيع لم يوفقوا فيها إلى شيء . وفى تلك الأثناء هدأ روع أهل غرناطة ، واقترب وصول الأمداد التى قدم بها أبو الطاهر تميم ، فاضطر ألفونسو أن يرفع الحصار عن غرناطة ؛ ولكنه لما رأى المؤن تنهال عليه من المعاهدين من كل صوب قرر أن يمضى فى مغامرته ، وأن يسير صوب البحر الأبيض المتوسط ، تاركا غرناطة وراءه دون فتح ، وأن يضم تحت لوائه نصارى مالقة والبشرات .

ومضى ألفونسو فى هذا السير الوعر ، وعلى مقربة منه صفوف الفرسان المرابطين الكثيفة تسير بحاذاته ، وترقب كل فرصة صالحة للقتال ، حتى وصل إلى « اليسانة » ، وهى محلة تقع بين غرناطة والبحر الأبيض المتوسط . وهنا رأى المرابطون أن هذا البسيط يصلح لمعارك الفرسان ، ولم يقو الفرسان الافريقيون على كبح جماح رغبتهم فى القتال بعد ، فانقضوا على مقدمة النصارى وألجأوها إلى الفرار ، واعتقدوا أنهم بذلك هزموا الجيش النصرانى كله ؛ وبينما شغلوا باقتسام الغنائم الثمينة ، إذ انقض ألفونسو على صفوف المسلمين الناهبة انقضاض النسر من الجو ومزقها تمزيقا ، واسترد الغنائم المفقودة ، واحتوى على أسلاب العدو وطارده حتى دخول الظلام . واستطاع النصارى بهذا النصر الباهر أن يتابعوا السير دون أن يزعجهم أحد فى شعب البشرات الضيقة حتى خليج على البحر الأبيض بين مالقة والمرية ، وبذا بلغوا البحر الذى أقسم الملك وفرسانه أن يبلغوه . وهنالك أمر ألفونسو بصنع مركب فى البحر ، وأخذ يتلهى بصيد السمك للتدليل على مبلغ ما حقق من نذره ، ولكى يُروى فيما بعد أن ملكا من ملوك أراجون خرج من سرقسطة وترك وراءه كثيراً من أراضى العدو ، وقام بصيد السمك على الشاطىء المقابل لافريقية كما يفعل فى بلاده[1] .

ومن ثم عاد ألفونسو أدراجه ، وانضم إلى جيشه أثناء العودة كثير من

(١) فى الحلل الموشية تفصيل ضاف لهذه الغزوة التى قام بها ألفونسو فى قلب الأندلس وحصاره غير الموفق لغرناطة وما نشب بينه وبين المسلمين من مختلف الوقائع (ص ٦٧ — ٦٩) .

نصارى البشرات ، وسار صوب غرناطة كرة أخرى ؛ ولكنه لما رأى أنه لا يستطيع أخذ المدينة المحصنة دون حصار طويل ، وأن قوات العدو تزداد كل يوم ، اتجه صوب مدينة وادى آش ، وترك على مقربة منها قسما من جيشه فى إحدى القلاع لكى يحمى خط رجعته ؛ ولكن سرعان ما أصاب الوهن والانحلال جيش النصارى ، وذلك من جراء قسوة الطقس ، وقد كان الفصل شتاء ، والسير الشاق فوق الربى العالية ، وما تفشى فيه من الأمراض الوبائية . ومع ذلك فقد أوقع النصارى بالمسلمين أضراراً فادحة ، وبثوا بينهم الذعر والروع ، وحصلوا منهم على غنائم عظيمة . وهكذا توجت هذه الغزوة بالنجاح ، وإن لم تقع خلالها فتوحات جديدة ؛ ثم عاد الجيش الأرجونى مخترقاً ولايات مرسية وشاطبة وبلنسية إلى بلاده وفرسان المرابطين تلاحقه باستمرار ، وتنقض عليه فى معارك صغيرة ، بعد أن غاب عن أراجون زهاء ستة أشهر ، وكان قد انضم إليه أثناء ذلك اثنا عشر ألفاً من النصارى المعاهدين ، آثروا هجرة أوطانهم خشية نقمة المسلمين ؛ وسرعان ما حلت فى الواقع نقمة سلطان المرابطين باخوانهم الباقين ، فقد غُربت منهم بأمره ألوف عدة إلى إفريقية ، وفرقوا هنالك فى أماكن مختلفة ، وهلك كثير منهم من جراء الطقس المتغير والماء الآسن ، وتغير وسائل التغذية[1] ؛ وكان أسعدهم حظا أولئك الذين ضمهم على بن تاشفين إلى حرسه الخاص ، فقد استطاعوا باخلاصهم الفائق أن يفتنموا وافر عطفه وثقته .

وفى وسعنا أن نقارن حملة ألفونسو إلى الأندلس واختراقه بهذا الجند القليل عدة ولايات إسلامية ، بسير اليونان فى عشرة آلاف مقاتل فقط إلى مملكة الفرس . وإذا كان ثمة فرق فى المسافة فان الجرأة فى المشروعين واحدة ؛ ولو لم يكن الفاتح يكتفى يومئذ بالاعتماد على قوة السواعد ، وكانت المشاريع العسكرية

(١) كان تغريب النصارى المعاهدين من الأندلس إلى إفريقية بناء على فتوى القاضى أبى الوليد بن رشد وقد أبان فيها أن ما جناه النصارى المعاهدون على الأندلس من استدعاء الروم ، وما فى ذلك من نقض للعهد والخروج عن الذمة يقتضى تغريبهم وإجلاءهم عن أوطانهم وقد أخذ أمير المسلمين بقوله (الحلل الموشية ص ٧٠ ، ٧١) .

تنظم على هدى الروية والعقل أكثر مما توجهها الحماسة الطارئة ، لاستطاع ملك اسبانى أن يتشبه بالاسكندر وأن ينظم مشروعاً لسحق العدو القومى . ولو أغضى القشتاليون والليونيون عن خصومتهم للملك أراجون وأيدوه فى حملته بتوجيه الجند ضد بلنسية وقرطبة ، وسير البرتغاليون والجليقيون فى الوقت نفسه قواهم ضد إشبيلية ، لكان من المحقق بوجه عام — مع عون النصارى المعاهدين ومع قلة الأمداد التى يمكن أن يبعثها المرابطون الذين شغلتهم ثورة الموحدين — أن تغرب دولة الاسلام فى اسبانيا قبل الوقت الذى غربت فيه بثلثمائة وخمسين عاماً ؛ وكثيراً ما يتوقف سير الشعوب على مشروع أحسن تدبيره أو أسىء .

٢ — أوراكا ملكة قشتالة

كثيراً ما تنهار أذكى التدابير الانسانية بفعل حادث طارئ . فقد توقع ألفونسو السادس مغتبطاً بفكرة أن زواج ابنته من ملك أراجون سيغدو دعامة لمستقبل اسبانيا ، وسيقضى على دولة الاسلام إلى الأبد . ولكن حدث العكس ، وانقلب هذا الزواج شؤما ونقمة على النصارى ، ودفع بهم إلى غمار الحرب الأهلية ، وحدّ من ظفرهم على المسلمين . وكان مثار الاضطراب فى مملكة قشتالة يرجع بالأخص إلى اختلاف الزوجين الملكيين ؛ ذلك أن أوراكا كانت امرأة وافرة الكبرياء والطموح إلى السلطان ، أفسدها ما رأت من خضوع زوجها الأول الكونت ريموند البورجونى ، فقبضت على زمام السلطة فى قشتالة ، وفى الأراضى التابعة لها ؛ على حين أن زوجها لم يكن يرغب فى أن تشاطره الحكم بأى وجه ، فكان هذا مثار جميع المنازعات والحروب التى نشبت بينهما ؛ وعمدت أوراكا توطيداً لسلطتها إلى إقالة جميع الرجال الذين اعتقدت أن ولاءهم للملك يفوق ولاءهم لها من مناصبهم ، ورفعت من اصطفتهم إلى أرفع مناصب الدولة ، فاستشاط الملك لذلك غضباً ورأى أن كرامته تقضى عليه بألا يتنازل عن أى حق من حقوقه الملكية .

وما كاد الخلاف يضطرم بين الملكين حتى غدا من المتعذر التوفيق بينهما ، إذ كان يحدو كلا منهما نحو صاحبه بغض متأصل لم يلطفه الحب قط . وأثارت أوراكا — بما كانت تبديه نحو بعض كبراء قشتالة من عطف خاص كان يوسم بميسم العلائق الغرامية — في نفس الملك أيما ثورة فكان يتقصى كل خطواتها .

وأرادت أوراكا الطلاق والتخلص من هذا الزوج الذى كانت تبغضه منذ البداية نظراً لما كان يربطها بزوجها الملك من أواصر القربى الوثيقة ، فأبى ملك أراجون لأن الطلاق يفقده حق الحكم في قشتالة ، وبذل كل ما في وسعه للقضاء على الدسائس التى تديرها الملكة لإثارة الشعب القشتالى عليه ، فملأ الحصون بالجند الأرجونيين بحجة حماية قشتالة من غارات المسلمين ، ورتب لها قادة من أشد المخلصين له ، ثم أمر فجأة باعتقال الملكة في قصر كاستلار وأذاع أنها تحاول بث الثورة وأنها بسوء سلوكها تضيع هيبة الملوكية .

ولكن الملكة فرت من معتقلها ، وجزع الملك لذلك أيما جزع إذ كان المسلمون يغزون يومئذ أراضى قشتالة ويهددون أراجون . وكان الملك في أشد الحاجة لعون القشتاليين ؛ وانتصم القشتاليون إلى جانب الملكة وتوسطوا بين الزوجين لعقد نوع من الصلح أو المهادنة اتقاء لخطر المسلمين . ولكن هذا الصلح لم يطل أمده ؛ وأثارت الملكة زوجها مرة أخرى بعلائقها الغرامية مع الكونت جومز وطموحها إلى السلطة ، فرأى أن يقبض بيديه على زمام الحكم في قشتالة دون أن يعبأ بالملكة وحقوقها .

واستمر النزاع على هذا المنوال علماً ، ثم انقلب إلى حرب علنية . وكان الأشراف والفرسان في قشتالة وليون واشتوريش يمقتون سيادة الأرجونيين ، ومن ثم فقد رأوا تحطيمها بالانضمام إلى الملكة وتأييدها في حقوقها ؛ وفي اجتماع عقد في ساهاجون في سنة ١١١٠م أعلن أن قوامس قشتالة الذين يبقون على ولائهم للملك ويرفضون طاعة الملكة ولا يقاتلون معها يفقدون حقوقهم وأراضيهم ؛ فارتاع القوامس القشتاليون من حكام القلاع بهذا القرار وبادروا

بتسليم قلاعهم إلى الملكة ناكثين بعهدهم لملك أراجون ؛ وسار أحدهم وهو القومس الشيخ بيدرو أسورز إلى ملك أراجون ، وقد ارتدى ثوباً قرمزيا ، وامتطى مهراً أبيض ووضع حبلا فى عنقه ، ليلقى منه جزاء نكثه مختاراً ، معتذراً بأنه لم يستطع أن يتخلف عن قضية الوطن ، فعفا عنه الملك مقدراً تضحيته المزدوجة ، واحتفاظه بشرفه وولائه إزاء الفريقين .

ولكن بقيت لألفونسو بالرغم من خروج القوامس القشتاليين عليه عدة حصون وقلاع فى قشتالة تحتلها الجنود الأرجونية ، ومكن له بذلك من استبقاء العاصمة طليطلة . وبدأ القشتاليون الحرب بمحاصرة هذه القلاع فهرع ملك أراجون إلى إنجادها ؛ وبينما كان المسلمون يغيرون على الأراضى النصرانية المجاورة ويثخنون فيها عيثاً وتخريبا ، كان القشتاليون والأرجونيون يسيرون إلى ميدان الحرب للاشتباك فى صراع دموى يحدوه بغض مضطرم ، وانضم الكونت هنرى أمير البرتغال إلى ألفونسو إذ لم يكن ثمة ما يخشاه من أراجون ؛ وكان بالعكس يتعذر عليه أن يتحرر من خضوعه لقشتالة . وفى ٢٦ أكتوبر سنة ١١١٠م التحم الجيشان فى معركة دموية فى « كامبودى‌سبينا » على مقربة من « سبولفيدا » فوقعت الهزيمة على القشتاليين ، وكان يقودهم الكونت جومز والكونت بيدرو دى لارا صاحبا الملكة . وهلك جومز مع عدة آلاف من مواطنيه ، ولاذ بيدرو بالفرار ، وتابع ملك أراجون وأمير البرتغال ظفرهما واستوليا على مدينة برغش (برجوس) عاصمة قشتالة القديمة ، ثم استوليا على بالانسيا Palencia وليون وكاريون وساهاجون دون مقاومة . وفر لدى مقدم الأرجونيين جميع الأساقفة ورجال الدين الموالين للملكة ؛ فاستشاط ألفونسو لذلك غضباً وقرر معاقبتهم بنهب كنائسهم وأديرتهم . هذا إلى أنه كان فى أشد حاجة إلى المال لسد نفقات الحرب ؛ وبثت انتصارات ألفونسو فى البداية أيما روع حتى أن كثيراً من أنحاء جليقية القاصية خضعت له طوعا ؛ ولكن رجال الدين لجأوا إلى نفوذهم وتأثيرهم فى الشعب ، فأثاروه وصوروا له ملك أراجون وجنده فى صورة القتلة الظالمين ، الفاسقين ، الناهبين

لأموال الكنائس والناس ، وما إليها من النعوت والأوصاف ، فهب الشعب فى شمال غربى اسبانيا كله إلى معركة حياة أو موت يؤيدها رجال الدين بكل قواهم .

وكان أشد خصوم ألفونسو وأوفرهم عزماً وجرأة ديجو جلميرز أسقف شنت ياقب ؛ وكانت جليقية يومئذ إمارة نصب عليها ولى العهد (الأنفانت) ألفونسو ولد أوراكا من زوجها السابق ريموند . فلما ظهر خطر الأرجونيين اتفقت كلمة الأحزاب والكبراء وعلى رأسهم الأسقف على أن يطلبوا إلى الملكة أوراكا أن يتوجوا ألفونسو ملكاً عليهم ، وذلك بالرغم من أنه لم يكن يجاوز السادسة من عمره ؛ ونفذ المشروع بالفعل وتوج الأمير الطفل ملكاً لجليقية فى حفل باهر (سبتمبر سنة ١١١٠م) ، وما كاد يتم هذا التتويج حتى جاءت أنباء انتصارات ألفونسو فى موقعة « كامبودى سبينا » وتلتها أنباء فتوحاته الأخرى . واشتد الخطر حينما ظهرت فى بعض أنحاء جليقية بوادر الانتقاض على الملكة أوراكا ، وكانت يومئذ ممتنعة فى قلعة استرقه (استورجا) يحاصرها الأرجونيون .

وعندئذ غدا الأسقف ديجو روح كل مقاومة ضد أراجون فبث الأمل فى أنصار قشتالة ، وحمل الأنحاء المنشقة فى جليقية على العود إلى الطاعة ، واستطاع أن يبعد الكونت هنرى أمير البرتغال عن محالفة ألفونسو — وكان قد بدا يخشى على إمارته من ظفره — وأن يضمه إلى جانب قشتالة . وبعث الملك الطفل على رأس جيش إلى استرقة لكى يجتمع حوله المخلصون من أهل ليون . وما كاد ألفونسو يقف على هذه الأنباء حتى سار فى قسم من جيشه إلى قتال الجليقيين وانتزاع الملك الطفل . ونشبت بين الجيشين على مقربة من ليون موقعة دموية (سنة ١١١١م) وكان الملك الطفل وهو المقصود بالذات فى صميم المعركة يتداوله الفريقان تباعاً حتى استطاع الأسقف أن ينقذه أخيراً بالرغم من انتصار الأرجونيين . وهنا ساء مركز أوراكا مرة أخرى سيما وقد شغلت جليقية بثورة دبرها الكونت بيرز خصم الأسقف بالتفاهم مع ملك أراجون ؛ ومضى ألفونسو فى محاصرة استرقة بشدة ، وكادت الحرب تنتهى لولا أن وفق الأسقف إلى تحطيم

الثورة ، وسير فى الحال جيشاً لا مجاد استرقة تؤازره قوة برتغالية ، وعملت السرايا القشتالية فى الوقت نفسه على قطع المؤن عن الأرجونيين ، فاضطر ألفونسو إلى رفع الحصار وارتد صوب أراضيه ، ولكنه قبل العودة اشتبك مع القشتاليين بقيادة « بيدرو دى لارا » مرة أخرى . وهنا تختلف الرواية ، فيقول البعض إن القشتاليين استطاعوا أن يحدقوا بالجيش الأرجونى وأن يحصروه فى شعب الجبال ، ولم ينقذه سوى وعد ألفونسو بتسليم بعض القلاع والحصون وهو وعد لم يحافظ عليه . ولكن هنالك رواية أصح وأوثق هى رواية رودريك الطليطلى وهى أن ملك أراجون هو الذى استطاع أن يحصر الجيش القشتالى فى بلانسيا Palencia وأنه بعد أن أوقع به بعض الخسائر ارتد ظافراً إلى أراجون (إبريل سنة ١١١٣م) .

واستمرت الحرب الأهلية فى الأعوام التالية تقطعها أحياناً غزوات المسلمين ؛ وانقسمت اسبانيا النصرانية إلى ثلاثة أحزاب كان أقواها وأشدها بأساً حزب ملك أراجون لأنه فضلا عن مملكته الأصلية المشتملة على أراجون ونافارا كان يحتل أهم حصون قشتالة وتؤازره قوة كبيرة من الفرسان الفرنسيين ؛ وثانيها حزب قشتالة الذى ينضوى تحت لواء الملكة أوراكا ويؤازره رجال الدين فى قشتالة وليون وجليقية ، ومن ورائهم الشعب يوجهونه بنفوذهم ؛ وثالثها حزب الأشراف وهو يعارض حكم الملكة وحكم ملك أراجون معاً ويعقد آماله على الملك الطفل ألفونسو رعوندىز ملك جليقية ويؤازره معظم الفرسان فى سائر أنحاء المملكة .

وكان الشعب الاسبانى يتوق إزاء ما جره هذا التفرق على المملكة من ويل ، وما اقترن به من غزوات المسلمين المتوالية التى انتهت بحصارهم لطليطلة ، إلى عقد الصلح بين الملك والملكة . وكان الفرسان ينقمون على الملكة نزولها عن السلطة وإدارة جميع الشؤون إلى خليلها ، وكاد الشعب يثور عليها لولا جهود الكهنة ونفوذهم لديه . وفى سنة ١١١٣م عقد فى برغش برلمان شهده الأساقفة والقوامس وكبراء الدولة ونواب المدن ليعمل على تسكين الهياج ، وعارض فيه

الأسقف ديجو أسقف شنت ياقب كل فكرة فى الصلح بين الملكين وأعلن بطلان الزواج المعقود بينهما ، وحدثت بينه وبين الفريق الناصر للصلح مشادة كادت تنتهي بالاعتداء عليه لولا أن أنقذه بعض الكبراء وعاونوه على القرار .

وكان مسلك برنار مطران طليطلة أكثر اعتدالاً ، فقد اقترح أن ينتظر القرار البابوى الذى سيصدر فى شأن الزواج ، وقد صدر هذا القرار فى المجمع الكنسى الذى عقد فى العام التالى قاضياً ببطلان الزواج بسبب القرابة الشديدة ؛ ولكن ملك أراجون أعلن بطلان القرار البابوى ، ثم أعلن الحرب على قشتالة واستولى على ولاية « ريوبا » التى كانت تابعة من قبل لمملكة نافارا ، وعاون أشراف جليقية خصوم الأسقف ديجو على الثورة عليه ، ولكنه انتهى بإخضاعهم والتغلب عليهم .

ثم سكنت الحرب بين أراجون وقشتالة بضعة أعوام شغل فيها ألفونسو بالاستيلاء على سرقسطة وغيرها من القواعد الإسلامية المجاورة ؛ ولكن حالة قشتالة ساءت عندئذ حتى إنا لنعجب كيف أن الغزوات الإسلامية البرية والبحرية لأراضى قشتالة لم تسفر يومئذ عن فتوح ذات شأن . كذلك أغار القرصان الانكليز على الشواطئ الشمالية واشترك بعض الفرسان الصليبيين فى معاونة ثوار جليقية المناوئين للأسقف ديجو ؛ وأخيراً ساء التفاهم بين هذا الحبر الدساس وبين الملكة ذاتها ، وأخذ الحبر يتردد بين تأييد الملكة وتأييد ولدها الطفل . كذلك أخذت دونا تريزا أخت أوراكا لأبيها — وهى التى تولت حكم البرتغال بعد وفاة زوجها الكونت هنرى بالوصاية على ولدها الطفل ألفونسو — تنحرف عن أوراكا ؛ وكان كلاهما أعنى الأسقف وتيريزا يحاول تحقيق مصالحه الشخصية بالتقلب بين الحزبين . وكان مدار النزاع كله أتحكم امرأة هى أوراكا أم يحكم ولدها الطفل ملك جليقية ؟! ولكن أشراف جليقية انتهوا بإرغام الملكة على الاذعان ، وكانت يومئذ معتقلة فى « سوبروزو » ووضع البرلمان الذى عقد فى ساهاجون (سنة ١١١٦م) شروط الصلح ، وخلاصتها أن تتولى الأم وولدها الحكم معاً فى جليقية وليون

واشتوريش ، وأن تنفرد الأم بالحكم حال حياتها فى قشتالة على أن يخلفها ولدها وفقاً لوصية ألفونسو السادس .

ولكن الحوادث اضطرمت فى ناحية أخرى . ذلك أن الأسقف ديجو الذى عزل ونفى لصرامته وبطشه ، أعادته الملكة إلى منصبه ، وصحبته إلى مركزه فى شنت ياقب . فثار الشعب سخطاً لذلك ، واضطر الأسقف وصحبه والملكة وحاشيتها إلى الالتجاء إلى الكنيسة اتقاء سخطه ، فأضرم الثوار النار فيها دون اكتراث بسمعتها وصفتها المقدسة . ولما هرعت الملكة إلى الخارج خوفاً من اللهب أهانها الشعب وتطاول عليها ، واستطاعت بمعاونة بعض الأهالى أن تلجأ إلى كنيسة أخرى . أما الأسقف فاستطاع أن يفر متنكراً ، ولكن أتباعه هلكوا حرقاً وقتلا ولم تخمد النار إلا حينما ذاع فرار الأسقف ، ولم تجرؤ الملكة على معاقبة الثوار خوفاً من استفحال الفتنة . بيد أنه لم يمض بعيد حتى استطاع الأسقف الماكر أن يستميل قلوب الشعب مرة أخرى .

وكان ملك جليقية قد بلغ عندئذ الثانية عشرة من عمره ، وكان قد قام مع قادته المجربين بعدة حملات مظفرة ضد المسلمين ، وبلغ من إخلاص فرسان مملكة ليون وأساقفتها له أن نادوا به ملكا عليهم ، ولكنه لم يقنع بسيادة المملكتين وأخذ يطمح إلى سيادة قشتالة المملكة الرئيسية . وكان معظم أشراف قشتالة يخلصون للملكة ، ولكنهم كانوا يرون فى ولدها ألفونسو رعوندز حاكمهم المستقبل ويؤيدونه فى مشاريعه الحربية . وكانت الحصون الهامة فى ولاية طليطلة أو قشتالة الجديدة ، بل كانت العاصمة ذاتها أعنى طليطلة ما تزال فى أيدى الأرجونيين . وكان حاكمها الكونت القارفانز (البرهانس) قد استطاع أن يرد عنها كل هجمات المسلمين والقشتاليين بقوة ، ولكنه هلك فى سقوبية وهى إحدى المدن التى يحتلها الأرجونيون فى ثورة أهلية قامت بها ؛ وأبدى خلفه فى حكم طليطلة ردريجونونيز مثل غيرته ومقدرته ؛ ولكن الحال فى طليطلة كانت تسوء من يوم إلى آخر ، وكان الضغط يشتد عليها من جانبين بلا انقطاع إذ كان يهددها المسلمون من الجنوب ،

ويهددها القشتاليون من الشمال ؛ وأخيراً فتك القحط المروع بالأرجونيين فاضطروا إلى فتح أبوابها لألفونسو رعوندز (سنة ١١١٧م) وتمت بذلك أول خطوة فى سبيل حصوله على عرش قشتالة .

وكانت هيبة أوراكا تهوى يوماً بعد يوم . وكان أسلوب حياتها المزرى بمقامها الملكى ، واصطفاؤها لخليلها الكونت بيدرو دى لارا مما يسخط الأشراف عليها ؛ ولم تلبث مدينتا سغوبية وسورية اللتان كانتا خاضعتين من قبل لملك أراجون وكذلك مدينة ليون أن اعترفت بألفونسو رعوندز ملكا عليها . وفى سنة ١١١٩م سار الملك الفتى على رأس فريق من فرسان قشتالة ، وقبض على الكونت بيدرو دى لارا وألقى به إلى السجن ، ولكنه فر من معتقله واحتمى بأمير برشلونة وأفادت الملكة من محنة خليلها إذ عاد الأشراف إلى طاعتها وعادت ليون فانضوت تحت لوائها .

ولما رأى ملك أراجون تحول الشعب القشتالى عنه وأنه لا سبيل إلى إخضاع قشتالة ، اكتفى بأن تلقب « بقيصر اسبانيا » أسوة بفرديناند وألفونسو السادس ، ثم تحول إلى محاربة المسلمين على ضفاف الأيبرو ، وأسدى بافتتاح سرقسطة والمنطقة الجبلية الفاصلة بين قشتالة وأراجون إلى وطنه يداً جليلة أسبغت على اسمه مجداً لم يكن ليسبغه عليه ظفره على القشتاليين فى عديد المواقع .

وكانت جليقية أشد الولايات الاسبانية اضطراباً تقتتل الأحزاب فيها لتأييد أوراكا أو ولدها أو للاحتفاظ باستقلالها . وكان الأسقف ديجو الذى رفعه البابا يومئذ إلى منصب المطران يذكى الاضطراب ببطشه وأطماعه . وكان هذا الحبر ينزل بنفسه إلى ميدان الحرب ويقاتل كأشجع الجند وأبرعهم ، فلما انتهى من قمع الثورة فى جليقية سار مع الملكة فى حملة إلى البرتغال لقتال الدونا تيريزا لأنها عاونت الثوار واستولت على بعض الأراضى . ولكن سرعان ما تخلى ديجو عن الملكة ، وسرح جنوده قبل انتهاء الحرب بصورة تدنو إلى الخيانة ، فاضطرمت أوراكا سخطاً وأمرت بالقبض عليه مع إخوته الثلاثة ، وفر صديقاه مطران براجا وأسقف أورنسة وكانا مع الجيش .

فأثارت شيعة المطران وتصرفات الملكة الثورة ، فى شنت ياقب ، وسخط الشعب ورجال الدين على أوراكا أيما سخط ، وبدا غضب الشعب بأجلى مظاهره حينما قدمت الملكة إلى « كومبوستل » لتشهد احتفال القديس ياقب . ولكن أوراكا لم تتأثر بشىء ولم تقبل الإفراج عن المطران . ومن الغريب أن هذا الشعب الذى أراد أن يبطش بالمطران قبل ذلك بأعوام قلائل اعتزم عندئذ أن يفرج عنه دون أن يحفل بالملكة ؛ فاستدعى ألفونسو ريموندير وما كاد الملك الفتى يظهر على رأس جنده ، حتى اضطرمت المدينة بالثورة وهدد الثوار أوراكا بالويل إذا لم يطلق سراح المطران فاضطرت عندئذ إلى الإذعان وأفرج عنه (سنة ١١٢١م) .

ولكنها حقدت على المطران أيما حقد ورأت أن تنزع عنه بعض أملاك الكنيسة بعد أن عجزت عن اعتقاله ؛ فأثار ذلك نضالا جديداً ، واستطاع المطران أن يجتذب إلى جانبه معظم أشراف جليقية ، وأميرة البرتغال التى ما فتئت تناصر الاضطراب والحرب ، بل استطاع أن يضم تأييد الملك الفتى ألفونسو ريموندير نفسه ، ثم طلب إلى صديقه البابا كالكستوس الثانى أن يصدر قراراً ينقى الملكة وأنصارها من حظيرة الكنيسة ؛ وهنا اضطرمت الخصومة بين الاسبانيين مرة أخرى ووقعت عدة مصادمات سالت فيها الدماء ، وأصدر البابا قرار النفى المطلوب فرأت أوراكا أن لا سبيل إلى خوض هذا النضال ، فردت إلى الأسقف أملاكه المنزوعة ، ولكن التنازع بين الأحزاب والأشراف بقى على حاله ؛ وعملت أميرة البرتغال وملك أراجون على إذكائه ؛ وساء ما بين الملكة وبين ولدها ، ودب الخلاف إلى الشؤون الكنسية ذاتها ، وأخذ مطران طليطلة ومطران كومبوستل وسفيرا البابا ثم البابا نفسه فى التنازع على إدارتها وتوجيهها ، وهكذا كان الاضطراب والفوضى يسودان الدولة والكنيسة معاً .

وحاول البابا كالكستوس الثانى أن يضع حدا لهذه الحالة السيئة فأوفد إلى شبه الجزيرة سفيراً بعد سفير ، وعقدت بدعوته عدة اجتماعات كنسية ونيابية للعمل على رد السكينة والنظام ، والتوفيق بين الأحزاب المتنازعة ؛ وانتهى الأمر

فى الاجتماع الذى عقد فى بلد الوليد (سنة ١١٢٤) بعقد الصلح بين الملكة وولدها على أن يحكما سويا كل الأراضى التى ورثتها أوراكا عن أبيها . ولكن التنازع بين الأشراف استمر على حاله ولم تثمر فى حسمه الاجتماعات المتوالية إذ كان حقد الملكة الشخصى يحول دون كل توفيق ويذكى عوامل الخصومة والبغضاء .

وأخيراً جاء موت الملكة بشيراً بعود السكينة والسلام بعد طول الخصومة والنضال ، إذ توفيت أوراكا فجأة فى سالدانيا على مقربة من كاريون فى ٧ مارس سنة ١١٣٦ . وقد أذاع خصومها عن موتها عدة روايات مشينة فذكر البعض أنها توفيت على أثر وضع مبكر (إجهاض) وهو ما يصعب تصوره ، ويدحضه تقدم الملكة فى السن ، ووصف البعض الآخر موتها كعقاب من الله على ما كانت تعتزم من اغتصاب ذخائر كنيسة القديس إيزيدور فى ليون . ومن العبث أن يحاول المؤرخون الأسبان المحدثون التدليل على نقاء صفحة أوراكا . ولعلهم يرون أن الشخصيات الملوكية لا يمكن أن تحيا حياة مشينة ، أو لعلهم إذا صح التفسير يرون أنه يجب على المؤرخ لكى لا ينال من هيبة الملوكية ألا يلقى ضوءا على ما يشين شخصية ملوكية .

ويبدو من المحقق وفقاً لجميع الروايات ، أن الملكة أوراكا كانت امرأة مغامرة مسترجلة وكان السلطان أعظم شهواتها . وقد محت فى سبيله الزوج والولد ، ولم تحجم مدى عشرين عاماً عن أن تدفع اسبانيا النصرانية إلى غمر الحرب والخراب . لكى تستبقى زمام الحكم لنفسها ، وهو ما كان من حق زوجها ثم ولدها . ولم تكن اسبانيا قد عرفت حكم النساء من قبل ، فكان حكم أوراكا أحدوثة لم يستحسنها سوى الأشراف الثائرين وأكابر رجال الدين طمعاً فى أن يسمو شأنهم فى ظلالها . وإذا لم تكن أوراكا قد توفيت بمثل السبب الشين الذى يرويه المؤرخون القدماء ، فان حياتها حافلة بالحوادث الغرامية ، وقد رزقت من خليلها الكونت جومثر سرا بولد سمى فرديناند فورنادو ، وأثارت علائقها الغرامية مع الكونت بيدرو دى لارا (وهى علائق أثمرت عدة بنين وبنات) الذى كان يطمح إلى اعتلاء

العرش بطريق الزواج من الملكة ، سخط أشراف قشتالة ، فالتفوا حول ولدها وانتهى بنى الكونت المغامر . ولم تكن أوراكا تتمتع فيما خلا الجرأة وإقدام الرجال بشىء من الخلال التى يتطلبها الحكم ، فكان حكمها جائراً نسويا أدى إلى إثارة الاضطراب والحرب الأهلية فى أنحاء قشتالة ؛ ولم تبرأ الجروح التى أصابتها إلا بعد زمن طويل .

وتوفى برنار مطران طليطلة ورئيس الكنيسة الاسبانية قبل وفاة الملكة بعام (ابريل سنة ١٢٢٥) بعد أن لبث زهاء أربعين عاماً يدير شؤونها ببراعة ، وهو الذى عاون باستقدام الآباء البندكتيين أعاعون فى تمدين اسبانيا وطبعها بالطابع الأوربى ؛ ولكنه يلام بحق على أنه لم يعن بالروح القوى ، وأنه حارب التراث القوطى ، وكان أداة فى يد الكرسى الرسولى ، ولم يعمل لتقدم الكنيسة الاسبانية ذاتها . وخلفه فى منصبه رعوند أسقف أوسمة وكان مثله فرنسيا ومن جماعة البندكتيين[1]

٣ — النضال بين ألفونسو ملك أراجون وألفونسو رعوند يز

لما توفيت أوراكا تولى ولدها ألفونسو رعونديز حكم جميع الأراضى التى تركها جده ، وكان قد توج من قبل ملكا على ليون بمعاونة الأسقف ديجو . ولكنه تكبد فى سبيل إخضاع الأشراف المناوئين كثيراً من العناء والجهد . ففى قشتالة كانت تناوئه أسرة لارا وشيعتها أشد مناوأة وعلى رأسها الأخوان بيدرو وردريك جونزالز ، وكان أولهما كما أسلفنا خليل الملكة ؛ وكان يكاد يقبض على زمام الحكم ويثير سخط الأشراف . وقد نفى إلى خارج قشتالة بضعة أعوام ، ولكنه عاد إليها عقب وفاة الملكة أوراكا وأثار كثيراً من الفتن ، وما زال به ألفونسو رعونديز حتى أرغمه على الالتجاء إلى جبال « سانتيلانا » .

ثم تعاقبت الثورات فى جليقية وساد حكم القوة الهمجية بجميع صوره ، ولم تنج منه الكنائس ورجال الدين وكان الكونت أرياس بيريز أشد الزعماء

(١) تصرفنا فى بعض مواطن هذا القسم بشىء من التلخيص الذى يقتضيه المقام .

الخوارج بأساً وإمعاناً فى الفتنة ، ولكنه هزم أخيراً وأخضع . وظهر الكونت رودريك فى قشتالة بروائع قسوته وعنفه ، وكان يربط الأسرى من خصومه مع الثيران فى الحراث ، ويرغمهم على أكل الحشائش مع الماشية والشرب مثلها من الترع ، ولم يترك لوناً من ألوان القسوة إلا أوقعه بأولئك المنكودين ، وما زال دائباً على عنفه الوحشى يجدّ فى البحث عن فرائس قسوته . وأما البرتغال التى كانت تحكمها الدونا تيريزا باسم ولدها القاصر ألفونسو هنريكيز فقد ادعى ألفونسو أنه صاحب الجزية عليها . وجاءت تيريزا للقاء ألفونسو ريمونديز فى مكان عند ملتقى نهرى أوربيكو ودويرة وعقدت معه هدنة حتى تسوى المسائل المعلقة بينهما ، بيد أنها لم تعترف بالطاعة ولا بأداء الجزية لملك قشتالة .

وكانت ظروف أراجون أشد إثارة لأسباب الحرب . ذلك أن ملكها ألفونسو سانشيز كان يحتل حتى وفاة زوجه الغادرة عدة حصون فى قشتالة تكفل له إخلاص الحاميات والسكان ؛ فلما توفيت أوراكا انحلت العلائق التى كانت تربطهم بأراجون ، وآثرت المدن وآثر الجند بالرغم من قادتها أن تعلن ولاءها لملك قشتالة ، على أن تبقى على ولائها القديم . ولم يبق إلى جانب ملك أراجون سوى قلعة كاسترو شريش . وإذا كان ملك أراجون لم يقم بأية محاولة للاستيلاء على القلاع القشتالية ، فان فى ذلك ما يدل على أنه كان يومئذ ما يزال يقاتل المسلمين فى الأندلس ، أو أنه كان يقاتلهم حين عودته فى مرسية وبلنسية . ولما عاد إلى مملكته ألفى الاضطراب يسودها ، ولم يتح له أن يخصص لشؤون الحدود كثيراً من عنايته . وكان المسلمون قد قاموا من لاردة وطرطوشة اللتين بقيتا فى أيديهما بغزوات مخربة على مقربة من سرقسطة ، ولولا مبادرة الكونت ريموند برنجار الثالث بالمعاونة لتفاقم الخطب ؛ ومن ثم فقد رأى ألفونسو اتقاء لأمثال هذه الغزوات أن يقوم قبل كل شىء بافتتاح الحصون الإسلامية الواقعة فى أراضيه ، أو المجاورة لها ، وهو ما يتطلبه سلام المملكة وأمنها . ولكنه ألفى نفسه غير بعيد مضطرا إلى أن يخوض غمار الحرب مع قشتالة ، وأن يخصص كل قواته

لها ، ولعله حُمل على ذلك بدعوة من الأشراف الثائرين فى قشتالة وجليقية ، وكذلك من الدونا تيريزا أميرة البرتغال ، أو بما شهده من نمو قوى ملك قشتالة بسرعة ، فاخترق حدود قشتالة بجيش قوى ، مجدداً دعواه بشأنها (سنة ١١٢٧ م) .

واستمرت الحرب ثلاثة أعوام سجالا فى معارك علية بين الفريقين ، وكلما آذن الشتبا كهما فى معركة حاسمة تدخل الأحبار فى الجيشين لدى الملكين يحضونهما على السلام وحقن دماء النصارى ، وتحويل شهوة الحرب إلى وجهة أخرى هى محاربة المسلمين . وأخيراً وفق الأحبار فى جهودهم ووساطتهم ، وعقدت الهدنة بين قشتالة وأراجون . ونزل ألفونسو الأرجونى عن لقب « قيصر اسبانيا » الذى تلقب به من قبل ، وترك جميع الحصون التى علكها فى قشتالة إلى ولد زوجه ألفونسو ريموندير ، ونزل ألفونسو ريموندير إليه نظير ذلك عن ولاية « ريوخا » التى كان ألفونسو السادس قد انتزعها من نافارا .

وفى تلك الحرب استعادت قشتالة لأول مرة مجدها الحربى الذى خبا ؛ وكان فرسان قشتالة أيام ألفونسو السادس أعظم فرسان اسبانيا كلها ، لا يضارعهم أحد فى الجرأة والشجاعة والصلابة والبراعة فى القتال وقوة البنية ؛ وكانوا على رأس الجيش فى كل موقعة أول من ينقض على صفوف الأعداء وينتزعون النصر منهم فى جميع المواقع تقريبا ؛ ولكن الأمور تغيرت فى ظل حكم أوراكا الرخو تغيراً كبيراً ، خلت الرفاهة والخمول والشح والترف الناعم ، مكان الخلال الحربية العظيمة التى كان يتمتع بها القشتاليون من قبل . أما الفرسان الأرجونيون فقد كانت يذكى نفوسهم مثل ملكهم البطل ألفونسو « المحارب » ، وسرعان ما تفوقوا على الفرسان القشتاليين تفوقا عظيما ، حتى كانت عقيدتهم أن قوة معينة منهم تستطيع أن تصمد لضعفها من القشتاليين . وكثيراً ما حدث أن سرية صغيرة منهم كانت تُلجئ قوة كبيرة من القشتاليين إلى الفرار وهى تصيح بهم : « يا نساء » . وهكذا كان الجند الأرجونيون يثيرون كثيراً من الروع ،

وقد ظهرت منهم بالأخص فرقة « المجاورين »[١] ، وهى طائفة من الفرسان لا عمل لهم سوى الحروب ، ولاسيما محاربة المسلمين . وكانوا يرتدون أسمالا بالية ، تبدو منها جسومهم الضامرة التى تنبئ عن تقشفهم ، ولا تشرق جباههم العابسة إلا حينما يلقون الموت فى ساحة الحرب .

٤ — حروب ألفونسو المحارب الأخيرة ومونه ووصيته

لما انتهى ألفونسو سانشيز من نزاعه الطويل مع قشتالة ، دعى إلى فرنسا فيما وراء البرنيه ليخوض حرباً ضد بيونة . وأسباب هذه الحرب غير واضحة ، ولكن الظاهر أن أميرى (كونتى) بجور وبيارن ، وهما من أتباع ملك أراجون وأخلص حلفائه فى جميع الحروب الأسبانية ، قد هددا من جانب جيوم التاسع أمير جويانه وبواتييه ، فلم يتردد ألفونسو فى المبادرة بإنجاد حليفيه المخلصين ، فطاوق بيونة واستولى عليها بعد حصار طويل (سنة ١١٣١ م) . ومن ذلك الحين كان ملك أراجون ونافارا يلقب فى الوثائق والمراسيم العامة أيضاً ملك بيونة ؛ ولكن سلطان أراجون عليها لم يطل أمده ، ففقدته خلال الاضطرابات والحوادث التالية .

وفى تلك الأثناء توفى أمير سرقسطة السابق أبو مروان عبد الملك بن هود الملقب بعماد الدولة (فى شعبان سنة ٥٢٤ هـ — يونية سنة ١١٣٠ م) ، وكان يملك عدة حصون بالقرب من عاصمة أراجون (أى سرقسطة) . ولا يتضح من الروايات العربية ما إذا كان عماد الدولة كان ينضوى تحت لواء ملك قشتالة أو ملك أراجون لأنها نظراً لاتفاق اسميهما (ألفونسو) تخلط بينهما بسهولة ، وهى كثيراً ما تشير إلى ألفونسو سانشيز ملك أراجون « بأذفنش بن رمند » وهو اسم ملك

(١) المجاورون Almugavaren هى نفس الكلمة العربية مأخوذة بالأفرنجية ، والمقصود بها النصارى الذين يعيشون على حدود الأراضى الإسلامية ويجاورونها .

قشتالة[١] والمرجح أن ولد عبد الملك ، أبو جعفر أحمد سيف الدولة الملقب بالمستنصر والمستعين بالله هو الذى بدأ الانفصال عن أراجون وانضوى تحت لواء قشتالة . وكان المرابطون قد افتتحوا معظم حصونه واستولوا على طرطوشة ولاردة وإفراغة ومكناسة ؛ أما روطة التى كانت مقر إقامته وغيرها من الأماكن التى كانت بيده فقد نزل عنها إلى ملك قشتالة (سنة ١١٣٢ م) وعوضه عنها ببعض أملاك بجوار طليطلة[٢] .

وكان ألفونسو الأرجونى يرى أن أهم ما يجب تحقيقه لمملكته هو أن يصل بينها وبين البحر الأبيض ، وأن يكفل لها سلامة الملاحة فى نهر إيبرو ، ومن ثم فقد عول على أن يفتتح ثغر طرطوشة الواقع على مصب النهر من يد المسلمين وأن يهاجمه من البر والبحر ؛ واشترك فى هذه الحملة كثير من الأشراف والفرسان الفرنسيين . بيد أنه كان يتعين عليهم قبل البدء بمحاصرة طرطوشة الاستيلاء على عدة مدن إسلامية تقع فى الداخل ، وكان المرابطون يملكون مدينة مكناسة الواقعة عند ملتقى نهرى سجرو وإيبرو ؛ فهوجمت وأخذت عنوة . ولكن الاستيلاء على لاردة وإفراغة الواقعتين على نهر أنجا كان أشد صعوبة خصوصاً وإفراغة تقع على آكام عالية منيعة جدا . ولما حوصرت إفراغة قام سكانها الشجعان بمقاومة شديدة وبادر واليها يحيى بن غانية من لاردة على رأس جيش ضخم من أهل بلنسية ومرسية لإنجادها[٣] ، وكذلك بادرت إلى غوثها قوة مختارة من

(١) تشير الرواية الإسلامية إلى ألفونسو الأرجونى بابن رذمير الفرنجى أو ابن رذمير فقط وهى واضحة لا لبس فيها . أما ألفونسو ريمونديز فتسميه « بالسليطين » ولا نعرف أصل هذه التسمية أو سببها (راجع بالأخص ابن الأثير ج ١١ ص ١٣ وابن خلدون ج ٤ ص ١٨٢) .

(٢) قال ابن الأثير فى حوادث سنة ٥٢٩ هـ (سنة ١١٣٥ م) : « فى هذه السنة اصطلح المستنصر بالله بن هود والسليطين الفرنجى صاحب طليطلة مدة عشر سنين ... على أن يسلم المستنصر إلى السليطين حصن روطة وهو من أمنع الحصون وأحصنها » (ج ١١ ص ١٣) ويوجد فرق يسير فى التاريخ بين الروايتين .

(٣) فى هذه الرواية شىء من التحريف والواقع أن يحيى بن غانية كان أميراً على بلنسية ومرسية من قبل أمير المسلمين على بن يوسف وكان والى لاردة عبد الله بن عياض وقد سار كلاهما فى قواته إلى نجدة إفراغة (ابن الأثير ج ١١ ص ١٣) .

المرابطين من جنوب اسبانيا قوامها عشرة آلاف مقاتل. ولكن ألفونسو لم يتراجع في خطته ، بل استمر في الحصار وأقسم علناً كما أقسم أبوه سانشو أمام وشقة قبل ذلك بأربعين عاما أن يفتتح إفراغة أو يموت دونها وأقسم مثله عشرون من أتباعه . وهكذا كانت تقاليد العصر تتطلب أن يخوض أقرب الناس إلى الملك معه غمار البطولة والفروسية ومخاطر الموت ؛ ثم أمر الملك لكي يذكي حماسة الجيش أن يؤتى برفات القديسين إلى المعسكر ، وأن يتولى الأساقفة والرهبان قيادة الصفوف أسوة بالقوامس ؛ وعلى أثر ذلك اشتبك النصارى مع المسلمين القادمين لنجدة المدينة في معركتين وهزم المسلمون في المرتين ولجأوا إلى الفرار ؛ فخارت عزائم سكان المدينة وعولوا على التسليم بشروط يسيرة ولكن ألفونسو رفض كل عرض واعتزم أن يفتتح المدينة بالسيف ؛ فانقلب المحصورون إلى مقاومة اليأس وحاول المرابطون كرة أخرى إنقاذ المدينة بجيش ضخم ولجأ المسلمون إلى الخديعة حين أعوزتهم القوة ، فدبروا كميناً جذبوا إليه الأرجونيين على يد قافلة من المؤن ، وهنالك انقضت عليهم نخبة من المجاهدين الشجعان ، فأثخنت فيهم وهلكت منهم جمهرة من الفرسان الفرنسيين والقوامس وأسقفا روطة ووشقة وقسم كبير من الجيش .

أما ما حدث لألفونسو فلم يعرف بالتحقيق . وتختلف الرواية اختلافاً بيناً على كيفية وفاته التي حدثت بعد موقعة إفراغة بقليل . ويروي مؤرخ قطلوني معاصر في وصفه للمعركة أن الملك حين تمت الهزيمة الساحقة على جيشه عمد إلى الفرار بصحبة فارسين فقط ولجأ إلى دير القديس « خوان دي لابنيا » في سرقسطة ؛ وهنالك توفي غما ويأساً لثمانية أيام فقط من الموقعة وذلك في ٢٥ يولية سنة ١١٣٤ م[١] . وتعارض هذه الرواية رواية مؤرخ آخر خلاصتها أن ألفونسو لما رأى هزيمة جيشه حاول أن يلقي بنفسه إلى المعمعة ليموت ، فأمره أسقف أورجل باسم الله أن ينقذ نفسه ، فغادر ميدان الحرب مع ستين من فرسانه ، ولكن عشرة

(١) هذا هو ما تقوله الرواية الإسلامية في الواقع ، فابن الأثير يقول لنا في كلامه عن موقعة إفراغة (ج ١١ ص ١٣) أن ابن ردمير لحق عقب هزيمته بمدينة سرقسطة ، ومات مفجوعا بعد عشرين يوما من الهزيمة ؛ وهذا الاتفاق مما يحمل على ترجيح هذه الرواية .

منهم فقط نجوا من الموت . وحشد ألفونسو جنداً آخر ، وعاد إلى ميدان الحرب سريعاً ليتدارك ما حل به من هزيمة ، ولكنه اجتذب إلى كمين دبره الأعداء ، وذلك فى ٧ سبتمبر سنة ١١٣٤ م ، وهنالك أحاط به المسلمون فقتل فى ميدان الحرب بعد معركة عنيفة وقتل معه ثلثمائة من فرسانه .

بيد أن معظم الروايات تتفق على أن ألفونسو قد قتل فى موقعة إفراغة فى سنة ٥٢٩ هـ — ١٧ يولية سنة ١١٣٤ م ، ولكن جثته لم توجد بين الموتى بالرغم من الجهود التى بذلت للبحث عنها . وقد كان هذا الظرف المريب الذى حاق بمصير الملك منشأ تلك الروايات والأساطير المختلفة التى أوردها رودريك الطليطلى ورواية القديس خوان دى لاپينيا .

وقد استحق ألفونسو الأرجونى بما خاضه من حروب كثيرة ضد المسلمين والنصارى مدى ثلاثين عاما حكمها لقب « المحارب » Battallator ، وانتصر فى جميع المعارك ما عدا معركة إفراغة الأخيرة ، وهو بذلك يعتبر من أعظم ملوك اسبانيا فى العصور الوسطى[١] ، وقد حقق لأراجون بافتتاح سرقسطة ما حققه ألفونسو السادس لقشتالة بافتتاح طليطلة ؛ وكان فى وسعه بلا ريب أن يحقق أعظم مما حققه سلفه بل ربما كان بوسعه أن يخرج المسلمين من اسبانيا لو لم يقض خلافه المشئوم مع زوجته أوراكا عليه بتوزيع قواه بل بشل حركته فى بعض الأحيان ؛ وقد برهن بحملته التى قادها إلى الأندلس حتى غرناطة ، ثم إلى البحر على مقربة من مالقة لتحرير النصارى المعاهدين ، كيف تستطيع القوى القليلة المختارة أن تلقى العدو فى صميم أرضه ، وأن تنزل به أضراراً جمة ؛ وإذا كان أبوه سانشو قد أسعده الحظ بأن يضاعف حجم مملكته أراجون الصغيرة باتحادها مع ناڤارا ،

---

(١) قال ابن الأثير فى وصفه لألفونسو الأرجونى : « وكان من أشد ملوك الفرنج بأساً وأكثرهم تجرداً لحرب المسلمين وأعظمهم صبراً ، وكان ينام على طارقته بغير وطاء . وقيل له هل تسريت من بنات أكابر المسلمين اللاتى سبيت منهم ؟ فقال الرجل المحارب ينبغى أن يعاشر الرجال لا النساء » والظاهر أن كلمة « المحارب » هنا ترديد لنفس اللقب الذى لقب به ألفونسو (ج ١٠ ص ٢٣) .

فقد استطاع هو أن يقوّم حدودها ، وأن يضم إليها المعاقل والحدود الجبلية التى كانت تنقصها ؛ كذلك استطاع ألفونسو بخلاله الحربية ، وما أدخله من النظم العسكرية الجديدة ، أن يحقق للأمة الأرجونية سيادة اسبانيا ؛ فلم تكن الأمم الاسبانية الأخرى من القشتاليين والليونيين والأشتوريين والبرتغاليين والقطلونيين لتجرؤ على مناهضتها فى ميدان القتال .

أما أخلاق ألفونسو فتختلف صورتها وفقاً لما تدلى به أقوال المؤرخين الأرجونيين أو القشتاليين ؛ فبينما تصفه الروايات الأرجونية بالتقوى والإيمان ، والفروسية المثلى ، والجود نحو الكنائس والأحبار ، (وهذا ما تؤيده الوثائق) ، إذا بالروايات القشتالية تصفه بأنه ملحد ناكث للعهد مستبد ناهب ، لا يرعى حرمة الكنائس والأديار ، ولا يعف عن محتوياتها المقدسة ، ولا يقر الأحبار أو النساء فى حروبه مع النصارى إرواء لجشعه ، وإرضاء لجنده الذين لا وازع لهم ، بل لقد ذهب التحامل إلى حد أن اعتبرت هزيمته ومقتله فى موقعة إفراغة جزاء عدلا من الله لما ارتكبه من انتهاك المحرمات فى ليون وفى دير ساهاجون .

وإذ كان ألفونسو دون عقب ، وكان أخوه راميرو قد انتظم فى سلك الكهنوت ، فقد كتب وصيته وفقاً لتقاليد العصر ، وذلك منذ حصاره لبيونة سنة ١١٣١ م ، ثم أقرها قبيل وفاته ؛ وفيها يوصى بتقسيم مملكته إلى ثلاثة أقسام ، الأول يخصص لسلام روح والده ووالدته ، وللتكفير عن زلاته ، ولكى يظفر بمكان فى جنة الله ، وللقبر المقدس وسدنته وخدمه . ويخصص الثانى للفقراء وفرسان الاسبتارية بيت المقدس . والثالث لفرسان المعبد (الداوية) باعتبارهم حماة النصرانية فى معبد المسيح[١] .

---

(١) كان فرسان المعبد وفرسان الاسبتارية من أشهر جماعات الفرسان الدينية التى قامت فى العصور الوسطى فى بداية الحروب الصليبية . والجماعة الأولى هى التى تعرف فى الرواية الإسلامية بجماعة « الداوية » وقد أنشئت سنة ١١١٩ م فى بيت المقدس عقب سقوطه فى يد الفرنج الصليبيين لحماية الحاج إلى قبر المسيح وأفرد لهم ملك بيت المقدس جناحاً فى قصره ثم سلم إليهم المعبد المجاور له ، ومنه اشتقوا اسمهم « فرسان المعبد » Templars وتمت هذه =

ولكن الأرجونيين والنافاريين أبوا احترام وصية ترمى إلى التصرف فى مملكتهم ، ولم يؤخذ رأيهم فيها ، ورأوا من حقهم ، ما داموا قد ساهموا فى افتتاح المملكة أن يشتركوا فى اختيار ملكها الجديد . وقد أجمعوا على أن يرفضوا سيادة قشتالة ؛ ذلك أن سانشو رعونديز كان بوسعه أن يدعى ملك أراجون باعتباره سليل سانشو الكبير من ناحية أمه . ولكن الروح القومية كانت قد بدأت تنمو فى الممالك الاسبانية المختلفة . وكان الأرجونيون والنافاريون يخشون أن يستبد القشتاليون بهم ، وأن يقضوا على حرياتهم وشرائعهم الخاصة كما عمد ملكهم ألفونسو المحارب أيضاً إلى الانتقاص من امتيازات القشتاليين ، ومن ثم فقد بدأوا باختيار طائفة من الولاة للدفاع عن البلاد والإشراف على إقامة العدل ؛ ثم اجتمع فى « جاقة » ممثلو مملكة أراجون بطبقاتها الثلاث ، أعنى رجال الدين ، والأشراف ، ونواب الشعب ، لكى يقرروا اختيار الملك الجديد ؛ وكان الرأى متجهاً فى البداية إلى اختيار الدون بيدرو أتاريس ، وهو سليل غير شرعى للملك راميرو الأول ، ولكن حال دون ذلك وافر غطرسته ؛ وعندئذ اجتمعت الآراء حول اختيار راميرو أخى الملك المتوفى ، وكان قد انتظم فى سلك الكهنوت قبل ذلك بأكثر من أربعين عاما ، وعاش راهباً ثم أسقفا . ولكن النافاريين لم يوافقوا على هذا الاختيار ، فانفصلوا عن الأرجونيين ونادوا فى بنبلونة بجارسيا راميرز حفيد الملك سانشو الذى قتل فى بنيالين سنة ١٠٧٦ م ملكا عليهم . وهكذا انشطرت اسبانيا النصرانية من جديد إلى ممالك عدة ، ولم يستطع ملك قشتالة ألفونسو رعونديز أن يحقق نوعا من الوحدة بين ممالكه المتنافسة ، إلا بشق النفس وبالاعتماد على تفوقه .

= الجماعة بسرعة ، واشتد ساعدها بمن انضم إليها من الفرسان النصارى من جميع الأمم ، ولعبت أدواراً هامة فى حوادث الحروب الصليبية واستمرت قائمة عصورا . والاسبتارية وهم بالأفرنجية Hospitallers أيضاً جماعة دينية من الفرسان ، أنشئت عقب قيام الجماعة الأولى ، وخاضت أيضاً حوادث الحرب الصليبية ، ولكنها كانت أضعف شأناً من جماعة « الداوية » .

الكتاب الثالث

اضمحلال سيادة المرابطين

فى عصر القيصر ألفونسو ريمونديز

وقيام مملكة البرتغال

الفصل الأول

نهوض مملكة قشتالة

فى عصر ألفونسو ريموندير

(سنة ١١٢٦ — ١١٤٤م) — (٥٢٠ — ٥٣٨ هـ)

---

١ — حروب ألفونسو السابع ضد المسلمين

كان السانشو الأول ملك البشكنس (ناڤارا) الكبير الذى جمع سلطان اسبانيا النصرانية (عدا قطلونية) فى أسرته عقب من الملوك الأبطال ، وكان هؤلاء حلقة من أكابر الحكام — ولده فرديناند الأول ، فحفيده ألفونسو السادس ، فولد حفيده ألفونسو المحارب — أبدوا جميعاً أنهم خليقون بأبيهم العظيم ، وضربوا مثلا نادراً من القوة فى هذه الأسرة لم يبد فيها مند بعيد ؛ وكانت هذه الذرية الملوكية التى حاربت فيما بينها بقدر ما حاربت أعداء دينها عندئذ على وشك الانقراض ؛ ففى أراجون لم يك ثمت سوى راهب ضعيف رفع إلى العرش دون أن يعرف ميدان الحرب . وفى ناڤارا ولى العرش أمير فار يزعم أنه حفيد لسانشو الرابع ، أو حفيد لحفيد سانشو الكبير . أما فى قشتالة فقد انقرض عقب ألفونسو السادس من الذكور ، ولكن ابنته أوراكا رزقت من زوجها الأول الكونت ريموندير البرجونى ولداً هو ألفونسو الذى قدر له أن يستعيد بأعماله عظمة أجداده لأمه ، وأن يكافح أيما كفاح ليقضى على تفرق اسبانيا النصرانية ويعيد إليها وحدتها .

وقد قضى طيلة حكمه فى محاربة المسلمين والنصارى بلا انقطاع ، وشب منذ طفولته تحت قعقعة السلاح ، فلم يعرف غير الحروب والمواقع ؛ وكان هدفاً لنفوذ الأحزاب ، ولكنه لم يفطن مدى أعوام طويلة إلى الهجمات والمكائد الظاهرة والخفية التى كان يدبرها من حوله ، أشراف لاَّرون وأم آغة وزوج أم يضمر له البغضاء . وكان فريسة لشهوات الحكم والطموح ، تتجاذبه بعنف ؛ فعين فى السادسة من عمره ملكاً على جليقية ، وحكم فى الثانية عشرة جزءاً من ليون ، ولم يمض عام حتى دخل طليطلة وغدا ملكاً على قشتالة . وكانت أمه عندئذ تنازعه الحكم ثم نازعه من بعدها زوج أمه ولكنه انتصر فى ذلك النضال ؛ ثم انتزع الموت أمه من ميدان الحرب ، وعندئذ توج سيد قشتالة فى ليون عاصمة اسبانيا النصرانية القديمة ملكاً على يد مطران شنت ياقب (سنة ١١٢٦) . وكان منذ استولى على طليطلة فى حرب دائمة مع المسلمين ، فلم يكن يمضى عام حتى يغزو المسلمون أراضى قشتالة أو يغزو النصارى أراضى الأندلس ؛ ومنذ اضمحلت قوة المرابطين من جراء ثورة الموحدين فى إفريقية ، وتوفى أميرهم أبو الطاهر تميم بن تاشفين الذى كان يسير شؤون الأندلس المضطربة بذكاء ومقدرة ، (وكانت وفاته سنة ٥٢٠ هـ — ١١٢٦ م)[1] أفل نجم الدولة الأسبانية (الموحدية) فى اسبانيا . وكان البغض الذى يكنه أهل الأندلس وبنو هود للمرابطين والذى كان يذكيه طموح الولاة القساة وعسفهم يوماً بعد يوم ، عوناً للملك ألفونسو ريمونديز على أن يحارب المسلمين بنجاح بالرغم مما كان يسود مملكته من الاضطراب ، وما كان بينه وبين جاره ملك أراجون من الخصومات ؛ كذلك كان يعاونه روح القشتاليين الحربى فى ذلك أعظم عون ، وكان قد عاد منذ وفاة أوراكا يتبوأ المقام الأول بين شعوب الجزيرة . وكان ملك قشتالة يعرف كيف يذكى عوامل التفرق بين أعدائه فى كثير من الدهاء ؛ فهو قد بعث بسيف الدولة (وتسميه الرواية النصرانية Zafadula) آخر بنى هود حينما شدد المرابطون عليه الضغط إلى ولاية طليطلة ، وأقطعه هناك

(١) روض القرطاس ص ١٠٦ .

أراضي واسعة ، ولكنه اضطر أن ينزل إلى ملك قشتالة عن قلاعه المنيعة ومنها حصن روطة ، وبها حصلت قشتالة على حدود ثابتة بينها وبين أراجون . وفى نفس الوقت (سنة ١١٣١ م) أرسل على بن يوسف سلطان المرابطين إلى الأندلس بقيادة ولده تاشفين جيشاً ضخما تقدره بعض الروايات العربية المغرقة بخمسمائة ألف مقاتل[١] ، فقصد إلى طليطلة عاصمة قشتالة معتزماً حصارها ، ولكن هذه الحملة كانت عقيما كسابقاتها ، ولم تسفر إلا عن التخريب المروع وسبي العدد الجم . وسارت قوات القشتاليين من سقوبية وآبلة وعدة مدن أخرى خلال جبل الشارات (سييرا موزرينا) صوب قرطبة لتسترد من المسلمين الغنائم والأسلاب ، فألفت نفسها فجأة بعد أن تقدمت دون تحوط وقد احتاط بها جيش تاشفين الضخم ؛ ولكن فداحة الخطر أذكت شجاعة القشتاليين وجهودهم ، ونشبت بين الفريقين معركة ليلية استطاع فيها القشتاليون أن يحطموا نطاق العدو ، وأن يوقعوا به الهزيمة ويلجئوه إلى الفرار ، وأن يستردوا منه عند المطاردة معظم الأسلاب والغنائم . على أن هذه الهزيمة لم تخف تاشفين ، فعاد فى العام التالى إلى أراضى قشتالة يثخن فيها . بيد أنه كان عندئذ أشد تحوطا ، إذ ارتد إلى الأندلس قبل أن يلحق به ملك قشتالة بقواته ، وعاد سالما بغنائمه .

واعتزم النصارى الانتقام لهذه الغزوة المخربة ، فسار رودريك دى لارا حاكم طليطلة على رأس جيش ضخم إلى بطليوس ومنها إلى إشبيلية . واحتذى النصارى حذو أعدائهم قسوة وعيثا ، ثم ارتدوا مثقلين بالغنائم والأسلاب ؛ فحاول عمر والى إشبيلية أن يقطع عليهم خط العودة ؛ ولكن النصارى وضعوا خططا حسنة للدفاع ، وهزم المسلمون بعد عدة معارك حامية ، وطوردوا حتى ظاهر إشبيلية ، وقتل قائدهم عمر فى الموقعة ، وعاد رودريك ظافراً إلى طليطلة ، وقد شجعته

(١) فى هذه الرواية تحريف ظاهر ، فالمؤلف ينقل هذه الرواية عن كوندى (راجع الهامش فى ص ٤٠٨ من الكتاب) والرواية العربية التى نقل عنها كوندى تقول إن تاشفين عبر إلى الأندلس فى خمسة آلاف فارس (لا خمسمائة ألف) وهنالك حشد قوات الأندلس ، والظاهر أن الأمر يتعلق هنا بخطأ فى النقل (راجع روض القرطاس ص ١٠٦) .

الغنائم المكسوبة على تكرار هذه الغزوات .

وشجع ظفر رودريك أهل شلمنقة فانطلقوا إلى بطليوس دون تحوط ، أملاً فى تحصيل الغنائم حتى وصلوا إلى مقربة من مكان موقعة الزلاقة الشهيرة التى تثير فى نفوس النصارى ذكريات محزنة . وأراد تاشفين أن يحذو مثل جده المجيد يوسف ، فانقض على المغيرين انقضاض الصاعقة ، وكاد النصارى يسحقون على الأثر لولا دخول الظلام . على أنها كانت مهلة قصيرة فقط ، ولم ينقذهم ما لجأوا إليه فى سبيل إنقاذ أنفسهم من القسوة بقتل الأسرى الكثيرين ، وطوقهم الفرسان المسلمون طوال الليل ، ثم أمعنوا فيهم قتلا انتقاما لاخوانهم المقتولين ؛ وحزت هذه النكبة فى نفس ألفونسو ، فلم يشأ أن يتركها دون انتقام ؛ فقام بتجهيزات حربية عظيمة فى أراضى قشتالة استعداداً لغزو الأندلس . وكان الأمير تاشفين قد قام بغزوة جديدة فى ولاية طليطلة (سنة ١١٣٣ م — ٥٢٧ هـ) ، فارتد عند اقتراب النصارى مسرعا إلى الأندلس ، معولاً على لقاء عدوه القوى وراء الأسوار والحصون ؛ وسار ملك قشتالة إلى الأندلس مع صديقه سيف الدولة (ابن هود) فى جيشين فى وقت واحد ، واجتمع الجيشان على مقربة من قرطبة بعد خمسة عشر يوما من السير الشاق فى مفاوز جبل الشارات (سييراموردينا) الوعرة . وأثخن النصارى فى الحقول والحدائق والقرى وفى الناس والدواب ؛ وانتسفوا مروج الوادى الكبير الخضراء ، وأضرموا النار فى القرى والبقاع ، وهدموا المساجد ، وأحرقوا المصاحف ، واستاقوا الدواب ، وسبوا الأطفال والنساء ، وقتلوا الرجال ، وعذبوا الفقهاء ، حتى الموت ؛ ولم يكن ذلك كله سوى انتقام لما ارتكب المسلمون فى قشتالة من الفظائع . وامتد هذا العيث الذى كانت تقوم به فى مختلف الأنحاء سريات خفيفة من الفرسان فيما بين قرطبة وإشبيلية ؛ وبعد محاولة خائبة قامت بها جماعة طائشة من الفرسان فى شبه جزيرة لبون التى تقع بها قادس ارتد ألفونسو أدراجه صوب طليطلة ، وهنا انقض تاشفين على الجيش القشتالى فجأة أملا فى أن يوقع به هزيمة كالتى أوقعها بأهل شلمنقة ،

واشتبك معه فى معركة . بيد أنه هزم هزيمة شديدة . ولم ينقذ فلول المسلمين من مطاردة النصارى سوى التجائهم إلى قلاع إشبيلية القريبة ؛ وهكذا عاد النصارى إلى وطنهم دون عائق أو مهاجم ، وهم يبثون الروع فى طريقهم بين المسلمين الذين هزتهم هزيمة ناشفين ، فأقبلوا يلتمسون الأمان من النصارى على أن يدفعوا لهم الجزية .

واستغرق اهتمام ملك قشتالة ما وقع فى اسبانيا النصرانية من الحوادث على أثر موت ألفونسو ملك أراجون ، فلم يتمكن فى الأعوام التالية (حتى سنة ١١٣٨) من السير بنفسه إلى مقاتلة المسلمين ، وترك قيادة هذه الحملات إلى نفر من القواد البارعين يغيرون تارة على أراضى الأندلس ، وتارة يدفعون العدو عن حصون الحدود فى قشتالة واستريمادورة . ولم تقع فى تلك الفترة فتوح ذات شأن ؛ والظاهر أن الفريقين تعادلا فيما حقق كل منهما من مغانم وأصاب من خسائر ؛ وكان رودريك فرناندز حاكم طليطلة ، ومونيو ألفونسيز حاكم مورة يحاربان باستمرار والي قرطبة وإشبيلية ؛ وبينما كان جيش من النصارى يعيث فى الأراضى الإسلامية على ضفاف وادى يانه ، كان المسلمون يعيثون فى أراضى طليطلة ، واستمرت الحرب سجالا بين الفريقين حتى غدا ألفونسو ريموندز بعد أن انتهى من تنظيم شؤون اسبانيا النصرانية أقوى وأقدر على محاربة أعداء دينه .

٢ — الإمبراطورية الاسبانية
والأراضى التابعة لها : ناڤارا وأراجون وقطلونية

أحدث موت ألفونسو ملك أراجون تغييراً عظيماً فى شؤون الممالك النصرانية ؛ ولم يعبأ الأرجونيون بوصية ملكهم المتوفى فرفعوا إلى العرش أخاه راميرو الثانى ؛ ولم ير الناڤاريون فى ولاية راهب أو أسقف ما يحقق سلامتهم ، ولم ينسوا أنهم كانوا من قبل شعباً مستقلا ذا مليك خاص ، فرفعوا إلى العرش جارسيا راميرز سليل ملوكهم القدماء ، وانفصلوا بذلك عن أراجون .

وانتهز رعوند برنجار الرابع أمير برشلونة فرصة انقسام جارته القوية ، فعمل ببراعة على أن تحتل إمارته مركزاً هاما بين الممالك الاسبانية . وكان أبوه رعوند برنجار الثالث (الذى حكم من سنة ١٠٩٢ — ١١٣٠ م) قد عمل أثناء حكمه مدى تسعة وثلاثين عاماً كثيراً لتوسيع الإمارة . وكان فى حروبه ضد المرابطين — حيث كان يشتبك دائماً مع قوى تفوقه — يبدى ضروباً بديعة من الفروسية والجرأة ، ولو أنه لم يحصل من وراء ذلك على مغانم باقية . ذلك أن جزيرة ميورقة التى افتتحها بالتعاون مع البيزيين (سنة ١١١٥ م) فقدت غير بعيد . ثم إن الحرب الصليبية التى شهرها بعد ذلك بقليل ، بإشارة البابا كالكستوس الثانى ضد مسلمى طرطوشة ولاردة وافراغة ، لم تسفر عن نتائج ذات شأن بالرغم من خضوع هذه المدن لأداء الجزية . أما المشروع الضخم الذى نظمه مع رجار (روجر) ملك صقلية والجنويين فلم يتح تنفيذه ، إذ شغل الجنويون بقتال البيزيين ولم يتمكنوا من الوفاء بعهودهم ، واضطر رعوند برنجار الثالث أن يقنع ببقاء حدود ولايته بمأمن من غزوات المرابطين . على أن الإمارة استطاعت أن توسع حدودها فيما وراء البرنيه فى جنوب فرنسا . وكان رعوند برنجار الأول قد استولى على جزء كبير من ولاية لانجدوك ، وضمت مدينتا قرقشونة ورازيه إلى قطلونية ، وحافظ رعوند الثالث عليهما من هجمات جيرانهما الأقوياء ووضع يده على ولايتى فزالو وشرطانية[١] بالاعتماد على الوراثة ، واستولى بواسطة زواجه من الكونتة الثرية دولشيه (سنة ١١١٣ م) على ولايتى بروفانس وكيفودون كارلاد وجزء من روفرنى ، وعدة بقاع أخرى فى لانجدوك ؛ وتلقب من ذلك الحين « بمرجراف برشلونة واسبانيا ، وكونت فزالو وبروفانس » .

وثار بينه وبين الكونت دى تولوز نزاع من أجل بروفانس انتهى بعقد معاهدة إرث وتقسيم (سنة ١١٢٥ م) قسمت بمقتضاها الولاية بينهما على أن يرث كل منهما نصيب الآخر إذا انقطع عقبه .

---

(١) شرطانية هو الاسم العربى لولاية Cerdagne .

ولم يظهر ريموند الثالث فقط بفروسيته ، ولكنه ظهر أيضاً بتقواه ، وهى صفة كانت دائماً من لوازم الفروسية الحق . ولم يقتصر على مقاتلة أعداء دينه فى مواقع عديدة ، ولكنه وضع أيضاً بلاده تحت حماية البابا ، وقرر للكرسى الرسولى إتاوة سنوية ، وأغدق رعايته على رجال الدين . وفى أواخر أيامه انتظم فى سلك « فرسان المعبد » (الداوية)[1] ، ووهب نفسه لله فى سبيل مقاتلة أعداء الدين . ولكن الموت عاجله ولم يتح له أن يفى بنذره (سنة ١١٣١ م) ، وأوصى لولده الأكبر ريموند برنجار الرابع بولاية برشلونة وفزالو وشرطانية وقرقشونة ورازيه ؛ وتلقى ولده الثانى برنجار ريموند باقى أملاكه الفرنسية ، وأهمها ولاية بروفانس .

وتلقى ريموند الرابع حب « فرسان المعبد » عن أبيه ، وأغدق عليهم كثيراً من رعايته ، وطلب إلى كبيرهم ببيت المقدس أن يرسل عدداً منهم إلى قطلونية ، وأسس أول دير فى اسبانيا لهذه الطائفة ، ووهبها كثيراً من الأملاك والحقوق والمزايا . وسرعان ما ظهرت معاونة « الفرسان » القيمة وشجاعتهم فى محاربة أعداء الدين ، وفى ذلك ما يفسر كون ألفونسو ملك أراجون قد أوصى بمملكته كلها لفرسان بيت المقدس . ومع أن الوصية لم تنفذ ولم يستول الفرسان على المملكة ، فان راميرو الثانى وهو من رجال الدين وهب هؤلاء الفرسان فى أراجون من الأملاك والحقوق ما لم يفوزوا به يومئذ فى أى بلد أوروبى آخر .

وكانت سياسة ريموند الرابع ترمى إلى التفاهم مع قشتالة باعتبارها كبرى الدول الاسبانية ، ولكى يستطيع بمعاونتها أن يوسع أملاكه على الأيبرو وفى البرنيه ؛ فلما عمد الفونسو ريمونديز على أثر موت ملك أراجون ، إلى غزو ولايات الأيبرو واستولى على نجيرا وقلهرّة وطرّكونة وسرقسطة ذاتها ، وشهر الحرب بذلك على مملكتى أراجون ونافارا ، سعى الكونت ريموند والكونت دى تولوز إلى لقائه فى سرقسطة ، ووعداه بالمعاونة فى محاربة أراجون ، وأقسما

(١) راجع الهامش الخاص بذلك فى ص ١٧٥ .

له بعين الخضوع . وكان زواج أخت رعوند برنجار من ملك قشتالة (منذ سنة ١١٢٨) عاملا فى تقوية أواصر الصداقة بينهما .

ولما آنس ملكا أراجون وناڤارا روعة الخطر الداهم آثرا أن يحتفظا بشىء من السلطان على أن يخوضا حرباً لا يقويان على خوضها ؛ ومن ثم فقد نزل راميرو الثانى إلى ملك قشتالة عن سرقسطة ، وردت بذلك حدود أراجون إلى مهدها القديم فى جبال ريباجرسيا ؛ وارتضى جارسيا ملك ناڤارا أن يحكم مملكته باسم ملك قشتالة . كذلك شعر الكونت هنريكيز أمير البرتغال بالرغم مما كان يتمتع به من الاستقلال اقتداء بأمه تيرزا ، أنه لا يستطيع مغالبة قشتالة ، ومن ثم فقد عمد فى الوقت المناسب إلى الاعتراف بدعوى ألفونسو فى السيادة على البرتغال . وهكذا بسط ملك قشتالة سلطانه على جميع أراضى اسبانيا النصرانية ، وهو ما لم يفز به ملك آخر من قبل . ولم يكن لقب « الملك » يكفى للإعراب عن صولة ملك يسود ملوكا وأمراء ؛ وكان لقب « القيصر » الذى اتخذه من قبل اثنان من ملوك قشتالة ، وألفونسو ملك أراجون ، أصلح وأكثر ملاءمة لما كان يتمتع به ألفونسو ريموندز من سلطان على اسبانيا النصرانية كلها . ففى اجتماع عقد فى ليون (فى ١٠ يونيه سنة ١١٣٥) وشهدته الملكة برنجاريا ، وسانشا أخت الملك ، وملك ناڤارا ، وسفراء قطلونية وأراجون والبرتغال ، وأكابر الأشراف ورجال الدين من جميع أنحاء قشتالة ، أعلن ألفونسو ريموندز « قيصراً » لاسبانيا . وقاده أشراف المملكة من القصر الملكى إلى الكنيسة الكبرى حيث كان رئيس الكنيسة الاسبانية رعوند مطران طليطلة وجميع الأحبار فى انتظاره . وهنالك قاده المطران إلى الهيكل ووضع التاج على رأسه والصولجان فى يده ؛ وكان عن يمينه جارسيا ملك ناڤارا ، وعن يساره أسقف ليون يمسكان بالتاج ؛ وفى نهاية الحفل قاد الأحبار الملك إلى قصره ، حيث تولى الأشراف خدمته على السماط .

وقد اشتهر مجلس ليون هذا بما صدر فيه من قرارات كان أهمها بلا ريب قرار سبق اتخاذه فى اجتماع ليون فى سنة ١١٢٦ ، وهو يقضى بأن تطبق القوانين

والحقوق البلدية Buenos fueros فى جميع أنحاء قشتالة والولايات التابعة لهـا ، وهى القوانين والحقوق التى كانت قائمة فى عصر الملك ألفونسو السادس ؛ وترتب على هذا القرار إلغاء كثير من التصرفات فى أراجون ، وإلغاء بعض الامتيازات التى انتزعها بعض الأشراف لأنفسهم دون حق ؛ كذلك أعيد إلى الكنائس والأديار ما نزع منها خلال الحرب الأهلية من الامتيازات ، وتقرر إصلاح الأماكن المخربة ، وغرس الحقول الدارسة توفيراً للعمران والرفاهة ، وأنشئ من سكان الحدود نوع من الجند الاحتياطى يحشد فيه كل رجل قادر على السلاح ، وذلك للعمل على رد غارات المسلمين ؛ وحققت خطوة كبيرة فى سبيل المساواة بين الطبقات باصدار قانون يحتم عقاب كل مجرم ، مهما كان شخصه ومقامه . ولكن الحوادث دلت على أن القوانين الحسنة لا تكفى لإسعاد الأمة ما لم يكن لدى الحكومة من العزم والقوة ما يكفى لتطبيقها ؛ ولم يك ممكناً فى معظم الأحيان أن تطبق على الأشراف ذوى الجرأة والقوة دون حرب أهلية ؛ وكان تشبه السادة التابعين بالأمراء يحقق لهم الإفلات من العقاب على أشد الجرائم ؛ وفى عصر كان يسود فيه حكم القوة كان إذعان الفرد متوقفاً على مقدار ما يمكن أن يبذله الأقوى لإرغامه من وسائل القوة والعنف . وإنه ليبدو من الدهش فى عصر كانت فيه الجريمة الحقيقية تفرض لها عقوبات ضئيلة ، أو لا يعاقب عليها أصلا ، أن تسن عقوبات صارمة لجرائم خيالية ؛ فمثلا كانت سيادة الخرافة تقضى فى كل عصر بأن تسن عقوبة الموت ضد السحرة والعرافين ومفسدى الجو[1] .

فلما عمد النصارى فى الأعوام الأولى لتتويج ألفونسو قيصرا على الايات الأيبرو واستولى عاعة ، ولكنهم لما آنسوا قوتهم ، وأجمعوا أمرهم ، أخذوا بذلك على تحطيم نير التبعية الثقيل ، وتحقيق استقلالهم من جديد ؛ ولم يبق

(١) هم طائفة من « السحرة » فى العصور الوسطى ، كانت تعزى إليهم المقدرة على إفساد الجو ، وإثارة العواصف والأنواء والأمطار ؛ وما زال أثر هذه الخرافة باقياً فى بعض المجتمعات الأوربية المتأخرة ، ولا سيما الفلاحين .

على ولائه منهم سوى أمير قطلونية نظراً لمصاهرته للقيصر ، وهو مع ذلك يؤمل أن يكون أكثرهم غنما .

وقدَّم أسباب الحرب الأولى راميرو الثانى ملك أراجون ؛ وكان راميرو بالرغم من سنه ، وكونه كان من رجال الدين ، قد تزوج بموافقة البابا بابنة جيوم التاسع دوق أكوتين ، وأعقب منها ابنة تدعى بترونيلا ؛ وكان أكثر اهتماما بشؤون طائفته القديمة وتخصيص الهبات للكنائس والأديار منه بمهام الحكم . وبذا خسر حب شعبه وولاءه . وكانت موافقته على أن يزوج ابنته من سانشو ولى عهد قشتالة — وهو مشروع قد يهدد استقلال أراجون — مثار ممارضة شديدة من الكبراء ؛ وفى بعض الروايات القديمة أن نفراً من هؤلاء الكبراء المجتمعين فى وشقة قد قتلوا بأمر راميرو لهذا السبب أو غيره ، وهى رواية يحيق بها الشك نظراً لما اتصف به راميرو من ضعف فى الخلق والعزم . وكان ملك نافارا يطمح إلى اعتلاء عرش أراجون بعد وفاة راميرو ، ولكنه استشاط غضباً حينما علم أن بترونيلا اختيرت وارثة للعرش ، مع أنه تقرر وفقاً لترتيب وضع قبل أن يرزق راميرو بابنته ، أن يؤول عرش أراجون إلى نافارا ؛ والظاهر أن القيصر ألفونسو نفسه كان قد وعد ملك نافارا بذلك وكفل تحقيقه .

ولكن تطور الأمور على هذا النحو وضع ملك نافارا فى مأزق شديد الحرج ، فهو قد حصر من الجانبين بين مملكتين قويتين تعتزمان اقتسام مملكته . بيد أنه أبدى همة وحزما ، واستطاع أن يجنى من وعورة أرضه ، فى النضال أعظم الفوائد . وألفى حليفاً مخلصاً فى أمير البرتغال ألفونسو هنريكيز الذى كان يخشى قشتالة ويحتمل سيادتها على مضض . وفى سنة ١١٣٦ نشبت الحرب فى وقت واحد على ضفاف نهرى إيبرو ومنهو[١] ، فزحف القيصر ألفونسو على نافارا بجيش ضخم ، وأثخن فى البسائط وحاصر القلاع ، وبدا كأن النصر يحالفه ، ولكنه لم يغنم شيئا ، لأنه لم يفتتح الحصون ؛ ثم جاءت الأنباء بتقدم القوات

(١) نهر فى شمال البرتغال .

البرتغالية فى جليقية ، فاضطر أن يسير إلى الناحية الأخرى من مملكته ، وأن ينسحب من الأراضى الناقارية حتى لا يفقد جليقية ؛ وفى الوقت نفسه كان المسلمون يهددون حدود قشتالة الجنوبية ؛ وهكذا استطاعت ناقارا أن تنجو من الخطر الداهم .

وبينما كان القيصر يسير تارة لمحاربة المسلمين ، وأخرى لمحاربة البرتغاليين ، إذا بالحوادث فى أراجون تتطور لصالح قشتالة ، بالرغم من كون غزوها لناقارا لم يسفر عن فتوح ثابتة ؛ ذلك أن راميرو الثانى لم يستطع على تقشفه واعتداله أن يكسب حب شعبه ، وبالعكس فان فريقاً من الشعب كان يبغضه لأنه تزوج بالرغم من انتمائه لرجال الدين ، ويبغضه فريق آخر لأنه عاطل عن الصفات الحربية . وأخيراً غاب عليه ضعف الشيخوخة وعادته القديمة فى حب العزلة ، فاعتزم أن يختار لابنته بترونيلا زوجا يضطلع دونه بأعباء الحكم ، ثم ينسحب هو نهائيا من الملك ؛ ودعا بموافقة القيصر أو إيعازه ممثلى أراجون إلى اجتماع عقد فى بربشتر لبحث هذا الموضوع ، واستقر الرأى بالاجماع على اختيار الكونت ريموند برنجار الرابع أمير قطلونية ليكون زوجا للأميرة لما اتصف به من رفيع المواهب والخلال ؛ فرحب الكونت ريموند بأن يغدو زوجا لوارثة مملكة ، وذلك بالرغم من أن الأميرة لم تكن قد جاوزت الثانية من عمرها ، واشتُرط فى الخِطبة أنه إذا توفيت بترونيلا قبل عقد الزواج ، فان خطيبها يرث عرش أراجون بعد وفاة راميرو الثانى ؛ وفى الحال تولى الكونت زمام الحكم باعتباره وصيا ، ولم يغير مع ذلك لقبه ، مؤثراً أن يبقى كونتاً قويا على أن يغدو ملكا ثانويا ؛ ولعل ذلك مرجعه أن راميرو الثانى لبث محتفظا بلقبه الملوكى ، وذلك بالرغم من أنه التجأ إلى سكون الدير (سنة ١١٣٧ م) واعتزل كل شؤون الحكم ، وعاش بعد ذلك زهاء عشرة أعوام حتى سنة ١١٤٧ ، وربما أيضاً حتى سنة ١١٥٥ . ولما توفى راميرو تلقبت بترونيلا بألقاب الملك ، وشاطرت زوجها الحكم فى أراجون ، ولكنها لم تشركه فى اللقب . ولم تتحد قطلونية وأراجون فى مملكة واحدة إلا فى ظل عقب

رعوند وبترونيلا ، واحتفظت مع ذلك كل منهما بقوانينها وأنظمتها السابقة ؛ وتبوأت قطلونية فى البداية مركز الرياسة نظراً لتجارتها الفنية ، وذلك بالرغم من مثول اسم أراجون فى المملكة المتحدة .

ولم يتردد القيصر فى أن يؤيد ارتقاء صهره الملك بالاعتراف به وإقراره ؛ ولعله قد عمل سرا لتنظيم هذا المشروع وتنفيذه ؛ وسار رعوند برنجار إلى لقاء ألفونسو رعوندز فى « كاريون » ، ووافق ألفونسو على تصرفات راميرو باعتباره صاحب السيادة عليه ، وقدم دليلا على جوده وصداقته بأن نزل للوصى على أراجون عن جميع القلاع الواقعة على نهر إيبرو ؛ ومنها سرقسطة التى كان يحتلها حتى ذلك الحين ؛ وأقسم رعوند من جانبه يمين الطاعة لألفونسو ، وتعهد بأن يمده فى جميع الحروب التى يخوضها بقوى أراجون وقطلونية ولا يجدوك .

وكان من صالح الملكين أن يحاربا عدوهما المشترك جارسيا ملك نافارا ، وكان رعوند برنجار يرى أن هذه المملكة يجب أن تؤول إلى أراجون . وكان القيصر ينقم على ملك نافارا أنه خرج عليه بعد أن أقسم فى البداية يمين الخضوع له ، وأنه تحالف مع أمير البرتغال الخارج على سلطانه ؛ ولما كان يتعذر على أراجون وحدها أن تحارب نافارا بنجاح ، فقد رأى القيصر أن يسير بنفسه إلى نافارا عن طريق الأيبرو فى جيش ضخم ، بينما زحف رعوند برنجار فى نفس الوقت فى جيشه من الجنوب لكى يشدد الضغط على المملكة الصغيرة ؛ وبدا عندئذ أنه يتعذر على الملك جارسيا أن يقاوم طويلا ، ولكن أحكم الخطط قد يفسدها حادث طارئ . أجل استطاع القيصر أن يخترق نافارا ظافراً (سنة ١١٣٩) ، وأن يصل إلى عاصمتها بنبلونة دون كبير مقاومة ، وأن يضرب حولها الحصار فى الحال ؛ ولكن الجيش الأرجونى الذى كان مقرراً أن يلحق بالقيصر تحت أسوار بنبلونة عاقته خطط الملك جارسيا البارعة عن بلوغ هذه الغاية ، وجعلته فى مأزق حرج ، واستطاع النافاريون أن يوقعوا به هزيمة شديدة ؛ وكان جارسيا أحرص من أن يحمله حسن طالعه على أن يحاول بقواته الضئيلة لقاء القيصر فى قواته الضخمة ،

فاكتفى بأن يلتزم خطة الدفاع ، وأن ينهك بذلك قوى خصومه ، وانتهى ببلوغ الغاية المنشودة ؛ إذ غادرت قوى العدو أراضيه دون أن تقوم فيها بأى فتح يذكر . وارتد الحليفان عند دخول الشـتاء يغمرهما الخجل ، وهما يعتزمان محو عار هذه الحملة الفاشلة فى العام التالى باحراز نصر باهر .

وعند بدء الحرب فى العام التالى تطورت الحوادث السـياسية ، فسعى ملك نافارا الفطن لدى رجال الدين ، وكذلك لدى الـكونت دى تولوز الذى جاء حاجا إلى شنت ياقب ، للتدخل فى عقد الصلح ؛ وكان حليف نافارا المخلص ألفونسو هنريكيز الذى تلقب قبل ذلك بقليـل بملك البرتغال قد روعته نتائج الحرب مع قشتالة ، وشغلته غارات المسلمين ، فلم يك بوسعه أن يشد أزر الملك جارسيا . فلما سار القيصر ألفونسو فى ربيع سنة ١١٤٠م لمحاربة نافارا للمرة الثانية ، واتجه نحو قلهُرَّة ، وسار ريموند برنجار فى نفس الوقت بقوات أراجون وقطلونية وهو يضطرم شوقا إلى الانتقام لهزيمته ، ألقى جارسيا بقضيته الخاسرة إلى رجال الدين ؛ واستطاع هؤلاء أن يحملوا القيصر باسم السلام على وقف الحرب ، ولـكن جارسيا اضطر للاحتفاظ بعرشه أن يعود فيعترف بسيادة القيصر ؛ ورؤى لتوطيد السلام والصداقة بينهما أن يعقد زواج أكبر أولاد القيصر ولى العهد سانشو والدونا سانشا ولية عهد نافارا ؛ وهكذا سوى النزاع بين قشتالة ونافارا . ولـكن ذلك لم يكن ليرضى أراجون ، إذ كانت ما تزال تتطلع إلى عرش نافارا وتتربص الفرص لتحقيق أمنيتها بالسيف ؛ ونقم الأرجونيون على القيصر أنه لم يحسب حساباً لتحالفه مع أراجون وعقد الصلح بمفرده مع العدو المشترك ؛ وبينما كان ألفونسو مشغولا بقتال المسلمين نشبت الحرب بين نافارا وأراجون ، وبدأت الوقائع بينهما سجالا ، ثم رجحت كفة جارسيا ، واستولى على مدينة طرّكونة (سنة ١١٤٣) . فمنذئذ اهتم القيصر بالأمر ، سيما وقد أبدى ملك نافارا الذى غره الظفر أنه يبغى خلع سيادة قشتالة . وشهر ألفونسو الحرب على نافارا ، وزحف مع ريموند برنجار إلى الأيبرو لقتال العدو المشترك . وهنا تذرع جارسيا

بالحكمة وبادر بالتسليم اتقاء العاصفة ، ووعد بوقف الحرب ضد أراجون ، وأعاد إليها الأماكن المفتوحة وجدد عهد الخضوع للقيصر . ولما كانت زوجه الملكة مرجريتا قد توفيت منذ أعوام ، فقد رؤى توطيد هذا الصلح بتوثين روابط الأسرتين ، وذلك بزواج جارسيا من الدونا أوراكا ابنة القيصر غير الشرعية ، واحتفل بعقد هذا الزواج فى ليون فى ٢٤ يونيه سنة ١١٤٤ فى حفلات باذخة ضمت جميع ضروب اللهو الشائقة التى كانت معروفة فى ذلك العصر من موسيقى ومبارزات ومصارعات وغيرها ، وشهدها القيصر وأعضاء الأسرة الملكية وأشراف قشتالة وناقارا . وما كادت هذه الحفلات تنتهى حتى أخذ القيصر وأتباعه فى التفكير فى أمر الحرب التى يجب أن يشهروها معاً ضد المسلمين .

٢ — حروب النصارى الاسبان ضد المرابطين

منذ وفاة ألفونسو الأرجونى حتى بداية اضمحلال سلطان المرابطين

فى الأعوام الأولى التى تلت موت ألفونسو المحارب ، شغل الأمراء النصارى بشؤونهم الداخلية ، ولم يستطيعوا القيام بغزوات ذات شأن فى الولايات الإسلامية بل اكتفوا بأن عهدوا إلى حكام الحصون الواقعة على الحدود برد غارات المسلمين ؛ فلما انتهى القيصر من تهدئة اسبانيا النصرانية ، وخضع له جميع الأمراء عاد فسار بنفسه فى سنة ١١٣٨ م إلى مقاتلة المسلمين ، ولكن هذه الغزوة لم تكلل بالظفر . ذلك أنه لم يستطع الاستيلاء على قورية وهى قلعة منيعة تقع على مقربة من ضفة التاجه اليمنى ، وذلك بالرغم من حصارها الشديد . بيد أنه استطاع فى العام التالى أن يرد غزوة قام بها المسلمون فى ولاية طليطلة بقوات عظيمة ، وانتزع جنده بعد ذلك بقليل قلعة « أورية » من المسلمين ، وقد كانت قاعدتهم فى كل غاراتهم على قشتالة ، وكانت تعتبر مفتاح ولاية طليطلة واعتبر افتتاحها ظفراً عظيماً ، واحتفل به فى طليطلة فى حفلات باذخة ، واستقبل رجال الدين القيصر الظافر ، وساروا فى موكبه إلى الكنيسة الكبرى حيث أقيم قداس شكر حافل .

ثم نشبت الحرب الأهلية بين الأمراء النصارى ، فاضطر القيصر أن يوقف غزواته الكبيرة ضد المسلمين ، وكانوا يومئذ يهددون البرتغال أكثر مما يهددون قشتالة . فلما سقطت قلعة « مورة » المنيعة فى يد المسلمين باهمال حاكمها مونيو ألفونسيز (سنة ١١٤٠ م) وعرضت قشتالة بذلك إلى الغارات المخربة مرة أخرى ، حشد القيصر جيشاً ضخماً وسير حاكم طليطلة رودريك فرنانديز على رأس جيش إلى « وادى يانه » ضد قرطبة وحتى ظاهر إشبيلية ، وحاصر القيصر نفسه قلعة قورية مدى شهرين حتى سقطت فى يده فى يونيه سنة ١١٤٢ م (٥٣٦ هـ) وذلك بعد أن رد عنها جيشاً من المسلمين قدم لإنجادها . وفى بعض الروايات أن النصارى ساقوا إلى طليطلة عشرة آلاف من أسرى المسلمين .

وفى العام التالى قام مونيو ألفونسيز ضد قرطبة بغزوه موفقة محا بها الوصمة التى لحقته من جراء إهماله فى الدفاع عن قلعة « مورة » فانتسف المروج الخصبة الواقعة على ضفاف الوادى الكبير على مقربة من قرطبة وجمع غنائم عظيمة ، وأحرز نصراً باهراً على قوة كبيرة من المسلمين حاولت أن تعترض سبيل عوده إلى قشتالة ، وسقط القائدان المسلمان وهما واليا قرطبة وإشبيلية فى الميدان مع عدة آلاف من القتلى ؛ وكانت هزيمة ساحقة للمسلمين ، وكانت غنائم النصارى تفوق كل أمل ؛ واستُقبل مونيو ألفونسيز فى طليطلة استقبال الفاتحين الرومان ، وتسلم رجال الدين عشر الغنائم برسم الكنيسة ورُفع رأسا القائدين المسلمين على رمحين عاليين ، وتبعهما الأسرى من أكابر المسلمين والفرسان فى الأغلال ، ثم بقية الأسرى وقد غلت أيديهم وراء ظهورهم ، ثم موكب الغنائم من الخيل والدواب ومختلف النفائس ؛ وسار القائد الظفر على رأس هذا الحفل حتى الكنيسة الكبرى حيث كانت القيصرة برنجاريا ورجال الدين والأشراف والشعب المحتشد فى انتظاره . ولما عاد القيصر إلى طليطلة — وكان غائباً عنها — بعد ذلك بأيام أقيمت حفلات النصر مرة أخرى ، وأفرز من الغنائم غير عشر الكنيسة قسط كبير لمزار القديس ياقب فى كومبوستل ، وأفرز منها الخمس للقيصر وفقاً للحقوق المرعية ، وقدمت له

أجمل الخيل والدواب ، وحصل مونيو وجنده على ما تبقى منها ؛ وعُلق رأسا القائدين المسلمين أمام القصر الملكي وفقاً للتقاليد الشرقية ، ولكن القيصرة لم تطق المنظر المروع فأمرت بغسل الرأسين ووضعهما في حرزين ثمينين وإرسالها إلى زوجي القتيلين ليدفنا بالتكريم اللائق .

وقد أثارت هذه الهزيمة في قلوب المسلمين أيما جزع ؛ ولما وصلت أنباؤها سلطان المرابطين في إفريقية استشاط سخطاً لما لحق جيوش المسلمين من محنة ومهانة ، واعتزم اتخاذ الإجراءات المشددة ، فعين يحيى بن غانية الظافر في موقعة إفراغة والياً عاما لجميع أراضي الأندلس التي يبسط عليها المرابطون حكمهم ، وأمره أن يعمل على أن يأخذ من النصارى بثأر قتلى المسلمين . وفي تلك الأثناء قاد القيصر جيشاً إلى قلب الأندلس ضد قرمونة وإشبيلية وعاث في البسائط ، ونفذ المسلمون من ناحية أخرى إلى قشتالة وهاجموا قلمة رباح وأثخنوا في هاتيك الأنحاء ، وأمل مونيو أن يحرز نصراً باهراً كالذي أحرزه من قبل ؛ فتقدم بجرأة ودون تحوط واشتبك في موقعة مع عدو يفوقه في الكثرة ، وقدم بذلك إلى المسلمين فرصة لتحقيق الانتقام المنشود ؛ وهنا هزم النصارى هزيمة شديدة وسقط مونيو مثخناً بالسهام . ففصل رأسه وذراعه اليمنى ورجله اليمنى عن جسده ، وأرسلت إلى قرطبة وإشبيلية لكي تعرض على زوجي الواليين القتيلين عزاء لها ؛ ثم حملت بعد ذلك إلى سلطان المرابطين في مراكش دليلا على نفاذ أوامره . ولكن باقي الجثة أرسل إلى القشتاليين مقابل إرسالهم لرأسي الواليين المسلمين نزولا على تقاليد الفروسية . وعلقت رؤوس أكابر النصارى فوق أرفع أبراج قلمة رباح عنواناً بالنصر المبين .

وأثار موت مونيو الشجاع حزناً عاما في طليطلة ، ولو أنه اعتبر عقاباً من الله لأن مونيو سبق أن قتل ابنته بيده ، إذ فاجأها ذات يوم مع حبيبها الفتى ؛ وحزن القيصر أيضاً لفقد قائده الباسل وأقسم بأن ينتقم لموته . فسار إلى الأندلس في سنة ١١٤٤م وكرر غاراته المخربة ولم يتورع عن شيء ، ففي كل مكان أحرقت القرى والدساكر أو هدمت ، وسيق الناس والدواب قطعاناً ، وحملت غنائم

عظيمة ، وأثخن النصارى فى بسائط قرطبة وإشبيلية وقرمونة وغرناطة ، حتى المرية ، والتجأ المسلمون الذين استطاعوا النجاة إلى الحصون ، وعاد القيصر إلى وطنه مثقلا بالغنائم .

ومن ذلك الحين يجوز المرابطون أسود الفترات التى عجلت بانحلالهم . وقد مهد انهيار نظم الحكم فى اسبانيا المسلمة من جراء الحروب الأهلية ، واضمحلال سلطان المرابطين فى إفريقية ، السبيل لفتوح النصارى . بيد أنه يجب قبل أن نمضى فى تتبع هذه الفتوح أن نقص ما انتهت إليه مصاير المرابطين فى إفريقية .

الفصل الثانى

اضمحلال سلطان المرابطين فى إفريقية

من جراء ثورة الموحدين

(سنة ١١٢٠ — ١١٤٦ م) — (٥١٤ — ٥٤١ هـ)

---

١ — أبو عبد الله بن تومرت الملقب بالمهدى

مؤسس دولة الموحدين

فى العشرة الثانية من القرن الثانى عشر الميلادى ، بعد أن تولى على بن تاشفين حكم المرابطين ببضعة أعوام ، قصد رجل ، من بلاد السوس ومن قبيلة مصمودة يدعى أبو عبد الله بن تومرت[1] ، إلى طلب العلم فى أشهر معاهد المغرب والمشرق أسوة بعلماء عصره . وبعد أن درس حينا فى معاهد قرطبة والقاهرة رحل إلى بغداد لكى يستمع هنالك إلى دروس الفيلسوف الأشهر أبى حامد الغزالى ؛ وكان الغزالى قد وضع كتابا أنكره فقهاء قرطبة ، وقضوا بتكفير مؤلفه نظراً لما احتواه من أقوال ضد السنة ؛ وأخذ سلطان المرابطين على بن تاشفين برأيهم ، وأمر بأن

---

(١) هو كما ورد فى روض القرطاس محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد ؛ وزعم بعض مؤرخى الموحدين أن نسبه ينتهى إلى على بن أبى طالب ؛ وقيل إنه دعى فى هذه النسبة ، وإنه يسمى فقط محمد بن تومرت الهرغى نسبة إلى هرغة من بطون مصمودة (راجع روض القرطاس ص ١١٠ ؛ وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٥ وما بعدها ؛ والمراكشى ص ٩٩ وما بعدها ؛ والحلل الموشية ص ٧٥ وما بعدها ؛ وابن خلكان ج ٢ ص ٤٨ وما بعدها) .

تحرق كتب الغزالى كلها فى أنحاء مملكته الشاسعة باعتبار أن مؤلفها كافر خارج على الدين[١] .

ففى تلك الآونة نفسها قصد أبو عبد الله بن تومرت إلى الغزالى فى بغداد ؛ فعرف الفيلسوف من لغة الفتى وزيه وهيئته أنه غريب ، ولما علم أنه قدم من المغرب وأنه درس طويلا فى قرطبة ، سأله كيف استقبل هنالك كتابه « إحياء علوم الدين » ، فلم يخف عليه أبو عبد الله أن الكتاب قضى بخروجه على الدين ، وأن سلطان المرابطين — على بن تاشفين — أمر بإحراقه نزولا على قرارات معاهد قرطبة ومراكش وفاس والقيروان ؛ وكان هذا أول نبأ تلقاه الغزالى عن مصير كتابه فى المغرب ، فبدا عليه التأثر لهذه المفاجأة ، ودعا على كل من أنكر كتابه أو أحرقه ، وخص على بن يوسف بلعنته ورفع يديه بالدعاء قائلا : « اللهم مزق ملكهم كما مزقوه ، وأذهب دولتهم كما أحرقوه » ، فقال أبو عبد الله : « أيها الإمام ادع الله أن يجعل ذلك على يدى » ؛ فقال : « اللهم اجعله على يد هذا الرجل »[٢] .

وربما بعث هذا الحادث إلى أبى عبد الله فكرة بأنه مكلف بأداء رسالة إلهية ؛ ذلك أنه ما كاد يعود إلى وطنه فى سنة ٥١٠ هـ (١١١٦ م) حتى بدأ يبث تعاليمه الجديدة فى كثير من مدن المغرب ؛ وقد أثار بغريب زيه ؛ وبالغ زهده وورعه وتقشفه ، وخطبه القوية الحارة التى يشدد النكير فيها على مثالب الطبقة العليا ، ونقائص الرجل العادى ، بين الناس أيما اهتمام ، فهرع الناس إلى سماعه من كل صوب ؛ وكان يخلب ألباب المتبرمين من شظف العيش ، بما يستعرضه من ألوان الغطرسة والمرح والترف التى يغرق فيها البلاط والأكابر ؛ وكان من الطبيعى أن يهتم ولاة المدن التى يخطب فيها باحتشاد الناس من حوله ، وأن يعتبروا هذا « النبى » الجديد مهدداً للنظام والأمن ؛ ولكن الرجل الفطن كان يظفر بالنجاة

(١) كتاب الغزالى المشار إليه هنا هو مؤلفه المشهور إحياء علوم الدين ؛ وقصة الحكم عليه وتكفير مؤلفه مشهورة فى تاريخ الأندلس ، (راجع فى ذلك الحلل الموشية ص ٧٥، ٧٦ ، والمراكشى ص ٩٩) .

(٢) راجع الحلل الموشية ص ٧٦ ، ٧٧ ؛ وتروى هذه الواقعة أحياناً بصور أخرى .

فى كل مرة ، إما بالفرار فى الوقت المناسب أو بالاختفاء عند بعض الأصدقاء المخلصين ؛ وكان قد التف حوله بعض التلاميذ الذين يخلصون له من أعماق قلوبهم ، واصطفى من بينهم بالأخص فتى جيــل الطلمة هو عبد المؤمن بن على [١] ؛ فعنى بتثقيفه فى تعاليمه الجديدة أتم عناية واختاره وزيراً .

وبعد أن طاف أبو عبد الله بكثير من بلاد المغرب واعظا ، وحشد من حوله الأنصار والتلاميذ أينما حل ، سار بصحبة أخلص تلاميذه إلى مراكش عاصمة المرابطين . ثم قصد يوم الجمعة إلى مسجدها الجامع وقت الصــلاة ، وكان غاصا بالمصلين ؛ وجلس فى المــكان المخصص لأمير المسلمين بين استحسان الجمهور وإعجابه ؛ ولما أراد بعض سدنة الجامع أن يبعده عن موضعه التفت إليــه فى هدوء وحزم وتلا عليه الآية : « وأن المساجد لله » ، وأخذ يفسرها ، والجمهور يرمقه بمنتهى الإعجاب والتقدير .

ولما جاء سلطان المرابطين ليشهد الصلاة ، نهض الحضور جميعاً لتحيته كالعادة إلا أبا عبد الله فانه لم يتحرك من موضعه ، ولم يرمق الأمير ، ولم يبد أقل إشارة تشعر باهتمامه بأمره ؛ فلما انتهت الصلاة ، نهض لتحية الأمير وقال له ما يأتى : « غيِّر المنكر وارفع الظلم ببلادك ، فأنت المسئول عن رعيتك أمام الله » ؛ فألفى الجمهور قوله صوابا ، وأيده باعتبار أن ما قاله حق ؛ ولــكن عليا لم يجب بشىء ، وظن أن محدثه من أولئك الزهاد الورعين المنقطعين إلى العبادة ، والذين لا حرج عليهم فى أن يحدثوا الأمير بمثل ذلك ؛ فسأله عندئذ عما إذا كانت له حاجة ؛ فأجابه أبو عبد الله : « لست بطالب دنيا ، ولا حاجة لى بها غير أنى آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر » [٢] .

ولم يمض سوى قليل حتى زاد اهتمام علىّ بأمر هذا الرجل ؛ وكان أبو عبد الله

---

(١) راجع الحلل الموشية ص ٧٧ .

(٢) راجع الحلل الموشية ص ٧٣ ؛ وروض القرطاس ص ١١١ ؛ وفى الرواية أن الشق الأخير من الحديث بين الأمير وأبى عبد الله لم يقع فى المسجد ، ولــكنه وقع فى القصر حيث استدعى الأمير أبا عبد الله عقب الصلاة .

يعظ فى المدينة ، فى الميادين العامة وفى المساجد ، فى جموع غفيرة ؛ ويحمل على الملاذ الدنيوية ، وعلى فساد الطبقة العليا بين هتاف الجمهور واستحسانه ؛ فأمر علىّ العلماء بامتحان الرجل ، وإصدار رأيهم فيه ، وقال العلماء بأن أبا عبد الله لا يبغى بالتحدث عن البدع والمدهشات سوى استهواء العامة وإثارتهم ، وأنه يجب لصون الأمن والنظام أن يحال بين الرجل وبين الناس ، وأن يزج فى الحال إلى السجن ؛ وقال بعض الفقهاء للأمير : «أبقاك الله ، هذا الرجل استعمله فى الكبول ، وإلا قصده يسمعك الطبول »(١).

ولكن الوزير عثمان بن عمر عارض فى هذا الرأى بحجة أن أخذ أبى عبد الله بالعنف يدل على خوف الأمير منه ، وأنه يجب أن لا تعلق مثل هذه الأهمية على رجل حقير مثله ؛ فوافق الأمير على هـذا الرأى ، ولم يتخذ أى إجراء عنيف ضد أبى عبد الله ، وترك حرا فى سبيله (٢) ؛ ولكنه أبعد من مراكش على ما يظهر أو لقى صعابا فى البقاء بها ، فغادرها بعد قليل إلى فاس ، وتابع مواعظه هنالك ؛ ثم عاد إلى مراكش بعد بضعة أعوام ، ليستأنف الوعظ بها بمحضر من البلاط ، وعاد صوته يدوّى فى الميادين والمساجد ضد الفساد والمنكر وشرب الخمر والانغماس فى اللهو ؛ ثم عمد إلى آلات الطرب فأخذ يحطمها بحماسة ، وكانت تستعمل للرقص الخليع والغناء المستهجن ، ومضى فى وعظه غير حافل بالسلطات ؛ ولم يقصر حملاته على المعاصى وحدها ، بل تعداه إلى الحملة على أشخاص مرتكبيها والتنويه باستحقاقهم للعقاب ؛ فعندئذ بذل رجال البطانة — وهم من خاصة المنغمسين فى اللهو والترف — كل ما استطاعوا للإيقاع به ، وأبدوا لسلطان المرابطين ما يحيق من الأخطار بحكومته إذا ترك هذا الواعظ المثير وشأنه دون عقاب ؛ فاستدعاه علىّ إليه وخاطبه برفق ، وسأله عما إذا كان حقا ما يقال عنه ، وهو أنه يحرض الناس على الثورة ، فأجابه أبو عبد الله : « ماذا يمكن أن يقال لك عنى ، إلا أنى رجل

---

(١) الحلل الموشية ص ٧٤ . وقد استعرنا هنا ألفاظ الرواية العربية ، وهى التى ترجمها المؤلف .

(٢) راجع الحلل الموشية ص ٧٤ .

فقير ، أطلب الآخرة ، ولست بطالب دنيا . وليس لى فى هذه الدنيا شأن غير شأنى ؛ وهو ليس فى الواقع من شؤون هذه الدنيا » فدهش على لجوابه ؛ ولما لم يكن فى نفسه منه شىء رأى أن يحاول حسم الأمر بالمعروف ، فاستدعى فقهاء البلاط لمناظرته بحضرته فى آرائه وتعاليمه الجديدة ؛ فطال الجدل والنقاش بين الفريقين[1] ولم يرتح علىّ لأقوال أبى عبد الله ، ورأى أخيراً أن ينزل عند نصح علمائه فى العمل على صون السكينة فى عاصمته ، فحظر الوعظ على الداعية ، وأمر بنفيه من مراكش ، خصوصا وقد اجترأ أبو عبد الله ذات يوم ، حينما لقى أخت علىّ فى الطريق حاسرة قناعها ، فأنبها على تبذلها ، ثم لطمها فوقعت من على جوادها[2] .

وما أن بدأت مطاردة أبى عبد الله (ابن تومرت) على هذا النحو حتى كتب النجاح لقضيته . ذلك أنه سار برفقة عبد المؤمن وزيره وأخلص تلاميذه إلى موضع منعزل بقرب مراكش ، وابتنى له هناك كوخا بين القبور ، فهرعت إليه جموع غفيرة من الناس تطلب الاستماع إليه ، والتف حوله ألف وخمسمائة رجل كانوا على استعداد دائم لأن يعملوا كل شىء ، وأن يحتملوا كل شىء فى سبيل أستاذهم وسيدهم .

وبدأ أبو عبد الله من تلك اللحظة يصف حكومة المرابطين بأشنع النعوت ، وكيف أنها عاكفة على نشر الإلحاد والفساد والمنكر والفجور ، وأنه يجب قتالها وإلا أصيب الاسلام فى الصميم ؛ وهنا بدأ لأول مرة يتلقب بالمهدى وهو الذى ورد ذكره فى الحديث ، بأنه يقوم برد الدين الصحيح ؛ وتطهير قلوب المؤمنين من الشوائب ، وإرشادهم إلى طريق الحق والعدل ومعرفة المولى الفرد الصمد ؛ وذاع صيت أبى عبد الله بسرعة وكثر أنصاره كثرة جزعت لها حكومة المرابطين

---

(١) أورد صاحب روض القرطاس خلاصة المناقشات الكلامية التى وقعت فى هذا المجلس بين ابن تومرت وبين مناظريه (ص ١١٢) .

(٢) إن إيراد هذه الواقعة على هذه الصورة فيه تحريف ؛ وخلاصته الواقعة كما رواها ابن خلدون هو أن ابن تومرت « لقى ذات يوم الصورة أخت على بن يوسف حاسرة قناعها على عادة قومها الملثمين فى زى نسائهم ، فوبخها ، ودخلت على أخيها باكية لما نالها من تقريعه » (ج ٦ ص ٢٢٧) .

وأصدر عليّ فى الحال أمره بالقبض عليه وإعدامه ؛ ولكن أبا عبد الله وقف على ذلك الأمر فى حينه ، وفر من مطارديه سريعا ، وقصد إلى اغمات ، ثم قصد منها إلى تينمال (أو تينملل) من بلاد السوس يصحبه رهط من أخلص أنصاره .

وهنالك ، فى وطنه ، عكف يحدث جموع الشعب التى تتزايد كل يوم من حوله ، عن رسالته الإلهية باعتباره المهدى المنتظر ، ويطلب إليهم الثورة ضد المرابطين الملاحدة . ولما كان المرابطون قد أثاروا بغطرستهم ، وترفهم ، وعدم حرصهم على كثير من التقاليد الدينية سخط المسلمين المحافظين ، فقد ألفت تعاليم المهدى وتحريضاته الاستحسان والتأييد فى كل مكان . وبادر النبى الجديد من جانبه إلى انشاء نوع جديد من الدولة ، ليتم بذلك ثورته على حكم المرابطين ، وذلك بأن بايعه عشرة من أخلص أصدقائه وتلاميذه تحت شجرة خرنوب ، باعتباره الامام المهدى ؛ بايعوه على الطاعة المطلقة ، وأن يفتدوه بأرواحهم وأموالهم ،[1] وبايعه من بعدهم كثير من رجال القبائل ، وأطلقوا من ذلك الحين على أنفسهم اسم الموحدين ،[2] (ومعناه الذين اتحدوا على الإيمان بوحدة الله) ؛ وقسم أبو عبد الله أتباعه إلى عشر طبقات ، أولاها وأرفعها طبقة الجماعة أو العشرة وهم أول من بايعه ، وكانوا يشاطرونه الحكم ، ويتولون لديه مناصب الوزارة والقيادة . وتتألف الثانية من أهل الخمسين ، والثالثة من أهل السبعين ، وهما ضرب من المجالس النيابية ؛ ويتولى أعضاؤها فى الوقت نفسه مناصب الادارة ، وتنظيم أعمال

---

(١) وهذه هى أسماء صحب المهدى العشرة ، وهم عبد المؤمن بن على ، وأبو محمد البشير ، وعبد الله بن ملويات ، وأبو حفص بن يحيى الهنتاتى ، وأبو حفص عمر بن على أزناج ، وسليمان بن مخلوف ، وابراهيم بن إسماعيل الخزرجى ، وأبو محمد عبد الواحد الحضرمى ، وأبو عمران موسى بن تمار ، وأبو يحيى بن بكيت ؛ وسمى هؤلاء العشرة بالمهاجرين الأولين وبالجماعة . (راجع روض القرطاس ص ١١٣ والحلل الموشية ص ٧٩ والاستقصاء ج ١ ص ١٣٦ ، والمراكشى ص ١٠٤) ، وأورد ابن خلدون منهم أسماء أخرى (ج ٦ ص ٢٢٧) .

(٢) قال ابن خلدون فى تعليل هذه التسمية : « وكان (أى المهدى) يسمى أصحابه بالموحدين تعريضا بلمتونه فى أخذهم بالعدول عن التأويل وميلهم إلى التجسيم » (ج ٦ ص ٢٢٩) وراجع أيضاً روض القرطاس ص ١١٤ ؛ والحلل الموشية ص ٨٠ .

البر ، ويعاونون العشرة على القيام بأعباء الحكم ؛ وتتألف الرابعة من العلماء (الطلبة) ؛ والخامسة من الحفاظ (صغار الطلبة) ؛ والسادسة أهل الدار (أسرة المهدى) ؛ والسابعة أهل هرغة (قبيلة المهدى) ؛ والثامنة أهل تينمال ؛ والتاسعة أهل جرميوت ؛ والعاشرة من الجند من مختلف القبائل[1] ؛ وكان أصحاب المهدى يومئذ زهاء عشرين ألفا ، اختار منهم عشرة آلاف وزودهم بالأعلام البيضاء (وكانت أعلام المرابطين سوداء) ، ووضعهم تحت قيادة أبى محمد البشير ، أحد العشرة المختارين .

وكان على بن تاشفين فى اسبانيا حينما علم بأهبة أبى عبد الله لمحاربته ، فبعث فى الحال جيشا تحت إمرة ولده الأمير أبى بكر لمقاتلة الثائر ، وكانت قوى الموحدين قد بلغت عندئذ حدا لم يجرؤ معه قائد المرابطين على نزالهم ، فانتظر الأمداد ؛ فلما وصلته تقدم لقتال الموحدين ، ولكن رعباً فجائيا سرى إلى صفوف المرابطين ، فركنوا إلى الفرار قبل أن يبدءوا القتال ، وتركوا النصر لأعدائهم (سنة ٥١٦ هـ — ١١٢٢ م) . وجاء جيش آخر من المرابطين ، فكان أقل خوراً من سابقه ، والتحم مع الموحدين فى معركة دموية ، ولكنه هزم وألجئ إلى الفرار ؛ ثم جاء جيش ثالث ، فلقى مالقى سابقه . وبدا كأن المرابطين فاتحى إفريقية قد فقدوا كل قواهم وكل منعتهم ؛ واشتد ساعد المهدى ، وأخذ يدعو على بن تاشفين إلى الخضوع ؛ وفقد المرابطون أنفسهم كل ثقة فى جيوشهم . ولما سار أخو على الأمير الشجاع أبو الطاهر تميم ، الذى اشتهر فى اسبانيا بحروبه ضد النصارى ؛ على رأس جيش جديد لقتال الموحدين ، ركن جنده فى الليل إلى الفرار قبل أن يبدو لهم العدو ، وهلك كثير منهم تحت جنح الظلام فى مفاوز ووهاد عميقة ، ولعلهم لو خاضوا القتال بشجاعة لنجوا .

(١) راجع الحلل الموشية ص ٧٩ ؛ وقد أورد من أصحاب المهدى أربع طبقات أخر ، هم أهل جنفيسة ، وأهل هنتاتة ، فالجند ، فالغزاة والرماة ؛ ولكن المؤلف أجمل هذه الطبقات فى الطبقة العاشرة .

وعمد المهدى بعد هذه الانتصارات المتوالية — التى يرجع معظم الفضل فيها إلى تعصب الموحدين — إلى مدينة تينمال فحصنها وجعلها قاعدته ؛ وسير منها البعوث إلى مراكش تعيث فى أراضيها ، وتنزل بالمرابطين ويلات تجل عن الوصف ، ولا يستطيعون لها انتقاما . ولم يكتف المهدى بذلك ، واعتقد عندئذ أنه يستطيع غزو العاصمة المرابطية ، وتحطيم سلطان علىّ . ولما كان يومئذ مريضاً طريح الفراش ، فقد عهد بالقيادة إلى وزيره أبى محمد البشير ، فسار إلى مراكش على رأس جيش قوامه أربعون ألف مقاتل ؛ ومع أن علىّ بن يوسف ساق للدفاع عن عاصمته مائة ألف مقاتل ؛ فقد لقى على يد الموحدين المتعصبين هزيمة شنيعة ؛ وبدأ الموحدون فى الحال حصار مراكش .

وبدا لأول وهلة أن مراكش مع ما أصاب المرابطين من الهزيمة والانحلال ، لا تستطيع بالرغم من حاميتها الكبيرة المؤلفة من أربعين ألف مقاتل أن تقاوم العدو طويلا . ولكن ما تلقاه المرابطون من عون محمد والى سجلماسة ونصارى الحرس الخاص قوّى عزائمهم ، وخصوصا عندما التقى نصارى الحرس خارج المدينة بقوة من الموحدين فهزموها ودلوا بذلك على أن الموحدين ليسوا من المنعة كما بدوا . وعلى أثر ذلك نشبت معركة قاتل المرابطون فيها كالأسود ذاكرين أيام نصرهم السابقة ؛ وقتل خلالها قائد الموحدين الشجاع أبو محمد البشير أعظم قواد المهدى ، وسقط معه فى الميدان معظم جنده (سنة ٥١٩ هـ — ١١٢٥ م) . وقاد فلول الجيش عبد المؤمن بن علىّ أحد العشرة ، وارتد نحو أغمات وهو يشتبك مع مطارديه فى معارك مستمرة ؛ وسقط خمسة آخرون من العشرة فى ذلك الارتداد ؛ ولما وقف المهدى على أنباء هذه الهزيمة أبدى ارتياحه حينما علم أن عبد المؤمن لايزال حيا ، وقال : إذاً فقد بقيت الغلبة لنا [١] .

ولم يترتب على فوز المرابطين على الموحدين أن أنقذت العاصمة فقط ، بل

---

(١) هذه عبارة المؤلف ؛ ولكنها وردت فى الحلل الموشية كما يأتى : « ولما وصل الفل الى المهدى وفيهم أربعة من أصحابه وعبد المؤمن معهم ، وجدوه بتينمال مريضاً ، « فقال لهم أسلم عبد المؤمن ، قالوا نعم ، قال منذ عاش عبد المؤمن بقى » (ص ٨٦) .

ترتب عليه بالأخص أن عاد كثير من القبائل المنشقة إلى الطاعة ، واستطاع علىّ بعد أن أغفل شؤون الأندلس مدى حين أن يعود إلى العناية بها . وكان ألفونسو الأرجونى قد قام فى ذلك الوقت بغزوته ضد غرناطة ، وبدأ النصارى المعاهدون والمسلمون أنفسهم يحاولون التملص من نير المرابطين المرهق ؛ فعمل علىّ على تغريب معظم النصارى المعاهدين إلى إفريقية [1] ، وقامت الحاميات القوية فى المدن بكبح جماح المسلمين ؛ وبعث علىّ ولده تاشفين بجيش جديد إلى الأندلس لكى يقاتل النصارى وليشغل بذلك اهتمام المسلمين . وقد فصلنا أخبار هذه الغزوة فيما تقدم .

وفى أثناء ذلك أنفق الموحدون فى قلعتهم المنيعة تينمال ثلاثة أعوام فى التأهب لاستئناف الحرب ، وظهرت خلال ذلك قوة نفوذهم وما تكنه القبائل لهم من الإخلاص ؛ وأدرك علىّ نفسه أن العاصفة التى تنذر باجتياح ملكه لم تخب بعد ، فعمل منذ هزيمته لأعدائه على تحصين مراكش وإعدادها للدفاع .

ولما أرسل المهدى — وكان لايزال مريضاً — عبد المؤمن إلى الميدان على رأس جيش قوامه ثلاثون ألف مقاتل عادت القبائل المنشقة عليه إلى طاعته ، وهرعت إلى لواء عبد المؤمن فبلغت قواته مبلغاً عظيما ، واستطاع أن يلقى جيشاً من المرابطين قوامه مائة ألف مقاتل بقيادة الأمير أبى بكر بن على ؛ وبعد قتال دام ثمانية أيام نشبت فيه عدة معارك انتصر الموحدون على المرابطين كرة أخرى ؛ وطارد الموحدون أعداءهم حتى أبواب مراكش ، وضربوا الحصار حولها مرة أخرى (رجب سنة ٥٢٤ هـ — ١١٣٠ م) ؛ ولكن عبد المؤمن اعتبر بما وقع للموحدين فى الحصار الأول ، فاكتفى بنصره وعاد بجيشه إلى تينمال .

وكان المهدى قد اشتد به المرض والضعف ، فجمع من حوله صحبه وودعهم وداعا مؤثراً شاعراً بدنو أجله . وتختلف الرواية العربية فى أمر موته ، فالبعض يقول إنه توفى بعد ذلك بقليل فى شهر رمضان سنة ٥٢٤ هـ (سبتمبر سنة ١١٣٠) ،

(١) راجع الهامش الخاص بذلك فى ص ١٥٧ .

والبعض يقول بأنه عاش طويلا بعد ذلك ، أو على الأقل بأن الشعب قد حُمل على الاعتقاد بأنه مازال على قيد الحياة [١].

وكان أبو عبد الله بن تومرت الملقب بالمهدى ، متوسط القد ، أسمر اللون ، خفيف العارضين ، أسود الشعر ، جميل العينين ؛ وكان وافر الفصاحة واسع المعرفة ؛ وكان فى حياته الخاصة كثير التقشف والزهد ؛ بيد أنه كان صارما سفاكا للدماء ، يستبيح دم أعدائه ودم أصدقائه إذا لم يصدعوا فى الحال بأمره ؛ وكان إذا أراد المبالغة فى عقاب أحد أمر بدفنه حيا ؛ وكان يذكى حماسة جنده عما يعدهم به من عظيم الثواب فى جنات الخلد التى تنتظرهم إذا استشهدوا فى سبيل الدين الصحيح ؛ وكان يلقنهم صلوات صغيرة يتلونها فى الحرب فى الذهاب والوقوف والقتال ، اقتصاداً فى الوقت ولكيلا يضطروا إلى الركوع والسجود كما يحدث فى الصلوات المعتادة ؛ وهكذا كان المهدى يدفع بأصحابه إلى الحرب يحدوهم التعصب والبراعة ؛ وكان نصيبه الفوز [٢].

٢ — حروب الموحدين بقيادة عبد المؤمن ضد علىّ بن يوسف

ولما توفى ابن تومرت ، اجتمع الأئمة الأربعة الباقون من العشرة ، وجماعة الخمسين ، وجماعة السبعين لانتخاب زعيم جديد ؛ فاجتمعت كلمتهم جميعاً ، على أنه ليس أجدر بهذا المنصب من عبد المؤمن أحد العشرة ؛ فقد اصطفاه المهدى كأول تلاميذه وأخلصهم ، واتخذه وزيره ، وندبه للصلاة مكانه ، وعهد إليه بأمر دفنه ، وكثيراً ما صرح بأنه ما دام عبد المؤمن على قيد الحياة ، فلا خوف على سلطان

---

(١) تتفق معظم الروايات الاسلامية على أن وفاة المهدى كانت فى رمضان سنة ٥٢٤ هـ على اختلاف فى يوم الوفاة ، فالبعض يقول إنه يوم ١٣ رمضان ، والبعض يقول إنه ١٤ رمضان ، والبعض يقول إنه يوم ٢٥ رمضان . وفى الحلل الموشية أنه لما توفى المهدى كتم أصحابه موته مدى حين (راجع روض القرطاس ص ١١٧ والحلل الموشية ص ٨٦) ، ويقول ابن خلدون إن وفاة المهدى كانت سنة ٥٢٢ هـ (ج ٦ ص ٢٢٩) .

(٢) راجع وصف المهدى وخلاله وخلاصة تعاليمه فى روض القرطاس ص ١١٧ و١١٨ . ونشر الأستاذ لافى بروفنسال مجموعة من النبذ والفصول المتعلقة بتعاليم المهدى ورسائله منسوبة لابن البيدق تحت عنوان : Documents inédits d'Histoire Almohade.

الموحدين ، وقد أبدى عبد المؤمن فى الحرب أيما براعة ، وكان هو المنقذ عند المحنة ، وهو الظافر دائماً كلما قاد الجيش ؛ فهذه الخلال البديعة التى لم تتوفر فى غيره كما توفرت فيه ، تجعله خير أهل للزعامة ؛ فأجمعوا فى الحال على اختياره زعيمهم وسلطانهم المطلق ، ولقبوه بالخليفة وأمير المؤمنين ، وأقسموا له يمين الطاعة ، مبتدئين بالثلاثة العشرين فجماعة الخمسين ، فجماعة السبعين ، وتلاهم باقى الصحب والأنصار من الموحدين .

وقد رويت رواية أخرى عن تولية عبد المؤمن الزعامة لا يمكن الإغضاء عنها تماماً ؛ وخلاصتها أن المهدى توفى عقب هزيمة الموحدين الأولى ، ولم يعلم بموته سوى عبد المؤمن ؛ فحرص على إخفاء موته ، ولبث مدى ثلاثة أعوام بدير شؤون الحكم باسم المهدى ، كأنما هو حى ؛ ولما كان يعلم أن زملاءه الباقين من العشرة لهم أن يطمحوا مثله إلى الزعامة ، وكان يخشى أن تنهار المملكة من الخلاف والحرب الأهلية ، فقد رأى أن يضمن الولاية لنفسه بحيلة بارعة ؛ فربى أثناء قيامه بالحكم شبلا ، روضه حتى صار أنيساً كالكلاب ، ودرب عصفوراً على أن ينطق بالعربية بهذه الكلمات : « النصر والتمكين للخليفة عبد المؤمن أمير المؤمنين ، سند المملكة وناصرها » ؛ ولما تم تدريب العصفور على أن ينطق بهذه الكلمات نطقا صحيحا ، وروض الأسد على أن يقوم بجميع ضروب الخضوع والطاعة لسيده ، ابتنى عبد المؤمن فى ظاهر تينمال قاعة كبيرة ، واتخذ جميع التحوطات التى تمكنه من استعمال الأسد والعصفور ؛ ودعا شيوخ الموحدين وأكابرهم إلى الاجتماع ، وجلس فى الصدر فى مكان عال ، ونعى المهدى إلى الحضور بين مظاهر الحزن العميق ، وقال إنه أعرب فى كلماته الأخيرة عن أمنيته فى أن ينبذ الموحدون أهواءهم ومصالحهم الشخصية ، وأن يختاروا من بينهم رجلا واحداً يولونه الزعامة والسلطان المطلق . ولما انتهى من مخاطبة الحضور بذلك ، وساد الصمت العميق ، إذا بناطق ينطق فجأة بهذه الكلمات بلسان فصيح ، وكأنما نزل من السماء : « النصر والتمكين للخليفة عبد المؤمن أمير المؤمنين ، سند المملكة وناصرها » ، وفى الوقت نفسه

فتح عبد المؤمن بابا خفيا كان يحجب الأسد ، فانطلق بين الحضور مزمجراً ، وهو منفوش الشعر ، مكشراً عن أنيابه ، رافعاً ذنبه ، وعيناه تقدحان بالشرر ، فذعر الحضور وارتعدت فرائصهم ؛ وبادر عبد المؤمن إلى الأسد ، فأنس إليه فى الحال بين دهشة الحضور ، وأخذ يلعق يديه فى هدوء ؛ ولما رأى الموحدون هذه المعجزة لم يترددوا لحظة فى اختيار ذلك الذى دعاه الوحى إلى الرياسة ، لهم خليفة وزعيما ، وبايعوه فى الحال على الطاعة ؛ وبقى الأسد من ذلك اليوم رفيقاً لعبد المؤمن مثل الكلب الوفى ، يرافقه حتى فى المسجد أثناء الصلاة . وكانت ولاية عبد المؤمن الخلافة فى سنة ٥٢٥ هـ (١١٣٠ م) ؛ وتسمى من ذلك الحين « بالأمير بأمر الله »[١] .

ورأى عبد المؤمن فى الحال أن يمكّن لسلطانه بالأعمال الحربية الباهرة ؛ وأخذ خلال أعوام قلائل يسير من نصر إلى نصر ، ومن فتح إلى فتح ؛ ولبث حيناً أمام أسوار مراكش يحاصرها ، واشتد ساعده بمن انضم إليه من القبائل التى انشقت على المرابطين ، وأخذ نجم المرابطين فى الأفول يوماً بعد يوم ؛

(١) ورد فى روض القرطاس أن بيعة عبد المؤمن الخاصة كانت فى سنة ٥٢٤ هـ ، وبيعته العامة فى سنة ٥٢٦ هـ (ص ١٢١) وفى الحلل الوشية أن بيعته كانت سنة ٥٢٤ هـ (ص ١٠٧) ويقول ابن خلدون إن وفاة المهدى كانت سنة ٥٢٢ ، وإن عبد المؤمن وأصحابه كتموا وفاة المهدى ولبثوا يباشرون الأمور باسمه حيناً . ثم اختاروا عبد المؤمن للولاية (ج ٦ ص ٢٢٩) ، وفى الاستقصاء أن ولايته كانت سنة ٤٢٦ هـ (ص ١٠٩) ، ويقول المراكشى إن المهدى اختار عبد المؤمن لولاية عهده قبيل وفاته وحث أشياخ الموحدين على اختياره (ص ١٠٨ و١٠٩) ، ويورد صاحب روض القرطاس رواية الأسد والعصفور وما إليها مفصلة ، وهو فى الواقع مرجع المؤلف فى معظم مايورده فى هذا الفصل (ص ١٢٠) ، ويورد فى ذلك أيضاً أبياتا لشاعر اسمه أبو على نقلها المؤلف فى تعليقاته مترجمة للاتينية (ج ١ ص ٤١٣) وهذه هى :

أنس الشبل ابتهاجا بالأسد ورأى شبه أبيه فقصد
ودعا الطائر بالنصر لكم فقضى حقكم لما وفد
أنطق الخالق مخلوقاته بالشهادات فكل قد شهد
إنك القائم بالأمر له بعدما طال على الناس أمد

ووردت قصة العصفور والأسد وهذه الأبيات فى الحلل الوشية (ص ١١٣) ، ولكن بصورة أخرى ولمناسبة لا علاقة لها بتولية عبد المؤمن .

ومنضبت خزائن علىّ بما أصابه من الهزائم المتوالية ، وفقد الولايات والمدن وما تكبده في الحرب من نفقات باهظة ؛ وترتب على نقص عدد رعاياه أن زاد عبء الضرائب ، فبث ذلك روحا من السخط في الجهات التي بقيت على إخلاصها ، هـذا إلى أن الشعب فقد عندئذ كل شجاعة ، وفقد كل ثقة في المرابطين .

واتخذ عبد المؤمن لقب أمير المؤمنين ؛ وفي العام الرابع من ولايته أمر بسك نقود جديدة ، جعلت مربعة الجوانب تمييزاً لها من نقود المرابطين ؛ ونقش على أحد وجهيها ما يأتي : « لا إله إلا الله ، ولا حول ولا قوة بالله » ، ونقش على الوجه الآخر : « الله مولانا ، ومحمد رسولنا ، والمهدي إمامنا » .

ولما توغل عبد المؤمن في فتوحاته ، واشتد الخطر على المرابطين ، دعا علىّ ابنه تاشفين — وكان بالأندلس يقوم بمحاربة النصارى بحزم ، ويحرز النصر عليهم أحياناً — إلى إفريقية ، ليعاونه في شؤون مملكته المضطربة ، فكان الداء بذلك أشد وأنكى ، لأن الولايات الأندلسية التي بقيت تحت سيادة المرابطين ، كانت منذ بعيد تعاني من غطرسة ولاتها الإفريقيين وظلمهم ؛ وكان أبو الطاهر تميم ، وتاشفين قد استطاعا بكثير من الجهد والحكمة والرفق أن يكبحا جماح الثورة في مدن الأندلس ، وفي المدن الشرقية . فلما غادر تاشفين الأندلس ، نفد صبر الأندلسيين مما يعانونه من فداحة الضرائب وعسف الولاة ، وقامت الثورة على المرابطين في معظم المدن ، وكان سلطانهم قد اضطرب في إفريقية تحت ضربات الموحدين ؛ ولما عاد تاشفين إلى مراكش اصطحب معه صفوة الجند المرابطين ، هذا إلى أربعة آلاف من النصارى المعاهدين الذين تمرسوا في الطعان والفروسية ، جعلهم جزءاً من حرسه الخاص ؛ وكانت التجارب المحزنة قد دلت على أن النصارى الذين يجهلون تعاليم المهدي الدينية ، هم أفضل في مقاتلة الموحدين من المغاربة المسلمين الذين كان معظمهم يرى في المهدي نبيا ورسولا . على أن تاشفين لم يكن أسعد حظا في مقاتلة عبد المؤمن من القواد السابقين الذين قادوا المرابطين إلى مقاتلته ؛ فقد دارت عليه الدائرة في جميع المواقع التي نشبت بالرغم من ضخامة

قواته ، وأصيب بخسائر فادحة ؛ وهكذا رأى على أمله الأخير الذى علقه على براعة ولده الحربية ، يخبو ويتبدد ؛ وعجلت الأحزان والهموم أجل الملك الشيخ ، فتوفى بقصره فى مراكش فى رجب سنة ٥٣٧ ﻫ (فبراير سنة ١١٤٣ م) وهو فى التاسعة والخمسين من عمره ، بعد حكم دام زهاء سبعة وثلاثين عاما ، يعذبه الاعتقاد بأن سلطان أسرته غدا على وشك الانهيار ؛ وأخفى موته مدى ثلاثة أشهر .

٣ — حروب تاشفين مع عبد المؤمن

نخلفه على العرش تاشفين أكبر أولاده ؛ وبايعه على الطاعة كبراء المملكة ووفود الولايات التى لم يملكها الموحدون بعد ؛ وبعث بولايته إلى حكام الأندلس مثل أبى زكريا يحيى بن غانية ، وعثمان بن أضحى ، وعمه على بن أبى بكر ، فبعثوا إليه فى الحال بطاعتهم ، ودُعى له فى الصلاة بمساجد الأندلس .

وفى تلك الأثناء ، كان عبد المؤمن يخرج من معاقله الجبلية بين فاس وتلمسان ويثخن فى البسائط ، ويلحق بالمرابطين أعظم الخسائر ؛ واستطاع تاشفين ذات مرة أن يظفر بقسم من جيش الموحدين وأن يبيده ؛ فاضطر عبد المؤمن من جراء هذه الخسارة أن يلجأ إلى جبال الأطلس الوعرة ؛ ذلك لأنه كان يخشى أن يستمين أعداؤه بكثرتهم على تطويقه فى السهل ، سيما وأن قوته من الفرسان كانت ضئيلة بالنسبة لقوى المرابطين ؛ وكانت قوى تاشفين تزداد تباعا ، وتفد إليه القبائل التى دعيت إلى ميدان الحرب من أوطانها النائية من كل صوب ؛ فلما تكاملت قواته ، سار فى أثر عبد المؤمن ، وكان عبد المؤمن قد ارتد صوب تلمسان ؛ وجمع فى الجبال كثيراً من المؤن ، هذا بينما كان المرابطون يعانون من جراء نقصها أعا عناء ؛ ولما دخل الشتاء ، حل بهذه الأنحاء برد قارس لم يعهد مثله ، واضطر تاشفين فى هذا السهل الأجرد ، أن يحرق الأكواخ والخيام ، والقش ، والحراب ، والسروج ليتدفأ بها الجيش ؛ فلما انقضى الفصل واعتدل الجو ، أطلق عبد المؤمن جنده من الجبال صوب تلمسان لكى تثخن فى بسائطها .

وكان تاشفين قد عانى طويلا من قلة المؤن ، فبذل جهده لحمل عبد المؤمن على الخروج من الجبال وإرغامه على الاشتباك فى معركة ، وأرسل قسما من جيشه إلى الجبال لكى يطوق الأعداء من الجانبين ؛ ولكن عبد المؤمن فطن إلى محاولته ، فانقض بجيشه كالبرق على الحملة التى أرسلها تاشفين ، وكان هؤلاء لا خبرة لهم بحرب الجبال ، فهزمها ومزقها ؛ ثم انحدر من الربى بشدة وعنف إلى السهل حيث كان المرابطون يرمقون زملاءهم الفارين بجزع ؛ ومع أن المرابطين كانوا يتفوقون على أعدائهم فى الكثرة أيما تفوق ، فإن الموحدين سرعان ما أحرزوا النصر ، وركن جيش تاشفين إلى الفرار فى اضطراب عظيم ، وطارد الموحدون فلول الجيش المرابطى إلى مدى بعيد .

ولو حقت مثل هذه الهزيمة على أمير غير تاشفين ، أقل منه عزما وهمة ، لخبت كل شجاعته ؛ ولكن الهزيمة بالعكس شحذت عزمه ، وضاعفت همته ؛ فطلب إلى الولايات التى أنهكتها الحرب أن تبذل جهوداً أخرى ؛ ودعا ولى عهده أبا اسحق إبراهيم من الأندلس حيث كان يشرف على شؤونها ، فعاد إلى إفريقية ومعه من بقى من المرابطين وأربعة آلاف فارس من النصارى المعاهدين ؛ ولم يمض سوى قليل حتى استطاع تاشفين أن يسير إلى قتال الموحدين فى جيش آخر أوفر عدداً وعدة من جيشهم ؛ وكان عبد المؤمن قد امتلأت نفسه كبرياء وثقة بما أحرز من نصر متوال ، فلم يتردد فى لقاء المرابطين ؛ ونظم قواته للحرب تنظيما بديعاً فى شكل مربع ضخم ، فوضع فى الصفوف الأولى أشجع جنده من حملة القنا الطوال والطوارق المانعة ، ومن ورائهم رماة النبال والأسهم ؛ وجعل فى وسط المربع قوة الفرسان ، وأفسح لها فى كل ناحية مخارج تستطيع أن تخرج منها لمهاجمة العدو كما لو كانت فى قلعة . وذلك حتى لا تخل بنظام المشاة[1].

وهجم المرابطون على أعدائهم بشدة ، ولكنهم لم يستطيعوا اختراق صفوف

---

(١) ورد فى الحلل الموشية وصف لهذا التنظيم الحربى الذى وضعه عبد المؤمن لقواته (ص ٩٨) .

الموحدين المنيعة ، التى شهرت حرابها ، وقابلت الماجين بوابل عنيف من القذائف ؛ ولما استنفد المرابطون قواهم فى تلك الهجمات العقيمة ، برز إليهم فرسان الموحدين من الصفوف الداخلية لمربعهم الحربى ، وانقضوا عليهم بشدة ، فارتدوا بلا نظام ، وحقت عليهم الهزيمة ، وفر تاشفين مع فلول جيشه إلى قلعة تلمسان ؛ ولكن عبد المؤمن تبعه إليها ؛ فيمم لفوره شطر وهران ، وهى ثغر يستطيع عند الحاجة أن يفر منه إلى الأندلس ؛ وكان قد بعث إلى حاكم ألمرية أن يبعث إليه بعشر سفائن إلى وهران لكى تحمله وخزائنه وحاشيته إلى الأندلس ؛ ولكن عبد المؤمن استمر فى مطاردة الجيش المنهزم ؛ فما كاد تاشفين يغادر تلمسان حتى طوقها الموحدون ، وسار عبد المؤمن فى قسم من جيشه فى أثر سلطان المرابطين الفار إلى وهران ، وبدأ فى الحال بحصارها وقطع علائقها مع قلعة الميناء ، وأمل تاشفين أن يستطيع مع ذلك أن يفر تحت جنح الظلام من المدينة إلى الميناء دون أن يفطن إليه الأعداء ؛ ولكن شاء طالعه السىء أن يسقط بفرسه أثناء فراره من الربى إلى شاطئ البحر ؛ وفى الصباح وجد الفارس وفرسه ميتين على الشاطئ . ومن الطبيعى أن تكون خاتمة تاشفين مستقى لكثير من الروايات المتعلقة بموته ، وكلها متباينة متناقضة . وأمر عبد المؤمن فسمرت جثة تاشفين إلى شجرة صفصاف واحتز رأسه وأرسل إلى تينمال ليحفظ بها ؛ وبعد ذلك بثلاثة أيام استولى الموحدون عنوة على وهران[1] .

وكانت وفاة تاشفين بن على فى نهاية عام ٥٣٩ من الهجرة (مارس سنة ١١٤٥) ولم يحكم سوى عامين وشهرين ، قضاها فى حروب مستمرة مع الموحدين أعداء أسرته الألداء .

٤ — إبراهيم آخر سلاطين المرابطين فى إفريقية

وما كاد موت تاشفين يعرف فى مراكش حتى بويع ابنه أبو إسحاق إبراهيم ،

(١) راجع الحلل الموشية ص ٩٩ و ١٠٠ ، والمراكشى ص ١١٢ و ١١٣ ، وروض القرطاس ص ١٢٢ .

وكان قد اختير وليا للعهد فى حياة أبيه ؛ ولكن ثار عليه عمه إسحاق بن على ، وكان يطمح إلى انتزاع العرش لنفسه ؛ وهكذا عجلت الثورة حول العرش بسقوط دولة المرابطين التى بدا انهيارها واضحاً فى الأفق .

وفى تلك الأثناء تابع عبد المؤمن خطواته المظفرة بنشاط ؛ فبعد أن استولى على مدينة تلمسان الزاخرة بالرغم من مقاومتها العنيفة التى زهق فيها مائة ألف من سكانها [١] سار إلى حصار فاس ، وهى أعظم مدائن المغرب بعد مراكش ؛ وتحطمت فى البداية كل جهود المحاصرين أمام ثبات الحامية والسكان ، وكان المشرف على الدفاع عنها الأمير يحيى بن على المرابطى وعبد الله بن الجيانى الأندلسى ؛ ولم تنجح محاولة عبد المؤمن فى أن يحطم جدرانها باطلاق المياه عليها ؛ وكان قد حجز مياه النهر الصغير الذى يشق المدينة باقامة السدود ، ثم أطلقها على المدينة دفعة واحدة مؤملا بذلك أن يعاونه التخريب الذى يحدثه الماء على اقتحام المدينة ؛ ولكن عمق الماء حال بين الموحدين وبين دخولها ، واستطاع المحصورون إصلاح ما تصدع من الجدران [٢] ؛ بيد أن الخيانة حققت مالم تحققه القوة ، وذللت ما لم تقو العناصر على تذليله ؛ ذلك أن عبد الله الجيانى الأندلسى اختلف مع يحيى بن علىّ ، وأزمع الانتقام منه ، ففتح للأعداء ما عهد إليه بحراسته من الأبواب (ذو القعدة سنة ٥٤٠ هـ — ١١٤٥ م) ، وانضوى تحت لواء الموحدين ؛ وفر يحيى بن على مع أسرته إلى طنجة ، ومنها إلى الأندلس ؛ وعلى أثر استيلاء الموحدين على فاس التى قتل معظم سكانها وهدمت جدرانها ، سقطت فى أيديهم سراعا معظم المدن المغربية الأخرى .

ولم يترك عبد المؤمن للمرابطين فسحة من الوقت ؛ فأرسل جيشاً إلى الأندلس لكى يخضع الولايات الأندلسية الضطربة لصولته ؛ وسار بنفسه إلى العاصمة

---

(١) الحلل الموشية ص ١٠١ .

(٢) راجع الحلل الموشية حيث يورد رواية مماثلة ؛ ويقول إن المدينة سقطت بالخيانة (ص ١٠١ و١٠٢) ، ولكن صاحب روض القرطاس يذكر بالعكس أن محاولة عبد المؤمن فى إغراق المدينة قد نجحت ، وانتهت بسقوطها فى يده (ص ١٢٣) .

(مراكش) ليضرب بافتتاحها سلطان المرابطين الضربة القاضية . وكانت مراكش يومئذ أزخر المدن الإفريقية سكانا[١] ، وكانت تحميها سلسلة من الحصون القوية . ولما طال أمد الحصار نظراً لما أبداه المحصورون من ثبات يحدوه اليأس ، ابتنى عبد المؤمن فوق رابية بالقرب من أبواب المدينة مدينة جديدة ذات مساجد وأبراج ، وذلك لكي يقنع المحصورين بأنه لن يمل أو يقصر فى الحصار ؛ ولم تفد هجمات المحصورين شيئاً ، وكانت تكلفهم كثيراً من الأرواح . وكان عبد المؤمن بعد أن أيقن بأنه ليس فى الاستطاعة أن تؤخذ المدينة عنوة يؤمل أن يحقق كل شىء بالجوع ، وهو ما يقتضى حصر المدينة حصراً دقيقاً ؛ على أن مراكش نظراً لضخامة سكانها لم تلبث أن شعرت بنقص الأقوات ، واشتد الأمر حتى أكلت الأطعمة الفاسدة والرديئة ؛ بل أكلت الجثث البشرية ، وأكل السجناء فى السجن بعضهم بعضاً ؛ وأفضى الجوع والضيق والأمراض التى ترتبت على شنيع الأطعمة إلى موت كثير من السكان خصوصاً من الشباب والأطفال ، حتى فنى منهم فى وقت قصير حسبما تؤكد الرواية العربية زهاء مائتى ألف نفس[٢] . وكان الأحياء يطوفون بين الموتى كالأشباح ، وقد خارت كل عزائمهم وقواهم ، وساد على المدينة التى كانت بالأمس آهلة زاخرة ، سكون مروع كالسكون الذى يسبق العاصفة ؛ ففى تلك الآونة العصيبة عمد الفرسان النصارى الأندلسيون حسبما قيل — وكانوا من أبرع فرسان إبراهيم ومن خاصة حرسه — إلى مداخلة الأعداء لتسليمهم المدينة بالخيانة ؛ وفى ساعة معينة فتحوا أبواب المدينة التى كانت فى عهدتهم للموحدين ، فدخلوها دخول الذئاب المفترسة إلى حظيرة الأغنام (شوال سنة ٥٤١ هـ — ١١٤٦ م) ، وكان الموت قد أتى على معظم سكانها ، وأضحى

(١) لعل المؤلف يقصد هنا بالمدن الإفريقية مدن المغرب فقط ، وإلا فقد كانت القاهرة المعزية بلا ريب فى تلك العصور كما هى اليوم أعظم المدن الإفريقية عمرانا .

(٢) استقى المؤلف هذه التفاصيل فيما يظهر من الحلل الموشية (ص ١٠٣) ، وهى مطابقة فى معظمها ، ولكن الرواية العربية تقدر هنا عدد الموتى من المحصورين بمائة وعشرين ألفا فقط .

كالأموات من بقى منهم حيا ؛ ولم يلق الغزاة بالقصر حيث كان إبراهيم يدافع مع أشجع جنده سوى معارضة يسيرة . وغمر المدينة سيل مروع من الدماء ، واستمر من الصباح حتى المساء ؛ وأسر إبراهيم وأكابر الزعماء واقتيدوا خارج المدينة إلى حيث كان عبد المؤمن . وتأثر عبد المؤمن بادئ ذى بدء بحزن الأمير ويأسه ، ولاح أنه يميل إلى الإبقاء على حياته والاكتفاء بسجنه ، ولكن بطانته أشارت عليه بإعدامه اتقاء المشاكل فى المستقبل ؛ ولما غلب سلطان المرابطين يأسه وروعه وجثا يلتمس الحياة لم يجن من ذلك سوى الاحتقار والسخط ، وصاح به الأمير سير ابن الحاج وهو من قرابته : « لماذا تريد يامولاى أن تحط من قدرك وأن ترجو هذا البربرى ؛ فلنمت جميعاً دون أن نبدى أقل بادرة من الضعف ، وإن الموت لخير من الحياة يهبها بربرى »[1] . فاستشاط عبد المؤمن لذلك غضبا ، وأمر بالأمير سير فجلد حتى مات ، وأمر بإبراهيم وأشياخ المرابطين فأعدموا ، واستمر القتل فى مراكش ثلاثة أيام هلك فيها من سكان المدينة حسبما قيل ستون ألفاً ؛ وهكذا كفر إبراهيم وهو فى زهرة شبابه عن زلات آبائه ، ولم يحكم سوى عامين وبضعة أيام ؛ وبموته انتهت سيادة المرابطين ، وجلس الموحدون على عرشهم بعد أن شقوا لأنفسهم إليه طريقاً تغمره الدماء ؛ وأخذت المدن والولايات التى لم تخضع بعد تنضوى تباعا تحت لواء عبد المؤمن ؛ وكانت الأندلس آخر من خضع بالرغم من أن عبد المؤمن كان قد أرسل لها جيشا قبل افتتاح مراكش .

والآن وقد أتينا على خاتمة المرابطين ، فلنلق نظرة سريعة على تاريخهم الذى لم يستكمل مائة عام ، فنرى أن قيام دولتهم (كما هو الشأن فى دولة الموحدين) ، يرجع إلى جهود رجل متعصب أخذ بقسط من العلوم ، وقصد إلى تحسين عقائد قومه وأخلاقهم ؛ فبدأ عبد الله بن ياسين بأن أتى إلى قومه اللمتونيين بدين وشرائع حسنة ؛ واستطاع بما أصاب لديهم من التوقير والنفوذ ، أن يغدو قائداً للبدو السذج

---

(١) وردت هذه الواقعة فى الحلل الموشية بصورة أخرى ، وهو أن الأمير أبا إسحاق جعل يرغب لعبد المؤمن فى إبقائه ، فتفل فى وجهه الأمير سير بن الحاج أحد أشياخ المرابطين وقال له : « أترغب إلى أبيك وتشفق عليك . اصبر صبر الرجال » (ص ١٠٤) .

البواسل ؛ ثم قاد المرابطين إلى الفتوح ؛ وقادهم من بعده خلفه المختار أبو بكر بنجاح أعظم ، ووضع أبو بكر خطط مدينة مراكش وأتمها ابن أخيه يوسف ابن تاشفين ؛ وسرعان ما استطاع يوسف بذكائه وبراعته أن ينتزع الحكم من عمه ، وتظاهر عمه بالنزول إليه مختاراً عن سلطانه ولما ذاع صيت يوسف فى الأندلس عقب فتوحه العظيمة فى إفريقية ، وكانت الأندلس قد أشرفت على الفناء أمام ضربات ألفونسو السادس ، آثر الأندلسيون سيادة المسلمين على سيادة النصارى ، واستدعوا فاتح إفريقية لفتح شبه الجزيرة ؛ وأنقذت الأندلس فى موقعة الزلاقة الشهيرة ؛ ولكن هزيمة ألفونسو لم تفض بعد إلى سقوط المملكة النصرانية : ذلك أن يوسف قبل أن يستطيع توجيه قواه لمقاتلة النصارى بنجاح اضطر أن يوجهها لمقاتلة أبناء دينه ، فانقلب من منقذ لهم من العبودية إلى مستبد بهم ، وليس أقل استحقاقاً لبغضهم من ألفونسو . ثم ترك يوسف لولده وخلفه علىّ السلطان على معظم إفريقية والأندلس ، ووصل المرابطون إلى ذروة بأسهم فى موقعة إقليش التى هزم فيها ألفونسو السادس وفقد ولى عهده . ولم يلبث أن سرى الفساد والاستهتار إلى بلاط على ، وأثارت غطرسة الحكام وعسفهم غضب الشعوب المحكومة ، ففقدت الأسرة المرابطية قدسها من جراء عدم مراعاتها للتقاليد الاسلامية ، ومهدت بذلك السبيل إلى أطماع مصلح جديد هو أبو عبد الله ، الذى زعم أنه المهدى المنتظر ؛ وأذكى علىّ بتهاونه وإغضائه فى البداية جرأة أبى عبد الله فاستطاع أن يقضى على هيبتهم ، ثم قضى عبد المؤمن على سلطانهم ؛ ولم يستطع تاشفين ولد على الشجاع أن يقف ظفر المرابطين ؛ فكان حظه أسوأ من حظ أبيه ؛ ثم ترك الملك بعد حكم قصير لولده أبى إسحاق إبراهيم فكأنه لم يتلقه إلا ليفقده . وهكذا انهار فى أعوام قلائل ذلك الصرح الباذخ الذى شاده فى نصف قرن سلاطين أقوياء يحبوهم حسن الطالع .

الفصل الثالث

نهاية سلطان المرابطين ونهاية عصر الإمبراطورية

فى اسبانيا

(سنة ١١٤٤ — ١١٥٧ م) — (٥٣٩ — ٥٥٢ هـ)

---

١ — ثورة الأندلس على المرابطين

كان من المحتوم أن تحدث الحركات والحروب التى هزت إفريقية وأودت بسلطان المرابطين ، كذلك فى اسبانيا ، ثورة واضطرابا وانقلابا فى الحكم ؛ وكان الأندلسيون ومعظمهم من أصول الشام والبلاد العربية قد اعتادوا الحكم المستقل ، فلم يطيقوا ما جبل عليه الولاة المرابطون الإفريقيون من غطرسة وعسف ، ولم يركنوا إلى الطاعة إلا خوفا من القوى الزاخرة التى يستند إليها الطغاة ؛ فلما اقتضت الحوادث الإفريقية سحب هذه القوى ، اضطرمت الأندلس فى الحال بالثورة من أقصاها إلى أقصاها ضد المرابطين ، واعتزم العرب أن يحطموا نير المغاربة معتزين بذكرى أسلافهم الذين أخضعوا المغرب كله لصولتهم .

وكان أول من أذكى ضرام الثورة فى الأندلس أيضاً طائفة دينية تُرجع تعاليمها — مثل المهدى — إلى الغزالى الذى قضى المرابطون بتكفير كتبه ، ومنعت فى الأندلس وألقيت إلى النيران أينما وجدت ؛ وكان عميد هذه الطائفة أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قَسِىّ ، وهو من أصل روى ولد بمدينة شِلْب من أعمال الأندلس ، وكان أول أمره تاجراً ، ولكنه نظم الشعر وبلغ فيه شأوا ؛ وكان رجلا

وافر الذكاء والدهاء ، فاتخذ حياة النبي العربي (ص) نموذجا ، وتشبه به في بعض أحواله ؛ فوهب جميع أملاكه وركن إلى العزلة حيناً ، ثم ذهب إلى المرية فدرس على أشياخها ، وعاد بعد ذلك إلى بلده شلب وأخذ يدرس كتب الغزالي الممنوعة ؛ فلم يمض سوى قليل حتى التفت حوله جمهرة كبيرة من الطلاب ، فجعل نفسه لهم إماما ، وبلغ من إعجابهم به وحبهم له أن غدوا رهن أمره وإشارته . وفي أوائل سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) عقد دروسه ومواعظه بأشبيلية ، وحشد له تلميذه محمد بن يحيى الشلطيشي جمعا من التلاميذ والأنصار ، وسرعان ما ألقى ابن قسي قناع المعلم والواعظ ، وظهر في ثوبه الحقيقي زعيما شعبيا ؛ والظاهر أنه لم يدع في البداية إلى الثورة على المرابطين ، ولكنه دعا الأندلسيين إلى أن يجعلوا من الأندلس دولة مستقلة كما كانت حتى تم انهيار سلطان المرابطين في إفريقية . وليس من المحتمل أن يكون المرابطون قد أيدوا ابن قسي في حركته كما تزعم بعض الروايات العربية الضعيفة .

وكان أول عمل حربي قام به أحمد هو استيلاؤه على حصن مارتلة (أو ميرتلة) المنيع من أعمال الغرب (غرب الأندلس) استولى عليه الأندلسيون بالمفاجأة في صفر سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) ؛ واتخذه ابن قسي قاعدة لحشد قواه وتنفيذ مشاريعه ، وأمده رفيق حداثته وأخلص أنصاره أبو الوليد محمد بن عمر بن المنذر بقوات جديدة ؛ وكان أبو الوليد — وهو من أوجه أهل شلب — رجلا واسع المعرفة نافذ الكلمة ، وكان قد قسم ثروته الكبيرة بين الفقراء ، وعاش مدى حين على شاطىء البحر في عزلة يدرس كتب الغزالي ؛ ثم حالفه أبو محمد بن سيدراي ولد حاكم يابرة .

وبذل هذان الزعيمان جهوداً مدهشة لشد أزر ابن قسي ومضاعفة شيعته ، وتمكينه من الاستيلاء على شلب ويابرة . وامتد ضرام الفتنة بسرعة البرق ، وبث نجاح الثوار ، وظفرهم بهزيمة المرابطين في ميدان الحرب وإخراجهم من القلاع ، الروع في قلوب حامية باجة ، فسلمت المدينة وارتدت إلى إشبيلية . وفي الحال أقيمت حكومة جديدة على رأسها أحمد بن قسي ، وولى على شلب محمد بن عمر ،

وعلى يابرة وباجة ابن سيدراى ، واستطاع هذان الرجلان بفضل وجاهتهما ونفوذهما أن يوطدا دعائم الحكم فى تلك الأنحاء ، ورأى ابن قسى أنه لايقوى وحده على النهوض بالدعوة ، فأشرك معه صديقه محمد بن عمر فى قيادة الجيش وفى الحكم ؛ وتلقب محمد بألقاب الإمارة ، فاتخذ لقب العزيز بالله ، وسرعان ما وفدت إليه من اكسونبة وماردة اللتين انضمتا إلى الثورة أمداد من الجند ؛ فسار فى قواته إلى سهول وادى يانة ، وافتتح قلمتى ولبة ولبلة دون كبير مقاومة ؛ ذلك لأن سكان هاتين المدينتين كانوا يتوقون إلى تحطيم نير المرابطين ، فكانت الخيانة بالأخص هى عون الثوار فى الاستيلاء على لبلة بمثل هذه السرعة .

وشجع هذا النجاح الثوار على القيام بمشاريع أعظم وأخطر ؛ فلم يحجموا بعد افتتاح لبلة عن السير توا إلى مدينة إشبيلية بالرغم من ضخامتها وحصانتها ؛ وكان لابن قسى فيها جمهرة من الصحب والأنصار ، فاستولى الثوار على حصن القصر وطلياطة والحصن الزاهر من أعمال شرفها ، وجنحت هذه المنطقة كلها إلى الانضمام إلى الجيش الثائر ، وكان يزداد عدده يوما بعد يوم ؛ ولم تمض أشهر قلائل حتى سقطت قلاع كثيرة أخرى ، وبسط الثوار سلطانهم على غربى الأندلس كله ؛ وهال امتداد الثورة على هذا النحو كبير قواد المرابطين فى الأندلس أبا زكريا يحيى ابن غانية ، فحشد فى الحال جيشا ليضع حدا لتقدم الثوار ، وليقمع الثورة إذا أمكن ؛ وكان الثوار قد استولوا على طريانة فى ظاهر إشبيلية ، وأحاطوا بإشبيلية ذاتها ، ولكنهم ما كادوا يعلمون باقتراب المرابطين حتى ركنوا إلى الفرار على ضفاف النهر (وادى يانة) ، فأسرع ابن غانية فى اللحاق بهم واضطرهم إلى التوقف ، ومزق جموعهم فى معركة دموية نشبت بين الفريقين فقتل منهم عدد وافر ، ولم تنج فلول الجيش المنهزم من الفناء المطبق إلا بالالتجاء إلى قلعة لبلة .

وحاصر ابن غانية الثوار فى لبلة وفى شلب ، ولكن تفوق قواته الكبير على قوات خصومه المزقة لم يغنه شيئاً ، هذا إلى ما كان يقاسيه أثناء الشتاء من قسوة البرد ؛ ثم إنه ما لبث أن جاءته الأنباء المزعجة تترى من كل صوب بقيام

الثورة فى مختلف النواحى ، فرأى أن وجوده ألزم فى بعض النواحى الأخرى من الغرب ، واضطر إلى رفع الحصار فى الحال عن لبلة وشلب[١] .

وما كاد أبو زكريا بن غانية يغادر قرطبة بجنده إلى إشبيلية حتى نشط خصوم المرابطين لحمل المدينة (قرطبة) بعد أن ضعفت حاميتها على الانضمام إلى جانبهم ، ثم العمل على اجتذاب المدن الأخرى لتأييد القضية الأندلسية بعد أن تنحاز إليهم عاصمة الأندلس ؛ ووثب أبو جعفر حمدين بن محمد على رأس المتآمرين ، وقتل قاضى المدينة ، ونادى بنفسه فى المسجد الجامع أميراً على قرطبة باسم المنصور بالله ، وذلك فى الخامس من رمضان سنة ٥٣٩ هـ (مارس سنة ١١٤٥ م) ، واشتد فى مطاردة كل من لحقته ريبة فى الانحياز إلى المرابطين ؛ وفى الحال اضطرمت الأندلس كلها بالثورة على المرابطين ، ورُفع علم الثورة فى كل المدن ، وطُردت الحاميات المرابطية أو قتلت أو حوصرت فى القلاع ، واضطر أبو محمد عبد الله بن غانيـة والى بلنسية أن يفر منها بأهله تحت جنح الظلام كيلا يأسره الثوار ، وسار إلى شاطبة حيث كان لديه بعض الجند ، وأقيمت فى الحال حكومة جديدة عهد برياستها إلى القائد أبى عبد الملك مروان بن عبد العزيز (شوال سنة ٥٣٩ هـ — أبريل سنة ١١٤٥ م) ، فبادر إلى اتخاذ الأهبة لمحاربة والى بلنسية الفار فى شاطبة[٢] .

وفى ١٧ رمضان سنة ٥٣٩ هـ (١٢ أبريل سنة ١١٤٥م) أعنى لاثنى عشر يوما من ثورة قرطبة قامت الثورة فى مرسية ، واختلف أهلها فى البداية فى أمر من يلى الحكم ؛ ثم فاز الحزب الذى يرغب فى الانضمام إلى أمير قرطبة الجديد ، وقام

(١) فصل ابن الأبار فى « الحلة السيراء » حوادث الحركة الثورية التى قام بها أحمد بن الحسين بن قسى ، وصاحباه محمد بن عمر بن المنذر ، ومحمد بن سيدراى تفصيلا حسناً ، وأورد لنا نبذاً عن أشخاصهم وأعمالهم وشيئاً من نظم ابن قسى (راجع ص ١٩٩ و٢٠٢ و ٢٣٩) وتحدث المراكشى فى نبذة موجزة عن حركة ابن قسى ووصفه بأنه من أهل الفتنة والشعوذة (ص ١١٦) ، ولكن ابن خلدون لا يحدثنا عن هذه الحركة ويقول لنا فقط إن ابن قسى كان يحسن مارتلة حينما انهارت مملكة المرابطين ، وإنه دعا إلى الموحدين وأوفد بطاعته إلى عبد المؤمن رسولا خاصا (ج ٦ ص ٢٣٣ و ٢٣٤) .

(٢) راجع فى سيرة مروان بن عبد العزيز ، « الحلة السيراء » ص ٢١٢ وما بعدها .

القاضي عبد الله الطغرائي القونقي وهو صديق لابن حمدين[1] في جند المدينة يؤيد رياسة أبي جعفر جعفر بن علي وولايته لقضاء مرسية ؛ بيد أن أبا جعفر كان رجلا وافر الطموح ، وكان يمعن في قتل الأسرى المرابطين ، فلم يكتف بهذه الولاية ، واعتزم أن يحقق الاستقلال لنفسه ، فلم تمض أيام حتى نادى بنفسه أميراً على المدينة باسم الناصر لدين الله ، وبسط حكمه مدى حين على مرسية وولاية تدمير بالرغم من مقاومة بعض الزعماء ؛ وتحالف مع مروان بن عبد العزيز أمير بلنسية ضد المرابطين الذين امتنعوا في قلعة شاطبة .

وكان الشاعر والفقيه الأشهر القاضي أبو الحسن علي بن عمر بن أضحى[2] في المرية أكثر وفاء لأمير قرطبة من قاضي مرسية ؛ فطرد المرابطين من المرية وفقا لرغبة ابن حمدين بعد أن قتل عدداً منهم في المعارك التي نشبت بينه وبينهم ؛ بيد أن القلعة بقيت مع ذلك في أيديهم .

وثار الشعب في مالقة في الوقت نفسه ضد واليها المنصور بن محمد بن الهادي ، واختار للرياسة أبا الحكم ، فالتجأ المرابطون إلى القلعة وامتنعوا بها حتى أرغموا على التسليم بعد حصار دام سبعة أشهر في ربيع الثاني سنة ٥٤٠ هـ (سبتمبر سنة ١١٤٥ م) .

ولما وقف زعيم المرابطين القائد ابن غانية على أنباء هذه الحركات المزعجة أدرك أنه يستحيل عليه أن يعيد النظام ثانية إلى الغرب (غرب الأندلس) ، وأنه لابد أن يفقد المرابطون من جراء ثورة الأندلسيين ولايات بأسرها ؛ ومن ثم فقد عهد إلى أخيه محمد الذي كان والياً لأشبيلية أن يسير في جنده وسفنه في الحال إلى الجزائر الشرقية (جزائر البليار) فيحتلها لكي يظفر ملجأ أمين يقصد إليه عند الفرار ، ولكي يتخذها من جهة أخرى قاعدة يستطيع منها أن يعمل على إخضاع الثغور الثائرة وردها إلى الطاعة .

---

(١) يلاحظ أن اسمه الكامل هو أبو جعفر حمدين بن محمد بن علي بن حمدين .

(٢) راجع في سيرة القاضي ابن أضحى « الحلة السيراء » ص ٢٠٧ وما بعدها .

ولكن هذا الحرص أفضى إلى خسارة جديدة فادحة ؛ ذلك أنه ما كادت السفن المقلة للمرابطين تغادر إشبيلية ، حتى نهض القاضى عبد الله بن ميمون ، فبسط حكمه على الولاية كلها ، واستطاع بمؤازرة معظم سكان إشبيلية أن يستولى على المدينة ذاتها ، وسقط المرابطون الذين بقوا بالمدينة وأنصارهم صرعى غضب الشعب وبطشه .

أما العاصمة (قرطبة) فكانت نظراً لعنف أهلها وحدة نفوسهم ، تضطرم بثورة بعد أخرى ؛ وكان الشعب ينقسم شيعاً وأحزابا ، وكانت الأهواء والأطماع تودى بكل إجراء يتخذ لصون النظام ؛ ولم يتمتع الأمير أحمد بن المنصور بالله بحكم قرطبة سوى أربعة عشر يوما (حتى ١٧ رمضان سنة ٥٣٩ هـ) ، وفى أثناء ذلك عمد أنصار سيف الدولة أحمد بن عبد الملك بن هود ، وهو الذى كان القيصر ألفونسو ريموندز قد عوضه عن أملاكه فى سرقسطة بأراض فى ولاية طليطلة إلى مداخلة أهل قرطبة وإغرائهم بالوعود والعطايا على التخلى عن ابن حمدين ؛ ولما قدم سيف الدولة بنفسه إلى قرطبة على رأس قوة من الجند النصارى ، أمده بها ملك قشتالة ، هرع الشعب المتقلب المشغوف بالجديد إلى تأييده ؛ وقد سحرته نسبته الملوكية ، وثروته الطائلة ، وخلاله الباهرة ؛ وخُلع ابن حمدين وفر من قرطبة ، ونودى بسيف الدولة أميراً باسم المستنصر بالله ؛ ولكن روعة الاحتفال بولايته لم تحل دون قِصَر سلطانه ؛ ذلك أن حكمه لم يطل حتى مثل حكم سلفه ، ولم يطل سوى ثمانية أيام ، لم يطق أهل قرطبة بعدها صبراً على عسف وزيره ابن شماخ ، وعلى منظر الجند النصارى ؛ فقتلوا الوزير واضطروا الأمير إلى الفرار ناجيا بنفسه ؛ ولجأ أولا إلى حصن فرنجولش ، ثم قصد بعد ذلك إلى جيان ، حيث اعترف الشعب بولايته[1] ، وكان من الواضح أن الذى أحدث هذا الانقلاب فى الحكم هم شيعة ابن حمدين ، وكان يعاونهم فى ذلك حزب الكبراء ، الذى يعمل لنصرة ثوار الغرب ؛ وكان هؤلاء الكبراء يعتزمون أن ينادوا بمحمد بن عمر شريك ابن

(١) راجع « الحلة السيراء » ص ٢٠٤ و ٢٢٥ .

قسى فى الحكم ، أميراً على قرطبة ، وكان محمد مذ رفع ابن غانية الحصار عن لبلة قد سار بجنده صوب قرطبة ، بيد أنه ما كاد يقترب منها حتى علم بأن ابن حمدين قد سبقه ، وعاد إلى المدينة بفضل أنصاره وهم جمهرة كبيرة (١٠ ذى الحجة سنة ٥٣٩ هـ — ٣ يونية ١١٤٥م) ، ونودى به للمرة الثانية أميراً على قرطبة بين مظاهر الفرح العام ، ولم يبق أمام محمد إلا أن يعود إلى الغرب ؛ وفى تلك الأثناء استطاع ابن حمدين ، بمعاونة أصدقائه وشيعته ، أن يبسط حكمه على رنده والأرك وشريش ، وشذونه وقونقة ، وكذلك مرسية لمدى قصير ؛ أما ابن غانية فقد لبث فى معظم قواته مشغولا بإخماد ثورة الغرب ؛ وكانت غرناطة لا تزال أهم مدينة باقية فى قبضة المرابطين وكان يقتتل من أجلها كل الأحزاب ، فثار الغرناطيون بتحريض شيعة ابن حمدين ، واضطرت الحامية المرابطية الضعيفة أن تلجأ إلى القلعة أو القصبة ؛ وأخذت الوقائع الدموية تنشب كل يوم بين المحاصرين والمحصورين ، وقتل القاضى أبو محمد بن سماك زعيم الثوار فى إحدى هذه الوقائع [١] ؛ فاختار الثوار للولاية مكانه أبا الحسن على بن عمر بن أضحى قاضى ألمرية السابق ؛ وكان بالرغم من ولائه السابق للمرابطين ، قد أخرجهم من المرية ، وانضوى تحت لواء ابن حمدين ، واختار ابن حمدين لولاية المرية عبد الله بن مردنيش ؛ ومع أن ابن أضحى أبدى فى غرناطة نشاطا فى مقاومة المرابطين ، فإنه لبث حينا يتردد بين الانضمام إلى ابن حمدين ، والانضمام إلى سيف الدولة بن هود ، على أنه لبث يجمع الأمداد من كل ناحية ، وكان منها قوة على رأسها الأمير أبو جعفر والى مرسية ، حتى اجتمع لديه جيش قوامه اثنا عشر ألف مقاتل ؛ وجمع المرابطون أيضاً كل قواتهم بقيادة الأمير على بن أبى بكر ، حفيد يوسف بن تاشفين ، واستطاعت الحامية المحصورة فى غرناطة أن تنضم إليه ؛ ونشبت بين الفريقين معركة دموية ، سقط فيها أبو جعفر أمير مرسية ، ولجأ جنده وفلول الجيش المنهزم إلى الفرار فى غير نظام ، واسترد المرابطون غرناطة ، ثم استردوا كذلك المرية بعد قليل .

---

(١) راجع « الحلة السيراء » ص ٢٠٨ و ٢٢٥ و ٢٢٦ .

أما فى مرسية ، فقد نودى بعبد الرحمن بن طاهر أميراً لها ، وذلك فى ربيع الأول سنة ٥٤٠ ﻫ (سبتمبر سنة ١١٤٥ م) ، وكان ابن طاهر عالما كبيراً ولاسيا فى الشريعة والتاريخ ، كما كان زعيما وقائداً مجربا . بيد أنه كان قليل الطموح ، بعيداً عن الأهواء الشخصية ، ولم يفكر إلا فى خير وطنه ؛ فرأى أن ينزل عن سلطانه المستقل ، وأن يدعو بالإمارة على مرسية لسيف الدولة بن هود ، الذى كان يمثل فى نظره مجدد استقلال الأندلس ، واكتفى بأن يكون نائبه فى الحكم . فاستاء لذلك أنصار ابن حمدين ، وغادر مرسية وفد من الكبراء إلى قرطبة لمفاوضة ابن حمدين ، فاستقبلهم بترحاب مؤملا أن يسترد المدينة بمعاونتهم فى أول فرصة ؛ وجهز قوة مسلحة ، وحاول أن يغرى قادة جند ابن طاهر ، بيد أنه لم يكن من الميسور فى هذا الوقت الذى سادت فيه الفوضى والانقلابات المتوالية ، وأضحى كل يبحث عن الرياسة والغنم لنفسه ، لأولئك الذين ظفروا بالحكم أن يعملوا على تقوية شيعتهم ؛ ذلك أنه كانت تقوم بلا انقطاع أحزاب جديدة ترمى إلى تأييد سلطان هذا الزعيم أو ذاك ؛ وهكذا ، فإن ابن طاهر لم يلبث على حكم مرسية سوى خمسين يوما ؛ ثم نهض القاضى أبو محمد بن عياض على رأس قوة من الجند على حدود المدينة ، وكان الفريقان — فريق ابن هود وفريق ابن حمدين — يخطبان وده ؛ ولكنه آثر أن ينادى بنفسه فى أريولة أميرا على مرسية ؛ وفى الحال سار إلى المدينة ودخلها دون أن يستطيع ابن طاهر أية مقاومة ، وذلك فى العاشر من جمادى الأولى سنة ٥٤٠ ﻫ (نوفمبر سنة ١١٤٥) ، واستقبله أهل مرسية الذين عرفوا بسرعة تقلبهم فى فيض من الفرح والتأييد ، ولم يتعرض ابن عياض — بالرغم من مطالبة أنصاره بقتل ابن طاهر له — بأذى ، ولم يكتف بالإبقاء على حياته ، بل رأى بذكائه وحكمته أن يتركه حرا فى مرسية يعيش فى سكينة ورغد[١] .

ولم تكن الحال فى بلنسية أقل اضطرابا وفوضى ، فقد كان الحكم فيها عرضة للانقلاب المستمر ؛ ولما أخرج المرابطون منها ، واستولى الأعيان على الحكم ،

(١) راجع « الحلة السيراء » ص ٢١٤ .

دُعى أبو عبد الملك مروان بن عبد العزيز لولايتها ، فتولاها مرغماً لما يعرفه من تقلب الشعب ودسائس الأعيان . وكان المرابطون يخرجون من شاطبة فيثخنون فى الأنحاء المجاورة حتى أبواب بلنسية ، ويستاقون كثيراً من الأسرى والمتاع ، فجهز مروان الجند لقتالهم ، وسار إلى شاطبة ، واستطاع بمحالفة الأمير أبى جعفر والى مرسية يومئذ أن يستولى عليها بعد حصار دام عدة أشهر ؛ وأطلقت الحامية المرابطية لتسير إلى المرية ، وكانت قد عادت يومئذ إلى يد المرابطين ؛ وبسط مروان حكمه على شاطبة ، واليقنت ، وعدة أنحاء هامة أخرى ؛ ولما عاد إلى بلنسية دخلها فى موكب حافل ، راكباً على جمل ، وقد ارتدى حللا فاخرة ، وتقلد أسلحة ثمينة ساطعة ، يحف به الأعيان وأكابر الفرسان ، وجموع الشعب الغفيرة من حوله تهتف هتاف الفرح (جمادى الأولى سنة ٥٤٠ هـ — أكتوبر سنة ١١٤٥ م)[١].

بيد أنه لم تمض أربعة أشهر حتى سئم سكان بلنسية أميرهم ، وأخذوا يفكرون فى نزعه من الحكم . ولقد قال بهذه المناسبة مؤرخ عربى : كان تأييد الشعب فى تلك الأيام كثير الاضطراب حتى أنه ما يكاد يرفع إلى الحكم رجلا تاق إلى إمارته حتى يسأمه ويبغضه ، ويرى فى حكمه وفى خلاله ما لا يطاق ؛ وهكذا فان أعيان المدينة وقضاة المدن المجاورة ، أعنى اليقنت وليرية وشقر ومربيطر وشاطبة وغيرها دعوا أمير مرسية الجديد ، أبا محمد بن عياض ، لكى يتولى أيضا حكم بلنسية ، وأن يعمل على توحيد الكلمة بين شعبها المزق ؛ وبينا كان مروان ابن عبد العزيز يحاول أن يعمل على مقاومة هذه الحركة ، ثار الشعب فاضطر إلى مغادرة قصره ، واختفى لدى بعض أصدقائه ، ثم تدلى من سور المدينة تحت جنح الظلام ، لكى ينقذ حياته بالفرار ، وقد استطاع المنكود بالفعل أن يتقى مطاردة شعبه ، ولكنه ضل الطريق حتى لحق بجبال المرية ، وهنالك سقط فى أيدى المرابطين إذ عرفوه رغم تنكره وصفدوه بالأغلال ؛ بيد أنهم أبقوا على حياته ثم حملوه إلى ميورقة ، وهنالك استطاع أن يفتدى نفسه بمبلغ كبير من المال . ثم

(١) راجع « الحلة السيراء » ص ٢١٤ .

قصد إلى مراكش حيث عاش فى كنف الموحدين ، وتوفى هنالك بعد حياة طويلة .
أما بلنسية ، فقد ندب ابن عياض لولايتها قريبه عبد الله بن محمد بن سعد بن مردنيش ؛ وأما سيف الدولة أحمد بن هود ، فقد استطاع فى تلك الأثناء وبعد أن أقصاه خصومه عن قرطبة ، أن يستولى بمعاونة الجند القشتاليين على جيان ورنده وبياسة ، وكان ابن جزى قاضى جيان يضطرم مثله بغضاً للمرابطين ، فتحالفا معاً ؛ وسار ابن هود إلى غرناطة حيث كان القاضى أبو الحسن بن أضحى يحاول فى كثير من الدهاء أن يبدو صديقاً حميا لجميع الأحزاب : المرابطين ، وحزب ابن حمدين ، وحزب سيف الدولة ؛ وخف القاضى إلى لقاء سيف الدولة راجلا مبالغة فى تكريمه ودعاه مع ولده عماد الدولة إلى منزله ، وأقام لهما مأدبة . ولما قدم القاضى إلى ضيفه بناء على طلبه ، قدحا من المـاء ، بادر بعض الحضور إلى تحذير سيف الدولة من شربه لأنه مسـموم . وقد ظهر فى الواقع أن القدح يحتوى على عصير برتقال ، كان ممزوجا بسم حامض حلو المذاق ، يقتل من يجرعه . وفى بعض الروايات أن القاضى شرب عندئذ من القدح ليدفع سوء المظنة عن نفسه فمات مسموما ، ولـكن الواقع أنه توفى بعد ذلك ، وسوف نراه بعد ذلك مراراً يكافح ضد المرابطين ؛ أما سيف الدولة فقد غادر المدينة خشية العواقب ، وسار لمهاجمة قصبة الحمراء حيث كانت بقية من المرابطين تمتنع بها ؛ ووثب المحصورون لمقاتلة المهاجمين مراراً ، ونشبت بين الفريقين عدة مواقع دموية لم يفد سيف الدولة شيئا منها ؛ وفى اليوم الثامن استطاع المرابطون التغلب على خصومهم وألجاوهم إلى الفرار ، وأسروا عماد الدولة ولد الأمير ، وأخذوه إلى القصبة حيث توفى فى نفس اليوم من جراحه ، وأبدى المرابطون شهامة فوضعوا جثة الأمير فى نعش ثمين محلى بالوشى المذهب ، مضمخ بأنواع المسك وأرسلوه إلى والده لدفنه[٢] ؛ وفاضت نفس الأمير حزنا على ولده ، وسخطا على قصور الغرناطيين وفتورهم ، فلم يلبث فى غرناطة وضواحيها سوى شهر ، ثم عاد إلى جيان ، بعد أن أيقن بعقم هجماته ضد قصبة

---

(١) راجع قصة القدح المسموم فى الحلة السيراء ص ٢٠٩ .
(٢) راجع « الحلة السيراء » ص ٢٠٨ .

الحمراء ؛ أما أبو الحسن بن أضحى ، فقد بقى على حكمه المدينة ، وعقد مع الرابطين هدنة ، وأجاز لهم وفق رغبتهم ، فى السفر إلى المنكب حيث يبحرون إلى ميورقة أو إفريقية .

أما سيف الدولة فقد كان فى مرسية وبلنسية أوفر حظا منه فى غرناطة ؛ ذلك أنه دعى منهما لتولى الإمارة عليهما ؛ فسار إليهما فى قوة من الجند النصارى ؛ ودخل مرسية فى ١٨ رجب سنة ٥٤٠ هـ (يناير سنة ١١٤٦ م) ، فبادر أمير مرسية وبلنسية القاضى ابن عياض ، والحاكمان عليهما من قبله وهما محمد بن سعد ابن مردنيش وعبد الله بن سعد ، إلى مبايعته والخضوع له ، وأطاعته جميع البلاد الواقعة على الشاطئ من لورقة إلى مصب نهر إيبرو ؛ وازداد سيف الدولة ثقة بنفسه وقوته حتى اعتقد أنه يستطيع الاستغناء عن معاونة الجند النصارى ، وكان يقودهم ثلاثة من الكونتات هم إماريش وبونسيوس ومارتن ، وكانوا فى تلك الأثناء قد افتتحوا جيان وبياسة وأبدة ؛ وأثخنوا فى سكانها المسلمين ، فطلب إليهم سيف الدولة تسليم المدن المفتوحة ، وكذلك تسليم الأسرى والغنائم ، وأن يقفوا غزواتهم المخربة التى قاموا بها فى أراضى المسلمين بالتحالف مع القاضى الطموح عبد الله الطغرانى والى قونقة ، فيما بين شاطبة وأبدة ؛ ذلك لأنه لا يستطيع أن يسمح بأن يقوم النصارى بغزو المدن والأراضى التابعة له وتخريبها . ولما طال الجدل بينه وبينهم دون جدوى لجأ الفريقان إلى السلاح ؛ فسار الكونتات النصارى وحليفهم القاضى الطغرانى الذى لم يعترف بسيادة سيف الدولة فى قواتهم ، — بعد أن حاصروا شاطبة عبثاً — لمقاتلة قوات مرسية وبلنسية ؛ والتقت زهرة الفروسية الاسبانية والمسلمة فى موقعة دموية فى سهل « البسيط » على مقربة من جنجالة فى ٢٠ شعبان سنة ٥٤٠ هـ (٤ فبراير سنة ١١٤٦ م) ، وأسفرت الموقعة فى النهاية عن هزيمة المسلمين وفرارهم ، وأسر سيف الدولة ، وقتله بعض الفرسان دون علم الزعماء النصارى مما أثار بالغ سخطهم ، وقتل عبد الله بن سعد فى الموقعة [1]

---

(١) راجع تفاصيل هذه الموقعة فى الحلة السيراء ص ٢٢٦ .

وارتد ابن عياض فى فلول الجيش إلى بلنسية ؛ وسار عبد الله الطغرانى فى جيش من النصارى إلى مرسية لمحاربة واليها محمد بن سعد بن مردنيش ، واضطر ابن مردنيش أن يخوض بقواته القليلة معركة ثانية مع قوات تفوقه فى الكثرة ، وقاتل الفريقان بمنتهى الشجاعة ، ولكن الكثرة غلبت فى النهاية ، وفر ابن مردنيش ناجياً بنفسه إلى اليقنت ، وترك مرسية دون دفاع تحت رحمة الظافرين ، فدخلها عبد الله الطغرانى وبسط حكمه عليها ، وذلك فى أوائل ذى الحجة سنة ٥٤٠ هـ (مايو سنة ١١٤٦ م) ، بيد أنه لم يستطع أن يحول دون تقدم حلفائه النصارى إلى المدينة ، وترتب على ذلك أن سخط عليه أهل المدينة لما يكنونه من بالغ حقد للنصارى ، ولم يوفق إلى استمالتهم بالرغم مما بذله لإرضائهم ؛ وانتهز ابن عياض هذه الفرصة ، فسار فى قواته الجديدة التى استطاع أن يحشدها فى بلنسية واستولى على مرسية ؛ ذلك أنه ما كاد يهاجمها حتى ثار أهلها وانضموا إلى القادمين فى مهاجمة قوات القاضى عبد الله ، وكان استيلاؤه عليها فى السابع من رجب سنة ٥٤١ هـ (ديسمبر سنة ١١٤٦م) ، وكان عبد الله يقاتل بمنتهى الشجاعة ، ولكنه اضطر أخيراً إلى الفرار فى نفر من أصدقائه ، وهرع أعداؤه فى أثره يطاردونه ، وجفل جواده لحجر أصابه ، فألقاه من فوق ظهره ، وقبض عليه مطاردوه وقطعوا فى الحال رأسه ؛ وهكذا استطاع ابن عياض للمرة الثانية الاستيلاء على مرسية ، وقد عفا عمن كان من أهلها موالياً لعبد الله الطغرانى ، ولكنه لم يرحم من بقى فيها من النصارى فأمر بقتلهم جميعا ، وبسط ابن عياض حكمه مرة أخرى على جميع أراضى الشاطئ الواقعة بين لورقة ومصب نهر ايبرو ؛ ولكن أنصار عبد الله وحلفاءهم من النصارى لبثوا يسيطرون على المناطق الجبلية الواقعة بين قونقة واقليش وبياسة ممتنعين بقلاعها ، بالرغم من كل الجهود التى بذلت لإخضاعهم .

٢ — تقلب القيصر ألفونسو بين محالفة المرابطين والأندلسيين

كانت حالة الأندلس تسوء من يوم إلى يوم وتزداد اضطرابا وفوضى ؛ فكانت الأحزاب تتكاثر ، وترتفع وتسقط ، وكان الولاة والحكام يسقطهم الزعماء الأصاغر متخذين من تقلب الشعب وسيلة إلى قلب الحكم بلا انقطاع . ومع أن مسلمي الأندلس كانوا يزمعون التخلص من النير الأجنبي ، سواء أكان نير المرابطين أم نير النصارى ، فانه كان ينقصهم الوحدة والتماسك ؛ ذلك لأن نضال الأحزاب فيما بينها كان يحول دون خضوع البعض للبعض الآخر . وكان سيف الدولة أحمد ابن هود أكثر الزعماء توفيقا فى نيل تأييد الأندلسيين ، ولا سيما منذ انقلب على النصارى فترك حلفهم ، وشهر الحرب عليهم ، ولكن خاتمته المحزنة دفعت بكل شىء إلى الفوضى القديمة ، وعاونت المرابطين أنفسهم على النهوض .

وبينما كانت الأندلس تموج بالفتن والحروب الأهلية ، وتقدم إلينا — كالبحر الذى أثارته العواصف — صورة من غضب الطبيعة ، كانت دولة المرابطين فى إفريقية تسير إلى الانهيار أمام ضربات الموحدين وفتوحاتهم ؛ ولم يكن ثمة من الميسور عندئذ أن ترسل الأمداد إلى قائد الجيوش المرابطية العام فى اسبانيا أبى زكريا بن غانية ؛ وكان ابن غانية يقود قوات قليلة ، ويحيط به الأعداء من كل صوب ، ومع ذلك فقد استطاع أن يقوم بكل الممكن ؛ ولم يظفر فقط بأن وضع حدا لتقدم أحمد بن الحسين بن قسى فى الغرب ، واسترد المرية وإشبيلية ، وبسط سلطانه على ميورقة وغرناطة وقرمونة ، وعدة أماكن أخرى يمكن أن تقدم قلاعها المنيعة إلى المرابطين عند الفرار ملاذاً أمينا ، ومنها يستطيعون الإغارة على الأندلسيين بلا انقطاع ، ولكنه استطاع بالأخص أن يستغل تفرق الأندلس وتطاحن زعمائها لتأييد مركز المرابطين ببراعة . ولما رأى أحمد بن قسى أن ابن غانية كاد يقضى على الثورة فى الغرب ، بعث إلى أمير الموحدين عبد المؤمن رسولا ينبئه بأن سيادة المرابطين أضحت على وشك الانهيار ، وأنه يدين بنفس العقائد التى يدين بها الغزالى والمهدى ، وأنه قد ثار ضد المرابطين ، وانتزع منهم كثيراً من أراضى الغرب ، وخاض معهم عدة وقائع ،

وأنه يقدم طاعته إلى أمير الموحدين ويدعوه إلى الجواز إلى اسبانيا ؛ فأبدى عبد المؤمن رضاه للرسول وعين الخائن لوطنه واليا على الغرب وذلك فى ربيع الثانى سنة ٥٤٠ هـ (اكتوبر سنة ١١٤٥ م) [١] ، وما كاد قائد المرابطين ابن غانية يقف على مسعى ابن قسى حتى بادر إلى الاستفادة منه فى بث التفرق بين ثوار الغرب ، وانتزاع زملاء ابن قسى وأنصاره منه ، واستطاع أن يوغر سيدراى صاحب يابرة ، ومحمد بن عمر صاحب شلب — وكانا يقودان أيضاً قسما من جيوش الغرب — غيرة وحسداً على ابن قسى من جراء تحالفه مع الموحدين ، سيما وقد كان الموحدون ينذرون بأن يصبحوا على الأندلسيين أشد وطأة من المرابطين . ثم إنه كان خليقا بالمرابطين وقد اضمحل خطرهم وشأنهم أن يبدوا للوطنيين الأندلسيين بالنسبة لغزاة إفريقية الجدد أصدقاء لا أعداء ، ومن ثم فإن سيدراى وابن عمر لم يترددا فى الانفصال عن زميلهما القديم ، والانضمام بقواتهما إلى المرابطين أعدائهما السابقين ؛ وقد أخذا على أنفسهما أن يتوليا قتال ابن قسى ، وأتاحا بذلك الفرصة لابن غانية للسير بقواته ضد قرطبة .

ولما رأى أحمد بن قسي تفوق قوات أعدائه من حوله ، وقد تركه الموحدون دون عون ، ارتد فى محنته صوب ألفونسو هنريكيز ملك البرتغال أو كما تسميه الرواية العربية « الطاغية ابن الريق صاحب قلنبرية [٢] » ، وطلب إليه العون ضد أعدائه ووعده بالغنائم والهدايا الفخمة ، والظاهر أيضاً أنه تمهد بأن يدفع إليه الجزية

---

(١) يقول ابن خلدون إن ابن قسى كان صاحب مارتلة حينما أوفد رسوله إلى عبد المؤمن سنة ٥٤٠ هـ ويذكر لنا اسم الرسول وهو أبو بكر بن حبيس ، ثم يقول لنا إن الرسول لقى عبد المؤمن فى تلمسان ، ولكن عبد المؤمن أنكر ما تضمنته رسالة ابن قسى من نعته بالمهدى ولم يجاوبه (ج ٦ ص ٢٣٣ و ٢٣٤) . ولكن المراكشى (ص ١١٦) يقول لنا إن الموحدين حينما اقتحموا حصن مارتلة قبضوا على ابن قسى ونفوه إلى المغرب . ويقول ابن الأبار فى الحلة السيراء (ص ٢٠٠) إن ابن قسى هو الذى عبر إلى المغرب بنفسه ثم عاد إلى الأندلس صحبة جيش الموحدين الذى عبر إليها .

(٢) راجع الحلة السيراء ص ٢٠٠ والظاهر أن هذه التسمية ، أى « ابن الريق » إنما هى تحريف لاسم هنريكيز الذى يكتب بالإسبانية « انريك » Enrique ، وهو والد ألفونسو ملك البرتغال . وأما قلنبرية فقد كانت يومئذ عاصمة البرتغال .

كتابع له ؛ فلم يتردد ألفونسو فى إجابته وبادر فى قواته من الفرسان مخترقا أراضى باجة وماردة لإمداد حليفه وعاث فيها أيما عيث . ونشبت بين الفريقين المتحاربين عدة وقائع دموية دون أن يحرز أحدهما نصراً حاسما ؛ ولما حل الشتاء واشتدت وطأته (شعبان سنة ٥٤٠ - يناير سنة ١١٤٦م) عاد البرتغاليون إلى بلادهم مثقلين بالغنائم والتحف الثمينة ؛ بيد أن ابن قسى أثار بتحالفه المشين مع النصارى وتعهده بالخضوع لملك البرتغال احتقار أنصاره أنفسهم ، ونبذه أنصاره فى قلعة ميرتلة التى كان يحاصرها أعداؤه ، واستطاع سيدراى أن يفتتح حصونها دون صعوبة ، وأسر ابن قسى وحمله معه إلى باجة وسجنه هناك ، ولكن صديقه الوفى عبد الله ابن على بن الصميل الذى افتتح باجة فيما بعد وفق إلى الإفراج عنه وإطلاق سراحه .

وكان اضمحلال سلطان المرابطين فى إفريقية ، وتفوق قوى الأندلس عند اتحادها ، والعون الذى لقيه ثوار الغرب من ملك البرتغال ، ثم العاصفة التى تنذر باضطرامها مقدم الموحدين إلى اسبانيا ؛ كل هذه حملت قائد المرابطين الذى ترك دون عون من إفريقية ، على أن يسعى للحصول على مساعدة النصارى . وقد حصل عليها من القيصر ألفونسو أعظم أمراء اسبانيا ، وبذل فى سبيلها بلا ريب وعوداً ضخمة ؛ وبدا عندئذ أن سياسة الجزيرة تقتضى تعضيد سيادة المرابطين التى كانت عندئذ فى دور النزع ، وذلك لإحباط الجهود التى يبذلها الأندلسيون فى سبيل وحدتهم ، والوقوف فى وجه الموحدين الأشداء الذين لاح مشروعهم فى الجواز إلى اسبانيا . وبعد أن قاتل النصارى بالتعاقب مع حزب سيف الدولة بن هود ، ثم عبد الله الطغرانى ، ثم أحمد بن قسى تحالفوا عندئذ مع المرابطين ألد أعدائهم من قبل ؛ وسارت القوى المتحدة صوب اندوجار وبياسة وقرطبة ، وكان ابن حمدين لايزال أميراً عليها ؛ ولم يكن من الصعب على المرابطين — وقد أنجدتهم فوق ذلك قوى محمد بن عمر التى سلخها من ابن قسى — أن يفتتحوا قرطبة والمدن المجاورة لها ، بيد أنه كان من الصعب أن يوحد الرأى بين هذه الجموع التى تفيض أثرة وطمعاً ، وأن يهدأ اضطرام الأحزاب فى المدن ، وأن ترضى مطامع الجند

النصارى وغطرستهم التى لاحد لها . ودخل النصارى قرطبة بالرغم من ممانعة ابن غانية فى آخر شعبان سنة ٥٤١ هـ (أوائل سنة ١١٤٧م) ، وأقاموا بمسجدها الجامع بين سخط المسلمين وارتياعهم قداساً حافلا برياسة أسقف طليطلة ، وربطوا خيولهم فى أروقته ، وتناولوا بأيديهم النجسة مصحف عثمان ، أقدس ذخائر الأندلس ، وأثاروا غضب الشعب باغراقهم فى سوء معاملته ، ولم يراعوا شيئاً من الشروط التى سلمت المدنية بمقتضاها . ولما وقعت المفاوضة حول قرطبة ومن يتولى حكمها ، ازداد الخلاف اضطراما . ذلك أن القيصر الفونسو كان يطالب بها كتعويض لما أنفقه فى سبيل الحرب ، وكان قائد المرابطين يرى بحق أن التسليم بهذا المطلب إنما هو حكم بالإعدام على حزبه ؛ ومن ثم فقد عرض على القيصر مقابل ذلك ، أن يأخذ بياسة ، وتحفاً كثيرة ، ومبالغ طائلة من المال ، وكذلك الطاعة وأداء جزية سنوية ، فرضى الفونسو بذلك بعد جهد ، ولكن التفاهم ساء من ذلك الحين بين القيصر وبين المرابطين . ولقى ابن حمدين أمير قرطبة المخلوع لدى النصارى مثل ما لقى خصومه من العون ، وازدادت بذلك الحوادث فى جنوبى اسبانيا اضطرابا وتعقيداً . ذلك أن ابن غانية حينما حاصر ابن حمدين فى حصن اندوجار حينما لجأ ، أعلن ابن حمدين عندئذ خضوعه للقيصر ، واستطاع بذلك أن يستأجر منه جنوداً لمعاونته ، وقادها إليه — بأمر القيصر — قائده الدوق فرديناند ابا نيز دى ليما .

ولما غادر النصارى قرطبة مثقلين بالغنائم ، ووضعوا فى بياسة حامية قوية بقيادة الكونت المانريش ، ثار الجدل بين أبى زكريا بن غانية وبين محمد بن عمر صاحب شلب حول امتلاك المدينة ؛ ولما اختار القرطبيون رياسة ابن عمر ونادوا به أميراً عليهم ، لم ير ابن غانية مناصا من التسليم ، ولكن سرعان ماأدرك الأمير الجديد أنه يستحيل عليه أن يحكم شعبا لا يستطيع بعد أن يروض نفسه على الطاعة ، وغدا يضطرم بالثورة بلا انقطاع من جراء دسائس الأحزاب ، فلم تمض عشرة أيام حتى نزل عن الحكم مختاراً وفر من المدينة قبل أن تحطمه الثورة

وسار إلى الغرب ، وهنالك نشب النضال بينه وبين عبد الله بن الصميل صاحب ابن قسي ، حتى ظفر به عبد الله في إحدى المواقع فأسره وسمل عينيه ، ثم أخرجه الموحدون بعد ذلك من سجنه في باجة وحملوه إلى إفريقية حيث توفى في سلا في سنة ١١٦٣ م[١] .

وكانت الأنباء قد ذاعت في الوقت الذي افتتح الحلفاء فيه قرطبة وأخذ الجدل يضطرم حول إمارتها ، بأن الموحدين قد جازوا إلى الجزيرة الخضراء ، وأخذوا يتقدمون فيها ، وكان ذلك من الأسباب التي حملت ابن غانية على ترك رياسة قرطبة ولكنه لم يستطع مع ذلك أن يفيد من هذا الظرف شيئاً .

٣ — جواز الموحدين إلى الأندلس وفتوحهم الأولى فيها

في الوقت الذي كان زعيم الموحدين عبد المؤمن مشغولا فيه بحصار مراكش عاصمة المرابطين ، والقضاء بافتتاحها على آخر ملاذ لخصومه في إفريقية ، لم يفته أن يعني بشؤون الأندلس ، حيث كان حليفه أحمد بن قسي والي الغرب يشتد المرابطون في إرهاقه يوما عن يوم ؛ فسير إلى الأندلس بإمرة قائده أبي عمران موسى بن سعيد جيشا مؤلفا من عشرة آلاف فارس ، وعشرين ألف راجل ، فجاز إلى شبه الجزيرة في أواخر سنة ٥٤٠ هـ (مايو سنة ١١٤٦م) واستطاع ببذل جهود عنيفة ، وبمؤازرة قوة من فرسان الغرب بقيادة ابن قسي ، أن ينتزع حصن الجزيرة من يد المرابطين ، ودخله الموحدون في المحرم سنة ٥٤١ هـ (يونيه سنة ١١٤٦م)[٢] . وكانت الجزيرة قبل ذلك بستين عاما أيضاً أول موضع استولى عليه المرابطون حين جوازهم إلى الأندلس . واستطاعت الحامية المرابطة أن تشق لها وسط الأعداء طريقاً ، وأن تسير سالمة إلى اشبيلية ؛ وفتح جبل طارق[٣] وشريش أبوابهما

(١) راجع « الحلة السيراء » ص ٢٠٤ و ٢٠٥ ، ويضع ابن الأبار تاريخ وفاته في سنة ٥٥٨ هـ وهو يقابل التاريخ الميلادي الذي يورده المؤلف .

(٢) في روض القرطاس أن عبور الموحدين إلى الأندلس لأول مرة كان في ذي الحجة سنة ٥٣٩ هـ . وأنهم دخلوا حصن الجزيرة في يوم عيد الأضحى (ص ١٣٣) .

(٣) سمى الموحدون جبل طارق بهذه المناسبة جبل الفتح ، وتنسب هذه التسمية إلى عبد المؤمن ذاته (راجع المراكشي في المعجب ص ١١٧) .

للموحدين طوعا واختياراً ، وبايعنا عبد المؤمن على الطاعة ، وحصلنا بذلك على حقوق ومنح خاصة [١] .

وسار الموحدون بعد قليل ، ومعهم قوات ابن قسى وقوات زميله سيدراى الذى عاد إلى محالفته ، إلى إشبيلية ، وكان حزب ابن حمدين هو الغالب فيها ، فانضم إلى الموحدين ، وعاونهم فى الاستيلاء على تلك المدينة الهامة ، وذلك فى شعبان سنة ٥٤١ هـ (أوائل سنة ١١٤٧ م)، ولم ير المرابطون مناصا من الارتداد أمام هذه القوى العظيمة فغادروا القلعة ، ولجأوا إلى حصون قرمونة المنيعة ، ودُعى لعبد المؤمن سلطان الموحدين فى الصلاة فى مساجد إشبيلية ، ثم دعى له بعد ذلك بقليل فى مالقة ؛ وكان بغض الأندلسيين للمرابطين ورغبتهم فى الانتقام منهم ، مما يساعد على تقدم الموحدين بسرعة ، وإن كانت سيادة الموحدين لا تبشر فى نظرهم بحسن المصير ، ومع ذلك فقد كانوا يغتبطون لما يتخذه الظافرون فى حق النصارى المعاهدين واليهود من شنيع الاجراءات ، إذ ينزعون أملاكهم ويطاردونهم بمنتهى القسوة والعنف .

وفى تلك الأثناء كان الموحدون قد فتحوا مراكش ، وانتهت بذلك دولة المرابطين فى إفريقية ، وغدت الأندلس عندئذ مقصد الموحدين وهدف فتوحهم ، وأضحى فى وسعهم أن يسيروا إليها الجيوش الضخمة ؛ وأدرك القيصر ألفونسو فداحة الخطر الذى يهدد شبه الجزيرة من إفريقية للمرة الثالثة ، فلم يقنع عندئذ بافتتاح قلعة رباح وغيرها من أماكن الحدود ، ولكنه كان يتوق إلى أن ينفذ إلى قلب الأندلس على يد الأمراء الأندلسيين أنفسهم ، وذلك باعتباره صديقاً وحليفاً لمعظم الأحزاب الأندلسية ، وكذلك للمرابطين ، وللشعب المتبرم فى بلنسية ومرسية ولابن حمدين .

وكان القيصر قد استطاع فى ذلك الحين أن يوفق بين نافارا وأراجون ، وأن يعقد نوعا من السلام العام بين الممالك النصرانية الاسبانية ، وكان واجبا أن تنتهز

(١) راجع روض القرطاس ص ١٣٢ .

هذه الفرصة للقيام بحملة مشتركة ضد أندلس يسودها الخلل والاضطراب ؛ ذلك أن جنوب غربي اسبانيا كان يتقاسمه الموحدون ، وأحمد بن الحسين بن قسي ، وأنصار ابن حمدين ؛ وكان الشاطئ الممتد من ألمرية حتى مصب الايبرو يحكمه منذ وفاة ابن عياض (في ربيع الأول سنة ٥٤٢ هـ) أبو عبد الله محمد بن سعد ، وكان المرابطون يبسطون حكمهم على معظم الأراضي الداخلية الممتدة حتى نهر الوادي الكبير ، ويحكم بعضها ابن حمدين أيضا وأنصار سيف الدولة السابقون ؛ وكان من حسن الطالع بالنسبة لحملة النصارى الاسبان ، أن عبد المؤمن بعد أن قتل إبراهيم آخر الأمراء المرابطين ، واعتقد أنه قد أضحى بذلك يسيطر على المغرب بلا منازع ، كان يواجه في ذلك الحين بالذات معركة جديدة ، كاد يفقد من جرائها كل فتوحه . وذلك أنه ظهر في سلا رجل يدعى محمد بن هود بن عبد الله ، وتسمى بالهادي أو المهدي ، وثار على الموحدين ، وكافح سلطانهم بنجاح مدهش ، ولم يمض سوى قليل حتى انتزع من عبد المؤمن كل الأقاليم والمدن التي يسيطر عليها ، خلا مراكش وفاس ، وكادت دولة الموحدين الناشئة تنهار في مهدها ؛ ولكن عبد المؤمن وفق إلى الانتصار على الثائر في بعض المواقع ، وقتل الثائر نفسه في الموقعة ، واسترد الموحدون أراضيهم بنفس السرعة التي فقدوها بها [(١)] بيد أن هذه الثورة عاقت الموحدين عند فتوحهم في اسبانيا مدى حين .

٤ — حملات النصارى ضد المرية واشبونة وطرطوشة

وجه القيصر الفونسو ، نزولا على اقتراح الجنويين — الذين أوفدوا إليه سفراء للتباحث في خير الوسائل لقمع أعمال خوارج البحر (القرصان) الأندلسيين — ، حملته إلى ألمرية ؛ وكانت المرية يومئذ أهم ملجأ للقرصان ، يخرجون منها للإغارة على شواطئ اسبانيا وجليقية واشتوريش وبرشلونة والبرتغال ، وشواطئ فرنسا

(١) راجع في ثورة ابن هود على الموحدين روض القرطاس ص ١٣٣ و١٣٤ . وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٢ والاستقصاء ج ١ ص ١٤٤ و ١٤٥ .

وإيطاليا الجنوبية ، وأحياناً تمتد غاراتهم إلى الشواطئ البيزنطية . والمرجح أن ألمرية لم تكن يومئذ تحت حكم محمد بن سعد أمير بلنسية ومرسية ، الذى كان مشغولا يومئذ بمحاربة المرابطين والنصارى معاً ، وأن القرصان كانوا قد أسسوا بها إمارة مستقلة ؛ يؤيد ذلك أن القيصر كان متحالفاً مع باقى الأحزاب الأندلسية ، ولم تذكر الرواية أن ألمرية تلقت عوناً من أى جانب ، هذا إلى أن الموحدين لم يكونوا قد تقدموا فى فتوحهم يومئذ ، حتى يمكن أن يقال إن سلطانهم امتد إلى المرية .

ولما كان حصار ألمرية لا يمكن أن يسفر عن النجاح إلا إذا طوقت المدينة من البحر أيضا ؛ فقد أرسل القيصرُ أرنولد أسقف أسترقة إلى الكونت رعوند برنجار الرابع أمير برشلونة ، والكونت جيُّوم صاحب مونبليه بطلب إليهما الاشتراك فى الحملة البحرية ؛ وكان الجنويون والبيزيون ، بعد أن تقاضوا من القيصر ثلاثين ألف قطعة من الذهب لتجهيز السفن ، قد حددوا يوم أول أغسطس سنة ١١٤٧ م موعداً لمقدمهم إلى ألمرية ، فلم يتردد الأميران رعوند وجيُّوم فى التعهد ، بارسال إمدادهما فى الموعد المضروب . ومنذ شهر مايو حشد القيصر كل قواته فى قلعة رباح ، وأقام هنالك استعراضاً عسكريا لمختلف الفرق . وكان الجيش مكوناً من قوات جلّيقية واشتوريش وقشتالة وقطلونية وأراجون ونافارا ، وكل منها يقوده أمير أو كبير منهم ، ويتولى القيصر نفسه قيادة الجيش العليا ؛ ويصف لنا مؤرخ عربى الحملة ضد ألمرية فيما يأتى :

« ملأ النصارى السهل بجيوشهم الضخمة ، وخربوا الحقول ، واستاقوا الماشية وساروا نحو المرية ، وكان يقود النصارى ملكهم أذفنش ، ويتألف جيشه من صفوف لا تحصى من الفرسان والمشاة ، وقد ملأوا الجبال والسهول ، ولم تكف مياه العيون والأنهار لإرواء ظمئهم ، ولا الحشائش والنبات لتغذيتهم ، وكانت الجبال ترتج لوقع حوافر خيولهم وصوت أقدامهم ، وتردد صداها ؛ وكان بين قادة الجيش فردلند ملك جليقية ، والقمط رذمير ، والقمط ارمنجودى ، وغيرهم من أمراء الفرنج وأمم النصرانية المجاورة . وجاء القمط رمند من البحر

فى سفائن عديدة وطوق مدينة ألمرية من البر والبحر ، حتى أصبح من التعذر أن يدخلها أحد سوى النسور ؛ ونفدت المؤن بسرعة ، ورأى المسلمون أن لا أمل لهم فى النجدة ، فخرجوا مراراً لمقاتلة النصارى ، وفقدوا خيرة فرسانهم ، ولما نقص عددهم ولم يعد يكفى للدفاع ، بدأوا المفاوضة مع النصارى ، وسلموا المدينة للأذفنش بعد حصار دام ثلاثة أشهر على أن يؤمّنوا أنفسهم ؛ وكان ذلك فى أواخر سنة ٥٤٢ هـ »[١] .

وتقول الروايات النصرانية إن حصار ألمرية بدأ فى أوائل أغسطس ، حيث التقى أمامها أسطول الجنويين والبيزيين بالكونت ريموند صاحب برشلونة ، وجيوم صاحب مونبلييه ، واستمر حتى ١٧ أكتوبر سنة ١١٤٧ م . ثم أخذت المدينة عنوة ، وقتلت حاميتها بعد دفاع شديد ؛ واستولى الظافرون على غنائم عظيمة مما جمع القرصان فى المدينة ، وكان أثمن ما حمل عليه الجنويون قطعة من الزجاج الأخضر ، قيل إنها من الزمرد ولم تكن كذلك . وبعد أن قسمت الغنائم على الجند ، وحصل الجنويون والبيزيون منها على أوفر نصيب ، وحصل الكونت ريموند على جميع الأسرى ، دخل القيصر ألمرية فى قوة كبيرة ، وعند اقتراب الشتاء عاد كل فريق إلى بلاده .

وفى نفس الوقت الذى افتتحت فيه ألمرية ، سقطت أشبونة[٢] فى يد النصارى ؛ وكان الفونسو ملك البرتغال قد خرج من قبل مراراً إلى ضفاف التاجه لمقاتلة ثوار الغرب الذين انشقوا على أحمد بن قسى ؛ فخرج فى نفس العام لمحاصرة أشبونة وطوقها بجميع قواته ، وكان قد حاصرها من قبل عبثاً بمعاونة الفرسان الصليبيين الذين قدموا من فرنسا ؛ وكان بالمدينة فضلا عن سكانها الكثيرين حامية كبيرة ومن ثم فقد يئس البرتغاليون من افتتاحها بسرعة نظراً لأنه لم يكن لديهم أسطول

(١) لم نجد أصلا لهذه الفقرة فى جميع المراجع المصرية التى لدينا . وقد ذكر المؤلف أنه نقلها عن كوندى المؤرخ الأسبانى وبعض المراجع النصرانية (ج ١ ص ٤٢٥) . ومن الصعب دائما أن يعثر المرء على أصل عربى يورده كوندى .

(٢) لشبونة أو Lisbon عاصمة البرتغال الحديثة .

يطوقها من ناحية البحر ؛ ولكن كان من حسن طالع الملك الفونسو ، أن رست في هذا الوقت بالذات عند مصب نهر دويره (دورو) زهاء مثتى سفينة من سفن الصليبيين ، ما بين إنكليزية وهولندية وألمانية ، لتتزود بالماء العذب ، ثم أرغمت على البقاء فى مراسيها نظراً لاضطراب الريح . ففاوضهم الفونسو ، وحملهم الوعود وأمل الحصول على الغنائم الضخمة ، وما يقترن به من ثواب مقاتلة المسلمين فى سبيل الدين ، على تلبية ندائه ؛ وسارت سفنهم بقيادة الكونت أرنولف فون ارشوث الهولندى إلى مياه أشبونة ، لمعاونة البرتغاليين على أخذها ، خصوصاً وقد ساء الجو ولم يبق صالحاً لسير السفن ، وانتهت جهود البرتغاليين والصليبيين المشتركة بأخذ المدينة المحصورة بالرغم من دفاعها الباسل ؛ وسلم المحصورون المدينة بعد أن فقدوا كل أمل فى الاغاثة ولم يبق أمامهم سوى القتل أو الموت جوعاً ، وحصلوا مقابل ذلك على حق الرحيل مع ترك أسلحتهم وأموالهم ؛ واقتسم البرتغاليون والصليبيون ما لقوا فى المدينة من غنائم لا تحصى ؛ وأنفق الصليبيون الشتاء فى مياه البرتغال ؛ وكان بدء حصار أشبونة فى ٢٨ يونيه سنة ١١٤٧ م ، واستمر مدى أربعة أشهر حتى ٢١ أكتوبر من نفس العام ؛ وكان سقوطها بعد أيام قلائل فقط من سقوط ألمرية . وكان فتحاً عظيم الأهمية بالنسبة للبرتغال ، حيث استطاعت أن تنتزع بأخذ اشبونة مفتاح التاجه من يد المسلمين .

وكان هذا التوفيق الذى صاحب النصارى عاملا فى إغراء الكونت ريموند صاحب برشلونة ، مذ عاد إلى وطنه بعد افتتاح المرية ، على أن يستأنف مشروعه لافتتاح قلعة طرطوشة الواقعة على مصب نهر ايبرو ، بعد أن فشلت كل محاولاته من قبل فى هذا السبيل . فسار يعاونه أسطول الجنويين إلى هذه القلعة التى تعتبر مفتاح الايبرو ، والتى تغلق البحر فى وجه السفن الأرجونية ، محاولا افتتاحها مرة أخرى . وطوق النصارى طرطوشة من البر والبحر ؛ وعجز أمير بلنسية محمد ابن سعد عن أن يرسل إليها المدد ، فسقطت فى يد النصارى بعد حصار دام ستة أشهر من بداية يوليه إلى ٣١ ديسمبر سنة ١١٤٨م (٥٤٢ هـ) ؛ واستولى الجنويون

والپيزيون وجيوم صاحب مونبلييه ، باعتبارهم حلفاء على ثلثى المدينة نظير عونهم ، على أن يؤدوا الجزية ؛ وترك الثلث الباقى ملكا لأمراء أراجون . وانتزع رعوند فى العام التالى الأماكن التى بقيت بيد المسلمين على نهر ايبرو ، وهى قلاع مكونيزا ولاردة وإفراغه[1] من يد محمد بن سعد ، فلم يبق فى يده سوى الحاضرة بلنسية وقد غدت عندئذ تحت رحمة الأعداء .

٥ — تحالف القيصر ألفونسو مع المرابطين ضد الموحدين

ولم يستطع الموحدون فى تلك الأثناء أن يجاوزوا فى فتوحهم منطقتى إشبيلية ومالقة ؛ ذلك أنه ما كادت تخمد ثورة محمد بن هود الملقب بالهادى فى إفريقيــة حتى قامت ثورة أخرى فى سبتة ترمى الى إعادة سلطان المرابطين ، وقتل الموحدون الذين لم يستطيعوا الفرار وأحرقوا أحياء ؛ واتصل قاضى المدينــة وزعيم الثورة عياض بن موسى فى الحال بالمرابطين فى اسبانيا ، ودعا بالولاية لقائدهم أبى زكريا يحيى بن غانية ؛ وسير إليــه ابن غانية المدد بقيادة يحيى بن أبى بكر الصحراوى ؛ واتسع نطاق الثورة ، واجترأ الثوار وحلفاؤهم رغم ضآلة قواهم على أن يخوضوا مع الموحدين معركة صريحة انتهت بهزيمتهم وإخماد الثورة[2] ؛ وانتهى حزب المرابطين فى اسبانيا بعــد أن استنفذ قواه الأخيرة فى سبيل السلطان فى إفريقية إلى حالة يرثى لها من الضعف ، ولم يبق أمامه سوى الخضوع والتسليم بالرغم مما كان يلقاه من معاونة القيصر .

وما كاد عبد المؤمن ينتهى من توطيد سلطانه فى إفريقية حتى بعث إلى شبه الجزيرة بجيش ضخم ، وسار الموحدون إلى قرطبة حيث كان ابن غانية يرابط فى معظم قواته ، وبعد أن ضرب الموحدون حولها الحصار الصارم ، سقطت المدينة فى أيديهم بخيانة واليهــا يحيى بن على ؛ أما يحيى بن غانية فقد استطاع الفرار من

---

(١) راجع ابن الأثير ج ١١ ص ٥٢ .

(٢) وردت تفاصيل هذه الثورة فى روض القرطاس ص ١٣٤ ، وفى الاستقصاء ج ١ ص ١٤٥ .

قبل إلى غرناطة ؛ وسمح للحامية المرابطية بالخروج من المدينة ، وسار قسم منها إلى قرمونة ، وكانت ما تزال بيد المرابطين ؛ وكان استيلاء الموحدين على قرطبة فى مايو أو يونيه سنة ١١٤٨ (٥٤٣ هـ) ؛ وبدأوا حين دخولها بتطهير مسجدها الجامع من آثار المرابطين ورجسهم ، وأقاموا الصلاة ودعوا فيها لسلطان الموحدين ؛ واستولوا على مصحف عثمان النفيس — وهو من أقدم النسخ التى ترجع إلى عهد الخلفاء الراشدين ؛ وقد نقله الأمويون من الشأم الى الأندلس — وبعثوه الى مراكش[1] . وهكذا تقلبت على قرطبة فى نحو ثلاثة أعوام دول وحكومات عدة ، فملكها المرابطون مرتين ، وابن حمدين مرتين ، وسيف الدولة ابن هود مرة ، ومحمد بن عمر مرتين ، والقيصر ألفونسو مرة ، ثم ملكها الموحدون آخر الأمر .

وكان يحيى بن غانية يضطرم حقداً على والى قرطبة ويعتبره خائناً لأنه عجل بتسليم المدينة ، ولذا فانه (أى الوالى يحيى بن على) ما كاد يصل إلى غرناطة حتى بادر إليه ابن غانية ، وفلق رأسه بنفسه ؛ وقد كان ابن غانية يؤمل إنقاذ قرطبة متى وصلتها نجدة من النصارى . وكان لسقوط عاصمة الأندلس وقع شديد فى النفوس ، غاض معه كل أمل فى مقاومة الموحدين ، ولم تكن جموع الفرسان القشتاليين التى قادها الكونت المانريش لمعاونة المرابطين لتغنى شيئاً بعد . وبعد أن استولى الموحدون على قرمونة ، وخاضوا فى ولاية جيان عدة مواقع مظفرة ، طوقوا مدينة غرناطة التى غدت أمنع قاعدة دفاعية للمرابطين ، وكان ابن غانية ممتنعاً فيها مع جميع قواته . وتقول الرواية العربية إن قائد المرابطين (ابن غانية) سقط فى ميدان الحرب وهو يقاتل الموحدين بشجاعة ، وذلك فى شعبان سنة ٥٤٣ هـ (ديسمبر سنة ١١٤٨) ، ثم دفن فى غرناطة . ولكن توجد ثمة رواية نصرانية تناقض هذه كل المناقضة ، وخلاصتها أن ابن غانية أسره حلفاؤه أنفسهم أعنى جند

(١) راجع قصة نقل مصحف عثمان من قرطبة إلى مراكش فى الاستقصاء ج ١ ص ١٥٠ وما بعدها .

الكونت الماريش ؛ ثم قتله بعد ذلك سكان جيان عقاباً له على ما اقترفه من التآمر على حياة القيصر[1] .

وكانت وفاة يحيى بن غانية ضربة مؤلمة للمرابطين ؛ فقد لبث زهاء ستة عشر عاماً فى رياسة اسبانيا المسلمة يرد عنها غارات النصارى بقوة ؛ وكان هو الظافر فى موقعة إفراغة التى هلك فيها ألفونسو المحارب ؛ وقد رد عن سلطان المرابطين فى الأندلس عادية الثورات وعادية الموحدين ، حتى بعد أن انهارت دولة المرابطين فى إفريقية ؛ بيد أن تحالفه مع النصارى قد وصم اسمه لدى المسلمين ؛ ذلك أن بغض المسلمين للنصارى كان من الشدة بحيث كان أهل الأندلس يؤثرون أن يرزحوا تحت نير الإفريقيين (المغاربة) المرهق على أن يستردوا حرياتهم بمعاونة أعداء دينهم .

ولما اتسع نطاق ظفر الموحدين فى الأندلس ، واستولوا على جيان فى سنة ١١٤٩ م (٥٤٤ هـ) وهددوا غرناطة والمرية بالحصار ، اعتزم القيصر ألفونسو — وكان يضع نفسه دائماً على رأس حزب المرابطين — بالاتحاد مع جارسيا ملك نافارا أن يُسير حملة إلى الأندلس ، وحشد فيها قوى جميع الأمراء التابعين له . وفى أوائل سنة ١١٥٠ م (٥٤٥ هـ) سار إلى قرطبة وحاصرها بعد أن خرب بسائطها ، وهزم جيشاً من الموحدين قدم لإنجادها وألجأه إلى الفرار ؛ ولكنه رأى إزاء مقاومة الحامية الشديدة ، ومناعة حصون المدينة ، وما نمى إليه من أن عبد المؤمن سلطان الموحدين القوى ، قادم بنفسه إلى الأندلس فى جيش ضخم ، ألا يطوح بزهرة جيشه فى محاولات عقيمة ، فرفع الحصار عن قرطبة ؛ ولكى يجنى من حملته بعض الشيء ، ارتد إلى جيان ، واستولى عليها عنوة ووضع فيها حامية من جنده ؛ ثم عاد إلى طليطلة ، لكى يقوم بأهبات جديدة للقتال فى العام التالى .

---

(١) تجمع الرواية الإسلامية على أن ابن غانية توفى فى غرناطة فى سنة ٥٤٣ ه ، ولا تقول لنا إنه سقط فى ميدان الحرب ، وإنه دفن فى قصبة غرناطة بإزاء قبر باديس الصنهاجى ، وإن قبره لبث عصراً مزاراً معروفا (راجع روض القرطاس ص ١٣٥ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٥ والاستقصاء ج ١ ص ١٤٧) .

وكانت الأخطار التى تهدد اسبانيا من جراء جواز الموحدين إليها تتفاقم بالنسبة للنصارى يوماً عن يوم . أجل ، كان عبد المؤمن لا يزال فى إفريقية مشغولا بإخماد بعض الثورات ، ولكنه مع ذلك لبث يتابع فتوحه فى شبه الجزيرة . فبعث بقيادة الشيخ أبى حفص وولده (أى ولد عبد المؤمن) السيد أبى سعيد إلى الأندلس جيشاً جديداً ومعه أسطول ليقوم بمحاصرة ألمرية التى كانت لا تزال يومئذ فى يد النصارى ، من البر والبحر . وجمع الخطر المشترك بين الأمير محمد بن سعد بن مردنيش أمير بلنسية ومرسية بالرغم من خصومته للقيصر ألفونسو ، وبين النصارى والمرابطين ؛ فاقتصر النضال فى الأندلس لذلك على حزبين اثنين ، هما الموحدون ، وخصومهم . ولم يستطع الموحدون رغم جهودهم افتتاح ألمرية ؛ وحاول محمد بن سعد بمعاونة النصارى عبثاً إنجادها ، فتحول عندئذ إلى أبدة وبياسة ، وانتزعهما من يد الموحدين (سنة ١١٥٢ م — ٥٤٧ هـ) . وفى الوقت نفسه خرج المرابطون من غرناطة بقيادة الأمير على ، واشتبكوا مع الموحدين فى معارك دامت أعواماً حتى هلك علىّ فى المنكّب مسموماً فيما يظهر ، وذلك سنة ١١٥٦ م .

ومع أن الروايات النصرانية والعربية لا تقدم إلينا عن الحروب التى وقعت بين سنتى ١١٥١ و١١٥٧ م (٥٤٦ — ٥٥٢ هـ) سوى تفاصيل موجزة ناقصة ، فانه يبدو مع ذلك من سير الحوادث أن الغلبة كانت للموحدين ، وأنهم استطاعوا بالرغم من مقاومة المرابطين والنصارى فى جميع البلاد التى كانت بأيديهم ، أن يستولوا عليها ؛ هذا فيما عدا بلنسية ومرسية التى استطاع ابن مردنيش أن يحتفظ بهما بمعاونة النصارى ، بل لقد استطاع أيضاً أن ينتزع غرناطة مدى حين من الموحدين الذين انتزعوها قبل ذلك بقليل من المرابطين . ثم سقطت ألمرية أخيراً فى يد الموحدين بعد حصار دام بضعة أعوام فى سنة ١١٥٧ م (٥٥٢ هـ) أعنى لعشرة أعوام من سقوطها فى يد النصارى ، وخرج النصارى منها بالأمان[1] ؛ واستولى

(١) راجع فى حصار المرية وسقوطها روض القرطاس ص ١٣٦ .

الموحدون أيضاً على جيّان وأبده وأندوجار وبيّاسة ووادى آش ؛ ثم زحفوا على غرناطة كرة أخرى ، وأمر عبد المؤمن بافتتاحها مهما كلفهم الأمر ، وبذل المرابطون والنصارى وجند بلنسية ومرسية كل جهد ممكن لإنقاذها ؛ وسار القيصر الفونسو ومعه ولى عهده سانشو وأسقف طليطلة على رأس حملة كبيرة إلى الأندلس ، واشتبك مع الموحدين فى عدة مواقع دون أن يحرز النصر ؛ بيد أنه استطاع أن ينتزع منهم بيّاسة رغم تفوقهم فيما يشبه المعجزة ؛ ثم اضطر إلى العودة دون أن يجتنى نتائج تذكر ، وفى أثناء عوده توفى فى مضيق موراوال فى ٢١ أغسطس سنة ١١٤٧ ، إما متأثراً بجراحه ، وإما بسبب تحطم قواه بما بذل من جهود ولما أصابه من الحزن لفشله . ووصلته الأنباء قبيل موته بأن الموحدين أخذوا غرناطة عنوة ، وقتلوا قائد النصارى المدافع عنها وحاميتها جميعا ، سواء من النصارى أو المسلمين ، وحصل الموحدون باستيلائهم على غرناطة على دعامة جديدة لسيادتهم ؛ وفرت فلول المرابطين إلى المنكّب ومنها إلى ميورقة ملاذهم وملجأهم الأخير ، وانهار سلطانهم نهائيا فى الأندلس .

٦ — الأعوام الأخيرة من حكم القيصر ألفونسو

لما امتد سلطان القيصر بافتتاح ألمرية وجزء كبير من الأندلس إلى حدود لم يبلغها قبله أمير من أمراء اسبانيا النصرانية ، بلغ العاهل المتلقب بقيصر اسبانيا المتوج بتاج المجد ، المظفر دائماً ، مَلِك جليقية وليون وقشتالة ونافارا وسرقسطة والمرية وبياسة وأندوجار ، ذروة قوته وسلطانه . وكانت مملكة البرتغال الصغيرة فى عهد ملكها الجديد الفونسو هنريكيز قد استطاعت فى البداية أن تهز أسس المملكة الاسبانية ، ثم كان مقدم الموحدين إلى اسبانيا وفتوحهم فيها واستيلاؤهم بالأخص على إشبيلية وقرطبة والمرية وغرناطة ، لحطموا السيادة النصرانية فى الأندلس فى مهدها ؛ ولما انفصمت روابط الأسرة بين قشتالة وبين أمراء أراجون ونافارا أصبحت سيادة قشتالة على المملكة الممتدة بين جبال البرنيه والايبرو عرضة للخلاف والضياع .

ففى خلال عام واحد (سنة ١١٤٩ — ١١٥٠م) توفيت زوج القيصر الملكة برنجاريا أخت الكونت رعوند أمير برشلونه الذى لبث حتى ذلك الحين صلة التفاهم الوثيق بين قشتالة وأراجون، وفقد القيصر أيضاً زوج ابنته جارسيا الرابع ملك نافارا الذى كان فى أواخر أعوامه يعمل مع قشتالة بمنتهى التفاهم بالرغم مما سبق من الحروب بينه وبين القيصر. وهكذا فإن ضرام الحرب بين نافارا وأراجون ما كادت تخمد حتى عادت إلى اضطرامها، وبذل القيصر جهوداً فادحة ليعقد السلام بين الفريقين المتخاصمين؛ ذلك أن سانشو السادس ولد جارسيا وخلفه فى الحكم كان من جهة يحاول أن يحطم نير قشتالة الثقيل، ومن جهة أخرى فقد ألفى رعوند أمير برشلونة الذى غدا بعد وفاة راميرو الثانى — وفقا لوصية زوجه الفتية الملكة بترونيلا — سيد أراجون الحقيق، أنه لم تبق له حاجة إلى مؤازرة قشتالة خصوصا وقد كانت هذه المؤازرة تحول بينه وبين الاستيلاء على نافارا التى كان ملك أراجون يدعى عليها كل الحقوق.

وحاول القيصر أن يعود فيوثق بأسرع ما يستطاع روابط الأسرة المنحلة، وأن يوطد بذلك دعائم السلم بين أمراء اسبانيا النصرانية؛ كذلك اتخذ فيما يتعلق بوراثة العرش فى مملكته وإماراته بعض التدابير التمهيدية؛ ولما لم يكن فى وسعه أن يتخلص من التقليد السيء الذى جرى عليه أسلافه فى تقسيم المملكة بين الأولاد، فقد رأى أن يحاول قدر الاستطاعة أن يكون تقسيم السلطان فى اسبانيا النصرانية أبعد ما يكون عن الإضرار بصالح المملكة، ورأى لذلك أن يعين ولديه اللذين سيرثان الملك من بعده وصيين للحكم معه، وأن يقوم كل منهما بالإشراف على شؤون مملكته المستقبلة؛ فتلقى ولده الأكبر وولى عهده سانشو مملكة قشتالة وبسكونيه (بسكايا)، والإشراف على الممالك البرينية، وتلقى ولده الأصغر فرديناند ليون واسترامادوره وجليقية واشتوريش، والإشراف على مملكة البرتغال، وقد كانت ما تزال موضع النزاع؛ ومن ذلك الحين كان الولدان يوقعان مع أبيهما القيصر وثائق الدولة باعتبارهما ملكين. ثم رأى القيصر لكى يوثق العلائق بين

الدولتين المتجاورتين قشتالة وناڤارا فى المستقبل أن يتزوج ولده سانشو ملك قشتالة من الدونا بلانكا أخت ملك ناڤارا (سنة ١١٥١م) ، ولما تزوج القيصر ثانية بعد ذلك بعامين واحتفل فى مدينة سُريا بزواجه من الأميرة ريكا ابنة لادسلاوس الثانى ملك بولونيا ، دعا هنالك تابعيه ملكى ناڤارا وأراجون ونصح إليهما بعقد السلام ونبذ الخلاف ، وأسبغ القيصر على ملك ناڤارا الفتى لقب الفروسية ، وقدم إليه ابنته من القيصرة برنجاريا الدونا بياتيا عروساً ، ووعد بأن يزوج ابنته الأخرى التى رزق بها من القيصرة ريكا لألفونسو ولد ريموند وبترونيلا ملك أراجون وقطلونية المستقبل ، وكان يومئذ طفلا لايجاوز بضعة أعوام . وهكذا عُقدت خطبة أطفال فى المهد لكى تُوثق علائق الدول المجاورة فى المستقبل .

ولم يقتصر القيصر ألفونسو على توثيق الروابط بين الأمراء الاسبانيين ؛ فان لويس السابع ملك فرنسا ، بعد أن طُلق من زوجه الأولى ، غير المخلصة ، إلينورا ، وانتُحلت شدة القرابة سبباً للطلاق ، تزوج ابنة القيصر اليزابيث ، التى اتخذت عندئذ اسم كونستانسيا (سنة ١١٥٤م) . ولما كانت لألفونسو من قبل خليلة تدعى جوندرادا ، وقد أعقب منها عدة بنات ، فقد أثار البعض فى نفس لويس التاسع ريبا بأن زوجه ليست ابنة للقيصرة برنجاريا ، كما قيل ، ولكنها فى الواقع ابنة غير شرعية للقيصر من خليلة تنتمى إلى أصل وضيع . والظاهر أن البعض لم يكن ينظر بعين الرضى إلى توثيق روابط الصداقة بين القيصر ولويس ملك فرنسا ومن ثم فقد كانت تُلقى إلى الملك الضعيف عن القيصر أقاويل تحط من قدره ، وتصوره كأنه لم يكن ذا مكانة بين شعبه . واعتزم لويس أن يتحقق من صحة هذه الأقاويل بنفسه ، فسافر إلى اسبانيا محتجا بزيارة قبر القديس يعقوب فى كومبوستل (سنة ١١٥٥م) . بيد أن القيصر لم يكن يجهل السبب الحقيقى لمقدم صهره . فسار ومعه زوج ابنته سانشو ملك ناڤارا ، إلى لقائه فى برغش ، واستقبله فى بذخ طائل دهش له لويس . على أن هذا الاستقبال لم يكن شيئاً بالقياس إلى ذلك الذى شهده فى بلاط طليطلة عقب عوده من شنت ياقب ؛ وكان ألفونسو قد

نظم كل شىء لكى يبدو سلطانه فى ذروة بهائه ، ويبدو ثراؤه فى منتهى بذخه ؛ فوفد عندئذ على طليطلة جميع كبراء المملكة من النصارى والمسلمين ، فى بطاناتهم الكبيرة ، وفى أفخم المظاهر وأروعها ؛ ووفد أيضاً ملك نافارا والكونت رعوند ملك أراجون ، وقدما للقيصر شعائر الطاعة بحضور لويس ، وصرح ملك فرنسا فى دهشة ، أنه لم ير قط مثل هذا البهاء ، أو بلاطاً بمثل هذه الفخامة ، أو بطانة بمثل هذه الكثرة . وهنا أشار القيصر إلى رعوند قائلا : لقد رزقت من برنجاريا ، أخت هـذا الأمير ، ابنتى كونستانسيا التى زوجتها إليك ؛ والتفت رعوند إلى لويس قائلا : أجل إن زوجك هى ابنة أختى ، فعاملها بالاحترام والتكريم ، وإلا فانتظر مقدمى فى باريس مع القيصر ، كمدوين لك . وعندئذ اقتنع لويس بأصل زوجه الرفيع ، وطيب خاطرها وهدأ روعها ؛ ولكنه لم يأخذ من الهدايا الكثيرة التى قدمت إليه سوى زمردة كبيرة ، كان القيصر قد تلقاها من قبل هدية من سيف الدولة ابن هود ؛ ويقص علينا الأسقف رودريك الطليطلى صاحب التاريخ ، أنه رأى هذه الزمردة بعد ذلك بمائة عام فى كنيسة سان دنى فى باريس .

ولما عاد الملك لويس إلى مملكته ، اضطرم النزاع بين نافارا وأراجون ، واضطر القيصر أن يتدخل فيه بالسيف ، وأن يرغم صهره وزوج ابنته سانشو على الإذعان والتسليم . ثم اختتم القيصر بعد ذلك حياته الحافلة فى غزوة قام بها ضد أعداء النصرانية . وقد ذكرنا فيما تقدم أن القيصر حاول مع تابعه ابن مردنيش أمير بلنسية أن يستنقذ ألمرية من يد الموحدين ، وكانوا يحاصرونها يومئذ ، وأن يردهم عن غرناطة ، آخر معقل للمرابطين ، وأن جهوده ذهبت عبثاً ، فسقطت ألمرية ، وسحقت بقايا المرابطين ، واستولى الموحدون على معقل غرناطة الشهير ، وأن القيصر الذى هدمتـه الشيخوخة والإعياء ، اضطر أن يعود إلى وطنه صفر اليـدين ، وأنه توفى أثناء عوده فى مضيق موردادال على حدود الأندلس وولاية طليطلة ، متأثراً فيما يظهر بحزنه لما أصابه من الفشل ؛ وكانت وفاته فى ٢١ أغسطس سنة ١١٥٧ ، وهو فى الثالثة والخمسين ، بعد أن حكم جليقية سبعة وأربعين عاماً ،

وليون وقشتالة زهاء أربعين عاماً ؛ بيد أنه لم يحكم جميع اسبانيا النصرانية بوصفه قيصراً لها سوى اثنتين وعشرين عاما .

والفونسو السابع (أو الثامن إذا اعتبرنا الفونسو المحارب ملكا لقشتالة) هو خاتمة الأمراء الذين تلقبوا بلقب قيصر اسبانيا ؛ وهو أول الحكام الذين ينتمون إلى الأسرة البرجونية ، والذين لبثوا على عرش قشتالة حتى القرن الخامس عشر ؛ وقد امتاز حكمه بالحكمة والعدالة والقوة ، واستطاع بالرغم من تمرد الأشراف الاسبان ، الذين كانوا ينقمون كل حد من سلطانهم المرهق ، أن يحافظ بعزم على حقوقه فى السيادة ، وأن يقمع بقوة وسرعة كل الحركات الثورية ، التى كانت ذائعة الوقوع فى عهد أمه أوراكا ؛ وكما أنه كان يشتد فى معاقبة الخارجين وإرهابهم ، ويرفع بذلك من هيبته القيصرية ، فكذلك كان يقدر الشجاعة والخلال الحسنة قدرها ، ويثيب أهلها ويرفعهم ، ويحيط نفسه بذلك بسياج من التأييد والحب . وكان وقت السلم يعنى بتنظيم الدولة ، ويطوف بالمملكة ليقف بنفسه على حسن تنفيذ أوامره ؛ وكان يشتد فى العقاب لكى يعاقب قليلا ، وكان يسمح لأقل رعاياه أن يرفع مظلمته إليه مباشرة ؛ وكان فى الوقت نفسه ، مثلا كاملا للفروسية الحقة ، تقيا ، ونصيراً جواداً للكنائس والأديار ؛ وفى الحرب ، شجاعا فطنا ، لا يعنى كثيراً بشخصه ، وعدوا شديد الوطأة على أعداء الدين ، ما دام يخوض الحرب معهم ، يروعهم اسمه ويرهبهم ؛ بيد أنه كان إزاء المغلوبين شهما ، بل كان صديقا حقا لمن كان يلتمس حمايته من المسلمين ، ولم يكن فى تقلبه من محالفة إلى أخرى ، سواء بالنسبة للدول النصرانية أو الاسلامية المجاورة ، يتحرى غير مصلحة قشتالة ؛ وقد كان يضحى فى تقلبه من وسيط أحيانا ، إلى حليف ، أو إلى عدو صريح ، بما تفرضه المبادئ والخلال الحسنة ، فى سبيل إعلاء وطنه ؛ وقد سقط فى ذلك إلى نفس المنحدر ، الذى انحدر إليه أعظم الأمراء الذين يرون فى الفتوح أعظم واجبات الحاكم ، وتحطمت فيه البقية الباقية من مجدهم الحق ؛ ومن الأسف ألا نتلقى عن أمير عظيم مثل الفونسو ريمونديز سوى روايات ناقصة ،

فلم يصلنا من سيرته التى كتبها باللاتينية قس مجهول سوى نبــذ يسيرة ، وهى لا تحتوى إلا على العصر الذى بدأ فيــه حكم قشتالة بعــد وفاة أمه حتى بدء حصار ألمرية ، وبذلك ينقصها تاريخ عشرة الأعوام الأخيرة من حياته ، وهى فترة لا نجد عنها سوى فقرات قليلة فى كتب الحوليات ، تتعلق بالسنين والأسماء والأماكن ، بل إنا لا نجد فى التواريخ الكبيرة التى تركها لوقا التطيلى ، وردريك الطليطلى من ذلك سوى اليسير الذى تنقصه الدقة والتحقيق .

الفصل الرابع

قيام مملكة البرتغال

١ — أقدم الروايات عن البرتغال

كانوا يفرقون فى العصر القديم ، منذ عهد القرطاجنيين والرومان بين الاسبانيين ، وبين أهل لوزيتانيا ، وهم سكان غربى شبه الجزيرة البرينية فيما بين مصب نهر أناس (وادى يانه) ومصب نهر دورو (دويره) . وكان ڤرياتوس ، الذى قاوم سيادة الرومان بمنتهى البسالة ، ولم يسقط إلا بخيانة مواطنيه من أهل لوزيتانيا . ولما استطاع الرومان ، بعد ثورة نومانسيا[1] ، أن يوطدوا دعائم سلطانهم فى اسبانيا ، وأضحى اسمهم بذلك مروعا بغيضا ، قسموا شبه الجزيرة إلى قسمين ، أولهما يشمل الشمال الشرقى ويسمى « اسبانيا الطرّكونية » Hispania Tarraconesis ، والآخر وهو الجنوب الغربى ، يسمى اسبانيا السفلى Hispania ulteiar ، ويشمل ولايتى لوزيتانيا وبيتكا (ولاية الأندلس فيما بعد) . ولما هاجرت القبائل الجرمانية إلى شبه الجزيرة ، نزل الشوابيون والوندال والآلان فى لوزيتانيا ، واستقر الشوابيون على ضفاف نهر دويره ، والآلان على ضفاف التاجه ، والوندال على ضفاف وادى يانه . ولما تم ظفر القوط ، بقيادة ملكهم ڤاليا ، بعد حروب عنيفة ، ارتد المغلوبون إلى ما وراء التاجه ، واحتل الوندال الشقة الواقعة فيما بين قلمرية وبراجا على ضفتى دويرة السفلى ، ولجأ الشوابيون إلى جبال جليقية . ولما قاد جيزريش

---

(١) مكان فى قشتالة القديمة كان مدى أعوام مركز مقاومة عنيفة من جانب الأسبان للرومان فيما بين سنتى ١٥٤ و١٣٣ . ق م .

ملك الوندال قومه إلى إفريقية فى النصف الأول من القرن الخامس ، واضمحل سلطان الرومان فى اسبانيا بالرغم من مؤازرة القوط ، استطاع الشوابيون أن يبسطوا حكمهم على لوزيتانيا كلها ؛ وانزعج ملوك القوط ، سادة مملكة تولوشه لهذه الفتوح وحاولوا وقفها ، ولم يفلحوا فى ذلك إلا فى النصف الثانى من القرن الخامس ، حينما استطاع القوط وحلفاؤهم البرجونيون أن يوقعوا بالشوابيين على مقربة من أسترقة هزيمة شنيعة (سنة ٤٥٦ م) ، وأن يحتلوا لوزيتانيا وعاصمتها ماردة ، واعتصم الشوابيون بعد تضعضعهم فى جبال جليقية . ولما انهار سلطان الدولة الرومانية الغربية ، استولى القوط على اسبانيا كلها ، وكذلك لوزيتانيا حتى مصب دويره ، وتركوا قسمها الشمالى للشوابيين ، واستقر الشوابيون فى هذا القسم حتى ضمت مملكتهم إلى مملكة القوط فى أواخر القرن السادس من الميلاد . بيد أن لوزيتانيا لبثت وحدها تكوّن إقليما من الأقاليم الستة التى قسمت إليها المملكة القوطية ، ويعرف باسم عاصمتها ماردة ، حتى الفتح الإسلامى . وبعد الفتح كانت ماردة مقرا للوالى أو الحاكم المسلم ؛ وبذل ولاة ماردة ، فى عهد الدولة الأموية جهودا عديدة للاستقلال بحكم الولاية ، ولكنها لم تسفر عن النجاح . وفى تلك الأثناء استطاع ملوك النصارى الذين يبسطون حكمهم فى أشتورية وجليقية وليون أن يفتتحوا مايجاورهم من الأراضى حتى نهر دويره ، وأن يدفعوا غزواتهم حتى نهر التاجه ، وتداول المسلمون والنصارى أثناء هذه الغزوات مدن قلمرية وأشبونة وشنترة مرارا وتكرارا

ولما انهارت الدولة الأموية فى قرطبة واستحالت إلى ولايات وإمارات عدة ، قامت فى جنوبى لوزيتانيا ، التى كانت لا تزال بيد المسلمين ، ويطلق عليها إسم « الغرب » (أى غربى الأندلس) ، دولة بنى الأفطس ، ونقلوا قاعدة حكومتهم إلى بطليوس ، وبسطوا حكمهم على منطقة وادى يانة ، وكذلك على جزء من منطقة مصب التاجه مشتملة على ثغر أشبونة (لشبونة) . أما أراضى لوزيتانيا الواقعة بين نهرى دويرة ومنديجو وإلى ما بعد قلمرية ، فكان الملك فرديناند قد انتزعها من المسلمين ، وجعلها ولاية مستقلة باسم البرتغال (بالاشتقاق من اسم ،

بورتو كالى Porto Calle وهى الثغر الواقع عند مصب دويرة) يحكمها حاكم يعرف بالقنصل أو القومس أو الأمير ، وانتدب لحكمها الكونت زيزناندوس ؛ ثم ضمت بعد ذلك قبل وفاة فرديناند بقليل إلى مملكة جليقية ، التى تركها فرديناند إلى أصغر أولاده جارسيا (سنة ١٠٦٥م) ، مقرونة بالسيادة على بنى الأفطس أصحاب ولاية الغرب أو جنوبى البرتغال ، الذين أرغموا على أداء الجزية .

وكان البرتغاليون الذين سموا عندئذ « بالبرتغالزيين » يتوقون إلى الاستقلال عن جليقية ؛ ومن ثم فقد ثاروا على الملك جارسيا بقيادة زعيمهم الكونت نونيو ، الذى كان والده مننددوس دوقاً لجليقية ؛ بيد أنهم أخطأوا تقدير قواهم ؛ ولما اشتبكوا فى ميدان الحرب مع جيش جليقية الذى كان يفوقهم عدداً ، قتل زعيمهم نونيو ، وقتل معه كثير من البرتغاليين ؛ وسرعان ما خضعت الولاية الثائرة عقب هذه الهزيمة التى وقعت فى ١٤ يناير سنة ١٠٧١ م فى موضع يسمى « برتاليني » بين براجا ونهر كافادو .

ولم يمض قليل على ذلك حتى تعاقب الأمراء على حكم جليقية والبرتغال مسرعين ؛ ذلك أن جارسيا ، وكذلك أخوه ألفونسو ملك ليون ، أخرجهما أخوهما الأكبر سانشو ملك قشتالة من المملكة ، وبسط سيادته على مملكتى أخويه ، ولكن موته عند حصار سمورة فى سنة ١٠٧٢ م ، مهد السبيل لعود أخويه إلى المملكة ؛ ولم يكتف ألفونسو بالاستيلاء على ليون وقشتالة ، ولكنه استطاع بالغدر أن يستولى على مملكة أخيه ، وأن ينتزع منه جليقية والبرتغال دون صعوبة ؛ وعهد بالدفاع عن البرتغال — التى لم تكن تضم يومئذ سوى أماكن قليلة على ضفة منديجو اليسرى ولم تكن تصل حدودها إلى التاجة — إلى كونت من أسرة الدوق مننددوس التى حكمت جليقية والبرتغال فى أوائل القرن الحادى عشر .

ولما افتتح ألفونسو السادس طليطلة ، التى بلغ بافتتاحها ذروة مجده الحربى ، وبدا الخطر الذى أثاره المرابطون بفتوحهم فى اسبانيا شديداً على سيادة النصارى فى شبه الجزيرة ، عبر البرنيه من جنوبى فرنسا كثير من الفرسان والقوامس

(الكونتات) لإغاثة إخوانهم فى الدين ؛ وكان من بين هؤلاء الكونت ريموند والكونت هنرى البرجونيان اللذان أسديا إلى ألفونسو فى حروبه مع المسلمين أجل الخدمات ؛ وكان كلاهما ينتمى إلى فرع من فروع آل كابيه ملوك فرنسا ؛ ومن ثم فقد رآهما الملك جديرين بأن يضمهما إلى أسرته وأن يثيبهما بذلك عن خدماتهما ؛ فزوج ريموند بن جيوم كونت برجونيا العليا (ولاية فرانش كونتيه الحالية) بابنته أوراكا ؛ ولما كان قد ظهر بالأخص فى محاربة المسلمين فى البرتغال، وانتزع منهم فى سنة ١٠٩٣ م (٤٨٦هـ) شنترين وأشبونة وشنترة، فقد عينه حاكما لهذه الولاية، وجعل حاكمها السابق سواريو مننديز خاضعاً لأوامره.

٢ — ولاية البرتغال فى عهد هنرى البرجونى

ولم يبق ريموند طويلا فى البرتغال، فقد ندب لحكم مملكة جليقية ؛ وخلفه فى أواخر سنة ١٠٩٤ م فى ولاية البرتغال قريبه هنرى وهو كونت برجونى من بيزانصون، وحفيد لروبير أمير برجونيه السفلى ؛ وكان ألفونسو السادس قد زوجه بابنته غير الشرعية تيريزا ابنة خليلته كيمنا نونيز، وهى فيما يرجح ابنة نونيو مننديز، الذى ثار فى البرتغال ضد الملك جارسيا، وقتل فى موقعة برتاليني، وكانت أسرته أعظم الأسر البرتغالية وجاهة وعدداً.

وهكذا أقطع الكونت هنرى، الذى كان يلقب أيضاً بالدوق بوصفه قائد الجيش ضد المسلمين، إمارة البرتغال، أعنى المنطقة الواقعة بين أسفل التاجه ونهر منهو، لا باعتبارها إمارة مستقلة، ولكن باعتبارها خاضعة لمملكة قشتالة تؤدى الجزية إليها، ويتوارثها عقبه. بيد أن زوج هنرى، كانت لنسبتها الملكية تتلقب بالملكة ؛ وكان هذا اللقب يسبغ على أخوات ملك قشتالة وبناته ؛ واتخذت قلمرية حاضرة للإمارة ؛ ومن ثم فقد جرى المسلمون على تسمية أمير البرتغال « بصاحب قُلُمرية » Coïmbra وجعل مقر المطران فى مدينة براجا عاصمة جليقية القديمة ؛ وجعلت كل من بورتو ولاميجو وبازو وقلمرية مركزا لأسقفية. وعكف هنرى

على حماية حدود ولايته الجنوبيـة من غارات المرابطين بعزم وقوة ؛ ولـكنه لم يستطع أن يحتفظ بأشبونة وشنترين ؛ أما شنترة فقد فقدها حيناً ثم استردها (سنة ١١٠٩ م) . وكان من المتعذر على النصارى أن يحتفظوا بهذه المدن نظراً لأن كثرة سكانهـا الغالبة كانت من المسـلمين ، ولأنهم كانوا يؤلفون بذلك كتلة عظيمة .

وأقر ألفونسو السادس فى وصيته إمارة هنرى على البرتغال ، وأقر وراثة عقبه لها ، بيد أنه ليس من المحقق ما إذا كانت هذه الولاية قد اعتبرت مستقلة عن قشتالة أم تابعـة لها ؛ والمرجح أن ألفونـسو السادس لم يعرض فى وصيته بوضوح إلى هـذه المسألة . واشترك هنرى بقسط وافر فى النزاع الذى قام بين الملـكين الزوجين ألفونسو الأرجونى وزوجه الملـكة أوراكا ؛ ولما لم يكن يخشى شيئاً على استقلال إمارته من أراجون ، وكان بالعكس يخشى على هذا الاستقلال من قشتالة وجليقية ، فقـد انضم حين نشوب الحرب بين ألفونسو وزوجه أوراكا إلى ألفونسو ، وعاونه فى موقعة كامبو دى سبينا (٢٦ أكتوبر سنة ١١١٠ م) على هزيمة الـكونت جومز القشتالى ، وافتتاح عدة حصون فى قشتالة وليون . بيـد أنه لما ساءت حال الملـكة أوراكا ولاح أنها هالـكة ، وحاصرها زوجها فى أسترقة ، رأى هنرى من الحـكمة أن يعضد الحزب الأضعف بعونه ؛ وبذا أنقذت ملـكة قشتالة ، واضطر ألفونسو الأرجونى أن يعود إلى مملـكته . ومن المحقق أن أوراكا لم تحصل على معاونة البرتغال دون تضحيات ذات شأن ، بيد أن الروايات الموجزة التى انتهت إلينا لا تشير إلى موضوعها بشىء ؛ والمرجح أن أوراكا ، إذا صدقنا بعض الوثائق القـديمة ، وهبت البرتغال نظير عونها ، فضلا عن مدينة توى والأرض الواقعة على ضفة نهر منهو اليمنى ، سمورة وتورو وغيرهما من المدن الواقعة على نهر دويره ، وكذلك ولاية استرامادوره بأسرها .

٣ — البرتغال تحت حكم الدونا تيريزا

وكان من سوء طالع البرتغال أن توفى الكونت هنرى عقب إنقاذ استرقة مباشرة ، وذلك فى أول مايو سنة ١١١٢م ، ولم يترك سوى طفل فى نحو الثالثة من عمره يدعى ألفونسو ، فتولت أمه الدونا تيريزا الحكم بالوصاية عليه ؛ ولم يك ينقص هذه المرأة البارعة فى الحسن ، خلال الرجال اللازمة للقبض على زمام الحكم ، من الذكاء والعزم والإقدام حين الخطر ، بل وشجاعة الرجال فى ميدان الحرب ؛ ولكن شغفها بالسلطان وأهواءها المضطرمة كانت تخمد فى نفسها كل عاطفة أموية ، فكانت نزولا على هذه الأهواء تعمل لانتزاع السلطة من يد ولدها ؛ وقد عملت للدفاع عن استقلال البرتغال سواء فى الحرب أو السلم ضد أطماع أختها لأبيها (أوراكا) التى غزت البرتغال غير مرة ، وأطماع ولدها ألفونسو السابع (ريموندێز) واستطاعت أن تحافظ على حدود البرتغال الجنوبية ضد المسلمين ؛ بالرغم من أن المرابطين اقتحموها مرة بعد أخرى ، ومن أن مدينة قلمرية عاصمة البرتغال يومئذ كادت تسقط فى أيديهم بعد حصار طويل (سنة ١١٢١م — ٥١٥ هـ) ، وكذلك بالرغم من محاولة أختها أوراكا محالفة المرابطين على إهلاكها . أما كون تيريزا كانت تسير فى حياتها مثلما كانت أختها ملكة قشتالة على نمط لايليق بكرامة أميرة ، فليس من التحامل فى شىء ؛ إذ تؤيده بعض الروايات القديمة ؛ ومن المحقق أنها تزوجت الكونت فرديناند الجليقى ولد الكونت بيدرو فرويلاز صاحب ترافا ، وأخا عشيقها السابق برمودو وشاطرته الحكم ، وأنها حاولت حتى بعد أن بلغ ولدها ألفونسو هنريكيز الرشد أن تحتفظ بالسلطة ، وأن تنتزعها من ولدها لتقدمها إلى زوجها .

وكان ألفونسو هنريكيز مذ بلغ الرابعة عشرة من عمره (سنة ١١٢٤) قد اتشح بثوب الفروسة وفق تقاليد العصر ، وأجازه لذلك الملك ألفونسو ريموندێز ، وفى سنة ١١٢٧م التقى ألفونسو ريموندێز عقب وفاة أمه أوراكا بقليل بالملكة تيريزا وزوجها الكونت فرديناند فى مدينة سمّورة ، وتباحث معهما فى تسوية

الأمور المعلقة بينهما ، وعقد معهما السلم إلى حين بشروط لانعرفها .

وكان الأمير الفتى ألفونسو هنريكيز يبدى كل يوم من صفات الفروسة ، ومن الذكاء والفطنة ، مايؤهله لأن يتولى بنفسه شؤون الحكم ، وكان الشعب يحبه لفصاحته ورقة خلاله وجمال طلعته ؛ وكانت تقواه وتوقيره لرجال الدين مما زين فروسته ، ويكسبه تعضيد رجال الدين ؛ ولم يلبث أن دبرت لتأييده مؤامرة اشترك فيها معظم الأشراف والأحبار ، وكان نصيبها التوفيق ؛ ونزل الولد فى جنده ميدان الحرب ضد أمه ، ونشبت بينهما موقعة دموية فى سنت ماميتى على مقربة من جويمرانس ، هزمت فيها الأم وأسرت ، وألقيت فى السجن أعواما تكفر عن زلاتها ، ونفى زوجها فى السر الكونت فرديناند من المملكة ، ونفى معه كثير من أنصاره ؛ وحاول أخوه الكونت برموندو صهر الملكة وزوج ابنتها ، أن يعمل لرد الملكة إلى سلطانها ، ولكنه أخفق تمام الإخفاق ، ونفى مثل أخيه ، وتولى ألفونسو هنريكيز الحكم فى سنة ١١٢٨ م ، وقد بلغ الثامنة عشرة من عمره ، مستقلا ، دون أن يعترف بسيادة قشتالة .

٤ — ألفونسو هنريكيز أمير البرتغال

وما كاد ألفونسو هنريكيز يقبض على زمام الحكم حتى اضطرمت بين البرتغال وقشتالة حرب دامت بضعة أعوام ؛ ذلك أن ألفونسو ريموندز كان يعتبر البرتغال إقليما من أقاليم مملكته ، أو على الأكثر ولاية وراثية فى أسرة الكونت هنرى ، فلما أبى ألفونسو هنريكيز أن يقدم إليه طاعته وأن يقسم يمين الخضوع له ، أعلن أنه خارج عليه ، ثم غزا البرتغال بحجة العمل على إنقاذ عمته تيريزا ، ومعاقبة الخارج على سيادته . وليس فى وسعنا أن نتتبع حوادث هذه الحرب نظراً لضآلة التفاصيل المتعلقة بها ، ولكننا من جهة أخرى نعرف نتائجها . ذلك أن الملكة تيريزا توفيت فى سنة ١١٣٠ م ، واجتمعت بذلك كلمة جميع الأحزاب حول ألفونسو هنريكيز ؛ ومع أن ملك قشتالة استطاع فى البداية أن يتقدم فى البرتغال ،

فان ما حدث عندئذ من نشوب الخلاف بينه وبين ملك أراجون ، وحدوث القلاقل فى قشتالة ، وغارات المسلمين على أراضيه ، حملته على الارتداد ؛ وعهد إلى مطران كومبوستل وأشراف جليقية بمتابعة الحرب ، ولكنها سارت عندئذ ببطء ؛ وليس بعيدا أن يكون أشراف جليقية ، الذين كانوا يفكرون عندئذ فى الخروج على ملك قشتالة ، قد تعمدوا معاونة العدو الذى عهد إليهم بمحاربته ؛ وهذا ما يوضح لنا ما كان يعمد إليه ألفونسو هنريكيز فى غاراته على جليقية من التفريق بين الخصوم والأصدقاء ؛ وكان من خصومه بالطبع الكونت فرديناند بيريز وأسرته ، وكان يقيم فى جليقية منذ نفيه من البرتغال .

ولما رأى ملك قشتالة ضآلة النجاح الذى أحرزه جيشه ، وانشغاله بغارات المسلمين ، ثم تفاقم شؤون أراجون ، وما حملته إياه من التفكير فى ترك جميع الأراضى الواقعة فى مملكته بين نهر الايبرو وجبال البرنيه ، اضطر أن يعقد مع البرتغال الهدنة لبضعة أعوام ؛ وكان البرتغاليون أثناء ذلك قد عبروا نهر منهو وافتتحوا منطقة لميا ، وأقاموا فيها قلعة منيعة ، فردهم القشتاليون ثانية إلى ما وراء النهر ، وهدموا القلعة ، وأسروا حاميتها .

ولما توج ملك قشتالة فى ليون ، فى سنة ١١٣٥م ، قيصرا لاسبانيا ، وأعلن تبعية جميع أمراء اسبانيا إليه ، أبدت البرتغال منذ البداية معارضتها لهذا الادعاء ؛ وسرعان ما حطم جارسيا الرابع ملك نافار هذا النير الذى تدعيه قشتالة ، وعقد حلفا مع البرتغال ، وشهرا الحرب معا على القيصر (سنة ١١٣٦) ؛ وبينما سار القيصر بنفسه لمحاربة الملك جارسيا ، إذ زحف البرتغاليون على جليقية ، وافتتحوا مدينة توى وعدة مواضع أخرى ، وعاونهم الكونت جومز نونيز والكونت رودريك بيريز الثائران على القيصر ، معاونة قوية ، وأقسما يمين الطاعة لأمير البرتغال ؛ وتولى الدوق فرديناند ابانز صاحب لميا الدفاع عن جليقية ، واستطاع أن يقف تقدم البرتغاليين ؛ ثم وردت الأمداد إلى البرتغاليين ، واجتمع فى الوقت نفسه تحت راية الكونت فرديناند بيريز والكونت رودريك فيلى جميع الذين بقوا على

إخلاصهم للقيصر من أهل جليقية ، والتقى الفريقان المتحاربان فى موضع يسمى « سرنيزا » ومع أن الجليقيين قاتلوا بمنتهى الشجاعة ، وضرب قادتهم أروع الأمثال فى الجرأة والبسالة ، فقد بدا أيضا فى هذه الموقعة أن مصاير القتال تتوقف قبل كل شىء على براعة القادة ، وليس على كثرة العدد ، ولا على شجاعة المحاربين العمياء . ومن ثم فقد أحرز الفونسو هنريكيز على خصومه نصرا باهرا ، بيد أنه لم يستطع أن يجنى ثمرة نصره ، إذ وصلته الأنباء بأن المسلمين افتتحوا مدينة « ليرينى » وقتلوا قسما من حاميتها وعاثوا فى مناطق الحدود ؛ فارتد مسرعا إلى قلمرية ليعمل على رد أعداء النصرانية عن حدوده ، ولكن المسلمين كانوا قد ارتدوا عندئذ إلى أراضيهم حرصا على غنائمهم ، واستطاع الفونسو هنريكيز أن يعود ثانية إلى جليقية ؛ على أن مصاير الحرب كانت قد تغيرت عندئذ . ذلك أن فرديناند ابانز صاحب ليميا استطاع فى هذه الأثناء أن يجمع فلول الجيش القيصرى ، وأن يدفع البرتغاليين عن كل شبر من الأرض ، وكان أمير البرتغال يقاتل بشجاعة على رأس جنده فجرح فى إحدى الوقائع ، واقتضى لعلاجه وبرئه بعض الوقت قبل أن يستطيع العود إلى ميدان الحرب .

وفى تلك الأثناء كان القيصر ، قد رد ملك نافارا إلى جباله الوعرة وقلاعه المنيعة ؛ وبعد أن ترك قوة احتياطية على حدود نافارا لمراقبتها ، سار فى قواته من ليون إلى البرتغال ، واستولى على عدة قلاع ، وعاث فى بسائطها ؛ ولما رأى ألفونسو هنريكيز تفوق العدو عليه فى العدد ، تذرع بالفطنة وحرص على أن يجتنب الاشتباك معه فى أية موقعة فاصلة ، وأن يعمد إلى إنهاك الليونيين ، وحملهم على القيام بحملات طائشة ؛ ونجحت الفكرة أيما نجاح ؛ فقد سار الكونت ردمير ، فى قوته بجرأة ، وما كاد يبتعد عن الجيش القيصرى ، حتى طوقه البرتغاليون فجأة ، وهزموه ، وأسروه ؛ واعتبر القيصر بهذا الدرس ، فأصدر أوامره الصارمة بمنع الوحدات المختلفة من الابتعاد عن الجيش العام ، وأقام معسكراً محصناً على تل « بورتيلا دى فيسى » ، وأقام البرتغاليون معسكرهم فى الجهة

المقابلة على تل أكثر ارتفاعاً تحميه قلعة « بنيادى رجينا » ؛ وفرق بين المعسكرين واد شاسع ؛ وأخذ الفرسان والجند من الفريقين ، يتبارون فى القتال أزواجا فى هذا الفضاء ، ويعرض كل ما لديه من الجرأة والشجاعة بمرأى من الجيشين المتحاربين .

ولكن عقم هذه المبارزات التى هلك فيها كثير من الفرسان من الفريقين ، وحصانة المعسكرين مما يعرض الفريق المهاجم إلى الهلاك ، والخوف من أن طول الحرب يمكن المسلمين من القيام بغارات ناجحة فى أراضى قشتالة والبرتغال ، كل هذه حملت الفريقين على التفكير فى تسوية الخلاف بالحسنى . ونزل ألفونسو هنريكيز على نصح قادته ، فأرسل رسله إلى القيصر بطلب الصلح ، فاستقبلهم القيصر بترحاب ، واتفق الطرفان فى الحال على التهادن حتى يعقد الصلح . وفى رواية برتغالية قديمة ، أن ألفونسو هنريكيز استطاع أن يحصر القيصر فى « ڤالديڤيز » ، وأن يوحنا مطران براجا هو الذى توسط فى عقد الصلح . وترك تنظيم السلم إلى الاشراف من الفريقين ؛ واتفق قبل كل شىء وحتى يعقد التفاهم ، على تبادل الأسرى من الجانبين ، وعلى إعادة الحدود بين البلدين كما كانت فى آخر عام من حكم الملكة تيريزا ، ولم يتفق على شىء بالنسبة للنقطة الجوهرية التى أثارت النزاع ، وهى مسألة سيادة قشتالة على البرتغال ؛ فبقى ألفونسو هنريكيز أميراً (كونتاً) للبرتغال ، ولكنه ألزم بتسليم الزعيمين الثائرين اللذين أثارا الحرب وهما الكونت رودريك بيريز والكونت جومز نونيز ؛ وفر الأخير وعبر البرنيه إلى فرنسا ، والتحق راهباً بدير « كلونى » ؛ وأما الأول فقد التجأ إلى رحمة القيصر فعفا عنه . وأقسم الأشراف من الفريقين على مراعاة شروط الصلح . ثم اجتمع القيصر ألفونسو ريمونديز ، وألفونسو هنريكيز معا فى خيمة واحدة ، وقبل كل منهما الآخر ، وأكلا وشربا معاً ؛ ثم عاد كل منهما إلى عاصمته فى أمن وسلام . وهكذا انتهت الحرب بين قشتالة والبرتغال ، وذلك فى سنة ١١٣٨ م .

٥ — ألفونسو هنريكيز أول ملك للبرتغال

لما اطمأن ألفونسو هنريكيز[١] بعقد الصلح على حدود إمارته من ناحية المملكة النصرانية ، أخذ فى الأهبة لمحاربة المسلمين ، أولا لينتقم منهم لما أوقعوه من الغارات والعيث فى أراضى البرتغال ، وثانياً لكى ينتزع منهم بعض الأراضى ويوسع بذلك حدود الإمارة ، فيقوى بذلك دعواه فى الاستقلال بالاستناد إلى أنه افتتح معظم أراضيه من يد أعدائه المسلمين . ثم خرج فى جيش من صفوة الجند البرتغاليين لا يجاوز عدده عشرة آلاف مقاتل ، وسار إلى ضفاف التاجه فى أراضى والى الغرب (غربى الأندلس) وذلك فى أوائل سنة ١١٣٩ م (٥٣٣ هـ) ؛ فلما علم المسلمون بمقدم البرتغاليين جمع ولاة بطليوس ، ويابره ، وباجه ، وإشبيلية جيشاً عظيما أسندت قيادته إلى الوالى أسمر (ولعله إسماعيل) ، والتقى الفريقان فى مكان يسمى «أوريك» (واسمه الآن كابزا دى رايس) على ضفة التاجه اليسرى ؛ وعلى مقربة من ملتقى نهر كوريس بنهر ترجيس ؛ وتقول بعض الروايات المتأخرة المغرقة إن عدد المسلمين كان زهاء أربعمائة ألف مقاتل ؛ على أنه يبدو من سرعة التعبئة والحركة أنه كان من المستحيل على المسلمين أن يحشدوا مثل هذا العدد . أما أقدم الروايات النصرانية التى تتحدث عن حملة الكونت ألفونسو (ولا توجد عن ذلك روايات عربية معروفة) فلا تذكر شيئاً عن عدد البرتغاليين والمسلمين ؛ وكل ما تقوله الروايات البرتغالية بإيجاز هو ما يأتى : فى ٢٥ يوليه ، يوم الاحتفال بمولد القديس ياقب دى آرا ، عام ١١٣٩ ، وهو العام الحادى عشر من حكم ألفونسو ، اشتبك هذا الأمير فى معركة عظيمة مع ملك المسلمين (والروايات النصرانية تنعت الولاة بالملوك) واسمه أسمر ، فى موضع يسمى « أوريك » ؛ وكان

---

(١) سبق أن أشرنا إلى أن الرواية العربية تعرف ألفونسو هنريكيز « بابن الريق » ، وأن كلمة الريق هذه إنما هى تحريف لاسم هنريكيز أو انريكو أى هنرى وهو اسم أبيه ، ثم هى تعرفه بأنه صاحب قلمرية ، أعنى صاحب البرتغال ، لأن قلمرية كانت يومئذ عاصمة البرتغال (راجع ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٠٠) .

فى جيش المسلمين كثير من النساء يرتدين ثياب الرجال ، ويقاتلن على طريقة الفرسان ، واكتشف النصارى ذلك بعد الموقعة حينما وجدوا كثيراً منهن بين القتلى ؛ وكان النصر فى جانب ألفونسو ؛ ولم ينقذ قائد المسلمين أسمر سوى الفرار ، ولكن أميراً مرابطيا هو ابن أخى سلطان المرابطين على ، ويدعى عمر الطاجور[1] كان بين الأسرى .

ولا تذكر الروايات الاسبانية شيئاً عن هذه الموقعة : وحتى رودريك الطليطلى ، ولوقا التطيلى ، يتحدث كل منهما فى روايته الضافية بعبارات عامة عن حروب أمير البرتغال ضد المسلمين ؛ وقد وجدت فى سنة ١٥٩٦ ، فى « الكوبازا » وثيقة مختومة تتحدث عن هذه الموقعة بإسهاب ؛ بيد أن صحة هذه الوثيقة أمر مشكوك فيه جدا ، وبفرض صحتها ، فان ما ورد فيها من الوقائع لا دليل على صحته ؛ وتقدم هذه الوثيقة التى قيل إنها وضعت فى سنة ١١٥٢ بأمر ألفونسو هنريكيز تذكاراً لموقعة « أوريك » ، عن هذه الموقعة تفاصيل مسهبة ، ولكن مدهشة ، لا يوجد ما يؤيدها . وخلاصة ما تقصه علينا ، أن البرتغاليين اشتبكوا فى مروج « أوريك » مع إسماعيل وأربعة أخر من ملوك المغاربة وجيشهم الذى لا يحصى ؛ فخبت شجاعتهم ويئسوا من النصر ، ولم يفكروا إلا فى إنقاذ أنفسهم بالفرار ؛ ولكن المسيح نفسه ظهر بالليل مصلوباً ، للكونت ألفونسو هنريكيز ، وأمره أن يتذرع بالشجاعة فى القتال ، ووعده بالنصر فى تلك المعركة وكل معركة أخرى يخوضها ، كما وعده بأن يضع المملكة التى تقوم على أثر هذه الموقعة تحت حمايته ورحمته ، وأمره بأن يحمل شعارها مكوناً من جروح المسيح الخمسة ، والقطع الفضة الثلاثين التى قبضها يهوذا أجراً لخيانة المسيح .

وتستطرد الروايات اللاحقة ، فتقول إن ألفونسو قص فى اليوم التالى على جيشه نبأ هذه الرؤيا ، فاشتدت عزائم البرتغاليين ، وسرعان ما وضعوا على رأس الأمير تاجاً من الأغصان الخضراء ، ونادوا به ملكا للبرتغال ، وفاضت نفوسهم

(١) لم نجد فى المراجع العربية أى ذكر لهذه الموقعة .

رغبة فى محاربة المسلمين ، وأحرزوا هذا النصر الباهر فى « أوريك » على الأعداء ، ثم أمر الملك ، حسبما تقول الوثيقة المشار إليها ، أن يكون شمار الدروع البرتغالية خمسة دروع صغيرة تمثل جراح المسيح ، توضع فى شكل صليب ، وينقش فى كل منها ثلاثين نقطة من الفضة ويعلو الصليب رمز لثعبان موسى[١] .

وإذا كنا لا نستطيع أن نثق بصحة هذه الوثيقة ، فانه من الثابت مع ذلك أن ألفونسو هنريكيز ، الذى كان يلقب مذ نزعت تيريزا من الحكم بلقب القومس أو الدوق أو الانفانت أو الأمير ، قد تلقب حسبما تدل عليه الوثائق عقب انتصاره فى موقعة « أوريك » بألقاب الملك ؛ معتقداً أن انتصاره على عدد من الأمراء المسلمين يقودون مثل الجيش الزاخر مما يؤهله للملوكية ؛ وبلغ من ثقته عندئذ بقوة الجيش البرتغالى ، الذى أتيحت له مثل هذه الفتوح العظيمة فى أراضى المسلمين ، أن عقد العزم على محاربة القيصر ، إذا أبى أن يعترف به ملكا على البرتغال . والظاهر أيضاً أن المبعوث البابوى الكردينال جيدو الذى كان يومئذ فى اسبانيا قد حث ألفونسو هنريكيز على اتخاذ هذه الخطوة ، ونصح إليه — سعياً إلى توسيع سلطة البابوية الزمنية — أن يعمل على توطيد استقلاله عن قشتالة ، وأن يعلن انضواءه تحت رعاية الكرسى الرسولى ، وأن يدفع إليه جزية رمزية قدرها أربعة أفلاس من الذهب دلالة على خضوعه ، وأن الملك الجديد استمع إلى نصحه ؛ وكان القيصر ألفونسو ريمونديز يومئذ مشغولا بحرب النافاريين والمسلمين ، فلم يرقه اتخاذ ألفونسو هنريكيز لقب الملك ؛ بيد أنه نظراً لأنه لم يكن فى وسعه يومئذ أن يحاول إخضاع الملك الجديد بالسيف ، فقد اكتفى بأن أرسل إلى البابا أنوسان الثانى رسولا يخطره بأنه لا يوافق على اتخاذ ألفونسو هنريكيز لقب الملك ؛ فأرسل البابا إلى اسبانيا سفيراً من قبله ليبحث موضوع النزاع ، ولعله أراد بذلك أن يكسب وقتاً ؛ واقترح السفير على القيصر أن يعترف بالبرتغال كمملكة ، على أن

---

(١) لا تزال هذه الدروع الخمسة المرقومة فى شكل الصليب شعار العلم البرتغالى حتى يومنا .

يعترف ألفونسو هنريكيز مقابل ذلك بخضوعه لسيادة قشتالة كتابع لها . واستغرقت المفاوضات فى هـذا الشأن أعواماً ، كان ملك البرتغال يعمل خلالها على توطيد استقلاله ؛ ولم ينتظر مصادقة على استقلاله من جانب البابا — فقد سمح له فقط بأن يتسمى بالملك — أو من جانب القيصر ، بل وضع بالاتفاق مع شعبه ، ممثلا فى طبقاته الثلاث ، فى المجلس الذى عقد فى لاميجو سنة ١١٤٣ م ، لائحة اتخذت من ذلك الحين أساساً لدستور البرتغـال ، وإليك ما عنى به مجلس لاميجو من الشؤون والقرارات :

٦ — مجلس لاميجو(١)

لـما أبدى البابا تردده فى الاعتراف باستقلال البرتغال عن قشتالة ، واستمر القيصر يهدد البرتغـال بالحرب ، دعا ألفونسو هنريكيز رجال الدين والأشراف ومندوبى المدن إلى عقد اجتماع وطنى فى لاميجو ؛ وعرض فيه المكتوب البابوى الذى يلقب فيه ألفونسو بالملك ، ثم سأل ممثل الملك ، لورنتوس فنيجاس الحضور ، عما إذا كان ألفونسو الذى نودى به ملـكا فى ميدان الحرب فى أوريك ، يبقى ملـكا ؛ ولما أجاب الحضور بالإيجاب ، ووافقوا أيضاً على أن يكون الملك متوارثاً فى أعقابه الذكور ، نهض مطران براجا ، ووضع على رأس ألفونسو تاجاً من الذهب المرصع بالجوهر ؛ ثم نهض الملك الجـديد وسيفه المسلول فى يده ، وصادق على القوانين التى قدمها إليه ممثلو الطبقات للمصادقة ، وعددها ثلاثة ، الأول يتعلق بوراثة العرش ، والثانى يتعلق بالأشراف ، والثالث يتعلق بإقامة العدل .

فأما المسألة الأولى فقد تقرر بشأنهـا ما يأتى : ان وراثة العرش تـكون للأولاد من الذكور ، بالتسلسل من الأب إلى الابن وهكذا ؛ فإذا توفى الولد الأكبر قبل أبيـه ، خلفه فى الوراثة أخوه الذى يليه فى السن ؛ فإذا توفى الملك دون ولد (ولم يكن لهؤلاء عقب) يتولى العرش أخو الملك ؛ ولا تحق الولاية

(١) والمقصود به هنا البرلمان Cortes

لولده من بعــده ، إلا إذا اختاره الشعب بطبقاته الثلاث لولاية العرش ، أما فيما يتعلق بالابنة ، وهل يحق لها أن تحكم ، فقد اختلف الرأى فى البداية ، ثم تقرر فى النهاية بشأنها ما يأتى : إذا توفى الملك دون عقب من الذكور ، وترك ابنة ، فانها تتولى الملك من بعــده ؛ ولكنها لا تستطيع أن تتخذ لها زوجاً إلا من أشراف البرتغال ؛ ولا يمكن أن يغدو هــذا الزوج ملكا ، إلا إذا رزق من زواجه عقباً من الذكور ؛ ولا يحق له أن يجلس فى الاجتماعات العامة إلا عن يسار الملكة ، ولا يحق له أن يضع التاج على رأسه .

وأما المسألة الثانية وهى مسألة الأشراف ، فقد تقرر ما يأتى : ينتمى إلى أرفع طبقة من النبلاء ، كل شخص يجرى فى عروقه الدم الملكى ؛ وينتمى إلى طبقة الأشراف كل من وفق إلى إنقاذ الملك أو أحد أقاربه المقربين ، أو إلى إنقاذ العلم الوطنى فى ميدان الحرب ؛ وأبنــاء الذين يموتون فى سبيل النصرانية ، فى أسر المسلمين ، وأولئك الذين يقتلون فى الحرب أميراً من الأعداء أو ولداً له ، أو من يغتنم علماً من أعلام الأعداء ، وكل من انتمى من قبل إلى رجال الخاص (البطانة) أو الأشراف ، وكذلك كل من حارب فى موقعة « أوريك » فهو وعقبه يحسبون من الأشراف .

وترفع صفة النبل والشرف عن أى شخص يفر من ميدان الحرب وعن عقبه ، وكل من يضرب أنثى بالسيف أو بالحربة ، وكل من يتخلف فى ميدان الحرب عن إنقاذ الملك أو ولده . أو إنقاذ العلم الوطنى متى أتيح له ذلك ؛ وكل من حلف يميناً كاذبة ، وكل من كتم الحقيقة عن الملك ، وكل من سب الملكة أو بناتها ، وكل من فر إلى المسلمين ، وكل من ارتكب جريمة السرقة ، أو سب السيد المسيح ، أو اعتدى على حياة الملك .

وأما فيما يتعلق بإقامة العدل ، فقد اتخذت القرارات الآتية : يجب أن يدين جميع البرتغاليين بالطاعة للملك باعتباره أكبر قاض فى البــلاد ، ولجميع نوابه فى النواحى Alguaziles ، الذين يقيمون العدل وفقاً للقوانين .

ويعاقب على السرقة الأولى والثانية بالتعزير ؛ وفى السرقات الكبرى بالكى بالنار أو بالموت ، وفى الحالة الأخيرة تجب موافقة الملك .

وتعاقب المرأة المتزوجة إذا زنت هى وعشيقها بالحرق ؛ فاذا عفا الزوج عن زوجه ، وجب الافراج أيضاً عن شريكها .

ويعاقب القاتل بالاعدام مهما كان شخصه ، وكذلك يعاقب بالاعدام كل من اغتصب بكراً شريفة ، وتؤول تركته إلى المجنى عليها ؛ فاذا لم تكن المجنى عليها من الأشراف وجب عليهما الزواج .

وإذا اغتصب شخص بالقوة أملاك الغير ، فعلى المعتدى عليه أن يلتجئ إلى قاضى الجهة ، ليقوم بفحص النزاع ورد الشىء المغتصب إلى صاحبه .

ويترك الضرب والجرح إلى تقدير القاضى ، ويعاقب عليهما فى الأصل بغرامة قدرها عشر قطع من الذهب ، مضافاً إليها ما يقدره القاضى .

وكل من اعتدى على أحد من رجال القضاء بالسب أو الضرب ، يعاقب بالكى بالنار أو بغرامة قدرها خمسون قطعة من الذهب ، وبالتعويض المناسب .

ولما انتهت الموافقة على هذه القوانين ، نهض ممثل الملك لورنتيوس فنيجاس وقال : هل ترون أن يذهب الملك إلى بلاط ملك ليون ، أو يؤدى إليه الجزية ، أو يؤديها إلى أحد آخر سوى البابا الذى عينه ملكا ؟ فنهض الجميع وسيوفهم مسلولة ، وقالوا : نحن أحرار ، وملكنا حر ؛ وقد حررنا أنفسنا بأنفسنا ، وإن ملكا يفكر فى مثل ذلك (أى الخضوع للسيادة الأجنبية) ليستحق الموت ، ولو كان قد تولى العرش لما أبقيناه على حكمنا . ثم نهض الملك والتاج على رأسه وسيفه فى يده وقال : إنكم تعلمون كم حرباً خضت فى سبيل حرياتكم ، وإنكم لشهود على ، ولتشهد على هذه اليد وهذا السيف ؛ إن من يفكر فى مثل ذلك (أى الخضوع للسيادة الأجنبية) يستحق الموت ، ولو كان ولدى أو حفيدى ما حق له الحكم ، وعندئذ قال الجميع : لقد أحسنت القول ؛ إن هؤلاء

سيموتون ، ولو تولى مثل هذا الملك لما سمح له بالحكم لأنه فكر فى الخضوع للسيادة الأجنبية ؛ وقال الملك : أجل فليكن هذا .

وهكذا قامت مملكة البرتغال ، واستطاع قومس (كونت) بالوراثة ، وسيد للبلد الصغير الذى يقع من نهرى منهو ومنديجو ، والذى يكاد يقسمه نهر دويره الأدنى إلى قسمين متساويين ، أن ينتهز ظروف عصره ، وأن يجعل نفسه مستقلا عن قشتالة . واعتمد ألفونسو على نصره على المسلمين ، وما أسفر عنه من ضم شقة كبيرة من الأرض إلى إمارته تمتد حتى نهر تاجه ؛ ثم على قوته التى لم تقهرها قوى القيصر ، فاتخذ حين عوده ظافراً من موقعة أوريك ، ألقاب الملك ، وحصل على موافقة البابا على ذلك ؛ ووضع أسس استقلال البرتغال فى عهد عقده مع الشعب البرتغالى ، ممثلا فى طبقاته الثلاث ؛ وهى التى تولت بنفسها التشريع لنظم الحكم والإشراف وإقامة العدل .

تم الجزء الأول

بيان عن المصـــــادر

— ١ —

ذيل المؤلف كتابه بطائفة كبيرة من التعليقات والمصادر ، جمعت معا فى قسم واحد (ص ٣١١ وما بعدها) . ولما كان المؤلف قد وضع كتابه منذ أكثر من مائة عام ، ظهر فى خلالها كثير من المصادر والآثار المتعلقة بتاريخ الأندلس من عربية وأفرنجية ، فقد رأينا أن نستبدل هذه التعليقات بهوامش وتحقيقات جديدة ، نعنى فيها عناية خاصة باستعراض الروايات الإسلامية . على أننا رأينا مع ذلك أن نثبت أهم المصادر التى يعتمد عليها المؤلف ولا سيما المصادر النصرانية التى تجهلها الرواية الإسلامية فى الغالب .

ففى عصر فرديناند الأول وتاريخ اسبانيا النصرانية منذ سنة ١٠٣٥ إلى سنة ١٠٨٦م ، أعنى إلى افتتاح النصارى لمدينة طليطلة ، يعتمد المؤلف على مصدرين معاصرين هما :

(١) Chronicon Monachi Silensis أى « أخبار رهبان سيلوس » ومطبوع فى سلسلة (Florez : Espana Sagrada T. XVII) ؛ والثانى (٢) Chronicon Pelagii Episcopi Ovetensis أى « أخبار بلاجيوس أسقف أوفيدو » ، ومطبوع فى نفس السلسلة (الجزء الرابع عشر) ؛ وهو حسبما يقول المؤلف مصدر ضعيف يكثر فيه السقط والتحريف .

وطائفة من روايات الأديار مثل أديار كومبستل وبرغش وقلمرية وطليطلة ، وقد جمعت معاً فى نفس السلسلة فى الجزء الثالث والعشرين ؛ وهذه لا تحتوى سوى التواريخ والأسماء . ثم Chronicon Lusitanum ، وهى رواية أكثر تفصيلا ، وقد طبعت فى نفس السلسلة فى الجزء الرابع والعشرين .

وأما المصادر اللاحقة فأهمها رواية لوقا التطيلى المسمى (أخبـار العالم) Lucas Tudensis : Chronicon Mundi المطبوع فى فرانكفورت سنة

١٦٠٦ فى سلسلة Hispana illustrata (الجزء الرابع) ؛ ورواية رودريك مطران طليطلة[1] Rodericus Archiepiscopus Toletanus ، ومطبوع فى نفس السلسلة (الجزء الثانى) . وقد كتبت كلتاهما فى أوائل القرن الثالث عشر ؛ وتاريخ اسبانيا العام الذى كتبه الملك ألفونسو العالم Cronica general de Espana . وقد كتب فى أواخر القرن الثالث عشر . وفى هذه المصادر تختلط الأساطير بالتاريخ فى مواطن كثيرة ، ولكن لا يصعب على الباحث المحقق أن يستخرج منها الوقائع الصحيحة ؛ وتاريخ المطران رودريك هو أشهر هذه الآثار النصرانية خصوصا وقد اعتمد فيه على كثير من الآثار الإسلامية المعاصرة والسابقة .

* * *

هـذا إلى طائفة من الآثار التاريخية العامة التى كتبت فى عصور متأخرة اسبانية وغيرها مثل تواريخ ماريانا (Mariana) وفيريراس (Ferreras) وماسدى (Masdeu) وأورتس اى سانز (Ortiz y Sanz) ؛ وغيرها وآثار جامعة منوعة أخرى نذكر منها :

Sandoval : Histor. de los Reyes de Castilla y de Leon (Pampl. 1634).

(تاريخ ملوك قشتالة وليون)

Annales de Navarra (Pampl. 1766).

(أخبار ناڤارا)

Zurita : Annales de la Corona de Aragon (Zarag. 1610).

(تاريخ عرش أراجون)

Dom Vissette : Histoire de Languedoc.

(تاريخ لانجدوك)

Von Schmidt : Geschichte Aragoniens (Leipzig 1829).

(تاريخ أراجون)

* * *

(١) وهو مطبوع أيضاً باللاتينية مع الطبعة العربية لتاريخ المكين بن العميد المطبوع فى ليدن سنة ١٦٢٥ .

أما الأخبار الوافية عن دول اسبانيا المسلمة منذ سقوط الخلافة الأموية حتى مقدم المرابطين إلى شبه الجزيرة أو بعبارة أخرى تاريخ ملوك الطوائف ، فلا توجد إلا فى المصادر العربية ؛ وقد جمع منها كوندى Conde طائفة كبيرة فى كتابه : Hist. de la Domincion de los Arabes en Espana فى الجزءين الثانى والثالث ، واعتمد بالأخص على مؤرخ قرطبى عاش فى القرن الخامس من الهجرة هو ابن بشكوال . وكذلك نقل منها كاردون Cardonne فى كتابه : Hist. de l'Afrique et de l'Espagne sous la Domination des Arabes ؛ وموروفى Murphy فى كتابه History of the Mahometan Empire in Spain ؛ ووردت فى فهرس الغزيرى Casiri عن مكتبة الاسكوريال Bibliotheca Arabico-Hispano Escurialensis ، نبذ وشذور قيمة نقلها عن ابن الخطيب وغيره ؛ واعتمد المؤلف أيضا على تاريخ أبى الفدا (والترجمة اللاتينية) ، وعلى تراجم ابن الأبار القضاعى ، وعلى معجم دربلو (D'Herbelot) ، وعلى تاريخ العرب الذى وضعه رودريك الطليطلى Historia Arabum ؛ وأما عن تاريخ المرابطين والموحدين فأكثر ما يعتمد عليه المؤلف ، كتاب أبى الحسن ابن على بن أبى زرع المسمى روض القرطاس ، الذى نشر بعناية المستشرق Dombay فى أجرام سنة ١٧٩٤ ، ثم نشر بعد ذلك مع ترجمة لاتينية بعناية المستشرق Thornberg فى أوبسالة سنة ١٨٤٣ .

* * *

وفيما يتعلق بالتاريخ الاسبانى من سنة ١٠٨٦ إلى سنة ١١٣٤م ، ولا سيما عصر الملكة أوراكا وألفونسو المحارب ينوه المؤلف بمصادر منها : Historia Compostellana ، الذى كتبه بأمر الأسقف جلميرز (أسقف كومبستل) ثلاثة من القساوسة ، ونشر فى سلسلة Florez:Espana Sagrada التى سبقت الإشارة إليها (الجزء العشرون) ؛ بيد أنه يلاحظ أن هـذا المؤلف يميل بنوع خاص إلى تأييد الملكة أوراكا والحملة على الملك ألفونسو ؛ و Cronicon Alphonso Imper-

atoris (تاريخ القيصر ألفونسو) وهو مطبوع فى نفس السلسلة (الجزء الحادى والعشرون) ، وقد ضاعت بداية هذا التاريخ ، وما بقى منه يبتدىء بموت الملكة أوراكا ؛ وكتاب Memorias de las Reynas Catholicas (تاريخ الملكات الكاثوليكيات) وهو بقلم Florez ومطبوع بمدريد سنة ١٧٧٧ .

أما تاريخ البرتغال القديم فليست له مصادر معاصرة ذات شأن سوى Cronicon Lusitanum الذى أشرنا إليه ، ورواية موجزة جدا هى Cronicon Conimbricens (تاريخ قلمرية) . وفيما يتعلق بالعصور المتأخرة يعتمد المؤلف بنوع خاص على كتاب Monarchia Lusitana (المملكة البرتغالية) الذى كتبه Bernard de Brito حتى سنة ١٠٩٥ وأكمله Antonio Brandao ، وظهر فى المجموعة المسماة Historias de Portugal المطبوعة فى لشبونة سنة ١٨٠٦ (الجزآن الأول والثانى) ؛ وعدة مصادر متأخرة نقلت عنه .

— ٢ —

هذا وقد رجعنا فى وضع الهوامش والتحقيقات التى ذيلنا بها على هذا الكتاب إلى المصادر الآتية :

تاريخ ابن الأثير .

تاريخ أبى الفدا .

وفيات الأعيان لابن خلكان .

صبح الأعشى للقلقشندى .

معجم البلدان لياقوت .

تاريخ ابن خلدون .

أخبار مجموعة فى فتح الأندلس .

نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب للمقرى .

الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس لأبى الحسن بن على بن أبى زرع الفاسى .

قلائد العقيان للفتح بن خاقان .
الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام .
المعجب فى تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشى .
الحلة السيراء لابن الأبار .
البيان المغرب لابن عذارى المراكشى .
الحلل الموشية لابن الخطيب .
أخبار المهدى ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين لأبى بكر الصنهاجى .
(وهى مجموعة رسائل وأخبار عن المهدى ، نشرها الأستاذ ليفى بروفنسال عن مخطوط بالاسكوريال مقرونة بترجمة فرنسية)
الاستقصا فى تاريخ المغرب الأقصى للسلاوى .
نزهة المشتاق للشريف الادريسى
وأيضا ، تاريخ دوزى :
Hist. des Musulmans d'Espagne الطبعة التى أصدرها الأستاذ ليفى بروفنسال (الجزء الثالث) .
وتاريخ كوندى (الترجمة الفرنسية) :
Hist. de la Domination des Arabes en Espagne.

فهـــــرس

للأعلام الجغرافية والتاريخية الأندلسية

ومقابلها الأفرنجى

لما كانت الأعلام الجغرافية الأندلسية ، لا تزال تنقل فى كتبنا الحديثة محرفة عن نصوصها الأفرنجية على خلاف كبير فى رسمها بين الناقلين ، ولما كان معظم هذه الأعلام يرجع فى الواقع إلى أصول عربية ترجمت عنها الأعلام الأفرنجية المقابلة أو حرفت ، فقد رأينا أن نثبت فيما يلى ، أهم الأعلام الجغرافية الأندلسية بأصولها العربية ومقابلها الأفرنجى ، وأن نضيف إليها بعض الأعلام التاريخية التى وردت فى الكتاب ، ومقابلها العربى ؛ وقد آثرنا أن نكتب الأعلام الأفرنجية برسمها الإنكليزى ، نظراً لأنه أكثر شيوعا من غيره ، ولأن الفرق بينه وبين اللغات الأخرى يسير واضح .

أغمات	Agmat
الأرك	Alarcos
ألبة والقلاع	Alava et Castella Vetulla
البسيط	Albacete
شَـنْـتَـمَـرية الشرق (شنتمرية ابن رزين)	Albarracin
القصر	Alcazar

Asturias أشتوريش

Atlantic Ocean

البحر الأعظم ، البحر المحيط ، بحر أقيانس ، بحر الظلمات

Avila آبله

Badajoz بطليوس

Baza بسطه

Baeza بياسة

Balearic Isls الجزائر الشرقية

Barcelona برشلونة ، برشنونة

Basque (Navarra)

نبرّه ، بلاد البشكنس

Beja باجه

Biscay بسكونيه ، بسكونس

Bermudo برمند

Barbastro بربشتر

Bobastro ببشتر

Burgos برغش

Cadiz قادس

Calahorra قلهرّه

Calatajud قلعة أيوب

Calatrava قلعة رباح

Carmona قرمونة

Carcassonne قرقشونه

Castellon قسطلون

Alédo حصن لبيط أو حصن ليط

Algarve الغرب (غربى الأندلس)

Algeciras الجزيرة (الجزيرة الخضراء)

Alhambra الحراء (قصبة الحراء)

Alicante أليقنت

Almeria المريّة

Almodavar المدوّر

Almohades الموحدون

Almoravides المرابطون

Almunecar المنكب

Alpuxarras-Alpujarras البشرات

Alphonso

أدفنش — أذفنش — ألفنش

Alphonso of Aragon
(Alphonso Sanchez)

ابن ردمير أو رذمير الفرنجى

Alphonso Henriquez ابن الريق

Alphonso Raimundez

أدفنش بن رمند أو السليطين

Alpuente البونت

Alvar Fanez البرهانس

Andujar أندوجار

Aragon

بلاد أرغون ، أرغن ، رغونة ، الثغر الأعلى

Castile قشتالة
Catalonia قطلونية
Coria قورية
Cerdagne شرطانية
Ceuta سبتة
Chinchilla جنجاله ، جنجيله
Cid Campeador
السيدالكنبيطور ، القنبيطور ، لذريق القنبيطور
Cintra شنترة
Coimbra قُلُمْرية ، قلنبرية
Cordova قرطبة
Cortes البرلمان الاسبانى
Cuenca قونقة ، كونكة
Denia دانية
Daroca قلعة دروقة
Don Pedro دون بطره
Duero نهر دوره
Ebro نهر إبره
Ecija إستجه
Elvira إلبيره
Evora يابره ، يافوره
Fez فاس
Ferdinand فردلند
Fraga إفراغه
Frangolis فرنجولش
Franks الفرنج
Galicia جلّيقية أو غليسية
Garcia غرسية
Gibraltar جبل طارق ، جبل الفتح
Goths القوط
Granada غَـرناطة
Guadalajara وادى الحجارة
Guadalquivir
وادى الكبير ، النهر الكبير
Guadarrama وادى الرملة
Guadiana وادى يانه ، وادى آنه
Guadix وادى آش
Hospitallers الاسبتارية
Huelva ولبة ، أونبة
Huesca وشقة
Huete وبذه ، وبذى
Ivica جزيرة يابسة
Jaca جاقة
Jaen جيّان
Jativa (Xativa) شاطبة
Jerez (Xerez) شريش
Jerez Alfronterra
شريش الفرنتيرة
Lausitania (Portugal) البرتغال

لبلة Niebla

Normans

الأرذمانيون ، المجوس ، النورمانيون

أكسونبة ، أكشونبة Ocsonoba

وهران Oran

أريوالة ، أريولة Orihuela

بنبلونة Pamplona

بطرنة Paterna

بلاى ، بلايو Pelagius

جبال البرت ، البرتات Pyrenees

رذمير Ramiro

رمند Raymond Berengar

نهر رذونة ، وادى رذونة Rhône

حصن روطة Roda (Rueda)

لذريق ، رذريق Roderic

رجار الفرنجى Roger

Roncesvalles

باب شزروا ، باب الشزرى

رندة Ronda

الزلاقة Sacralias, Zallaca

شلمنقة ، سلمنقة Salamanca

سلا Sala

جزيرة شلطيش Saltis

شانجه ، شانشه Sancho

Santa Maria Algarve

شنتمرية الغرب

ليون Leon

لاردة Lerida

أشبونة Lisbon

لوشة Loja

لورقة Lorca

مجريط Madrid

مالقة Malaga

مقودة Maquada

Mauretania

المغرب الأقصى (مراكش)

مدينة سالم Medinaceli

مكناسة (بالأندلس) Mequinenza

ماردة Merida

مارتلة ، ميرتلة Mertola

جزيرة منورقة Minorca

مَراكُش Morocco

Mozarabes

النصارى المعاهدون ، المعاهدون

المدجنون Mudijares

المجاورون Mugavares

مرسية Murcia

مربيطر Murviedro (Sagunto)

أربونة Narbonne

Navarra (Basque)

نبرة ، بلاد البشكنس

طليطلة Toledo
طرطوشة Tortosa
تولوشة Toulouse
تُطيلة Tudela
تدمير Tudmir
تونس Tunis
أبدة Ubeda
إقليش ، إقليج Ucles
بلنسية Valencia
بلد الوليد Valladolid
بازو Viseu
شاطبة Xativa (Jativa)
نهر شنيل Xenil
شريش Xeres (Jerez)
Xeres Alfronterra
شريش الفرنتيرة
سمورة Zamora

شنترين Santarein
شنت ياقب Santiago
سَرَقُسطة Saragossa
سقوبية Segovia
نهر شقر Segura
إشبيلية Sevilla
Sidonia (Medina)
شذونة ، مدينة شذونة
جبل الشارات Sierra Morena
جبل شُلَّير Sierra Nevada
شِلْب Silves
نهر تاجه ، تاجو Tagus (Tajo)
طنجة Tangier
جزيرة طريف Tarifa
طَرَّكونة Tarragona
الداوية (فرسان المعبد) Templars
طريانة Teriana

فهرس الموضوعات

الكتاب الأول

تاريخ الأندلس منذ سقوط الدولة الأموية

إلى مقدم المرابطين

صحيفة

صحيفة

الكتاب الثانى

سيادة المرابطين فى شبه الجزيرة

فى عصرى الفونسو السادس ملك قشتالة ، والفونسو المحارب ملك أراجون

الكتاب الثالث

اضمحلال سيادة المرابطين

فى عصر القيصر الفونسو ريمونديز وقيام مملكة البرتغال

الإشراف اللغـوى : عــزة شــبل
الإشـراف الفنـى : محسن مصطفى

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة

المركز القومى للترجمة

ميراث الترجمة

يوسف أشباخ

تاريخ الأندلس

فى عهد المرابطين والموحدين

الجزء الثانى

ترجمة وتعليق: محمد عبد الله عنان

تقديم وتنويه: سليمان العطار

1880/2



كيف حكم البربر الأندلس؟ تلك قصة طويلة لدولتين إمبراطوريتين قامتا فى المغرب هدمت ثانيتهما الأولى. سمت أولى الدولتين نفسها دولة المرابطين، أما الثانية فسمت نفسها دولة الموحدين. هذه القصة الطويلة هى موضوع هذا الكتاب الممتاز الذى ترجمه مؤرخ الأندلس الأكبر دون نظير له على المستوى العربى العلامة محمد عبدالله عنان.

والأهمية البالغة لهذا الكتاب ترجع لكون مؤلفه مطلعا على المصادر الإسبانية وغيرها من المصادر الأوروبية لأحداث الأندلس بأقسامه الثلاثة، وارتباطها الوثيق وتداخلها. والمؤلف أيضا ينتمى لجيل من المستشرقين بدأ يستعين بالمصادر العربية بجانب المصادر الإسبانية والأوروبية، لكن حتى وقت صدور الكتاب (1837) لم تكن معظم تلك المصادر قد خرجت للنور، رغم ما بذله المؤلف من جهد للاطلاع على مخطوطات كلفته أن يجوب مصر وبعض البلاد العربية الأخرى وغيرها من مظان وجود مخطوطات عربية تكشف عن تاريخ تلك الحقبة.

تصميم الغلاف: ياسر عبد القوى

تاريخ الأندلس

فى عهد المرابطين والموحدين

(الجزء الثانى)

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: رشا إسماعيل

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1880
- تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين: الجزء الثانى
- يوسف أشباخ
- محمد عبد الله عنان
- سليمان العطار
- 2014

هذه ترجمة كتاب:

Geschichte Spaniens und Portugals zur Zeit der Herrschaft der Almorawiden und Almohaden

Von: Joseph Aschbach

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

تاريخ الأندلس

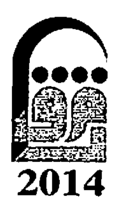
فى عهد المرابطين والموحدين

(الجزء الثانى)

تأليـــف : يوســف أشــباخ

ترجمة وتعليق : محمد عبد الله عنان

تقديم وتنــويه : ســليمان العــطار



2014

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

أشباخ، يوسف.
تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين: الجزء الثانى/ تأليف: يوسف أشباخ، ترجمة وتعليق: محمد عبد الله عنان تقديم وتنويه: سليمان العطار.
القاهرة: (المركز القومى للترجمة)، ٢٠١٤
٢٩٢ ص؛ ٢٤ سم
١ - الأندلس - تاريخ - الموحدون.
٢ - الأندلس - تاريخ - الخلفاء المرابطون.
(أ) عنان، محمد عبد الله (مترجم).
(ب) العطار، سليمان (تقديم).
(جـ) العنوان ٩٥٣,٠٧١٣

رقم الإيداع ٢٠١١/٥٠٥٤
الترقيم الدولى 4 - 497 - 704 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

بسم الله الرحمن الرحيم

يشتمل هذا الجزء — وهو القسم الثانى من كتاب تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين — على بقية تاريخ دولة الموحدين منذ افتتاحهم لغرناطة حتى سقوط دولتهم فى المغرب والأندلس . ويعنى المؤلف عناية خاصة بعرض تاريخ عبد المؤمن وفتوحه وتنظيم دولة الموحدين فى عهده ، وتاريخ أبى يعقوب المنصور الظافر فى معركة الأرك ، وهى أعظم المواقع التى نشبت بين الموحدين والأسبان ؛ ثم يقدم إلينا رواية ضافية عن موقعة العقاب التى تليها فى الأهمية ، والتى حُطمت فيها قوى الموحدين فى الأندلس ، وبدأ انهيار دولتهم من بعدها .

ويعرض المؤلف خلال ذلك تاريخ الممالك الأسبانية النصرانية بتفصيل واف ، وهو ما ينقص المصادر العربية ، ويحدثنا عن أحوالها الداخلية ، وعن نظمها وقوانينها ، وعن نموها المطرد عما تفتتحه تباعاً من القواعد والثغور الإسلامية ، وعن الحوادث والظروف التى أدت إلى تضعضع دولة الإسلام بالأندلس ، وسقوط قاعدتيها العظيمتين قرطبة وإشبيلية فى أيدى النصارى .

ويختتم المؤلف كتابه بالتحدث عن نظم دولتى المرابطين والموحدين ، وعن أحوال الحضارة والعلوم فى عهدها ؛ وحديثه فى ذلك موجز ، بيد أنه يتضمن بعض المعلومات والتعليقات المفيدة .

وقد اتبعت فى هذا الجزء نفس الطريقة التى اتبعتها فى الجزء الأول ؛ من التعليق والشرح فى جميع المواطن التى تقتضى شيئاً من الإيضاح، أو التصحيح أو التذييل، وعنيت عناية خاصة بذكر الأصول والمصادر العربية ؛ وتفضل صديق العلامة الأستاذ أحمد بك أمين بقراءة ترجمة هذا الجزء، كما قرأ ترجمة الجزء الأول، فله جزيل الشكر على جميل معاونته ؟

القاهرة فى ١٢ جادى الأولى سنة ١٣٦٠
الموافق ٧ يونية سنة ١٩٤١

محمد عبد الله عنان

الكتاب الرابع

سيادة الموحدين

والحكومة الخماسية النصرانية فى شبه الجزيرة الاسبانية

فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر

الفصل الأول

تاريخ اسبانيا النصرانية

منذ وفاة القيصر ألفونسو ريمونديز
حتى ولاية الملك ألفونسو الثانى الأرجونى الحكم

كان المسلمون والنصارى ، يتناوبون التفوق فى المعارك الطويلة التى تنشب بينهما فى شبه الجزيرة الاسبانية ، تناوب المد والجزر . فقد لاح قبيل عبور المرابطين إلى الأندلس ، أن الإسلام فى اسبانيا قد انتهى أمره . وتسمى الفونسو السادس قيصراً على جميع اسبانيا ؛ ولكن تغير كل شىء بعد موقعة الزلاّقة ، وأضحى يهدد النصرانية فى شبه الجزيرة خطرُ الفناء على يد المسلمين ، شأن الإسلام بها من قبل ؛ بيد أن انهيار سلطان المرابطين بسرعة ، واتحاد القوى النصرانية تحت لواء القيصر الفونسو ريمونديز ، مكّنا النصارى من التفوق مرة أخرى . فلما تمزقت اسبانيا النصرانية عقب وفاة هذا القيصر القوى ، وأدت فتوح الموحدين فى الأندلس ، وفى البسائط المجاورة ، إلى تغيير جديد فى سير الحوادث ، استرد الإسلام تفوقه من جديد ، واضمحلت سيادة النصرانية ، وخيل أنها لن تستطيع النهوض من عثرتها .

ولما توفى القيصر الفونسو ريمونديز ، لاح أن كوكب السعد الذى قاد النصارى الاسبان حتى ذلك الحين إلى النصر ، قد خبا تألقه ؛ وفقدت أوصال الدولة الاسبانية ، الرأس ووحدة العزم ، ونشأت خمس دول تتعادل فى القوة ،

خلال معاركها الداخلية أمر العدو المشترك ، ولم تثب إلى رشادها ، حتى كان هذا العدو يهدد بالفناء كل شىء ؛ وعندئذ فقط اتحد النصارى إزاء الخطر المشترك ، وعاد التوفيق يحالفهم فى كفاحهم ضد الإسلام .

وقسم القيصر مملكته بصورة خطرة على مستقبلها ، فمنح أكبر أولاده سانشو الثالث عرش قشتالة والأراضى التابعة لها فى أعالى التاجه ، وعاصمتها طليطلة ، وجعل له أيضاً حق الجزية على مملكتى نافارا وأراجون ؛ ومنح ولده الأصغر فرديناند الثانى مملكة ليون وجلّيقية واشتوريش وجزءاً من الفتوح الجديدة فى أراضى استرامادوره ، وكذلك دعوى السيادة على مملكة البرتغال . وإذا كان القيصر الفونسو الثامن (ريمونديز) لم يستطع مع ما اجتمع له من قوى قشتالة المتحدة ، أن يرغم ملك البرتغال على الخضوع لأداء الجزية ، أو أن يفرض على الممالك البرينية (نافارا وأراجون) أى نوع من السيادة الحقيقية ، فقد كان من الواضح بعد تقسيم مملكة قشتالة ، أن الممالك النصرانية الخمس التى قامت فى شبه الجزيرة أضحت كل منها تبحث عن صوالحها الخاصة مستقلة عن الأخرى ، غير مكترثة بما إذا كان الوطن المشترك يغنم بذلك أو لا يغنم . ومن ثم فكثيراً ما كان يحدث أن يقتتل القشتاليون ، والليونيون ، والبرتغاليون ، والنافاريون ، والأرجونيون فيما بينهم بأشد مما يقاتلون أعداءهم المسلمين فى الأندلس أو فى بلنسية . وقد كان لرجال الدين الاسبان الفضل فى أن وحدة اللغة والخلال والدين ، وهى التى كانت فى بعض الأحيان ، قلما تحدث أثرها فى القلوب التى تحجرت بطول الصراع ، لم يخب أثرها ، وعاد السلام بعد الخصام بين الأمراء النصارى ، واجتمعوا فى جبهة موحدة لقتال المسلمين .

ولما قسم القيصر مملكته بين ولديه (وكان ذلك قبل وفاته بنحو عشرة أعوام) لم يكن فى نيته قط أن يشطرها إلى مملكتين مستقلتين ، بل كان يرى إلى أن تبقى مملكة قشتالة ، وعاصمتها طليطلة ، مركز السيادة النصرانية فى اسبانيا ، وأن تكون ليون مملكة تابعة لها ، مرتبطة بها ، على مثال أراجون

وناڤارا . وهكذا كان من برنامج هذا المشروع أن يتخذ الملك سانشو الثالث ملك قشتالة لقب القيصر ؛ ولكن قشتالة لم يكن بوسعها أن تؤيد سلطانها على الدول الاسبانية الأخرى ، إلا إذا كانت متفوقة فى القوى ، ولم يكن يتاح لها هذا التفوق إلا إذا ضمت لها مملكة ليون . وكانت الأسر القوية فى ليون وقشتالة بما تضطرم به من الحسد والبغض ، تعمل على فصم أواصر القربى التى تربط الأسرتين الملكيتين ، وعلى دفع الدولتين المتجاورتين إلى قتال بعضهما . ومن ذلك الحين اضطرت قشتالة أن تنزل عن سيادتها على اسبانيا النصرانية ، وحاولت ناڤارا وأراجون أن تتحررا من عهد الجزية ، وهى محاولة كللت بالنجاح .

وقد استطاع الملك سانشو الثالث بكثير من القوة والعزم أن يقيم هيبة قشتالة مدى حين ؛ بيد أن حكومته لم تعش طويلاً ، ولم تحظ نظمه وترتيباته بشىء من الدوام . وعمد أخوه فرديناند ملك ليون إلى جميع العظماء الذين يخاصمون لقشتالة (وكان من بين هؤلاء القومس الشجاع بونسيوس دى منرڤا) فجردهم من ألقابهم ومناصبهم ، وأخرجهم من مملكته ، معتقداً أنه يغدو بذلك أقدر على حفظ استقلال ليون . ولم يلق المبعدون فى قشتالة حفاوة وترحابا فقط ، بل لقوا كذلك عوناً ضد مليكهم . وقاد سانشو ملك قشتالة أشراف ليون الفارين على رأس جيش قوى إلى ليون ، وأرغم أخاه الذى لم يكن قد تأهب للحرب بعد ، على أن يرد المبعدين إلى مناصبهم وأملاكهم ، وأرغمه كذلك فى لقاء خاص بينهما على أن يتعهد بأداء الجزية .

وانتهز سانشو السادس ملك ناڤارا الملقب بالقوى ، وصهر ولدى القيصر ، فرصة هذه الحرب الأهلية بين الأخوين ، ليرفع نير قشتالة عن مملكته ، وليسترد ولاية ريوجا التى كانت من قبل تابعة لمملكة ناڤارا ، واستطاع باتفاق عقده مع أراجون بأن ترد كل مملكة إلى الأخرى ما افتتحته منها من الأراضى ، أن يتفرغ لمقارعة قشتالة . بيد أنه لم يتح له بعد افتتاح ولاية ريوجا أن يحتفظ بها ، ذلك أنه كان يعتمد على انشغال قوات قشتالة بمحاربة ليون ، وعلى أن تنهض مملكة

أراجون فى الوقت نفسه فتعمل على التحرر من عهد الجزية لقشتالة ؛ فلما لم يقع هذا الحادث أو ذاك لم يرد أن يمضى وحده فى خوض الحرب ؛ فترك ولاية ريوجا دون أن يشتبك فى أية معركة مع الجيش القشتالى الذى أرسل لقتاله ، متوجساً من زحف القشتاليين على نافارا ذاتها ؛ ثم عقد بين الفريقين صلح ردت الأمور بمقتضاه إلى ما كانت عليه .

وهكذا أثبت سانشو الثالث أنه ملك ذو بأس ، واستطاع بسرعة أن يرد أخاه الملك ، والملكين التابعين له ، إلى واجب الخضوع والطاعة . وكان قد اتخذ الأهبة لتتويجه ؛ وكان المفروض بلا ريب أنه سيحذو حذو ملوك قشتالة السالفين فى اتخاذ لقب القيصر ، وتقرر بالفعل أن يشهد ريموند برنجار الرابع ملك أراجون وقطالونية احتفال التتويج وأن يحمل الصولجان كتابع للعرش ، وأن يشهده كذلك الملكان الخاضعان للجزية ملكا ليون ونافارا ، وأن تنتهز فرصة اجتماع الملوك الأربعة للتشاور فى تنظيم حملة مشتركة ضد الموحدين ، الذين اتسعت فتوحهم فى جنوبى اسبانيا اتساعا يدعو إلى الجزع .

ولكن هذه الخطط كلها انهارت لوفاة ملك قشتالة على غير انتظار ؛ ذلك أن سانشو الثالث توفى فجأة فى طليطلة ، بعد أن حكم عاما واحداً وشهراً (من أول أغسطس سنة ١١٥٧ إلى ٣١ اغسطس سنة ١١٥٨) . ولم يترك ذلك الملك البارع فى الخلال والفروسة ، الذى سمى « بالمحبوب » ، وأجمعت الروايات المختلفة على مديحه ، سوى طفل فى الثالث من عمره هو الفونسو الملقب « بالنبيل » أو « الصغير » . وحرص سانشو الثالث على أن يبعد ملكى أراجون ونافارا عن كل تدخل فى شؤون الحكم فى قشتالة فلم يختر زوجه الملكة بلانكا أخت ملك نافارا ، أو أخاه فرديناند ملك ليون للوصاية ونيابة الحكم ، ولكنه اختار فى وصيته ، للولاية على ولده وللنيابة فى الحكم ، مؤدبه الكونت جوتيرو فرنانديز سليل أسرة كاسترو القوية ، وقرر فى وصيته أيضاً أن يحتفظ جميع الأشراف بألقابهم ومناصبهم حتى يبلغ ألفونسو سن الرشد .

ومن ذلك الحين يتخذ تاريخ اسبانيا النصرانية طابعاً جديداً ، فلم يبق الملوك بعدهم محور السلطان والحكم ، ولكن الأسر الاسبانية القوية هي التي تتولى عندئذ هذا الدور ، وهي التي توجه سير النظم والحوادث الداخلية وتسيطر بالأخص على أقدار الحرب ضد العدو الخارجي ؛ أجل لم يقع تغلب الأرستقراطية على سلطة الملك في الدول النصرانية الخمس في نفس الوقت ولا بنفس النسبة ، ولكن عوامل هذا التغلب كانت تجثم منذ بعيد . ذلك أنه حيث يسبغ السيف والشجاعة أعظم التقدير ، وحيث تغدو الحرب الدائمة مهمة الحياة ، فإن النفوس التي تعودت مقارعة الحروب والأخطار ، تأبى — إذا لم يكن خطر العدو الخارجي داهما — أن تنحنى أمام السلطان أو تنزل راضية عند حكم القانون والنظام . ولم تك معظم الممالك النصرانية في شبه الجزيرة الاسبانية ينقصها الملوك الأقوياء ذوو الخلال الحربية البارعة ؛ فإن سانشو الثالث ملك قشتالة ، والفونسو هنريكيز ملك البرتغال ، وفرديناند الثاني ملك ليون ، وسانشو السادس ، الملقب بالقوى ، ملك ناڤارا ، وريموند برنجار الرابع ملك قطلونية وأراجون ، كانوا جميعاً ملوكا ، يقدمون في كثير من الحروب التي يخوضونها على رأس فرسانهم الشجعان ، القدوة لكل فضيلة حربية ؛ ولكن الأرستقراطية نمت واشتد بأسها ، حتى غدوا ، أو غدا من بعدهم خلفاؤهم القصر ، عاجزين عن التغلب على قواها المتفوقة . وظهر ذلك في البداية حينما توفى سانشو الثالث ملك قشتالة ، وخلفه طفل قاصر ؛ ثم ظهر مثل ذلك سراعا في أراجون وقطلونية حينما توفى الأمير الباسل ريموند برنجار الرابع ، وخلفه أيضاً ولده القاصر ألفونسو الثاني .

وتولى ريموند برنجار الرابع منشئ مملكة أراجون وقطلونية المتحدة حكم أراضيه الأصلية (قطلونية) زهاء إحدى وثلاثين عاما ، وحكم مملكة أراجون مدة تقل عن ذلك ببضعة أعوام ؛ وكان في حكمه أميراً ذكيا مستنيراً ، وحاكما قويا في نفس الوقت . وأوحى إليه حسن فهمه لظروف اسبانيا ، أن ينضوى منذ البداية تحت سلطان قيصر قشتالة القوى ، وأن يرتبط معه بأوثق الصلات ؛ وقد ضحى

فى سبيل هذه الصلة حتى باستقلال مملكته ، موقناً بأن انضواء مملكته المكونة من وحدات متنافرة تحت حماية قشتالة ، هو أسرع السبل لظفرها باستقلال قوى الدعائم .

وأنفق رعوند برنجار كل حياته فى محاربة المسلمين ، ومحاربة ملك نافارا ، والأشراف الفرنسيين فى لانجدوك وپروفانس . وقد تحدثنا فيما سبق عما قام به فى سير الحوادث الاسبانية ، وخصوصاً فى افتتاح المرية ، وعن افتتاحه لطرطوشة ، ومكونيزا ، ولاردة ، وافراغه ؛ وعن حروبه مع نافارا ، وصداقته للقيصر الفونسو رعونديز ؛ وبقى علينا أن نتحدث هنا بإيجاز عن حروبه فى لانجدوك وبروفانس ، وهو حديث فى الواقع أكثر اتصالا بالتاريخ الفرنسى منه بالتاريخ الاسبانى .

منذ اتحاد قطلونية مع أراجون فى مملكة واحدة ، غاض كل أثر كان يربط قطلونية حتى ذلك الوقت ، بعهد تأدية الجزية لفرنسا ؛ ومحيت من الوثائق الرسمية حتى عادة إثبات سنى حكم الملوك الفرنسيين ، وأصبح معظم ولاية لانجدوك كما أسلفنا من قبل ، ملكاً لأمير قطلونية ؛ وكان يحكم ولاية بروفانس الكونت برنجار رعوند ، ولد صاحبتها الكونتة دولشى ، بالوراثة عن أمه ، وهو أيضاً أخ لرعوند برنجار الرابع .

ولكن الكونت رعوند دى بو ، ولد أخت الكونتة دولشى ادعى حقا على نصف ولاية بروفانس ، وحارب صاحبها الكونت برنجار رعوند بمعاونة الكونت الفونس أمير تولوز (تولوشه) ، والجنويين ، وعدة كبيرة من الأنصار من فرسان الولاية ؛ وقبل أن يستطيع الكونت رعوند برنجار الرابع ملك أراجون أن يبادر بإنجاد أخيه الكونت برنجار ، قتل برنجار مدافعاً عن أرضه فى موقعة نشبت بينه وبين سفينة جنوية (سنة ١١٤٤ م) ، فتولى أمير قطلونية الوصاية على ولده الطفل ، ورباه فى قصره ، وحفظ له أراضيه ، بالرغم من أن الكونت دى بو سعى إلى لقاء القيصر الرومانى كونراد الثالث ، وهو صاحب السيادة على مملكة برجونية التى تتبعها ولاية بروفانس ، وذلك فى ڤيرزبورج (فى مارس أو ابريل سنة ١١٤٥) ،

وحصل منه لنفسه ولعقب أخت الكونته دولثى على حق حكم جميع الأراضى المتنازع عليها [illegible] الجزية ؛ ولكن رعوند برنجار الرابع ، بعد أن افتتح مدينة آرل[١] ، أرغم أشراف الولاية على أن يؤدوا له يمين الطاعة ، وتلقب من ذلك الحين أيضاً بكونت بروڤانس ، باعتباره حاكم الولاية بالنيابة عن ابن أخيه ، ورأى رعوند دى بو نفسه فى النهاية مرغماً على التنازل عن كل دعوى على بروڤانس . ولكنه بعد أن توفى (سنة ١١٥٠م) ، حاول ولده الكونت هوجو أن يثير هذه الدعوى من جديد ، وحصل لنفسه أيضاً من القيصر فردريك الأول على تأييد حقه فى حكم أراضى جدته (سنة ١١٥٣م) ، وهكذا نشبت الحرب مرة أخرى ، وقدم رعوند برنجار الرابع إلى بروڤانس بجيش قوى ، وأرغم أعداءه على طلب الصلح ، والتنازل عن كل حق ودعوى .

وبينما كان رعوند برنجار الرابع ، تارة يقاتل فى جنوبى فرنسا ، وتارة فى مفاوز البرنيه ضد ناڤارا ، وآناً يحارب المسلمين ، إذا به يعمل فى نفس الوقت باطراد لتوثيق الاتحاد بين أراجون وقطلونية . ولما توفى القيصر ألفونسو رعونديز ملك قشتالة ، وجاءت وفاته نذيراً باستقلال الدول النصرانية الاسبانية الأخرى ، التقى رعوند برنجار ، بسانشو الثالث ملك قشتالة فى أوسمه ، ورغب إليه أن يتحرر من عهد الجزية ؛ ومع أنه لم يوفق إلى تحقيق أمنيته كاملة ، فإنه تقرر نظراً لتقدم الموحدين فى جنوبى اسبانيا بصورة مزعجة أن يقتصر عهد الجزية بالنسبة لملوك أراجون فى المستقبل ، على حضور حفلات تتويج ملك قشتاله وغيرها من الحفلات الملوكية المشهودة ، وعلى أن يقدموا أمداد الجند حين الطلب ؛ وأما حق ملوك قشتالة فى احتلال المناطق والمدن الخاضعة للجزية ، فقد ألغى (سنة ١١٥٨ م) .

وفى نفس الوقت الذى تراخت فيه عرى التحالف بين أراجون وقشتالة ، عقدت أراجون مع هنرى الثانى ملك إنكلترا محالفة ضد الكونت رعوند أمير

(١) كانت مدينة آرل يومئذ عاصمة ولاية بروڤانس ، كما كانت من قبل عاصمة مملكة آرل القديمة التى افتتحها العرب سنة ٧٣٠ م (١١٢هـ) ، وفرضوا عليها الجزية .

تولوز ، وصهر لويس السابع ملك فرنسا ؛ وكان هنرى الثانى يدعى على ولاية تولوز حقوقاً باعتبارها ميراثاً لزوجه اليونور دى جويان . وحاصر هنرى وريموند برنجار مدينة تولوز بقوات مشتركة ، ولكنهما لم يفوزا منها بطائل ، لأن لويس السابع بادر بإنجاد صهره ، وقضى على جهود الهاجمين ؛ ولما رأى الحليفان ما تكبدا من خسائر غير قليلة ، قررا وقف الحرب ، وعقد الفريقان هدنة ، تلاها عقد صلح ، يحتفظ فيه ريموند دى تولوز بإمارته (سنة ١١٦٠ م) .

وفى تلك الأثناء توفى سانشو الثالث ملك قشتالة ؛ وترتب على وفاته أن ثارت الخصومة من جديد بين ناڤارا وأراجون ، وهى خصومة عمل رجال الدين على إخمادها بسرعة ؛ وأثار الكونت هوجو دى بو فى الوقت نفسه اضطراباً فى ولاية بروڤانس ، ولكنه لم يفد منه شيئاً ؛ وأخيراً جنح القيصر فردريك الأول ، وهو الذى كان إلى ذلك الحين يحمى الكونت هوجو إلى تأييد أمير قطالونية ، ومنح القيصر أمير قطالونية ، وابن أخيه ، عهد الجزية على بروڤانس ، كما كانت لأبيه من قبل ، ومنحه أيضاً مثل هذا العهد على مدينة آرل ، وولاية فوركالكيه ؛ وذلك على أن يقدم الأميران إلى القيصر عهد الطاعة بالنسبة للأراضى المذكورة ، وأن يتعهدا بتقديم أمداد الجند ، وأن يعترفا بالبابا ڤكتور الثالث الذى اختاره القيصر . ولما سافر الأميران إلى مدينة تورينو حيث كان القيصر يقيم يومئذ ، ليتلقيا منه عهد الجزية ، مرض ريموند برنجار أثناء الطريق وتوفى فى السادس من أغسطس سنة ١١٦٢ ، وهو فى الخمسين من عمره ؛ فتابع ابن أخيه برنجار الثانى رحلته إلى تورينو ، وتلقى العهد المنشود .

وفى وسعنا أن نقول إن ريموند برنجار الرابع ، ولو أنه لم يتسم قط بملك أراجون حتى بعد وفاة راميرو (رذمير) الثانى ، هو مؤسس عظمة أراجون الحقيق . وقد كان بإجماع الرواة أميراً مثاليا تتجلى فى شخصه كل الخلال البارعة ، التى تتطلبها الفروسة الحقة ، والحكم المستنير ، مثل العدالة ، والصدق ، والإنصاف والشجاعة ، وغيرها .

ولما وصل نبأ وفاة الكونت إلى اسبانيا ، استدعت أرملته بترونيلا طبقات الأمة الثلاث إلى الاجتماع فى وشقة ؛ ونُص على حضور نواب الطبقة الثالثة بطريقة صريحة ؛ وفتحت فى هذا الاجتماع وصية الأمير المتوفى ، وفيها يعهد إلى ولده رعوند برنجار ، الذى اتخذ عندئذ اسم ألفونسو الثانى ، بحكم أراجون وقطلونية ، وأراضى لانجدوك ؛ وأن تمنح ولاية شرطانية[1] ومعها قرقشونة ، وحق الجزية على الفيكونت رعوند ترنكافل ، وكذلك على الجزء الذى يخص رعوند برنجار الرابع من اربونة ، إلى ولده الثانى بيدور ، وذلك على أن يكون خاضعاً لأخيه الأكبر . وإذ كان ألفونسو لم يجاوز العاشرة من عمره ، فقد تولت أمه الحكم على مملكة أراجون ، وتولى عمه الكونت برنجار أمير بروڤانس حكم قطلونية ؛ وربى الأمير الفتى ، الذى تلقب عندئذ بألقاب الملك فى برشلونة . على أنه لم يمض عام آخر ، وطدت فيه بترونيلا سلام المملكة ، ووثقت أواصر التحالف بينها وبين قشتالة وإنكلترا ونافارا ، حتى تخلت عن الحكم بموافقة الأشراف لابنها ألفونسو ، على أن تكون ولاية العهد فى عقبه ، فإذا لم يعقب آل الحكم إلى إخوته أو عقبهم ؛ ونص على حرمان عقب الإناث حرماناً مطلقاً ؛ وعاشت بترونيلا بعد تخليها عن الحكم ، عشرة أعوام أخرى ، ثم توفيت فى برشلونة فى سنة ١١٧٣ م .

---

(١) هى بالافرنجية Cerdagne (سرديانيا) وهى مقاطعة صغيرة من أعمال البرنيه الشرقية .

الفصل الثانى

قيام جماعات الفرسان الدينية

فى اسبانيا والبرتغال

فى نفس الوقت الذى غاضت فيه وحدة اسبانيا ، وأخذ سلطان الموحدين الناهض وفتوحهم تنفر النصارى كل يوم بالويل المتزايد ، يقع قيام جماعات الفرسان . ولما كان أولئك الملوك الذين يقاتل بعضهم بعضاً ، قد أصبحوا عاجزين عن صد « أعداء الدين » ، فقد برزت إلى الوجود هيئات كتلك التى أدت فى فلسطين للنصارى أجل الخدمات ؛ ولولا قيام هذه الهيئات ، لضاعت جهود قرون عديدة فى أعوام قلائل .

ومع أنه لم تقم فى أراجون وقطلونية جماعات فرسان دينية خاصة بهما ، فإن أمراء هاتين الدولتين كانوا مع ذلك أول من قدر أهمية هـذه الجماعات ، ولفتوا إليها الأنظار . وكان الملك ألفونسو الأول الأرجونى الملقب بالمحارب ، قد اعتزم أن ينشئ جماعة فرسان دينية ، وذلك فى وقت لم تكن قد قامت فيه بالمشرق أية جماعة من هذه الجماعات[1] ؛ وكانت تقوم بين مسلمى الأندلس مثل هذه الجماعة ، ومنها اشتق ملك أراجون مشروعه . والواقع أن مسلمى الأندلس أنشأوا قبل ذلك بعصور نوعاً من الفرسان لحماية الحدود ، يسمون « بالمرابطة » ؛ وكان هؤلاء

---

(١) المفروض أن المؤلف يشير هنا إلى جماعات الفرسان الدينية النصرانية التى قامت فيما بعد بفلسطين والشام ، مثل الداوية والاسبتارية ؛ ذلك أن المشرق قد عرف جماعات المحاربين الدينية المسلمة قبل أن تعرفها الأمم النصرانية بعصور ، ويكفى أن نمثل لذلك بجماعات الفداوية الإسماعيلية الذين أثخنوا فى الفرنج الصليبيين وقتلوا منهم عدة أمراء ، فقد ظهروا فى المشرق منذ أواخر القرن الخامس الهجرى .

يخصصون حياتهم مختارين للقتال ، ويهبون أنفسهم لحماية الحدود (الثغور) من غارات النصارى الفجائية وحملاتهم[١] ؛ وكانوا يعيشون فى تقشف بالغ ، ولا ينتظم فى سلكهم سوى فرسان امتازوا بالشجاعة ونقاء السيرة ؛ وقد مرنوا من حياة القتال الدائمة على الجلد والثبات فى أشد الأزمات ، فكانوا يقاتلون فى الحرب بشجاعة فائقة ، ولا يسمحون لأنفسهم بالفرار قط ، فإذا فاتهم النصر ، فإن الموت يغدو واجبهم ومطلبهم . أجل عرف النصارى الاسبان جماعات من الفرسان تربطها نظم وصفات معينة ، بيد أنها لم تكن جمعيات منظمة وفقاً لقانون معين . وكان الجند الأرجونيون الخفاف ، وهم الذين يسميهم العرب « بالمجاورين » ، يؤلفون فى بداية القرن الثانى عشر جماعات شديدة البأس ، مرنت على احتمال كل ضروب الحرمان والمحن ، ويحسب لها المسلمون أعظم حساب ؛ بيد أنها لم تكن تنتظم فى جمعية حربية منظمة .

ولما أنشأ ألفونسو الأول عقب افتتاحه لسرقسطة سنة ١١١٨ م (٥١٢هـ) قلعة « مونريال » على الحدود لتقوم بمدافعة المسلمين[٢] ، كان يفكر فى إنشاء جماعة من الفرسان برسم القبر المقدس ؛ وليس من المحقق ما إذا كان قد عرف عندئذ بقيام جماعة « الداوية » (فرسان المعبد)[٣] ، وجماعة فرسان القديس يوحنا ؛ وعرض ملك أراجون مشروعه على الأشراف (البارونات) ، وطلب إليهم مبالغ طائلة من المال لإمداد الجماعة والعمل على نشرها . ولكن المشروع بقى بلا تحقيق ، وذلك

---

(١) سبق أن شرحنا كلمة المرابطة ومصدر اشتقاقها ، ومغزاها التاريخى (راجع الحاشية فى ص ٦٩ من الجزء الأول من هذا الكتاب) ونزيد هنا أن أطراف الأندلس الشمالية مما يلى برشلونة وسرقسطة إلى ما وراء جبال البرنيه ، كانت منذ الفتح تعرف بالثغر أو «رباط الثغر» وكانت المدن أو القواعد الأمامية المجاورة لأراضى العدو تعرف بالرباط ؛ فكان ثغر «أربونة» مثلا يعرف قبل سقوطه فى يد الفرنج برباط الثغر ؛ وقد اشتهر المدافعون عن هذه الثغور فى تاريخ الأندلس بالشجاعة الفائقة . وظاهر أن طوائف الفرسان التى يشير إليها المؤلف ، هم حماة الرباط ، أو الثغور ، أعنى أطراف الحدود المجاورة للنصارى ، وقد ورثوا تقاليدهم وخلالهم الحربية الممتازة عن أسلافهم حماة الرباط .

(٢) راجع ص ١٥٣ من الجزء الأول من هذا الكتاب .

(٣) راجع الحاشية الخاصة بالداوية (ص ١٧٥ من الجزء الأول) .

فيما يظهر ، لعدم وجود الفرسان الصالحين لتنفيذه .

على أن الفكرة آتت مع ذلك ثمرتها ؛ ذلك أنه لما أخفق مشروع إنشاء جماعة دينية اسبانية من الفرسان ، اتجهت الفكرة إلى إنشاء فرع من فرسان الداوية فى اسبانيا ؛ وانتظم الكونت رعوند برنجار الثالث أمير برشلونة قبيل وفاته بقليل (سنة ١١٣١ م) فى سلك الداوية ، وأنشأ ولده وخلفه أول دير للجماعة فى قطلونية . وذهب ألفونسو المحارب ، حسبما ذكرنا من قبل ، بعيداً فى تأييد الداوية فنزل لهم فى وصيته عن ثلث مملكته ؛ ولكن الجماعة لم تحصل على هذا الثلث ، لأن الشعب الأرجونى أبى تمزيق المملكة ، بيد أنه لما طالب الداوية بعد وفاة ألفونسو بأعوام قلائل بحقوقهم فى المملكة ، عقدت بينهم وبين أراجون فى عهد رعوند برنجار تسوية فى هذا الشأن خلاصتها ، أن يعفى فرسان الداوية من الخضوع لقضاء الملك ، وأن يعطوا نصيباً معيناً فى المدن التى انتزعت من المسلمين مثل وشقة ، وبربشتر ، وقلعة أيوب ، وسرقسطة وغيرها ؛ وفى مقابل ذلك يتعهد الفرسان بأن يخصصوا خدماتهم لحماية النصرانية فى تلك الأنحاء ؛ وتم هذا الاتفاق فى اجتماع عقد فى جيرونة فى سنة ١١٤٣ م ، وشهده المندوب البابوى وكثير من الأساقفة وأشراف أراجون وقطلونية .

وسرعان ما ظهرت أهمية العون الذى يبذله فرسان الداوية فى كل حرب تنشب مع المسلمين ، ولا سيما فى الدفاع عن حدود أراجون الجنوبية وما ترتب على هذا العون من النجاح والظفر ، حتى أنه عهد إليهم ، كما حدث مع فرسان القديس يوحنا ، بحراسة معظم الحصون التى افتتحت فى العهد الأخير ، وكان من الطبيعى أن يقع مثل ذلك فى قشتالة والبرتغال ، فيعهد بالدفاع عن حصون الحدود الهامة المجاورة للمسلمين إلى فرسان الداوية ضد الغزوات الإسلامية ، ويحصل الفرسان غير بعيد جزاء جهودهم على كثير من الأراضى .

ونستطيع أن نقول إن جماعات الفرسان الدينية فى اسبانيا ، وجماعة «آفيس» Avis البرتغالية كانت تقليداً لجماعة فرسان الداوية التى نقلت نظمها من فلسطين

إلى اسبانيا ؛ وقد بدأت هذه الجماعات فى معظم الأحيان صغيرة لا أهمية لها ، وقامت وفقاً لضرورات الحوادث ، وسرعان ما اشتدت وقوى بأسها .

ومن الغريب ، أنه لم تنشأ فى أراجون ، أى فى نفس الأرض التى استقر الداوية فيها قبل غيرها ، وكانوا فيها أكثر عدداً ، أية جماعة محاربة جديدة إذ لم تدع الحاجة إلى قيام مثل هذه الجماعة ؛ أما فى قشتالة الجديدة وفى استرامادوره ، وهما أشد النواحى تعرضاً لغزوات الموحدين وعيثهم ، ولم يحتل الداوية فيهما سوى قلاع قليلة ، فقد حدث بالعكس أن قامت جماعتان محاربتان ، لا يفصل بين قيامهما سوى أعوام قلائل . ذلك أن رجال الدين ، وخصوصا فى الأديار ، كانوا يعيشون من أجل الحرب والدعوة إلى الصليب أكثر مما يعيشون للعزلة والعبادة ، وقد رأوا حينما قسمت مملكة قشتالة ، وما ترتب على تقسيمها من تمزيق لاسبانيا ، أنه لابد من قيام جماعة مستقلة من الفرسان تكون بمعزل عن تقلبات السياسة فى الدول الاسبانية النصرانية ، لتذود عن الدين المسيحى ؛ وقد تجلت قوة الشعور بهذه الحاجة ، بما بذل يومئذ من جهود عديدة فى هذا السبيل .

أما أى الجماعتين القشتاليتين من الفرسان كانت الأولى فأمر يختلف عليه المؤرخون الاسبان ، بيد أنه بعد تمحيص مختلف الروايات يمكن القول بأنه إذا كانت جماعة « فرسان القنطرة » Alcantara التى اتخذت هذا الاسم فيما بعد (فى سنة ١٢١٩) هى أقدم الهيئتين ، فإنها لم تنم وتتقدم بمثل السرعة التى تقدمت بها جماعة « فرسان قلعة رباح » Calatrava . وإليك كيف تقدم إلينا الرواية نشأة « فرسان القنطرة » : فى سنة ١١٥٦م ، فى عصر القيصر الفونسو ريموندز ، وقبل وفاته بقليل ، اتفق فارسان من شلمنقة أحدهما يدعى سوررو والآخر جومز نذرا حياتهما لمحاربة المسلمين ، مع ناسك يعيش بقرب شلمنقة واسمه سانت أماندوس على البحث عن مكان يصلح لإقامة حصن ، تؤسس فيه جماعة من الفرسان لمحاربة أعداء الدين المسيحى ؛ وألفوا طلبتهم فى المكان الذى يقع فيه دير سنت جوليانوس ، فبنوا حول الدير بإذن الأسقف أردونو ، أسقف شلمنقة الذى يقع

المكان تحت رعايته ، حصناً يحيط به ، وسرعان ما اجتمع إلى الفارسين والناسك عدد من الفرسان والزاهدين الذين تحدوهم نفس العواطف ، ونذروا أنفسهم للكفاح من أجل الدين والموت فى سبيله ، وقامت من هؤلاء جماعة محاربة سميت أولا بجماعة « سنت جوليان دل پيريرو « S. Julian del Pereiro ، وانتخب رئيسها الأول الفارس سويرو الذى تقدم ذكره ، وأمده أردونو أسقف شلمنقة بأنظمة جماعة « السسترسيان » إحدى فرق « القديس بندكت »[1] ، ليكون منهاجا للجماعة مع بعض النظم الحربية ، وبعد ذلك بأكثر من خمسين عاماً ، فى أوائل القرن الثالث عشر ، اتخذت هذه الجماعة اسم جماعة فرسان القنطرة .

ولكن صمت المصادر التاريخية الوثيقة المعاصرة عن ذكر هذه الجماعة ، وما ورد عن قيامها فى الروايات المتأخرة ، مما يحمل على الشك فى صدق هذه القصة . أما الروايات التى انتهت إلينا عن قيام جماعة «فرسان قلعة رباح» فهى أصح وأوثق ؛ وقد قص علينا مؤرخ عاش بعد ذلك بقليل ، هو الأسقف رودريك الطليطلى ، عن قيامها ما يأتى : لما انتهى سانشو الثالث ملك قشتالة من الاتفاق مع أخيه فرديناند فى سنة ١١٥٨ م ، وعاد إلى طليطلة ، جاءت الأنباء بأن المسلمين يزحفون على قلعة رباح فى جيش ضخم . وكانت القلعة قد سلمت إلى فرسان الداوية للدفاع عنها ، ولكنهم لما أيقنوا بعجزهم عن الاحتفاظ بها إزاء تفوق الأعداء ، غادروها وردوها إلى ملك قشتالة . وكان يوجد وقتئذ فى طليطلة رجل ورع هو ريموند رئيس دير فتيرو ، ومعه راهب من أسرة نبيلة يدعى دياجو ڤلاسكيز ، وكان فارسا ظهر فى ميدان الحرب ، وربى فى البلاط . فلما رأى هذان الرجلان جزع الملك لما يتوقعه من سقوط قلعة رباح فى يد الأعداء ، خصوصاً وأنه لم يتقدم للدفاع عنها أحد بعد

(١) سبق أن أشرنا إلى جماعة القديس بندكت (الجزء الأول ص ١٢٥) . وأما جماعة السسترسيان Cistercians ، فهم إحدى فرق البندكتيين ، وقد أسست فى مكان يدعى ستو Citeaux بالقرب من مدينة ديجون سنة ١٠٩٨ م على يد راهب بندكتى يدعى سان روبير . وقد امتازت أنظمة هذه الجماعة بالخشونة وتفضيل العمل الشاق فى الحقول وغيرها على الإغراق فى الصلاة والعبادة .

أن غادرها فرسان الداوية ، اعتزما أن يتوليا هذه المهمة ، وسألا الملك أن يعهد بها إليهما ؛ فأجاب الملك سؤلهما ، لما يعلمه من ورع الراهب ريموند ورفيع مكانته لدى الشعب ؛ وأيد يوحنا مطران طليطلة مشروع الرجلين ، وألقى عظات دينية ، ووعد فيها بالغفران لكل من يتقدم للدفاع عن قلعة رباح ، ولم يمض سوى قليل حتى استطاع الراهب ريموند أن يجمع حوله فى قلعة رباح عشرين ألف مقاتل ، وأمده كثير من أولئك الذين لم يشتركوا فى الدفاع بأشخاصهم ، بالخيل والدواب والسلاح والمؤن والمال ، حتى فاضت القلعة بكل ما هو ضرورى للدفاع ؛ وألفى المسلمون أنه ليس من الحكمة أن يقدموا على مهاجمة مكان اتخذت للذود عنه مثل تلك الأهبة ، وهكذا أنقذت قلعة رباح .

ثم رأى الراهب ريموند تخليداً لثواب الدفاع عن النصرانية فى اسبانيا ، أن يؤلف من هؤلاء المقاتلين الذين احتشدوا حوله ، ممن يرغبون فى تخصيص حياتهم للدفاع عن النصرانية إزاء الإسلام جمعية من الأخوة ؛ وهكذا قامت جماعة « فرسان قلعة رباح » ، وقوامها الحماسة الدينية والشجاعة ، وتألفت نواة فرسانها الأولى من رهبان دير فتيرو ، الذين بادروا بالرغم من سنهم وضعفهم إلى اللحاق برئيسهم ريموند فى قلعة رباح ، وهم يحملون معهم كل ما كان بالدير من متاع ومؤن وافرة ؛ وطبقت على الفرسان النظم الحربية لطائفة السسترسيان ، وانتخب الراهب ريموند أول « أستاذ أعظم » للجماعة ، ونمت الجماعة باطراد ، وصادق البابا إسكندر الثالث على قيامها ، وتوالت عليها الهبات الضخمة من الملوك والأفراد ، واعتقد الناس أن تعضيد هذه الجماعة المحاربة هو خير ما يعمل لخدمة الدين والوطن .

وهكذا بدت على مر الأيام ، أهمية ما يقوم به الفرسان من الخدمات والحماية ، وحمل تفرق ملوك اسبانيا النصرانية ، وتفاقم خطر الغزوات الإسلامية ، الشعب على أن يبحث لنفسه عن وسائل الدفاع ، وقامت فى جليقية فى سنة ١٢٦١ م ، بعد قيام فرسان قلعة رباح بثلاثة أعوام ، جمعية محاربة جديدة هى جماعة القديس ياقب S. Jacob ، وينسب تأسيس هذه الجماعة إلى عدة فرسان من قطاع الطريق ، كانوا من قبل يخوضون حياة همجية عنيفة ، ويرتكبون كثيراً من الآثام والجرائم ،

فوعظهم رجال الدين ونصحوهم بالاستقامة والتوبة ، فتابوا عما ارتكبوه فى شبابهم من إثم ، ووهبوا بقية حياتهم للدفاع عن دين المسيح ضد أعدائه ، وأن يقوموا بحماية الحاج الذين يقصدون زيارة قبر القديس ياقب فى كومبوستل ، وعين أول رئيس لهذه الجماعة بموافقة فرديناند ملك ليون ، الفارس بيدرو فرنانديز ، وهو من أهل فونيتا انكالادا من أعمال استرقة ، فنظمها وفقاً لمناهج القديس أوغسطين[1] وأسبغ عليها الطابع الحربى ، وأبيح الزواج لأعضائها خلافاً لفرسان قلعة رباح ، واتخذ شعارها سيف القديس ياقب الداى فى صورة الصليب ؛ وتوالت عليها الهبات ولا سيا هبات الملوك ، فنمت بسرعة ، واشتد ساعدها ، وكثرت أملاكها .

أما فى البرتغال ، فقد ظهر فيها فرسان الداوية وفرسان القديس يوحنا منذ قامت المملكة ، وكان الملك ألفونسو هنريكيز ، تحمله عاطفة المنافسة لقشتالة وليون على أن يحتذى مثلهما فى كل شىء ، فعول بعد الذى رآه من مزايا الفرسان الواضحة أن ينشئ جماعة من هذه الجماعات ؛ وعلى ذلك فإنه من الخطأ أن نرجع قيام جماعة الفرسان فى البرتغال إلى سنة ١١٤٧ م ، فهى لم تقم فى الواقع قبل سنة ١١٥٨ ، وربما كان قيامها سنة ١١٦١ ؛ وترجع وثيقة تأسيس هذه الجماعة التى سميت عند قيامها بالجماعة المحاربة الجديدة Nova Militia ، إلى سنة ١١٦٢ م ؛ وكانت نظمها شبيهة بنظم فرسان قلعة رباح ، ومشتقة مثلها من نظم الآباء السسترسيان . وتتلخص واجبات الأخوة فى أن يجاهدوا من أجل الدين المسيحى ، وأن ينزلوا الميدان دائماً لقتال المسلمين ، وألا يتزوجوا ، وأن يكونوا خاضعين لكبير فرسان قلعة رباح ، بالرغم من أن لهم رئيساً خاصا ؛ وفى ذلك ما يحمل على الاعتقاد بأن هذه الجماعة المحاربة البرتغالية الجديدة لم تكن فى الواقع سوى فرع لجماعة فرسان قلعة رباح ؛ وكان أول أستاذ أعظم لجماعة الفرسان البرتغالية هو بيدرو أخو الملك

---

(١) عاش القديس أوغسطين فى القرن الرابع وأوائل القرن الخامس (٣٥٤ — ٤٣٠ م) وهو من أعظم أركان الكنيسة اللاتينية . وأسست جماعة القديس أوغسطين فى القرن الحادى عشر الميلادى ؛ وشعارها الفقر والطاعة والعفة ؛ ومناهجها فى غاية الاعتدال بالنسبة لمناهج الجماعات الأخرى ؛ وهى منتشرة فى جميع أنحاء العالم .

غير الشرعى ، ولما استولى الفرسان فى سنة ١١٦٦ م على قلعة يابرة من يد المسلمين ، وعهد إليهم بحراسة القلعة ، سُمُّوا «بفرسان يابرة» ؛ ولما وهبهم الملك ألفونسو الثانى بعد ذلك ، فى سنة ١٢١١ م ، محلة «آفيس» Avis ، وأقاموا فى هذه المحلة قلعة جديدة ، سموا عندئذ «بفرسان آفيس» . وكان ثوبهم عندئذ عبارة عن عباءة طويلة ذات برنس أسود ، ولكنه غير فيما بعد ، إذ كان يضايقهم أثناء القتال ؛ كذلك سمح لأبناء هذه الجماعة فيما بعد أن يتزوجوا مثل فرسان شنت ياقب ، ولكن على أن لا يتكرر الزواج .

وفى بعض الروايات أن ألفونسو هنريكيز ، أنشأ بعد قيام الجماعة المحاربة الجديدة بأعوام قلائل ، فى سنة ١١٦٧ م جماعة ثانية سميت « بجماعة القديس ميخائيل ذى الجناح» S. Michael del Ala ؛ ويزعمون فى سبب هذه التسمية ، أنه رؤى أثناء موقعة شنترين ذراع يتقلد سيفاً فظنوه ذراع قديس . ولما كان ألفونسو قد أحرز فى هذه الموقعة ظفراً باهراً ، ولم ينج من الهلاك فيها إلا بمعجزة ، فقد قيل إنه أنشأ لهذا السبب جماعة من الفرسان تنضوى تحت اسم الملاك ميخائيل ، وقد ورد فى وثيقة لا شك فى بطلانها ، أن أعضاء هذه الجماعة الذين سمح لهم بالزواج يجب أن يكونوا من الأشراف ، وأن يكونوا فى الحرب حرسا للملك وللأعلام ، وأن يخضعوا لرئيس دير الكوبازا ، وأن يجعلوا شعارهم جناحا أحمر ذهبيا يضعونه على صدورهم .

ولما كانت الروايات قد تضاربت فى أمر هذه الجماعة ، ولم تذكر عنها شيئا من بعد وفاة الفونسو هنريكيز ، وكانت هذه الوثيقة تتضمن مزاعم تناقض التاريخ الحق ، فانه يسوغ لنا أن نشك فيما إذا كانت هذه الجماعة قد أنشئت وقامت فعلا .

هذا ، وبينما كان الفرسان يذودون عن حدود المملكة النصرانية ضد غزوات المسلمين إذ قل اهتمام النصارى بمحاربة أعدائهم المسلمين ، ومزقت قوى النصرانية على يد صراع داخلى طويل الأمد حتى بدا خطر الموحدين داهما على الجميع ، فاضطر الملوك النصارى عندئذ إلى توثيق اتحادهم من جديد .

الفصل الثالث

صراع أسرتى كاسترو ولارا

فى سبيل السيادة فى قشتالة

لما توفى الملك سانشو الثالث ظهرت فى قشتالة أسرتان قويتان على جميع الأسر الأخرى ؛ وكانت كلتاهما تضارع الأخرى من حيث الثراء والقوة ووفرة الأنصار ، وكلتاهما تحسب فى عداد الأمراء أكثر مما تحسب فى عداد الأتباع ؛ هاتان الأسرتان هما آل لارا ، وآل كاسترو ، كلتاهما عريقة فى الحسب ، وكلتاهما ساهمت فى تشييد قوة الملوكية واستولت على كثيرمن الأراضى بعهد الجزية وظفرت بأعظم المناصب والألقاب ؛ وكان ملوك قشتالة يعتبرونهما عضد العرش ودعامته . فلما توفى سانشو الثالث ، وآثر فى وصيته آل كاسترو باختيار زعيمها الشيخ جوتيرو فرنانديز مؤدبه القديم ، للوصاية على ابنه أثناء طفولته ، حنق آل لارا من هذا الإيثار لآل كاسترو ، وعملوا على إثارة حرب كانت وبالا على قشتالة ؛ وقد حاول الشيخ جوتيرو ، حينما شعر بنذر هذه الحرب ، اجتنابها بشىء من البذل والتساهل ولكنه لم يفعل سوى أن عجل بوقوعها ؛ وكان تصرفه بمفرده فى تغيير الوصية الملكية دليلا على نياته السلمية ، ولكنه لم يكن دليل الحكمة ؛ وكان يتزعم آل لارا ثلاثة أخوة ، هم أبناء الكونت بيدرو ، وزوجه الدونا آفا ، وهم المانريك ، والفارو ، ونونيو ، وكانت لهم ضياع واسعة على ضفاف دويرة (نهر دورو) ويتصل بهم بطريق القربى والمصلحة أوثق الصلات ، الكونت جارسيا دى آتيا من أسرة الكونت دى كابرا .

وقد عهد جوتيرو إلى جارسيا دى أنياس بتربية الملك ، وكأنه أراد بذلك أن يبقى الملك تحت سلطانه ، وذلك بعد أن استحلف آل لارا على حفظ السلم ؛ وكان جوتيرو يؤمل أن يجتنب بذلك كل خلاف حتى يبلغ الملك أشده ، إذ كان جارسيا فيما يبدو ، يستطيع بميوله السلمية ، وصلته بآل لارا أن يخمد الريب والظنون المضطرمة ، بيد أنه حدث عكس كل ما كان ينتظره الشيخ الضعيف جوتيرو . ذلك أن الكونت جارسيا كان رجلا قليل الذكاء والكفاية ، تثقل كاهله تربية الملك وما يقترن بها من الشؤون ، وكان يخشى بالأخص أن يتكبد فى سبيلها بعض الخسائر ، إذ لم تربط لها مخصصات ثابتة ، ومن ثم فإن الكونت المازيتى كبير أسرة لارا لم يجد صعوبة فى إقناعه بأن يسلمه الملك الطفل ؛ وهكذا نقل الملك من يد آل كاسترو إلى يد آل لارا ؛ فلما علم جوتيرو فرنانديز بذلك ، طالب فى الحال بأن يعاد الملك إلى إشرافه ، فسخر آل لارا من طلبه . وهنا فقط أدرك جوتيرو سوء تصرفه ؛ وتفاقم الشر ، حين شهر الكونت الشيخ الحرب ليسترد بالقوة ما لم يك ثمة ضرورة للتسليم فيه ؛ وأنقذه الموت العاجل من لوم أسرته وصحبه ، ولم يخلف ولداً ، ولكن أبناء أخيه رودريك فرنانديز ، وهم فرديناند ، والفارو ، وبيدرو ، وجوتيرو ، وصهرهم الفارو ردريجيز ، تابعوا الكفاح فى سبيل قضية الأسرة ، يتزعمهم فرديناند كبير الإخوة ، مستندين إلى نصوص الوصية الملكية التى تخص أسرتهم بالوصاية ، فلما استمر الخصوم فى موقفهم ، ولم يسلموا الملك الطفل ، لجأ آل كاسترو إلى فرديناند ملك ليون ، عم الملك لكى يحمى ابن أخيه ، فقدم ملك ليون فى الحال فى جيش ضخم ، واحتل معظم أراضى قشتالة ، وأعلن توليه لزمام الحكم وللوصاية على ابن أخيه ، واعترف به معظم الشعب ملكا على قشتالة (سنة ١١٥٩ م) ، واشتد فى مطاردة آل لارا حتى أرغمهم أخيراً على تسليم الملك الطفل فى مدينة « سوريا » (Soria) . ومن الصعب أن ندلل على أن فرديناند كان ينوى انتزاع الحكم من ابن أخيه ، على أنه بسط حكمه على المملكة كلها تقريباً ، على نحو ما كان يحكم والده القيصر ، وتسمى بملك اسبانيا ، واتخذ من

آل كاسترو الذين دعوه إلى المملكة ، أخلص أنصاره ، وأغدق عليهم كل المناصب والألقاب ، واعتبر آل لارا عصاة خارجين ؛ وإذ كان الملك سانشو الثالث قد نص فى وصيته على أن يبقى الجميع محتفظين بأراضيهم ومناصبهم وألقابهم حتى يبلغ الملك الطفل الخامسة عشرة من عمره ، فقد طالب آل لارا بأراضيهم وحقوقهم ، وفقا لهذا النص . فلما رفضت مطالبهم ، عمدوا إلى جثة جوتيرو فرنانديز فأخرجوها من القبر ، وأقسموا أنهم لن يردوها إلى القبر قبل أن يرد المغتصبون إليهم حقوقهم ؛ فعندئذ دعيت محكمة للفصل فى النزاع ، فقضت ضد آل لارا ؛ وفسرت نصوص الوصية بصورة أخرى ؛ وهنا ثارت بين الفريقين حرب دموية عنيفة دامت بضعة أعوام ، ولم يتمكن آل كاسترو من إحراز النصر فيها إلا بمعاونة ملك ليون ؛ وخربت أراضى قشتالة وأجدبت ، واقتحمت القلاع ، وأحرقت المدن والقرى ، وعومل المواطنون معاملة الأعداء ، فنهبوا ، وأسروا ، وقتلوا . ولما نفدت قوى آل لارا فى النهاية ، طلب إليهم الملك فرديناند تسليم الأراضى الباقية تحت أيديهم من مملكة قشتالة ، ومنها العاصمة طليطلة ، وأن تؤدى جميع الضرائب إلى ملك ليون ؛ وقدر آل لارا حرج موقفهم ، فأعلنوا أنهم على استعداد لتقديم الطاعة إلى الملك فرديناند ، إذا سلم إليهم الطفل الملكى قبل ذلك ، وأنهم يريدون أن يقسموا يمين الخضوع والإخلاص للملك فرديناند باعتبارهم حماة وحراسا لملكهم المستقبل .

واتفق الفريقان على أن يجتمع لذلك الغرض مجلس شورى فى « سوريا » يشهده آل لارا ، والملك فرديناند مع ابن أخيه الطفل ، وهنالك سلم الطفل الملكى إلى الكونت الماريش دى لارا ، وقرن تسليمه بهذه الكلمات : « إننا نسلمه إليك مختارين ، فقم على حراسته مختاراً » ؛ وهنا بدأ الطفل يصيح بين يدى حامله متألماً من ألم أصابه بطريقة خفية ؛ فحملوه بعيداً بحجة إعطائه بعض الطعام وتهدئة روعه ، على أن يعاد إلى عمه فى المجلس ، بعد أن يكف عن البكاء . وفى الوقت الذى شغل فيه الملك فرديناند بالتشاور مع الكبراء ، فى انتظار يقظة

الطفل من نومه المزعوم ، وثب فارس جرىء من المخلصين لآل لارا ، واسمه بيدرو نونيز ، وحمل الطفل فوق أسرع جواد ، واستطاع أن يصل به فى نفس اليوم إلى قلعة استبان دى جورماز ، التى كانت باقية بأيدى آل لارا ؛ وعمد زعماء آل لارا فى الوقت نفسه إلى الفرار من المجلس ، قبل أن يقسموا يمين الطاعة للملك ؛ ولم يقف فرديناند على هذه الخديعة إلا بعد فوات الوقت ، ولما أرسل إلى الكونت اللاريش فارساً ينعى عليه نكثه وغدره ، ويتهمه بالخيانة العليا ، استقبله آل لارا بالتهديد والوعيد ؛ وأعلن اللاريش أنه لا يريد أن يناقشه أحد فيما إذا كان قد أخلص أو نكث ، وأن كل ما هنالك ، أنه لجأ الى جميع الوسائل الممكنة لينقذ سيده الشرعى ، الذى ما زال طفلا ضعيفاً ، من براثن العبودية ، وأن القوانين وأصوات الشعب كفيلة بتبرئته من كل إثم وعيب .

ومن ذلك الحين ، أعنى منذ سنة ١١٦١ م تسترد أسرة لارا قوتها وبأسها ، إذ كان الشعب يرى دائماً أن الحكومة توجد حيث يوجد الملك ؛ كذلك كافحت المدن الواقعة على ضفة دويرة ، والتى كانت تابعة لآل لارا ، كفاحاً شديداً ، ومع ذلك فقد بقى التفوق فى جانب فرديناند وحلفائه آل كاسترو ، وكان يؤيدهم أكابر رجال الدين ومنهم مطران طليطلة . وإذا كانت أسرة لارا قد استطاعت بالرغم من هزائمها فى ميدان الحرب أن تحتفظ بسلطانها ، فإن فى ذلك ما يدل على أنها كانت تعتمد على معاونات هامة ؛ ويرجع ذلك أيضاً إلى أسباب عديدة أخرى . وقد حدث أنه بينما كانت أسرة لارا تكافح ملك ليون وآل كاسترو بكل ما وسعت ، أن قام فى وجهها عدو جديد ، هو سانشو السادس ملك نافارا ، وانتزع ولاية ريوجا من قشتالة وضمها إلى مملكته ، وبلغ من ثقته بثبات هذا الفتح ، أن ترك ريوجا دون حرس ، وأرسل قوة من النافاريين لمعاونة حليفه أمير بلنسية[1] ؛ فانتهز آل لارا فرصة هذا التهاون ، واستردوا ريوجا دون كبير جهد .

---

(١) كان أمير بلنسية وشرقى الأندلس يومئذ عبد الله محمد بن سعد بن مردنيش ؛ وكان قد قوى أمره واشتد بأسه وأرسل جيوشه إلى غرناطة وقرطبة لمحاربة الموحدين ، وأوقع =

وبينما كان يبدو آل لارا فى صورة الدافعين عن استقلال قشتالة والقومية القشتالية ، ويغنمون بذلك عطف فريق كبير من الشعب ، كان آل كاسترو ، الذين كتبت على يدهم هزيمة النصارى إزاء المسلمين ، يفقدون سلطانهم شيئاً فشيئاً . بيد أنهم بادروا قبل أن يفقدوا كل سلطانهم إلى التفاهم مع خصومهم ، وعقدوا معهم فى « سوريا » فى سنة ١١٦٣ م ، اتفاقاً على وقف القتال ، حتى يستطيع النصارى رد غزوات المسلمين بصورة أقوى وأنجع . ومع ذلك فقد اقتصر الفريقان فى الاشتراك فى محاربة الموحدين على إرسال فرسان قلعة رباح والداوية ومعاونتهم ، للدفاع عن الحدود . وما كاد ينقضى خطر المسلمين الداهم ، حتى نشبت الحرب الأهلية فى قشتالة من جديد ، ذلك أن أسرة لارا لم تعقد الهدنة إلا لكى تخدر أعصاب خصومها ، ثم لتضربهم الضربة القاضية ، بمباغتة طليطلة عاصمة قشتالة . ولكن فرديناند رويز عميد آل كاسترو كان على قدم الحذر من غدر آل لارا .

ومن ثم فقد حطم الهجوم على طليطلة ، وفقد المانريك دى لارا الشجاع حياته فى المعركة (سنة ١١٦٤ م) ، فأعلن أخوه نونيو نفسه وصيا لقشتالة ومضى فى متابعة الحرب بعنف وشدة ، وعاد آل لارا فجمعوا قواتهم بسرعة ، واستطاعوا أن يستثمروا بذكاء كون الملك الطفل فى يدهم ، وأن يغتنموا بذلك تأييد كثير من القشتاليين ، الذين دفعهم ظفر الليونيين من قبل إلى معاونة آل كاسترو ؛ وتقدم نونيو فى غزو أراضى طليطلة بسرعة ، حتى أن الملك فرديناند اضطر أن يحالف أعدى أعداء عرش قشتالة ، أعنى سانشو ملك نافارا ، وألفونسو الأول ملك البرتغال ، على محاربة ابن أخيه وحماته آل لارا ؛ ذلك أنه كان يرى أسفاً كيف تنمو هيبة الملك الطفل فى نفوس القشتاليين يوماً عن يوم ؛ وكان كثير من القشتاليين الذين يخشون من تسلط الأجانب على حقوق البلاد ، يزداد

= بهم عدة هزائم ، وتحالف مع النصارى ، واستعان بهم فى محاربة الموحدين ؛ وكانت وفاته فى سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) (راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٦ ، وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٢٠ ، والاستقصاء ص ١٠٧)

سخطهم تباعاً على آل كاسترو الذين يسندهم الليونيون ؛ ولم تأت محالفة فرديناند للبرتغال بالنتائج المنشودة ؛ فقد اضطر أن يخوض الحرب فى ولاية استرامادوره ، حيث ثارت مدينتا شلمنقة ، وآبلة[1] ضد سلطانه ، إما بتحريض البرتغال أو أسرة لارا ، ونادتا بشخص اسمه نونيو سيرانيز ملكا عليهما ؛ ولم يستطع إخماد الثورة إلا بعد كبير جهد ، بل لقد كان انتصاره على الثوار محض مصادفة سعيدة ؛ وأسر الزعيم الثائر ، وقتل .

وفى تلك الأثناء كان آل كاسترو قد أساءوا استعمال سلطانهم ، وأسرفوا فى التعسف ، وشددوا فى اضطهاد كل من كان فى قشتالة وطليطلة ، يميل فى نظرهم إلى خصومهم ، حتى ضاق القشتاليون ذرعاً بحكمهم وعسفهم ؛ وعملت أسرة لارا على استثمار هذه الحالة بذكاء ، وعقدت مع سكان طليطلة أواصر التفاهم ، وحققت عندئذ مالم تستطع تحقيقه من قبل ، فاستولت عنوة على عاصمة قشتالة ، ولم تلبث أن نادت بالملك الطفل ألفونسو ، الذى لم يجاوز عندئذ الحادية عشرة من عمره ، والذى اتخذته عضداً لدعواها ، ملكا على قشتالة ، وذلك فى سنة ١١٦٦ م ، ودعت جميع القشتاليين إلى الالتفاف حول الملك الشرعى ، ومقاومة الليونيين ، وآل كاسترو الظالمين .

وأبدت قشتالة كلها من ذلك الحين ولاءها للملك ألفونسو ، الذى يلقب بالنبيل ، ويلقبه البعض بالصغير ؛ واستأثر آل لارا بجميع السلطة ، وحتى رجال الدين ، بعد أن لبثوا إلى ذلك الحين يعضدون ملك ليون ، أعلنوا ولاءهم عندئذ لألفونسو ؛ وعمل المطران سربرون أسقف سجونزا الذى عينه كبيراً للكنيسة الاسبانية بعد وفاة المطران يوحنا مطران طليطلة ، كل ما فى وسعه لتدعيم عرش الملك الطفل . وعقدت قشتالة مع ملك نافارا هدنة مدتها عشرة أعوام ؛ ثم عقدت بعد ذلك ببضعة أعوام (فى سنة ١١٧٠ م) مع أراجون معاهدة حماية وتحالف ؛

---

(١) شلمنقة هى (Salamanca) ، وآبلة (Avila) ، (راجع جدول الأعلام الجغرافية فى نهاية الجزء الأول) .

وهنا ألفى فرديناند ملك ليون أن الأمور قد ساءت ، ولم يبق فى وسعه أن يعاون أصدقاءه آل كاسترو ، فتركهم لمصيرهم ، حتى لا يخاطر بالدخول فى حرب مع قشتالة ؛ ولم يجد آل كاسترو ، الذين أخرجوا من قشتالة أمام سخط الشعب وتفوق آل لارا عليهم فى القوى ، ملجأً يلوذون به سوى أراضى المسلمين ، وهنالك أخذوا يدبرون وسائل الانتقام من أعدائهم

ولم تهدأ الحرب الأهلية فى قشتالة ، سوى بضعة أعوام . ذلك أن الفارين من آل كاسترو وعلى رأسهم فرديناند رويز ، عكفوا على تحريض الموحدين على غزو قشتالة . ثم نجحوا أخيراً فى إقناع فرديناند ملك ليون أن يؤويهم إلى مملكته وعول فرديناند أن يشغل ابن أخيه ألفونسو ، الذى أسلم قياده إلى آل لارا ، وكان يضطرم نحوه بغضاً ، فعضد الزعماء الفارين ، وأمدهم بجيش غزوا به قشتالة وخربوا أراضى أسرة لارا . وهكذا أسفر الخلاف الحزبى عن ضحايا جديدة ؛ ونشبت فى « لوركالى » على مقربة من استمان دى جورماز معركة دموية (سنة ١١٧٤ م) ، وكان يحارب إلى جانب آل لارا الكونت أزوريوس صهر فرديناند روير دى كاسترو ، فسقط فى الميدان قتيلاً وسقط معه عدة كبيرة من القوامس والفرسان القشتاليين ، وأسر من الفريق الآخر الكونت نونيو والكونت رودريجو ولدا جوتيرو ، ولم يطلق سراحهما إلا بعد أن أقسما بالعودة إلى التسليم ، ووعد رودريجو أن يعود إلى الأسر بعد أن يشهد دفن أخيه ألفارو الذى سقط فى الموقعة ، ولكن جثة الميت بقيت فى تابوتها ولم يتم الدفن ، ولم يعد رودريجو . أما الكونت نونيو فقد عاد إلى خصومه فى اليوم المحدد ، ولكنه لم يعد وحده ، وإنما عاد فى ستمائة فارس ، ولم يجرؤ بذلك إنسان أن يقوده إلى الأسر ؛ وهكذا أصلح آل كاسترو بالنكث والغدر ما أفسدته الهزيمة .

وقد وصل آل كاسترو يومئذ إلى ذروة الحظوة لدى فرديناند ملك ليون . يدل على ذلك أنه قدم أخته غير الشرعية الدونا ستفانيا زوجاً لفرديناند روير ، بعد أن طلق زوجته الأولى ابنة الكونت أزوريوس ؛ وكان الكونت الشهير

بيدرو فرنانديز من عقب هذا الزواج . بيد أنه مما يدعو إلى التأمل أيضاً ، أن الملك فرديناند طلق زوجه الأميرة البرتغالية أورا كا بسبب القرابة المباشرة ، وتزوج من الدونا تيريزا ابنة الكونت نونيو دى لارا . وفى ذلك ما يدل على أن أسرة لارا كانت تعتبر فى عداد الأمراء ، وقد كان هذا الزواج أكبر عامل فى تهدئة النضال بين أسرتى لارا وكاسترو . أما كيف انتهى النزاع بينهما فلم تشر إليه الرواية ، وتوفى فرديناند رويز عميد آل كاسترو فى سنة ١١٨٥ م .

الفصل الرابع

تاريخ مملكتى البرتغال وليون

منذ وفاة القيصر ألفونسو إلى وفاة ألفونسو هنريكيز وفرديناند الثانى

تلقى فرديناند ملك ليون ، وجليقية ، واشتوريش عن أبيه القيصر ألفونسو ، إلى جانب هذه الأقاليم الثلاثة ، دعوى السيادة على البرتغال . على أن مملكة البرتغال كانت تعمل لتوطيد استقلالها يوما عن يوم بما تحرز من نصر على المسلمين ، وما يتخذه ملكها من التدابير الحازمة ؛ وكان الشعب البرتغالى بأسره يعارض كل المعارضة فى الاعتراف بأى نوع من التبعية لاسبانيا . وكان ملك ليون من جهة أخرى ؛ قد شغلت قواه فى البداية بموقف قشتالة الخطر ، ثم بعد وفاة سانشو الثالث بما تلا من ظروفها وحوادثها المزعجة ، فلم يستطع أن يزاول حق السيادة على البرتغال . ولكنه ما كاد يبسط سلطانه على قشتالة واسترمادوره بمعاونة آل كاسترو ، حتى بدأ يشهر عدوانه على جارته البرتغال ، مع أنه لاح قبل ذلك بقليل أن ليون والبرتغال كانتا على وشك عقد محالفة وثيقة بينهما ضد قشتالة وضد المسلمين ؛ وكان فرديناند قد تزوج بالفعل ابنة ملك البرتغال الأميرة أورا كا (سنة ١١٦٥ م) ، ولكن أواصر المعاهدة والقربى لم تستطع أن تحد من أطماع الأمير وشهوته فى الفتح ؛ ذلك أنه — نزولا على نصح زعيم برتغالى ألفى ملاذاً فى بلاط ليون — عمد إلى تحصين مدينة ردريجو (Ciudad Rodrigo) الواقعة على حدود البرتغال (سنة ١١٦٥) واتخذها قاعدة للقيام بعدة غارات مخربة على الأراضى البرتغالية المجاورة ، وأقام فى الوقت نفسه عدة قلاع وحصون على حدود البرتغال

وأخذ يهدد المملكة الناشئة تهديداً قويا .

وإذ كان الملك ألفونسو هنريكيز [١] يقوم فى ذلك الحين بغزوات هامة فى أراضى المسلمين وقد انتزع بالفعل منهم عدة مواقع بينها قلعة يابرة (سنة ١١٦٦م — ٥٦١ هـ) ، وكان فرديناند من جانبه مشغولا بمحاربة سكان شلمنقة وآبله ، الذين ثاروا بتحريض البرتغال وأسرة لارا ، فيما يظهر ؛ ومشغولا فى الوقت نفسه بمحاربة المسلمين حيث انتزع منهم القنطرة والبوكرك والفاس [٢] ، فإن الحرب بين ليون والبرتغال هدأت مدى حين ، وذلك بالرغم من توفر جميع العوامل لإضرامها .

وما كاد ملك البرتغال ، يقف على تطور الحوادث فى قشتالة ، وما وقع فيها من نفى آل كاسترو ، وتحطيم سلطان فرديناند على يد آل لارا ، حتى بادر إلى حدود مملكته الجنوبية فحصنها ضد المسلمين ، وعهد بحمايتها إلى فرسان يابره ، وأرسل جيشاً بقيادة ولده وولى عهده سانشو لمحاصرة مدينة ردريجو ؛ ثم سار بنفسه فى سنة ١١٦٧ م فى جيش قوى إلى ولاية جليقية ، واستولى على مدينة لميا والأنحاء المجاورة لها بحجة أن هذه الأراضى تتبع مملكة البرتغال ، باعتبار أنها أعطيت لأمه الملكة تيرزا ، من أبيها ألفونسو السادس مهراً لزواجها ، بيد أن الجيش الذى سار بقيادة ولده إلى مدينة ردريجو هزم أثناء ذلك على يد الجند الليونيين .

وفى العام التالى (سنة ١١٦٨ م — ٥٦٤ هـ) سار ألفونسو هنريكيز إلى افتتاح مدينة بطليوس من يد المسلمين ، وبدأ بالفعل محاصرة هذه القلعة الهامة ،

---

(١) سبق أن أوضحنا أن الرواية العربية تسمى الملك الفونسو هنريكيز « ابن الريق » صاحب قلمرية (تراجع الحاشية فى ص ٢٠٨ من الجزء الأول) ، ولكنها تسميه أحيانا «بابن الرنك» (وربما كان صوابه ابن الريك) (يراجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٩ ، وكتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٢٧) .

(٢) تشير الرواية العربية إلى هذه الغزوة وإغارة الفرنج على ما وراء حدود البرتغال ، على مقربة من بطليوس ، ولكن بصورة غير واضحة ، ومع أنه يمكن القول بمطابقة الزمن والحوادث ، فإنه يتعذر التحقق من مطابقة الأماكن (راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٩ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٦١) .

ولكن وصلته الأنباء عندئذ بأن ملك ليون قد سار إلى قتاله فى جيش ضخم ، وكان فرديناند قد حظر على البرتغاليين قبل ذلك أن يقوموا بفتح مكان معين من يد المسلمين مدعياً أن هذا المكان يدخل فى منطقة أراضيه ، ولا يسوغ افتتاحه إلا للملك ليون ؛ فجد ألفونسو هنريكيز فى التعجيل بافتتاح بطليوس قبل مقدم فرديناند معتقداً أن الكلمة ستكون لأقوى الفريقين ، واستطاع بالفعل أن ينتزع معظم أنحاء المدينة ، ولم يبق فى يد المسلمين سوى قلعتها ؛ وهنا قدم ملك ليون فى جيشه ، وأتيح عندئذ للمسلمين المنهزمين أن يشهدوا منظراً غريباً ، هو منظر القتال بين جيشين نصرانيين وملكين نصرانيين ، من أجل الاستيلاء على المدينة ؛ ولما رأى ألفونسو هنريكيز ، بعد هزيمة قسم من جيشه على يد الليونيين أنه غدا أضعف من أن يستطيع الاحتفاظ بمدينة لم يستول على قلعتها بعد ، وأنه أصبح مهدداً بالحصار من عدو يفوقه فى الكثرة ، رد المدينة إلى المسلمين الذين غدوا عندئذ أصدقاءه ، واعتزم المبادرة بالفرار مع بقية جيشه ، ولكن حدث عند ما هم المسلمون باغلاق الأبواب بسرعة ، أن علقت ساق الملك الفار برتاج الباب وسقط من فرسه ، فكسرت ساقه ؛ ووقع أسيراً فى يد الليونيين .

وأبدى فرديناند شهامة وكرما إزاء محنة عدوه ، فأمر أطباءه بأن يعالجوه بمنتهى العناية وعامله بكل ما يعامل به الملوك من صنوف التكريم والرعاية ، وكان يجلسه إلى جانبه ؛ ومع أن ملك البرتغال كان على أهبة لأن يعترف بالخضوع وأداء الجزية افتداء لحريته ، فإن فرديناند اكتفى بأن يتعهد ألفونسو هنريكيز برد الأماكن والأراضى التى انتزعها من جليقية والتنازل عن كل دعوى بشأنها ؛ ولما تم نفاذ هذا العهد عاد ألفونسو هنريكيز إلى مملكته دون عائق ودون تضحيات أخرى ، بيد أنه استبقى ساقه العرجاء أثراً مؤلماً لسقطته وأسره ، يحول دون ركوبه الجواد ، والسير إلى ميدان الحرب ؛ أما فرديناند فقد حاصر بطليوس ، وآثر المسلمون — حين أيقنوا أنهم لا يستطيعون الدفاع عنها طويلا — أن يهادنوا ذلك الملك الظافر المعتدل ، وأن يقطعوا له عهد الخضوع ؛ فلما قدموا إليه طاعتهم

وخضوعهم ، أقر حاكم المدينة المسلم « ابن حابل » (كذا) على حكمها ، وارتد عائداً إلى مملكته ، بيد أنه سرعان ما ندم على تساهله مع مسلمى بطليوس ، ذلك أنه لم يمض طويل حتى ثارت المدينة ، وعادت إلى الانضواء تحت سيادة الموحدين ، وغدت بقلعتها المنيعة قاعدة لما يقوم به الموحدون من غارات مخربة فى أراضى استرامادورة [١] .

وقد وقعت أمور كثيرة تدل على مبلغ ما كان يسود الملكين النصرانيين فى شبه الجزيرة ويفرق بينهما من عوامل الحسد وسوء الظن ؛ فإذا أتيح لأحدهما مثلا أن يحرز على المسلمين الظفر فى إحدى المواقع ، فإن الآخر يخشى أن يغدو ذلك النصر خطراً على مملكته ؛ وكانت كل غزوة يقوم بها النصارى فى الأراضى الإسلامية المجاورة تثير الانزعاج بين ملكى البرتغال وليون ، كأنما هذا الغزو كان يقع فى أراضيهما ؛ والواقع أنه لم يكن ثمة بين الملكين أى سلام حقيقى ؛ وكان الخوارج المبعدون من أتباعهما ، يلقون كل فريق لدى بلاط الآخر حسن الوفادة ، ويعملون بكل ما وسعوا لإذكاء الخصومة وسوء الظن بين الملكين ؛ ولما استطاع الموحدون أن يقفوا تقدم البرتغاليين فى أراضيهم ، وأخذوا يحاولون استرداد المدن المفقودة ، وحاصروا مدينة شنترين بجيش ضخم (١١٧١ م — ٥٦٧ هـ) [٢] ، لاح .

---

(١) يبدو من مراجعة الرواية العربية أنها تتفق مع الرواية النصرانية فى كون النصارى قد حاصروا بطليوس فى تلك الفترة مرتين — الأولى سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨م) ، وهذا الحصار هو الذى قام به الفونسو هنريكيز حسبما تقدم ، والثانية فى سنة ٥٦٥ هـ (١١٦٩م) وهو الحصار الذى قام به فرديناند ملك ليون . وفى الرواية العربية مايدل على أن الموحدين اشتركوا فى الحصار الأول مع أهل بطليوس فى الدفاع عنها . وفى الحصار الثانى ، بعث الشيخ أبو حفص الهنتاتى كبير قادة الموحدين بالأندلس ، أخاه أبا سعيد إلى بطليوس لإنجادها ، وآثر أبو سعيد أن يعقد الصلح مع النصارى . أما ابن حابل ، أو ابن هابل الذى تشير الرواية النصرانية إلى أنه حاكم بطليوس وقت الحصار فهو تحريف ظاهر لاسم عربى لم تتضح لنا حقيقته . ولعل الاسم الحقيق هو « ابن الحاج » (راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٩ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٦٠) .

(٢) تشير الرواية العربية هنا إلى خروج النصارى إلى أرض المسلمين بقيادة « القومس الأحدب » ، ويلوح لنا أنها تقصد هنا الفونسو هنريكيز ملك البرتغال ، لأن كلمة قومس هى تحريف كلمة Comes اللاتينية ومعناها الكونت ، وقد كانت تطلق يومئذ على أمراء اسبانيا =

لملك ليون أن الفرصة قد تسنح ، إذا ما هزم الجيش البرتغالى للقيام بفتوحات جديدة ، فحشد فى الحال جيشاً قويا ، وبادر بالسير إلى مقربة من ميدان الحرب وأخذ يرقب الظروف والحوادث ؛ ولكن حدث قبل مقدمه ، أن نجح ملك البرتغال فى إرغام المسلمين على رفع الحصار عن شنترين ، وهزمهم هزيمة فادحة ، وألجأهم إلى الفرار . ولما علم الفونسو هنريكيز بمقدم اللونيين على هذا النحو المفاجئ ساوره القلق ، لأنه قياساً على ما سبق ، لم يكن يؤمل خيراً من مقدم جيرانه حينما يحرز النصر على المسلمين . على أنه آنس من نفسه استمداداً ومقدرة لملاقاة هؤلاء الأعداء الجدد . ولكن فرديناند لم ير من الحكمة أن يخوض المعركة مع البرتغاليين وهم فى نشوة ظفرهم على المسلمين ، بل آثر أن يتظاهر بأنه لم يقدم بغية القتال ؛ وأرسل إلى ملك البرتغال رسولا يهنئه بالنصر ، ويعرب له عن أسفه لوصوله متأخراً ، وعدم تمكنه بذلك من معاونته ؛ فشكره ملك البرتغال على جميل عواطفه ، وانتهز فرصة هذا المظهر الودى ليعمل على إلقاء الرعب فى قلوب المسلمين ، وليشتد فى مطاردتهم .

وعاد فرديناند إلى ليون . وقلبه يفيض أسفاً لفشل خطته التى دبرها باحكام . وكان قد طلق زوجه الأميرة البرتغالية أوراكا بحجة القرابة ، بالرغم من أنه أنجب منها ولداً ، هو ولى العهد (الانفانت) الفونسو ، ولم يكن متأثراً فى ذلك بالقرار البابوى فقط ، ولكنه كان متأثراً بالأخص بخصومته للبلاط البرتغالى .

وحكم الفونسو هنريكيز مملكته من ذلك الحين آمناً لا يزعجه أحد من جيرانه النصارى ، منتصراً فى محاربة المسلمين كما سنذكر بعد . وأخيراً صدر القرار البابوى المتعلق باستقلال مملكة البرتغال عن قشتالة وليون ، بعد أن طال عليه الأمد ، وأصدره البابا اسكندر الثالث بمقتضى مرسوم بابوى فى سنة ١١٧٩ م ، وفيه يمنح الفونسو هنريكيز لقب الملك ، وتوضع مملكة البرتغال الحرة من كل

= والأحدب وصف لالفونسو هنريكيز ، يطلق عليه منذ إصابته فى ساقه بعاهة مستديمة حسبما تقدم (راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٠) .

عهود الجزية تحت حماية الكرسى الرسولى ، وفى مقابل ذلك تدفع البرتغال وفقاً لما تعهد به الفونسو الأول من قبل ، إلى الكرسى الرسولى قطعتين من الذهب كل عام جزية رمزية . وقد كان هذا القرار البابوى ضماناً حقيقيا لاستقلال البرتغال عن الدول النصرانية المجاورة ، وذلك نظراً لما كان يتمتع به الكرسى الرسولى يومئذ من الهيبة والنفوذ فى اسبانيا ، وهذا القرار نفسه يعتبر دليلا على ضعف الملوك الاسبان فى هذا العهد ، وهو ضعف كان يستغله الكرسى الرسولى لتوطيد سلطانه ونفوذه . ولم تكن البابوية تجرأ على اتخاذ مثل هذا القرار من قبل ، وعلى الأقل فى عصر القيصر الفونسو ريموندز ، وذلك خوفا من معارضة قشتالة الشديدة ، ولم يكن فى وسع القرارات البابوية أن تمحى دعاوى قشتاله على ولاياتها . ولكن قشتاله وليون كانتا عندئذ تعانيان من خلاف الأشراف وغطرستهم ، ولم يجرؤ يومئذ أحد أن يثير أى اعتراض على القرار البابوى .

وأن الفونسو هنريكيز ليستحق من جميع الوجوه أن يلقب بمؤسس المملكة البرتغالية ، فقد حقق سلطانه بالسيف ، وكانت تحاول انتزاعه منه أمه سيئة الأخلاق وزوج أمه الحاقد ، وافتتح معظم أراضى مملكته بالسيف من يد المسلمين ، وانتزع بالسيف أيضاً من قيصر قشتاله استقلاله ولقبه الملوكى ، وقد اتبع إلى جانب شجاعته وصفاته الحربية الممتازة ، سياسة ملؤها الذكاء والفطنة ، ووطد بذلك العمل الذى بدأه بالعنف توطيداً أبديا ، واستمال إلى جانبه رجال الدين وعلى رأسهم البابا — وهم يومئذ فى ذروة القوة والسلطان — بما بذله من العطايا السخية ، وما منحه من الامتيازات الخاصة ، وعرف كيف يذكى الحماسة الدينية فى نفوس الشعب البرتغالى ، وأن يغنم تأييده باصدار دستور يحقق الحرية والعدالة لكل الطبقات ، ويحيط وراثة العرش بضمانات تحول دون نشوب الحرب الأهلية ، ويوطد دعائم القومية البرتغالية . وشغل أشراف المملكة بأن دفعهم لمحاربة المسلمين على الحدود ، واستطاع بتأسيس جماعة فرسان بارة الذين خصصوا حياتهم لمكافحة المسلمين ، أن يحول شغف الأشراف بالحرب — وهو شغف كان فى دول شبه

الجزيرة الأخرى يتفجر فى حروب داخلية مخربة — إلى وجهة قومية صالحة .
وحكم الفونسو هنريكيز الذى لقب بالفاتح بحق ، على هذا المنوال البديع ، مملكة البرتغال ، ردحا طويلا من الزمن ، مرهوب الجانب من النصارى والمسلمين على السواء ، وتوفى بعد حكم طال نصف قرن ، فى السادس من ديسمبر سنة ١١٨٥م فى السادسة والسبعين من عمره .

وقد أشاد البرتغاليون دائما ولا سيما رجال الدين بذكرى هذا الملك العظيم ، وكان رهبان دير الكوبازه ، الذى يرجع فضل تأسيسه إليه ، يحتفلون حتى العصر الحديث بعيده برسوم خاصة ، احتفالهم بعيد قديس ، ولكن البابوية لم تصدر مع ذلك قرارها بتقديسه بالرغم مما بذله الملك يوحنا الثالث فى هذا السبيل .

ولم تمض بضعة أعوام على وفاة الفونسو هنريكيز ، حتى توفى خصمه فرديناند الثانى ملك ليون فى ٢٨ يناير سنة ١١٨٨ أثناء حجه إلى قبر القديس ياقب ، وذلك بعد أن حكم إحدى وثلاثين سنة . وقد اشتهر فرديناند بخلال الفروسية والشجاعة والجود والتقوى ، أكثر مما اشتهر بالفطنة وبعد النظر . وكانت هباته للكنائس والأديار لا حد لها ؛ حتى أنه وهبها جميع أملاكه تقريباً ؛ وكان يعامل جميع الناس بمنتهى التواضع والرقة ، ويحبه الشعب أكثر مما يرهبه كملك ؛ ولم يكن حكمه سوى معترك من المنازعات والمعارضات ، التى لم يوفق حتى الكتاب المعاصرون إلى استجلاء ظروفها ؛ ذلك أنه حينما يتصرف الأمير وفقا لعاطفة مؤقتة أو هوى طارئ ، ولا تقوم السياسة عنده على مبادئ ثابتة ، فانه يتعذر على المؤرخ أن يظفر بالبواعث الحقيقية التى أملت هذه التصرفات . أما حروبه ضد البرتغال ، فقد كان يرجو أن يظفر بالغنم فيها بالاستغلال والخديعة أكثر مما يرجو الظفر فى ميدان الحرب ، وسرعان ما نراه يتقرب إلى خصمه بعرض الصداقة والتحالف ، ثم يعود فيعمل على تمزيقهما متى زهد فيهما . كذلك لم تكن سياسته نحو قشتالة قائمة على مبادئ معينة ، فقد بدأ حامياً لآل كاسترو ، ولبث يدين لهم حيناً بسيادته على قشتالة ثم ترك سير الحوادث بعد ذلك ، حتى أخرج آل كاسترو من قشتاله ، وتركهم

للقَدَر مدى حين ، حتى أن كبيرهم فرديناند رويز لم يلجأ إلى مملكة ليون ، بل لجأ إلى الموحدين ، ثم إن هذا الزعيم الفار لم يوجه أعداء دينه ضد قشتالة بادئ ذى بدء بل وجههم ضد الملك فرديناند حاميه السابق ؛ وأغار فى قوة من الموحدين على مدينة ردريجو التى لم يكمل بناؤها بعد ، وكاد يظفر بافتتاحها ، لو لم يبادر فرديناند حينما علم بالخطر المحدق بها إلى إنجادها وإنقاذها فيما يشبه المعجزة . وقد عاد فرديناند بالرغم من خصومة آل كاسترو لمملكة ليون ، إلى استدعائهم إلى بلاطه ، وعهد إليهم بقيادة الجيش مرة أخرى . فلما أحرز على أيديهم فى قشتالة ظفراً يذكر على أسرة لارا ، انقلب غير بعيد إلى مصادقة آل لارا . ثم تزوج إحدى بناتهم ، وهى الدونا تيريزا ابنة فرديناند دى لارا ، وأرملة الكونت نونيو دى لارا (سنة ١١٧٦ م) ومزق بذلك أواصر حلفه مع آل كاسترو . وفقد فرديناند من ذلك الحين هيبته فى قشتالة ، ثم انقلبت قشتالة بعد ذلك إلى محاربته غير مرة ؛ ولم تعقد الهدنة بين قشتاله وليون إلا فى سنة ١١٨٠ م ، بوساطة أراجون ، التى وثق فرديناند أواصر تحالفه بها منذ سنة ١١٦٢ م ، ولكنه لم يلبث أن أهمل هذا التحالف ؛ ومن ذلك الحين ، تبدو مملكة ليون ، إزاء الأعمال العظيمة التى قام بها الملك الفونسو النبيل فى قشتالة ، فى مؤخرة دول اسبانيا النصرانية . ويقص علينا التاريخ بعد ذلك من سيرة فرديناند ، أنه تزوج للمرة الثالثة ، بعد وفاة زوجه الملكة تيريزا ، بالدونا أوراكا ابنة أمير بسكونيه الكونت لوبوس . ثم توفى بعد أن أعقب منها ولدين هما سانشو وجارسيا . وخلفه فى الحكم ولده الفونسو الثامن ، أو التاسع إذا احتسبنا الملك الفونسو الأول الأرجونى بين ملوك ليون ، وهو ولده وولى عهده الذى رزق به من زواجه الأول بالأميرة أوراكا البرتغالية ؛ ومع أن هذا الزواج قد ألغى لشدة القرابة بين الزوجين ، فان حق الفونسو فى ولاية العرش لم يستند إلا إلى كونه ولد أبيه البكر ، ولم يحصل الولدان اللذان أعقبا من الزواج الثالث على شىء ، حتى ولا على حكم بعض الولايات ، مع أنه كان من المتبع — فى مملكة ليون — أن تقسم المملكة إذا تعدد الأبناء .

الفصل الخامس

تاريخ اسبانيا النصرانية

فى عهد ألفونسو الثانى ملك أراجوان

حينما تولى الملك الفتى الفونسو الثالث — ولد سانشو الثالث — عرش قشتالة وهو فى الحادية عشرة بمعاونة آل لارا ، عقب انتزاع طليطلة فى سنة ١١٦٦ م ، لم يكن حكمه فى البداية سوى إقرار لتصرفات أتباعه وحكومتهم . بيد أنه لم تمض سوى أعوام قلائل ، حتى استطاع الملك الفتى أن يقبض على زمام الحكم بنفسه بقوة وعزم ؛ وحدث ذلك حينما أعلن نواب الأمة فى المجلس الذى عقد فى برغش سنة ١١٦٩ ، بلوغ الملك سن الرشد ، وذلك وفقاً لما نص عليه فى وصية أبيه من إعلان رشده حينما يبلغ الخامسة عشرة من عمره . واعتزم الفونسو ، أن يعمل لإصلاح شؤون مملكته المختلة بعض الشىء وأن يقيها خطر الغزو الدائم من جانب آل كاسترو وملك ليون والمسلمين ، فعقد السلم مع جاره من الشمال الشرقى ، سانشو ملك نافارا ، ومع الفونسو ملك أراجون ؛ واتفق على أن يكون التهادن مع نافارا بشأن ولاية ريوجا لمدة عشرة أعوام وهو إتفاق لم يحترم ؛ وحارب ملك قشتالة فى البداية ملك أراجون ، وهزمه على مقربة من قلعة رباح (سنة ١١٧٠) ، وحمله بذلك على عقد الصلح والتهادن وعاون فى عقد هذا التحالف بين الملكين ، هنرى الثانى ملك إنكلترا ، الذى تقرر أن تتزوج ابنته اليونور من ملك قشتالة ، وكان دائماً حليفاً مخلصاً لملك أراجون فى حروبه فى جنوبى فرنسا ؛ وتم زواج ملك قشتالة

بالأميرة الإنكليزية فى نفس العام ؛ واستقبل سربرون مطران طليطلة ، والكونت نونيو دى لارا أعظم أتباع الملك ، العروس فى ولاية جويان ، وصحباها إلى قشتالة عن طريق أراجون ، ولم يخترقا أراضى نافارا نظراً لعدم التثبت من ولائها وصداقتها ؛ وكان ملك قشتالة ينتظر عروسه فى ثغر طركونه ومعه حليفه ملك أراجون ، وتم زفاف العروسين فى حفلات باذخة نظمها ملك أراجون .

وسرعان ما أثار تقــدم الوحدين فى جنوبى اسبانيا جل عناية ملك قشتالة ونشاطه . وكانت قشتالة أشد الدول تعرضاً لخطر الوحدين ، وإن لم تكن الدول النصرانية الأخرى — خلا نافارا — بمنجاة من هذا الخطر ؛ ومع ذلك فإنه تعذرعلى الملوك النصارى أن يضعوا فيما بينهم خطة موحدة لمحاربة المسلمين ، وكان كل منهم بالعكس يرمق نجاح الآخر بعين الريب والحسد ؛ ولم يغيروا من مسلكهم ، حينما طلب إليهم الأمير ابن سعد بن مردنيش (وتسميه الرواية الاسبانية « ابن لوبى » Abenlope) ، الذى استقل بحكم بلنسية ومرسية عن الوحدين ، وغدا منذ سنة ١١٦٧ م تابعاً لملك قشتالة — عونهم المشترك . ولما لم يظفر هذا الأمير منهم بالمعاونة المنظمة القوية ، اضطر أن يخضع أمام تفوق أعدائه (سـنة ١١٧٢ م)[١] وبذا انهار هذا الحاجز الأخير الذى كان بوسع النصارى أن يصمدوا فيه أمام الوحدين من هذه الناحية ، وأصبح العدو القوى ، بعد استيلائه على ولايتى بلنسية ومرسية ، يثخن هنا وهنالك فى أراضى الدول النصرانية ويزعجها بغزواته المخربة ، ويرغمها على القيام باستعدادات حربية عظيمة ؛ وبينما كان ملك ليون يحاول ، فى جنوب غربى الجزيرة ، أن يحول دون فتوح ملك البرتغال فى أراضى المسلمين ،

---

(١) كان محمد بن أحمد بن سعد بن مردنيش أعظم الزعماء الثائرين الذين ظهروا بالأندلس عقب انهيار سيادة المرابطين ؛ وقد استولى أولا على مرسية منذ سنة ٥٤٢ هـ ، ثم اتسع ملكه تباعا حتى شمل شرقى الأندلس كله ؛ واستعان بالنصارى فى محاربة الموحدين مراراً ؛ (راجع الجزء الأول ص٢٣٣ و ٢٤٠) ؛ واستمر فى نضاله ضد الموحدين ، حتى غلبته بعوثهم وجيوشهم المتوالية ، وحاصرته فى مرسية سنة ٥٦٧ هـ ، ثم توفى أثناء الحصار فى العام التالى (سنة ٥٦٨ هـ — ١١٧٣ م) ، (راجع فى سيرته وتفاصيل ثورته وحروبه ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٦ و ج ٦ ص ٢٤٠ و ٢٤١ وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٣٠ — ٢٣٢) .

وتفت الغيرة وسوء الظن فى قواتهما ، كانت الدول النصرانيـة الثلاث فى شمال شرقى الجزيرة ، أعنى قشتالة وأراجون وناقارا ، تتنازع فيما بينها على حقوق الفتح فى أراضى المسلمين ، وتفاقم النزاع ، حتى كادت تغدو هى فريسة للمسلمين . وسرعان ما عقدت أواصر التحالف بين هذه الدول ، كما انفصمت من قبل ؛ وكانت المصالح المشتركة تحمل أراجون وقشتالة ، بالرغم مما كان ينشب بينهما من الخلاف فى أحيان كثيرة ، على توثيق حلفهما ، ولو لم تكن مملكة أراجون مفككة مترامية الأطراف على هذا النحو ، لما بلغ ملك فى شبه الجزيرة مبلغ ملك أراجون من القوة والسلطان ؛ كذلك لم تكن أراجون أقل معاناة من قشتالة من جراء غطرسة الأمراء التابعين الذين يسيطرون على الجيش . أجـل لم يكن الفونسو الثانى ملك أراجون عاطلا من صفات الملك العظيم ، فقد كان يتمتع بقسط وافر من الكفاية والشجاعة وحب العدل ، وقد دلل منذ حداثته على أهليته لتولى العرش ؛ وولى الحكم فى سنة ١١٦٢ م ، وهو فى الحادية عشرة من عمره ، تحت وصاية أمه بترونيلا ، واتخذت فى ذلك الحين ، فى مجلس سرقسطة النيابى ، قرارات هامة للمحافظة على سلام البلاد ، والحد بقدر المستطاع من عسف الأشراف وعنتهم ، ورؤى لتوطيد دعائم السلم مع الدول المجاورة ، أن يُعاقب الذين يعملون لتعكير السلم معاقبة المعتدين على العرش .

ولما بلغ الفونسو الثانى الخامسة عشرة من عمره ، وانتظم فى سلك الفروسية وأعلن رشده ، لم يلبث أن اجتذب إلى ميدان الحرب ، واستغرقت المحافظة على أملاك أراجون الواقعة فى جنوبى فرنسا ، كل جهوده وقواه ؛ ذلك أن الأمراء التابعين ، وجيرانهم من الزعماء الطامعين ، كانوا يثيرون ضرام الحرب فى هـذه الأنحاء بلا انقطاع ؛ وفى سنة ١١٦٦ م ، قتل الكونت برنجار أمير بروڤانس وعم الفونسو الثانى فى حصار « نيزا » ، فبادر الكونت ريموند دى تولوز ، الذى كان ابنه متزوجا بابنة برنجار الوحيدة ، باحتلال الولاية ، وتزوج من الكونتة ريشيلدا أرملة الأمير القتيل ، لكى يوطد حقوقه فى امتلاكها . ولكن ملك أراجون ،

الذى أعلن أبوه أميراً لبروفانس فى نفس الوقت مع الكونت برنجار ، على يد القيصر فردريك برباروسا (ذو اللحية الحمراء) ، كان يدعى على الولاية حقوقا أمتن وأوثق ، ولذا بادر إلى تأييد حقوقه بالسيف ؛ وحارب أشراف الولاية والجنويون فى هذه المعركة إلى جانب ملك أراجون ، حتى ظفر بالنصر على خصمه الكونت دى تولوز ، خصوصاً وقد كان الكونت يشغل فى الوقت نفسه بمحاربة هنرى الثانى ملك إنكلترا ؛ ولما كان حكم بروفانس أمراً صعباً نظراً لبعدها عن أراجون وكانت أحوالها المضطربة تستدعى أن يقوم على إدارتها حاكم مقيم ، فقد رأى ملك أراجون أن يعقد مع أخيه الأصغر بيدرو اتفاقا بتبادل الأراضى ، وأعطاه ولاية بروفانس ليحكمها بعهد الجزية من قبل العرش الأرجونى ، نظير استيلائه على ولاية شرطانية ، وقرقشونة وجزء من أربونه (سنة ١١٦٨ م) . وتوطد سلطان الأمير الجديد فى الولاية ، باتفاق عقد فيما بعد ، فى سنة ١١٧٦ م ، مع الكونت دى تولوز ، والتزمت مدينة نيزا مع ذلك أن تدفع تعويضاً ماليا كبيراً إلى ملك أراجون نظير مقتل الكونت برنجار .

أما فى اسبانيا ، فكان ملك أراجون يسير من حرب إلى حرب ، ولم تكن العلائق بين أراجون وقشتالة طيبة فى البداية . ومع ذلك فقد رأى الفونسو الثانى أنّ صالحه يقضى بعقد السلم مع قشتالة والتحالف معها ، وذلك لكى يستطيع محاربة المسلمين والناقاريين بنجاح وظفر ؛ ثم قام بعدة غزوات مخزية فى أراضى بلنسية ، وأرغم عدة من صغار الأمراء المسلمين على دفع الجزية ، وحصن مدينة ترويل ، ليتخذ منها فيما بعد قاعدة للغزو فى تلك الأنحاء .

وأثارت هذه الانتصارات غيرة سانشو السادس ملك ناقارا ؛ فما كاد ملك أراجون يسير إلى محاربة المسلمين ، حتى انقض سانشو بقواته على أراجون ، واضطر الفونسو الثانى أن يرتد إلى محاربته وأن يترك غزواته فى الجنوب؛ ورأى الفونسو أن يستعين بقشتالة على محاربة خصمه فوثق أواصر حلفه معها ، وتزوج من أخت الفونسو النبيل ملكها ، الأميرة سانشا فى سنة ١١٧٤ م ، وذلك بالرغم

من أن عروسه الأولى الأميرة يودشيا ابنة قيصر قسطنطينية ، كانت فى طريقها يومئـذ إلى اسبانيا . وهكذا خاضت قشتالة وأراجون الحرب معاً ضد نافارا مدى أعوام ، ومع ذلك فانهما لم تحققا من ورائها سوى نتائج يسيرة ، إذ كان من الصعب القيام بفتوح ثابتة فى أرض تغص بالجبال والقلاع المنيعة ، ولذا رحبتا بمـا عرضه هنرى الثانى ملك إنكلترا من التوسط بعقد الصلح بين الفريقين . ومع أنهما لم تغتبطا بنتائج هذا المسعى ، فانه أسفر مع ذلك عن وقف الحرب بين الدول الثلاث .

وتبدو أهمية هذا التحالف بين قشتالة وأراجون بالنسبة لملك قشتالة متى استعرضنا حال مملـكته فى ذلك الحين . فقد كان ملك قشتالة فى حاجة دائمة إلى المال ؛ وحينما طالب الملك الأشراف فى مجلس برغش بمبالغ طائلة اعترض بيدرو دى لارا على هذه المطالب الفادحة بشدة ، بحجة أنها تناقض حقوق الأشراف وانسحب من الاجتماع مع معظم أشراف قشتالة . ولم تكن السكينة قد سادت بعـدُ أرجاء المملـكة ، فقد كان القتال مستمرا بين آل لارا وآل كاسترو ، وكان فرديناند ملك ليون يعمل على إذكاء الاضطراب بكل الوسائل الممكنة ، وكان سانشو ملك نافارا يتحفز دائمـا للزحف على برغش لانتزاع ولاية ريوجا ، وكان المسلمون يهددون كل آن بأن يجتاحوا المملـكة كلها بجيوش ساحقة ، وكانت استرامادوره ، وهى ولاية قشتالة ، كلها فى قبضة ملك ليون ؛ وكان ملك البرتغال خارجا على سلطان قشتالة ؛ فلم يبق إلى جانب قشتالة إزاء هذه الجمهرة من أعدائها وخصومها سوى أراجون ؛ واضطرت قشتالة أن تشترى صداقة حليفتها بثمن يدنو إلى التضحية ؛ فقد دفع الفونسو النبيل ثمن معاونة أراجون فى حملته ضد الموحدين ، تنازله عن حق الجزية على سرقسطة وغيرها من الأراضى التى منحها إياها القيصر الفونسو ؛ وأسفرت هذه الحملة المشتركة عن افتتاح قونقه (أو كونكه) فى سنة ١١٧٧ م — ٥٧٢ ﻫ وهزم الموحدون بعـد أن تقدموا حتى ظاهر طليطلة هزيمة فادحة بيد أن ملك قشتالة لم يستطع أن يجتنى ثمرات ظفره إذ دبت الغيرة إلى ملك أراجون ، وغدا

يخشى أن تصبح قشتالة من القوة بحيث تنتهي بافتتاح أراضي بلنسية ومرسية ، وهي أراض كان ملك أراجون يرى أنها تدخل في منطقة الفتح الخاصة بمملكته . ومن جهة أخرى فقد أخذ فرديناند ملك ليون يتحرك من جديد ، ولم يكتف بغزو أراضي قشتالة وانتزاع بعض الأماكن منها ، بل أخذ يستعد لاستئناف الحرب معها ؛ وترتب على ذلك أن تحالفت قشتالة وأراجون والبرتغال على محاربة ليون وناڤارا (سنة ١١٧٨ م) ، ولكن ملك أراجون اضطر أن يسير إلى جنوبي فرنسا لكي يوطد وسائل المحافظة على أملاكه الفرنسية ومنها ولاية روسيون ، ومدينة نربيه وما إليها من الأراضي التي آلت إليه بالميراث ، ولم يجد النصارى إزاء غارات الموحدين المستمرة بدا من المضي في مراقبتهم والتأهب لردهم ، وهكذا تطور الموقف بين الدول النصرانية ، وعملت أراجون ، ورعيا أيضاً هنرى الثاني ملك إنكلترا ، على إزالة الجفاء فيما بينها ، وأسفرت الوساطة عن عقد الصلح مرة أخرى بين قشتالة وليون ، وذلك في مدينة توردسيلاس في سنة ١١٨٠ م وسوى النزاع القديم بين أسرتي لارا وكاسترو ، وكذلك أزيلت أسباب سوء التفاهم بين قشتالة وأراجون وعقدت بينهما في كازولا (سنة ١١٧٩ م) معاهدة نص فيها على أن شاطبة وبلنسية ومرسية وما إليها من الأراضي ، تقع في منطقة الفتح الخاصة بأراجون ، وأن الأراضي الواقعة غرب ذلك ومنها غرناطة تقع في منطقة الفتح الخاصة بقشتالة .

وليس في تاريخ الممالك النصرانية الاسبانية في عشرة الأعوام التالية ما يستحق التفصيل والإفاضة ؛ وقد رأينا ، لكي لا نرهق القارىء بسرد حوادث وظروف متماثلة ، أن نقتصر على وصف حالة اسبانيا بصفة عامة متخذين قشتالة دائماً محور الحوادث والتطورات..

أفضت المعارك والمنازعات المستمرة بين ملوك اسبانيا إلى أن اجتاحت اسبانيا النصرانية موجة هائلة من القسوة والتوحش ، ووصل حكم العنف وعدوان الأقوياء في شبه الجزيرة إلى ذروة الاضطرام ؛ واندفع الأشراف والفرسان جميعاً إلى خوض الحرب ، يكافح بعضهم بعضاً في معارك ومبارزات لا نهاية لها ، ومزقت الأهواء

الحزبية كل الأسر وروابط القربى ، وساد القتل والطاردة ، حيث ضعفت السلطة العامة . وهكذا لاح أن نظم الدولة والحكومة قد غدت على وشك الانهيار ، وحتى الكنائس ورجال الدين ، بعد أن كان الدين يسبغ عليهم لونا من القدس ، لم تبق لهم حرمة ، ووطئت بالأقدام كل الوصاية البشرية والسماوية ، واضطرت جماعات الفرسان الدينية التي قامت لتكافح من أجل الدين ، أن تبذل في قمع أعمال العنف التي يقوم بها الناهبون من الفرسان النصارى ، مثل الجهد الذى تبذل في محاربة المسلمين ؛ ومع أن الأمير الشجاع الفونسو الثاني ملك أراجون ، استطاع أن يدافع عن مملكته ضد جميع أعدائها الخارجين ، وأن يضم إليها ولاية بروڤانس عقب وفاة أخيه بيدرو الذى قتل في سنة ١١٨١ ، وذلك بالرغم من معارضة الكونت دى تولوز ، فانه لم يستطع مع ما اتخذ من الإجراءات الحازمة ضد آثام الأشراف وضد مزاولة حق القوة ، أن يحول دون وقوع أفظع الشناعات في بلاده ؛ ففي عهده مثلا وقعت حادثتا قتل في طركونة قتل في كل منهما مطران . وتفصيل ذلك أنه في بداية حكمه حدث نزاع بين المطران هوجودى سرڤيلوس ، وبين حاكم طركونة روبير بورديه ، وقام جيوم ولد الحاكم بتخريب جميع الأراضي الواقعة حول طركونة . ولما أراد الملك أن يعاقب المتدين بشدة ، قتل المطران بتحريض روبير ، فأمر الملك باخراج روبير وأسرته من المملكة ؛ ففر إلى ميورقة ولجأ إلى حماية المسلمين ؛ فخشى الملك أن يغدو المجرم الفار على هذا النحو خطراً على قطلونية ، فسمح بعوده وأسرته إلى المملكة بالرغم من جريمته ؛ وكان لهذا التهاون أثره السيء ، فانه لم يمض سوى قليل ، حتى ارتكبت في طركونة ذاتها نفس الجريمة على يد جيوم ريموندز دى مونكادا ، الذى اشتهر من قبل بمعارضته للملك ومنازعته له في حقوق الملك ، فقد اغتال هذا الرجل الذى ينتمى إلى أكبر أسر قطلونية ، بنفسه ، حياة برنجار مطران طركونة ، وذلك في سنة ١١٩٤ م ، ولم تعن الرواية بأن تقدم إلينا حتى سبب هذه الجريمة .

ولم يقتصر الأمر على أن كانت أسرتا لارا وكاسترو تنتهزان ف

المنازعات والحروب التى تضطرم بين ملوك اسبانيا النصرانية ، لتفوز كل منهما بسلطة الحكم ، بل كان مثل ذلك يحدث فى الممالك النصرانية الأخرى ؛ ففى أراجون كان بطل هذه الحركة بيدرو رويز دى أزاجرا ، وهو نافارى استقر فى الأراضى الأرجونية ، وكان مثل البطل القديم ، السيد الكنبيطور ، فارساً شجاعا وقائداً عظيما ، يحارب طوراً إلى جانب المسلمين ، وطوراً إلى جانب النصارى ، ويبيع معاونته أحيانا إلى ملك أراجون ، وأحيانا إلى ملك قشتالة ، وآونة إلى ملك نافارا ، ويستغل منازعاتهم ، لتوطيد سلطانه ، واستقلاله عنهم جميعا ؛ وقد استطاع بمحالفة أمير بلنسية أن يستولى على مدينة شَنْتَمَرية الشرق (شنتمرية ابن رزين) [1] ، وهى موضع أسبغت عليه الطبيعة والفن حصانة خارقة ، واستطاع بإعادة مركز الأسقفية القديم فى سيجوربجا ، بتعضيد البابا إسكندر الثالث ويوحنا مطران طايطلة أن يغنم عطف رجال الدين والأتقياء . ولما أدرك ملكا قشتالة وأراجون ما تنطوى عليه محاولته وخديعته ، وشهرا عليه الحرب ، ألفى بيدرو دى أزاجرا ، فى تحاسد الملكين خير حليف ، إذ كان كلاهما يؤثر أن يرى بيدرو ، وهو زعيم محلى ، على أن يرى زميله ، مالكا لهذه القلعة الهامة الواقعة فى شعب الجبال عند الحدود ؛ وهكذا استطاع بيدرو حتى وفاته أن يحتفظ بسيادته على شنتمرية الشرق ، بل لقد توارثها عقبه مدى حين .

وكأنه لم يكف اسبانيا النصرانية ما كانت تعانى من عوامل الاضطراب والتفرق ، فكان مما أذكى الفتنة إلى الذروة أن اختلف الملوك الأسبان مع الكرسى الرسولى ، وأدت منازعاتهم معه إلى أن تحرم البلاد حتى من عزاء الدين .

وقد كان الفونسو هنريكيز ملك البرتغال وفرديناند ملك ليون يجلان الكنيسة ورجال الدين أيما إجلال ، ولكن ولديهما وخلفيهما ، الملك سانشو الأول الذى

(١) هى حسبما تقدم فى حواشى الجزء الأول مدينة Albarracin الحديثة وهو تحريف لاسم بنى رزين حكامها المسلمين أيام الطوائف . وتنوه الرواية الإسلامية بما كانت عليه كنيستها الشهيرة من الفخامة وما كانت تحتويه من نفائس التحف (راجع معجم ياقوت تحت كلمة شنت مرية)

تولى عرش البرتغال فى سنة ١١٨٥ م ، والملك الفونسو التاسع الذى تولى عرش ليون فى سنة ١١٨٨ م ، لم يشاطرا الوالدين هذه العاطفة ، وقد لاح فى بداية عهد الملكين ، أن الخصومة القديمة بين ليون والبرتغال من ناحية ، وبينها وبين قشتالة من ناحية أخرى ، قد خمدت جذوتها ، والتقى ملك ليون الفتى فى مدينة كاريون فى سنة ١١٨٨ ، بالفونسو النبيل ملك قشتالة ، وتلقى منه عهد الفروسة ، ولكنه حينما قبل يد ملك قشتالة إعرابا عن المحبة والعرفان ، عد ذلك منه رمز الخضوع والطاعة . ولم تقع النفرة بين الملكين بسرعة ، ولكنهما بالعكس قاما فى العام التالى بحملة مشتركة لمحاربة المسلمين فى أراضى إشبيلية ، بيد أنه ما كادت هذه الحملة تنتهى حتى دب النزاع بينهما من أجل الأراضى المفتوحة ؛ فملك قشتالة يدعيها لنفسه باعتباره صاحب السيادة ، ويدعيها ملك ليون باعتبارها جزءاً من ولايته استرامادوره . ولما رأى ملك ليون الفتى أنه محصور بين جارين قويين يهددانه بالحرب دائما بالرغم مما يربطه بهما من أواصر القربى ، اضطر لكى يستطيع مدافعة ملك قشتالة الذى غزا أرضه بالفعل ، أن يعقد مع الملك الآخر حلفاً وثيقاً ؛ ومع أنه كانت تجمعه بابنة سانشو ملك البرتغال : الدونا تيريزا ، رابطة قرابة مباشرة — (إذ كانت أمه خالة الأميرة) — تعتبرها الكنيسة مانعاً من الزواج ، فإنه اقترن بها (سنة ١١٨٩ م) ، إذ رأى فى هذا الزواج وسيلة لتوطيد عرش ليون .

وما كاد البابا كلنضوس الثالث يقف على هذا الزواج ، حتى أرسل إلى اسبانيا مندوبا نادى بإلغائه ؛ ولكن سانشو ملك البرتغال ، الذى لم يكن يبدى فى مملكته كبير حساب للكنيسة ورجال الدين ، لم يعبأ بأمر البابا ؛ وكذلك لم يعبأ به صهره ملك ليون ، إذ كانا يريان فى هذا الزواج عاملا فى توثيق الاتحاد بين مملكتيهما ، ويريان أن ما يملكه البابا من حق التشريع بالنسبة لطوائف الشعب ، لا يسرى على الرؤوس المتوجة .

وفى تلك الأثناء اعتلى سلستان الثالث كرسى البابوية ، وأصر على وجهة نظر سلفه ، وتحدث مندوبه فى المجتمع الكنسى الذى عقد فى شلمنقة فى سنة ١١٩٢م

لبحث الموضوع طالبا إلغاء الزواج فى الحال ، ولكن أساقفة ليون واسترقة وشلمنقة وسمورة عارضوه وصرحوا بأن الزواج صحيح لم تخرق بعقده أية نصوص سماوية أو كنسية ، وأن مايعتبر من الموانع بالنسبة للقوانين الشعبية أو نظم الدولة لايطبق على الملوك ؛ إذ أنه فى وسعهم إلغاء ماشرعوا ، وفى وسع الملوك أن يقروا عقد زواج شعبى أو يلغوه ، ولكن ذلك لايمكن أن يطبق عليهم بواسطة سلطة أسمى إذ أن ذلك يتعارض مع سيادتهم المستقلة . ولكن المندوب البابوى أصر على رأيه وقرر « حرمان » الأساقفة المخالفين ، وهدد الملكين « بالحرمان » أيضاً إذا استمرا على معارضتهما للقرار البابوى . فلما أبى الملكان الخضوع صدر فى العام التالى (١١٩٣ م) قرار بابوى يحرم كل المراسيم والطقوس الدينية فى مملكتى البرتغال وليون . فمنذئذ بلغ الاضطراب والعنف فى المملكتين الذروة ، ولا سيما بعد أن بث فيهما حكم القوة ومحاربة المسلمين روح النضال والجرءة ، ولم يكن يحول دون انحلالهما النهائى سوى الدين وأعوانه ؛ ولما لم يذعن الملكان ، واشتد هياج الشعب لحرمانه من الطقوس الدينية ، وأبدى رجال الدين امتعاضهم من القرار البابوى ، عاد البابا وأذن نزولا على ضراعة أسقف سمورة الذى زاره فى رومة برفع قرار الحرمان الدينى من المملكتين ، على أن يبقى البطلان ساريا على كل حفل دينى يقام بحضرة ملك ليون أو ملكتها ، وأخيراً بعد نضال دام بضعة أعوام نزل الزوجان الملكيان على إرادة البابا ، وقررا الانفصال بعد أن أعقبا من الزواج ثلاثة أولاد ؛ وهكذا انتصر الكرسى الرسولى ، وليس بعيداً أن يكون خطر الموحدين الدائم من بواعث هذا الخضوع لإرادة البابا . ذلك أن الشعب كان يرى فى انتصار المسلمين على النصارى عقابا من الله من جراء زلات ملوكه ، وكان معظم رجال الدين يروجون هذه الفكرة ، ولم يكن من الميسور ضمان خضوع الشعب إلا بإذعان ملوكه للكرسى الرسولى .

ولم يكن لملك قشتالة يومئذ عقب من الذكور ، ولكن كانت له عدة بنات أكبرهن برنجاريا ؛ وكان لابد من اعتبارها وارثة العرش وفقا لقانون الوراثة

القشتالى حتى رزق الملك بولى للعهد ؛ وكان الفونسو يعتقد أنه يستطيع بمصاهرة آل هوهنشتاوفن قياصرة ألمانيا أن يسبغ على مملكته قوة جديدة ؛ وكان سيد ألمانيا يومئذ القيصر فريدريك بارباروسا (ذو اللحية الحمراء) يميل الى هذا المشروع ، مؤملا أن يغنم بتحقيقه عرش قشتالة لولده الأصغر كونراد ؛ وعلى ذلك فقد عقد الزواج ، وجاء ولد القيصر إلى اسبانيا فى سنة ١١٨٨ وتلقى من ملك قشتالة عهد الفروسة فى كاريون ، وأقيم الحفل الدينى بقرانه بولية العهد فى طليطلة فى حفلات باذخة ، ولم يتم الزواج يومئذ نظراً لحداثة ولية العهد . بيد أنه لما رزق ملك قشتالة بعد ذلك بولده وولى عهده فرديناند ، وقضى بذلك على آمال كونراد فى ولاية العرش ألغى الزواج ؛ وتزوجت برنجاريا فيما بعد بالفونسو التاسع ملك ليون .

وفى تلك الأثناء كانت الحرب تهدد بالاضطرام من آن لآخر بين الملوك الثلاثة الذين تلتقى أملاكهم عند منابع نهر دويرة ، ولكن النار كانت تطفأ فى كل مرة بسرعة قبل أن يمتد لهيبها بصورة مخربة ؛ ولم تك ثمة سياسة مقررة ، ولكن المحالفات كانت تعقد وتفصم وفقا للأهواء والظروف ؛ فقد عمد الفونسو الثانى ملك أراجون مثلا بالرغم مما اتصف به من الحزم وحسن التقدير لظروف عصره إلى مصادقة ألد أعدائه سانشو السادس ملك نافارا ، وعقد معه فى سنة ١١٩٠ م حلفا ضد ملك قشتالة أخلص حلفائه ، ولم يفد من ذلك سوى صاحب شنتمرية الشرق (البراسين) ، ولا توضح الرواية لنا بواعث هذا الحلف المدهش الذى مالبث أن غدا بانضمام ملكى ليون والبرتغال إليه فى العام التالى خطراً حقيقيا على قشتالة . بيد أن هذا الحلف بالرغم من خطره الظاهر لم يحدث أثراً يذكر . ذلك أن الخلاف والتحاسد حالا دون نجاحه ، ومالبث أن انتهى بالحل ، وأثار انفصامه بين الحلفاء منازعات جديدة . هذا إلى أن أراجون رأس التحالف لم يكن بوسعها يومئذ أن تشدد الضغط على قشتالة نظراً لأن تحرك الكونت دى تولوز ، وغزوات الموحدين على حدودها الجنوبية كانت تستغرق كل اهتمامها .

فهل نعجب بعد ذلك إذا كان الفونسو ملك قشتالة قد هزم حينما لقى وحده

قوى الموحدين الغالبة فى ميدان الحرب فى موقعة الأرك[١] الدموية فى سنة ١١٩٥م (٥٩١ هـ) . وقد خاضها دون أن يعاونه أحد من باقى الملوك النصارى ؛ بل كان منهم من يعاون الموحدين جهراً مثل ملك نافارا ، ومن يعاونهم سرا مثل ملك ليون ، وكلاهما كان يتظاهر بصداقته ويمده بالعون .

وأخيراً اضطر ملك قشتالة لكى يستطيع الاحتفاظ بملكه أن يرتمى فى أحضان الموحدين ، وأن يتبع سياسة المصلحة الشخصية التى سار عليها باقى ملوك اسبانيا النصرانية . وهنا فقط أدرك البابا سلستان الثالث ، والفونسو الثانى ملك أراجون فداحة الخطر الذى يهدد النصرانية فى شبه الجزيرة ، وحاول ملك أراجون بكل ماوسع من غيرة وعزم أن يعمل على اجتماع القوى النصرانية ، فسافر إلى شنت ياقب وتفاوض مع ملك ليون ، ثم سار إلى قُلُمرية حيث التقى بسانشو ملك البرتغال ، واجتمع مع ملك قشتالة وملك نافارا فى مدينة ترازونا الواقعة على حدود مملكتيهما ؛ ولكن جهوده ذهبت عبثا ولم يوفق إلى تهدئة الخصومات المضطرمة ، ولاسيما بين ملكى ليون وقشتالة بالرغم مما كان يجمعهما من أواصر القربى .

فعاد الفونسو الثانى إلى مملكته وهو يفيض أسفا لفشل مسعاه ، واستدعى مجلساً فى بربنيان يمثل الطبقات فى لانجدوك وبروفانس ، وهناك أصابه المرض وتوفى فى ٢٥ أبريل سنة ١١٩٦ فى الرابعة والخمسين من عمره بعد أن حكم أربعة وثلاثين عاما . وقد اشتهر الفونسو بفروسته وحزمه وحبه للعدالة ، واعتمد بالأخص على جهود الداوية (فرسان المعبد) ، وفرسان القديس يوحنا فى حماية الحدود من غزوات المسلمين ، وعمل باتخاذ الإجراءات الصارمة على تأييد السكينة والنظام ، وقد كان يهددها يومئذ حكم القوة بلا انقطاع ؛ وكان يضع المسافرين الذين يجوبون البلاد تحت رعايته الملكية لحمايتهم من كل اعتداء ، وعمل على تعضيد الزراعة وتحسين مستوى العيش فى المملكة باتخاذ الإجراءات الحكيمة وتوفير أسباب العيش للفلاحين وأبناء الطبقة الوسطى ، وأبدى نحو الكنائس والأديار

(١) هى المعروفة فى الرواية النصرانية بمركة « الأركوس » Alarcos .

منتهى الجود ، وكان قوى النفس والخلق يسبغ على العرش بجلاله وهيبته روعة ووقاراً ؛ وقد نعى عليه بعض خصومه نكثه وإخلاله بالعهد ، ولكن هذا الاتهام يرجع إلى الحفيظة أكثر مما يرجع إلى الواقع ، ولم يقصد به إلا النيل من سمعته وهو بذلك غير جدير بثقة المؤرخ .

وكان ألفونسو الثانى مثل أبيه ريموند برنجار الرابع نصيراً عظيما للشعر وأرباب القريض الغنائى (طائفة التروبادور[1]) ؛ وكانت أملاكه فى جنوبى فرنسا مهداً لازدهار الشعر البروفنسالى (نسبة إلى بروفانس) ؛ وكان يتنافس مع صديقه رتشارد « قلب الأسد » ملك إنكلترا فى خلال الفروسية وفى بذخ الحفلات الملوكية التى لم تكن تخلو من المغنين قط ، وكان يجمع حوله أشهر أقطاب الشعر الغنائى فى هذا العصر مثل بيير ريموند دى تولوز ، وهوجو برونيه ، وبيير ڤيدال وغيرهم .

وكان معظم أولئك الشعراء (التروبادوريين) يتمتعون بعطف هذا الملك الرفيع الخلال وجوده ، ويكثرون من الإشادة بذكره فى قصائدهم وأناشيدهم ، ولم يهجه منهم سوى برتران دى بورن الذى سماه دانتى « بمغنى الحرب » ، والذى لم يسلم من هجائه أحد من الأكابر ؛ فقد غمر هذا الشاعر ملك أراجون فى قصائده بمطاعنه ورماه بكل نقيصة ، لأنه تشاجر معه ذات مرة فى بعض حروبه فى جنوبى فرنسا ، ولكن هذه المطاعن لم تنل من سمعة الملك الفارس المجيد .

ولم يكن ألفونسو صديقاً ونصيراً فقط للشعراء المنشدين ، ولكنه كان مثل

---

(١) التروبادور Troubadours ، أو باللغة البروفنسالية Trobador هم طائفة من شعراء العصور الوسطى ظهروا فى ولاية بروفانس فى جنوبى فرنسا منذ القرن الحادى عشر الميلادى ، واشتهروا بنظم الشعر الغنائى وشعر الفروسية ، ثم انتشروا فى باقى إمارات فرنسا الجنوبية مثل أكوتين ولانجدوك وكذلك ظهروا فى قطلونية وأراجون وشمالى إيطاليا ، وملاوا هذه الأنحاء زهاء قرنين بقصائدهم وأناشيدهم ؛ وكان أشهرهم طائفة من الفرسان برعت فى الشعر والموسيقى ؛ وكانوا يتنقلون من بلاط إلى بلاط ومن قصر إلى قصر ؛ ويتبوأون مقاما ذا شأن فى المجتمع الرفيع فى ذلك العصر ؛ وشعرهم يمتاز بالرقة والظرف وحب الملق ، ومصادر إلهامه الحرب والدين والحب . ويرى بعض النقدة أن طائفة « التروبادور » قد تأثرت فى وحيها وفى طرائق نظمها بالشعر الغنائى الأندلسى وقريض الفروسية الأندلسية .

رتشارد « قلب الأسد » ملك إنكلترا شاعراً غنائيا (تروبادور) ، وقد ضاعت جميع قصائده الغنائية ولم يصلنا منها سوى قصيدة واحدة ، وهى تمتاز بالأخص بجمال أسلوبها وظرف معانيها .

وأورث ألفونسو ابنه الأكبر حب الشعر ، كما أورثه مملكته ؛ وكان قد اختاره فى وصيته خلفا له على عرش أراجون وأملاكه فى جنوبى فرنسا ماعدا ولاية بروڤانس وأراضى كافيدون وميلهو ، ودعوى الولاية على مونبلييه ؛ فقد أعطيت إلى ولده الثانى ألفونسو . أما ولده الثالث فرناندو فقد التحق بالرهبانية فى إحدى الأديار .

وتوفى قبل ألفونسو بعامين (سنة ١١٩٤) خصيمه الألد وحليفه أحيانا فى أواخر عهده الملك سانشو السادس الملقب بالقوى ، بعد أن حكم ناڤارا أربعة وأربعين عاما ؛ ومع أنه كان يهدد بالحرب أحيانا من قشتالة وأراجون متحدتين ، وأحيانا من هذه المملكة أو تلك ، فقد استطاع أن يمتنع فى مملكته الصغيرة المحاطة بجيران أقوياء ، وأن يرد كل الهجمات التى وجهت إليه ، وأن يغزو أراضى العدو بنجاح كلما لاحت له فرصة حسنة ؛ وأنه لمن الشائق بلا ريب أن نعرف الوسائل والطرق التى كان الملك سانشو يلجأ إليها لحماية استقلاله ؛ بيد أننا لم نتلق عن ناڤارا فى ذلك العصر تاريخا مفصلا ولو بعض التفصيل ، ولذا فإنه ليس لدينا ما نقوله عن حكمه سوى ما قدمنا من سيرته ؛ واتخذ ولده وخلفه سانشو السابع الملقب «بالحكيم» حكم أبيه قدوة له ؛ بيد أنه كان يعانى مثل ماعانى أبوه من الصعاب والخطوب .

الفصل السادس

تاريخ الموحدين فى الأندلس منذ افتتاح غرناطة

حتى وفاة يعقوب المنصور الظافر فى معركة الأرك

١ — تنظيم حكم الموحدين فى عهد عبد المؤمن

سبق أن فصلنا فيما تقدم كيف انهارت دولة المرابطين فى المغرب والأندلس على يد عبد المؤمن زعيم الموحدين ، وكيف استطاع عبد المؤمن أن يوطد عرشه بالمغرب بسحق الخارجين عليه ، وأن يفتتح الأندلس كلها من يد خصومه المسلمين والنصارى . ولما كان عبد المؤمن ، قد استطاع بظفره على آل حماد فى المغرب الأوسط[1] ، وعلى الفرنج النورمانيين الذين كانوا قد افتتحوا شاطئ إفريقية الشمالى ، واستولوا على تونس والمهدية ، أن يدفع حدود دولته من الشرق إلى ما وراء القيروان ، فقد غدا بذلك متاخما للفاطميين أصحاب مصر[2] ، وغدت دولة الموحدين بذلك أعظم مدى مما كانت عليه دولة المرابطين ؛ وكانت تحد عندئذ من الجنوب

(١) دولة آل حماد ، هى فرع من دولة آل زيرى بن مناد الصنهاجى ، وتنسب إلى مؤسسها الأمير حماد الصنهاجى ، وقد قامت بالزاب والمغرب الأوسط فى أواخر المائة الرابعة ، وخرج صاحبها عن دعوة العبيديين أصحاب مصر ، واستمر الملك فى أسرته زهاء قرن ونصف . وفى سنة ٥٤٧ هـ ، أخذ الموحدون القلعة وهى مركز دولتهم بالجزائر ، من يد صاحبها يحيى ابن عبد العزيز الصنهاجى آخر ملوك بنى حماد ، وانتهت بذلك دولتهم (راجع ابن خلدون ج ٦ ص ١٧١ وما بعدها والمراكشى ص ١١٣و١١٤ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٤٨) .

(٢) كان الفرنج النورمانيون أصحاب صقلية ، قد أغاروا على تونس وثغورها فى أوائل القرن السادس الهجرى ، واستولوا على عدة ثغور منها مثل صفاقس وتونس وسوسه ، ثم=

بالصحراء الكبرى ، ومن الغرب بالمحيط الاطلانطى ، ومن المشرق بصحراء لوبية التى تفصلها عن مصر ؛ وأما من الشمال فكان يحدها البحر الأبيض المتوسط ، وفيما وراء المضيق — فى شبه الجزيرة الاسبانية التى كانت يومئذ قبلة الفتح — كان الموحدون يملكون جميع الأراضى التى يطلق عليها اسم الأندلس ، وقواعدها الآهلة المنيعة ، إشبيلية ، وقرطبة ، وغرناطة ، ومالقة ، والمرية ، وهكذا كانت منطقة الوادى الكبير كلها فى أيديهم ؛ وكانت تفصل بينهم من الشمال الشرقى ، وبين مملكة قشتالة ، وأملاك ابن سعد (ابن مردنيش) صاحب مرسية وبلنسية وحليف النصارى ، سلسلة من الجبال الشاهقة تتخللها قلاع منيعة ، وممرات تحرسها حاميات قوية ؛ وأما فى الشمال الغربى فكان نهر وادى آنه الذى ملك الموحدون ضفته اليسرى كلها ، وملكوا من ضفته اليمنى عدة مناطق مثل ولاية الغرب وعدة مدن تمتد إلى مقربة من نهر التاجة (تاجو) ، أقل مناعة وأيسر اقتحاما ، وكان الموحدون أكثر عرضة لهجوم أعدائهم من هذه الناحية .

وقد رأى عبد المؤمن قبل أن يتابع الفتح فى الأندلس بكل قواه ، من الحزم والفطنة ، أن يضع للدولة الجديدة نظما موطدة الدعائم ؛ فألغى معظم النظم المرابطية العسكرية ، وهى التى أدت فى النهاية بقسوتها وما اقترن بها من صرامة الزعماء والقادة إلى سخط الشعب وثورته على المرابطين ، وأطلقت حرية العلوم والمعارف ، بعد أن كانت الأسرة الذاهبة تشتد فى مطاردتها ، وسارت جنبا إلى جنب مع الدين ، ومع الدولة الناشئة ونظمها العسكرية الجديدة ، وأقيمت فى مراكش عاصمة المملكة — بما تحصل من أموال المرابطين — طائفة من المساجد والمدارس الفخمة ، غدت

= استولوا على المهدية سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) ؛ من صاحبها الحسن بن على الصنهاجى آخر ملوك دولة آل زيرى الصنهاجيين ؛ فلجأ الحسن إلى الموحدين واستغاث بهم ، واعتزم عبد المؤمن أن يستعيد هذه الثغور الاسلامية من يد النصارى ؛ فسار إلى تونس سنة ٥٥٤ هـ ، وهاجمها من البر والبحر بأسطول ضخم ؛ وحاول الفرنج إغاثة إخوانهم فبعثوا الأساطيل إلى مياه تونس ووقعت بين المسلمين والنصارى معارك بحرية هائلة انتهت بفوز المسلمين واستيلاء عبد المؤمن على المهدية فى سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) بعد أن بقيت فى يد النصارى اثنى عشرة عاما (راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٧ وروض القرطاس ص ١٢٩ والحلل الوشية ص ١١٦و١١٧)

مراكز للعلوم والآداب ؛ على أنه لم يسمح لهذه الحركة العلمية بأن تنمو وتتسع إلا بالقدر الذى يفيد الدولة والحكومة ، هذا فضلا عن وضعها تحت إشراف الدولة ، واقترانها دائما بالخدمة العسكرية والتمرين فى فنون الحرب . ذلك أن عبد المؤمن كان يخشى أن يؤدى الانقطاع إلى العلم والدرس ، إلى إضعاف الهمم ، وفتور الحماسة الحربية لدى الموحدين .

وأنشأ عبد المؤمن فى مراكش مدرسة لتخريج رجال السياسة وموظفى الحكومة ، وقادة الجيش ؛ وكانت تضم زهاء ثلاثة آلاف طالب من أبناء الأكابر فى وقت واحد ؛ وكانوا يسمون طلبة العلم أو الحفاظ ، نظرا لأنهم فضلا عن حفظ القرآن ، كانوا يدرسون رسائل المهدى ويحفظونها عن ظهر قلب ؛ كذلك كانوا يدرسون عدة كتب فى إدارة الولايات ومزاولة شؤون الدولة دراسة حسنة ؛ وكان عبد المؤمن يجمعهم يوم الجمعة بعد الصلاة فى قصره ، ويمتحنهم فيما درسوا ، ويوجه إليهم الأسئلة بنفسه ، تشجيعا لهم على الاجتهاد ، ولكى يجعل منهم رجالا أكفاء قادرين ، يستطيعون بفطنتهم وذكائهم أن ينفعوا البلاد سواء فى السلم أو الحرب ؛ ثم يعمد فى أيام أخرى إلى معرفة مدى تقدمهم فى فنون الحرب ، فيختبرهم فى الطعن بالحراب والرمى بالقوس والسهام ، والمبارزة وركوب الخيل ، والركض ، وفن القتال ، ثم فى السباحة والمعارك البحرية ، وذلك فى بحيرة خاصة أنشأها لذلك الغرض على مقربة من قصره ، وأعد فيها طائفة من السفن الكبيرة والصغيرة من كل ضرب ، ليتمرن الشباب فيها على القتال فى البحر ، والتجذيف وقيادة السفن ، والوثب إلى سفن العدو ، ومزاولة جميع التمارين البدنية التى تقتضيها الخدمة البحرية . وكان يخص أولئك الذين يمتازون بالمهارة والشجاعة بعبارات المديح والثناء ، ويقدم إليهم بنفسه نفيس الهدايا ، ليحفز بذلك هممهم ، ويستزيد من غيرتهم واجتهادهم ، وكان تعليمهم جميعاً على نفقة الدولة ، ويصرف إليهم سائر مايحتاجون إليه ، ومن ذلك الخيل والسلاح وغيرها [1].

---

(١) يقدم إلينا ابن الخطيب فى الحلل الوشية تفاصيل شائقة عن هذه الحركة الثقافية =

وكان لعبد المؤمن بين هؤلاء الحفاظ ثلاثة عشر ولداً ، تقفوا على هذا النحو . وتؤكد الرواية أنهم كانوا يبدون فى هذه الامتحانات براعة فى الفنون الحربية والمعارف الرفيعة[١] . وقد اختار عبد المؤمن من هؤلاء الحفاظ جميع القضاة والفقهاء والولاة والعلماء ، وكل من أولاهم مناصب النفوذ والثقة ، واستطاع بذلك أن ينشئ فى نحو عشرين عاما نظاما جديداً للدولة ؛ إذ لم يبق من قدماء الموظفين المعارضين من يعمل على مناوأته ، وبذلك اطمأن عبد المؤمن على توطيد سلطان الموحدين . على أنه كان يعمل من جهة أخرى على جعل هذا السلطان وراثيا فى أسرته ؛ إذ كان ثمة على قيد الحياة من أصحاب المهدى العشرة اثنان هما فى مرتبة عبد المؤمن ، وفى وسعهما بعد موته أن ينازعا أسرته الملك ، وعلى ذلك فقد دعا عبد المؤمن جميع الولاة وأشياخ القبائل من جميع أنحاء مملكته الشاسعة إلى اجتماع عقد فى سنة ٥٤٩ هـ (١١٥١ م) ، وأعلن فيه محمداً أكبر أولاده وليا لعهده ، وأضاف اسمه فى خطبة يوم الجمعة إلى جانب اسمه ، وبذلك أشركه معه فى الحكم فى معنى من المعانى .

وفى هذا الاجتماع أيضاً أقر عبد المؤمن رغبة أشياخ القبائل فى أن يتولى أولاده — وقد كانوا يسمون بالسادة — حكم الولايات ، وأن تكون ولايتها وراثية فى عقبهم ، وعين لهم من الوزراء والحجاب والقواد أكفأ الأشياخ ، وأبرع الحفاظ ، على أن يؤخذ رأيهم فى جميع الشؤون الهامة ؛ واختار السيد أبا حفص لولاية سبتة وطنجة ، وبعض ثغور الأندلس ، والسيد أبا محمد عبد الله لولاية بجاية ، والسيد أبا الحسن لولاية فاس ، والسيد أبا يعقوب يوسف لولاية الأندلس أو إشبيلية وما إليها من المناطق[٢] . ومع أن عبد المؤمن عين إلى جانب أولاده فى كل ولاية

= والرياضية التى نظمها عبد المؤمن ؛ وهى تطابق فى مجموعها ماينقله المؤلف عنها (ص ١١٤) .

(١) راجع الحلل الموشية ص ١١٤ .

(٢) هذه الرواية تطابق ما أوردها بن خلدون (ج ٦ ص ٢٣٦) ؛ ولكن يوجد خلاف يسير بينها وبين بعض الروايات الأخرى (راجع الحلل الموشية ص ١١٥) وكتاب أخبار المهدى ابن تومرت (ص ١١٦) .

من الأشياخ الأكفاء حاكما واثنين من خاصة الكتاب ؛ فقد لوحظ أنه لم يفعل مثل ذلك مع ولده السيد أبى يعقوب يوسف ؛ بل اكتفى بأن أقر إلى جانبه أبا زيد ابن بكيت والى قرطبة ، واعتبر ذلك دلالة على قصد عبد المؤمن فى أن يمنحه من الاستقلال قسطا أوسع مما منح لإخوته .

ومع أن عبد المؤمن كان يستأثر بالسلطة العليا ، ويحاول بالأخص أن يحول دون طغيان الولاة المستبدين وظلمهم وقسوتهم ، فإنه لم يوفق دائما إلى تحقيق هذه الغاية فى أنحاء مملكته الشاسعة ، وكثيراً ما كان يقف على أمر المظالم بعد وقوعها . وإذ كانت الثورة كثيرة الوقوع فى المغرب — وقد حدث ذات مرة أثناء غيبة زعيم الموحدين أن سقطت العاصمة مراكش فى أيدى الثوار — فقد أمر عبد المؤمن باتباع سياسة الشدة فى الولايات والمدن الثائرة على ألا يذهب الولاة مع ذلك فى القسوة إلى حد إثارة بغضاء لا تخمد ، وبث مرارة تتحجر لها النفوس . ومن ثم فإنه لما استولى أبو زكريا بن يومر على مدينة لبلة وقتل من أهلها اثنى عشر ألفا دون فارق فى السن أو الجنس ، سخط عليه عبد المؤمن لهذه القسوة ، ولم يكتف بتأنيبه وعزله بل أمر باعتقاله ، بالرغم من أنه كان من خيرة القواد وأقدرهم ، وكان أشد ما أثار حنقه عليه أنه عقب الذبحة ، استاق جميع الأسرى من نساء وبنات وأطفال مع متاعهم ومالهم إلى البيع العلنى ، وعقد لهم سوقا فى معسكر الجند وزعم أن الأمر بعقدها صدر عن الخليفة ذاته[1] . كذلك سخط عبد المؤمن على الوزير أبى جعفر بن عطية — وهو أندلسى الأصل وشاعر مبرز — وعزله ، وصادر أملاكه لما ارتكبه من المظالم فى حق الشعب . وعمد خلفه الوزير عبد السلام الكومى إلى إهلاكه بالسم خشية انتقامه ، وذلك بأن أرسل إليه رقعة مسمومة

---

(١) كان أبو زكريا بن يومر (أو يغمور) واليا لأشبيلية من قبل عبد المؤمن . وقد استولى على لبلة سنة ٥٤٩ هـ (١١٥١ م) فى مناظر مروعة من الفتك ؛ إذ جمع أهلها فى صعيد واحد وقتل منهم ألوفا عديدة ، وبيعت نساؤهم وأبناؤهم وأسلابهم . والمؤلف لا يورد أيضا سوى ما ذكرته الرواية العربية ، راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٦ وروض القرطاس ص ١٢٧ والاستقصاء ج ١ ص ١٥٠ .

ضمنها أبياتاً من الشعر . ولكن القاتل لقى فيما بعد مثل هذا المصير ، حينما سخط عليه سيده ونكبه[١] .

وقد فقد زعماء المرابطين حب الشعب بما ارتكبوا من صنوف القسوة والمظالم وأضرموا بذلك نار الثورة على حكومتهم ؛ وهذا ما أدركه عبد المؤمن حق الإدراك وحمله على أن يبذل كل ما فى وسعه لكى تبدو الحكومة الجديدة فى ألوان مقبولة ، ومن ذلك ما عمد إليه من رفع الحظر عن طائفة من الكتب التى حظر المرابطون قراءتها أو استنساخها وتشجيع نشر الكتب التى تتحدث عن الفروسية أوسيرها ، أو كتب المغامرات والقصص فى جميع أنحاء المملكة سواء فى المغرب أو الأندلس ؛ بل لقد سمح بقراءة هذه الكتب من فوق منابر المساجد ، وهو نقيض ما كانت تجرى عليه حكومة المرابطين ، إذ كانت تعتبر أمثال هذه الكتب كتب كفر ضارة وتأمر باحراقها أينما وجدت . أما المؤلفات التى تطعن فى حكومة الموحدين ، وفى المبادىء التى تقوم عليها ، فكان عبد المؤمن يأمر العلماء والكتاب الذين امتازوا بقوة الحجة بكتابة الردود عليها . مثال ذلك ما أمر بكتابته ضد الكاتب القرطبى أبى الحسن عبد الملك بن إياس .

وكان أشد مايعنى به عبد المؤمن — وهو من أعظم قواد العصور الوسطى — تنظيم شؤون الحرب والجهاد . وقد بث إليها بجهوده نهضة إحياء شاملة . وإليك وصفاً شائقاً تركه لنا مؤرخ عربى عن نظام سير جيش الموحدين وتقسيمه ، لمناسبة

(١) استوزر عبد المؤمن الوزير أبا جعفر أحمد بن عطية ، وهو من أسرة أندلسية هاجرت إلى مراكش ؛ وكان أبوه من قبل وزيراً لأمير المسلمين على بن يوسف اللمتونى ، فقتل بأمر عبد المؤمن فى حصار فاس ؛ أما ولده أبو جعفر فكان وزيراً لإسحاق بن على اللمتونى ؛ ولما سقطت مراكش فى أيدى الموحدين عفا عنه عبد المؤمن واستوزره لها بعد ، ولم يلبث أن سما شأنه ؛ ثم بعثه عبد المؤمن مع ولده السيد أبى يعقوب على إشبيلية ليعاونه فى حكمها ، وفى أثناء غيبته دبر خصومه وفى مقدمتهم خلفه الوزير عبد السلام الكومى هلاكه ؛ فلما عاد إلى مراكش قبض عليه ، وأمر عبد المؤمن بقتله فقتل فى سنة ٥٥٣ هـ (١١٥٥ م) . أما رواية مصرعه بالسم فلم نجد ما يؤيدها (راجع روض القرطاس ص ١٢٨ والمراكشى ص ١١٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٧ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٥٢ و ١٥٣) .

حديثه عن الحرب التى شهرها عبد المؤمن على النورمان الصقليين ، حينما استولى على تونس والمهدية .

كان مسير الجيش بعد صلاة الصبح قبيل شروق الشمس ؛ وكانت علامة السير ثلاث قرعات من طبل ضخم دوره خمسة عشر ذراعاً مدهون بلون الموحدين الأخضر ، ومحلى بالذهب ، وقد صنع من خشب رنان ، فكان يسمع على مسيرة نصف يوم إذا ضرب فى مكان مرتفع ، فى يوم ساكن لا ريح فيه ؛ وكانت كل قبيلة تتبع علمها الخاص ، وهو يحمل مطويا أثناء السير ؛ ولا ينشر عندئذ سوى علم الطلائع ، وقد كان مكوناً من اللونين الأبيض والأزرق ، وعليه هلال مذهب ؛ وتحمل الخيام والعتاد والمؤن على ظهور الجمال والدواب ، هذا غير ما يتبع الجيش من قطعان عديدة من الثيران والأغنام ، تسير تحت إشراف الرعاة ، وتخصص لغذاء الجند ؛ وكان جيش عبد المؤمن النظامى يتألف — فضلاً عن الفرسان — من سبعين ألفا من المشاة ؛ وكان ينقسم إلى أربعة جيوش ، يفصل بعضها عن بعض أثناء السير ، مسيرة يوم ، وذلك حتى لا يقع نقص فى الماء ، أو ضيق فى المكان . وإذ كان معظم الجند مثقل السلاح ، فقد كانت مسيرة اليوم قصيرة المدى ، وكان يقطع خلالها عادة عدة أميال فقط ، وكان يُقتصر على السير منذ شروق الشمس إلى وقت الظهر ، حتى يتسنى للجند أن يبدأوا السير فى اليوم التالى بقوى مجددة ؛ وترتب على هذا التمهل فى سير الجيش ، أن اقتضى عبد المؤمن ستة أشهر ليقطع المسافة بين سلا وتونس ، وهى مسافة كانت تقطعها فرق الفرسان الخفيفة فى نحو شهرين فقط . وكان عبد المؤمن إذا ركب احتاط به الأشياخ والقادة ، وأدوا معه الصلاة ، ثم ينصرف بعد ذلك كل إلى مكانه ، وإلى قيادة الجند التابعين له ؛ وكان يتقدمه فى السير مائة شيخ وقائد ، يمتطون جياداً مطهمة ويتقلدون أسلحة فاخرة ، ويرتدون ثياباً فخمة . وكان يُحمل أمامه مصحف الخليفة عثمان بن عفان الذى غنمه الموحدون من قرطبة ، تبركا وتيمناً ، وقد وُضع فى تابوت بديع الصنع ، محلى بصفائح الذهب ، مرصع بأروع اللآلئ ، والأحجار

الكريمة ، حتى أنه قيل بحق بأن كنوز الأمويين ، وبنى عباد ملوك إشبيلية ، وبنى هود ملوك سرقسطة ، والمرابطين ، قد اجتمعت فيه جميعاً ، وتكدست ؛ وهذا التابوت يحمل فى هودج ثمين ، وعلى جوانبه الأربع أربعة أعلام ؛ ويتبعه مباشرة أمير المؤمنين عبد المؤمن ، وإلى جانبه ولده وكاتب سره السيد أبو حفص والى تلمسان ، وهو شقيق السيد أبى يعقوب يوسف ؛ ويتبعه على قيد مسافة قصيرة ، الأمراء ، وأبناؤه الآخرون الذين يرافقون الجيش . ثم يتبعهم بنود القبائل وفق ترتيبها ، وعدد من قارعى الطبول على خيول عالية ، والنافخون فى الأبواق ، والقرون ، وغيرهم من رجال الموسيقى العسكرية ؛ ثم الولاة والقضاة ، والوزراء والكتاب ؛ وبعد ذلك يأتى الجند متعاقبين فى نظام محكم . فإذا حل الوقت الذى ينتظم فيه المعسكر ، أفرد لكل قسم مكانه المعين ، ولا يسمح لإنسان أن يترك المعسكر دون إذن القائد المختص ؛ ثم توزع الأقوات التى يحمل الجيش منها مقادير وافرة ، على الجند بأنصبة متساوية ، فلا يقتر على أحد منهم[1].

ويبدو من تأمل هذه النظم الصارمة ، ومن المثابرة على التمارين الحربية ، أن عبد المؤمن كان فى جميع مشاريعه العسكرية يعنى عناية خاصة باختيار موقع القتال ، وتولى القيادة بنفسه ، وأنه لم يكن ثمة فى إفريقية أو الأندلس أمير يضارعه فى فنون الحرب . وقد استطاع بذكائه أن ينشىء نظماً جديدة فى منتهى البساطة ، ولكنها جمة الفوائد ، وأن يوجه فن الحرب ، بما وضعه من ترتيبات صارمة للجيش ، وجهة جديدة ؛ وكان من رأيه دائماً أن قيمة الجيش ليست فى عدده ، وإنما هى قبل كل شىء فى مقدرته وفائدته ، كما أنه كان ، خلافاً لأسلافه المرابطين ، ومعظم ملوك المغرب ، يرى أن قوة الجيش الرئيسية ، يجب أن تؤلف من جند من المشاة حسنة التدريب والتسليح ، وأن قوى المشاة هى العامل الحاسم فى مصير

---

(١) فى الحلل الموشية تفصيل حسن لنظام جيش عبد المؤمن ، وخطط سيره ، وذلك بمناسبة كلامه عن توجه عبد المؤمن إلى المهدية لإنقاذها من النصارى : ومن الواضح أن ما أورده المؤلف هنا (نقلا عن كوندى) ، قد نقل فى الأصل عن الحلل الموشية مع تغيير يسير (راجع ص ١١٥ — ١١٦).

الواقع وفى اقتحام المدن . أجل كان لديه جيش أكبر من الفرسان ، ولكنه لم يكن يعلق عليه نفس الأهمية التى يعلقها على جيش المشاة ؛ ذلك لأن الفرسان المغاربة ، كانوا أثناء المواقع أقل خضوعاً للأوامر والنظم .

ولما عمل عبد المؤمن على تخطيط حدود مملكته ، ومسح جميع أراضيها ، وحصل من الولاة على بيانات دقيقة عن سكان كل ولاية ، وعن خواصها وثروتها وغلاتها[1] ، كان يرمى بذلك من جهة إلى تقرير الضرائب الواجب تأديتها على كل ولاية ، ومن جهة أخرى إلى أن تتخذ هذه البيانات أساساً لتقرير عدد الجند وأنواعه ، فكان على الثغور فى المغرب والأندلس مثلا أن تقدم البحارة والسفن ؛ وعلى المناطق الصحراوية والغنية بالخيل ، أن تقدم الفرسان ، والخيل ، ودواب الحمل ، والجمال ؛ وعلى الولايات الأخرى ، أن تقدم الجند المشاة والسلاح من كل ضرب ، كل بنسبة سكانها ، ولكن المناطق أو الزعماء الذين حقت عليهم العقوبة بسبب الثورة ، كان يفرض عليهم أن يقدموا من الجند ضعف الصفوف العادية أو أكثر ؛ فمثلا فرض على قبيلة « كومية » وهى من بطون زناته ، كعقاب لها أن تؤدى عشرين ألف مقاتل ، وهو ما لا يتناسب مع سكانها ؛ ولكن أشياخها سعوا إلى استرضاء الخليفة بمضاعفة هذا العدد ، فساروا إلى العاصمة فى أربعين ألف فارس حسنى الثياب والعدة ، حتى أن عبد المؤمن توجس من مقدمهم فى البداية ، وخشى أن يكون العدوان مقصدهم ، فى حين أنهم قدموا تطوعاً للخدمة ، واستخدم عبد المؤمن عدداً كبيراً منهم فى حرسه الخاص ، إظهاراً لثقته بهم ، وأذن لهم عند وصولهم إلى مراكش ، بعرض فنون الفروسية ، وألعاب الخيل ، فكانت الخيل تحيى الأمير برأسها أو تركع أمامه بمنتهى الرشاقة[2] .

أما السلاح ، فكان عبد المؤمن يحتفظ منه دائماً بمقادير وافرة ، تحفظ

---

(١) راجع روض القرطاس ص ١٢٩ .

(٢) يلاحظ أن قبيلة « كومية » هذه هى القبيلة التى ينتمى إليها الخليفة عبد المؤمن ؛ راجع فى ذلك وفى مقدم فرسان كومية على مراكش (روض القرطاس ص ١٣١ وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٨ ، والمراكشى ص ١٠٩ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٥٧) .

فى المخازن المعدة لذلك ؛ وقد أنشأ مصانع للسلاح فى كثير من قواعد مملكته ، فصنع فيها القسى والنُشاب ، والخوذات والدروع والسهام ، وغيرها من الأسلحة اللازمة للهجوم والدفاع . وفى بعض الروايات أنه كان يصنع فى مملكة الموحدين فى عهد عبد المؤمن كل يوم عشرة قناطير من السهام ، وهذه فيما يبدو مبالغة من بعض المؤرخين المسلمين ، أو هى خطأ فى التقدير[1] ؛ وقد كان عبد المؤمن فيما يظهر أيضاً ، على علم راسخ بفنون الحصار ، وكان يستولى على أشد المدن حصانة بما يبنى وفق رأيه من آلات الرمى وخرق الأسوار (المنجنيقات) . أما هل عرف عبد المؤمن استعمال البارود — وقد كان من قبل أشد ذيوعاً فى المغرب والأندلس منه فى أى بلد أوربى — فأمر يُشك فى صحته ؛ بيد أن خلفاءه من الموحدين هم الذين نقلوا استعمال البارود فى القرن الثالث عشر ، من إفريقية إلى اسبانيا .

وقد قسم عبد المؤمن مملكته بعد أن مسحها طولاً وعرضاً على يد أمراء المغرب المسلمين ، إلى ولايات ومناطق ومقاطعات ومدن وقرى ، وقرر عليها الضرائب وفقاً لنسبة السكان فى البسائط المأهولة وحالة الأرض وخواصها ومقدار غلتها ، وكذلك وفقاً لأحوالها الزراعية وحالة مراعيها وماشيتها .

وفى الوقت الذى كان عبد المؤمن يشتغل فيه فى المغرب بإخماد الثورات والفتن ، وافتتاح أطراف مملكته الشرقية ، وانتزاع المهدية وتونس من يد الفرنج النورمانيين ، كان يعهد بمتابعة الحرب فى الأندلس إلى ولده السيد أبى يعقوب يوسف — والى الأندلس — وإلى نفر من القادة البارعين الذين يعملون تحت إمرته . فلما انتهى عبد المؤمن من التغلب على النورمانيين فى البر والبحر ، وأجلاهم عن جميع الأراضى التى استولوا عليها فى إفريقية سنة ١١٦٠ م (٥٥٥ هـ) ، أخذ يتأهب لمتابعة الغزو بنفسه فى شبه الجزيرة الاسبانية .

فسار من أجل ذلك فى جيشه صوب طنجة ليبحر منها إلى الأندلس ، ولما وصل إلى وهران نظم استعراضاً عسكريا للقوات التى اختارها لمحاربة النصارى

(١) راجع الاستقصاء ج ١ ص ١٥٨ .

الأسبان ؛ وهنا كاد عبد المؤمن يذهب ضحية مؤامرة دبرها جيشه . ذلك أن طائفة من جند الموحدين سئموا طول القتال — ولم يكن قد مضى سوى القليل على عودهم من مقاتلة الفرنج فى تونس والمهدية — وتاقت أنفسهم إلى رؤية الوطن بعد طول البعاد ، ورأوا أملهم فى رؤية أهلهم وذويهم ينهار بسبب الغزوة الجديدة ، واعتقدوا أن خير وسيلة لتحقيق أمنيتهم هو موت عاهلهم الذى لا ينى من السير من فتح إلى فتح ؛ فاعتزموا قتله فى الليلة التالية وهو نائم فى خيمته ، فوقف على هذه المؤامرة شيخ من أشياخ القبائل ، ومع أنه وقف عليها فى وقت متأخر ؛ فإنه استطاع أن يحذر عبد المؤمن فى الوقت المناسب ؛ بيد أنه لم يكن ثمة متسع من الوقت لمعاقبة الجناة على يد الجند المخلصين ، ولم يجد الشيخ الأمين وسيلة لتلافى الشر سوى أن يموت من أجل سيده ، ونزل عبد المؤمن على نصحه ، فغادر خيمته ، ونام الشيخ مكانه فى سريره ، وقتله المتآمرون طعنا بالخناجر ظنا منهم أنه عبد المؤمن ، ولكن عبد المؤمن كان قد التجأ إلى خيمة الشيخ الذى افتداه بنفسه ، ونجا بذلك من الهلاك . وفى الحال اتخذت الاجراءات لمعاقبة المتآمرين ؛ بيد أنه لما كان مدبرو المؤامرة من أقرب حاشية الخليفة ، وكان من المتعذر إثبات الجرم على الزعماء المارقين ، وقد أريد من جهة أخرى أن يُجتنب الجهر بالعقاب ، فقد أمر عبد المؤمن بإهلاك زعماء المؤامرة بوضع السم لهم فى الرسائل أو الشراب . أما الشيخ الأمين الذى لم يعرف حتى اسمه ، فقد رأى أن يخلد تضحيته بابتناء مزار فخم لرفاته ، وإنشاء مدينة حديثة سميت بالبطحاء[1] .

٢ — باقى غزوات الموحدين فى الأندلس بقيادة عبد المؤمن

ولم تكن قد وقعت فى ذلك الحين بالأندلس أية فتوح هامة منذ افتتاح غرناطة فى سنة ١١٥٧ م (٥٥٢ ﻫ) ، وكل ماحدث أن أغار الموحدون مراراً على أراضى النصارى ، وأراضى مملكة مرسية التى كان يحكمها ابن سعد (ابن مردنيش) ،

(١) راجع روض القرطاس ص ١٣٠ والاستقصاء ج ١ ص ١٥٦ و ١٥٧ .

ولكنهم لم يستطيعوا القيام بأية غزوة كبيرة ؛ إذ لم يتلقوا من عبد المؤمن سوى إمدادات قليلة نظراً لانشغاله بالحرب فى شرق مملكته ؛ وكان ذلك أيضاً من الأسباب التى مكنت سانشو الثالث ملك قشتالة من أن يحرز النصر على الموحدين ، ومكنت الفونسو هنريكيز ملك البرتغال من أن ينتزع منهم بعض الغنائم ؛ إذ استولى فى الغرب عنوة على حصن القصر ، أو قصر أبى دنيس ، وقتل جميع حاميته وذلك فى سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) .

وفى العام التالى (سنة ١١٦١ م) عبر عبد المؤمن بنفسه إلى الأندلس ونزل بجبل طارق ، وأنشأ به حصنا عظيما فى منتهى المناعة ، وسماه بجبل الفتح ، ولما تمت التحصينات وفق رغباته أقام هنالك شهرين ، ووفد عليه فى تلك الأثناء ولاة الأندلس وقضاتها ، وأطلعوه على أحوال الناس ، ووفدت عليه أيضاً جمهرة كبيرة من العلماء والشعراء ، وأشادوا بتحيته ومديحه فى خطبهم وقصائدهم[١] .

وفى أثناء مقام عبد المؤمن بالأندلس ، قام الموحدون بغزوة فى أراضى النصارى ، وأمدهم عبد المؤمن عندئذ بقوة من الفرسان تبلغ ثمانية عشر ألفاً ؛ وسار الموحدون على ضفاف وادى آنه فى ولاية الغرب (غربى الأندلس) ، وكان النصارى يكثرون مهاجمة المسلمين من هذه الناحية . وتقول الرواية العربية إن المسلمين افتتحوا فى تلك الغزوة حصناً من أحواز بطليوس ، وقتلوا حاميته ؛ ثم اشتبكوا مع الفونسو ملك طليطلة فى موقعة دموية ، فقد النصارى فيها ستة آلاف قتيل ، غير الأسرى ؛ وافتتح المسلمون على أثرها بطليوس ، وباجه ، ويابره ، وحصن القصر ؛ وعُين محمد بن على بن الحاج والياً لهذه الولاية الجديدة ، وعاد عبد المؤمن بعد ذلك إلى عاصمة مراكش[٢] .

---

(١) راجع الحلل الموشية ص ١١٨ والمراكشى ص ١١٧ والاستقصاء ج ١ ص ١٦٣ .

(٢) هذا ما تردده الرواية الإسلامية فى الواقع ، وتزيد على ذلك أن الحصن الذى افتتحه الموحدون فى تلك الغزوة بجوار بطليوس هو حصن « المرنكش » وأن الذى قاد الموحدين فيها هو الشيخ أبو حفص الهنتاتى . وتضع تاريخ هذه الغزوة فى سنة ٥٥٦ هـ (١١٦١ م) ؛ وفى العام التالى استولى الموحدون على بطليوس وباجه ويابره وحصن القصر (راجع روض القرطاس ص ١٣٠و١٣١ والاستقصاء ج ١ ص ١٥٧) .

على أن الروايات النصرانية لا تذكر شيئاً عن غزوة الموحدين هذه. ومن الواضح أن المؤرخين المسلمين يخلطون هنا بين فرديناند ملك ليون والفونسو الثالث ملك قشتالة، الذى كان وقتئذ طفلا لا شأن له بالحكم، ولكن الروايات تقص من جهة أخرى أن جيشاً ضخماً من الموحدين سار فى نفس هذه السنة لمحاربة ابن سعد (ابن مردنيش) أمير بلنسية ومرسية، وأنه لم ينقذ ابن سعد من الهزيمة سوى المعاونة القوية التى تلقاها من حليفه سانشو ملك نافارا، بقيادة الفارس الشجاع بيدرو روز دى ازاجرا؛ وقد أعطى بيدرو روز عندئذ مدينة شنتمرية الشرق[1] ليستقل بحكمها، مكافأة له على معاونته.

وفى العام التالى، أعنى فى سنة ٥٥٧ هـ (١١٦٢ م)، استأنف ابن سعد الحرب، وسار إلى غرناطة ليحاول استردادها، وقد كانت فى قبضته من قبل؛ وهنا تتفق الروايات العربية والنصرانية، ولكن النصرانية أكثر إفاضة وتفصيلا؛ واجتمع جميع الأندلسيين الذين يعارضون حكم الموحدين، ولاسيما جند وادى آش والمنكب والجزيرة والبشرات فى ولاية جيان لنصرة ابن سعد أشهر زعماء الأندلس وأشدهم وطنية، وهرعت إلى رايته بقايا المرابطين لتساهم فى آخر محاولة تبذل لإخراج الموحدين من شبه الجزيرة؛ واستُقدمت أمداد نصرانية سواء من قشتالة أو أراجون لقاء مبالغ طائلة من المال، وهكذا اجتمعت لأمير بلنسية قوات عظيمة.

ولما علم الموحدون بما اتخذه ابن سعد من عظيم الأهبة، ساروا إلى لقاء أعدائهم فى جيش ضخم معظمه من الفرسان، والتقى الجيشان على مقربة من غرناطة، واشتبكا فى معركة هائلة، وقاتل ابن سعد وجنوده بمنتهى الشجاعة والجلد؛ ولكن الموحدين استطاعوا أن يحرزوا نصراً باهراً، وأن يؤيدوا بذلك شهرتهم كمكافحين لا يغلبون؛ بيد أنهم لم ينتصروا دون خسارة فادحة. ثم عاد ابن سعد وحلفاؤه بعد أن حشدوا قوات جديدة إلى القتال، ونشبت بين الفريقين موقعة أخرى فى

(١) هى المعروفة بالإفرنجية بمدينة Abarracin حسبما تقدم.

فحص قرطبة (سنة ٥٥٧ هـ — ١١٦٣ م)، فهزم الخلفاء للمرة الثانية، واضطروا إلى الانسحاب بعد أن تكبدوا أفدح الخسائر[١].

وفي تلك الأثناء كان عبد المؤمن يقوم بأهبات عسكرية ضخمة، ويدعو الجند إلى الجهاد في اسبانيا من سائر أنحاء مملكته الشاسعة؛ ولم يمض سوى قليل حتى اجتمع لديه في سلا من مختلف القبائل المغربية وخصوصاً من زناتة، زهاء ثلاثمائة ألف فارس، منهم ثمانون ألفا من ذوي البراعة، ومائة ألف راجل، وحشد عبد المؤمن في الوقت نفسه أسطولا ضخما من أربعمائة سفينة كبيرة أعدت في ثغور المغرب لنقل الجيش، ولكي تعاون بالأخص في الأعمال الحربية؛ ولاح عندئذ أن اسبانيا النصرانية التي شطرت يومئذ إلى ممالك خمس تمزقها الحروب الداخلية، قد قضى عليها بالهلاك، وأنها ستغدو فريسة هينة للفاتح الإفريقي لولا أن توفي عبد المؤمن عندئذ فجأة بعد مرض شديد أودى بحياته في الوقت الذي كانت تنقل فيه الجند إلى الأندلس، وبذا أنقذت اسبانيا النصرانية من نير المسلمين مرة أخرى.

وتوفي عبد المؤمن في الثالثة والستين من عمره، بعد أن حكم ثلاثة وثلاثين عاما، وذلك في العاشر من جمادى الثانية سنة ٥٥٨ هـ (١٥ مايو سنة ١١٦٣)؛ وكان قبل وفاته بقليل قد عزل ولده الأكبر السيد محمد عن ولاية عهده، إذ نسب إليه أنه دبر مؤامرة لقتله لكي يلي الملك بسرعة، وأمر بحذف اسمه من الخطبة، وأذاع قرار عزله في جميع الأنحاء[٢]؛ واختار عبد المؤمن لخلافته بدلا من الأمير

---

(١) تسمى الرواية العربية الموقعة الأولى التي نشبت في سنة ٥٥٧ هـ بين الموحدين وابن سعد وحلفائه موقعة «مرج الرقاد»؛ وتسمى الموقعة الثانية التي نشبت بين الفريقين موقعة «السبيكة». وقد نشبت أيضا في فحص غرناطة لا فحص قرطبة حسبما يقول المؤلف؛ وكان وقوعها في يوم الجمعة ٢٨ رجب سنة ٥٥٧ هـ؛ وكان حليف ابن سعد في الموقعتين صهره إبراهيم بن همشك، المتغلب على غرناطة قبيل استردادها على يد الموحدين (راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٨، وابن الأبار في الحلة السيراء ص ٢٣٠، وابن الأثير ج ١١ ص ١٠٦).

(٢) تقدم الرواية الإسلامية لعزل عبد المؤمن لولده السيد محمد من ولاية العهد أسبابا =

المعزول ، ولده السيد أبا يعقوب يوسف ؛ وكان قائماً بشؤون الأندلس حيث أبدى براعة فائقة فى الحرب والإدارة . وأخفى موت عبد المؤمن حتى قدم يوسف من إشبيلية إلى المغرب .

وكان عبد المؤمن وسيم الطلعة عظيم الهيبة ؛ وكان أبيض اللون مشربا بحمرة شديد بريق العينين ، كث الشعر ، أقنى الأنف ، نحيل الذقن مستديرها ؛ عظيم القامة دون مبالغة فى الطول ، ملء الجسم مع خفة ورشاقة . ولم تكن مواهبه العقلية أقل روعة ؛ فقد كان يهتدى بثاقب فهمه إلى أفضل الوسائل لتحقيق أغراضه بأسرع وقت ؛ وكان يغنم بفصاحته تأييد الذين يبدون نحوه فتوراً أو يخاصمونه ؛ وكان يستطيع بما أوتى من واسع المعرفة فى علوم كثيرة ، أن يختار من بين علماء مملكته ورجالاتها أكفأهم وأرفعهم شأناً ، وكان لهم نصيراً وصديقاً . وهكذا ازدهرت فى ظله العلوم والفنون فى جميع أنحاء مملكته ، ولاسيما فى الأندلس بالرغم مما كانت تخوضه من حروب متواصلة ؛ وهذا ما يمكن تعليله بأن مسلمى الأندلس الذين شغفوا بالعلوم قد سارعوا إلى نبذ المرابطين أولى البداوة والخشونة ، وانحازوا إلى جانب الموحدين أهل العلوم والمدنية . أما الصفات التى يجب أن تتوافر فى الفاتح مثل الشجاعة والعزم ، وبعد النظر ، وحضور البديهة ، فقد كان عبد المؤمن يفوز منها بأوفر قسط . وقد كان يسمو على معظم جنوده فى تحمل المشاق والشدائد ؛ وكانت شعوب المغرب المتقشفة تعجب بتقشفه فى مأكله ومشربه ؛ وكانت الحرب فيما يبدو شهوته الوحيدة ، فقد افتتح بالسيف ولاية بعد أخرى ؛ ولما توفى ترك وراءه مملكة تمتد من المحيط الأطلانطى إلى قرب حدود مصر ، ويقتضى اختراقها بالطول مسيرة أربعة أشهر . أما عرضها فيما بين الصحراء الكبرى ، وجبال سييرامورينا ، (جبل الشارات) الاسبانية ؛ فكان يقتضى اختراقه مسيرة خمسين

= أخرى خلاصتها ما تبينه عبد المؤمن فى ولده من أمور لا يصلح معها للخلافة من إدمان الخمر ، واختلال الرأى ، وكثرة الطيش ، وجبن النفس ؛ وقيل أيضاً إنه كان مريضا بالجذام (المراكشى ص ١٣١ ، وابن خلكان ج ١ س ٣٩١ ، وروض القرطاس ص ١٣٢ والاستقصاء ج ١ ص ١٥٨) .

يوما ؛ وقد افتتحت جميع هذه الأراضى فى أقل من عشرين عاما منذ استولى الموحدون على مراكش[1].

٣ — حكم أبو يعقوب يوسف وحروبه

وقد بدأ أبو يعقوب يوسف حكمه فى ظروف صعبة ؛ ولولا غيرة القاضى أبى الحجاج يوسف بن عمر وفطنته لتعذر عليه أن يفوز بحكم مملكة الموحدين كلها . ذلك لأن ولى العهد السابق السيد محمد ، وأخا آخر ليوسف هو السيد عبد الله والى قرطبة ، اعتزما ألاّ يخضعا لولى العهد الجديد الذى اختاره عبد المؤمن قبل موته ، ولاح فى الأفق شبح حرب أهلية مروعة تنذر بتمزيق المملكة ولمّا تتوطد دعائمها بعد ؛ ولكن القاضى أبا الحجاج عمل على إخفاء موت عبد المؤمن حتى قدم أبو يعقوب يوسف من الأندلس إلى مراكش ، وبويع فى الحال بالإمارة . بيد أنه مضى زهاء عامين قبل أن يوفق إلى إخماد جميع حركات الانتقاض على حكومته ؛ ثم دعا بعد ذلك جميع الأشياخ والولاة إلى مراكش ، وبويع بالخلافة وتسمى بأمير المؤمنين ؛ ولم يخرج على ذلك الإجماع أخواه السيد محمد والسيد عبد الله ، اللذان خلبهما رفقه وتسامحه ، فاعترفا أيضاً بخلافته ؛ ومالت الشعوب المغربية إلى تأييده لما عمد إليه فى بداية حكمه من تخفيف أعباء الحرب ، وتسريح الجيوش الضخمة التى حشدت فى سلا لغزو اسبانيا ؛ وجذب إليه القادة والجند — ولاسيما جند الحرس — والولاة بالأعطية الوافرة ؛ وأحبه أهل مراكش لما رفعه عنهم من المكوس ، ونظمه لهم من الحفلات الباذخة .

ومع أن يوسف تولى الحكم شابا لم يجاوز الرابعة والعشرين من عمره ؛ فقد أبدى كثيراً من الفطنة والبراعة ، وكان ذهنه يتجه إلى معالجة الأمور الحاضرة

(١) راجع فى سيرة عبد المؤمن وخلاله فى كتاب أخبار المهدى ص ٢١ — ٢٣ و ٥٥ — ٥٧ و ٨٤ وما بعدها ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٨ وما بعدها ، وروض القرطاس ص ١١٩ — ١٣٤ ، والمراكشى ص ١٠٩ وما بعدها ، وابن خلكان ج ١ ص ٣٩٠ — ٣٩٢ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٤٠ وما بعدها .

والبعيدة معاً ؛ وكان يقبض بنفسه على أعنة الحكم ، ولا يسمح لوزرائه بالبت فى أمر من الأمور ، أو عمل من الأعمال لم يقف عليه من قبل ؛ وترتب على ذلك أن الأمراء والوزراء الذين كانوا يتمتعون أيام عبد المؤمن بكثير من النفوذ فى البلاط ، فقدوا كل نفوذهم فى عهد يوسف . وحتى أخوه السيد أبو حفص الذى كان أمين سر عبد المؤمن وموضع ثقته رأى مع الألم انهيار نفوذه فى البلاط ، وربما كان هذا هو السبب فى أنه فيما بعد رفع لواء الثورة ضد أمير المؤمنين .

وكان يختار بحسن فهمه وبعد نظره أكفأ الرجال الذين يوليهم مناصب الثقة ، وكان من سياسته فيما يظهر نقل الأشخاص فى مختلف المناصب لكى يبقوا أكثر خضوعا لإشراف الحكومة ، وكان مما يسهل تنفيذ هذه السياسة أن الذين يتولون المناصب كان يشترط فيهم توافر نوع من الثقافة العامة والإلمام بمعظم العلوم الاسلامية المعروفة ، وهذا مما يوضح لنا كيف أمكن فى ظل هذا الأمير أن يتولى بعض الرجال مناصب شديدة التباين ؛ فقد حدث مثلا أن تولى العلامة الأشهر أبو الوليد بن رشد منصب الفقيه العالم ، ثم القضاء ، ثم تولى الاشراف على الخزينة ، وتولى أيضاً منصب طبيب يوسف الخاص[1] .

ومع أنه عمل على تخفيف أعباء الحرب عن الشعوب المغربية ، وسرح الجيوش الضخمة التى حشدت لغزو اسبانيا ، فانه لم يترك العناية بأمر الحرب فى الأندلس .

وكان الموحدون منذ وفاة عبد المؤمن قد تكبدوا فى الأندلس خسائر فادحة

---

(١) هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد من أعظم مفكرى الاسلام وفلاسفته ، ولد بقرطبة سنة ٥٢٠ هـ ، واتصل منذ فتوته بأبى يوسف يعقوب بن عبد المؤمن وقد كان مشرفا على شؤون الأندلس ، وكان الأمير مثل أبيه يجمع حوله أعلام المفكرين والعلماء . وبرع ابن رشد فى الفقه والطب والفلسفة ؛ وتولى قضاء إشبيلية فى سنة ٥٦٥ هـ ، ثم ولى قضاء قرطبة واستمر بها خمسة وعشرين عاما يتقلب فى ظل حكومة الموحدين ، سواء فى الأندلس أو المغرب فى بعض المناصب القضائية والادارية الكبرى ؛ وتولى أثناء ذلك منصب الطبيب الخاص حينا لأبى يعقوب يوسف ثم لولده يعقوب المنصور بعد وفاته ؛ واتهمه بعض خصومه بالزندقة ، فنفى إلى الأندلس بجوار قرطبة ؛ وفرضت عليه رقابة شديدة ؛ ثم استرد مكانته فى أواخر حياته ؛ واستدعى ثانية إلى مراكش ؛ حيث عفا عنه المنصور ، وتوفى سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٥ م) . وأعظم آثار ابن رشد هو شرحه لفلسفة أرسطو ؛ وله عدة رسائل كلامية وفلسفية .

فى بعض المواطن ، وذلك بالرغم من تفرق الملوك النصارى ، وما كانت تعانيه مملكتا قشتالة وليون من انقسام الأشراف ؛ وكان الفونسو هنريكيز ملك البرتغال يدفع حدود مملكته نحو الجنوب باستمرار ، وينتزع من أيدى الموحدين حصون الحدود تباعا ؛ وكذلك أبدى فرديناند ملك ليون نشاطا فى غزو منطقة وادى يانه (أو وادى آنه) ، واستولى على القنطرة والبكرك والقاس وبطليوس حسبما تقدم . أما قشتالة وليون فقد كانتا تقتصران يومئذ فى محاربة المسلمين على معاونة أمير بلنسية محمد ابن سعد بن مردنيش ، وترسلان له الامداد مقابل المال والحصول على قسط من الغنائم .

وما كاد يمضى عامان على وفاة عبد المؤمن ، حتى حشد أمير بلنسية زعماء الأندلس المعادين للموحدين تحت لوائه مرة أخرى (سنة ١١٦٥ م). واجتمع إليه فوق ذلك ثلاثة عشر ألفاً من القشتاليين والأرجونيين ؛ ثم سار فى جميع قواته إلى لقاء جيش الموحدين بقيادة السيد أبى سعيد عبد الرحمن ، أخى أبى يعقوب يوسف ، والتقى الجيشان على مقربة من مرسية ، ونشبت بينهما موقعة شديدة ، واستطاع الموحدون بجلادهم أن يحرزوا فيها نصراً كاملا أسوة بما حدث من قبل ؛ وأخذ الحلفاء يلقون تبعة هذا الفشل كل على الآخر ، واشتد بينهم الخلاف ، وانتهى الأمر بأن انسحب بعض الزعماء الأندلسيين سرا ثم علانية ، وانضموا إلى جانب الموحدين ؛ وكان من بين هؤلاء الزعيم الباسل أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن الوقشى ، والى جيان ومرسية السابق ، وكان عالما ، ومقاتلا شجاعاً ، وشاعراً مبرزا ، فانحاز إلى جانب الموحدين ، ثم عبر البحر فيما بعد إلى مراكش ، واشترك هنالك فى حفلة عرض لصيد الأسود ، يطارد الليث فيها بأسنة الحراب ، فأبدى فيها براعة خاصة ، ووصفها فى بعض قصائده الرقيقة [١] .

---

(١) راجع ترجمة أحمد بن عبد الرحمن الوقشى فى الحلة السيراء ص ٢٣٠ وما بعدها . وقد أورد ابن الأبار وصفا لحفلة صيد الأسود ، كما أورد طرفا من القصيدة التى أنشأها الوقشى فى وصف هذا الحفل (ص ٢٣٣) .

ولما أخذ سلطان الموحدين يشتد تباعاً فى جنوبى اسبانيا ، وسقطت فى يدهم بطليوس ، وعدة أماكن أخرى على الحدود ، وأخذ سلطان ابن سعد أمير بلنسية والممالك النصرانية يعرض شيئاً فشيئاً إلى الانهيار ، من جراء انشقاق الزعماء المسلمين والنصارى ؛ اعتزم ملك قشتالة ألفونسو الثالث وملك أراجون ألفونسو الثانى أن يعملا على تقوية صلاتهما بابن سعد ؛ وسار ابن سعد نفسه إلى طليطلة ليوثق أواصر محالفه بالملكين (سنة ١١٦٧ م) ، واستطاع من جهة أخرى أن يسترضى بعض الزعماء المنشقين عليه ، وأن يحشدهم ثانية إلى جانبه ؛ وكان من بين هؤلاء الوقشى الشجاع الذى تقدم ذكره ، وذلك بعد أن لبث حيناً فى مراكش وتولى هنالك أرفع المناصب ؛ وكان جند من الجلفاء النصارى ، ومعظمهم من القشتاليين ، يحتلون بلنسية ذاتها ، وهو ما لم يرق لكثير من المسلمين المحافظين ، وقد غادر بلنسية على أثر ذلك كثير من الزعماء الأقوياء ، وانحازوا إلى جانب الموحدين .

وفى تلك الأثناء كان السيد أبو حفص أخو الخليفة قد عبر البحر إلى الأندلس فى عشرين ألفاً من فرسان الموحدين ، وقام بغزوات على حدود البرتغال واسترامادوره ، ولكنه لم يحرز نجاحاً يذكر . ذلك أن ملك البرتغال وفرسان يابرة التابعين له كانوا يحمون الحدود حماية فعالة ، وكان ملك ليون قد استدعى آل كاسترو بعد فرارهم إلى الموحدين ، وحرم الموحدين بذلك من عضد قوى ؛ ولكن تفاقمت الحال فى بلنسية وازداد سخط الزعماء على الأمير محمد بن سعد ، وجاهروا بالثورة ضده ، واستدعوا الموحدين لمعاونتهم ونصرتهم ؛ وكان سلطان الموحدين ، يعتزم بعد أن سحق جميع الثورات فى المغرب ، أن ينتهز فرصة هذه الظروف السانحة فى الأندلس ، وأن يعمل على إخضاع اسبانيا المسلمة بأسرها لسلطانه .

ففى شهر صفر سنة ٥٦٦ هـ (١١٧١ م) ، عبر أبو يعقوب يوسف البحر إلى اسبانيا ، وسار تواً إلى أشبيلية عاصمة الأندلس ؛ واستقبل هنالك الولاة والقضاة والفقهاء والعلماء من جميع المدن والأنحاء الخاضعة له ، ووقف منهم على أحوال

البلاد . وكان من الواضح أن استمرار الشقاق بين المسلمين فى بلنسية ومرسية ، وضعف الإمدادات التى يرسلها ملوك قشتالة ونافارا وأراجون إلى حليفهم ، ثم الخصومة بين ابن سعد وحليفه القديم ألفونسو ملك أراجون ، مما يتعذر معه على بلنسية أن تحافظ طويلا على استقلالها ؛ وهكذا فإنه بينما سار محمد بن سعد إلى غزو طرطوشة وطركونة من ثغور قطلونية ، وحاصرهما من البر والبحر ؛ بعد عدة وقائع دموية نشبت فى البر والبحر هزم فيها النصارى ؛ إذ سقطت بلنسية فى يد الموحدين بمالأة زعيم يدعى أبا بكر بن سفيان والى جزيرة شقر[1] . فلما وقف محمد بن سعد على سقوط عاصمته ، اضطر أن يرفع الحصار عن ثغور قطلونية وسار فى سفنه إلى جزيرة ميورقة ، وانتزعها من يد أصحابها ، وهم أبناء القائد المرابطى ابن غانية ؛ بيد أنه لم يعش طويلا ، وتوفى بعد ذلك بقليل فى رجب سنة ٥٦٧ هـ (١١٧٢م)[2] . ولما رأى أبناؤه أن النضال يضطرم بينهم وبين كثير من الزعماء ، وأن غارات النصارى والموحدين تلاحقهم بلا انقطاع ، وأنهم لا يستطيعون الثبات أمام هذه الجمهرة من الأعداء ، عقدوا مع سلطان المرابطين أبى يعقوب يوسف معاهدة ، يتنازلون بمقتضاها عن جميع أراضيهم ، مشتملة على بلنسية ، ومرسية ، ومربيطر ، وشاطبة ، ودانية ، ولقنت ، وشقر ، ولورقة وغيرها ؛ وعلى الأراضى الواقعة فيما بين مصب نهر إيبرو ومدينة قرطاجنة ، وعلى مقربة من الجزائر الشرقية (جزائر البليار) ، وأن يعوضهم عن ذلك بمناصب يتقلدونها وأراض تقطع لهم فى مملكته ؛ وتزوج أبو يعقوب يوسف أختاً لأمراء بلنسية (أعنى ابنة لابن مردنيش) توثيقاً للصداقة بين الأسرتين ؛ وهكذا استطاع الموحدون أن يوفقوا بحسن طالعهم إلى الحصول على أراض ما كانوا ليؤملوا

(١) راجع الحلة السيراء ص ٢٣٦ و ٢٣٧ .

(٢) تسمى الرواية العربيـة الموقعة التى هزم فيها ابن مردنيش وانتهت بسقوط دولته بوقعة الجلاب . راجع تفاصيل هذه الحوادث ، وفى سقوط دولة ابن مردنيش : ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٨ و ٢٤٠ ، والمراكشى ص ١٣٩ و ١٤٠ ، وابن الأبار فى الحلة السيراء ، ص ٢٢٠ و ٢٣٠ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٦٠ ، وابن الأثير ج ١١ ص ١٤٠ .

الحصول عليها بحد السيف . ولما كانوا قد استولوا بذلك على جنوبى اسبانيا الذى يسكنه المسلمون ، فقد عمدوا من ذلك الحين إلى توجيه غزواتهم إلى الممالك النصرانية المجاورة ، وكانوا يؤملون الظفر عليها بسهولة لما كان يسودها يومئذ من التفرق والخلاف .

ومكث أبو يوسف فى اسبانيا أربعة أعوام وبضعة أشهر ، نظم خلالها عدة غزوات ضد النصارى ، ففى سنة ٥٦٧ هـ (١١٧٢ م) خرج من إشبيلية إلى الغرب (غرب الأندلس) جنوبى البرتغال فى جيش ضخم ، وحاصر مدينة شنترين ، ثم سار إلى القنطرة بطريق بطليوس والبكرك ، واستولى عليها حسبما تقول الرواية العربية[1] ؛ ووصل الغزاة إلى مدينة ردريك ، ولكنهم لم يوفقوا فى الاستيلاء عليها . وبعد أن عاث الموحدون فى تلك الأراضى وخربوها ، عاد أبو يعقوب مثقلا بالغنائم ، وفى ركبه عدة آلاف من الأسرى النصارى ، قد صفدوا أزواجاً .

وفى العامين التاليين أعنى سنتى ٥٦٨ و ٥٦٩ هـ ، (١١٧٣ و ١١٧٤ م) أرسل أبو يوسف بقيادة أكابر القادة عدة حملات إلى ضفاف التاجة ، فعاث فى أراضى قشتالة أشد عيث . وفى الوقت الذى كان فيه آل كاسترو وآل لارا يخوضان معاً معركة على ضفاف دورة ، ويستنفدان بذلك قوى البلاد فى سبيل خصومتهما ، كانت حدود قشتالة الجنوبية تستهدف للضياع ؛ وكان فرسان قلعة رباح ، الذين سما شأنهم فى ذلك الحين ، يجاهدون لحفظ المملكة من السقوط ، بيد أنهم لم يكونوا من القوة بحيث يستطيعون رد الموحدين عن غزواتهم المخربة ، بالرغم من احتفاظهم بالقلاع التى يدافعون عنها . والروايات العربية عن هاتين الغزوتين غامضة ، ولا تتفق مع الروايات النصرانية ؛ فهى تقول فى شأن الغزوة الأولى إن الموحدين أحرزوا نصراً باهراً على الأمير سانشو أبى رذعة ، الذى كان يمتطى صهوة بغل عليه برذعة محلاة بالذهب والأحجار الكريمة ، وإنه لم ينج من جيش

---

(١) راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٠ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٦١ ؛ وتسمى القنطرة هنا « قنصرة » وربما كان هذا تحريفاً فى الاسم .

النصارى — البالغ ثلاثين ألف مقاتل — أحد تقريباً ، وكان الأمير سانشو نفسه من القتلى[1]. أما الروايات النصرانية فلا تحدثنا بشيء عن هذه الغزوة ، كما أنها لا تحدثنا عن الغزوة الثانية التي حاصر الموحدون فيها طركونة ؛ هذا في حين أن ألفونسو ملك أراجون كان عندئذ يغزو ولاية بلنسية ، وقد وضع حامية كبيرة في حصن ترويل (سنة ١١٧٢ م) ومهد الطريق بذلك للزحف على الأراضي الواقعة جنوبي أراجون . أما في البرتغال فقد وصل الأمير سانشو في زحفه إلى لبلة ، ونشبت أمام باجة بينه وبين الموحدين الذين كانوا يحاصرونها ، موقعة انتصر فيها عليهم وأرغمهم بذلك على رفع الحصار .

ولم يقتصر أبو يعقوب يوسف أثناء مقامه في اسبانيا على شهر الحرب وأعمال العنف ، ولكنه أراد أن يخلد ذكرى هذه الزيارة بإقامة منشآت عظيمة يذكرها الخلف ؛ فأنشأ في إشبيلية التي كان يقضي فيها معظم الوقت ، مسجداً فخماً ، بني في أقصر وقت ، وأنفقت عليه أموال عظيمة ، وأنشأ على النهر الكبير (الوادي الكبير) قنطرة من السفن ثبتت معاً بالسلاسل ، وأقيمت على ضفتي النهر مخازن كبيرة للبضائع ، ومراسي يصلها الدرج بالنهر ؛ وأمر أيضاً بتجديد قسم من أسوار إشبيلية ، وزودت المدينة بالماء النقي بواسطة مواسير أنشئت لذلك .

ثم غادر أبو يعقوب يوسف اسبانيا وعاد إلى مراكش في سنة ٥٧١ هـ (١١٧٠ م) ؛ ولكن الحرب ضد النصارى الأسبان استمرت على شدتها ، وذلك بالرغم من أن قوى الموحدين لم تكن من الكثرة كما كانت وقت مقامه بالأندلس . وفي العام التالي (١١٧٧ م) نشبت بين الموحدين والقشتاليين بجوار قونقة — في مكان وعر بالجبال — موقعة شديدة ، واضطر فيها الموحدون إلى الانسحاب حينما هرع ألفونسو الثاني ملك أراجون ، والأمير بيدرو رويز دي أزاجرا إلى معاونة القشتاليين ؛ وربما كان هذا هو السبب في أن الروايات العربية لم تذكر شيئاً عن

---

(١) هذه رواية ابن أبي زرع في روض القرطاس (ص ١٣٩) ، وقد سمي فيها قائد النصارى في هذه الموقعة « سانشو المعروف بأبي برذعة » ، والظاهر أن المقصود هنا هو أحد أمراء قشتالة ، وليس ملكها ، وقد كان ملك قشتالة يومئذ هو ألفونسو الثالث .

هذه الموقعة ، التى تعتبرها الرواية النصرانية من أهم المواقع ؛ وقد سقطت على أثرها قونقة فى يد النصارى .

واستمرت هذه الحال إلى سنة ١١٨٣ م ؛ وكان الموحدون يقومون فى كل عام تقريباً بالغزو فى أراضى النصارى ، ويقوم ملوك قشتالة والبرتغال وليون وأراجون من جهة أخرى بغزو اسبانيا الجنوبية (الأندلس) ، ويتراوح النصر سجالا بين الفريقين فى هذه المعركة الدموية ، دون أن تسفر عن نتائج حاسمة ، أو حوادث ذات شأن ؛ ثم اتخذت الحرب وجهة أخرى ، وامتدت إلى مناطق لم تكن إلى ذلك الحين ضمن ساحات القتال . ذلك أن الموحدين ، وكذلك البرتغال وقطلونية وهما الدولتان البحريتان ، جهزوا الأساطيل ، ونشبت بين الفريقين عدة معارك بحرية فى مياه الجزائر الشرقية ، وعند مصب نهر التاجه ، وأمام شواطئ الغرب ؛ بيد أنها مثل المعارك البرية لم تسفر عن أية نتائج أو فتوح ذات شأن .

ولما رأى أبو يعقوب يوسف ضآلة النتائج التى أحرزتها قواته فى حروبه ضد النصارى ، استعد بنفسه للغزو ثانية ، وذلك بعد أن أتم تهدئة المغرب ، واستراحت الأمم المغربية من عصف الوباء الذى نزل بها ، وهلكت فيه جموع كبيرة ، من بينها عدد من إخوة الخليفة وأقاربه . وسار أبو يعقوب يوسف إلى سبتة فى أوائل سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤م) ، ولبث هنالك حتى اجتمعت لديه جيوش المغرب من زناتة ومصمودة ومغراوة وصنهاجة وغيرها من القبائل البربرية ؛ وتبع هذه الجيوش غير النظامية ، جيش الموحدين النظامى ، وهو حسن الدربة والتسليح ، وبعد أن عبرت هذه الجيوش إلى اسبانيا ، عبر أبو يعقوب يوسف فى حرسه وحاشيته ووزرائه ، ونزل بجبل طارق (أو جبل الفتح) فى شهر صفر من العام المذكور ، وسار إلى إشبيلية ، ليخرج منها توا إلى شهر الجهاد على النصارى .

وكانت البرتغال من بين الممالك النصرانية أشدها وطأة فى غزو أراضى الموحدين ؛ ولذا اعتزم أبو يعقوب يوسف ، أن يسحق أخطر أعدائه بتفوق قواته

بادئ ذى بدء ، حتى إذا عم الرعب من جراء انتصاره استطاع أن يخضع الممالك الأخرى بسهولة .

وكانت خطة زعيم الموحدين تقضى أولا بمهاجمة مملكة البرتغال من البر والبحر ، حتى ضفاف نهر دورة ؛ ثم الزحف من على ضفاف التاجه ودورة إلى قلب مملكتى قشتالة وليون ؛ بينما تشغل قوات النصارى جيوش إسلامية أخرى تزحف من الجنوب . وقد حشد لهذه الغاية قوات عظيمة ؛ واجتمعت إليه فضلا عن الجيوش المغربية الجرارة ، قوى مسلمى الأندلس ، وحشد أولاده السيد أبو إسحاق والى إشبيلية ، والسيد عبد الله أبو يحيى والى قرطبة ، والسيد أبو سعيد عبد الرحمن والى غرناطة ، والسيد أبو عبد الله والى بلنسية ومرسية ، ما لديهم من القوى ، بعد أن تركوا حاميات فى مدنهم ، وضمت إلى جيش أبيهم فى إشبيلية . وفى بعض الروايات النصرانية أن هذه الجيوش المجتمعة كانت تفوق فى الكثرة أى جيش آخر ، قاده ملوك إفريقية إلى اسبانيا ، وأن أبا يوسف حينما استعرض تواريخ الملوك السابقين ، وجد جيشه يزيد بمقدار ثمانية وسبعين ألف مقاتل ، عن أعظم جيش قاده المسلمون من إفريقية إلى الأندلس منذ عهد طارق بن زياد . وكذلك اجتمع للمسلمين أسطول عظيم من سفن القتال وسفن النقل ، مشحونة بالسلاح وآلات الحصار والمؤن ، عند مصبى نهرى الوادى الكبير ووادى يانة ، على أهبة لأن يؤيد من البحر جهود الجيش البرى ضد البرتغال .

وبادر أبو يوسف يعقوب بالخروج من إشبيلية ، لكى لا يترك للنصارى وقتاً للتسلح ، وإصلاح القلاع ، وتزويدها بحاميات كبيرة ومقادير احتياطية من المؤن ، والنزول إلى ميدان الحرب بجيش حسن الأهبة ؛ وسار على رأس الجيش الرئيسى متجهاً إلى بطليوس ، معتزما محاصرة أشبونة . بيد أن كان عليه قبل أن يتمكن من محاصرتها بنجاح أن يستولى على قلعة شنترين الواقعة على مقربة منها على ضفة نهر التاجة اليسرى . وعلى ذلك فما كاد يعبر التاجه بجيشه حتى ضرب الحصار حول شنترين ، مؤملا أن تسقط فى يده قبل مقدم الأسطول الذى خصص لمحاصرة

أشبونة من جهة البحر ؛ ولما كان قد اجتمع لديه سبعة وثلاثون من الولاة فى قواتهم ، وكان ضرب المدينة بآلات الحصار متواصلا بالنهار والليل ، فإن الحامية التى لم تستكمل عدتها لم تقو على المقاومة إزاء هذا السيل الجارف ؛ فلم تمض ثلاثة أيام على مهاجمة المدينة ، أو أربعة عشر يوما على حصارها حتى استولى أبو يعقوب عليها خلا قلعتها ، التى استمرت حاميتها البرتغالية تدافع عنها بمنتهى البسالة ، وذلك فى ٢٢ ربيع الأول سنة ٥٨٠هـ (يوليه سنة ١١٨٤) . وقد كان أبو يعقوب يتولى القيادة بنفسه ، معتبراً القادة الذين معه آلات صماء لتنفيذ مشيئته ، وكان ذلك مما يثير فى نفوس أولئك القادة المجربين مرارة شديدة ؛ وكانوا قد اعترضوا من قبل فى مجلس الحرب ، على تحويل المعسكر من شرق شنترين إلى شمالها وغربها ، حيث يتعرض الجيش بذلك إلى خطر التطويق من جانب الأعداء . ولكن إرادة أبى يعقوب هى التى نفذت دون سواها .

ولما دخل الليل أمر أبو يعقوب ولده أبا إسحاق والى إشبيلية ، أن يبكر فى صباح اليوم التالى بالسير فى قوات الأندلس ، والقيام بالهجوم فى اتجاه أشبونة ، وذلك لكى يحمى الهجوم على قلعة شنترين من التعرض للمفاجأة من هذه الناحية . فهل وقع سوء فهم أم كانت ثمة فتنة ؟ ذلك أن أبا إسحاق ، سار فى الليل بدلا من أن يسير فى الصباح ، وبدلا من أن يسير فى اتجاه اشبونة عاد فعبر نهر التاجه ، وسار بقوات الأندلس فى اتجاه إشبيلية . وما كاد هذا النبأ يذاع بين بقية الجيش ، حتى انتشر الاضطراب والروع فى جميع المعسكر الإسلامى ، وتفاقم الأمر ، حينما زحف سانشو ابن ملك البرتغال ، على شنترين ليلا فى جيش يبلغ خمسة عشر ألف مقاتل . وفى تلك الأثناء كان أبو يعقوب يوسف قد شرع فى تنفيذ خطته لمهاجمة مدينة الكوبازة ، وأمر بذبح جميع الأسرى النصارى الذين كانوا فى معسكره وعددهم عشرة آلاف ، لكى لا تعوقه حراستهم . بيد أنه حينما تحول بمعسكره إلى المواقع الجديدة ، ألفى نفسه أمام الجيش البرتغالى وجهاً لوجه .

وكان تغيير مواقع المعسكر الذى أمر به أبو يعقوب وحده .

قواده ، ووجود الجيش البرتغالى فى مركز يهدد المسلمين ، ومسير القوات الأندلسية وغيرها إلى ما وراء نهر التاجه ، وهو ما بدا كأنه حركة انشقاق ، وأخيراً ذيوع نبأ ما لبث أن تأيد بمقدم جيش آخر من النصارى أعظم من سابقه ؛ كل هذه الأمور بثت فى معسكر الموحدين نوعاً من الرعب العام ، ترتب عليه أن غدت أوامر الخليفة لا قيمة لها . وفى صباح اليوم التالى وصل جيش من النصارى يبلغ عشرين ألف مقاتل بقيادة أسقف شنت ياقب ، وانضم إلى الجيش البرتغالى الذى يقوده ولى العهد سانشو ؛ وبادر النصارى بمهاجمة الموحدين وهم فى اضطرابهم واختلال نظامهم ، وعاونت حامية قلعة شنترين مواطنيها بالخروج من القلعة ومهاجمة المسلمين .

ولما كان قسم كبير من قوى الموحدين ، قد عبر نهر التاجه ، فإنه لم يبق لدى أبى يعقوب سوى حرسه وقليل من القوات الأخرى ، وقوافل العتاد والمتاع ، التى لم تستطع لحاقا بباقى الصفوف لسرعتها ؛ ورأى زعيم الموحدين ، وهو يضطرم سخطاً ، أنه وقع ضحية الخيانة ، وأسلم إلى الأعداء ؛ ولكنه لم يرد أن يركن إلى الفرار شأن الجبان . وهكذا نشبت الموقعة وهجم النصارى على معسكر الموحدين وهم يصيحون « إليهم ، إليهم ! إليه ، أين هو ؟ »[1] ، ثم نفذوا إلى خيام الحرس ، وقتلوا رجاله جميعاً ، ووثبوا إلى خيمة الأمير ، ومزقوا كل ما حوت من الستور والبسط والفراش ، وقتلوا بعضاً من جواريه أشنع قتل ، أما أبو يعقوب فقد وثب إلى فرسه ، وأسقط منه ثلاث مرات ، وهو يقاتل بسيفه ستة من الفرسان النصارى ، وأخيراً طعنه أحدهم بسيفه طعنة نافذة فسقط إلى الأرض مضرجا بدمائه .

وفى تلك الأثناء استطاع عدة من الفارين من حرس الموحدين ، أن يتصلوا بالجيش المنسحب تحت إمرة أبى إسحاق ، وأن يبلغوه نبأ الموقعة وما أحاق بالأمير من خطر ؛ فارتد من فوره ليسعى إلى إنقاذ الأمير إن كان ثمة وقت ؛ وما كاد يعبر

(١) ورد فى روض القرطاس أن النصارى حينما هاجموا معسكر الموحدين كانوا يصيحون « الري ، الري » أى اقصدوا السلطان . (ص ١٤١) والرى هى بالأسبانية Rey أى الملك .

التاجه بجنوده مرة أخرى حتى نشبت بين المسلمين والنصارى معركة أخرى ، سالت فيها دماء الفريقين غزيرة ، وقاتل كل منهما بمنتهى البسالة .

ويوجد ما يحمل على الشك فيما تقوله الرواية العربية من أن المسلمين استولوا خلال هذه المعركة عنوة على شنترين ؛ بيد أنها تضيف إلى ذلك أن المسلمين أصيبوا بخسائر فادحة (والرواية النصرانية تقدر قتلى المسلمين بثلاثين ألفا) ، وأنهم ارتدوا فى الحال إلى نهر التاجه ، وعبروه إلى الضفة اليسرى من قنطرة كانوا يحرسونها ، وانصرفوا إلى إشبيلية ، وتركوا معسكرهم غنيمة للنصارى بكل ما فيه من الذخائر والنفائس من كل ضرب ، كذلك بادر الأسطول الإسلامى ، الذى وصل إلى أشبونة مشحوناً بآلات الحصار والتخريب ، إلى الفرار حينما علم بنبأ الهزيمة التى حلت بأبى يعقوب أمام شنترين[1] .

أما مصير أبى يعقوب ، فيحيق به غموض ، يصعب استجلاؤه إزاء مختلف الروايات المتناقضة ، إذ أن مثل هذا الحادث بطبيعته ، مما يحمل فى البداية على إذاعة الأنباء الكاذبة إخفاء لموت الأمير ؛ وعلى ذلك فإنه ليس من المحقق ما إذا كان قد أسلم الروح فى الموقعة ، أو غرق فى النهر حين عبور الجيش الفار ، أو أنه توفى متأثراً بجراحه حين عودته إلى إشبيلية أو وصوله إلى الجزيرة الخضراء ،

---

(١) تورد الرواية العربية تفصيلا آخر لحوادث هذه الغزوة ، فتقول إن أبا يوسف يعقوب حاصر مدينة شنترين فى البداية وضيق عليها ، ثم أمر بنقل معسكره من موضع نزوله بجوفى شنترين إلى غربيها ، فأنكر المسلمون ذلك ، ولم يعلموا له سببا ، وأنه فى المساء أمر ولده السيد أبا إسحق ، أن يسير من تلك الليلة إلى غزو اشبونة فى جيوش الأندلس ، وأن يكون رحيله نهاراً ، فأساء الفهم وظن أنه أمره بالرحيل فى جوف الليل إلى إشبيلية . ثم تقول الرواية العربية : « إن الشيطان صرخ فى محلة المسلمين أن أمير المؤمنين قد عزم على الرحيل ... » وتحدث الناس بذلك ورحل منهم طائفة بالليل ، ثم تتابع الناس فى الرحيل ، وأمير المؤمنين لا علم له بذلك ؛ وأن النصارى المدافعين عن شنترين لاحظوا عند طلوع النهار خلو المعسكر الاسلامى ، وتحققوا ذلك من جواسيسهم ، فهاجوه وضربوا فى محلة الحرس حتى وصلوا إلى خباء أمير المؤمنين ، وطعنه أحدهم ، بعد أن قتل منهم ستة رجال . ثم تضيف الرواية العربية إلى ذلك أن المسلمين عادوا فقاتلوا النصارى وهزموهم ودخلوا شنترين (راجع روض القرطاس ص ١٤٠ و ١٤١ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤١ ، والمراكشى ص ١٤٥ و ١٤٦ وابن الأثير ج ١١ ص ١٩٠) .

أو وصوله إلى مراكش . وكانت وفاته فى ١٢ ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ (٢٤ يوليه سنة ١١٨٤) . بيد أن الظاهر أنه لم يعش بعد الهزيمة[١] .

وحكم أبو يعقوب يوسف مملكة الموحدين الشاسعة بقوة وكفاية مدى اثنين وعشرين عاما . وكانت أكبر أخطائه ، رغبته فى أن يتولى جميع الأمور بنفسه ، وأنه بالرغم من فتوته قلما كان يحفل بنصح الشيوخ الناصحين ، أو يستمع إلى أحد فى العدول عن أمر تقرر . وقد ترتب على ذلك ، وعلى ما أوقعه من العقوبات الصارمة على الكبراء الذين ظلموا الشعب ، أن كثر أعداؤه بين شيوخ القبائل ورجال البلاط ، وربما كان ذلك من أسباب مصرعه أمام شنترين ؛ وكان أول ملك من ملوك الموحدين قاد الجيش بنفسه ضد النصارى فى اسبانيا ؛ وكان إلى جانب عظيم شجاعته وفروسته ، رقيق المشاعر ، فياض الجود فى كل مناسبة ؛ وكان وسيم الطلعة ، رقيق المحيا ، أبيض اللون مشرباً بحمرة ، جميل العينين ، أقنى الأنف ، جعد الشعر ، حسن القد ، وافر الهيبة والجلال[٢] .

٤ — يعقوب بن يوسف وموقعة الأرك

وخلف أبا يعقوب يوسف فى الحكم ولده عبد الله يعقوب بن يوسف وتلقب بالمنصور بفضل الله ؛ ولسنا نعرف إن كان قد ارتقى العرش لأنه كان أكبر إخوته ، أو لأن أباه اختاره لولاية عهده . ذلك لأن وراثة العرش لم تنظم وفقاً لقانون معين . وكان الأمير يختار ولى عهده وفق مشيئته ؛ وكان يعقوب المنصور ممن شهدوا موقعة شنترين ، فتولى قيادة الجيش مذ جرح أبوه ، وأخفى موته حتى عاد إلى المغرب ، وتمت بيعته فى مراكش فى الثانى من جمادى الأولى سنة ٥٨٠ هـ (سبتمبر سنة ١١٨٤) . .

---

(١) يضع صاحب روض القرطاس وفاة ابن يعقوب يوسف فى الثانى من ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ ، ويقول إنه توفى من جراحه فى الجزيرة الخضراء (ص ١٤١) ، ويقول ابن الأثير إنه توفى من مرض أصابه تحت أسوار شنترين ، وحمل منها ميتاً إلى إشبيلية (ج ١١ ص ١٩٠) ، ويتردد ابن خلدون بين الروايتين فيقول إنه توفى من مرض نزل به ، أو من سهم أصابه فى حومة القتال (ج ٦ ص ٢٤١) ، وفى الحلل الموشية أن وفاته كانت بنهر تاجه فى قفوله من غزاة شنترين على ظهر دابته (ص ١٢٠) .

وعمل يعقوب فى بداية حكمه على اكتساب محبة الشعب ، بإخراج مقادير كبيرة من أموال الدولة وتوزيعها على الفقراء ، وبعث أوامره إلى الولايات باطلاق المسجونين الذين اعتقلوا لذنوب ثانوية ، وتعويض الذين ظلموا أيام أبيه ، كما أمر باسقاط المكوس التى لم يتم أداؤها . ورفع مرتبات القضاة والفقهاء فى جميع أنحاء المملكة ، وزاد أجور الجند فى جيش الموحدين النظامى ، وحصن الحدود فى جميع الأماكن التى يخشى عليها ، وشحن القلاع بطوائف مختارة من الجند ، وطاف بجميع أنحاء المغرب ليتحقق بنفسه من تنفيذ أوامره ، وليعرف ماذا يجب إجراؤه من الأعمال الضرورية ؛ ونفذ عدة مشاريع خيرية ، فأنشأ كثيراً من المساجد والمدارس ، وأنشأ البيمارستانات (المستشفيات) للمرضى ، ورصد لها أموالا للنفقة ، وفتحها أيضاً لإيواء العجزة والعمى يؤمونها من جميع أنحاء المملكة . وعنى بتسهيل المواصلات والسفر ، فأنشأ فى الطرق الرئيسية وطرق القوافل أبراجاً ، وأحواضاً لخزن الماء ، وآبارا للاستسقاء ، وفنادق لنزول المسافرين . كذلك كان المنصور صديقاً ونصيراً للعلماء ، وقد أنشأ لهم المعاهد ، وقسمهم إلى طبقات ورتب معينة ، وأجرى عليهم الأرزاق كل وفق رتبته ؛ وكان يؤثر بالأخص الأطباء والمشرفين على المستشفيات[1] .

وما كاد يعقوب المنصور يعتلى العرش ، حتى قامت عدة ثورات عنيفة ، كما يحدث غالباً عند تغيير الحكم فى الأمم الاسلامية . ذلك أن المرابطين الذين ألفوا ملاذهم الأخير فى الجزائر الشرقية (البليار) ، واستطاعوا أن يحتفظوا بها هادئين فى عهد محمد بن سعد أمير بلنسية ، ومن بعده فى عهد أبى يعقوب يوسف ، تحركوا فجأة ، حينما علموا بهزيمة الموحدين فى شنترين ، ووثب على بن إسحاق سليل القائد المرابطى الشهير بابن غانية ، فاستولى — بمعاونة أنصاره الكثيرين — على الأسطول الأندلسى الراسى فى ميورقة ، وشحنه بالمرابطين وأهل الجزائر الشرقية ، وأبحر إلى بجاية من ثغور الجزائر ، فاستولى عليها دون مقاومة ، وأخرج منها

(١) راجع روض القرطاس ص ١٤٣ .

واليها القاضى سليمان بن عبد الله حفيد أمير المؤمنين ، وأمر أن يدعى فى الخطبة للخليفة العباسى الناصر لدين الله ، واستطاع أن يضرم نار الثورة ضد الموحدين فى جميع المناطق المجاورة[١] .

وشجع نجاح هذا المشروع بعض الزعماء الناقمين على الثورة ضد سلطان الموحدين ؛ بل إن أخوين من إخوة المنصور هما السيد أبو يحيى والسيد عمر ، وعمه السيد أبو الربيع ، كانوا فيما يبدو على تفاهم مع الثوار ؛ ولكن المنصور وقف على أمرهم ، قبل أن يستطيعوا تدبير الخطط معهم ، وأمر بالقبض عليهم وإعدامهم ؛ واستمر المنصور يجاهد حتى سنة ٥٨٤هـ (١١٨٨م) ، حتى استطاع أن يقضى على الثورة بالقوة القاهرة ، وأن يرد جموع الثائرين إلى الطاعة ، والمرابطين من بينهم ؛ وكان هؤلاء قد قويت شوكتهم بما يتلقونه من سلاطين مصر من إمداد الجند ، وكانوا قد أحرزوا النصر مراراً ، واستطاعوا الاستيلاء على قاس عاصمة مراكش الثانية ، وسقطت فى أيديهم طرابلس ، وهى ثغر بحرى هام . ولكن المنصور هزم الثوار فى قاس فى معركة كبيرة ، واسترد المدينة ، وقتل أهلها عقاباً لهم على انضمامهم إلى المرابطين ، وأخمد الثورة فى الولايات بمثل هذا الإرهاب والعنف[٢] .

وما كاد يعقوب المنصور يعيد السكينة إلى المغرب ، حتى فكر فى أمر الجهاد ضد النصارى فى اسبانيا ؛ وكان النصارى قد قاموا فى تلك الأثناء بعدة غزوات فى الأندلس ، أحرزوا فيها النصر تارة ، وأصيبوا بالهزيمة تارة أخرى . وعبر المنصور إلى الأندلس فى ربيع الأول سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م) ، وتقول الرواية العربية إنه سار بجيشه تواً إلى شنترين وأشبونة ، لكى ينتقم لهزيمة والده ومقتله ، وإنه عاث أثناء سيره فى المروج ، وأحرق القرى ، ونهب الضياع ، وقتل السكان أو سباهم ، وذهب فى العيث والتخريب إلى أروع الحدود ، حسبما يقول المؤرخون المسلمون

---

(١) راجع تفاصيل غزوات ابن غانية لثغور إفريقية فى ابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٤ .

(٢) راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٤ .

أنفسهم[١] . بيد أن المنصور ، لم يقم — بالرغم من هذا التخريب — بأية فتوح ، ولكنه خرج من هذه الغزوة بغنائم عظيمة ، وثلاثة عشر ألفاً من السبي بين نساء وأطفال ؛ واضطر أن يعجل بالعود ، إذ وقعت في المغرب اضطرابات جديدة تقتضي سرعة العود ؛ وهكذا عاد إلى فاس في شهر رجب من نفس العام (٥٨٥ هـ) .

وقامت عندئذ في إفريقية الشرقية (تونس) ثورة عمد المنصور إلى إخمادها ، ورحل من أجل ذلك في جيشه إلى تونس ؛ فانتهز البرتغاليون فرصة غيبته ليقوموا بفتوح في جنوبي البرتغال وفي ولاية الغرب .

وحدث في ذلك الحين بالذات أن قدم أسطول من ستين سفينة تحمل جيشاً من الصليبيين قوامه عشرة آلاف مقاتل ، من ولايات الرين الألمانية ، واللورين وفرزلاند ، إلى شواطئ جليقية ، في طريقهم إلى الشرق ، ورسا على مقربة من شنت ياقب ، ونزل كثيرون ليقوموا بزيارة قبر هذا القديس في كومبستل . ولكن أهل كومبستل توجسوا شرا مما شاع حول هؤلاء الأجانب ، وكونهم قدموا لاغتصاب رأس القديس ياقب ، وربما أيضاً لنهب الذخائر التي كدست في قبره ، فتقلدوا أسلحتهم ، وحالوا بالقوة دون دخول الصليبيين إلى المدينة ، فوقعت بين الفريقين معركة سال فيها الدم من الجانبين ، وعاد الصليبيون على أثر ذلك إلى سفنهم .

وفي نفس هذا الوقت أيضاً قدم أسطول آخر من الصليبيين من إنكلترا والفلاندر ، ورسا قبالة اشبونة ؛ ولما كان الوقت متأخراً وقد دنا الشتاء ، فقد استطاع سانشو ملك البرتغال ، أن يحملهم على الاشتراك معه في القيام بغزوة مشتركة ضد المسلمين في ولاية الغرب . والظاهر أن الصليبيين الذين رسوا عند شاطئ جليقية ، قدموا أيضاً إلى البرتغال وانضموا إلى الجيش البرتغالي ، وأمدهم الملك سانشو بثلاثين سفينة أخرى ضمت إلى أسطولهم ، وهكذا أعد أسطول ضخم ؛ وبينما أرسل سانشو إلى باجه ويابره اللتين فقدهما في الأعوام الأخيرة ،

---

(١) هذه رواية ابن أبي زرع في روض القرطاس (ص ١٤٤) .

واللتين لم تكن تحرسهما حاميات قوية ، جيشاً غزاها واستولى عليهما ، إذ سار الأسطول إلى الجنوب قبالة لسان ولاية الغرب ، وأنزل جيشاً إلى البر على غرة من المسلمين ؛ وحاصر النصارى فى الحال مدينة شِلْب ، وقطعوا عنها موارد الماء ، فاضطرت إلى التسليم ، وعقدت مع الملك سانشو دون علم الصليبيين عهداً بالخضوع ، بيد أن ذلك لم ينجها من مصيرها المروع ؛ ذلك أنه لم ينج من سكانها الستين ألفاً بينهم الحامية ، سوى ثلاثة عشر ألفاً ، وسبى الباقون أو قتلوا . وقسمت الغنائم وفقاً لاتفاق سابق بين الصليبيين ، ولكن المدينة ، كانت من نصيب الملك . واستقر كثير من الإنكليز فى شلب ، واختاروا قسا من قسس الأسطول ، من أهل فلاندر ، يدعى نقولاوس ، أسقفا للمدينة ، على أنه كان من الصعب على هؤلاء النزلاء الأجانب أن يألفوا الحياة بين السكان المسلمين ، مثل النصارى البرتغاليين والأسبان ؛ وقد ظهر ذلك فى كل مناسبة ، مثال ذلك أنهم حين وصولهم إلى مصب نهر التاجه ، حيث يقيم فى أشبونة كثير من اليهود والمسلمين ، تحت حماية النصارى ، ارتكبوا كثيراً من أعمال العنف والتعدى ضد اليهود والمسلمين .

ويبدو من المشكوك فيه ما إذا كانت شلب قد لبثت طويلا فى أيدى النصارى ؛ وتلزم معظم الروايات النصرانية الصمت إزاء استردادها السريع بواسطة الموحدين ، بل تزيد على ذلك أن المدينة استطاعت أن ترد جميع هجمات المسلمين بنجاح ، بواسطة شجاعة حاميتها ، والأمداد السريعة التى لقيتها من الملكين المتحالفين ، ملكا البرتغال وليون ، وكذلك بواسطة معاونة الأسطول الإنكليزى . أما المؤرخون المسلمون ، ومعهم ردريك الطليطلى ، فيقدمون رواية أخرى مفادها أن الموحدين جمعوا فى الحال قوات عظيمة ، وساروا بقيادة محمد والى قرطبة إلى شلب ، وفرضوا عليها الحصار الصارم ، ولبثوا على مهاجمتها بشدة بالليل والنهار حتى استولوا عليها ؛ وكذلك سقطت فى أيديهم القصر (قصر أبى دانس) ، وباجه ويابره ، وسبوا ثلاثة عشر ألف رجل ، وخمس عشرة ألف امرأة ، وضموا فى الأغلال كل خمسين فى سلسلة ، وسيقوا إلى

قرطبة ، وكان اختتام هذه الغزوة فى شهر شوال سنة ٥٨٧ هـ (نوفمبر سنة ١١٩١)[١] .

وهدأت الحرب فى الأندلس بضعة أعوام . ذلك أن سلطان الموحدين كان عليه أن يخمد ثورات جديدة فى إفريقية ، وقد أصابه المرض فى مراكش ، ولم يستطع أن يتولى أمر الحرب بنفسه . ووقع الخلاف بين الملوك الأسبان فى تلك الفترة ، فلم يكن من الميسور أن يفكر أحد فى القيام بغزوة مشتركة ضد المسلمين ، وشغلت البرتغال وليون بأمر قرار الحرمان البابوى ، كما شغلت أراجون ونافارا بالخلاف مع جيرانهما فى فرنسا ؛ وهكذا وقع عبء الحرب ضد المسلمين كله على عاتق قشتالة . ولكن الملك ألفونسو كان عندئذ أحرص من أن يثير المسلمين فيغريهم بالسير إلى الغزو . بيد أنه لما عين مارتن دى بسيرجا ، مطرانا لطليطلة عقب وفاة المطران جونزالو ، أخذ هذا الحبر المحارب المتحمس ، يعمل لإعداد حملة كبيرة ضد الأندلس . وفى العام التالى من ولايته ، سار على رأس جيش ضخم إلى ميدان الحرب مرة أخرى . وشجعه ضعف الحاميات الاسلامية على الحدود ، ونبأ مرض يعقوب المنصور ، فاخترق جبال الشارات (سييرا مورينا) ، وسار بحذاء نهر الوادى الكبير إلى أعماق الأندلس ؛ ودمر النصارى كل شىء بالنار والسيف ، فانتسفت الغلات والكروم ، وقطعت أشجار الزيتون ، وخربت الضياع والقرى ، وسيقت الماشية ، وسبى المسلمون العزل رجالا ونساء ، وقتل المسلحون منهم ؛ وهكذا كفر مسلمو الأندلس الأبرياء عن فظائع الموحدين ، ولم يسعفهم عون ولا نصح يردون به العدو عن هذه الفعال المنيفة . وزحفت قوى خفيفة من الفرسان النصارى حتى أحواز إشبيلية وإستجه ، وإلى أقصى جنوب الأندلس وهم يتابعون العيث والتخريب[٢] .

---

(١) راجع روض القرطاس ص ١٤٤ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٤ و ٢٤٥ ، والمراكشى ص ١٥٨ .

(٢) روض القرطاس ص ١٤٥ .

ولم يقنع ألفونسو الثالث ملك قشتالة بهذه الغزوة ، التى حمل منها المطران مارتن إلى طليطلة غنائم عظيمة ، فكتب إلى سلطان الموحدين خطاباً يدعوه إلى القتال هذا نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من ملك النصرانية إلى أمير الحنيفية ، أما بعد ، فإن كنت عجزت عن الحركة إلينا ، وتثاقلت عن الوصول والوفود علينا ، فوجه لى المراكب والشباطى أجوز فيها جيوشى إليك ، حتى أقاتلك فى أعز البلاد عليك ، فإن هزمتنى فهدية جاءتك إلى يدك ، فتكون ملك الدينين ، وإن كان الظهور لى كنت ملك الملتين ، والسلام »[1] .

فلما قرأ يعقوب المنصور هذا الخطاب أخذته غيرة الإسلام ، واشتد حنقه لغطرسة ملك النصارى ، فبادر بالتأهب للحرب فى الأندلس ؛ وأمر أن يذاع الخطاب فى جنود الموحدين ليثير غيرتهم ؛ وضج الجميع وصاحوا بطلب الانتقام ، وأجمعوا على المطالبة بالإسراع فى شهر الجهاد ؛ وأمر المنصور ولده ، وولى عهده السيد محمد ، بالرد على الخطاب ، فكتب فى الحال على ظهره الآية القرآنية الآتية : « قال الله العظيم ، ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون » . ووقع المنصور هذا الرد وأرسله إلى ملك النصارى ، وأمر بإخراج أفراق القبة الحمراء ، وسيفه الكبير ، إيذاناً بالدعوة العامة إلى الجهاد ؛ وأمر الجند الذين اجتمعوا من كل صوب بالسير توا إلى سبتة ، وإلى غيرها من أمكنة العبور إلى الأندلس . ودوت صيحة الجهاد فى جميع أنحاء المغرب من سلا حتى برقة ، ضد النصارى الذين غدوا خطراً على الإسلام . وفى نفس الوقت الذى سارت فيه سائر جند الغرب النصرانى إلى محاربة صلاح الدين واسترداد بيت المقدس ، هرع الرجال والشباب والشيوخ وسكان الهضاب والصحارى والشواطى

(١) هذا نص كتاب ملك النصارى كما ورد فى روض القرطاس (ص ١٤٥) ويورده المؤلف بنفس المعنى تقريبا مع خلاف يسير فى العبارة . ولكن ابن خلكان ينقل إلينا نصا آخر أكثر تفصيلا لكتاب ألفونسو إلى المنصور ، يتفق آخره فقط مع النص الذى ورد فى روض القرطاس ، غير أنه يبدو من ديباجة هذا الكتاب ومحتوياته أنه هو الذى وجهه ألفونسو السادس ملك قشتالة إلى يوسف بن تاشفين (راجع ابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٩ ، ٤٣٠) .

فى جميع أنحاء المغرب إلى ألوية القتال لافتتاح اسبانيا ؛ وأخذ الخطر الداهم ينذر الغرب ، فى الوقت الذى حاول النصارى فيه أن رفعوا الصليب فى المشرق .

وبعد أن سير يعقوب المنصور جميع قواته إلى اسبانيا ، عبر إلى الجزيرة الخضراء فى ٢٠ رجب سنة ٥٩١ هـ ، ولم يسترح بها إلا قليلا ، ثم بادر بالسير إلى قشتالة ، خشية من نفاد المؤن ، ولكى يستغل حماسة جنده وظمئهم إلى القتال .

وكانت خطة زعيم الموحدين ترمى أولا إلى اختراق قلب اسبانيا وافتتاح طليطلة ، ومتى ظفر ببغيته استطاع أن يحارب الممالك الأخرى بسرعة وسهولة . ولكنه لما علم بأن ملك قشتالة ، قد حشد قواه بين قرطبة وقلعة رباح على مقربة من قلعة الارك Alarcos اتجه بجيشه إلى ذلك المكان ، إذ كان يسعى إلى الاشتباك بعدوه . ولما وصل إلى قيد مسيرة يومين منه ، ضرب معسكره فى يوم الخميس الثالث من شعبان سنة ٥٩١ هـ (يوليه سنة ١١٩٥ م) ، وعقد مجلسا من القادة والأشياخ لبحث الخطط التى يجب اتباعها لخوض القتال .

ولما سمع رأى الجميع ، التفت إلى زعماء الأندلس ، وطلب رأى أبى عبد الله ابن صناديد ، وقد كان من أعقلهم وأخبرهم بمكائد الحروب . وكان يعقوب المنصور يفضل آراء الأندلسيين فى معرفة أفضل الخطط لمحاربة النصارى ، إذ أنهم يخوضون الحرب مع جيرانهم بلا انقطاع ، وهم لذلك أعرف الناس بطارق النصارى ومكائدهم ؛ وكان من رأى ابن صناديد أنه يجب أن توضع خطة موحدة منظمة لتسيير دفة الحرب ، إذ كان هذا التوحيد والنظام ينقصان الموحدين فى حروبهم السابقة ، ولا سيما فى موقعة شنترين ، وأنه يجب أن يختار أمير المؤمنين قائداً عاماً للجيش كله ؛ فوقع اختيار المنصور على كبير وزرائه ، الزعيم الأشهر أبى يحيى بن أبى حفص ، الذى امتاز بالفطنة وصفاء الذهن ، والشجاعة فى كثير من الحروب والوقائع .

كذلك يجب أن يتولى قيادة الأندلسيين زعماؤهم ، وهو ما لم يُتبع دائماً ، فكان يترتب على ذلك اضطراب الصفوف أثناء المواقع ، وكانت حماسة الأندلسيين تهبط حينما يتولى الأجانب قيادتهم . على أنهم مع ذلك كانوا يؤلفون قسما مستقلا

من الجيش ينضوى تحت لواء القائد العام أبى يحيى بن أبى حفص . ولما كان الأندلسيون والموحدون أو الجند المغاربة النظاميون يؤلفون قوة الجيش الرئيسية ، فقد نصح عبد الله بن صناديد بأن يتولى هؤلاء ، لقاء العدو ومواجهة هجومه الأول . وأما بقية الجيش ، وهى المؤلفة من قبائل البربر ، ومعظمهم من غير النظاميين ، وجمهرة كبيرة من المحاربين والمجاهدين ، فيجب أن تكون قوة احتياطية للموحدين والأندلسيين ، تقوم بالعون والإمداد ؛ أما يعقوب المنصور فيستطيع بحرسه الأبيض والأسود ، أن يرجح كفة الموقعة كلها ، ويجب أن يرابط بقوته وراء التلال على مسافة قريبة ، ثم ينقض فجأة بجنوده المتوثبين على الأعداء المتعبين ، ويبادر بحضوره إلى تدعيم النصر المكسوب . كل هذه الآراء أبداها الزعيم الأندلسى ، وأعجب المنصور بهذه الخطة ، فوافق عليها وأمر بتنفيذها[1] .

وفى تلك الأثناء كان ألفونسو ملك قشتالة يجد فى الأهبة ؛ وقد استطاع أن يقوم بالنسبة إلى مملكته الصغيرة بحشد قوات هائلة ، وقدم إليه فرسان قلعة رباح وفرسان الداوية ، وفروسية قشتالة بأسرها وكذلك الأجناد أعظم المساعدات الممكنة . فاذا صح ما يقال من أنه استطاع أن يحشد أكثر من مائة ألف مقاتل (والرواية العربية تقدر جيشه بثلاثمائة ألف) ، فان هذه القوة لم تكن إزاء قوى أعدائه التى لا تحصى ، لتكفى لإحراز النصر عليهم . وقد رأى إزاء هذا الخطر الذى يهدد جميع الممالك النصرانية ، أن يطالب إلى قريبيه ملكى ليون ونافارا ، تناسى الخصومات التى فرقت بينهم من قبل ، وأن يضما قواهما إلى قوته ليلاقى الجميع أعداء دينهم مجتمعين ، فوعدا بالعون والسير إليه بدفعهما فيما يبدو تحريض الأجناد والشعب أكثر مما تدفعهما الرغبة الخالصة ؛ وجمعا الجند ، وتوليا القيادة بنفسيهما ولكنهما تحركا فى كثير من البطء ، حتى أن ملك قشتالة أخذ يشك بحق فى صدق نيتهما ، وكاد يعتقد أنهما يضمران من العدوان ضد قشتالة ، أكثر مما يحفزهما من رغبة فى محاربة المسلمين . ورأى إزاء هذا الريب ، أن أفضل ما يجب

---

(١) راجع روض القرطاس (ص ١٤٧) حيث يورد هذه الأخبار بالتفصيل .

عمله هو أن يترك أساليب الأسبان القديمة فى الحرب ، وهى تقضى بتجنب الاشتباك فى الواقع والامتناع بالقلاع ، حتى ترغم قوى المسلمين الجرارة على الانسحاب ، إما لنفاد المؤن أو تفشى الأمراض ، أو حلول الشتاء . ولكن ألفونسو رأى ، وهو سيد جيش ضخم ، حسن الأهبة ، أنه من العار أن ينسحب أمام العدو ، خصوصاً وقد كان يؤمل أنه يستطيع بمفرده أن يحرز نصراً باهراً على جيوش إفريقية التى لا تحصى .

وفى ١٩ يوليه سنة ١١٩٥ ، الموافق ٩ شعبان سنة ٥٩١ ، كانت موقعة الأرك الشهيرة . وفى صباح هذا اليوم ، أذاع يعقوب ، بين سائر الجند ، لكى يذكى حماستهم للقتال ، خبر حلم رآه فى الليلة السابقة ، مفاده أنه رأى فى منامه فارساً نبيل الطلعة ، على فرس أبيض يخرج من باب فتح فى السماء ، وبيده راية خضراء قد انتشرت فى الآفاق ، يقول له إنه من ملائكة السماء السابعة ، وإنه جاء ليبشره بالنصر بحول الله[1] ، وقد نُظّم جيش الموحدين ، الذى تقدره بعض الروايات بستمائة ألف مقاتل ، والذى كان يضم ضمن وحداته قوى ثلاثين من الولاة على النحو الآتى : احتل الموحدون ، أو القوات النظامية القلب ، واحتل الجناح الأيسر الجندُ العرب أو أعقاب فاتحى المغرب المسلمين ، ومعهم زناتة وبعض القبائل البربرية الأخرى ، تحت ألويتهم الخاصة ؛ واحتل الجناح الأيمن قوى الأندلس بقيادة عبد الله بن صناديد .

وتولى يعقوب المنصور قيادة القوة الاحتياطية مكونة من صفوة الجند والحرس الملكى . ودُفعت صفوف المتطوعين ، ومعظمها مكون من الجنود الخفيفة ، ولا سيما حملة النبال ، تحت أعلامها الخضراء ، وهو لون الموحدين إلى المقدمة ، لتفتتح الموقعة ، وهم جميعاً يضطرمون شوقاً إلى الفوز بتاج الاستشهاد .

وكذلك نظم ملك قشتالة ، فى تلك الأثناء ، جنده المترتبة إلى القتال ؛ وكانت قلعة الأرك تحمى موقعه من جانب ، وتحميه من الجانب الآخر بعض التلال ، ولا

---

(١) روض القرطاس ص ١٤٧ .

يمكن الوصول إليه إلا بواسطة طرق ضيقة وعرة . وكان الجيش القشتالى يحتل موقعاً عالياً ، وكانت هذه ميزة له فى بدء القتال .

ولما تقدمت صفوف المسلمين الهاجمة ، إلى سفح التل الذى يحتله ملك قشتالة ، واندفعت إليه تحاول اقتحامه على أثر كلمات قائدها الملتهبة ، انقض زهاء سبعة أو ثمانية آلاف من الفرسان القشتاليين المثقلين بالدروع ، على المسلمين كالسيل الجارف المندفع من عل ؛ ورد المسلمون هجمات القشتاليين مرتين ، ولكن العرب والبربر استنفدوا جميع قواهم لرد هذا الهجوم العنيف . فلما عززت صفوف القشتاليين بقوى جديدة ، هجموا للمرة الثالثة ، وضاعفوا جهودهم ، واقتحموا صفوف العدو ، وفرقوها ، وقتلوا قسماً منها ، وأرغم الباقون على الفرار ، ولقى آلاف من المسلمين مصرعهم فى تلك الصدمة ، ومنهم القائد العام أبو يحيى ابن أبى حفص ، الذى سقط وهو يقاتل منتهى البسالة ، واعتقد النصارى أن النصر قد لاح لهم ، بعد أن حطموا قلب جيش الموحدين ؛ ولكن الأندلسيين وبعض بطون زناتة ، وهم الذين يكونون الجناح الأيمن ، هجموا عندئذ بقيادة أبى عبد الله بن صناديد ، على قلب الجيش النصرانى ، وقد أضعفه تقدم الفرسان القشتاليين ، وكان يتولى قيادته ملك قشتالة نفسه ، يحيط به عشرة آلاف فارس فقط ، منهم فرسان الداوية وفرسان قلعة رباح ؛ فلقى الأعداء ، وهم أضعاف قوته دون وجل ؛ ونشبت بين الفريقين معركة حامية طويلة ؛ واستبدل النصارى النقص فى العدد بالإقدام والشجاعة ، حتى أنه لما زحف زعيم الموحدين فى حرسه ، ورد تقدم الفرسان القشتاليين ، واضطرهم إلى الفرار فى غير انتظام ، لم يغادر ألفونسو وفرسانه العشرة آلاف مكانهم فى القلب ؛ ذلك لأنهم أقسموا جميعاً فى الصباح عند الصلاة ، بأن يموتوا ولا يتقهقروا . واستمرت المعركة على اضطرامها المروع ، والفريقان يقتتلان تحت سحب كثيفة من الغبار ، وأرجاء المكان تدوى بوقع حوافر الخيل ، وقرع الطبول ، وأصوات الأبواق ، وصلصلة السلاح ، وصياح الجند ، وأنين الجرحى . ومع أن الموحدين كانوا يتقدمون فوق أكداس من جثث

جندهم ، فإنهم أيقنوا بالنصر ، حينما انحصرت المقاومة فى فلول من النصارى التفت حول ملك قشتالة ؛ وهجم أمير المؤمنين فى مقدمة جيشه ، لكى يجهز على هذه البقية أو يلجئها إلى الفرار ، فنفذ إلى قلب الفرسان النصارى ، والعلم الأبيض المقدس يخفق أمامه منقوشاً عليه « لا إلـه إلا الله ، محمد رسول الله ، لا غالب إلا الله » . ولم يشأ ألفونسو ، بالرغم من اشتداد ضغط العدو عليه من كل صوب ومواجهته لخطر الهلاك والسحق ، أن ينقذ نفسه بالفرار ، وأن يحتمل عار الهزيمة ؛ وتساقط معظم الفرسان النصارى حول ملكهم مخلصين لعهدهم ، ولكن بقية قليلة منهم استطاعت أن تنجو ، وأن تقتاد الملك بعيداً عن الميدان ، وأن تنقذ بذلك حياته .

وهكذا انتهى يوم الأرك الدامى بهزيمة النصارى على هذا النحو المروع . وسقط منهم فى القتال ثلاثون ألف قتيل ، بينهم زهرة الفروسية الأسبانية ؛ واستولى المسلمون على معسكرهم بجميع ما فيه من المتاع والمال ، واقتحموا عقب الموقعة حصن الأرك وقلعة رباح القريبتين ؛ ومما زاد فى ألم الأسبان أن هذه الهزيمة لم تلحق بهم دون معاونة بعض النصارى الفارين الذين كانوا يرافقون زعيم الموحدين ويمدونه بالنصح ؛ وكان فى مقدمة هؤلاء الكونت بيدرو فرناندز دى كاسترو ، المبعد من قشتالة ، فقد أبدى نشاطاً خاصاً فى المعاونة على سحق وطنه[1] .

وسرعان ما رفع انتصار الأرك شهرة الموحدين الحربية فى كل مكان ؛ وأمر يعقوب المنصور بإذاعة النبأ من منابر المساجد فى جميع أنحاء مملكته الشاسعة ؛ وخصص خمس الغنائم بعد أن وزع باقيها على الجند لبناء مسجد فخم فى إشبيلية

---

(١) يتبع المؤلف فى معظم التفاصيل التى يوردها عن موقعة الأرك ، رواية صاحب روض القرطاس (ص ١٤٥ وما بعدها) . وراجع أيضاً فى تفاصيل هذه الموقعة ، ابن خلكان ج ٢ ص ٤٣٠ ، والمراكشى ص ١٦٠ ، ويسمى مكان الموقعة بفحص الحديد ؛ وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ ، وابن الأثير ج ١٢ ص ٤٤ و ٤٥ .

اشتهرت منارته بارتفاعها البالغ[١] وبناء حصن كبير فى مراكش لتخليد ذكرى الوقعة .

ومما يذكرهنا بالثناء لزعيم الموحدين ، أنه لم يُشِن صفحة نصره بالالتجاء إلى قسوة لا مبرر لها ، فى معاملة الأسرى والعزل . فقد أسر المسلمون فى موقعة الأرك عشرين ألفاً ، ولم يشأ المنصور جريا على سنن الحرب المتبعة يومئذ أن يقتلهم أو يرسلهم عبيداً إلى إفريقية بل آثر أن يمنحهم جميعاً الحرية دون افتداء ؛ وقد ساء وقع هذا الجود لدى الموحدين ، واعتبروه من بعض جوانب فروسته الضعيفة ؛ وتقول الرواية العربية إنه ندم على تصرفه فيما بعد[٢] .

ولم يبلغ سلطان الموحدين قط ما بلغه عقب موقعة الأرك . وقد اجتمعت عوامل عدة لتحدث هذه النتيجة . ولم يكن ينقص الممالك النصرانية الخمسة الاتحاد فقط ، بل إن قشتالة التى كاد أن يقضى عليها الموحدون ، غدت فريسة حرب شهرتها عليها ليون ونافارا . وكانت هاتان الدولتان تقومان فى الواقع عندئذ بمفاوضات سرية لعقد تحالف مع الموحدين . وكانت أراجون قد أدركها الوهن عقب وفاة ملكها ألفونسو الثانى ، وفرقتها الحروب الأهلية . أما البرتغال فلم تكن تستطيع دون معاونة خارجية أن تقوم بمشروع ما ، وإن كان مما يجب ذكره أنها كانت مع ذلك أشد الدول النصرانية وطأة فى محاربة المسلمين .

ورأى يعقوب المنصور أن ينتهز فرصة هذه الظروف السانحة ، فقام فى أوائل سنة ١١٩٦ م (٥٩٢ هـ) بغزوة جديدة فى قلب الأراضى النصرانية . واخترق ولاية استرامادوره ، وعبر النهر الكبير (الوادى الكبير) فى اتجاه نهر التاجه ، وبعد أن استولى على عدة حصون وقلاع مثل ترجاله ، وعسقلونة ، ولاليا ، وامتنع

(١) حول هذا المسجد الشهير إلى كنيسة جامعة بعد استيلاء النصارى على إشبيلية (سنة ١٢٤٨ م) وحولت منارته إلى برج للناقوس ، وهى لا تزال قائمة إلى يومنا ، وتعرف ببرج الجيرالدا La Giralda ، وارتفاعها يبلغ نحو مائة متر ، وتعتبر من أبدع قطع الفن المختلط ، المغربى النصرانى .

(٢) هذه رواية صاحب روض القرطاس (ص ١٥٢) .

عليه البعض الآخر مثل طلبيره ومجوبده ، ظهر أمام أبواب طليطلة عاصمة قشتالة ؛ وكان ألفونسو ملك قشتالة ، قد امتنع مع جيشه الصغير بعاصمته ولم يجرؤ أن يحارب العدو فى الميدان المكشوف نظراً لانكسار أنفس جنده وقلة عددهم . بيد أنه كان معتزماً أن يدافع عن طليطلة عاصمة اسبانيا النصرانية حتى النفس الأخير ، وأن يلقى الموت قبل أن يخضع للعدو . ولما رأى المنصور بعد أن حاصرها عشرة أيام أن جميع محاولاته لاقتحام هذا المعقل المنيع لم تسفر عن النجاح ، ارتد عن أسوار طليطلة إلى مدينة طلمنكة ، واقتحمها ، وقتل كل جنودها ، وسبى النساء والأطفال ، وقسم كل الغنائم بين جنده ، وأحرق المدينة وهدم حصونها ؛ وفعل مثل ذلك بوادى الحجارة وعدة أماكن أخرى . ولكن مجريط والقلعة امتنعتا عليه ولم يوفق إلى فتحهما .

ولما كان سكان السهول قد لجأوا إلى القلاع ، وانتسفت الزروع عقب موقعة الأرك ، فسرعان ما نقصت المؤن فى جيش الموحدين ، ثم دب إليهم المرض ، وكثر الموت بينهم ، فاضطروا عندئذ إلى الانسحاب ، بعد أن وصل يعقوب المنصور إلى مقربة من ضفاف دويره ، الذى لم يقترب من ضفافه منذ مدة طويلة أى جيش إسلامى . وعاث الموحدون عند عودهم فى الأراضى النصرانية أيما عيث ؛ فلم تطأ أقدامهم مكاناً إلا تركوه أطلالا دارسة كأنما كانوا يشعرون أن هذه آخر حملة إسلامية تهيأ لاحتلال طليطلة ، وتجوز جبال وادى الرملة[1] ، وإذا صدقنا الرواية العربية فان يعقوب المنصور عاد بطريق البلاط وترجاله[2] ، أعنى خلال استرامادوره إلى إشبيلية ؛ ولكن الرواية النصرانية تقول إنه عاد عن طريق اقليش ، وقونقة ، ومرسية إلى الأندلس . والظاهر أن جيش الموحدين انقسم إلى قسمين ، سلك أحدهما هذا الطريق ، وسلك الآخر ذاك . وقد استطاع يعقوب المنصور أن يعرف من تجارب هذه الحملة ، أنه أيسر عليه أن ينتصر فى موقعة ، أو يتوغل فى

---

(١) هى بالأفرنجية Guadarrama

(٢) راجع روض القرطاس ص ١٥١ .

أراضي العدو ، من أن ينتزع قلعة أحسن تحصينها ، وأنه أيسر عليه أن يفتتح اسبانيا على يد النصارى أنفسهم . وكان ملكا نافارا وليون قد عقدا معه حلفا ؛ واعتقد ملك ليون أنه يستطيع بمعاونة المسلمين أن يقوم بفتوحات في قشتالة ؛ ولكن ألفونسو النبيل (ملك قشتالة) عمد إلى مقاومة هذا المسعى فعقد في سنة ١١٩٦ م (٥٩٢ هـ) الهدنة مع الموحدين ، وذلك لكي يستطيع التغلب على عدوه ؛ ورحب المنصور بعقد هذه الهدنة لأن ثورات جديدة قامت في إفريقية ، كانت تستدعي عوده إلى مراكش . كذلك عني المنصور بأن يضمن لولده السيد محمد أبي عبد الله ولاية عهده ؛ فلما انتهى من إخماد الفتن ورد السكينة إلى نصابها استطاع دون مشقة أن يحمل جميع الولاة والقادة على الاعتراف بولاية عهد الأمير محمد ؛ وأشرك ولده معه في الحكم من ذلك التاريخ ، وذُكر اسمه في الخطبة إلى جانب اسم أمير المؤمنين . ولم تمض على ذلك قليل حتى مرض المنصور ، وتوفي بقصره في مراكش في الأربعين من عمره وذلك في الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ (٢١ يناير سنة ١١٩٩) بعد أن حكم خمسة عشر عاماً[١] .

وكان يعقوب المنصور من أعظم ملوك الموحدين وأبرعهم وأرفعهم خلالا ؛ وقد سما بصولة الموحدين إلى ذروتها ؛ ولم يشد أمير من أسرته مثل ما شاد من المساجد والأبنية الفخمة ؛ وكان رفيع الخلق ، قلما يعرف الثأر وكثيراً ما يؤثر الصفح ، وهي فضيلة يندر وجودها في النفوس المغربية الجائشة . وكان كثير الحب للعلماء يثيب علمهم وفضلهم بأكرم ما يهب الملوك . وكان يبدي في اختيار وزرائه ذكاء وبعد نظر ، وينتخب أكفأ الأشخاص لجميع فروع الادارة . وكان على صلات وثيقة مع معظم ملوك المسلمين في عصره ؛ وقد أرسل السلطان الكبير صلاح الدين ، الذي استرد بيت المقدس من الصليبيين ، إليه رسوله ، ليعقد معه

---

(١) ينقل ابن خلكان رواية غريبة عن مصير يعقوب المنصور خلاصتها أنه تنازل في أواخر حياته عن الملك ، وتزهد وساح في الأرض ومات بالمشرق مستخفيا خاملا ، وأنه كان في عصر ابن خلكان بموضع قريب من بلدة المجدل بالشأم قبر تعرفه الناس بقبر الأمير يعقوب ملك المغرب (ج ٢ ص ٤٣١) .

حلفا ضد ملوك أوربا ، الذين كانوا يهددون المشرق يومئذ بحروبهم . ولكن صلاح الدين لم يلقب سلطان الموحدين فى خطابه بأمير المؤمنين ، ولهذا لم تتم المحالفة وإن كان الرسول قد استقبل بإكرام وحفاوة[1] ووصله سلطان الموحدين من أجل قصيدة صغيرة من أربعين بيتاً نظمها فى مديحه بهبة قدرها أربعون ألف دينار ، هى كما قال المنصور رمز التقدير لعلمه وبراعته فى النظم .

---

(١) هذه رواية ابن خلكان ؛ والرسول المشار إليه هنا هو طبقا لهذه الرواية ؛ شمس الدولة أبو الحرث بن عبد الرحمن بن نجم الدولة (راجع ج ٢ ص ٤٣٢) .

الكتاب الخامس

اضمحلال سيادة الموحدين
وازدياد تفوق قشتالة وأراجون
في النصف الأول من القرن الثالث عشر

الفصل الأول

حال اسبانيا بعد موقعة الأرك
حتى موقعة تولوزا أو موقعة العقاب

على أثر هزيمة « الأرك » تحرج مركز النصارى فى شبه الجزيرة ، واشتد الخطر عليهم بصورة لم يعرفوها منذ بعيد ؛ ولم يكفهم أن أعداء الصليب ضربوا معسكرهم أمام عاصمة اسبانيا النصرانية ؛ ولكن الخصومات والحروب الطاحنة كانت تمزق الملوك النصارى ، وتحول دون كل اتحاد لمواجهة الخطر المشترك ، ولم ينقذ اسبانيا النصرانية يومئذ من الهلاك سوى إسراع زعيم الموحدين يعقوب المنصور بالعود إلى المغرب ، ثم موته الفجائى ، الذى قضى على خطط الموحدين الكبرى فى الفتح .

وكان من المحقق يومئذ أن شبه الجزيرة ستنضوى كلها تحت سلطان الموحدين لو أن محمداً خليفة يعقوب ، مضى فى الحرب بمثل ما كان عليه أبوه من الذكاء والقوة والقدرة على انتهاز الفرص . ذلك أن اسبانيا النصرانية لم تكن يومئذ سوى مزيج مضطرب من العناصر المتخاصمة . ولو أن أميراً فطناً من أمراء الموحدين ، سار على مبادىء السياسة التى اتبعت فيا بعد ، فى استغلال منازعات الملوك النصارى ، والتوسل بمحالفة الضعفاء منهم إلى التدخل فى الشؤون الداخلية ، لاستطاع المسلمون أن يخضعوا اسبانيا كلها فى جيل واحد . ومن المرجح أن يعقوب المنصور ، وهو الذى استن هذه السياسة ، كان بوسعه أن

يحقق هذه الغاية لو طال أمد حكمه ، وقد اتخذ بالفعل فى هذه السبيل خطوات ناجحة ؛ وبالرغم مما بذله ألفونسو الثانى ملك أراجون ، والبابا سلستان الثانى من مختلف الجهود للتوفيق بين الأمراء الأسبان ، وجمع كلمتهم ، فإن هذه الجهود لم تسفر عن نتيجة ؛ وكانت الخصومة على أشدها بين الملكين القريبين ، أعنى ملكى قشتالة وليون ؛ وكان ألفونسو النبيل ، المهزوم فى موقعة الأرك ، ينسب هزيمته إلى تقاعد الجيش الليونى عن إمداده ، ولم يسعه فى أول لقاء وقع بينه وبين ابن عمه إلا أن ينحى عليه بأشد اللوم ؛ وترتب على ذلك أن قامت بينهما خصومات انتهت بالحرب الصراح ؛ وهكذا ، بينما كان الموحدون يثخنون بجيوشهم فى جنوبى قشتالة ، إذ غزا حليفاهم ملكا قشتالة وليون شمالى قشتالة ، واستوليا على بعض البقاع والأماكن التى لم تدعم حمايتها . وما كاد ألفونسو النبيل ملك قشتالة ينجو من خطر المسلمين الداهم ، على أثر الهدنة التى عقدها مع يعقوب المنصور ، حتى عقد مع ملك أراجون الجديد ، بيدرو الثانى حلفاً وثيقاً ، وشهر الحرب على ليون ونافارا فى وقت واحد ؛ فارتاعت المملكتان لهذا الخطر الفجائى وحاولتا أن تحصلا على عون من الموحدين ؛ ومع أن البابا سلستان ، أنذر بعقوبة « الحرمان » الدينى ، كل أمير اسبانى يتحالف مع أعداء النصرانية ، فإن سانشو ملك نافارا ، لم يجد سبيلاً غيرهذا التحالف للدفاع عن مملكته ضد جاره القوى .

وانقض ألفونسو ملك قشتالة بجميع قواته على ليون ؛ وكان ملكها قد استقدم لمعاونته قوة من المسلمين ، ليتمكن بمؤازرتها من أن يسير إلى قلب قشتالة . ولكن القشتاليين استطاعوا بمعاونة الأرجونيين أن يخترقوا ليون مرتين ، وعاثوا فى أراضيها أيما عيث ، فانتسفوا كل شىء فى طريقهم حتى أشرفوا على عاصمة ليون ؛ وكأنما أرادوا بذلك التخريب ، أن ينتقموا من جيرانهم النصارى ، لما يوقعه المسلمون من التخريب فى قشتالة ؛ بيد أن أسوار ليون المنيعة وقفت فى وجههم سداً ووضعت حداً لتقدمهم ، ولكنهم انتسفوا ضاحيتها والحى المسمى « ببرج اليهود » ؛ كذلك لم يستطع القشتاليون افتتاح استرقة ،

ولكنهم خربوا الأراضي المجاورة لها أيما تخريب .

ولما تأهبت قشتالة وأراجون معاً للقيام بغزوة جديدة ، تدخل الأحبار والفرسان ، لعقد الصلح بين قشتالة وليون ، حتى لا تبدد قوى اسبانيا جميعها في حروب أهلية . وكان ألفونسو التاسع ملك ليون ، قد طلق في النهاية زوجه الأميرة البرتغالية تيريزا ، نزولا على إرادة البابا (سنة ١١٩٥ م) ، بيد أنه لم يحسب كبير حساب لقرار الحرمان البابوى ، واعتزم مرة أخرى أن يتزوج من قريبته الأميرة القشتالية برنجاريا ابنة ألفونسو النبيل ، وذلك لكى يحقق لمملكته سلاماً دائماً ؛ وارتضى ملك قشتالة أن يقدم لابنته جميع الأماكن المتنازع عليها بين ليون وقشتالة ، والتى افتتحت فى الحرب الأخيرة مهراً لها ؛ وهكذا لاح أن بواعث الخصومة قد أزيلت لمدى بعيد ، وساد الوئام بين الأسرتين المالكتين المرتبطتين بأواصر القربى ؛ ولم يعن يومئذ أحد بأمر البابا أو الحرمان الكنسى ، ووافق رجال الدين الأسبان على هذا الزواج ، لما فيه من تحقيق خير المملكتين النصرانيتين ، وتم الزواج فى بلد الوليد فى حفلات باذخة فى سنة ١١٩٧ م .

ولما كان هذا الزواج قد تم دون الحصول على إذن البابا ، فقد أعلن سلستان الثالث بطلانه ؛ وأرسل إلى اسبانيا الكردينال جيدو دى سانت أنجلو ، مزوداً بأمر إلغائه ، وأن يقوم فى حالة عدم الاذعان لأمر البابا ، باصدار قرار التحريم ضد الملكين وضد أراضيهما . ولكن ملك ليون كان يشغف جداً بزوجته وكان يؤيده رجال الدين والفرسان ، ولذا لم يعبأ بوعيد البابا ؛ أما ملك قشتالة الذى عقد الصلح مع ليون وسلم إليها الحصون المفتوحة رغم إرادته ، فقد صرح أنه على استعداد لاسترداد ابنته ، على أن يُرد معها مهرها .

ومع أنه كان من الواضح ، أن إلغاء هذا الزواج لابد أن يترتب عليه اضطراب عظيم ، فان إصرار ملك ليون على الاحتفاظ بزوجه الأميرة القشتالية ، لم يلبث أن أسفر عن صدور قرار الحرمان الكنسى ضد ملك ليون وملكتها وضد أساقفة شلمنقة وسمورة ، واسترقة وليون ، وضد مملكة ليون كلها ؛

وذلك حتى يقرر الملك انفصاله عن قريبته .

ولما تولى أنوسان الثالث كرسى البابوية بعد ذلك بقليل ، حاول مرة أخرى بالرسائل والرسل ، أن يحمل الملكين على الخضوع لأوامر الكنيسة ؛ فلما لم تثمر مساعيه ، ولما اضطر أسقف أوفيدو الذى أبدى طاعته للكرسى الرسولى أن يفر اجتناباً لنقمة الملك ، كرر البابا أنوسان قرار الحرمان على يد الراهب رينر ؛ ولم يجد الرسول الذى أرسله الملك إلى رومة — ليشرح لأولى الأمر ما يترتب على إلغاء الزواج من المضار — من يصغى إليه

فهل كان ثمة أدعى يومئذ إلى اضطراب اسبانيا من تلك الحال ؟ فى كل آونة كانت جموع عديدة من المسلمين تنفذ إلى أراضى النصارى ، لأن الهدنة المعقودة انقضى أجلها ، وكانت قشتالة وليون اللتان اتحدتا فى الظاهر ، تضطرم كل منهما نحو الأخرى بغضاً وحقداً ، ولم تتفقا إلا على أمر واحد ، هو محاربة البرتغال ، بالرغم من المعاهدات المعقودة ؛ وإعداد جيوشهما للانقضاض عليها . وكانت ليون تعانى أشنع ضروب الاضطراب ، ذلك لأن الأحبار حتى الذين يناصرون البابا منهم ، كانوا يشكون من أن قرار الحرمان لا يترتب عليه سوى بث الكفر والرذيلة ، وأنه متى أبطلت الشعائر والوعظ ، خبت حماسة الشعب ضد المسلمين ؛ وأن رجال الدين يفقدون مكانتهم ، إذا لم يزاولوا مهمتهم فى خدمة الدين ، واستنزال البركات على الناس . أما فى أراجون فقد كان الملك بيدرو الثانى فى حرب مستمرة مع الأمراء التابعين له ، وكان هؤلاء يحارب بعضهم بعضاً ؛ وأذكى هذه الفوضى ، ما عمد إليه سانشو السابع ملك نافارا من عقد الحلف الصريح مع الموحدين بالرغم من نهى البابا ووعيده ، ذلك لأنه رأى فى هذا التحالف سبيله الوحيدة للتمكن من مقاومة ملكى قشتالة وأراجون المتحدين ضده ؛ بيد أنه ما كاد يذاع أمر هذا التحالف ، حتى رأى الملكان الخصيمان من حقهما أن يغزوا نافارا ، وأن يقتسما أراضيها فيما بينهما .

وكان سانشو السابع منذ ولى العرش فى سنة ١١٩٤ م يفكر فى التحالف

مع الموحدين ليقاوم تفوق جاره المطرد . وكانت نافارا لا تزال يومئذ تملك ولايات البشكنس ؛ ولكنها كانت صغيرة الحجم بالنسبة لضخامة قشتالة وأراجون ، وما يملكان من الأراضي المجاورة ؛ ولم يوفق سانشو السادس إلى رد جاريه القويين عن غزو مملكته إلا نظراً لطبيعة أراضيه التي تتخللها جبال وعرة ومفاوز ضيقة ، ونظراً لتعلق الشعب النافاري بأسرته الملكية ؛ فاذا طرحت الاعتبارات الدينية جانباً فقد كانت مبادئ السياسة الحكيمة تملي بأن الحلف بين الموحدين والنافاريين أمر طبيعي .

وكان سانشو ملك نافارا قد بدأ — عقب موقعة الأرك — عدوانه ضد قشتالة ، وتحالف مع ملك ليون على محاربة ألفونسو النبيل ؛ ومن المرجح أن الموحدين هم الذين دفعوا النافاريين يومئذ إلى القيام بهذا العدوان ضد قشتالة ؛ ولقد حاول ملك قشتالة — في لقاء وقع بينه وبين الملك سانشو في طركونة وشهده ملك أراجون — أن يقنعه بوجوب التعاون فيما بينهما على محاربة أعداء النصرانية ، وأن يحمله على الوقوف معه ضد ليون . ولكن لاح يومئذ لملك نافارا أن الظروف سانحة ليعمل على سحق تفوق جاره ، وكانت عروض الموحدين مغرية ، فلم يحجم عن التحالف معهم ، ولم يحفل ببواعث الدين أو الشرف ، أو يعبأ بوعيد البابا أنوسان الثالث .

وبينما كانت قشتالة تتلقى هجمات الموحدين والليونيين في نفس الوقت ، وبينما كانت أراجون في عهد ملكها الفتى بيدرو الثاني الذي خلف ألفونسو الثاني عزقها الخلاف ، وتطاول الأمراء الأقوياء التابعين للعرش ، كان ملك نافارا يؤمل أن يغدو سيد اسبانيا النصرانية بمعاونة الموحدين . وكان يعقوب المنصور الظافر في موقعة الأرك قد وعده بأن يزوجه ابنته ، وأن يجعل مهرها الأراضي النصرانية ، بل كانت الأندلس فوق ذلك مطمح أنظاره ؛ نعم كان على سانشو أن يعترف بسيادة سلطان الموحدين ، ولكن كان من حقه أن يزاول سلطته الملوكية دون منازع في الأراضي التي يحكمها . أما كون المنصور

قد اشترط على سانشو فى هذه المعاهدة أن يعتنق الإسلام فسألة لا يمكن القطع بصحتها [١] .

وأراد سانشو أن يخفى خططه وألا يفضحها قبل الأوان ، فأرسل أسقف بنبلونه إلى رومة ، ليؤكد للبابا سلستان الثالث أنه أبعد ما يكون عن فكرة التحالف مع المسلمين ؛ وهذا فى الوقت الذى أعد فيه كل شىء لعقد هذا التحالف مع الموحدين . وما كاد أسقف بنبلونه يعود من رومة ، وتهدأ الاشاعات المتعلقة بالتحالف مع المسلمين ، حتى عهد سانشو بحكم المملكة إلى بعض الأكابر الأكفاء وعهد بالدفاع عن حصونه المشحونة بالميرة إلى أقدر وأخلص القوامس ؛ وسار فى قوة كبيرة من الفرسان إلى زيارة سلطان الموحدين لكى يتم المفاوضات معه ، ويعقد قرانه على ابنة يعقوب المنصور .

ولما كانت الروايات الأسبانية النصرانية ، تلتزم الصمت إزاء هذا التحول من جانب ملك نافارا إلى أعداء دينه ، وذلك فيما عدا ردريك الطليطلى الذى يشير إليها فى عبارة موجزة ، فليس أمامنا سوى الاعتماد على الروايات العربية ، ورواية روجر دى هوفدن الانكليزية ، وكلتاهما تناقض الأخرى فى جميع تفاصيلها . ومن الواضح أن الروايات العربية تخلط بين سفارة يوحنا ملك إنكلترا [٢] إلى سلطان الموحدين محمد ولد يعقوب المنصور وخلفه ، وبين رحلة سانشو ملك نافارا . إذ تضع تاريخ هذه الرحلة فى سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م) . وذلك حينما قدم أمير المؤمنين من المغرب إلى إشبيلية ليتابع الحرب فى اسبانيا . كذلك تشير الرواية

---

(١) هذا ما تقوله الروايات النصرانية دون غيرها ؛ ولم نجد لهذه الرواية أثراً فى المصادر الاسلامية ، وقد يكون المنصور ارتضى أن يعقد حلفاً مع ملك نافارا ، ولكنا نشك كل الشك فى كونه ارتضى أن يزوجه ابنته ، خصوصا لما هو مأثور عن الموحدين من شدة التمسك بالعقيدة ، وعدم التسامح ، وفى حالة واحدة فقط يمكن أن تتصور صحة هذه الرواية ، وهو أن اعتناق ملك نافارا للاسلام كان شرطا جوهريا لتزويجه من أميرة موحدية .

(٢) يوحنا John ملك إنكلترا المشار إليه هنا هو أصغر أبناء هنرى الثانى ، حكم بعد موت أخيه رتشارد الملقب بقلب الأسد من سنة ١١٩٩ إلى سنة ١٢١٦ م . ولم نجد فى سيرته ما يفيد أنه أوفد سفارة إلى ملك الموحدين .

العربية إلى سانشو فقط باسم ملك بيونة . ولكن من الواضح أن القصة التى يوردها المؤرخون المسلمون ، تدل فى مجموعها على أنها تتعلق بسانشو السابع ملك نافارا . وتصف الرواية العربية رحلة سانشو إلى بلاط سلطان الموحدين على النحو الآتى : « ما كاد ملك بيونة يسمع بمقدم أمير المؤمنين إلى إشبيلية حتى أرسل يستأذنه فى زيارته فأذن له . وقد استقبل الامين مع زوجه ، ووزرائه وحشمه ، وحاشيته المديدة ، أينما حل على طول الطريق من حدود النصارى حتى قرمونة ، غنتهى الإكرام ؛ وفى قرمونة احتجز منه ألف فارس ، ولم يترك له سوى ألف أخرى كحاشية له . وأمر سلطان الموحدين فاصطف الجند صفان من قرمونة إلى إشبيلية ، وهم فى أحسن الثياب ، وقد رفعوا حرابهم وسيوفهم ، ومر من بينها ملك نافارا ؛ واستقبله أمير المؤمنين عند باب إشبيلية فى خيمة فخمة ؛ ورأى محمد لكى يجمع بين المجاملة وبين الاحتفاظ بعزته ، أن يرتب دخوله إلى الخيمة من جانب ، فى نفس الوقت الذى يدخلها فيه ملك النصارى من الجانب الآخر ؛ وقاد الملكين إلى الأريكة معا شيخ من أشياخ الأندلس يعرف الأسبانية ؛ وبعد المحادثة الأولى التى تولى فيها الزعيم الأندلسى الترجمة ، سار محمد إلى إشبيلية على رأس حرسه فى موكب فخم ؛ وقدم الملك النصرانى هدية إلى سلطان الموحدين ، هى مصحف قديم يتوارثه آباؤه ، وكان موضوعاً فى صندوق من الذهب مضمخ بالمسك ، وغطاؤه من حرير أخضر ، مرصع بالذهب ، والأحجار الكريمة من الزمرد والياقوت وغيرها . وبعد أن استبقى محمد ضيفه مدى حين فى إشبيلية معززاً مكرماً ، وغمره بجزيل التحف ، عاد أخيراً إلى أراضيه » .

والروايات النصرانية عن رحلة سانشو أقل تفصيلا ، ولكنها أقرب إلى الحقيقة . وقد قام بها سانشو عقب وقوفه على موت المنصور ، فى جماعة كبيرة من الفرسان ، وكان ذلك فى أواخر سنة ١١٩٨ أو أوائل سنة ١١٩٩ م . وهذا ما تؤيده جميع الوقائع والظروف الأخرى . ولم ير سانشو فى موت صديقه المنصور ما يحمله على الإحجام عن القيام بهذه الرحلة البعيدة ؛ وقد تخلف مدى حين فى

الأندلس ، فى انتظار عودة الرسل الذين أوفدهم إلى محمد خليفة المنصور ؛ فلما عاد أولئك ، وأبلغوه أن محمداً يكن نحوه من عواطف الصداقة مثل ما كان أبوه ، اعتزم أن يتابع الرحلة إلى مراكش ، إلى بلاط سلطان الموحدين . فاستقبله محمد بأجمل حفاوة ، ووافق على زواج أخته بملك نافارا ، ولكنه لم يشأ بحثاً فى مسألة التنازل عن أملاكه الاسبانية إليه ؛ فلم ير سانشو أن يعجل بمسألة الزواج ، ولكنه قبل أن يشترك مع فرسانه فى معاونة الموحدين على إخماد فتنة قامت يومئذ فى جبال غمارة ، وأبدى شجاعة عظيمة[1] .

وبينما كان سانشو مقيماً فى بلاط سلطان الموحدين ، مؤملا أن يغدو بمعاونته ملكا على جميع اسبانيا ، إذا به يفقد معظم أنحاء مملكته الصغيرة . ذلك أن ألفونسو النبيل ، وحليفه بيدرو ملك أراجون ، ما كادا يعلمان بسفر سانشو إلى بلاط الموحدين ، حتى قررا أنهما فى حل من جميع المعاهدات السابقة التى عقداها مع نافارا بحجة أن ملكها قد تحالف مع أعداء اسبانيا التاريخيين ؛ ثم زحفا على نافارا بجيشهما المشترك (سنة ١١٩٩ م) ، ليقتسماها فيما بينهما ؛ بيد أنهما لقيا فى هذا السبيل صعاباً لم يتوقعاها . فقد دافعت الحصون المشحونة بالميرة والسلاح دفاعاً قويا ، وبعد حصار طويل استطاع ألفونسو ، أن يفتتح حصن فكتوريا ، وأن يسترد

---

(١) لم تشر الرواية العربية إلى مقدم سانشو ملك نافارا إلى مراكش وإقامته مدى حين فى بلاط الموحدين . ولكنها تشير إلى وفوده على أمير المؤمنين محمد الناصر بن المنصور ، وهو بالأندلس ؛ وتقول هذه الرواية ، إن الناصر لما عبر بجيوشه إلى الأندلس للغزو سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م) ارتاع ملوك النصارى ، وكتب إليه عدة منهم يسألونه المهادنة والسلم ، ووفد عليه منهم ملك بنبلونة (وبنبلونة هى عاصمة مملكة نافارا) مستسلما طالبا للصلح ، ويقال إنه قدم إليه كتاب النبى (ص) الذى كتبه إلى هرقل ملك الروم يستشفع به وقد كان يتوارثه آباؤه ، فاحتفل الناصر لقدومه ، ثم عقد له الصلح ما دامت دولة الموحدين ، وأجابه إلى جميع مطالبه (راجع الاستقصاء ج ١ ص ١٩٣) . وذكر ابن خلدون أن الذى وفد على الناصر بالأندلس يومئذ هو «البيبوج» صاحب ليون (الفرنسو التاسع ؟) وأنه قدم عليه عام موقعة العقاب (سنة ٦٠٧ هـ) فداخله وأظهر له التنصح فبذل له أموالا ثم غدر به (ج ٤ ص ١٨٣) أما الرواية التى أوردها المؤلف نقلا عن المصادر العربية فهى رواية ابن أبى زرع فى روض القرطاس وهو يشير إلى الملك الوافد على الناصر بأنه ملك « بيونه » ويصف وفوده عليه فى اشبيليه بإفاضة (ص ١٥٥)

ولايات ألبه وبسكونيه ، وجوبسكوا ، وهى التى كانت من قبل ملكا لقشتالة ؛ وقطع لأهلها عهداً بأن يترك لهم الاحتكام إلى شرائعهم وتقاليدهم ، اكتساباً لمحبتهم .

وكان ملك أراجون أقل توفيقاً ، فلم يستطع أن يفتتح إلا بضعة أماكن صغيرة على الحدود ؛ ودافعت بنبلونة وغيرها من المدن الكبيرة أعظم دفاع ، ولقيت أعظم توفيق فى رد جارها البغيض . وأخيراً عاد الملك سانشو إلى مملكته ، بعد أن أيقن أنه إذا كان يستطيع أن يحصل على أميرة موحدية زوجة له فانه لا يستطيع الحصول بأى حال على حكم الأندلس والأملاك الإسلامية الأخرى فى اسبانيا ، وقد قطع المفاوضة بعد أن تحقق خيبة السعى ، وعاد إلى مملكته بعد أن غاب عنها عامين (سنة ١٢٠١ م) . ووصل فى الوقت المناسب ليقود جنده المخلصين مرة أخرى للكفاح الشاق ضد الأعداء الأقوياء ، واستطاع بمعاونة الكونت ديجو لوبز زعيم بسكونية الثائر ضد قشتالة أن يسترد معظم الأماكن المفقودة ؛ ثم تدخل الأحبار ، وعقدت الهدنة بين الفريقين لمدة ثلاثة أعوام . ولكن الولايات البشكنسية بقيت فى حوزة قشتالة . ولم يمض قليل على ذلك حتى أنشأ سانشو ، جماعة مسلحة لطاردة عصابات اللصوص التى كانت تعيث فى البلاد (سنة ١٢٠٤م) ، فكانت هذه الجماعة نواة لجمعية الأخوة المقدسة (الهير ما نداد) .

أما فى ليون فقد لبث الاضطراب على شدته ، وانقسم الأحبار إلى فريقين ، أحدهما يؤيد زواج الملك بالأميرة القشتالية برنجاريا ، والآخر وهو أقلهما يعارض فى هذا الزواج ؛ وكان الملك يبدى فى أعماله كثيرا من القوة والعنت ، فكل من وقف فى سبيل حكومته ، سواء من رجال الدين ، أو المدنيين ، أمر بزجه إلى السجن ، إذا لم يبادر بالفرار اتقاء العقاب الداهم . ولعله لم يكن حب زوجه والتعلق بها هو الباعث الوحيد على تشدده فى هذه القضية ، بل هو بالأخص تفكيره فى مصير أبنائه الذين رزق بهم من زوجه ، وكونهم إذا ألغى الزواج ، لا يعتبرون من الأولاد الشرعيين ، وما يتحتم عليه عندئذ من رد مهر برنجاريا ، وهو أمر

خطير بالنسبة لليون ، إذ يوجد بين الأراضى التى يتمين ردها ، عدد من الحصون القوية الواقعة على الحدود .

ولما أدرك البابا أنوسان الثالث ما يترتب على قراره الصارم ، من النتائج السيئة ، نزل على ملتمس بعض الأحبار الليونيين ، وأمر بتخفيف القرار بحيث يسمح بإقامة الشعائر الدينية والكنسية ، على أنه يجب بالنسبة للملك وزوجه ابنة ملك قشتالة ، وجميع الكبراء الذين شملهم أمر الحرمان ، أن تغلق الكنائس ، وأن يصمت الأحبار . ومع ذلك فقد احتفل بتنصير أول ولد جاء من هذا الزواج — وهو فرديناند الذى لقب فيما بعد بالمقدس — فى كنيسة ليون الكبرى فى احتفال باذخ ، وذلك فى سنة ١١٩٩ م ، وبعد أن أعقبه ابن وبنات أخر ، احتفل برلمان ليون (الكورتيس) بإعلان فرديناند الولد البكر وليا للعهد فى سنة ١٢٠٤ م . وبعد ذلك ارتضت برنجاريا الطلاق تحقيقا لسكينة المملكة وسلامها ، وتنازلت عن المطالبة برد المهر ، وعادت إلى أبيها فى قشتالة ؛ وعلى أثر ذلك ، أمر البابا بإلغاء قرار الحرمان بواسطة الأساقفة القشتاليين ، وأن يرفع الحظر عن ملكى ليون ، وأن يعترف مع ذلك بشرعية الأولاد ، واستحقاقهم للميراث .

وما كاد السلام يعقد مع البابا حتى اضطرمت نيران الحرب على أشدها بين البيتين الملكيين اللذين تصافيا من قبل ، أعنى بين قشتالة وليون ، وذلك من جراء فسخ هذا الزواج ؛ وكان ملك قشتالة يصر على وجوب رد الأماكن التى وهبها لابنته مهراً لزواجها ، وكان البابا يؤيد هـذا المطلب . على أن الأقوال وحدها لم تكن تكفى لتسوية هذا النزاع ، وكان الشعب منذ بعيد يتوقع جزعا اضطرام الخصومة بين المملكتين ، وكانت جمهرة المؤمنين ترى طائفة من الظواهر والأحداث المزعومة ، وتتخذها علامة على اقتراب زمن لابد أن تسيل فيه الدماء ؛ وقد صحت نبوءتهم ؛ فان حربا طاحنة دامت عدة أعوام خربت قشتالة وليون ؛ ولم تفلح جهود البابا فى تهدئة الخواطر المضطرمة ، وردت اقتراحاته فى سبيل الصلح بازدراء ، إذ كان المفروض أنه هو السبب الوحيد فى إثارة هذا النزاع .

ولكنهم أصغوا إلى صوت السلام والوساطة حينما نظم الموحدون أهباتهم الضخمة للاستفادة من هذا النزاع وإخضاع اسبانيا النصرانية ؛ وكان لا بد من عود النصارى إلى الاتحاد حتى لا تسقط اسبانيا غنيمة فى يد المسلمين . وهنا فقط عقد ملكا ليون وقشتالة الصلح ، وارتضى الفونسو ملك ليون أن يعطى زوجه الملكة برنجاريا الأماكن المتنازع عليها ما دامت مقيمة لدى أبيها فى قشتالة ، وهكذا أنقذ ملك ليون على الأقل شرفه بهذا التصرف الشهم .

الفصل الثانى

موقعة ناقاس دى تولوزا

أو موقعة العقاب

لما توفى يعقوب المنصور ، ولى العرش ولده الذى اختاره من قبل لولاية عهده : وكان محمد الملقب بأبى عبد الله الناصر لدين الله ، فى أطيب سنى عمره ، حينما خلف أباه فى الحكم ؛ وكان حسن القامة ، نحيفاً ، أبيض ، أشهل العينين ، كثيف الحاجبين ، طويل الأهداب ، كبير اللحية ؛ وكانت نظراته تشع ذكاء وتفكيراً [1] بيد أنه بالرغم من كفايته وثقافته لم يكن يحسن اختيار وزرائه وقادته ، فكان كثيراً ما يعهد بأهم شؤون الدولة إلى رجال عاجزين ، يوليهم كل ثقته .

وقد اضطر فى بداية حكمه — مثل جميع أسلافه — أن يعمل على إخماد ثورات عديدة نشبت أولا فى جبال غمارة ؛ وما كادت تخمد حتى تلتها ثورات قام بها خصوم ظن الموحدون أنهم سحقوهم نهائيا . وكان هؤلاء هم المرابطين . وكانوا بعد انهيارهم التام فى المغرب والأندلس ، قد لقوا فى الجزائر الشرقيـة (جزائر البليار) ملاذاً أخيراً ، وأقاموا بها حكومة منهم ، ثم انضووا بعد ذلك تحت لواء محمد بن سعد بن مردنيش أمير بلنسية ، وأخيراً اعترفوا مختارين بحكم الموحدين وذلك منذ سنة ١١٧٢ م (٥٦٧ هـ) بيد أنهم عملوا فى الخفاء على استدعاء أنصارهم تباعا إلى ميورقة . ولما شغل محمد الناصر بإخماد ثورة نشبت بالقرب من فاس ،

(١) روض القرطاس ص ١٥٣ والمراكشى ص ١٧٥ .

رأى المرابطون الفرصة سانحة ليجربوا طالعهم فى الحرب مرة أخرى ، وحاولوا أن يجذبوا البربر إلى جانبهم ، وسرعان ما يسأم البربر كل حكم . ونهض المرابطون بزعامة يحيى بن إسحاق الميورقى ، وهو من عقب يوسف بن تاشفين ، وساروا فى السفن من ميورقة إلى إفريقية واستولوا على عدة مدن فى أحواز قرطاجنة القديمة (تونس) ، وهرعت إلى جانبهم جموع كبيرة من البربر ، واضطر محمد الناصر أن يحشد جميع قواته ليحول دون تقدم الثوار ؛ ذلك أن زعيم الثوار كان قائداً عظيما وافر الخبرة بفنون الحرب . بيد أن المرابطين لم يوفقوا مع ذلك إلى استرداد سلطانهم ، وكان نجمهم قد أفل نهائيا ؛ وكانت ثورتهم آخر مجهود لحزب نهض للمرة الأخيرة ، ثم انهار بعد هزائمه المتوالية لكى لا ينهض بعد ؛ وألفى المرابطون ملاذاً أخيراً فى أسوار المهدية ، الواقعة على الشاطئ تجاه صقلية ، ولكن المدينة اضطرت — بالرغم من مناعتها وبسالة يحيى بن إسحاق فى الدفاع عنها — أن تذعن أمام هجمات الموحدين المنيفة ، وقد سلطوا عليها من آلات الحصار والمنجنيقات ما لم ير من قبل ضخامة وإحكاما ، وأخذوا يرمونها كل يوم بمئات من الأحجار الكبيرة والكرات الحديدية ، ويدكون بذلك أسوارها دكا . وعفا محمد الناصر عن أهل المدينة وعن يحيى الميورقى عفو الكرام ، بعد أن استنفدوا كل وسائل الدفاع وسلموا إليه المدينة ، وذلك فى سنة ٦٠١ هـ (١٢٠٥ م) [١] ..

ولكن تسامح سلطان الموحدين لم يكن له من أثر إلا أن يشجع المرابطين على الثورة من جديد ، فلم تمض ثلاثة أعوام حتى تزعم يحيى بن إسحاق جموع الثوار مرة أخرى ، وقد قويت بانضمام عدد كبير من الناقمين من قبيلة زناتة إليها . ولكن المرابطين هزموا للمرة الثانية فى موقعة دمونة ، وكاد أن يسحق جيشهم عن آخره ، وفر يحيى ناجياً بنفسه . ورأى الناصر أن يعمل على استئصال شأفة هذا الحزب نهائيا ، فأمر بإرسال حملة بحرية إلى جزيرة ميورقة ، حيث كان عبد الله أخو يحيى بن إسحاق يتولى الحكم . ونزلت قوات الموحدين فى الجزيرة

(١) روض القرطاس ص ١٥٣ .

بالرغم من مقاومة المرابطين المنيفة ، وحاصرت عاصمة الجزيرة واستولت عليها عنوة ، وأمر عبد الله واحتز رأسه ، وأرسل محنطا إلى مراكش ، وعلقت جثته على بعض جدران المدينة . ولم تبد الجزيرتان الصغيرتان منورقة ويابسة أية معارضة ، بل خضعتا للفاتحين (سنة ٦٠٤ هـ — ١٢٠٨ م) . وهكذا انهارت الأنقاض الأخيرة لسيادة المرابطين .

وعندئذ فقط استطاع سلطان الموحدين أن يوجه عنايته إلى شبه الجزيرة الأسبانية لكى يرفع فيها راية الإسلام على النصرانية ؛ وبعد أن أقام فى مختلف المدن المغربية أبنية عظيمة فخمة يخلد بها ذكره ، اعتزم أن يبز مجد أسلافه بأعمال الحرب الضخمة فى شبه الجزيرة .

ولم يكن القشتاليون الظمآى إلى الحرب يستطيعون البقاء دون حرب ؛ فبعد أن قاموا بمعاونة الفرنسيين على محاربة الإنجليز فى « جويان » ، فى حرب قليلة الأهمية (سنة ١٢٠٤م) ، وبعد أن عقدوا الصلح مع جيرانهم النصارى ، ولا سيما بتدخل البابا ، أخذ ملك قشتالة ألفونسو النبيل يتأهب لمحاربة المسلمين بكل ماله من قوى ، وكانوا قد ركنوا إلى السكينة منذ وفاة يعقوب المنصور .

وبعد أن حصن ألفونسو قلعة « مورا » الواقعة على الحدود تحصيناً قويا (سنة ١٢٠٩ م) سار فى جيش من القشتاليين وفرسان قلعة رباح إلى الأندلس ، فانتسف الحقول ، ونهب القرى ، وقتل السكان ، وسبى منهم جموعاً كبيرة . ثم عاد إلى قشتالة ، ولقى ملكى نافارا وأراجون ، ووثق معهما عهود الصلح ، وحصل منهما على وعد بتأييده وإمداده بالجند حين الخطر لمحاربة العدو المشترك ، واعتزم بعد ذلك أن يعمل لمحو وصمة هزيمة الأرك بإحراز نصر باهر على الموحدين . وفى العام التالى سار مرة أخرى إلى الأندلس ، وخرب أراضى جيان وبياسة واندوجار ، ووصل إلى أحواز مرسية ثم عاد إلى طليطلة مثقلا بالغنائم .

ولما وقف محمد الناصر على اعتداء النصارى المتكرر على الأندلس ، أعلن الجهاد ، مؤملا أن يستطيع بواسطة القوات الضخمة التى يرسلها من المغرب إلى

اسبانيا أن يسحق الممالك النصرانية بلا مراء ؛ وحشدت فى جنوبى الجزيرة خمسة جيوش ضخمة ، يتكون أولها من القبائل البربرية ، والثانى من الجنود المغربية ، والثالث من الجنود الأندلسية ، والرابع من الجنود الموحدية أو الجنود النظامية التى تحشد وفقاً لنظام عسكرى معين ؛ ويتكون الخامس من المتطوعة من جميع أنحاء المملكة وبضم وحده مائة وستين ألف مقاتل من الفرسان والمشاة . وإذا لم يكن فى وسعنا أن نأخذ بالتقديرات المغرقة التى تقدمها الرواية العربية — إذ هى تقدم إلينا أرقاماً تخرج عن طور المعقول — فإنه من الممكن أن يقدر الجيش الذى حشده محمد الناصر لمحاربة اسبانيا النصرانية بنحو نصف مليون مقاتل[١] . وفى ٢٥ ذى القعدة سنة ٦٠٧ (أوائل مايو سنة ١٢١١) جاز سلطان الموحدين بنفسه إلى الأندلس ونزل فى جزيرة طريف ، ثم غادرها بعد أيام قلائل إلى إشبيلية .

ولكن محمدا ارتكب خطأ فادحاً إذ أرسل خيرة جنده إلى حصن سربطره[٢] الجبلى المنيع ، وأنهك بذلك قواهم ؛ ولبث الجيش أمام هذا الحصن ثمانية أشهر ، وهو ممتنع عليه . وأصر محمد نزولا على نصح حاجبه أبي سعيد بن جامع — وكان الموحدون يشكون فى صدق نياته ، ولكن محمداً يضع فيه كل ثقته — على ألا يتقدم قبل الاستيلاء على الحصن . وهكذا استمر الحصار طول الصيف حتى دخل الشتاء ؛ وعانى المغاربة فى هذه الجبال الوعرة من قسوة الطقس ما لا يحصى ، وأودى المرض بحياة آلاف منهم ، وأخذت وسائل تموين هذا الجيش الضخم تصعب يوماً فيوماً . وأرسل ألفونسو ملك قشتالة ولده فرديناند على رأس جيش نفذ إلى ولاية استرامادوره محاولا أن يرغم الموحدين على رفع الحصار ، ولكن هذه المحاولة لم تفلح ، وفجع الملك بفقد ولده الذى أودت بصحته وحياته مشاق الحرب ؛ وقيل فى بعض الروايات إنه توفى مسموماً بيد يهود مجريط . وسقطت قلعة سربطره أخيراً بفعل الجوع فى يد الموحدين ، ولكن مقاومتها

(١) راجع الاستقصاء ج ١ ص ١٩١ .
(٢) سربطره أوشربطره كما هى فى ابن خلدون ج٦ (ص٢٤٩) وبالأفرنجية Salvatierra.

الطويلة الباسلة كانت سبباً فى إنقاذ اسبانيا النصرانية[١] .

وكان ملك قشتالة قد أرسل جرهارد أسقف سفوبية إلى البابا أنوسان الثالث ليرجوه أن يرسل الصيحة إلى أمم أوربا النصرانية ، لكى تنظم حملة صليبية ضد المسلمين فى الأندلس ؛ وأرسل ردريك مطران طليطلة (ردريك الطليطلى) — وهو المؤرخ الشهير الذى دون تاريخ وطنه — وعدة أخر من الأحبار ، إلى فرنسا وإلى الأمم الواقعة فى شرقها ، ليثيروا بذلاقتهم حماسة الشعوب النصرانية من البرنيه إلى البحر الأسود ، لكى تساهم فى كفاح الصليب المقدس .

وفى الوقت الذى كان فيه البابا ومطران طليطلة يعملان للحصول على معاونة أوربا النصرانية ضد المسلمين ، كان ألفونسو النبيل يعمل لجمع كلمة الملوك الأسبان ضد الموحدين ؛ ودعا فى سبيل هذه الغاية إلى مؤتمر عقد فى قونقه ، ولم يشهده — إلى جانب ألفونسو — سوى بيدرو الثانى ملك أراجون ، ولكن شهده مندوبون من قبل باقى الملوك النصارى ، ووعدوا بتقديم العون من جند ومال . وهكذا انقضى عام ١٢١١ م فى القيام بأهبات عظيمة لمتابعة الحرب ؛ وقبل انتهاء الشتاء اجتمعت فى طليطلة عاصمة قشتالة التى اتخذت مكاناً لاجتماع الجند قوات عظيمة ؛ وفى أوائل العام عاد المطران ردريك ومعه جمع غفير من الفرنسيين ؛ وتلا ذلك أن اجتمعت وفود مدن اسبانية كثيرة ، وفرسان الولايات القشتالية المختلفة ، وأساتذة فرسان قلعة رباح ، وشنت ياقب ، والاسبتارية والداوية ، ورؤساؤهم وإخوانهم المحاربون ؛ واجتمع القوامس والفرسان القشتاليون إلى الملك ألفونسو النبيل فى أكمل هيئة وسلاح ، إظهاراً لمكانتهم وإرهاباً لعدوهم ؛ وكان القوامس من أسرة لارا يمتازون بالشجاعة والفروسية والغنى ؛ ويمتاز الكونت ديجو لوبيز ، ولوبى دياز دى هارو بالفطنة والبراعة فى القتال ؛ وكان يرأس فرسان قلعة رباح جوميز راميرز ، وفرسان شنت ياقب بيدرو آرياس ؛ ويرأس الاسبتارية ولد جوتيرو هرمنجلد ؛ وكان الأساقفة يرأسون صفوف المحاربين من المدن

(١) راجع فى حوادث هذا الحصار روض القرطاس ص ١٥٦ و ١٥٧ .

المختلفة ، وقد تولوا الانفاق على حشدهم ؛ وأرسلت المجالس البلدية رجالها الصالحين للقتال مجهزين بالخيل والسلاح ، وأحمال المؤن ، ليستطيعوا إمداد المحتاجين من فاضل طعامهم .

ومع أنه وفدت على اسبانيا جموع المحاربين من جميع البلدان الأوربية ليقاتلوا دفاعاً عن النصرانية متقلدين الصلبان ، فقد كان الفرنسيون أكثر الوافدين عدا ؛ وقدم جيوم أسقف بوردو ، وأسقف نانت وغيرهما من الأحبار الفرنسيين فى جماعة باسلة من الفرسان ، وجيش كبير من المشاة من ولايات جويان وليموج وسانتونج وبرى وبواتو وانجو وبريتانيا ؛ وقاد أرنولد مطران أربونة خصم الألبيين العنيد(١) جيشاً من لانجدوك وبروفانس وبرجونية ، يضطرم شغفاً للقاء المسلمين . ووفق أرنولد إلى ما هو أهم من ذلك ، وهو أن يحمل بذلاقته وضراعته ملك نافارا — بعد أن كان غاضباً من ملك قشتالة — أولا على أن يؤيد قضية اسبانيا بالمال والجند ، ثم بالأخص على التعهد بأن يسير فى فرسانه ، وأن يشترك بنفسه فى القتال .

وفى شهر مايو ، اجتمع فى قشتالة من المحاربين الصليبيين الذين هرعوا من جميع أنحاء أوروبا لمعاونة اسبانيا ، زهاء ألفين من البارونات مع حاشياتهم ، وعشرة آلاف من الفرسان وحملة الحراب ، وخمسين ألفا من المشاة ، أو بعبارة أخرى اجتمع من هؤلاء جيش يبلغ زهاء سبعين ألف مقاتل . وكانت فى الطريق قوات أخرى لم تصل إلا فيما بعد . وفى أول يونيه ، فى يوم عيد التثليث ، قدم بيدرو الثانى ملك أراجون فى جيشه الضخم ، واستقبله ملك قشتالة بمنتهى الحفاوة ؛ وكان يصحبه فى هذه الحملة معظم الأمراء التابعين ومشاهير الفرسان ، وطائفة كبيرة من فرسان الداوية ، وقد كانت لهم فى أراجون أملاك شاسعة . وأخيراً قدمت الأمداد من ليون وجليقية والبرتغال ؛ وكانت القوات البرتغالية تتألف من

---

(١) الألبيون Albigences هم فرقة من الملاحدة ظهرت فى جنوبى فرنسا فى أوائل القرن الحادى عشر ، واتخذوا مدينة « ألبى » مركزهم ومنها اشتقوا اسمهم ، وشهروا على الكثلكة ومبادئها ورسومها حربا شديدة . واستمروا يبثون عقائدهم الإلحادية حتى نظم سيمون دى مونفور فى أوائل القرن الثانى عشر عليهم حربا صليبية ، انتهت بتمزيق شملهم .

عدد كبير من الفرسان والمشاة البارعين يقودهم أمير برتغالى هو بيدرو ثالث أبناء الملك سانشو الأول ؛ وكانت القوات الليونية بقيادة سانشو فرناندز أخى ملك ليون ؛ ولم يحضر ملك ليون بنفسه إذ قامت بينه وبين ملك قشتالة خصومة جديدة من أجل بعض أماكن على الحدود . أما ملك ناقارا فلم يكن استكمل أهبته بعد ، وكان قدومه منتظراً .

وكانت طليطلة وأحوازها تقدم يومئذ منظراً يفيض حركة وحياة ، وكانت جموع المحاربين من الكثرة بحيث تعذر أن تضمهم المدينة جميعاً ، واضطرت ألوف كثيرة منهم أن تقيم فى الخيام خارج المدينة ، فى الحدائق الملكية والحقول ، وكانوا مزيجاً من الأزياء والسلاح ، والعادات واللغات . وكان من الصعب أن يسود النظام والسلام بين هاته الشعوب المتباينة . وكان ملك قشتالة قد أعد كميات عظيمة من المؤن ، بحيث أمكن بالرغم من كثرة الجموع أن تمون كلها دون نقص ، وقدم الملك ألفونسو إلى جموع الوافدين الخيام والأطعمة ، والخيل ، وكل ما تحتاج إليه ؛ ومع ذلك فإنها لم تحجم عن قطف ثمار أشجار الفاكهة فى أحواز المدينة وإتلافها ، وقطع أخشاب الكروم والأشجار لحرقها واستعمالها فى إنضاج الطعام . واقترنت بهذه الفوضى التى سادت جميع الوافدين أمور أخطر ؛ من ذلك أنها بدأت فى مطاردة يهود طليطلة ، وبذل ألفونسو مجهوداً عنيفاً لكى يحول دون قتلهم جملة ، ومع ذلك فقد قتل كثيرون منهم فى بداية هذا الانفجار .

وليس أدل على الأهمية التى كان يعلقها الغرب يومئذ على هذه الحملة الصليبية ضد مسلمى الأندلس ، من اشتراك الجموع فيها بصورة فعلية ، وكون آلاف منهم كانوا يتقلدون الصليب ؛ كذلك لا ريب فى أن مقادير عظيمة من المال والسلاح والمؤن أرسلت إلى ملك قشتالة من فرنسا وإيطاليا . وكان ذلك مما مكن الملك ألفونسو النبيل من أن عد جيش الوافدين الذى بلغ فى أوائل يونيه سنة ١٢١٢ م أكثر من عشرة آلاف فارس ، ومائة ألف من المشاة ، فضلا عن المؤن ، برواتب مالية ، قدرها عشرون شلناً للفارس ، وخمسة شلنات لكل محارب من المشاة ،

هذا عدا ما كان يقدمه من الهدايا النفيسة إلى القادة والزعماء .

وفى رومة أمر البابا أنوسان الثالث بالصوم ثلاثة أيام والاكتفاء بالخبز والماء التماسا لانتصار الجيوش النصرانية ؛ وأقيمت الصلوات العامة ، وعمد رجال الدين والرهبان والراهبات إلى ارتداء السواد والسير حفاة ، وسارت المواكب فى الطرقات خاشعة متمهلة من كنيسة إلى أخرى . وألقى البابا نفسه موعظة صليبية ، طلب فيها إلى النصارى أن يضرعوا إلى الله التماساً لنصر الاسبانيين .

ولما غصت طليطلة وأحوازها بجموع المحاربين ، واستراحوا من وعثاء السفر ، تأهب الجيش النصرانى للسير إلى لقاء العدو فى ٢٠ يونيه سنة ١٢١٢ م ونظمت القوات فى ثلاثة جيوش ، حتى لا يصاب الجند أثناء السير بنقص فى المؤن ؛ وسار فى الطليعة جيش الوافدين ، وقد قدرته بعض الروايات بستين ألف محارب على الأقل ، وقدره البعض الآخر بمائة ألف ؛ وكان تحت إمرة القائد القشتالى ديجو لوبيز دى هارو ، ويقود وحداته المختلفة مطران أربونة ومطران بوردو ، وأسقف نانت ، وعدد من القوامس من غربى فرنسا وجنوبيها . وكان يقود الجيش الثانى الملك بيدرو الثانى ، وهو مؤلف فقط من الأرجونيين والقطلونيين ، وفرسان الداوية . أما الجيش الثالث وهو أضخم الجيوش الثلاثة ، ويتألف من جنود قشتالة وليون والبرتغال ، وفرسان قلعة رباح وشنت ياقب والاسبتارية ، فكان يقوده ملك قشتالة ، ويقود وحداته كبير أساتذة جمعيات الفرسان ، والأمير الليونى سانشو فرناندز ، والأمير البرتغالى بيدرو ، وردريك مطران طليطلة ، وخمسة أساقفة أخر . وتقدر الرواية عدد الفرسان فى هذا الجيش بثلاثين ألفاً ، ولكنها لم تحدثنا عن عدد المشاة .

وفى اليوم الخامس من بدء السير من طليطلة ، فى الرابع والعشرين من يونيه هاجم المحاربون الوافدون حصن مجلون وقتلوا جميع من فيه ؛ ولكن المؤن أخذت فى النقص . وأخذت حرارة الجو ترهقهم ، فبدا كأن حماستهم خبت على أثر هذا المجهود الأول . وفكر كثير منهم فى العود إلى الوطن ، وكان ملك قشتالة أول من

تقدم إلى مجلون فى اليوم التالى ، فهدأ روعهم بتوزيع المؤن الوفيرة عليهم واستطاع أن يقنعهم بالسير معه إلى قلعة رباح ، وكانت بها حامية قوية من الموحدين ؛ ولقى النصارى فى عبور نهر وادى يانه الذى تقع عليه المدينة صعابا فادحة ، إذ كان المسلمون قد نثروا على جناحيه الصنانير والخوازيق الحديدية ؛ وهاجمت الجيوش الثلاثة قلعة رباح من جوانبها الثلاثة المنيعة ، حتى سقطت المدينة فى أيديهم ، ولكن القلعة كانت مجهزة بالأبراج العالية والأسوار المنيعة ، وكان يخشى أن تقتضى حصاراً طويلا . وأبدى ملك أراجون والمحاربون الوافدون فى اقتحام المدينة شجاعة عظيمة ، ولكنهم تكبدوا أفدح الخسائر .

وقبل أن يعود النصارى إلى مهاجمة القلعة ، عقد مجلس حربى للبحث فيما إذا لم يكن من الأفضل أن يقتصر على تطويق القلعة ، دون محاولة افتتاحها ، وأن يبدأ بالسير توا لمهاجمة العدو (المسلمين) ، وكان رابط على مسيرة بضعة أيام ، فى نهاية مقاطعة « مَنْشا » ، بين جيان وقرطبة . ولكن غلب الرأى بوجوب مهاجمة القلعة ، إذ كان من المعروف أنها تحوى أموالا طائلة ، وكميات عظيمة من المؤن ، التى بدأ النصارى يشعرون بنقصها . وما كاد المسلمون يقفون على نية عدوهم ، حتى بعث قائد الموحدين[1] ، سرا وتحت جنح الليل ، رسولا إلى ملك قشتالة ، يعده بتحف عظيمة وتسليم القلعة إذا سمح للحامية أن تنسحب بسلاحها ؛ وكان ملك قشتالة يميل إلى إجابة هذا الطلب لكى يستولى على القلعة بسرعة ؛ ولكن الأرجونيين والمحاربين الوافدين أبوا الإصغاء إلى أية تسوية تحقن بها دماء الحامية . بيد أنه لما أبدى المسلمون عزمهم على المقاومة بأقصى ما يستطاع ، وافق النصارى أخيراً على أن تنسحب الحامية دون سلاحها . وهنا أبدى الأمراء الأسبان تفوقهم فى فهم الحق ومبادئ الفروسة على إخوانهم فى الدين من أبناء أمم الغرب الأخرى . ذلك أنه بالرغم مما حصل عليه المسلمون فى قلعة رباح من حق الانسحاب آمنين على أنفسهم ، أراد المحاربون الوافدون أن يفتكوا بالمسلمين

(١) كان هذا القائد هو أبو الحجاج يوسف بن قادس ، وكان من شجعان الجند ؛ وقد فصل صاحب روض القرطاس موقفه وسعيه لإنقاذ المسلمين (ص ١٥٧) .

عند انسحابهم . ولكن ألفونسو وبيدرو والفرسان الأسبان أعلنوا بقوة وحماسة أنهم لا يسمحون بمثل هذا النكث ، وتولوا حماية المسلمين من كل أذى حتى ابتعدوا آمنين . ووجد ألفونسو فى قلعة رباح كميات عظيمة من المؤن قسمها بالنصف بين المحاربين الوافدين ، وبين الأرجونيين ، ولم يحتفظ منها — فيما قال — لنفسه أو لجنده بشىء ؛ ولكن المحاربين الوافدين اعتقدوا فيما يبدو أن ملك قشتالة قد استأثر لنفسه بجميع التحف والنفائس . وسلمت قلعة رباح نفسها إلى جمعية الفرسان التى تسمت باسمها ، والتى ملكتها من قبل . وألقى الاستيلاء على قلعة رباح بذور الشقاق فى الجيش النصرانى . ذلك أن المحاربين الوافدين ، أسخطهم أن تنجو الحامية من بطشهم ، وحقدوا على ألفونسو لأنه فيما اعتقدوا حرمهم من الغنائم المنشودة ، وأبوا — بحجة عدم احتمالهم لجو اسبانيا الحار — أن يتابعوا الحرب من أجل المملكة الأسبانية قائلين إنهم وفوا بعهدهم فى مقاتلة المسلمين بما خاضوا من معارك أمام أسوار مجلون وقلعة رباح ؛ وأيدهم مطران بوردو أعظم أحبارهم ، فى غضبتهم وفى قرارهم ، وتمسكوا برأيهم بالرغم من كل رجاء وإقناع ووعود ؛ وفى الحال بدأوا السير عائدين إلى أوطانهم ، ولم ير الأسبان باعثاً لهذا الرحيل الفجائى لأولئك المحاربين المتحمسين من أجل الصليب سوى الحنين القاهر إلى الوطن ، أو وسوسة الشيطان . وقد وقع افتراقهم عن الجيش الأسبانى على مقربة من جيش الأعداء (المسلمين) ، الذى كانت تعد العدة لمهاجمته ، وأغضوا عن قضية دينهم وعن شرفهم ، إرضاء لشهوتهم فى الانتقام من ملك قشتالة ، الذى بالغ فى الاساءة إليهم فيما زعموا ؛ ولم يبق من أولئك المحاربين سوى أرنولد أسقف أربونه والكونت تيوبالد بلاسكون ، وهو أسبانى المولد ، وكانا قد أتيا إلى اسبانيا بنحو مائة وخمسين فارسا من لانجدوك وبواتو ، وغادر الباقون وهم زهاء خمسين ألف مقاتل الجيش الأسبانى صوب جبال البرنيه ، غاضبين حاقدين ، وخشى الأسبان عواقب اعتدائهم ونهبهم ، فأغلقوا فى وجههم جميع المدن .

ومع أن رحيل هذا العدد الجم فى تلك الآونة كان شديد الوقع على النصارى

الأسبان ، فإنهم لم يفقدوا مع ذلك شجاعتهم ، بل ساروا إلى لقاء العدو بعزم أقوى ، وأذكى شجاعتهم استيلاؤهم على حصن الأرك ، وهو المكان الذى لقى فيه ملك قشتالة قبل ذلك بسبعة عشر عاماً هزيمته الشنعاء ، وما حدث عندئذ من مقدم سانشو ملك نافارا ، وقد سد الفراغ الذى أحدثه الراحلون بفرسانه ، وهم بالرغم من قلة عددهم ، أشد براعة وإقداما .

وعلى أثر ذلك سار الملوك الثلاثة المتحالفون إلى مدينة سلبطرة ، وهى القلعة التى افتتحها سلطان المرابطين فى العام السابق بعد حصار طويل . وعرض الملوك هنا جيشاً لم تخرج اسبانيا النصرانية مثله من قبل ؛ بيد أنهم لم يقفوا بسلبطرة لمناعتها واتقاء لحصار لاطائل منه ، واخترقوا فى الثانى عشر من يونيه ممر مورادال فى جبال سيارا مورينا (جبل الشارات) لكى يلقوا العدو فى ناحيتها الأخرى .

وكان محمد الناصر قد عمل إلى ذلك الحين على اجتناب المعركة بالرغم من كثرة جموعه خشية بأس المحاربين الصليبيين فى الجيش الاسبانى . ذلك لأن شهرة الفرسان الفرنج كانت قد سارت من المشرق إلى المغرب ، ولكنه لما وقف على رحيل أولئك المحاربين ، أخذ يسعى إلى لقاء العدو ، مؤملا أن ينزل بالنصارى الأسبان هزيمة كالتى أنزلها بهم أبوه فى موقعة الأرك . وكان يحز فى نفسه فقد قلعة رباح ؛ وبالرغم من أن حاكمها ابن قادس بذل كل ما يستطاع للدفاع عنها ، فان الناصر اعتقد فيما يظهر ، أنه قصر فى هذا الواجب ؛ ولذا ما كاد ابن قادس يصل مع الناجين من جنود الحامية إلى المعسكر ، حتى أمر الناصر بقتله جهاراً نزولا على نصح وزيره أبى سعيد بن جامع ، وكان رجلا كثير الدس يبغض كل الزعماء الموحدين والأندلسيين ؛ وكان لقتله أثر سيء فى الجيش كله ، ولا سيما بين جند الأندلس ، ذلك لأنهم كانوا يعلمون أن ابن قادس قد بذل كل المستطاع ، وأن مقتله لم يقع إلا بتحريض الوزير الذميم .

وعلى أثر سقوط قلعة رباح ، غادر محمد الناصر مع جيشه الرئيسى مدينة جيان ، وسار إلى منفة نهر الوادى الكبير اليمنى نحو بياسة ، واحتلت سريات من

خيرة جنده ممرات جبل الشارات (سيارامورينا) المؤدية إلى أبدة وبياسة . ومع ذلك فقد استطاع النصارى بعد أن نفذوا إلى ممر موردادال أن ينتزعوا بعد معركة عنيفة قلعة فِرّال الواقعة فى قمة الجبل ، وكان الموحدون قد قصروا فى شحنها بالمدد الكافى من الجند . ولكن النصارى لم يغنموا بأخذها كثيراً ؛ ذلك لأنه لم يكن فى استطاعتهم نظراً لانعدام المياه فى تلك المفاوز الشاقة ، أن يطيلوا المكث بها دون التعرض لأعظم الأخطار ؛ هذا إلى أنهم لم يروا سبيلا للاستيلاء على الممرات الجبلية التى شحنت بالرجال ورتب الدفاع عنها أعظم ترتيب . وكان المسلمون عند ما رأوا تعذر الدفاع عن الآكام المرتفعة ، قد احتلوا بخيرة جندهم الممر الذى يفضى من أعلى الجبل إلى سهل تولوزا . وقد أكد ألفونسو ملك قشتالة فى رسائله إلى البابا أنوسان الثالث ، أنه يستحيل على قوى العالم كلها أن تخترق هذا الممر إذا تولى الدفاع عنه ألف مقاتل فقط . فى ذلك المأزق الخطر ، كان يتعذر القيام بأية خطوة أخرى ، وكان يبدو أن خير ما يمكن عمله ، أو بالحرى أن المخرج الوحيد الممكن لاتقاء الهلاك من الجوع والعطش فى ذلك الجبل الوعر هو الارتداد ومحاولة دخول الأندلس من طريق آخر . وبينما كان ملك قشتالة يصر على رفض أية حركة ارتداد — لأنه كان يأبى أن ينسب النصر إلى الأعداء فى حين أنه لم يشتبك معهم بعد — إذ تقدم راع من رعاة هذا المكان ، ووعد بإرشاد الجيش إلى طريق يقع فى مرتفع آخر ويمكن سلوكه دون أن يفطن العدو ، وينحدر الجيش منه إلى سهل أبده دون أن يتمكن العدو من إعاقته . ولما تحقق الملوك — بإرسال القائد المجرب ديجو لوبز دى هارو لمعاينة الطريق — من صحة هذه الرواية ، أمروا فى نفس اليوم (يوم السبت ١٤ يوليه) برحيل الجيش ؛ وسار النصارى بإرشاد الراعى ، الذى اعتبر عندئذ منقذاً أرسل من عند الله ، فاحتلوا المرتفع المذكور ، وكان به بسيط شاسع يصلح لنزول الجيش ، وحصنوا المكان ، وبقى الملوك فى مكانهم مع القوات الاحتياطية إخفاء لحركة الجيش عن المسلمين ؛ ثم غادروا فى النهاية قلعة فرال فاحتلها المسلمون على الأثر ، معتقدين أن النصارى قد ركنوا إلى الفرار .

ولكن سرعان ما وقف المسلمون على مكان عدوهم الجديد ؛ وبالرغم من المزايا التى حصل عليها النصارى باحتلال هذا المكان ، فإن سلطان الموحدين ، واثقاً من تفوق قواته ، دعاهم إلى القتال فى نفس اليوم ؛ ولكن الملوك الأسبان لم يقبلوا هذه الدعوة ، إذ كان جيشهم منهوك القوى من أثر السير إلى مكانه الجديد ، ولم يكن قد تم تحصين المعسكر .

وفى اليوم التالى نظم محمد الناصر جيشه لخوض المعركة ، ولكن الملوك النصارى آثروا الاعتصام بموقعهم المنيع ، ولم يسمحوا إلا لبعض الفرسان البواسل بالالتحام مع العدو فى مبارزات ثنائية . ولم يرد النصارى أن يكدروا صفو الأحد بأعمال الحرب الدموية ، بل أرجأوها إلى اليوم التالى . ولم يكن من الميسور أن تؤجل المعركة بعد ؛ إذ بدأت المؤن فى النقص واضطروا إلى مراعاة أشد الاقتصاد فى الماء . ووقف الناصر على أحوال المعسكر النصرانى من بعض الخونة ، وأخذ يفاخر بأنه لن تمضى ثلاثة أيام أخرى حتى يقع الملوك الثلاثة المحصورون فى الربى وجيوشهم أسرى فى يديه .

وبعد أن عكف الجند النصارى على الصلاة والدعاء وتلقوا البركة لخوض المعركة ، والغفران البابوى العام على يد الأساقفة ، رتب الملوك الأسبان فى الصباح الباكر ، من يوم ١٦ يوليه جندهم لخوض المعركة على النحو الآتى ، وقد رابط البعض على سفح الجبل ، والبعض فوق الربى : تزعم ألفونسو ملك قشتالة قلب الجيش ، مع احتفاظه بنوع من الإشراف على الجيش كله ، وكان القلب يضم أربعة فرق ، تتألف الأولى من سكان الجبال القشتالية ويقودها ديجو لوبز ؛ وتتألف الثانية من فرسان قلعة رباح وشنت ياقب والاسبتارية والداوية وبعض جند الحدود القشتالية ، ويقودها الكونت جونزالو نونيز دى لارا ؛ والثالثة تتألف من جند وفرسان من قشتالة القديمة واشتوريش وبسكوينه ويقودها الكونت ردريك دياز كاميروس ؛ وتتألف الرابعة من الجند الاحتياطى من طليطلة وبعض قوات ليون ، ويقودها الملك نفسه ؛ وكان يرافق القوات الاحتياطية ، فضلا عن المطران

ردريك الطليطلى مؤرخ هذه الوقعة ، عدة أساقفة من قشتالة وليون مع جندهم .

وكان يقود الجناح الأيمن سانشو ملك نافارا الباسل ، مؤلفاً من فرسانه ومن جند سُريا وآبلة وسقوبية ومدينة سالم ، وكذلك من الفرسان الفرنسيين الذين أتى بهم أرنولد مطران أربونة ، وجند جليقية والبرتغال وعلى رأسهم الأمير البرتغالى .

أما الجناح الأيسر فكان ينقسم أيضاً إلى أربع فرق ؛ ويتألف كله من قوات أراجون ما عدا بعض جند المشاة القشتاليين ، ويقوده الملك بيدرو ومن حوله الأحبار والعظماء والأرجونيون .

وقسم محمد الناصر الذى رابط بقواته تجاه النصارى فى سهل تولوزا ، جيشه وفق الأوضاع الموحدية إلى خمس فرق . وكانت الفرقة الأمامية تتألف من المتطوعة ، وهم الذين يتطوعون من تلقاء أنفسهم للجهاد أو الموت فى سبيل الإسلام ، وتقدرهم الرواية العربية بمائة وستين ألف مقاتل . واصطفت القوات الأندلسية فى الميمنة والقبائل البربرية فى الميسرة . وأما القلب والقوات الاحتياطية فكانت تتألف من صفوة الجيش من الجند المغاربة والنظاميين ، أو بعبارة أخرى من الجند الموحدين . وضرب محمد الناصر قبته الفخمة الحمراء ، فى وسط الصفوف وارتبط أمامها جواده المسرج ؛ وقعد فى داخلها على درقته ، إيذاناً باقتراب المعركة ؛ واحتاط بالقبة حرس الأمير مشاة وفرساناً ، من الموحدين والعبيد ؛ وشهر الجند فى اتجاه العدو حرابهم فكانت سدا منيعاً دون اختراقه الموت ؛ ومدت فى الوقت نفسه حول القبة نصف دائرة من السلاسل الحديدية القوية ، حتى أصبح سلطان المسلمين وكأنه يجلس فى حصن منيع . وكان بوسع النصارى أن يروا من الربى العالية جموع المسلمين التى لا تحصى ، وقبة سلطان الموحدين الحمراء ، وأن يميزوا ما حولها من الجموع .

ولما تمت أهبات المعركة خرج سلطان الموحدين من قبته ، وهو يرتدى عباءة حرب سوداء . من مخلفات جده عبد المؤمن ، وقد رفع المصحف باحدى يديه ، وشهر سيفه بالأخرى ، وأعطى إشارة القتال والهجوم ، بينما كان قرع

الطبول الضخمة بدوى بشدة فى جميع الأنحاء .

وما كادت جموع المتطوعة من جانب المسلمين تلتقى بجنود الجبـال القشتاليين وجموع الفرسان من جانب النصارى ، ويشتبك الفريقان فى معركة حامية ، ويتحرك الجناحان فى كل من الجيشين تجاه بعضهما حتى غدت المعركة عامة . وكان هجوم المتطوعة المسلمين شديداً فى البداية ، ولـكنهم لم يستطيعوا اختراق صفوف الفرسان القشتاليين ؛ ذلك أن هؤلاء كانت تؤيدهم جماعات الفرسان الدينية ، فاستطاعوا أن ردوا جموع العدو وأن يمزقوها ، واستشهد ألوف من المسلمين فى سبيل دينهم . ولـكن القشتاليين حينما عمـدوا إلى مطاردة المتطوعة المسلمين ، وتقدموا بذلك ظافرين ، من قلب الجيش الإسلامى حيث حشدت صفوة الجند ؛ لقوا أشد مقاومة ، وسرعان ما اضطروا إلى مغادرة مراكزهم الأمامية ، وارتدوا فارين وتابعهم الفرسان القشتاليون فى فرارهم .

ولمـا رأى ملك قشتالة من الربى تطور المعركة على هذا النحو السيء ، أراد أن يسير بنفسه على رأس الجنود الليونيين والطليطليين ، وهم جماعة مختارة كانت تؤلف القوة الاحتياطية ، وأن يقتحم الميدان ليحاول محاولة اليأس الأخيرة ؛ وكانت كلماته التى قالها لمطران طليطلة وهى « إن الساعة قد حانت لنلقى الموت المجيد » تدل على أنه لم يكن يؤمل النصر بعد . ولـكن اعتراضات المطران والقوامس ردت ألفونسو عن أن يخوض بنفسه أعظم الأخطار . وأرسلت فى الوقت نفسه قوات من أشجع الجنود لإمداد الجيش المرتد ، وسار الأحبار أنفسهم على رأس الجند إلى قلب المعمعة ، وهم يرفعون أعلاما عليها صورة المسيح والعذراء ، ويثيرون بذلك أعظم الحماسة فى نفوس الجند .

وانتهزت جماعات الفرسان والجند الجبليون فرصة تقدم الأمداد الجديدة ، ليلموا شعثهم وينظموا جموعهم ، ثم عادوا فاستأنفوا زحفهم بمؤازرة القوى الجديدة وهم يحطمون كل مقاومة فى اتجاه قلب الجيش الإسلامى حيث كان محمد الناصر وحرسه . وفى الوقت الذى صوبوا فيه هجومهم على دائرة السلاسل الحديدية التى

احتشدت من ورائها ألوف مؤلفة من الحرس شاهرين الحراب ، كان جناحا الجيش الاسلامى قد حطما ؛ ذلك أنه سرعان ما بدأت الموقعة حتى ركن الأندلسيون الذين كانوا يقاتلون مرغمين مع الموحدين إلى الفرار ، وترتب على ذلك أن وقع اضطراب عظيم فى الجيش الاسلامى ، ولم يصمد فى القتال ، سوى جند الموحدين النظاميين والحرس من السود والمغاربة ، فقد لبثوا من وراء السلاسل يقاومون النصارى ، ويحاولون انتزاع النصر منهم ؛ ولبثوا من وراء هذا المعقل الصناعى يردون الهجمات التى يصوبها النصارى إليهم من كل صوب بشجاعة وجلد لا مثيل لهما ؛ ولكن الفرسان النصارى ضاعفوا جهودهم لتحطيم الدائرة الحديدية ، ووثب الكونت الفارو نونيز دى لارا على رأس كتيبة من الفرسان القشتاليين وفى يده العلم الملكى ، فاقتحم الدائرة غير مبال بالحراب المصوبة أمامها ؛ واقتحمها فى الوقت نفسه الملكان سانشو وبيدرو من الجانبين المتقابلين ، ونفذا إلى قلب الجيش الاسلامى ، بعد أن مزقا الجموع التى تصدت لهما .

ولما حطمت الدائرة الدفاعية غدا نصر النصارى تاما حاسماً . وكانت هزيمة المسلمين فادحة . ولبث محمد الناصر يذكى حماسة حرسه حتى آخر لحظة ؛ ولما رأى الهزيمة حلت بجيشه ، ووقف على موت ولده الأكبر الذى قتل فى المعركة وهو يقاتل قتال الأبطال ، لم يرد فيما يبدو أن يعيش بعد ، فقعد فى خيمته على درقته ، والعدو الظافر يدنو منه . فأقبل إليه أعرابى ، ونبأه بفرار جنده ، وناشده ألا يقعد بعد ، فقال محمد « صدق الرحمن وكذب الشيطان » ؛ ثم امتطى صهوة جواده أخيراً ، وغادر ميدان الحرب مسرعا مع نفر من أصدقائه المخلصين ، واتجه صوب بياسة ، ولكنه لم يقف بها ، بل سار منها توا إلى إشبيلية .

وتعرف هذه الموقعة التى أحرز فيها النصارى هذا النصر الباهر ، وكانت ضربة قاضية لسيادة الإفريقيين فى اسبانيا ، فى الرواية الاسبانية بموقعة نافاس دى تولوزا Navas di Toloza أو موقعة أبده ؛ ولكنها تعرف فى الرواية الاسلامية بموقعة العقاب[1] ، ويضع المؤرخون المسلمون تاريخها فى يوم ١٥ صفر

(١) ينسخ المؤلف فى سياق حديثه عن الموقعة رواية ابن أبى زرع فى روض القرطاس =

سنة ٦٠٩ هـ ، الموافق ١٦ يوليه سنة ١٢١٢ م ، ويعتبرونه من أسود أيام تاريخهم ؛ وينسبون الهزيمة من بعض الوجوه إلى غطرسة مليكهم ، إذ وضع كل ثقته فى مئات ألوف الجند ، وفى دربتهم ، وفى مقدرة قواده ، وفقد بذلك عون البارى جل وعلا ؛ ويرمون من جهة أخرى الأندلسيين بالجبن والخيانة إذ ركنوا إلى الفرار بعد معارك قصيرة . أما النصارى فينسبون نصرهم على عدو يفوقهم ضعفين فى المدد إلى عون الله ، الذى هيئ لهم بما عمدوا إليه قبل الموقعة من الصلاة والابتهال ؛ ولذا فإنهم لم ينسوا أن يقدموا شكرهم إلى الله فى حفلة قداس نظمها الأحبار والأمراء فى ميدان الحرب ، ورتلت فيها أناشيد الشكر والعرفان .

وإذا قارنا الروايات العربية والنصرانية ، وجدناها تتفق جميعاً ، فى أن عدد القتلى من المسلمين كان عظيما جدا ؛ بل نجد المؤرخين المسلمين خلافا لعادتهم يصورون هزيمتهم بأعظم مما يقدر الأسبان خسائر أعدائهم . ولما كان الملوك الأسبان قد أنذروا بالموت كل اسبانى يأسر مسلماً ، فقد هلك من المسلمين أثناء الفرار أكثر مما هلك فى الموقعة ذاتها . ذلك أن الأسبان لبثوا مدى أربع ساعات يطاردون أعداءهم الفارين ويقتلون كل من ظفروا به . وتقول الروايات العربية إنه لم ينج من الجيش الإسلامى وقوامه ستمائة ألف مقاتل سوى مائة ألف ، وهو قول يحمل طابع المبالغة[1] . ويقدم إلينا ثلاثة شهود عيان هم الملك ألفونسو ، ومطرانا طليطلة وأربونة عن خسائر المسلمين أرقاما أقل ؛ فيقدرها ردريك الطليطلى بمائتى ألف ، والملك ألفونسو بمائة وخمسة وثمانين ألف فارس ، وعدد لا يحصى من المشاة (وذلك وفقاً لأقوال بعض حشم السلطان محمد الذين أسروا فيما بعد) ، قتل منهم

=(ص ١٥٧ وما بعدها) وتعرف الموقعة فى معظم الروايات الاسلامية ، بموقعة العقاب ، وتسمى فى روض القرطاس أيضاً بحصن العقبان (ص ١٥٨) ، ويضع ابن خلدون تاريخها فى أواخر صفر سنة ٦٠٩ هـ (ج ٦ ص ٢٤٩) راجع أيضاً المراكشى ص ١٨٣ ، والحلل الموشية ص ١٢٢ والاستقصاء ج ١ ص ١٩٣ ،

(١) راجع روض القرطاس ص ١٥٩ ، والحلل الموشية ص ١٢٢ والمراكشى ص ١٨٣ .

أثناء الموقعة نحو مائة ألف فقط ، وهلك القسم الأعظم أثنـاء الفرار . ويقدر المطران أرنولد خسائر المسلمين خلال الموقعة بستين ألفاً فقط ، ويقول إنه من الممكن أن يكون قد هلك منهم أكثر من ذلك أثناء الفرار . وقدرت الأميرة القشتالية برنجاريا فى خطابها إلى أختها الملكة بلانكا ملـكة فرنسا ، قتلى المسلمين بخمسة وثمانين ألفاً منهم خمسة عشر ألف امرأة قتلن بعد الموقعة . بيد أن الروايات النصرانية الوثيقة تجمع على أن خسائر النصارى كانت ظفيفة جدا ، وتقدم إلينا أرقاما لا يمكن تصورها . ذلك أن الملك ألفونسو والمطران ردريك يؤكدان أنه لم يقتل من جانب النصارى سوى خمسة وعشرين ، ويقدر مطران أربونة خسائر النصارى بخمسين ، وتقدرهم برنجاريا بمائتين . وتقول الملـكة بلانكا فى رسالتها إلى أميرة شمبانيا أن قتلى النصارى بلغوا أربعين فى الهجمة الأولى . ولـكن من الواضح أنه حين المعارك الأولى فى بدء الموقعة حينما ارتد القشتاليون والفرسان أمام الموحدين بخسائر كبيرة ، لا بد أن يكون عدد القتلى من النصارى كبيراً ، ويقدم إلينا الراهب البريكوس الذى عاش قريباً من الموقعة ووعى أخبارها أحسن تفسير لهذا الرقم الضئيل لقتلى النصارى ، فيقول إنه هلك فى الموقعة من المسلمين مائة ألف ، ولـكن هلك من النصـارى فى نفس الوقت عدد كبير ، وإنه حينما انتهت الموقعة بالنصر ، لم يهلك من النصارى فى مطاردة المسـلمين سوى نحو ثلاثين مقاتلا .

وظفر الأسبان فى معسكر المسلمين بغنائم لا تقدر ، من الذهب والفضة ، وثمين الثياب ، والأقمشة الحريرية ، والبسط ، والآنية الثمينة ، والنقود . ولم يعمد إلى النهب سوى المشاة وقسم من الفرسان الأرجونيين ، بينما شغل باقى الفرسان بالقضاء على فلول الجيش المنهزم . ودهش الظافرون لما لقوا من دواب الحمل والمؤن ، ووجدوا من السهام وحراب الرى والرماح فى ميدان القتال وفى المعسكر كميات عظيمة حملوا وقودهم منها أياما ولم يأتوا مع ذلك على نصفها ، وذكر أحد المعاصرين أن نقلها كان يقتضى آلافا من دواب الحمل .

وقد أشارت النسخة المطبوعة من الرواية الأسبانيـة العامة التى تحمل اسم ألفونسو الحكيم ، والتى تفيض بالقصص الخرافية ، إلى الموقعة بإيجاز ، ولكنها تزعم أنه حدث قبيل الموقعة بقليل أن ظهر فى السماء صليب كبير شديد اللمعان بشيراً بالنصر المحقق . بيد أن هذه المعجزة لم يرد ذكرها فى رواية المطرانين اللذين شهدا الموقعة ولا فى رواية الملك ألفونسو ؛ بل لم يرد ذكرها فى النسخ الخطية الوثيقة للرواية الأسبانية العامة ، فمن الدهش إذاً أن نرى كثيراً من المؤرخين الأسبان يرددون ذكر هذه المعجزة ، ويعتقدون فى صحتها ؛ وهذا مما لا يشفع فيه أنها كانت تذكر فى العصر القديم ، فى القداس الذى يعقد فى ١٦ يوليه من كل عام فى طليطلة ، باسم « ظفر الصليب » .

وكان من آثار هذا النصر العظيم أن استطاع النصارى بسهولة أن يفتتحوا عقب الموقعة بأيام قلائل عدة حصون مثل فرال ، وبلقس وبانيوس وتولوزا وبياسة . ولم يكن فى بياسة سوى المرضى والضعاف ، والظاهر أنها كانت بمثابة المستشفى للجيش . وكان هؤلاء التعساء قد احتشدوا فى مسجد المدينة الكبير ، ينتظرون مصيرهم جزعين ؛ فشاءت قسوة النصارى أن يجهزوا عليهم جميعاً بالسيف ما عدا قلائل منهم أخذوا أسرى . بل ذهب النصارى الذين أعمتهم نشوة الظفر فى قسوتهم وبطشهم إلى أسفل درك حينما هاجموا مدينة أبده التى اعتصم بأسوارها القوية بعض فلول الجيش المنهزم وسكانها العزل ؛ وكان المسلمون يأملون نظراً لمناعة المدينة الطبيعية والحربيـة أن يردوا هجمات أعدائهم حتى يحل فصل الشتاء ، ونظم النصارى فى الواقع على المدينة هجوماً عاما خسروا فيه كثيراً من القتلى ، ولم يسفر عن أى نجاح ؛ لولا أن استطاع الأرجونيون أن يتسلقوا الأسوار فى أضعف نقطة فيها ، وأن يحتلوها . ولكن القلعة وباقى أطراف المدينة بقيت على ثباتها رغم جهود الأسبان ؛ وعندئذ رأى الملوك والقوامس أن خير الطرق وأكثرها إنسانية هى أن يقبل النصارى ما عرضه المسلمون ، وكان المسلمون حينما سقطت بعض أجزاء السور فى يد الأرجونيين قد خشوا العاقبة ،

وأرسلوا إلى الملوك النصارى يعرضون عليهم فدية قدرها ألف ألف قطعة من الذهب (دينار) على أن يتركوا المدينة حرة يسكنها المسلمون وفقاً لشريعتهم وشعائر دينهم ؛ وهكذا قبل العرض وعقد الملوك مع المدينة اتفاقات بهذا المعنى نظراً لما أنسوه من صعاب فى افتتاحها . ولكن الأحبار الظمئين إلى دماء المسلمين ، أعلنوا بطلان هذا الاتفاق ، وطلبوا أن تسلم المدينة دون قيد ولا شرط ، فشاء ضعف الملوك أن ينقضوا العهد المقطوع ، منتحلين لذلك عذراً ، هو أن المسلمين بعد أن فتحوا أبواب المدينة للنصارى ، لم يؤدوا الفدية المفروضة عليهم فى الحال ؛ وسرعان ما أطلق النصارى العنان لقسوتهم فى معاملة هؤلاء المنكودين ؛ فقتل من المسلمين فى أبده زهاء ستين ألفاً ، وسبى مثل هذا القدر ، وهدمت الدور بعد أن خلت المدينة من سكانها ، وعندئذ أبدى الأحبار رضاهم ، ورتلوا أناشيد الشكر ضارعين إلى المولى أن يشملهم برحمته .

وانساق النصارى بعد أخذ أبده إلى اللهو والاغراق ، وهما قرينا حسن الطالع والسمة ، حتى استنفدت المؤن بسرعة ، وشعروا بنقص شديد فى الحاجات الضرورية ؛ ثم دبت إليهم الأمراض وأهلكت منهم ألوفاً ، فاضطر الجيش أن يعود أدراجه إلى قلعة رباح ، دون أن يتابع نصره بعد ؛ وهنالك التقوا بالدوق ليوبولد النمسوى ، الذى قدم للعون فى كتيبة من الجند ، فشكروه على حسن اهتمامه ؛ ولما علم أن الحرب قد انتهت عاد مع قريبه الملك بيدرو إلى أراجون . ودخل الملكان الآخران طليطلة فى حفل فخم ، وسارا فى موكب لا نهاية له من الأمراء والأحبار والجند وأفراد الشعب ، إلى كنيسة العذراء حيث أقيمت صلوات الشكر على ما أوتوا من النصر ، وتقرر تخليداً لهذه الموقعة الظافرة أن يحتفل فى السادس عشر من يوليه كل عام فى طليطلة ، ثم فى قشتالة كلها فيما بعد ، باقامة حفل عظيم للشكر يسمى « بظفر الصليب » ، وأرسلت إلى البابا طائفة من الهدايا النفيسة منها خيمة حريرية ، وطبق كبير من الذهب ، وعلم محلى بالذهب ، وعرضت هذه الهدايا فى كنيسة القديس بطرس تذكاراً للنصر .

الفصل الثالث

بيدرو الثانى ملك أراجون

تحدثنا فيما تقدم عن القسط الذى قام به بيدرو فى محاربة المسلمين فى شبه الجزيرة ، ولا سيما عما قام به فى موقعة العقاب ، وكذلك عن تحالفه مع قشتالة ضد ليون ونافارا ، ونقتصر هنا على التحدث عنه فيما يتعلق بتاريخ أراجون وحدها .

خلف بيدرو الثانى ، وهو فى الثالثة والعشرين ، فى الحكم أباه ألفونسو ، فى ١٦ مايو سنة ١١٩٦ ؛ والظاهر أن أمه الملكة سانشا حاولت أن تنتهز فرصة حداثته فتنازعه الحكم ولقب الملك . ذلك أنه لم يضع يده على المملكة ، ولم يتلقب بألقاب الملك الا بعد ذلك ، فى المجلس الذى عقد فى دروقة فى ١٣ سبتمبر سنة ١١٩٦ بموافقة الطبقات الثلاث والملكة الأرمل ؛ وفيه جددت أيضاً جميع القوانين والحريات التى صدرت عن ألفونسو الأول ، وراميرو الثانى ، وريموند برنجار الرابع ، وصودق عليها .

وما كاد بيدرو يلى الحكم حتى عمد إلى العمل على تأييد سلطة العرش ضد أتباعه الأقوياء من البارونات ، وهم عقب الفاتحين الأوائل ، فاسترد الوظائف العليا والإقطاعات التى كانت تتوارثها الأسر الكبيرة وفقاً للتقاليد ، معتمداً فى ذلك على حقوق العرش ، وذلك لكى يوزعها من جديد وفق رأيه وتقديره . بيد أنه رأى اتقاء لما يثيره ذلك من سخط الأشراف أن يترك لهم الأراضى المقطوعة وما يتعلق بها من حقوق القضاء الأدنى لتبقى لهم بطريق التوارث ؛ وذلك بشروط خاصة تتعلق بالإخلاص للعرش ومعاونة الجيش وغيرها . أما السلطة القضائية

فتعود إلى الملك . وقد قام الملك يومئذ بتوزيع خمسمائة وسبعين ضيعة إقطاعية من سبعمائة توزيعاً جديداً ، ولكن المرجح أن أصحابها لم يذعنوا جميعاً لهذا التغيير . أما القضاة فكان يعينهم الملك ، إما لأجل معين أو لمدى الحياة ؛ وكان يختارهم من أكابر الأشراف (البارونات) Ricos أو يختارهم من بين صغار الناس ، أعنى من بين الفرسان Cavalleros بيد أنه كان يختارهم فى الغالب من بين هؤلاء ؛ وكان يعين دائماً فارساً فى منصب قاضي القضاة لكى يحد من نفوذ البارونات القوى حداً شديداً . وقد كان هذا فيما يبدو منشأ القضاء الأرجونى ، الذى علا سلطانه فيما بعد على سلطان الملك ذاته . وكان القاضى الأكبر ، أو قاضى القضاة ، فى عصر بيدرو الثانى الذى يعتبر مؤسس هذه السلطة القضائية ، يعتبر أعظم سلطة فى الدولة ، لا بالنسبة للرعية فيما بينهم فقط ، ولكن أيضاً فيما يتعلق بمنازعات الرعية ضد العرش . وكان عليه أن يحمى حقوق الحكومة ، وأن يمثل — باعتباره كبير القضاة — شخص الملك . كما أن عليه أن يحمى حقوق الأشراف والرعية من أطماع الملك ؛ وكان يتوقف على براعة الإدارة الحكومية ما إذا كانت هذه السلطة القضائية العليا يمكن أن تعمل لتوطيد السلطة الملوكية وتقويتها أم لا ، وقد كانت فى الحالة الأخيرة تنتزع من السلطة الملوكية أهم امتيازاتها .

وقد فقدت الاثنتا عشرة أسرة من البارونات — وهى التى كانت حتى عصر بيدرو الثانى تقبض فى أراجون على معظم الأراضى والغلات ، وتسيطر على الجيش والفرسان ، عدا السلطة القضائية ، فى ظل بيدرو الثانى — امتيازها فى الانفراد بتكوين طبقة الأشراف . ورفع بيدرو بعض موظفى البلاط ، والفرسان الذين يصطفيهم ، إلى طبقة الأشراف العليا ، وأقطعهم جزءاً من الأراضى والغلات ؛ فاستطاعوا بذلك أن يقتدوا بالبارونات فى استئجار الفرسان ، وأطلق عليهم أيضاً لقب البارونات Ricos ، بيد أنه كان يطلق عليهم بارونات البلاط أو البارونات الملكيون de Mesnada تمييزاً لهم من البارونات بالمولد . وكان هذا تقليداً للنظام القوطى فى تقسيم الأشراف إلى قسمين يطلق عليهما Gardingi و Palatini ؛

والأولون هم الذين يستطيعون وفقاً لمولدهم وحقوقهم أن يملكوا الأرض ، والآخرون هم الذين يتولون الوظائف ويملكون الأرض بمنحة من الملك .

وفضلا عن ذلك ، فقد كانت الأمة فى أراجون وفى معظم الممالك النصرانية الأسبانية تقسم من حيث التمتع بالحرية إلى سبع طبقات ، أو بالحرى إلى سبعة دروع على مثل ما كانت عليه فى ألمانيا وفرنسا وإيطاليا ؛ والدرع الأول يحمله الملك ، لأنه ليس مسئولا أمام أحد ، والثانى يحمله أكابر الأحبار ، والثالث البارونات بالمولد ، لأنهم لا يسئلون إلا أمام الملك فقط ؛ والرابع البارونات الملكيون ، إذ هم عرضة للمسئولية أمام البارونات بالمولد ، وإن كانوا مثلهم فى حق التمتع بامتلاك الأرض . ومن هذه الطبقات الأربع تتألف طبقة الأشراف العليا . والطبقة الخامسة هم حملة الأعلام الأحرار الذين لا يؤدون جزية ما ، والسادسة تتألف من الفرسان ، وهم الذين يقطعهم البارونات من الصنفين ؛ والطبقة السابعة والأخيرة تتألف من باقى الأحرار ، وعامة سكان المدن الأحرار الذين ولدوا فى ظل الزواج .

وكانت مملكة أراجون قد نقصت مساحتها على أثر وفاة ألفونسو الثانى ، وذلك نظراً لاقتطاع ولاية بروفانس منها وإعطائها لأخى بيدرو الأصغر ألفونسو ، ولكن حدودها أصلحت بذلك ، وتخلصت من تلك المقاطعة النائية التى كانت ترغم دائما على حمايتها بالسيف من عدوان جيرانها الطامعين . بيد أن علائق الأخوين بقيت وثيقة ؛ ولما هاجم ألفونسو أمير (كونت) بروفانس ، الكونت دى فوركالكييه وحلفاؤه ، خف بيدرو إلى إنجاد أخيه فى جيش ضخم ، وارتاع الأعداء ، فأذعنوا إلى طلب الصلح ، وعقد الصلح بين الفريقين فى سنة ١٢٠٢ م .

وعلى أثر ذلك عقد بيدرو قرانه بمارى ابنة الكونت جيوم الثامن صاحب مونبلييه ، ووارثته بعد وفاته فى ١٢٠٢ م ؛ وكانت هذه الأميرة قد اقترنت من قبل بالكونت برنار دى كومنج ، وطلقت منه بحجة القرابة ؛ وفى يونيه سنة ١٢٠٤ ، احتفل ملك أراجون بزواجه بمارى ، وتعهد بألا يتصرف فى شىء من

أراضيها الموروثة ، كما تعهد لسكان مونبلييه الذين وافقوا على هذا الزواج بحمايتهم وتركهم أحراراً فى التمتع بعاداتهم وتقاليدهم .

وبعد أن انتهى بيدرو من تنظيم شؤون مملكته الداخلية ، بعقد المجالس النيابية ، وأخمد المنازعات الداخلية ، وعمل على الحد من غطرسة الأشراف ، وعقد الصلح مع أمه سانشا ، وكانت ذات صلة وثيقة بكثير من الأمراء التابعين ، وكانت تؤلف حزباً لمناوأة العرش ، فكر فى أن التاج الأرجونى قد يكسب كثيراً من القدس والاعتبار إذا تسلمه من يد رجل من رجال الدين ؛ وكان بيدرو يشغف بمظاهر البذخ والبهاء ؛ بيد أن ذلك لم يكن وحده هو الباعث على ما اعتزمه من أن يتوج فى رومه ؛ ولكنه كان يعول بالأخص على أن مثل هذا التتويج يدحض دعوى الأشراف الأرجونيين فى أنهم أصحاب الحق فى منح التاج ، ويقضى نهائيا على دعاوى ملوك قشتالة ، الذين كانت لهم السلطة العليا على أراجون حتى سنة ١١٧٧ م . وعلى ذلك فقد سافر بيدرو فى حاشية كبيرة من الأشراف القطلونيين والبروفنسيين ورجال الدين ، إلى مرسيليا ثم إلى جنوه ؛ ثم غادر وحاشيته جنوه فى خمس سفن بحجة السفر إلى بيزا ليعقد معها حلفاً لغزو الجزائر الشرقية (البليار) ، ولكنه لم يقف فى بيزا بل رسا عند مصب نهر التيبر فى ٨ نوفمبر سنة ١٢٠٤ ؛ وكان البابا أنوسان الثالث قد رتب كل شىء للاحتفال باستقباله فى رومه .

وفى اليوم الثالث من مقدم بيدرو ، فى يوم القديس مارتن ، خرج البابا والكرادلة فى جمع حافل من رجال الدين والأشراف والشعب إلى دير « بنكراتيوس » وهنالك بارك أسقف أوستيا ملك أراجون أمام الجمع الحاشد ؛ ثم وضع البابا التاج على رأسه ، وقدم إليه شارات الملك . وعلى أثر ذلك ألقى الملك القسم الآتى :
« أنا بطرس (بيدرو) ملك أراجون أقسم وأتعهد ، بأن أكون دائما مخلصاً ومطيعاً لسيدى البابا أنوسان وخلفائه ، وأن تكون مملكتى على مثل هذا الإخلاص والطاعة ، وأن أحافظ على دين الكثلكة وأقمع كل ضروب الإلحاد ،

وأن أحمى حريات الكنيسة وحقوقها ، وأن أعمل على تحقيق العدالة والسلام فى جميع أراضى المملكة ؛ كان الله والإنجيل فى عونى » .

وبعدئذ سار بيدرو فى ثيابه الملوكية بجانب البابا إلى كنيسة القديس بطرس ؛ ووضع على هيكلها التاج والصولجان ، رمزاً إلى أنه يقدم مملكته إلى القديس بطرس ، وهنا قدم إليه البابا السيف ، دلالة على أنه يرد إليه المملكة مع خضوعه لأداء الجزية ؛ ووضع بيدرو على الهيكل وثيقة ، يقدم فيها مملكته إلى كرسى القديس بطرس ، ويتعهد هو وخلفاؤه بأن يؤدى إليه جزية سنوية قدرها ستون قطعة من الذهب ، ويتطلب نظير ذلك حماية البابا وتعضيده .

وصدر قرار بابوى يحدد رسوم التتويج لملوك أراجون وملكاتها ؛ وملخصه أنه يجب أن يجرى التتويج فى سرقسطة على يد مطران طركونه باسم البابا ، وذلك بعد أن يطلب الملك الإذن بذلك إلى صاحب السيادة عليه فى رومة .

ولما عاد بيدرو إلى مملكته ، أبدى البارونات والفرسان تذمرهم من خضوعه لأداء الجزية للكرسى البابوى ، وحاول الملك أن يهدئ خواطرهم بتأكيده أنه تنازل عن حقوقه هو ولم يفرط فى شىء من حقوقهم ، بيد أنهم رأوا فى هذا التصرف افتئاتاً على حقوقهم خصوصاً عند اختيار الملك فى حالة انعدام الوارث المباشر ، ورأوا أنه يحمل المملكة فروضاً جديدة لا تعود عليها بأية فائدة . وكذلك رأوا أن هذه الخطوة من جانب بيدرو فى تحرير السلطة الملوكية من نفوذهم تقضى على كثير من ضروب تدخلهم فى حقوق العرش . ذلك أنه لم يكن من المعقول أن يخضع بيدرو الطموح مختاراً لأداء الجزية دون أن يحقق من وراء ذلك مغانم خاصة ؛ وقد كان أهون عليه أن يرتضى الخضوع الأسمى للبابا البعيد ، من أن يرغم على الخضوع لصولة الأشراف الأقربين .

على أن بيدرو لم يحفل لسخط الأمراء التابعين ، يدل على ذلك ما عمد إليه فى العام التالى من اتخاذ إجراءات كان من المحقق أن تزيد فى هذا السخط ؛ ذلك أنه لما كان مثل كثير من أسلافه ، قد بدد ثروات العرش وموارد الدولة بالإغداق

على الكنائس والأديار ، والمبالغة فى البذخ والإسراف ، فقد رأى نفسه مضطرا للقيام بأعبائه الكبيرة ، إلى فرض ضريبة جديدة . وكانت موارد العرش قد أنفق معظمها فى هبات إلى رجال الدين وجماعات الفرسان ؛ ولم يبق من الميسور أن تسد الضريبة العادية كثيراً من المطالب نظراً لأن جميع الأحبار والأشراف والقادة كانوا يعفون من أدائها ، وكانت تعفى منها كذلك مدن بأسرها مثل سرقسطة . ففى نوفمبر سنة ١٢٠٥ ، أصدر بيدرو مرسوما ملكيا بفرض ضريبة جديدة عرفت باسم Monedaje ، وبمقتضاه يجب على جميع الأشراف الأكابر منهم والأصاغر ، وكذلك الرعايا الأحرار فى المدن ، أن يؤدوا عن جميع الثروات العقارية والمنقولة ، اثنى عشرة فلساً عن كل ما قيمته جنيه . ولم يستثن رؤساء الجند — الذين كانوا يعفون دائما من الضرائب — من أدائها ، إلا إذا التحقوا بهيئة الفرسان . وقد كان هؤلاء يخدمون فى الجيش باستمرار ، وعليهم أثناء الحرب — فضلا عن الإنفاق على أنفسهم — أن يتحملوا نفقات إنشاء الطرق وأسوار الحصون والأبواب والقناطر وغيرها ، ولهذا كان من الإجحاف أن يعامل هؤلاء مثل غيرهم فى شأن الضرائب .

وما كاد بيدرو يصدر قراره بتلك الضريبة الجائرة ، حتى قامت ضده جميع طبقات الشعب ؛ واتحد البارونات والفرسان ، أعنى أكابر الأشراف وأصاغرهم — وقد كانت مصالحهم تتعارض دائما — على مقاومة الضريبة الجديدة ، بقواهم المشتركة ؛ وحذت حذوهم مدينة سرقطسة التى اتحدت مع المدن الأخرى فى تنفيذ هذه الخطة ؛ واضطر الملك إزاء ذلك إلى تخفيض الضريبة الجديدة ، ولكنه لم يسحب قراره بشأنها ، وهكذا كانت هذه الضريبة ، أحياناً معتدلة وأحياناً جائرة وفقا للظروف والأحوال .

وليس أدل على ما كان يشعر به بيدرو من حاجة إلى المال أحياناً ، من أنه أثناء محاربته لسانشو السابع ملك نافارا (سنة ١٢٠٩ م) اضطر بالرغم من سير الحرب فى صالحه أن يعقد معه الصلح ، نظير حصوله على عشرين ألف قطعة من

الذهب ، وأنه فى الحرب التى شهرها على المسلمين ، والتى انتهت بهزيمتهم فى أبدة لم يكن ليستطيع القيام بها ، لو لم يأذن له البابا فى الحصول على قسط من إيراد كنائس المملكة للانفاق عليها . وقد سنت فى ذلك الحين فى قطلونيـة ضريبة أخرى ، فرض أداؤها على كل من يملك ثورين ، وما لبثت أن فرضت فى أرجاء المملكة كلها .

ولما انتهى بيدرو من الحرب فى أبدة (سنة ١٢١٢م) ، استطاع لأول مرة أن يوجه كل عنايته إلى أملاكه فيما وراء البرنيه . وكانت حروب الألبيين قد أثارت فى هذه المنطقة اضطرابات عظيمة . وليس من موضوعنا أن نتحدث عن قيام فرقة « الفلدبين » الملحدة[1] وانتشارها فى تلك الأنحاء ، ويكفى أن نقول إن المجلس الكنسى الذى عقد فى « لومبر » فى سنة ١١٦٥م ، قد قضى باللعنة على سكان لانجدوك الثائرين ، الذين عرفوا فيما عدا ذلك بالاجتهاد والسكينة . لكن لم يوجد فى ذلك الحين من يضطلع بتنفيذ هذا الحكم ، ولم يرغب ملكا إنكلترا وفرنسا فى إجراء هذه المطاردة المنيفة ضد الملاحدة بالسيف . بيد أنه لما أصدرت اللجنة البابوية فى سنة ١١٧٨م ، حكمها ضد إقليم «ألبى» كله ، عمد الكونت روجيه الثانى صاحب بزييه وقرقشونة وألبى ورازيه ، وهو من أتباع الكونت دى تولوز وملك أراجون إلى الدفاع عن رعاياه ؛ فاضطر البابا عندئذ إلى أن يصدر ضد الكونت قرار الحرمان الكنسى ، وأن يرسل إليـه حملة صليبية ولكنه لم ينتج من وراء ذلك شيئاً ؛ والظاهر أن ألفونسو الثانى ملك أراجون لم يكن يرى فى هذه القلاقل الالحادية ، سوى وسيلة لتوطيد هيبته فى لانجدوك ضد الكونت دى تولوز ، ولهذا كان يجتنب كل ما يمكن أن يثير ضده سكان هذه الأنحاء ؛ ولم يكن مع ذلك يحابى الملاحدة ، ولكنه كان من جهة أخرى يقاوم كل إجراء عنيف يحاول وكلاء الكرسى البابوى القيام به ويجعله عبثاً ، وذلك

(١) هم فرقة من الملاحدة مثل الألبيين ، أنشأها بطرس فالدس Peter Waldes وهو تاجر من ليون ، فى سنة ١١٧٦م ، وقد انتشرت فى بروفانس ولومبارديا وشمال اسبانيا .

بالتخلى عن حمايتهم ؛ على أن ابنه وخلفه بيدرو الثانى كان فى ذلك أشد وطأة ؛ ذلك أنه ما كاد يرقى العرش ، حتى أصدر عدة قرارات ضد الملاحدة الذين حرمتهم الكنيسة ، وأمرهم بمغادرة أراضيه ، وإلا كان نصيب المخالفين نزع أملاكهم وإعدامهم حرقاً . ولما زار بيدرو لانجدوك فى سنة ١٢٠٣م ، معتزماً السفر إلى رومة ليتوج هنالك ، أبدى ميله إلى التدخل بحزم فى شأن هذه القلاقل الالحادية ، وحرضه بالأخص بعض الأساقفة الأسبان والقديس دومنيك على أن يستأصل شأفة الالحاد فى الحال بالنار والسيف ؛ ولما زار قرقشونة ، حيث اعتنق جميع السكان تقريباً مبادئ « الفلديين » ، استدعى بعض الفلديين أمام مندوب البابا ليشرحوا مذهبهم ، وليحكم بنفسه على ما إذا كانت مبادئهم تخالف الدين . وقد اقتنع الملك بأن مبادئهم تخالف تعاليم الكنيسة الكاثوليكية ، وأن التهم التى يرمون بها كانت صحيحة عادلة ؛ وفى حفلة تتويجيـة فى رومه ، تعهد بيدرو بألا يدخر وسعاً فى مطاردتهم وسحقهم . على أنه لم يتمكن من تحقيق خطته ، نظراً لما نشب بينه وبين سكان مونبلييه من منازعات ، ولما اضطر إليه من تخصيص جميع عنايته لمقاومة الأشراف الثائرين فى أراجون ؛ هذا إلى ما كان يراه من أن محاربة المسلمين كانت أهم وأجدى .

أما عداوته للفلديين ، فتبدو واضحة فى أنه حينما أرسل البابا أنوسان حملة صليبية ضد الكونت ريمون روجيه صاحب بزبيه ، والتمس الكونت إلى بيدرو معاونته بوصفه تابعاً له ، أبى بيدرو ، وخربت بزبيه وقتل أهلها سواء كانوا ملاحدة أو مؤمنين ؛ وأنقذت أربونة نفسها بالمبادرة إلى الخضوع ؛ وأما قرقشونة التى تولى الكونت بنفسه الدفاع عنها ، فقد أرغمت — بعد أن رفض بيدرو الشفاعة المنشودة فى شأنها — على التسليم من أثر الجوع ؛ وأسر الكونت ، ولبث طويلا فى الأسر ، ثم قتل بطريقة لا نعرفها ؛ ومنح المندوب البابوى أملاك الكونت الأسير إلى الكونت سيمون دى مونفور دون أن يستأذن فى ذلك صاحب الجزية . وغضب ملك أراجون من ذلك أيما غضب ، وأبى إقرار هذا التصرف ،

وشجع فرسان الولاية على الثورة ضد سيمون بأن وعدهم بالتأييد والعون . بيد أنه كان من صفات بيدرو أن لا يثبت فى تصرفاته على حال ، ولا يفى بعهوده ووعوده . ذلك أنه مالبث أن نزل على رغبات البابا ، لكى يحصل بذلك على طلاق زوجه النبيلة مارى دى مونبلييه ، وصادق على تعيين سيمون دى مونفور أميراً (كونتاً) لقرقشونة ، أملا فى تحقيق هذا الطلاق . وفى سنة ١٢١١ م ، تلقى ملك أراجون عهد الطاعة من الكونت ، ووعد فوق ذلك بتزويج ابنه «جايم» أو يعقوب من بنت الكونت ، وأرسل ابنه الطفل مع الكونت ليتربى فى بلاط قرقشونة ، عربونا للوفاء بهذا الوعد .

بيد أنه ما كاد يرضى البابا ، ومطارد الألبيين (يريد الكونت دى مونفور) بهذا التساهل ، حتى عاد فأغضبهما ، بتحالفه الوثيق مع الكونت ريمون دى تولوز الذى كان المندوب البابوى وسيمون دى مونفور يعملان لاغتصاب ولايته ، ورأى الكونت ريمون أن يعمل على اجتناب ذلك ، فتنازل عن الولاية لابنه الذى زوجه ملك أراجون بأخته سانشا . ولما عمد سيمون دى مونفور إلى حصار تولوز ، ردعنها بخسارة . ولكن سيمون الذى سما ببراعته الحربية ما لبث أن استرد طالعه ، وعاد — ضد إرادة البابا — يتابع بنفسه فتوحاته فى أراضى الكونت دى تولوز ؛ وعندئذ حاول صهره بيدرو أن يسعى لدى البابا بكل ما وسع لعقد الصلح بين الفريقين ؛ فعول البابا على عقد مؤتمر اجتمع فى مدينة آرل فى سنة ١٢١١ م ، تحت رياسة المندوب البابوى ؛ وشهده ملك أراجون والكونت دى تولوز . ولكن طلبت إليهما شروط مهينة فغادرا المدينة آسفين ؛ وأصدر المؤتمر قراره ضد الأضعف أى الكونت دى تولوز ، بالحرمان الكنسى ، ووافق البابا على هذا القرار ؛ وتولى الكونت سيمون دى منفور تنفيذ هذا القرار بنجاح خصوصاً وأن ملك أراجون كان مشغولاً فى ذلك الوقت بمحاربة المسلمين فى موقعة العقاب .

ولما عاد بيدرو إلى مملكته وعلم بما أصاب الكونت دى توز وزه

الكونت دى فوا والكونت دى كومينج من الشدة على يد الحملة الصليبية ، عول على التدخل لدى البابا من أجل أصدقائه مرة أخرى . ولكن كل ما استطاع الوصول إليه هو أن المسألة كلها بحثت فى مؤتمر جديد عقد فى « لافور » ، وحال فيه عنت المندوبين البابويين وتعصبهم دون الوصول إلى أية تسوية ، ورفضت فيه أعدل المطالب بإباء مثير ، بل لم يبلغ فيه التماس الكونتات إلى البابا .

فعندئذ استشاط بيدرو لذلك غضباً ، واعتزم أن يساعد الكونتات الطاردين وأن يحميهم بكل ما وسع ، وأن ينزل ميدان الحرب ضد خصومهم جهاراً ؛ ووجه نقمته بادئ ذى بدء إلى تابعه الكونت سيمون دى مونفور أداة العنف البابوى ، ودعاه إلى النزال ، وأعلن بطلان حق الجزية الذى منحه إياه ؛ فحاول الكونت فى البداية أن يهدئ غضب الملك ، ولكنه لما رأى خيبة مسعاه نهض لمقاومته مع جميع السادة التابعين له وأعلن الحرب ضده جهاراً فى خدمة الكنيسة . ولم تثمر دعوات البابا عندئذ إلى السلم ، ولم يحدث وعيده لبيدرو بالحرمان إذا لم يكف عن حماية الملاحدة أثراً ؛ ذلك أن التعصب والخبث كانا يرميان بالإلحاد عندئذ كل مجاهد ضد العنف والظلم والجشع .

ونزل بيدرو ميدان الحرب فى ربيع سنة ١٢١٣ م إلى جانب الكونت دى تولوز والكونت دى فوا والكونت دى كومينج ، معتزماً أن يرد عليهم أملاكهم. ولما وصل إلى قلعة موريه التى تقع على قيد بضع ساعات من تولوز وحاصرها خف سيمون دى مونفور فى جيشه الصليبى إلى لقائه . ولما كان الحلفاء قد أهملوا احتلال المضايق الجبلية التى كانت تحول دون تقدم الجيش الصليبى ، فقد استطاع هذا الجيش أن يعبر نهر الجارون وأن ينفذ إلى قلعة موريه المحاصرة ، وأن يدعو بيدرو إلى خوض المعركة فى اليوم التالى ، وهو الموافق ١٣ سبتمبر سنة ١٢١٣ ، وكان ملك أراجون فى تصرفه فارساً شجاعاً أكثر منه قائداً حريصاً . ذلك أنه رفض نصح الكونت دى تولوز الحكيم بأن يترك الهجوم للعدو ، حيث يصبح نصرهم فى تلك الحالة أمراً محققاً ، وحملته شجاعته وشهوته للحرب أن يستبدل سلاحه

الملكى بسلاح فارس ، وأن يتقدم إلى لقاء العدو فى أول صف ؛ على أنه عرف ، بالرغم من تنكره ، ووجه الأعداء الهجوم إليه ؛ ولكن الملك البطل لم يرعه ذلك ولبث يرد الفرسان الذين ينقضون عليه من كل صوب ، حتى سقط صريعاً ؛ وكان موته ضربة شديدة للجيش المتحالف الذى كان مؤلفاً بالأخص من الجند المشاة ؛ ومع أنه لم يشتبك فى الموقعة بعد — إذ الواقع أن بيدرو كان يقاتل فى نفر من الفرسان ، فرسان الصليبيين بقيادة الكونت سيمون — فإنه لم يلبث أن ركن إلى الفرار بلا انتظام وقد سرى إليه الروع ، وحلت به الهزيمة الساحقة ؛ وزعم خصومه بذلك أن نصرهم كان معجزة ، إذ قالوا إنهم استطاعوا بألف وخمسمائة مقاتل — هم الفرسان الذين اشتبكوا مع فرسان بيدرو — أن يهزموا جيشاً من مائة ألف .

وقد اشتهر بيدرو حتى بين خصومه بالفروسة والشجاعة ؛ وكان يدعمهما ما يتمتع به من قوام ضخم ، وقوة جسمية نادرة . وكانت خلاله مثل معاصره الملك رتشارد الإنكليزى مزيجاً عجيباً من العواطف النبيلة والكريمة والملوكية ، مع الصلابة والقسوة والإسراف والتهتك . وكان شاعراً غنائيا (تروبادرو) — وقد انتهت إلينا قصيدة من شعره — ومغنياً للحب ، وحامياً كريماً للنساء ، ولكنه كان فى تصرفه نحو الأم والزوج قاسياً متجنياً . وكان كثير التقلب فى أهوائه ؛ وقد أراد أن ينفصل عن زوجه النبيلة مارى دى مونبلييه التى اشتهرت بالفضيلة والتقى ؛ والظاهر أن البابا أنوسان الثالث كان يميل فى البداية إلى إجابة مطلبه ، ولعل ذلك من باب السياسة حتى يستميل إليه بيدرو ؛ فلما أعلن بيدرو نفسه حامياً ومدافعاً عن الأمراء المطاردين فى لانجدوك ، أبى البابا نزولا على نصح الكرادلة أن يمنحه الطلاق المرغوب .

الفصل الرابع

تاريخ مملكتي ليون وقشتالة

منذ موقعة العقاب حتى اتحادهما

ما لبثت المنازعات أن ثارت بين ليون وقشتالة عقب موقعة العقاب والنصر على الموحدين ، وأضرت بسير الفتوح ؛ ثم اقتضى التزامَ المدنة والقعود عن الحرب لخطٍ مروع ، عصف بشبه الجزيرة كلها ، ولا سيما قشتالة ، وقضى الجوع على حياة ألوف عديدة ، واضطر الموسرون أنفسهم إلى تناول أغذية كانوا يأنفون منها من قبل ، ومن ثم كان من المتعذر التفكير فى تنظيم حملة كبيرة لمقاتلة المسلمين ، وأخفقت الحملات الصغيرة التى نظمت لأن الجيوش كان ينقصها الطعام .

ولم يمض سوى قليل على مقدم ألفونسو النبيل إلى طليطلة عاصمة مملكته ، حتى وصلته الأنباء باعتداء ملك ليون على أراضيه . وكان ملك ليون قد احتل القلاع الواقعة على ضفاف دويرة على حدود المملكتين عقب إخلائها من الجند ، وادعى أن قشتالة انتزعتها ظلماً من ليون ، وشجعه هذا النجاح على إعلان الحرب على ملك البرتغال أيضاً ، وكان قد استولى عنوة على أملاك أختيه ؛ وسار ألفونسو ملك ليون من مدينة ردريك وجليقية بجيشين لمحاربة البرتغاليين ، وهزمهم هزيمة ساحقة فى « بورتلا دى بالديفر » .

ولم يكن ألفونسو النبيل ملك قشتالة إزاء اضطرام الخصومة بين الأمراء النصارى على هذا النحو ليتوقع نجاحا فى محاربة المسلمين ؛ وكان ألفونسو أقل

هؤلاء الملوك أطماعا ، وكان يرجو مخلصاً أن يسود السلام بين النصارى ، ولهذا لم يكن يتردد فى بذل أية تضحية تقتضيها مصلحة اسبانيا . وقد سعى إلى عقد الصلح بين ليون والبرتغال ، ليستطيع حملهما على التعاون فى حملة مشتركة ضد المسلمين ، وزاد على ذلك أن نبذ كل فكرة فى استرداد الأماكن التى انتزعها الليونيون قسراً على حدود مملكته ، ورأى أن يهدم بعض القلاع المجاورة تطميناً لملك ليون وإزالة لشكوكه ، وفى نظير ذلك وعده ألفونسو ملك ليون بالمعاونة فى الحملة القادمة ضد الموحدين . ولكن ألفونسو ملك قشتالة نزل وحده إلى ميدان الحرب فى أوائل العام التالى فى سنة ١٢١٣ م ، ومع أنه افتتح القصر (أو قصر أبى دانس) وتقدم بجيشه من طلبيرة إلى بسائط أشبيلية ، فان الحملة كلها أخفقت لأن الأمداد الليونية والبرتغالية لم تصل به واستطاع المسلمون فى أشبيلية أن يردوا فرق النصارى الخفيفة ، وأن يغيروا بإمرة قائدهم على أراضى قشتالة ، بيد أنهم عادوا فارتدوا بسرعة أمام أهل طليطلة .

وفى أواخر هذا العام وفى ألفونسو ملك ليون بعهده ، وسار إلى محاربة المسلمين ؛ وزحف إلى القنطرة تعاونه فرقة من الفرسان القشتاليين واقتحمها ، بينما سار ملك قشتالة إلى الأندلس معولا أن يلتقى هنالك بجيش ليون ؛ ولكنه علم أن ملك ليون بعد أن حاصر « كاسيرس » عبثاً ، ارتد إلى أراضيه ؛ فوجه عندئذ جيشه إلى أشبيليه ، وسار إلى بياسه وحاصرها ثلاثة أشهر دون جدوى . ولكنه اضطر من جراء نقص المؤن وتفشى المرض وشدة الإعياء فى جيشه أن يعود أدراجه دون أن يحقق شيئاً يذكر .

والظاهر أن القحط المظلم الذى عصف باسبانيا يومئذ ، قد أرغم قادة الحرب على أن يلتزموا السكينة حينا ، فلا تحدثنا بشىء من أخبار الحرب فى أوائل سنة ١٢١٤م ؛ وفى ذلك الحين سار ألفونسو ملك قشتالة إلى برغش ودعا ألفونسو ملك البرتغال إلى لقائه فى « بلازنسيا » على حدود المملكة ، وربما دعى ألفونسو ملك ليون إلى هذا الاجتماع أيضاً . ومن الواضح أن هذا الاجتماع المدبر كان يرمى أولا

إلى توثيق أواصر السلام بين القصور النصرانية المتجاورة المرتبطة بروابط القربى، وثانياً إلى تنظيم حملة مشتركة ضد أعداء النصرانية ؛ ولكن حدث أثناء هذه التدابير أن مرض ملك قشتالة وهو فى طريقه إلى بلازنسيا ، فى قرية على مقربة من اريفالو . وفى السادس من أكتوبر سنة ١٢١٤ توفى ألفونسو النبيل ، ومن حوله زوجه الملكة الينورا وابنته برنجاريا والمطران ردريك الطليطلى ؛ وتوفى فى الثامنة والخمسين من عمره ، بعد أن حمل لقب ملك قشتالة أكثر من خمسين عاما ، ودفن فى دير لاس ولجاس فى برغش ؛ ولبثت صورته التى رعا رسمها مصور معاصر ، محفوظة — عصراً — فى إحدى كنائس برغش ؛ وهو يبدو فى هذه الصورة متوسط القد بوجه وسيم يفيض حياة ، وجبهة مستديرة ، وشعر أسود ، وعينين زرقاوين ، وأنف أقنى . وتجمع الروايات كلها على مديحه ؛ وكان يتقد حماسة لنشر الدين المسيحى ، ومن ثم كانت غزواته المتوالية ضد المسلمين ، وقد ضحى فى هذا السبيل بما لم يضحه أى ملك أسبانى آخر فى هذا العصر ؛ وكان بذله للكنائس والأديار ، وعطفه على الفقراء ، وعدله الشامل ، وشهامته نحو الأعداء ، وشجاعته فى الحروب ، تكسبه احترام الأحبار والفرسان والشعب ، وكذلك احترام المسلمين . وقد عمل بالأخص على رفع شأن الطبقة الوسطى لتكون عضداً جديداً للعرش ضد مطامع أمراء المملكة الأقوياء ؛ وكان نصيراً للفنون والعلوم ، وقد خلد ذكراه بإنشاء أول جامعة نصرانية فى اسبانيا ؛ وأنشئت فى بالانسيا فى سنة ١٢٠٩م ، بناء على اقتراح المطران ردريك الطليطلى — وكان عالماً كبيراً قام بدراسات كثيرة فى باريس وإيطاليا — كراسى لدراسة العلوم الدينية والمدنية ، واستدعى لها الأساتذة من فرنسا وإيطاليا ، وأجريت عليهم الأرزاق السنوية ، وعنيت أيضاً برعاية الفنون على يد أقطاب الفن . ونقلت هذه الجامعة النصرانية الأولى فى اسبانيا فيما بعد إلى بلد الوليد ، وليس إلى شلمنقه كما زعم خطأ بعض الكتاب المحدثين . وكل ما يأخذه المؤرخون الأسبان على هذا الملك العظيم أنه كان يشغف بيهودية حسناء شغفاً مبرحاً ، وأنها لبثت سبعة أعوام تسيطر عليه ،

وفى وسمنا أن ندرك لماذا لزم الحبران المعاصران ، ردريك الطليلى ولوقا التطيلى ، الصمت إزاء هذا الغرام المشين فى هذا العصر .

ولم يعش من أبناء ألفونسو الأربعة من بعده سوى أصغرهم هنرى الأول ، وكان وقت وفاة أبيه فى العاشرة من عمره . وتولت أم الملك القاصر الملكة الينورا الحكم بالوصاية عليه لأيام قلائل فقط ، ثم لحقت بزوجها إلى القبر فى ٣١ أكتوبر سنة ١٢١٤ م .

وعندئذ تولت الوصاية على الملك أخته برنجاريا ، وهى مطلقة ألفونسو التاسع ملك ليون ؛ وكانت كبرى بنات ألفونسو النبيل ، وقد جعلها أبوها الملك فى وصيته وارثة العرش إذا توفى أخوها وعاشت من بعده ؛ أما أخواتها الأصغر منها فكن ، أورا كا زوجة ألفونسو الثانى ملك البرتغال ، وبلانكا زوجة لويس الثامن ملك فرنسا ، والينورا التى تزوجت فيما بعد من يعقوب (جايم) ملك أراجون . وأثار تولى برنجاريا للوصاية أيما قلق ؛ ذلك أن الكبراء القشتاليين الطامعين كانوا يكرهون أن يربى ملكهم المستقبل على يد امرأة ، ويكرهون من جهة أخرى أن تبقى الحكومة حتى بلوغ الملك لرشده — وقد حدد بسن الرابعة عشرة — فى يد غير أيديهم . وكان على رأس أشراف قشتالة ، أسرة لارا الشهيرة القوية ، التى بذلت كل ما فى وسعها لتجعل الملك الطفل فى حوزتها ، لكى تفوز بما فاز به أسلافها وقت حداثة ألفونسو النبيل من القبض على زمام الحكم . ولم تقو الأميرة الوصية برنجاريا لضعفها على مقاومة الأشراف الأقوياء ، الذين كان يظاهرهم رجال الدين وفريق من الشعب ؛ ورأت خشية من أن تزج بقشتالة فى غمار الحرب الأهلية من جديد ، أن تأخذ بالنصح السيء ، وأن تنزل مختارة عن الوصاية ، وذلك فى مجلس عقد فى برغش فى سنة ١٢١٥ م ، وأرغمت أن تعين مكانها فى الوصاية الكونت الفارو نونيز دى لارا ، ليتولى الحكم وليسهر على تربية الملك الطفل . على أنه ألزم بأن يقسم بين يدى المطران ردريك الطليطلى ، بألا يزاول حقا من حقوق السيادة قبل إخطار الملكة (هكذا كانت تسمى برنجاريا يومئذ نفسها) وموافقتها ، وفى ذلك

مايدل على أن برنجاريا لم تنزل فى الواقع عن الحكم ، ولكن تخلت فقط من إدارة المملكة وتربية الملك إلى الأشراف وإلى أسرة لارا زعيمة الأشراف . وكان مما احتفظت به برنجاريا من حقوق السيادة ، توزيع الاقطاعات واستردادها ، وإعلان الحرب ، وعقد المحالفات ، ورفع الضرائب والرسوم ؛ فكل هذه الحقوق لا يزاولها القارو نونيز ؛ وكان عليه أن يتولى كل ما يتعلق بشخص الملك وشؤون المملكة ، وأن يترك الجميع فى حقوقهم ووظائفهم ، وأن يعقد السلام مع الممالك النصرانية المجاورة .

وما كاد الكونت القارو دى لارا ، يتسلم الملك بناء على ذلك ، حتى عمد إلى الحكم دون أن يتقيد ذرة بنصوص القسم . بيد أنه يجب ألا ننسى ، أن المصدر الذى نستق منه ما يتعلق بظروف قشتالة يومئذ ، كان من المعارضين صراحة لأسرة لارا ، ولئن صدقنا كل ما يرويه ردريك الطليطلى — وهو يخفى مع ذلك أنه يضطرم بغضاً لآل لارا — فإن الكونت القارو نونيز أثار بطغيانه بغض جميع الطبقات ؛ فطارد الأشراف ، ونهب أموال التجار الأغنياء فى المدن ، واستولى على جزء من أعشار الكنائس بحجة أنه يحتاج إلى هذا المال لمحاربة المسلمين ؛ ولم يمنعه من المضى فى مطاردة رجال الدين سوى القرار الكنسى الذى أصدره ضده المطران .

ولا ريب أن برنجاريا تحمل بعض التبعة فى نشوب الحرب الأهلية . ذلك أنها اضطرمت سخطا لانتزاع الوصاية وتربية أخيها منها ، فسمت إلى تحريض أصدقائها للعمل على إسقاط الوصاية الجديدة ، وإعادة الملك الطفل إلى حوزتها ؛ واجتمع فريق من الأشراف الذين ينقمون تفوق أسرة لارا فى بلد الوليد وقرروا إعادة الوصاية إلى الدونا برنجاريا . ومن ذلك الحين شهر الكونت دى لارا عليها الحرب علانية ، فنزع أملاكها وأمرها بمغادرة المملكة ؛ فلجأت برنجاريا إلى حصن « أوتليو » وشجعت أنصارها على المضى فى المقاومة وبذلك سارت الحرب الأهلية سيرها . وحالت يقظة الكونت القارو دون فرار الملك الطفل إلى أخته ؛

ورأى تمكيناً لسلطانه عليه ، أن يزوجه بالرغم من أنه لم يجاوز الثانية عشرة ، وسافر الكونت بنفسه إلى البرتغال وحمل ملكها ألفونسو الثانى على الموافقة على تزويج ابنته بالملك هنرى ، واصطحب معه الأميرة ، واسمها مافلدا إلى قشتالة وعقد زواجها على الملك . على أن الكونت لم يوفق إلى تحقيق غايته ، ذلك أن الملك الطفل لم يبد ميلاً إلى زوجه وأعلن البابا أنوسان الثالث ، بناء على طلب برنجاريا ، بطلان الزواج بسبب القرابة الوثيقة ، وذلك على يد أسقفى برغش وبالانسيا ، وهكذا عادت مافلدا إلى البرتغال ، وذلك بعد أن حاول الكونت دى لارا عبثا أن يقترن بها .

وحدث أثناء أن كان الوصى يقيم مع مليكه فى بلدة مقودده من أعمال ولاية طليطلة ، أن أرسلت برنجاريا سرا إلى ذلك المكان خادما ليتحرى عن أحوال أخيها وطريقة تربيته ، وربما أيضاً لكى يبحث عن خير الطرق لاختطافه . ولكن الوصى الساهر لم يخف عليه أمر هذا الرسول ، فأمر بالقبض عليه وإعدامه وزعم الكونت أنه عثر معه على خطاب بخاتم برنجاريا وتوقيعها ، وفيه مايدل على أنها كانت تعتزم أن تقتل أخاها بالسم ؛ ولكن قليلاً من الناس آمن بزعم الوصى وكاد الرأى يجمع على تبرئة برنجاريا من مثل هذا التدبير المشين ، ويستشف منه خبث الكونت دى لارا . ولما كان رجال الدين ، وفريق من الأشراف ، وعدة مدن ، يناصرون برنجاريا — وهو ما اضطر الكونت إلى مغادرة ولاية طليطلة والذهاب إلى وبذة للإقامة فيها — فقد رأى الكونت إزاء تفاقم غضب الشعب وازدياد قوة الملكة ، أنه لا بد من معالجة الموقف بسرعة ، والضرب على يد أعدائه قبل أن يظفروا بالتغلب عليه ؛ فأعلن باسم الملك الذى يصطحبه أينما كان ، ويحرسه بكل ما وسع ، أن الذين يناصرون حزب برنجاريا يعتبرون جميعاً عصاة خائنين ، وكان الإحجام عن محاربة الملك عظيما إلى حد أن المدن وجموع الشعب انضوت كلها تحت لواء الوصى ، ولم تستطع حصون الأشراف الذين يعضدون برنجاريا ، أن تقاوم القوى المتغلبة عليها مقاومة ناجحة ، كذلك بدت الملكة وقد فقدت كل

شجاعتها وعزمها ؛ ومع أنها لم تنزل ميدان الحرب ضد الكونت ، فقد كانت جموعها تتناقص كل يوم ، وكانت الحصون الموالية لها تسقط تباعاً في يد الكونت .

وفي الوقت الذي يئست فيه الملكة برنجاريا من كسب قضيتها وامتنعت مع نفر قلائل من الأشراف المخلصين ببعض الحصون المنيعة ، وأخذ الوصي يمعن في مطاردة جميع الذين خاصموه ، حدث حادث فجائي حول مجرى الحرب الأهلية إلى اتجاه جديد . ذلك أن الكونت ألفارو نونيز غادر بلد الوليد بعد أن أقام فيها مع الملك حينا ، إلى بالانسيا ؛ وهنالك نزل في قصر الأسقف ، وقرر أن تكون نفقات البطانة الملكية من أموال الأسقفية ، وفي ذات يوم كان الملك الفتى يلعب في الفناء مع بعض أقرانه من أبناء الأكابر ، فانطلق أثناء اللعب سهم أصاب أحد أبراج القصر ، فسقطت منه قطعة من الآجر ، فأصابت الملك في رأسه وجرحته جرحاً بالغاً توفي منه لأيام قلائل ، وذلك في السادس من يونيه سنة ١٢١٧ م . ولم يكن قد بلغ الرابعة عشرة بعد ، ولم يكن قد مضى على وفاة أبيه سوى عامين وثمانية أشهر ، ثم تبعه إلى القبر .

ولا بد أن هذا الحادث المحزن قد اعتبر في قشتالة توفيقاً عظيما ، ذلك أن الدعامة التي كان يستند إليها سلطان الوصي المستبد الطامع ، وهي الملك الذي يحقق باسمه كل عسف ، قد انهارت ، وكان الملك ألفونسو النبيل قد سن في وصية سابقة له أنه إذا توفي دون عقب من الذكور ، فإن عرش قشتالة يؤول من بعده إلى كبرى بناته الدونا برنجاريا ، ثم إلى أعقابها الشرعيين ، ولما كان الأحبار والأشراف قد وافقوا على وصية ألفونسو هذه ، ولم يبق كذلك عذر لأنصار أسرة لارا في رفض الطاعة للملكة ، فقد بويعت بالطاعة في الحال على يد المجلس النيابي (الكورتيس) المنعقد في بلد الوليد ، وذلك بالرغم من تخلف الوصي عن الخضوع ؛ وكانت المرأة الذكية ، حالما وقفت على موت أخيها الملك ، وكان الكونت ألفارو يجتهد في إخفاء النبأ — قد أرسلت بعض خاصتها إلى ليون ، حيث أحضروا معهم ولدها فرديناند الذي رزقت به من زواجها بملك ليون ألفونسو التاسع ، وهو الزواج الذي ألغاه البابا .

ولم يرد الكونت دى لارا أن يعقد أى تفاهم ما لم يسلم إليه الانفانت (ولى العهد) فرديناند الذى يرث العرش بعد وفاة أمه ، ليقوم بتربيته وحراسته ، ولكن برنجاريا لم تقبل قط مثل هذا الحل بعد الذى شهدته من عبر التجربة الماضية . وهنا قامت فى البلاد أحزاب ثلاثة ، كان أقواها الحزب الذى ينضوى تحت لواء برنجاريا الملكى ، وكان الأحبار والشعب يخلصون لها ، وكذلك الفرسان من خصوم آل لارا . وكان على رأس الحزب الثانى الكونت القارو نونيز دى لارا ، وتحت يده جيش لا بأس به ، وفى حوزته كثير من الحصون ؛ وإلى جانب هذين الحزبين المتخاصمين ، كان ثمت خصم ثالث هو الفونسو ملك ليون ، زوج برنجاريا السابق ، ووالد ولى العهد فرديناند ، وكان يدعى عرش قشتالة باعتباره أكبر أعضاء الأسرة سنا ، وقد أرسل أخاه سانشو فى جيش كبير إلى قشتالة للاستيلاء عليها . وعندئذ بادرت برنجاريا بمؤازرة القوات والفرسان فى قشتالة الجديدة واسترامادوره ، إلى اتخاذ إجراء حاسم لسحق الحزبين الخصيمين . ولما كانت تعلم حق العلم أن الشعب القشتالى لا يرضى عن حكم النساء ، فقد اعتزمت أن تضحى بنفسها فى سبيل ولدها ، فأعلنت تنازلها عن حقوقها فى العرش لولدها فرديناند — وكان يومئذ قد بلغ الثامنة عشرة من عمره — وذلك فى الميدان الكبير فى بلد الوليد ، وسلمته مقاليد الحكم فى محضر حافل من الناس ، وفى ٣١ أغسطس سنة ١٢١٧ ، تلقى فرديناند الثالث الذى لقب بالقدس فيما بعد ، يمين الطاعة فى كنيسة بلد الوليد الكبرى . وحملت هذه الخطوة الحاسمة ملك ليون والكونت دى لارا على الاتحاد ، وذلك بعد أن حاول الكونت عبثاً أن يحرض فليب الثانى ملك فرنسا ووالد خلفه لويس الثامن زوج الأميرة بلانكا أخت برنجاريا الصغرى ، على غزو قشتالة والاستيلاء عليها . وبينما سار الفونسو التاسع ملك ليون فى قواته إلى برغش متناسياً صالح أسرته إلى حد أنه تحالف مع الثائرين وشهر الحرب على ابنه الذى جعله وارث العرش من بعده ، كان الكونت القارو يحاول بمؤازرة إخوته وأنصاره أن يضرم نار الحرب الأهلية فى جنوبى قشتالة .

وحاولت برنجاريا فى البداية بالرجاء والإقناع أن تحول دون تحالف قوات ليون وقوات الثوار ، وتوسط أسقفا برغش وبلنسية لدى زوجها السابق فى هذا السبيل ، ولكن الملك الطامع المتحفز لم يرد أن يصغى إلى شىء من هذا الرجاء — وقد كان يضطرم سخطا ، لأنهم رفعوا ابنه إلى العرش دون إذنه ، مع أنه هو صاحب هذا العرش فى زعمه ، فمضى فى توغله فى قشتالة ، وأسرع إلى برغش عاصمتها القديمة يحاول افتتاحها ، ولكن ما اتخذته برنجاريا من الإجراءات الحكيمة وما أبداه فرديناند من الحزم والشجاعة ، وما أبداه سواد الشعب القشتالى من الغيرة فى مؤازرته ، مالبثت أن حملت ملك ليون على أن يعود أدراجه إلى أراضيه ، ذلك أنه شهد حين محاصرته لبرغش ، كيف يتفانى القشتاليون فى الدفاع عنها ، وآنس فى جيشه القصور والعجز ، فبادر بالعودة إلى ليون قبل أن تحل به الهزيمة وهو ساخط أشد السخط لأن الكونت دى لارا خدعه بتصوير ميول الشعب القشتالى على غير حقيقتها .

ولما زال الخطر الداهم من ناحية ليون بسلام ، وحطم أنصار الكونت دى لارا بالعنف والبطش ، عمد فرديناند إلى الاحتفال بدفن رفات سلفه الملك هنرى ، وكان جثمانه لا يزال فى حوزة أعدائه ، فدفن فى المقبرة الملوكية فى برغش بأعظم تكريم .

وبدأ فرديناند حكمه فى ظروف صعبة ، بالرغم من المزايا التى حققت . ذلك أن كثيراً من الحصون فى ولاية ريوجا وفى قشتالة القديمة ، وكذلك على ضفة نهر دويره اليمنى كانت لا تزال فى أيدى آل لارا ؛ بل إن برغش نفسها لم تكن فى مأمن ؛ وعاث الثوار أعاعيث فى أنحاء مختلفة من قشتالة دون أن يتمكن فرديناند من قمع غزواتهم ؛ وكانت أسرة لارا تحتكم على أموال طائلة ، وفى وسعها أن تحشد من الجند ماشاءت ؛ أما ملك قشتالة ، فكان بالعكس فى أشد الحاجة إلى المال ، حتى أن والدته اضطرت أن تبيع جميع حلاها للمعاونة فى نفقات الحرب ، وهكذا كان فرديناند عاجزاً عن متابعة الحرب ؛ وهنا حدث حادث فى غاية

التوفيق ، وهو أن الكونت دى لارا وقع أسيراً فى يد فرسان الملك ، فى الوقت الذى كان يتأهب الفريقان فيه لخوض المعركة على مقربة من بالانسيا Palencia ؛ فألفى الثوار أنفسهم بلا زعيم ، واضطر الكونت لكى يفتدى حريته ، أن يقطع عهداً بالخضوع ، وأن يسلم الحصون التى يحتلها أنصاره . ولم يمض قليل حتى اضطر أخوا الكونت ، وهما فرديناند وجوانزالو ، إلى الخضوع أيضاً وتسليم ما بيدهما من الحصون . والظاهر أن وعيد البابا هونوريوس بأن يقضى بالحرمان على كل ثائر ضد حكومة فرديناند كان له أثر عميق فى إخماد الحرب الأهلية فى قشتالة (سنة ١٢١٨ م) . ومن ذلك الحين ساد سلطان فرديناند فى أرجاء قشتالة كلها .

ولكن آل لارا الثائرين لم يخلدوا إلى السكينة طويلا . فلم يمض نصف عام حتى ثاروا من جديد وزحفوا على منطقة بالانسيا بقوات كبيرة وخربوها كما يفعل الأعداء . ولما سار فرديناند فى جيش كبير لمحاربة الثائرين مرة أخرى ، ورأى آل لارا أن قواتهم دون قوات الملك ، ساروا إلى ليون ليطلبوا المدد منها وأفلحوا فى تحريض الأب على محاربة ابنه مرة أخرى ؛ وما كاد الجيش الليونى يعبر حدود قشتالة حتى أرسل فرديناند قوة إلى ليون لتعيث فى منطقة شلمنقة ؛ ولما التقى الأب والابن وجها لوجه ، حاول بعض الأساقفة والكبراء التوسط بينهما لعقد الصلح قبل الالتحام فى المعركة ، وعاون مرض الكونت دى لارا الفجائى على ميل ملك ليون إلى إيثار الصلح ، وعقدت الهدنة فى الحال بين الفريقين . وما لبث الكونت المريض أن توفى وهو يضطرم سخطا لأنه لم يكن فى سعيه لتحطيم عرش فرديناند أكثر توفيقاً . وارتدى الكونت قبيل وفاته ثياب جماعة شنت ياقب ، ودفن فى اقليش على نفقة الملكة برنجاريا التى كان فى حياته أشد الناس خصومة لها ، ذلك أن الكونت أنفق كل ماله فى الحرب وتوفى فقيراً . وهكذا عقد السلام الدائم بين قشتالة وليون ؛ واقتنع ملك ليون أخيراً بأنه ليس من اللائق أن يعضد الثائرين على ولده ، وعاونه على محاربة آخر زعيم لأسرة لارا وهو الكونت فرديناند شقيق الفارو ، حتى اضطر إلى الفرار من المملكة (سنة ١٢١٩ م) ، ثم عبر البحر إلى

(١٠)

مراكش ملتجئاً إلى المسلمين ، ولم يلبث أن توفى هنالك مرتديا قبيل وفاته ثياب فرسان الاسبتارية .

ولما استتب السلام فى المملكة ، احتفل فرديناند فى برغش بزواجه بالأميرة بياتريس ابنة القيصر فيليب فون هو هنشتاوفن . وقبل عقد الزواج أعلن الملك نفسه فارساً وارتدى ثياب الفرسان بعد أن باركها له أسقف برغش ، وشهد هذا الحفل كبراء المملكة مع نسائهم ، ونواب الطبقات ، وعدد كبير من الفرسان .

وحدثت فى الأعوام التالية فى قشتالة وليون ثورات عديدة قام بها بعض الأشراف المغامرين ، ولكن الوئام لبث بالرغم من ذلك سائداً بين ملكى قشتالة وليون ؛ وكان يقوم بهذه الثورات فى قشتالة دائما أنصار آل لارا ، وكان زعماء الثورة إذا ما رأوا فشل جهودهم فروا عادة إلى المسلمين . وحدث فى مملكة ليون خلاف بين الملك وأخيه سانشو فرنانديز ؛ ذلك أن سانشو جمع أربعين ألف مقاتل بحجة أنه سيقودهم إلى مراكش لخدمة سلطان الموحدين ، ولكنه لما عبر حدود ليون إلى الأندلس ، كشف عن حقيقة مشروعه ، وهو أنه يريد أن يؤسس له مملكة مستقلة فى اسبانيا ، فانفض عنه معظم الجند ، ولكنه امتنع بمن بقى على ولائه فى جبال الشارات (سيرا مورينا) حتى توفى فى سنة ١٢٢٠ م فى حفلة صيد كان يطارد فيها دبًّا .

وفى الأعوام التالية ، كان الأب والابن يسيران فى قوات قشتالة وليون كل عام تقريباً لمحاربة المسلمين . كذلك كان ملكا أراجون والبرتغال يسيران لمحاربة المسلمين كلما سمحت بذلك أحوال بلادهما المضطربة ، وكانت قشتالة وليون تعملان بالأخص على استغلال ما تجوزه الأندلس من الاضطراب والفوضى بسبب انحلال سلطان الموحدين . فكانا يبيعان عونهما للأمراء المسلمين الثائرين تباعاً ، وكانا فى نفس الوقت يحاربان ابن هود[1] الذى خرج على الموحدين وانتزع منهم معظم بلاد

(١) هو محمد بن يوسف بن محمد بن عبد العظيم بن أحمد بن سليمان المستعين بن هود ، وهو الثائر على دولة الموحدين فى أوائل المائة السابعة كما سيجىء .

الأندلس ، وبثتا بذلك فى بلاد المسلمين أعظم ضروب الاضطراب والروع ؛ وسوف نتحدث فيما بعد عن الحروب التى خاضها الليونيون والقشتاليون إلى جانب الموحدين كحلفاء لهم ، ولهذا نغفل ذكرها هنا ؛ ونكتفى بأن نقول هنا إن ألفونسو التاسع ملك ليون حقق لنفسه فى تلك الحروب شهرة عظيمة ، وإن فرسان القنطرة عاونوه خير معاونة ؛ وكان قسم من فرسان قلعة رباح قد اتخذوا من القنطرة مركزاً لهم ، وجعلوا من أنفسهم جماعة خاصة وأطلقوا عليها اسم هذه القلعة وذلك فى سنة ١٢١٩ م ؛ وكانت معظم حروب ألفونسو التاسع ضد ابن هود ، المتغلب على معظم أرجاء الأندلس . ولما افتتح ألفونسو ماردة من المسلمين فى سنة ١٢٣٠ م (٦٢٧ هـ) ، سار المسلمون إلى محاربته فى جيش ضخم قوامه ستون ألفاً من المشاة ، وعشرون ألفاً من الفرسان ؛ فلم يرعه تفوق الأعداء فى العدد ، واشتبك معهم فى معركة أحرز فيها نصراً باهراً ، وكان هذا النصر مثار الدهشة حتى أن بعض الروايات الدينية المعاصرة نسبته إلى عون شنت ياقب (القديس يعقوب) وفرقة من الملائكة ؛ وترتب على هذا النصر أن سقطت بطليوس فى يد الليونيين .

وكان هذا النصر آخر عمل حربى قام به ألفونسو التاسع ملك ليون . وحدث أثناء رحلة قام بها ليحج إلى قبر شنت ياقب وليقدم إليه صلاة الشكر عما أحرز من نصر ، أن مرض وتوفى فى ٢٣ سبتمبر سنة ١٢٣٠ م بعد حكم دام اثنين وأربعين عاماً ؛ ودفن فى بلدة شنت ياقب حيث يرقد أبوه أيضاً ؛ ومع أنه اشتهر بالعدالة والتقوى ولاسيما على يد معاصره الأسقف لوقا التطيلى ، فإن التاريخ يقص علينا الكثير من أعماله مما يتنافى مع هذا المديح ؛ وكان ألفونسو يبز فى الفروسة جميع الأمراء التابعين له ؛ وكان كثير البذل لرجال الدين ، يهب كل ما يغنمه من الحروب تقريباً إلى الأديار ؛ كثير البر بالمساكين والعطف عليهم ؛ بيد أنه كان كثير القسوة والبطش نحو الفرسان الناهبين ، يلقى بهم من فوق الأبراج أو يغرقهم فى البحر ، أو يشنقهم أو يحرقهم فى ماء يغلى ، أو يسلخهم أحياء . وقد استطاع بهذه الوسائل الفظيعة أن يحقق السلام والعدالة فى مملكته حسبما يقول مؤرخ معاصر . وكان لسوء الحظ

كثير الإصغاء لوشاية الناصحين المغرضين ؛ بيد أنه كان من صالح المملكة أن كان يصغى إلى رجاء زوجه برنجاريا واقتراحاتها مما أدى إلى تهذيب بعض القوانين القديمة وإصلاح بعض العيوب . وكان شغوفاً بالأبنية الفخمة ، وقد شيد منها الكثير فى مملكته ؛ فأنشأ فى ليون قصراً عظيما ، وملجأ لإقامة المساكين من الوافدين لزيارة شنت ياقب ؛ وبنى أبراج ليون التى أزالها المنصور أو هدم بعض أجزائها ؛ وأنشأ بجوار شنت ياقب كنيسة فخمة ، كما أنشأ كثيرا من الأبراج والحصون فى مختلف أنحاء المملكة ، وشحنها بالسكان والمقاتلين .

كذلك أصلح ألفونسو الطرق وعبدها ، وابتنى القناطر على الأنهر وأبدى حبه وتقديره للعلوم بتأسيس جامعة شلمنقة الشهيرة فى سنة ١٢٢٣ م . وقد ظن البعض خطأ أن الجامعة النصرانية التى أنشئت من قبل فى بالانسيا ، قد نقلت فيما بعد إلى شلمنقة ؛ على أن ذلك لم يكن من الميسور يومئذ ، إذ كانت ليون وقشتالة كل منهما منفصلة عن الأخرى ؛ ومن الواضح أن الملك ألفونسو التاسع ، قد احتذى فى عمله مثل جامعة بالانسيا القشتالية ، وأبدى بذلك أنه لا يقل فى مملكته تقديراً لأهمية العلوم عن مملكة قشتالة .

وقد تزوج ألفونسو التاسع مرتين ؛ ورزق من زواجه الأول بالأميرة البرتغالية الدوناتريزا ، بابنتين هما سانشا ودولشا ، وابن يدعى فرديناند توفى رشيداً فى سنة ١٢١٤ م . ورزق من زواجه الثانى بالأميرة القشتالية برنجاريا ، بأربعة ، ابنين هما فرديناند وألفونسو ، وابنتين هما برنجاريا وقسطنطينة ؛ ومع أن الزواجين قد ألغيا على يد البابا بسبب القرابة الوثيقة ، فإن الأولاد الذين أعقبوا منهما قد اعترف بصحة نسبهم ؛ وبذا كان فرديناند الذى ولى عرش قشتالة ، عند وفاة أبيه أيضاً صاحب الحق بمولده فى عرش ليون ، وبالرغم من أنه كان أصغر بعض أخواته ، فإنه لم يكن لهؤلاء سوى حقوق على التاج ، متى توفى والدهن دون عقب من الذكور ؛ ومع أن الفونسو التاسع كان قد عهد بالعرش من بعده إلى ولده فرديناند فقد ظهر عند فتح وصيته أن يجعل ابنتيه سانشا ودولشا وارثتين لمملكته .

وكان فرديناند ، حينما تلقى نبأ وفاة أبيه ومضمون وصيته ، يخوض الحرب ضد المسلمين ، ويشغل بحصار مدينة جيان . وانقسمت مملكة ليون إلى فريقين ، أحدهما وعلى رأسه الأساقفة يؤيد ولاية فرديناند ، وهو الذى أقسموا له يمين الطاعة من قبل باعتباره ملكهم المستقبل ؛ والآخر يؤيد نصوص الوصية الملكية ويعتبر الأميرتين هما صاحبتا العرش ؛ وكان الفريق الثانى قويا بالأخص فى سموره وجليقية واشتوريش ؛ وكانت مدينة ليون نفسها تنقسم على هذا النحو ، حتى عمد حاكمها الكونت ديجو دياز ، بعد أن رغب بالمال والوعود ، إلى تأييد حزب فرديناند . وبادر فرديناند إلى ليون دون تأخر ، وفقاً لنصح أمه الحكيمة بلا ريب ؛ وهنالك بعد أن أقسم باحترام حقوق المملكة وحرياتها ، تلقى فى الكنيسة الكبرى يمين الطاعة من رجال الدين والأشراف ونواب الطبقات ، وذلك بالرغم من أن معظم البلاد كانت فى قبضة خصومه ؛ وأسرعت والدة الأميرتين وليتى العهد ، الملكة تريزا من البرتغال إلى ابنتيها فى جليقية لكى تشهر الحرب على فرديناند بأقصى ما يستطاع ، واعتزم فرسان قبرشنت ياقب ، وأشراف جليقية وأشتوريش أن يؤيدوا دعوى الأميرتين ؛ ولاح أن حرباً أهلية جديدة ستجتاح الممالك الأسبانية ؛ ولكن الملكة برنجاريا وفقت بحكمتها واعتدالها إلى التدخل لوقف الحرب ؛ فدعت الملكة تريزا إلى مقابلتها فى «بلنسية»[1] الواقعة على نهر منهو ؛ وهنا استطاعت أرملتا الملك ألفونسو التاسع أن تسويا فيما بينهما النزاع القائم بين أولادهما ؛ واتفق على أن تتنازل الأميرتان وليتا العهد عن حقوقهما فى التاج ، وأن تعترفا بفرديناند ملكا شرعيا على ليون ؛ وفى نظير ذلك تحصلان مدى الحياة على إيراد سنوى قدره ثلاثون ألف قطعة من الذهب .

وعلى أثر هذا الاتفاق أعلن فرديناند ملكا على جميع أنحاء مملكة ليون . ومن ذلك الحين تتحد مملكتا قشتالة وليون — ومعها إسترامادوره وجليقية واشتوريش — نهائيا . ومع أنه لم يصدر يومئذ مرسوم باتحادها ، فإنه يجب أن

(١) هى غير ثغر بلنسية المعروف .

نعتبر من ذلك الوقت (سنة ١٢٣٠ م) ، أنه قد اتخذت بالفعل قرارات هامة فيما يتعلق بوراثة العرش خلاصتها أن قشتالة وليون هما مملكة واحدة لا مملكتان ، وأن العرش فيها يؤول إلى أكبر البنين ، فإذا لم يوجد عقب من الذكور ، آل إلى الفرع النسوى . وقد أسند عندئذ إلى ألفونسو أخى فرديناند الأصغر نصيب فى حكومة ليون . واتحاد قشتالة وليون هذا هو أعظم حادث فى تاريخ اسبانيا ، فى القرن الثالث عشر ؛ وكان نذيراً باتمام انحلال سيادة المسلمين فى اسبانيا ، والحجر الأساسى للفتوحات العظيمة التى قام بها فرديناند فى الأندلس .

الفصل الخامس

اضمحلال وسقوط سلطان الموحدين في الأندلس

لم تكن موقعة العقاب سبباً فى تحطيم قوى الخليفة محمد الناصر بالأندلس فقط ، ولكنها أفضت فوق ذلك إلى تحطيم سلطان الموحدين فى المغرب . وإذا كان النصارى لم يوفقوا إلى استغلال ظفرهم فى موقعة العقاب بما كان على الذكاء وضعف العدو ، فإن الخلافة الموحدية التى جردت منه كل قواها لم تنهض من هزيمتها قط ، ولم ينقطع ألفونسو النبيل ملك قشتالة طول حياته عن الخروج إلى محاربة المسلمين ، ولكنه كان مفرق القوى بسبب خصومته الجديدة لليون . وكان أشد من ذلك اضطراب الممالك الأسبانية ، وهو ما أدى إلى تأخير غزو المسلمين بضعة أعوام ؛ ويرجع ذلك إلى ما حدث فى نحو عامين من وقوع ثلاثة عروش نصرانية تحت سلطان الوصاية ؛ وكان يشغل عرش قشتالة وأراجون ، — وهما أهم ممالك شبه الجزيرة — أميران قاصران ؛ أما البرتغال فكان يشغل عرشها ملك يغلب لديه الدهاء والطمع أكثر مما تغلب الشجاعة وصفات الفروسة . وبينما كانت الممالك النصرانية — وهى تتمتع عندئذ بقسط عظيم من القوة والمنعة — تنحدر على هذا النحو إلى الاضطراب والفوضى ، فى ظل الوصايات المخربة ، وما يترتب عليها من حروب أهلية تضطرم خلالها أطماع الأشراف ، والبغضاء والتنازع والحقد ، وقرارات « الحرمان » ، والقتل والتخريب ، إذا بسلطان الموحدين

ينهار فى الأندلس أولا ، ثم ينهار بعد ذلك فى المغرب ، وتقوم على أنقاضه أسر جديدة ، ولكنها لا تضارع الموحدين فى قوتها ومنعتها .

غادر محمد ميدان الحرب الذى غص بالقتلى من جنده مسرعا إلى إشبيلية ؛ وهنالك سحق فى بادرة من غضبه جميع أشياخ الموحدين المحليين ، وكذلك لم يسلم من سخطه زعماء الأندلس الذين كانوا فى مقدمة الفارين من الموقعة ، والذين ينسب إليهم هزيمته ؛ فقتل منهم عدة ، وعزل منهم من كان يلى مناصب النفوذ والثقة . بيد أنه لم يذكر أن البغض يثير البغض ، فبعد أن صب جام غضبه على الأندلسيين كالنمر المفترس ، عاد إلى إفريقية لا لكى يحشد جيشاً جديداً يسترد به هيبة الموحدين الحربية ، ولكن لكى يحاول نسيان كدره وهزيمته بالانغماس فى ملاذه وشهواته . ولم يقم يومئذ بشىء من شؤون الحكم سوى أن عين لولاية عهده ولده أبا يعقوب يوسف الملقب بالمستنصر بالله[1] ، وكان يومئذ طفلا فى العاشرة من عمره ؛ ولما انتهى من هذا التعيين ، ترك شؤون الحكم كلها للطفل ووزرائه واعتكف فى قصره وحدائقه بمراكش ، وأطلق العنان لأهوائه وملاذه . وقضى هذا الأمير الذى كان يشغف بالحرب والجهاد ، أمداً قصيراً ، لا يجاوز العام ، فى هذا اللهو الصاخب ؛ ثم دس له خدمه السم ، فانتزعه من مسراته ، وأودى بحياته ولما يجاوز الرابعة والثلاثين من عمره ، وذلك فى الحادى عشر من شعبان سنة ٦١٠ هـ (٢٥ ديسمبر سنة ١٢١٣ م)[2] . وقد حكم خمسة عشر عاما وبضعة أشهر . أما الرواية التى يقول بها مؤرخ عربى ، ومفادها أن محمداً كان يشتغل بحشد جيش آخر لكى يمحو هزيمته ، وأنه توفى أثناء أهباته بمدينة سلا ، فهى خلط ظاهر

(١) فى روض القرطاس أنه لقب بالمنتصر بالله (ص ١٦٠) ، ولكن فى ابن خلدون (ج ٦ ص ٢٥٠) وفى الحلل الموشية (ص ١٢٢) أنه المستنصر بالله .

(٢) إن ما يورده المؤلف عن أيام الناصر الأخيرة ووفاته يتفق مع رواية صاحب روض القرطاس (ص ١٦٠) بيد أنه يقول لنا إن الناصر توفى مسموما بأمر وزرائه ، حيث دست له إحدى الجوارى السم فى قدح من الخمر ، لأنه كان قد عزم على قتلهم ، فعاجلوه بالقتل . وجاء فى الحلل الموشية أنه توفى هما وغما (ص ١٢٢) .

عما حدث فى وفاة عبد المؤمن . ومع أن الناصر كان بطبيعته يتمتع بخلال بديعة فانه منذ ولى الحكم ، ترك إدارة الشؤون لطائفة من الوزراء المكروهين ومنهم من هو عاطل من كل كفاية ، فكان ذلك من الأسباب القوية التى أدت إلى تصدع سلطان الموحدين من أسسه ؛ ومما يستحق الذكر أيضاً أن محمداً هو سلطان المغرب الذى بعث إليه جون (يوحنا) ملك إنجلترا فى سنة ١٢١٣ م ، بسفارة ، يقدم إليه فيها ملكه وحياته ، ويتعهد بدفع الجزية ، ونبذ النصرانية واعتناق الإسلام ، إذا أمده بالجند ؛ ولكن سلطان الموحدين لم ير فى ذلك العرض غنما يذكر ، فرفض مقترحات الملك جون بكبرياء وازدراء .

وإذا كانت دولة الموحدين قد بدأت من قبل دور انحلالها ، فإنها أخذت فى ظل الحكومات اللاحقة تنحدر سراعا ، حتى أنه لم يكن من الميسور بعدُ على وصى أن يعمل لإنهاضها ؛ وليس أخطر على دولة ممزقة من حكم صبى قاصر ؛ بل إن الدول القوية المنظمة ، كثيراً ما تنهار من جراء ذلك فى أعوام قليلة : فما بالك بدولة قد أخذت منذ حين تتمزق إلى عناصر خصيمة .

وكان الخليفة أبو يعقوب يوسف المستنصر بالله ، الملقب أيضاً بالمنصور بالله ، — حينما تولى الملك بعد وفاة أبيه — دون الحادية عشرة من عمره ؛ وكان أضعف من أن يتولى مقاليد الحكم بنفسه ، فتركها لأعمام طامحين ، ووزراء ذوى أثرة وخلال سيئة ، لا يبحثون إلا عن مصالحهم وسلطانهم ، ويسومون الشعب فى المقاطعات التى يحكمونها الخسف فى سبيل مطامعهم المضطرمة ؛ وكان يحكم الأندلس أربعة من أعمام المستنصر لاحد لسلطانهم ، هم السيد أبو محمد عبد الله بن المنصور ويحكم بلنسية ودانية ، وشاطبة ومرسية ؛ والسيد محمد ويحكم قرطبة ؛ والسيد أبو على ويحكم إشبيلية ، والسيد أبو عبد الله ويحكم جنوبى الأندلس . وأقطع السيد أبو على حكم المقاطعات والمناصب بالمال وفقا لأهوائه ونصح معاونيه ؛ وبذلك أبعد الرجال الأكفاء ، ولاسيما الأندلسيين ، فقد ساءهم ذلك ، واضطهدوا صراحة ؛ واختنق العدل بتاتاً ، لأن القضاة الذين اضطروا إلى شراء مناصبهم ، حاولوا

— باضطهاد الشعب وظلمه — أن يستردوا ما خسروا أو يضاعفوه .

فأثار هذا الاستبداد بين مسلمي الأندلس — وقد كانو يرون في الموحدين ظالميهم — أيما سخط على المغاربة ، حتى كانت تكفي شرارات قلائل لتضرم من جديد نار الحرب الأهليـة في جنوبي اسبانيا ؛ وقد أدى إليها بالفعل سير الحرب المشئوم ضد النصارى ؛ وبالرغم من أن الدول النصرانية كانت يومئذ عاجزة — من جراء الحرب الأهليـة والقحط والتفرق — أن تقوم باستعدادات كبيرة لمحاربة المسلمين ، فإنها مع ذلك لم تمتنع بتاتاً عن محاربة عدوها التاريخي ؛ وكانت الغزوات المتفرقة التي قام بها ألفونسو ملك ليون ، وفرسان قلعة رباح وسنت جوليان (فرسان القنطرة) ، والبرتغال ، والمطران ردريك الطليطلي مع فرسان قشتالة ، تستغرق نشاط الحاميات الموحدية وجند الحدود كله ، حتى إنه لم يكن بوسعها أن تعنى بحركات الثوار في الداخل عناية كافية ؛ وفقد الموحدون هيبتهم تباعاً ، ولم يعد يبث اسمهم ما كان يبث من قبل من الخوف والروع ؛ وسقطت عدة من القلاع والحصون في يد النصارى ؛ ففي يوليه سنة ١٢١٣ م ، افتتح ألفونسو النبيل ملك قشتالة حصن القصر ، ونفذت القوات القشتالية الخفيفة حتى ظاهر إشبيلية ؛ وفي العام التالي ، استولى ألفونسو التاسع ملك ليون عنوة على حصن القنطرة ، وهو الحصن الذي اتخذه فيما بعد (سنة ١٢١٩) فريق من فرسان قلعة رباح مركزاً لهم ، وتسموا باسمه ؛ وثبتت عندئذ مدينتا القصور (كسيرس) وبياسة بعد أن حاصرهما الليونيون والقشتاليون دون طائل ؛ وحالت الحرب الأهلية التي اضطرمت في قشتالة وليون بين سنتي ١٢١٥ و ١٢١٨ م ، وهي التي أثارت ضرامها أسرة لارا القوية ، دون قيام النصارى بغزوة كبيرة ضد المسلمين ، ولكن جماعات الفرسان ورجال الدين لم ينقطعوا عن القيام بغزوات في أرض الأندلس ، وقلما كانت تلحقهم الهزيمة ؛ وزاد في جرأتهم ما كانوا يصيبونه من الغنائم الكبيرة ، فكان الغزاة يتقدمون حتى أبواب إشبيلية وقرمونه ، وهم يخربون وينتسفون كل أرض وطئتها أقدامهم ، ولم تكن قسوتهم الوحشية قاصرة

على المحاربين من خصومهم ، بل كانت تشمل النساء والأطفال والشيوخ ؛ فكان الخوف والروع يتقدمان الغزاة النصارى ، أينما حلوا ، وكان الموحدون يقاتلون قتال اليائس وقد فقدوا في النهاية كل شجاعة وكل ثقة في قوتهم ومنعتهم .

وعجل باضمحلال سيادة الموحدين في اسبانيا عود السلام بين قشتالة وليون ، واضطرام الخصومة حول العرش في أسرة الموحدين الملوكية . وقد عقد ألفونسو الأول ملك ليون الصلح مع ولده فرديناند ملك قشتالة ، وحشد الاثنان قواتهما المتحدة لمحاربة العدو المشترك ، ولبثا كل عام تقريبا يقودان فرسانهما الظامئين إلى القتال إلى غزو الأراضي الإسلامية واقتناص الغنائم ؛ وفي تلك الأثناء كان سلطان الموحدين المستنصر ، خلافاً لأسلافه المحاربين ، يعتكف في قصره بمراكش ، منغمسا في اللهو والترف ، لا يحيط به سوى العبيد والجوارى ، ولا يفكر إلا في ملاذه ؛ وبدلا من أن يعنى بشؤون الحكم ، كان يلهو بما لا يليق بأمير من رعى الأبقار وتربيتها ؛ ومع أنه لم يجاوز الحادية والعشرين ، فقد ذبلت صحته وتحطمت من جراء اللهو العنيف ، ودنا سراعاً من القبر ؛ ولقيت حياته العابثة نهاية غير مجيدة ؛ فقد توفى بين أبقاره وهو يروضها ، إذ هجمت عليه بقرة شرود منهن وضربته بقرنيها في موضع القلب ، فتوفى لساعته ؛ وذلك في الثالث عشر من ذى الحجة سنة ٦٢٠ هـ ، الموافق ٦ يناير سنة ١٢٢٤ م [١] .

والواقع أن المستنصر نفسه لا يحمل تبعة خلاله السيئة وفشله في الحكم ؛ ذلك أن أقاربه ووزراءه كانوا يدفعون به إلى غمر اللهو ويجعلونه غير أهل لأى عمل جدى ، وذلك لكى ينتزعوا مقاليد الحكم لأنفسهم من هذا الفتى القاصر ، وقد حققوا غايتهم ؛ ولكنهم دفعوا في نفس الوقت بالمملكة إلى براثن الفوضى والحرب الأهلية .

ومهدت وفاة المستنصر الفجائية دون عقب ، لأقاربه الذين كانوا يحكمون مقاطعات المملكة مستغلين فرصة واسعة لمحاولاتهم وأطماعهم ؛ وسرعان ما أفضى

---

(١) روض القرطاس ص ١٦١ .

النزاع حول العرش الى اضطرام الحرب الأهلية . وقام فى الحال بالأمر فى مراكش عم أبى المستنصر ، أبو مالك عبد الواحد ، وكان يعيش من قبل عيشة الترهب والتبتل ؛ وقام بالأندلس ابن أخيه عبد الله أبو محمد وهو ولد يعقوب المنصور ، وأعلن نفسه أميراً على مرسية باسم العادل بالله ، واعترف أخوه أبو على إدريس والى إشبيلية بسيادته ؛ ولم يكتف العادل بما أحرزه من الاستقلال بالأندلس ، فأوعز إلى أصدقائه وأنصاره فى مراكش بالثورة على أبى مالك عبد الواحد ، وكان منكبا على لهوه وملاذه ، فخلع فى ١٣ صفر سنة ٦٢١ هـ (٨سبتمبر سنة ١٢٢٤م) ، ثم قتل بعد ذلك بثلاثة أيام ، ولم يطل حكمه سوى ثمانية أشهر . بيد أن العادل لم يستقر فى عرشه الملطخ بالدماء سوى القليل ، ثم أسقطه أولئك الذين رفعوه ؛ ذلك أنه حاول أن يحد من غطارسة الولاة والقضاة والأشياخ وأطماعهم ، وأن يقيم العدل والنظام ثانية فى تسيير الشؤون ، وأن يرد هيبة السلطان كما كانت من قبل ، ولكنه لقى معارضة من كل جانب ؛ ووقع الانفجار فى الأندلس بادىء ذى بدء ، حيث رفع أقارب العادل من السادة الموحدين — وهم محمد صاحب قرطبة ، وأبو على صاحب إشبيلية ، وعبد الرحمن صاحب بلنسية ، ومحمد والى بياسة — علم الثورة ؛ وتحالف محمد مع الجند القشتاليين الذين نفذوا إلى الأراضى الإسلامية ، ضد من بقى على إخلاصه من جند العادل ، واستطاع فرديناند ملك قشتالة بذلك أن يحتل حصون بياسة وأندوجار ومرطوس ، وأن يحصل على ربع مواردها . ورأى العادل خشية من أن يفقد الأندلس كلها أن يعقد حلفا مع ملك قشتالة ، وعين محمد والى بياسة [1] قائداً عاما لقوات الموحدين بالأندلس ، وحصل فرديناند فى الحال على أهم الحصون الواقعة على الحدود ؛ وانتهز خصوم العادل هذه الفرصة فشهروا به لدى الشعب ، وأبى قائد حصن كابيلا أن ينفذ أمر العادل وأن يسلم المدينة إلى ملك قشتالة ؛ ورأى أهل قرطبة أن النصارى قد أحاطوا بهم من كل صوب . وأخذوا يتوقعون سقوط المدينة فى أيديهم . وأخذ السخط يشتد تباعاً من

(١) ويسمى البياسى لأنه قام ودعا لنفسه بمدينة بياسة (روض القرطاس ص ١٦٤) .

جراء المعاهدة المعقودة مع النصارى ، ورأى الناس فى العادل خارجاً على الإسلام ، وحذف اسمه من خطبة الجمعة ، وجهر الناس بالدعاء عليه فى المساجد ، واعتبروه عدوا لله ومغتصباً للعرش بلا حق ، وانتهى الأمر بأن كسب الثوار الحرس إلى جانبهم ؛ وفى ذات يوم اقتحموا القصر وطلبوا إلى العادل أن ينزل عن العرش مختاراً ، فأبى وصرح بأنه لن ينزل بأى حال عند مطلبهم ، فقبضوا عليه ، ووضعوا رأسه فى حوض نافورة مملوء بالماء ، وأقسموا بألا يخرجوه منه حتى يعلن تنازله ؛ فأصر العادل على رفضه بشدة ؛ فوضعوا عمامته فى عنقه ، وأخذوا فى خنقه ورأسه مغمور فى الماء ، وهكذا توفى هذا الأمير ضحية لصرامته وأطماع أقاربه وكبراء مملكته ، وذلك فى الحادى والعشرين من شوال سنة ٦٢٤ هـ ، الوافق ٥ أكتوبر سنة ١٢٢٧ م ، بعد حكم دام ثلاثة أعوام وثمانية أشهر وبضعة أيام . وحدث فى نفس الوقت أن قتل محمد صاحب قرطبة غيلة ؛ وحاولت مدينة بياسة التى منح قلعتها كبير فرسان قلعة رباح ، أن تطرد النصارى ، ولكن جهودها ذهبت كلها عبثا . ولما استولى فرديناند على حصن كابيلا بعد أربعة أشهر ، استطاع أن ينقذ فرسان قلعة رباح المحصورين فى قلعة بياسة ، وأن يأخذ المدينة نفسها ؛ وغادر المدينة سكانها ، واحتل النصارى هذا المركز الهام ، وقد كان دعامة ذات شأن لما تلا من الفتوح فى الأندلس .

وكان مدبر الفتنة ورأس المؤامرة التى فقد فيها العادل عرشه وحياته ، أخا العادل ، أبا على إدريس والى الأندلس المتقدم ذكره ؛ وكان مقامه من قبل فى إشبيلية ، ثم انتقل بعد ذلك إلى مالقة ، وابتنى له بها قصرا فخماً ، وعمل على استغلال سخط الزعماء فى الأندلس للحط من هيبة أخيه ؛ ولما تم له ذلك فى الأندلس ، سهل عليه أن يقوض سلطان العادل فى المغرب ، وأن ينزعه من عرشه ، ويقضى على حياته ؛ وكما أن العادل استطاع أن يرقى العرش بطريق الثورة والخيانة والقتل ، فكذلك كان سقوطه ؛ ولم يوفق أخوه أبو على الذى أعلنه الثوار ملكا باسم المأمون ، إلى أن يفوز بحكم أهدأ من حكمه ، وحمله فقد كل نظام وطاعة على أن

بحكم بيد من حديد ، ولما كان مجلسا الخمسين والسبعين اللذان أنشأهما أمراء الموحدين وفقاً لتعاليم المهدى ، قد أصبحا أكبر عضد للإخلال بالنظام والفوضى من جراء سوء استعمال السلطة ، فقد حاول المأمون قبل كل شىء ، أن يحطم من سلطة هذين المجلسين ، وأن يردهما إلى سابق حالتهما كهيئتين استشاريتين فقط ، وأن يلغيهما إذا استطاع ؛ وكان يؤازره فى ذلك وزيره الأكبر الأمير أبو زكريا ابن على ، وكان من رأيه أنه يجب لإقامة حكومة قوية رشيدة ، أن يكون ثمة شريعة غير شريعة الله ، ورأى الأمير ؛ وكتب المأمون أو كتب وزيره المذكور باسمه بهذا المعنى وثيقة يعارض بها شريعة المهدى ونظام حكومتـه ، ويبين فيها عيوب هذا النظام وسوء إدارته ، ويعرب عن رغبته فى العمل على إصلاح دستور الدولة المهدية . فرأى الزعماء فى تصريح الأمير ، ورأى فيه أعضاء المجلسين بالأخص تهديداً لامتيازاتهم ، وحاولوا أن يعارضوا بكل قواهم ذلك النظام المطلق الذى يريد أن يقيمه المأمون ، والذى هو فى الواقع نظام الحكم المعتاد فى الدول الاسلامية ، لما فيه من حد لحقوقهم ؛ فلم تزد هذه المعارضة المأمون إلا نشاطا فى تنفيذ مشروعه الإصلاحى ؛ وسرعان ما استحال هذا الصراع فى سبيل الحياة أو الموت بين السلطتين إلى حرب أهلية ، وعوقب مجلسا الدولة أعنى مجلسى الخمسين والسبعين من جراء معارضتهما بالحل ؛ ومع ذلك فقد أعلن المجلسان قيامهما ، وأعلنا بطلان حكومة المأمون ، وزعما لأنفسهما الحق فى اختيار خلف لحكومة العادل ، وناديا فى الحال بولاية أبى زكريا يحيى ، ولد الخليفة السابق محمد الناصر وهو صبى فى الرابعة عشرة من عمره[1] ، وأقسما له يمين الطاعة ، فتلقب بالمعتصم بالله ، وبادر أنصاره الذين رفعوه إلى العرش بإرساله إلى الأندلس على رأس قوة من الجنـد ، ليعمل على إسقاط المأمون عن العرش ، وكان يومئذ بالأندلس ، وما كاد المأمون يقف على مقدم خصمه المعتصم حتى سار إلى لقائه فى جيش ضخم يعاونه بعض الجند القشتاليين ، وهزمه فى معركة شديدة نشبت بينهما فى شذونة ،

---

(١) فى روض القرطاس أنه كان يومئذ فى السادسة عشرة من عمره (ص ١٦٥) .

وفر الأمير المنهزم فى فل جيشه القليل إلى مفاوز جبال البشرات ، حتى تسنح الفرصة مرة أخرى لمنازعة خصمه المأمون . ولما كان النصارى قد انتهزوا فرصة الحرب الأهلية بين المسلمين للقيام بغزوات عديدة فى الأندلس ، وعبروا الحدود الاسلامية ظافرين من كل صوب ، فقد آثر المأمون أن يتحول إلى مقاتلة النصارى على أن يمضى فى مطاردة فلول المتصم فى أعماق الجبال ؛ فانقلب فجأة إلى مقاتلة القشتاليين ، وكانوا يومئذ قد اجتاحوا أراضى الأندلس حتى ظاهر غرناطة وضربوا الحصار عند عودتهم حول جيّان ، وأخذهم على غرة ، فانهزموا وركنوا إلى الفرار بعد أن تكبدوا خسائر فادحة ؛ وكان من ثمار هذا النصر الذى وقع فى سنة ١٢٢٨ م (٦٢٥ هـ) أن أنقذت جيان ، واستردت عدة من حصون الحدود المفقودة ، وأصاب المسلمون غنائم عظيمة .

وبعد أن حصن المأمون حدود الأندلس للموحدين على هذا النحو ، بادر بالعودة إلى المغرب ليعاقب الزعماء الذين دبروا خلعه أو الذين تخلفوا عن بيعته ، فركب البحر من إشبيلية فى أسطول ضخم ، ولما وصل إلى مقربة من سبتة حاول إبراهيم بن غانية أمير البحر من قبل المعتصم ، أن يعترض نزوله إلى البر ، فقاتله وهزمه ، وترك المأمون جنده المشاة ، وسار فى قوة من الفرسان فقط ، فوصل إلى مراكش بسرعة عظيمة ، حتى أن أحداً من خصومه لم يجد وقتاً للفرار ، وسقط أعضاء المجلسين اللذين بالغا فى خصومته جميعاً فى يده أسرى ، فقضى عليهم بالإعدام بتهمة الخيانة ، وقام فى الحال حرسه بتنفيذ هذا الحكم .

ولم يقتصر الأمر على العاصمة ، بل تناول المقاطعات أيضاً ، وجد المأمون فى مطاردة جميع أنصار النظام القديم ، ونفذت أوامره الدموية بمنتهى الصرامة ، حتى أنه لم يمض سوى القليل حتى أرسلت زهاء خمسة آلاف من رؤوس القتلى إلى مراكش ، وعلقت على أسوارها ؛ وبثت حكومة المأمون الصارمة الذعر والروع فى كل مكان ؛ وألفى المأمون فى حرسه من الأندلسيين والسود أداة قوية مستعدة لتنفيذ أوامره ، وفقد زعماء الموحدين الذين استطاعوا الفرار من الموت

كل شجاعة وكل عزم ، ومع أن مجلسى الخمسين والسبعين لبثا قائمين بالاسم . فان أعضاءهما الجدد كانوا من صنائع المأمون ، ولم يسمح لهم بالتدخل فى شأن من شؤون الدولة ، وكل ما هنالك أنهم كانوا يعاونون وزير العدل ، وكان عليهم أن يصادقوا دون جدال على كل خرق للشرع والقانون . ولكى يعدل دستور دولة الموحدين من أساسه ، أعلن أن مؤسسه المهدى مخاتل ومحتال ، ومحى ذكره من الصلاة ومن المنابر ، وأبطلت جميع النقود والنقوش التى تحمل اسمه ؛ وكان طبيعيا أن يعتبر الشعب المأمون إثر ذلك ملحدا ومرتدا وكافراً ، وألا يحول دون انفجار الثورة العامة عليه سوى بطشه وقوة حرسه ؛ ومن ثم فقد اضطر المأمون إلى المضى فى هذا الحكم الرهب ، ولم يتح له أن يستبدله بغيره ، بالرغم من أنه قد أفنيت فى ظله الألوف ، ولم ترفع رؤوس القتلى عن جدران المدينة بالرغم من أنها كانت تسمم الهواء من جراء اشتداد الحر ؛ وكان المأمون يقول : « ها هنا مجانين هذه الرؤوس أحراز لها ، وروايحها عطرة عند المحبين كريهة عند المبغضين . . . وأنا أعرف بما يتطلبه الخير العام[1] » .

وبينما كان المأمون يحكم المغرب بيد من حديد ، ويرد أنصار خصومه بعد أن هزمهم غير مرة ، إلى أعماق جبال الأطلس ، إذا معظم أراضى الأندلس يخرج عن قبضة الموحدين ؛ ففى منطقة مرسية قام أبو عبد الله محمد بن يوسف سليل بنى هود أمراء سرقسطة السابقين ، وسرعان ما ألفى العربى النبيل فى بغض عرب الأندلس للمغاربة الموحدين أكبر عضد ؛ كذلك لم يكن ينقصه تعضيد الفرسان النصارى الذين كانوا — كما كان السيد الكنبيطور — يخرجون للحرب والفتوح ؛ واستولى محمد بن هود على مرسية دون كبير مشقة ، ونادى بنفسه أميراً لها باسم المتوكل على الله ، وحاول أن يكسب الأندلسيين إلى جانبه بسرعة ، وأن يؤلبهم على قتال الموحدين فأذاع أنه يسعى إلى تحريرهم من نير المغاربة المرهق ، وأنه لن يفرض عليهم سوى

(١) وردت هذه التفاصيل جميعها عن حكم الإرهاب الذى بسطه المأمون فى الحلل الموشية ص ١٢٤ و ١٢٥ ؛ وقد نقلنا قوله الأخير عن الرؤوس منها ما عدا العبارة الأخيرة .

الضرائب الشرعية ، وأن يعمل على إقامة شرائع الإسلام الحقة ، وأعلن المتوكل أن الموحدين كفار ، وأمر أن يحتفل بتطهير المساجد التى دنسها فقهاؤهم وارتدى السواد بهذه المناسبة ، وأمر الزعماء بارتدائه ، لا باعتباره شعار الحداد كما يقول ردريك الطليطلى ، ولكن لكى يميز حزبهم من غيره ، وذلك لأن المتوكل ، رأى أن يعترف بسيادة بنى العباس خلفاء بغداد ، وشعارهم السواد ، لكى يستعين بذلك على قتال الموحدين .

ولم يمض سوى قليل ، حتى سارعت — بعد مرسية — معظم بقاع الأندلس إلى طاعة ابن هود ، ومبايعته ، ومنها مدن جيان وقرطبة وماردة وبطليوس ؛ وزاد فى قوته وسلطانه ما أعلنه من أنه عدو لدود للنصارى ، وأن الخليفة العباسى قد أقر إمارته على الأندلس ؛ واضطر المتوكل فى بدء إمارته أن يخوض مع ألفونسو التاسع ملك ليون معارك شديدة ؛ واستطاع ألفونسو أن يفتتح عدة حصون على الحدود فى مقاطعة استرامادوره ، وأن يهزم جيش المتوكل الضخم فى معركة هائلة انتهت باستيلاء الليونيين على ماردة ، وهى مدينة عظيمة على ضفة وادى يانة ، وعلى بطليوس وهى إحدى الحصون المنيعة ، وذلك فى سنة ١٢٣٠ م (٦٢٧ هـ) .

ولم يدخر المتوكل وسعاً فى العمل على إسقاط المأمون ، أو معاونة منازعه على العرش المعتصم يحيى بن الناصر ، الذى أرسل من جديد جنوداً إلى الأندلس لمحاربة جند المأمون ؛ كذلك لم يفته أن يحسن الانتفاع بثورة أخى المأمون ، أبى موسى بن المنصور ، والى سبتة ؛ ولم يكن من الصعب عليه — وقد حظى بمؤازرة الشعب الأندلسى كله — أن يهزم زعيم الموحدين ، بعد أن كان التوفيق يحالفه فى عدة معارك دموية ، وأن ينتزع منه حصن غرناطة المنيع (سنة ١٢٣٠ م) ؛ وفقد الموحدون مدينة بعد أخرى ، ومقاطعة بعد أخرى ؛ ولم يروا أمامهم سبيلا للاحتفاظ بما تبقى سوى عون النصارى الأسبانيين ؛ وكما حاول الأمويون ، ثم المرابطون من بعدهم ، فى آخر أيامهم أن يحتفظوا بسلطانهم المضطرب بمعاونة المرتزقة

النصارى ، فكذلك شأن الموحدين[١] .

وهكذا اتخذ أمير المؤمنين اثنى عشر ألفاً من المرتزقة القشتاليين فى خدمته ، وأرسلوا إلى المغرب لحماية العاصمة مراكش وإقليم المغرب من عدوان منافسه يحيى وأنصاره ، ونزل لقاء ذلك إلى ملك قشتالة عن عشرة من حصون الحدود ، ودفع إليه مبالغ طائلة من المال ، وسمح بإقامة كنيسة للنصارى فى مراكش ، وتعهد بألا يتعرض أحد فى مملكة الموحدين كلها للنصرانية والنصارى بسوء ، وأن يؤذن للنصارى فى الأندلس بقرع النواقيس فى كنائسهم . أما ما قيل من أنه اشترط فى معاهدة الصلح بين الملكين ، أنه إذا اعتنق الاسلام نصرانى ، فان إسلامه يكون باطلا ، وأنه إذا اعتنق النصرانية مسلم فلن يتعرض له أحد بشىء ، فما يشك فيه كل الشك ، كما أنه يشك أيضاً فى صحة ما نسب إلى المأمون من أنه قال فى خطبة ألقاها فى الشعب ، إن المهدى مؤسس الدعوة المهدية وحكومة الموحدين مخادع مضلل ، « وإنه لا مهدى إلا عيسى ابن مريم عليه سلام الله وبركاته » ، ذلك أنه إذا كان المأمون ، كما يبدو صديقاً للنصرانية ، فانه لم يكن باستطاعته أن يجاهر بذلك دون أن يفقد فى الحالة عرشه وحياته[٢] .

ولم يدخر المأمون وسعاً فى تحطيم خصومه ؛ ومع ذلك فقد كان يرى — والألم يحز فى نفسه — كيف ينهار سلطانه يوماً بعد يوم ، وذلك بالرغم من أن حلفاءه النصارى كانوا ينشطون إلى معاونته بالغزوات المستمرة والمعارك الظافرة ضد محمد ابن هود ؛ ولكن الأندلسيين لم تكن لترضيهم محالفة النصارى ، بل كانت بالعكس

(١) تحدث ابن خلدون عن ثورة ابن هود على الموحدين وحروبه معهم بإسهاب فى الجزء الرابع ص ١٦٨ و ١٦٩ .

(٢) يورد صاحب روض القرطاس جميع هذه الشروط ، التى اشترطها ملك قشتالة على المأمون نظير إمداده بالجند القشتاليين ومنها إقامة الكنيسة بمراكش ، وعدم الاعتراف بإسلام النصرانى إذا أسلم ، وعدم التعرض للمسلم المرتد . كذلك يقول لنا إن المأمون خطب الناس بجامع المنصور ، ولعن المهدى وقال : « أيها الناس لا تدعوه بالمعصوم وادعوه بالغوى المذموم ، إنه لامهدى إلا عيسى ، وإنا قد نبذنا أمره النجس ... الخ » (ص ١٦٧) ويؤيد ابن خلدون هذه الرواية فى بعض تفاصيلها (ج ٦ ص ٢٥٣) .

حافزاً لهم على معاونة خصوم المأمون . وحدث أيضاً أن فقدت مقاطعة بلنسية الخصبة الغنية . ذلك أن واليها السيد أبا عبد الله محمد أخا المأمون ، لجأ فى حماية سلطانه من المتوكل والأندلسيين الثائرين إلى طلب العون من جايم الأول ملك أراجون ، وتعهد بأن يؤدى له الجزية ، وأن يكون تابعاً له ، فاشتد لذلك سخط البلنسيين ، والتفوا حول أحد زعمائهم وهو أبو جميل زيان بن أبى الحملات مدافع ابن أبى الحجاج الجدامى سليل آل مردنيش أمراء بلنسية السابقين ، وطردوا الأمير المرابطى ، ونادوا بزيان أميراً عليهم ؛ فلم يجد السيد أبو عبد الله أمامه سوى الالتجاء إلى ملك أراجون يطلب حمايته ، وأجابه جايم إلى سؤله باعتباره تابعه سيما وقد اعتنق السيد وبناته النصرانية [1] ، وألفى جايم عندئذ حجة لغزو بلنسية ، مؤملا أن يحظى بالتأييد والعون من أنصار الأمير الموحدى فيها .

وفى تلك الأثناء ثار والى سبتة السيد أبو موسى أخو المأمون ، وانضم بقواته إلى ثوار الأندلس ؛ واستطاع يحيى الناصر بالرغم من الحامية النصرانية أن يفتتح مراكش ، وهدم الكنيسة التى أقيمت فيها ، ونهب النصارى واليهود وقتلهم [2] . فعندئذ رأى المأمون أن يترك الأندلس إلى مصيرها ، وإلى حلفائه النصارى ؛ وركب البحر من إشبيلية — وهى المدينة الوحيدة الهامة التى بقيت للموحدين فى الأندلس — إلى إفريقية ، لكى يسترد مراكش قبل كل شىء ؛ ومن النادر أن تقص سيرة أسرة على شفا الانهيار بوضوح وصدق ، فالمؤرخ الذى ينتسب إلى هذا الحزب أو ذاك يقص حوادث هذا العصر المضطرب فى الغالب وفقاً لما يهوى ؛ ومن ثم فانه ليس من المحقق ما إذا كان المأمون قد توفى بالصرع قبل أن يصل إلى مراكش ، أو أنه خاض مع يحيى الناصر معركة وهزمه ثم أصابه الموت فجأة وهو يدبر الأمر لاسترداد الأندلس ؛ وقد توفى فى الثلاثين من شهر ذى الحجة سنة ٦٢٩ هـ (١٦ أكتوبر سنة ١١٣٢ م) ، بعد حكم دام

(١) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٧ .

(٢) راجع روض القرطاس ص ١٦٩ .

خمسة أعوام ، كدرته الحروب المستمرة مع الثوار ؛ وكان موته نذيراً بانهيار سلطان الموحدين فى المغرب بعد أن تم انهياره فى الأندلس قبيل موته ؛ وبقيت فى المغرب من سلطان الموحدين أنقاض لبثت بعد ذلك زهاء نصف قرن ، ونحن نقص هنا سيرتها بإيجاز ، وإن كانت لا تكاد تمت بصلة ما إلى تاريخ الأندلس .

وبعد وفاة المأمون حاول الحزب الذى رفع ابن أخيه أبا زكريا إلى العرش ، أن يحصل لمرشحه على المبايعة العامة ، ولكن الحزب المعارض كان أقوى ، فعمل بتأييد الحرس النصرانى على تولية ولد المأمون أبى محمد عبد الواحد ؛ وهو صبي فى الرابعة عشرة من عمره ، وتلقب بالرشيد ؛ واعترف بولايته معظم أقطار المغرب ، وقسم من الأندلس يشمل إشبيلية والجزيرة ؛ أما يحيى فقد استمر أربعة أعوام أخرى يخوض معارك دموية كان يهزم فيها دائماً ، ثم توفى على مقربة من فاس ، وذلك فى شهر رمضان سنة ٦٣٣ هـ (يونيه سنة ١٢٣٦ م) ، ولكن لم تنقطع بوفاته دسائس الأحزاب المختلفة ، وهى دسائس جد عبد الواحد فى قمعها ؛ وهكذا استمر يعيش محوطاً بالقلاقل والفتن ، حتى وقع حادث سيء أودى فجأة بحياته ؛ ذلك أن جواده جمح ذات يوم وركض به إلى بركة أو نافورة فى حديقة فغرق ، وتوفى فى التاسع من جمادى الثانية سنة ٦٤٠ هـ (٤ ديسمبر سنة ١٢٤٢ م) ، وذلك بعد أن حكم عشرة أعوام وبضعة أشهر ؛ ولم يجاوز عند وفاته الرابعة والعشرين من عمره ؛ وفى أثناء حكمه فقد المسلمون فى الأندلس قرطبة وإشبيلية وأراضى كثيرة أخرى ، استولى عليها النصارى من محمد بن هود وزيان بن أبى الحملات .

وعلى أثر وفاة عبد الواحد نادى الموحدون بأخيه أبى الحسن على — الملقب بالسعيد — سلطانا عليهم ، وكان حكمه أحفل بالمصائب من حكم أسلافه ؛ وألفى الموحدون خصوماً جدداً فى بنى زيان وبنى مرين ، الذين أخذوا ينازعونهم السيادة فى المغرب ؛ وكان السعيد أكثر توفيقاً فى محاربة بنى مرين ، إذ هزمهم فى معركة شديدة بمعاونة المرتزقة النصارى الذين فى خدمته ؛ بيد أنه هزم بعد ذلك

فى موقعة نشبت بينه وبين يحي بن زيان أمير تلمسان ، وقتل أثناء القتال ، ولما يمض على حكمه ستة أعوام بعد ، وكان مقتله فى ٢٩ صفر سنة ٦٤٦هـ (٢٤ يونيه سنة ١٢٤٨م) . وفى أثناء حكمه حاصر النصارى مدينة إشبيلية ، وهى آخر قاعدة كبيرة بقيت بيد الموحدين بالأندلس ، ولم يستطع أن يمدها بالمعاونة الكافية ، فسقطت فى يد فرديناند الثالث ملك قشتالة .

وخلفه فى حكومة مراكش عمر بن أبى إبراهيم إسحاق ، وهو من أحفاد أبى يعقوب يوسف ، وتلقب بالمرتضى ؛ وكان أميراً عاقلاً حسن الخلال ، فنشط لمقاومة خصوم أسرته مزوداً بجميع الوسائل والقوى خلا حسن الطالع : ولم تفد جهوده — لإعادة نظم المهدى وتعاليمه إلى سابق مكانتها بعد أن أبطل المأمون بعضها — شيئاً فى توطيد سلطانه ؛ ذلك أنه متى انهارت أسس دولة من الدول فإنه لن يحول دون سقوطها دعامات قديمة مقوضة ؛ ولم يتأثر الشعب ذرة بحج المرتضى إلى قبر المهدى فى تينمال ، جريا على سنة الأوائل من خلفاء الموحدين ؛ ذلك أنه لم يكن يرى فى مؤسس دولة الموحدين بعد نبيا ورسولاً ، بل اعتاد أن يرى فيه — وفقاً لأقوال حكومة المأمون — محتالا مخادعاً . وهكذا فإنه بينما كان المرتضى يحاول عبثاً برد القديم أن يقيل المملكة من عثارها ، كانت النواحى تخرج عن قبضة الموحدين واحدة بعد أخرى ؛ وكانت أنقاض سيادتهم فى الأندلس تؤول إلى أمير غرناطة محمد بن الأحمر ، أو إلى قشتالة والبرتغال ؛ ونشبت فى سبتة ثورة لم يقو المرتضى على إخمادها ؛ وسقطت فاس فى يد المرينيين ؛ وتفاقم الخطب بخروج أمير من أمراء الموحدين ، هو أبو العلاء إدريس بن أبى حفص بن إبراهيم ابن عبد المؤمن الملقب بأبى دبوس ، وكان خروجه فى ٢٥ محرم سنة ٦٦٥ هـ (٢٥ أكتوبر سنة ١٢٦٦م) وحاول أن يعمل لإسقاط عمه ، وانتزاع الملك لنفسه ، فتحالف مع بنى مرين ، وسلمهم مدينة مراكش بطريق الخيانة فاحتلوها ، وفر عمر المرتضى ناجيا بنفسه ، منبوذاً من جميع أصدقائه ، فهام حينا على وجهه حتى قتله عبده المرافق له غيلة ، وذلك فى ٢٢ صفر سنة ٦٦٥ هـ (٢١ نوفمبر سنة ١٢٦٦م)

بعد أن حكم تسعة عشر عاما إلا بضعة أشهر ؛ وحسن ذكره فى الناس فيما بعد فكانوا يحجون إلى قبره كما يحجون إلى قبر قديس .

وعلى أثر ذلك ولى إدريس أبو دبوس — بمعاونة المرينيين — ذلك العرش المضطرب ، الذى عاون هو على تقويضه ؛ وقبض على أبناء سلفه وزجهم إلى السجن تأميناً لحكومته ، بيد أنه لم يمض سوى القليل حتى أدرك إدريس معاونة المرينيين على حقيقتها . ذلك أنهم طلبوا إليه أن يحكم باسمهم باعتباره تابعاً لهم ، فأبى إدريس مغضباً ؛ وعندئذ نشبت الحرب بين الفريقين ؛ فحشد إدريس كل ما تبقى له من قوى الموحدين ، وبعد أن دام القتال بينهما حيناً ، وكان النصر بينهما سجالا ، التحم الفريقان فى العام الثالث ، فى الثانى من محرم سنة ٦٦٨ هـ (أول سبتمبر سنة ١٢٦٩ م) ، فى معركة دموية على ضفاف نهر وادى الغفير ؛ فقتل إدريس وهو يقاتل بمنتهى البسالة ، وذلك بعد أن مزق جيشه وسحق فى كل ناحية وقتل معه سواد الموحدين فى ميدان الحرب ؛ وكانت هذه المقتلة ، هى مقتل سيادة الموحدين ؛ فانهارت دولتهم ، بعد أن قامت مدة واحد وخمسين ومائة عام ، وانتهت بالرابع عشر من أمرائهم ، وهو إدريس أبو دبوس ، لكى تعقبها دولة بنى مرين .

الفصل السادس

نزاع جايم الفاتح مع عميه وحروبه ضد المسلمين في الجزائر الشرقية ومملكة بلنسية حتى خضوع هذه المملكة لسيادة أراجون

كان نبأ موت بيدرو نذير اضطرام فتن شديدة بين أشراف أراجون وقطلونية ؛ كذلك نهض أخوا الملك المتوفى وهما سانشو وفرناندو فى الحال مطالبين بالعرش ، منكرين صحة مولد جايم (خايم) أو يعقوب ، لأن بيدرو نفسه كان يعتبر زواجه من ماريا باطلاً ؛ ولكن البابا كان قبيل وفاة بيدرو قد أعلن صحة هذا الزواج ، ولذلك أعلن معظم رجال الدين ، وفريق كبير من الفرسان تأييدهم لجايم ، باعتباره وارثاً للعرش ؛ وأرسلوا سفيراً إلى البابا أنوسان الثالث ، وحصلوا بمعاونته على استلام وارث العرش من الكونت سيمون دى مونفور ؛ وأحضر « جايم » وهو طفل فى السابعة من عمره إلى أراجون برفقة بطرس مطران بنقشت والكونت رعون برنجار صاحب بروفانس ، وذلك سنة ١٢١٤ م ؛ وفى مجلس النواب الذى عقد فى لارده ، وشهده رجال الدين ، والأشراف والفرسان ، وكذلك عشرة نواب عن كل مدينة ، أعلن جايم ملكاً شرعيا للبلاد ؛ ولما كان العمان قد استطاعا أثناء غياب جايم عن أراجون أن يحشد كل منهما فريقاً كبيراً من الأنصار ، ولم يحضرا مجلس النواب ، فقد رأى المطران أن يطلب إلى الحاضرين أن يقسموا يمين الطاعة فى الحال للملك ، وهو ما لم يحدث قط من قبل فى أية تولية سابقة .

وأصدر المجلس قراراً بأن تسند تربية الملك الطفل وحراسته إلى أستاذ فرسان الداوية فى مملكة أراجون وهو وليم دى مونريدون ، وهو من أشراف قطلونية الذين امتازوا بوافر عنايتهم وفروسيتهم وثقافتهم ، وأن يسند حكم البلاد إلى ثلاثة من حكام القاطعات ، منهم اثنان عن أراجون ، والثالث عن قطلونية ؛ وأسندت الوصاية إلى سانشو كونت روسيون حتى لا تهضم حقوق الممين .

ولكن هذه الإجراءات لم تنجح فى قمع الفتنة من البلاد ، بل زادتها اضطراماً ؛ وكانت أطماع عمى الملك اللذين لم يتزلا عن دعواهما فى العرش ، أهم أسباب القلاقل فى البلاد ؛ وكانا يعملان فقط لتحقيق مصالحهما الخاصة ، وينفقان موارد البلاد فى سبيل أغراضهما ، وترتب على ذلك أن انهارت موارد البلاط المالية ، وكانت قد اضمحلت من جراء إسراف بيدرو ؛ وكان القضاة الملكيون يبيعون العدالة ليحصلوا قوتهم ؛ وبذا كان كل شىء ينذر بانحلال المملكة . وهنا نهض الشيخ الأمين الموقر كينو كورنل ، فعمل على إنقاذ المملكة من السقوط ، وعلى تأمين العرش لجايم ، الملك الذى يعانى نوعا من الأسْر ؛ ذلك أنه عقد حلفاً بين المخلصين من مواطنيه ، وعمل هؤلاء على تسهيل الفرار للملك الفتى من حصن مونزون حيث كان سجيناً تحت إشراف عمه الطموح سانشو ، وأحضروه إلى سرقسطة ، وذلك فى سنة ١٢١٧ م ؛ ومع أن جايم لم يكن فى ذلك الوقت يجاوز العاشرة من عمره ، فإنه كان يبدو من حيث نموه الجسمى والعقلى فوق سنه ؛ وكان يعنى بشؤون الدولة بمعاونة بعض الوزراء الأكفاء ؛ وفى العام التالى استدعى مجلساً نيابيا فى لارده ، وفيه اتفق مع عمه سانشو ، على أن يقطعه أملاكا شاسعة ، ودخلاً حسناً ؛ ولقاء ذلك نزل سانشو عن الوصاية ، وعن دعواه على العرش ، وأقسم يمين الطاعة المنشود .

وهنا ظهر العم الآخر فرناندو ، وغدا أخطر عدو للملك . وكان أقوى الأمراء الإقطاعيين يضطرمون عناداً ومعارضة ويرفضون الإذعان للأوامر الملكية ، وسرعان ما شهروا على الملك الفتى حربا شعواء ؛ فانتهز فرناندو هذه

الفرصة ليعمل على نزع ابن أخيه عن العرش ، والتف حوله الخوارج والثوار ؛ وحاول كل حزب أن يحصل على شخص الملك لكي يستطيع الحكم باسمه ؛ وهكذا وقع جايم في يد آل مونكادو وآل آهونى ، وهما أسرتان قويتان ، لم يلبثا أن استأثرا بجميع السلطات ؛ وكان فرناندو يشترك في جميع هذه الحوادث ، وقد استطاع أن يسيطر على مدن سرقسطة ووشقة وجاقه وأن يحملها على الانفصال عن المملكة ؛ ولكن الخلاف والحسد اللذان دبا إلى الحلفاء ، وخلقا منهم أحزاباً جدداً ، ونصرف جايم الحكيم في جميع المآزق ، قضت على عمل الأطماع والخيانة ؛ وكلما اعتقد فرناندو أنه أوشك على تحقيق الغاية بعدت عنه ؛ واستطاع جايم أن يوثق أواصر تحالفه مع قشتاله بزواجه من الينور ابنة ألفونسو النبيل (سنة ١٢٢١ م) ، وعاون ذلك على تسوية الخلاف بين الأحزاب الخصيمة لمدى قصير ؛ ولكن سرعان ما عاد فرناندو وأنصاره الأقوياء إلى غطرستهم ؛ وفي سنة ١٢٢٥ م ، استطاع جايم أن يفر من قبضة خصومه الأقوياء مرة أخرى ؛ وحاول — باشهار الحرب على المسلمين — أن يسترد هيبته الملكية ، ولكنه لم يوفق في البداية ، إذ لم يتبعه إلى ميدان الحرب سوى القليل من البارونات والفرسان ؛ على أن الملك الفتى لم يهن عزمه من قلة أعوانه والصعاب المحدقة به ، وما زال مصرا على تأييد حقوقه بالسيف ضد جمهرة الخوارج عليه ، وقد أبدى في ذلك من الاقدام والجرأة والجلد ، مثلما أبدى من البراعة في الحرب ، والذكاء ، وضبط النفس . وكانت معظم المدن قد انحازت إلى فرناندو ، وانحاز إليه أيضاً فريق من رجال الدين ، وأعلن معظم البارونات والفرسان خصومتهم الملك ، وتبع الكثيرون منهم فرناندو ؛ وكانت مدن سرقسطة ووشقة وجاقة الرابطة معا رباط التحالف الوثيق تعتبره حاميها والمدافع عنها . ولكن جايم استطاع في النهاية ، بمفاوضات بارعة مع الأحزاب ومصانعة زعماء الحزبين الكبيرين في قطلونية ، وما أبداه من العزم والحزم ، أن ينزع سلاح خصومه ؛ وما لبث أن انفض عن فرناندو معظم أنصاره فجأة ، فخارت عزائمه ، وبادر بالخضوع لجايم

والتماس عفوه ورأفته ، وذلك فى مدينة طرطوشة فى سنة ١٢٢٧ م . ولم يرد الملك أن يدفع بالقسوة خصومه إلى صراع اليأس ، فلم يكتف بالعفو عن عمه ، بعد أن بايعه بالطاعة وأقسم له يمين الاخلاص ، بل زاد على ذلك أن أقطعه ثلاثين ضيعة من ضياع الفرسان ، وشمل بعفوه جميع أنصاره ؛ وعهد بقمع الفتن الباقية إلى مطران طركونة وأسقف لاردة ، وأستاذ فرسان الداوية فى أراجون ؛ وهكذا تمت تهدئة البلاد بسرعة بعد أن عصفت بها الحرب الأهلية طويلاً ؛ واحتفل بعود السكينة إلى البلاد بتنظيم مواكب الشكر والحفلات الشعبية .

وما كاد يستتب الهدوء الداخلى ، ويطمئن چايم إلى توطد عرشه حتى عاوده شغفه القديم الذى لازمه منذ الصبا فى مقارعة أعداء دينه . واعتزم أن يخصص كل عنايته لمحاربة المسلمين ؛ ولا ريب أنه كان حكيما بعيد النظر حينما بادر بعد قمع الفتن الداخلية ، إلى أن يفتح للبارونات والفرسان الظمئين إلى الكفاح ميدانا للحرب ، يستطيعون أن يخصصوا فيه حياتهم للحرب والقتال دون إضرار بالوطن . ذلك أن غزوات چايم ضد المسلمين كانت إلى حد ما وسيلة لاجتناب الحرب الأهلية ، وكان قد حاول أن يقوم بمثل هذا الدور فى صباه ؛ بيد أن الوقت لم يكن قد حان يومئذ للقيام به ، إذ كان لا بد من تحقيق وحدة البلاد بادئ ذى بدء . وقد أنشأ چايم فى بداية حكمه جمعية عرفت بجماعة الرحمة لكى تعمل على افتداء النصارى من أسر المسلمين ، وعين لرياستها أحد مؤدبيه ، وهو الشيخ الورع بيدرو نولاسكو ، وربما كان لهذا الشيخ كبير أثر فى كون چايم قد خصص حياته كلها لمحاربة المسلمين .

وفى سنة ١٢٢٨ م ، حينما كان چايم يعقد بلاطه فى طركونة ، وبرفقته جمهرة كبيرة من البارونات والفرسان ، تقرر فى إحدى المآدب أن تنظم حملة ضد جزيرة ميورقة ؛ ومن قبل چايم حاول بضعة من ملوك أراجون افتتاح الجزائر الشرقية (جزائر البليار) ، وكانت ولاية قطلونية أيضاً قد استطاعت أن تشهر عليها مدى حين حروباً موفقة . وأثار بيدور مارتل وهو بحار مجرب من طركونة ،

أطماع الحضور وغضبهم ، بما قصه عليهم من غنى الجزيرة وخصبها ، وما يقوم به سكانها من آن إلى آخر من سبي النصارى ، وما يضمره أميرها للأرجونيين من البغضاء والعداوة . وعندئذ طلب الحضور إلى الملك أن يشهر الحرب على الأمير المسلم — وكان هذا الأمير يعامله أيضاً بصلف واحتقار — فأعلن الملك استعداده للمبادرة إلى ذلك . وأقسم أنه لن يعتبر نفسه ملكاً شرعياً قبل أن يتم افتتاح ميورقة .

ولما كان أهل قطلونية نظراً لما يزاولونه من التجارة البحرية يهتمون بهذا المشروع أعظم اهتمام ، فقد رأى چايم أن يعتمد بالأخص على معاونتهم . وفي ديسمبر ١٢٢٨ م عقد مجلس نيابي في برشلونة ، تقرر فيه أن يوطد السلام الداخلي قبل كل شيء . وصرح نواب الطبقات للملك بأن يجبي « ضريبة الماشية » عن كل زوج من الثيران بصفة استثنائية ، وهي الضريبة التي كانت فيما بعد تجبى مرة واحدة عند ولاية كل ملك ؛ وأوضح كل من الحضور نوع المساعدة التي يعتزم تقديمها إلى الملك في هذه الحملة . ووعد چايم — من جانبه — بأن يقسم جزءاً مما يفتح على جميع الذين ساهموا في هذا الفتح كل بنسبة ما قدم من عون ؛ وندب لتحديد هذا الجزء والجزء الذي يخصص له لجنة من أسقف برشلونة وبعض الأشراف ؛ ولم تنس الكنيسة ورجال الدين ، إذ خصص لهم جزء لا بأس به ؛ وبعد أن تم التفاهم على تقسيم الأرض المفتوحة على هذا النحو ، تقرر أن يكون ثغر سالو مكان الاجتماع ، وأن يبدأ في تنفيذ المشروع في نهاية مايو سنة ١٢٢٩ م .

وكان انحلال سيادة الموحدين السريع قد انتهى يومئذ إلى حالة ترثى لها مما يمهد لنجاح مثل هذا المشروع . وكان السيد أبو عبد الله محمد المنصور ، أخو المأمون والحاكم على بلنسية والجزائر الشرقية ، قد نزع من ولايته قبل ذلك بقليل على يد الأمير زيان بن أبي الحملات ، وأخرج من أرضه ؛ وفر السيد المعزول إلى ملك أراجون ، وكان قد تعهد له من قبل بأداء الجزية وسأله أن يحارب مغتصب ولايته ، وأن يعيد إليه أرضه ؛ فأكرم چايم وفادة الأمير الفار ، ووعد بأن ينظم حملة من أجله ؛

وأوهمه بأن الحملة التى كانت أعدت من قبل لغزو ميورقة ، إنما أعدت من أجله وفى سبيل معاونته .

وفى الوقت المحدد اجتمع الجيش الذى اتخذ الصليب شعاره ، وأبحر فى مائة وخمسين سفينة كبيرة ، وعدد كبير من الزوارق الصغيرة ، وانضم إلى الحملة كثير من الجنويين وأهل بروڤانس .

وكانت جزيرة ميورقة يومئذ تحت حكم واليها أبى عثمان سعيد بن حكم بن عمر القرشى وأصله من طبيرة بغرب الأندلس وبها ولد ، وكان يحكمها من قبل الأمير أبى جميل زيان بن مدافع . وكان قد علم بأمر الحملة التى تهدد الجزيرة منذ البداية فحشد جيشاً ضخماً ، رتبه فى الأماكن التى يخشى أن ينزل منها الجيش المهاجم ؛ وبلغ عدد الجند المسلمين يومئذ نحو اثنين وأربعين ألف مقاتل . ومع ذلك فقد استطاع النصارى النزول إلى الجزيرة فى منتصف الليل بسلام ، قبل أن يستطيع المسلمون ردهم ، واستولوا على الشواطىء . على أن هذه البداية الموفقة ، لم يعقبها ما كان منظوراً من النجاح ؛ ذلك أن النصارى كانوا يلقون فى كل خطوة يتقدمونها داخل الجزيرة صعاباً ويتكبدون خسائر . ويلقون فى كل مكان كميناً ومعارك يأس ومقاومة باسلة ؛ وقد سقط كثير من قادة الجيش الصليبى فى المعارك الدموية قبل أن يستطيع التقدم إلى عاصمة الجزيرة ويتاح له أن يحاصرها . ونهض عندئذ راهب دومنيكى اسمه بجويل باقى فى الجند مواعظ ملتهبة لكى يستثير حماستهم وشغفهم بالقتال ، ويحفزهم إلى الجلد والاستبسال ؛ هذا إلى ما كان يذكى هممهم من أمل الحصول على ثروات المدينة وكنوزها ؛ وهكذا سار الحصار فى طريقه بالرغم من بطئه وما كان يحيط به من الصعاب . ولكن حدث بعد أن سلم بعض زعماء الأرض السهلة ، وأبدت المدينة المحصورة رغبتها فى التسليم وعقد الصلح ، أن هب مسلمو الجزيرة جميعاً إلى المقاومة من جديد ؛ والظاهر أنهم كانوا يتوقعون نزول الأمطار ودخول الشتاء ؛ عندئذ لم يتردد خايم فى أن يهاجم المدينة للاستيلاء عليها ؛ وكان من المحتوم عليه يومئذ أن يجد مخرجاً موفقاً للحملة كلها ،

إذ كان من المتعذر عليه أن يبقى طويلاً فى جزيرة لا تتسع إلا لحرب صغيرة. ففى آخر يوم من سنة ١٢٢٩ م (صفر سنة ٦٢٧ هـ) قاد جايم جنوده لمهاجمة المدينة، بعد أن شهدوا القداس وتزودوا الموت، وهزم المسلمين الذين خرجوا للقائه، وطاردهم، واستولى على المدينة عنوة، وغادرها المسلمون فارين، وامتنع الوالى سعيد بن حكم بالقلعة أياماً أخر. ولكنه لما لم ير أملاً فى الإنقاذ، استسلم للظافر، وبايعه بالطاعة على أداء الجزية[1].

ومع ذلك فقد استطاع فريق كبير من المسلمين أن يظل محتفظاً باستقلاله، معتصماً بكهوف الجبال ومغاورها. واضطر جايم أن يعود إلى الجزيرة مرتين: فى سنتى ١٢٣٢ و ١٢٣٣، وذلك لكى يحارب الزعماء الذين لم يقدموا طاعتهم ويطاردهم فى معاقلهم، ولكى يحمى الجزيرة أيضاً من غزوات مسلمى تونس، وقد حاولوا العمل على استردادها من النصارى؛ وجد جايم فى إخضاع الجزيرة، وكان قد أقر من قبل واليها السابق سعيد بن حكم حاكماً عليها، معتقداً أن فى ذلك ما يخفف وطأة سيادة النصارى على الشعب المغلوب؛ ولكن المنازعات اضطرمت

(١) تختلف الرواية العربية فى أمر والى ميورقة وقت سقوطها فى يد النصارى فيقول ابن أبى سعيد إنه كان عندئذ أبو يحيى بن أبى عمران التينملى؛ وقال المخزومى فى تاريخ ميورقة إن أميرها يومئذ كان محمد بن على بن موسى، وقد وليها منذ سنة ست وستمائة؛ وقد حقد عليه ملك النصارى بتكرر اعتدائه على السفن التابعة له فى مياه الجزائر الشرقية فجهز حملة لمحاربته، واستولى على ميورقة فى يوم ١١ صفر سنة ٦٢٧ هـ، وأسر الوالى وعذب ومات من العذاب بعد ذلك بيسير (راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٤). وأما سعيد بن حكم، فقد كان عندئذ والياً لجزيرة منورقة ثانية الجزائر الشرقية. فلما سقطت ميورقة فى يد النصارى ثار بجزيرته، ثم تصالح مع النصارى على أداء الجزية (نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٥). وذكر ابن الأبار فى الحلة السيراء، وهو معاصر لهذه الحوادث، رواية أخرى مفادها أن سعيد بن حكم تغلب على ميورقة قبل سقوطها فى يد النصارى بقليل، وعين من قبل واليها وهو يومئذ القاضى أبو عبد الله محمد أحمد بن هشام والياً لمنورقة؛ ثم ثار بالقاضى وانتزع منه ميورقة وانفرد بحكمها منذ سنة ٦٣١ هـ؛ ولما كان ابن الأبار يتفق مع باقى الروايات فى أن سقوط ميورقة فى يد النصارى كان فى صفر سنة ٦٢٧ هـ، فمعنى ذلك أن القاضى كان واليها وقت سقوطها، وأنه تصالح مع ملك النصارى ثم ثار به سعيد بن حكم وحل مكانه فى حكمها مع تعهده بأداء الجزية للنصارى (الحلة السيراء ص ٢٥٥).

داخل الجزيرة بين المسلمين ، ووقع التفاهم بينهم وبين مسلمى إفريقية ؛ ولذلك رأى جايم حينما ذهب إلى الجزيرة المرة الثالثة فى سنة ١٢٣٣م ألا يبقى المسلمين من ضروب الحرية سوى القليل ؛ وحصل البارونات والفرسان القطلونيون الذين ظهروا فى هـذه الحرب ، على معظم الأرض المفتوحة بطريق الإقطاع ، وكذلك خضع المسلمون فى جزيرة منورقة لسيادة النصارى ، وقدم زعماؤها طاعتهم الملك أراجون واعترفوا بسيادته . ولم يكن من الصعب على مطران طركونة أن يفتتح أصغر الجزائر الشرقية ، وهى جزيرة يابسة التى أقطعها الملك لـكنيسته ، وقد استولى عليها فى سنة ١٢٣٥ م بمعاونة البارونات والفرسان القطلونيين ؛ ثم إن الأمير بيدرو البرتغالى — الذى عاش فيما يبدو مدى حين منفيا فى مراكش ، وجاء بعـد ذلك إلى قطلونية وحصل على إمارة ولاية أورقلة (أورجل)[1] بزواجه من صاحبتها الـكونتة — استولى على جزيرتى ميورقة ومنورقة من جايم بدلاً من ولايته .

وعلى أثر فتح الجزائر الشرقية ، وقع فتح أهم ، هو فتح بلنسية . وكان السيد أبو عبد الله محمد ، الذى يسميه النصارى « زيت أبو زيت »[2] قد فر منـذ سنة ١٢٢٩ م ملتجئاً إلى ملك أراجون ، ليعاونه على محاربة مغتصب أرضه أبى جميل زيان ، فوعده الملك بتحقيق مطالبه وعقد معه حلفا بذلك ؛ وتعهد السيد من جانبه بأن ينزل إلى أراجون عن ربع الأراضى التى يستردها ؛ وفى الوقت الذى شغل فيه جايم بفتح ميورقة ، أخذ السيد محمد بمعاونة الفرسان الأرجونيين ، ولا سيما بمعاونة بيدزو فرنانديز دى أزاجرا ، وبلاسكو دى الوسون ، يشهر الحرب على خصمه ؛ ولـكن السيد لم يوفق فى هذه الحرب ، إذ كان يعتمد على قوى قليلة ، وكان الدفاع عن الأراضى المغزوة قويا منيعاً .

---

(١) هى بالأفرنجية Urgel ، وهى ولاية صغيرة تقع فى شمال غربى قطلونية فى سفح جبال البرنية .

(٢) وأصله بالعربية أبو زيد وهو كنية السيد .

بيد أنه لما انتهى چايم من إخضاع ميورقة فى سنة ١٢٣٣ م (٦٢٧ هـ) واشترك بنفسه فى الحرب ضد بلنسية ، أخذ التوفيق يحالف الغزاة . وأرغمت بُرِّيانة [1] ، الواقعة على البحر ، بعد حصار دام شهرين ، على التسليم ، بالرغم من دفاعها المجيد ؛ وسقطت من بعدها عدة من الحصون ، وكذلك حصن بنيسكولا ، وكلها حصون أمامية لحصن بلنسية الكبير . وبذل الأمير أبو جميل زيان كل جهد مستطاع ليقف تقدم الأرجونيين ، بل حاول فوق ذلك أن يقوم بغزو أراضيهم ؛ وعقد فى هذا السبيل حلفا مع محمد بن هود ، الذى يسيطر على غرناطة ومرسية وجزء كبير من الأندلس ؛ وشجعه أمله فى أن يبادر ابن هود إلى نصرته بجيش ضخم ، على أن يسير لمحاصرة حصن شنتمرية ابن رزين (شنتمرية الشرق) وهو من أهم الحصون الأرجونية ؛ بيد أن التوفيق لم يحالفه ؛ واستطاعت الحامية النصرانيـة التى كان يقودها بيدرو فرناندز دى أزاجرا بكثير من الشجاعة والجلد أن تحطم كل جهود زيان ، فاضطر بعد محاولات عقيمة أن يعود أدراجه إلى بلنسية .

واجتمعت عدة عوامل لتعاون ملك أراجون فى مشروعه لغزو بلنسية ؛ فقد استطاع فى مجلس النواب الذى عقد فى مونزون فى أكتوبر سنة ١٢٣٦ ، أن يخمد منازعات الأحزاب التى عادت إلى الظهور فى أراجون ، وأن يحقق حريات البلاد ، بحيث أتيح له أن يدعو جميع البارونات والفرسان الإقطاعيين وكذلك المدن إلى الانضمام إلى الجيش . وكذلك عمد البابا جريجورى التاسع إلى تأييد المشروع ، وأعلن فى جميع أمم الغرب النصرانية ، أن الحرب ضد بلنسية هى حرب صليبية ؛ وكان من أثر ذلك أن قدمت فيما بعد جموع من فرنسا وإنكلترا لتشترك فى هذه الحملة . وقرر چايم عزمه الأكيد على أن يفتتح بلنسية ، وأقسم ألا يعود إلى مملكته إذا لم يفز بفتحها ؛ وحذا حذو الملك كثير من البارونات والفرسان ، وكان لذلك وقع حسن فى الجيش كله .

---

(١) هى بالأفرنجية Burriana وهى ثغر صغير يقع شمال بلنسية .

وفى سنة ١٢٣٧ م زحف جايم على مملكة بلنسية ينذرها بالويل ، بجيش يقدره النصارى بألف من الفرسان وستين ألفا من المشاة ، وتقدره الرواية العربية بأكثر من ثمانين ألفا . وكان الأمير زيان فى حالة سيئة ، خصوصاً وأن حليفه محمد بن هود ، الذى كان يعتمد على عونه أيما اعتماد ، وكان عندئذ يدبر إمداده بأسطول وجيش ، قتل عندئذ فى ثغر المرية ، وغاض كل أمل فى الانتفاع بقواته . وهنا حاول زيان أن يتقى العاصفة التى تنذره ، بأن يعرض تسليم جميع الحصون الواقعة بين طرطوشة ونهر الوادى الكبير ؛ ولكن جايم أراد أن يغتنم الفرصة السانحة بأكملها ورفض كل عرض من هذا القبيل .

وبذل فرسان زيان — وهم كثرة — كل ما استطاعوا ليحولوا دون تقدم الجيش النصرانى . واشتبكوا معه فى معارك مستمرة ؛ ومع ذلك فلم يكن من الميسور أن يردوا جيشاً يفيض حماسة للقتال فى سبيل دينه ، ويغريه أمل الحصول على غنائم عظيمة ؛ وهكذا سقطت جميع القلاع والحصون الواقعة حول بلنسية تباعاً ، وأحاط النصارى بالمدينة من البر والبحر . وذلك فى السابع عشر من رمضان سنة ٦٣٥ هـ (مايو سنة ١٢٣٨ م) ومع ذلك فقد لبث أبو جميل زيان يؤمل النجدة ، وقد أرسل فى طلبها إلى الأندلسيين ، وكذلك إلى أقربائه بنى زيان فى إفريقية ؛ ولكن الأندلسيين كانت تشغلهم الحروب الأهلية ، ويهددهم نصارى قشتالة ، فلم يكن بوسعهم أن يلبوا النداء ؛ وأما بنو زيان فى إفريقية فقد جهزوا أسطولاً صغيراً ، وحاولوا النفاذ به إلى ثغر بلنسية ، ولكن حال دون بغيتهم الأسطول المحاصر ، والعواصف الشديدة ، فعادوا إلى إفريقية من حيث أتوا ، دون أن ينفعوا البلنسيين بشىء [1] .

---

(١) راجع فى سقوط بلنسية ، نفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٨ — ٥٨٠ وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٧ و١٨٣ ، وكان الأمير زيان حينما حاصر النصارى بلنسية وتوقع سوء المصير ، قد استغاث بصاحب إفريقية (تونس) الأمير أبى زكريا بن أبى حفص ، وأوفد إليه كاتبه الشهير أبا عبد الله بن الأبار القضاعى صاحب كتاب التكملة (تكملة الصلة لابن بشكوال) ، وأعتاب الكتاب ، والحلة السيراء وغيرها ، سفيراً يرجوه العون والإمداد ، وأنشد ابن الأبار بهذه =

ولما طال الحصار واشتدت وطأته ، وبلغ الإعياء بالمسلمين مبلغه من الهجمات المستمرة ، ويئس زيان من الانجاد ، اضطر أن يفاوض النصارى فى تسليم المدينة ؛ وعقدت معاهدة التسليم بين الفريقين فى الثامن والعشرين من سبتمبر سنة ١٢٣٨ م (١٧ صفر سنة ٦٣٦ هـ) ، وذلك بالرغم من سخط البارونات والفرسان ، إذ كان يحدوهم أمل الغنيمة والنهب . واشترط أن تسلم بلنسية إلى ملك أراجون ، على أن يؤمن جميع سكانها فى أنفسهم ، وأن تكفل لهم حرية الهجرة بجميع أموالهم إلى حيث شاءوا ، وأن من آثروا البقاء فى بلنسية منهم ؛ كفلت لهم الحرية فى مزاولة شعائرهم وشرائعهم وعاداتهم ، وألا يدفعوا من المكوس أكثر ما يدفع رعايا ملك النصارى الآخرون ؛ وأنه يجب فى ظرف عشرين يوماً أن تسلم إلى ملك أراجون جميع الحصون والمواقع الواقعة على ضفة نهر شقر اليسرى ؛ وفى نظير ذلك يمنح ملك أراجون إلى زيان ورعاياه المسلمين الهدنة لمدة سبعة أعوام . وفى اليوم المحدد دخل ملك أراجون ثغر بلنسية فى موكب فخم ؛ وفى الحال حول مسجدها

= المناسبة بين يدى السلطان أبى زكريا قصيدته الشهيرة التى تعتبر من غرر القصائد فى رثاء دولة الإسلام بالأندلس ، ومطلعها .

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا	إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست	فلم يزل منك عز النصر ملتمسا
وحاش مما تعانيه حشاشتها	فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جزرا	للحادثات وأمسى جدها تعسا
فى كل شارقة إلمام بارقة	يعود مأتمها عند العدا عرسا
وكل غاربة أخجال شائبة	تثنى الأمان حذارا والسرور أسى
تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم	إلا عقائلها المحجوبة الانسا
وفى بلنسية منها وقرطبة	ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا
مدائن حلها الإشراك مبتسما	جذلان وارتحل الايمان مبتئسا
وصيرتها العوادى العائثات بها	يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا

وهى طويلة وبها روائع من البيان المؤثر . وبادر الأمير أبو زكريا الحفصى إلى إغاثة أهل بلنسية ، وبعث إليهم فى سفنه بالجند والمؤن ، ولكن ذلك لم ينقذ بلنسية من قضائها المحتوم . ولما سقطت بلنسية رجع ابن الأبار بأهله إلى تونس واستقر بها ، ولابن الأبار رسالة بليغة مؤثرة فى رثاء بلنسية أوردها صاحب نفح الطيب (ج ٢ ص ٥٩٧ وما بعدها) . وفى روض القرطاس أن سقوط بلنسية فى يد النصارى كان فى سنة ٦٤٢ هـ ، وهو خطأ واضح (ص ١٨٣) .

الجامع على يد أسقف طركونه إلى كنيسة للنصارى ؛ وغادر المسلمون المدينة ، وهم زهاء خمسين ألف نفس فى نحو خمسة أيام ، وهاجروا إلى ما وراء نهر شقر ، لأنهم اعتقدوا أنهم أصبحوا غير آمنين فى ظل حكم النصارى ؛ هذا إلى ما شهدوه من أن عدالة ملك النصارى وحدها كانت تحميهم من غضب فرسانه ؛ وقسمت منازل المدينة ومناطقها بين رجال الدين والبارونات والفرسان ، وأهل المدن التى اشتركت فى الفتح بنسبة ما اشتركت به الجند ؛ وكان أغلب الفرسان الذين أحرزوا الأملاك فى بلنسية ، وعددهم ثلاثمائة وثمانون من أهل قطلونية ؛ وكان هؤلاء أكثر ميلاً من أهل أراجون إلى البقاء فى تلك الأراضى البديعة الخصبة التى سميت بحق حديقة كبرى ؛ وقد أسندت إليهم بالأخص مهمة الحراسة والحرب ، ورتب منهم مائة فارس يبقون دائماً تحت السلاح ، ثم يستبدلون بغيرهم كل أربعة أشهر . ونظراً لكثرة النازحين من القطلونيين ، كانت القوانين واللوائح التى يسنها جايم لبلنسية تصدر باللغة القطلونية ، وهو ما كان يثير سخط الأراجونيين .

ورأى جايم أن عمله يكون ناقصاً إذا لم يتم الاستيلاء على مملكة بلنسية كلها ، وخصوصاً على المنطقة الواقعة على الضفة اليمنى لنهر شقر ، وعلى حصونها الهامة . كذلك كان جايم يود أن يسبق قشتالة التى أخذت فى الإغارة على أراضى مرسية ، قبل أن تستولى على هذه المنطقة . ولما كان الأمير زيان لا يزال قائماً بمحاربة معظم زعماء هذه النواحى ، فقد كان بوسع جايم فى البداية أن يقوم بحملاته وفتوحه ضد المسلمين دون أن ينتهك نصوص الهدنة التى عقدت بينه وبين زيان . وفى الوقت الذى كان فيه زيان يحاول فى جموع المسلمين التى هاجرت من بلنسية أن يعتاض عما فقده من مملكته بغزو أراضى مرسية ، والاستيلاء على بعضها بالفعل ، عبر فرسان الداوية والقديس يوحنا وكثير من الفرسان القطلونيين نهر شقر ، وتوغلوا فيما وراءه حتى ظاهر شاطبة ، وافتتحوا عدة من الحصون ، وأحرزوا على جموع المسلمين الكثيفة عدة انتصارات نسبت إلى المعاونة الإلهية أكثر ما نسبت إلى قوتهم وشجاعتهم ؛ ولم يمض قليل على ذلك حتى طرح جايم جانباً كل اعتبار يتعلق باحترام نصوص الهدنة ، وعمد إلى افتتاح باقى أراضى مملكة بلنسية بكل

ما وسع من عزم وقوة ؛ واحتج المسلمون وأميرهم زيان بشدة على هـذا الانتهاك وهذه الخيانة ، وقالوا إنهم لم يسلموا إليه بلنسية إلا مقابل عقد الهدنة لبضعة أعوام ، وكان أشق ما فى هذه الغزوة الاستيلاء على حصن شاطبة المنيع بموقعه ، ولم يكن من الميسور أن يتقدم النصارى فى فتوحهم دون الاستيلاء عليه . وكان النصارى قد حاصروا شاطبة عبثاً فى سنة ١٢٤٠ م (٦٣٨ هـ) ، واضطر چايم أن يترك الحصار ، ومع ذلك فإنه لم ييأس ولم تفتر همته ، ولجأ إلى جميع الوسائل من الخديعة والإقناع والوعيد والعنف ليحقق بغيته بالاستيلاء على المدينة . وقد وفق بعد جهود طالت أربعة أعوام إلى أن يكسب حاكم شاطبة — وهو من أنصار الموحدين — بالوعود المغرية ؛ وكان قد حاول عبثا أن يحصل على معاونة القشتاليين ؛ واستولى چايم على شاطبة فى سنة ١٢٤٤ م (٦٤١ هـ) ، وكان لذلك وقع أليم فى نفس ملك قشتالة إذ كان يود أن يفتتح المدينة لنفسه ؛ واشترط أن يبقى المسلمون فى شـاطبة فى أملاكهم آمنين ؛ بل استمرت إحدى قصبات المدينة فى قبضتهم زهاء عامين ، وحصل حاكمها لنفسه ولأنصاره على حصنى مترزه ، وبلاّده .

وفى نحو هذا التاريخ — قبله أو بعده بقليل — استولى چايم على ثغر دانية ؛ وكان صاحبها الزعيم الباسل يحيى بن محمد عيسى أبو الحسين ، أحد أنصار الأمير المنكود محمد بن هود ؛ وقد أبدى فى الدفاع عن المدينة كثيراً من الشجاعة والبراعة ، ولـكنه اضطر أخيراً إلى التسليم ، بعد أن ضربها ملك أراجون من البر والبحر بالمنجنيقات ؛ ودخل چايم ثغر دانية فى مستهل ذى الحجة سـنة ٦٤١ هـ (مايو سنة ١٢٤٤ م)

وكان المسلمون لا يزالون كثرة فى هذه الأنحاء ، يثورون ضد النصارى كلما سنحت الفرصة ؛ ولهذا لم يهدأ بال چايم ، ولم يعتبر فتحه كاملا ، قبل أن يطرد جميع السكان المسلمين من المملـكة ، وقد تم ذلك فى سنة ١٢٥٣ م (٦٥١ هـ) وتلقت مملـكة غرناطة جميع اللاجئين ، وزاد بذلك سكانها وقوتها ، وأسبغ فتح مملـكة بلنسية على چايم لقب « الفاتح » .

الفصل السابع

فتوح فرديناند الثالث فى جنوبى اسبانيا
ونهاية سلطان الموحدين فى الأندلس

بينما كان جايم ملك أراجون يغزو مملكة بلنسية ، كان فرديناند ملك قشتالة ينتهز فرصة اضطراب مسلمى الأندلس وتفرق كلمتهم ، وينتزع منهم مدنهم واحدة بعد أخرى ، حتى غدا سيد المنطقة كلها . وكان المتوكل محمد بن هود قد استطاع بعد موت سلطان الموحدين المأمون فى سنة ١٢٣٢ م (٦٢٩ هـ) أن يسيطر على معظم قواعد الأندلس ، وكان سلطانه يمتد من مالقة على المرية وغرناطة وقرطبة حتى مرسية ، بينما كان أبو عبد الله محمد بن الأحمر النصرى يسيطر على أرجونة ووادى آش وبياسة وجيان ، ويحكم بعض الأمراء الموحدين إشبيلية وما حولها من النواحى ؛ وكان جميع أولئك الأمراء المسلمين يحقد بعضهم على بعض ويحارب بعضهم بعضاً بشدة ومضاء ، وكان ذلك مما يسهل مهمة محاربتهم على عدو خارجى مثل فرديناند يملك قوات ضخمة ، ويمكنه بانتهاز هذه الظروف اللائحة من أن يسير من فتح إلى فتح .

واستطاع فرديناند فى أعوام قليلة ، بصداقته ومحالفته لهذا الأمير طوراً وخصومته لذاك طوراً آخر ، أن يقوم بفتوح هامة فى الأندلس ، وأن يستولى على عدد كبير من الحصون الواقعة على الحدود ، وأن يعيث فى البسائط أعا عيث ، وأن يقتل ويأسر ألوفا من السكان : أجل كان النصارى الاسبان كلما أمنوا انتقام

خصومهم ، ازدادوا قسوة وعنفاً ، ولم يكن الشيوخ والنساء ، بل الأطفال بمنجاة من سفكهم .

وما كاد فرديناند يوطد عرشه فى ليون ، ويخضع الأحزاب الخصيمة لصولته حتى عمد إلى إشهار الحرب على المسلمين بكل ما وسع من قوة ؛ وسير أخاه الانفانت ألفونسو ، والقائد الشجاع الفاريز على رأس جيش إلى منطقة قرطبة ، فاغترا بما أحرزا هنالك من نجاح أيما غرور ، حتى أنهما تقدما إلى إشبيلية ، ثم تجاوزاها إلى فحص شريش على نهر وادى لكة (الجواداليث) ، وهو المكان الذى استطاع طارق أن يقضى فيه على مملكة القوط ، فى الموقعة التى نشبت بينه وبين الملك ردريك (لذريق) . وساد الروع الذى أثاره النصارى بعنفهم وقسوتهم جميع أرجاء الأندلس ، واشتد سخط الشعب على أولئك الأمراء الذين شغلوا بالنضال حول السلطة ، وتركوا البلاد لأعداء الدين يعنون فيها نهباً وعيثاً دون أن يردعهم رادع ؛ ورأى المتوكل محمد بن هود أن ينزل على صوت الشعب أخيراً وأن يفهم بذلك مؤازرته ، فترك الحرب التى كان يخوضها ضد ابن الأحمر ، وأذاع نداء عاما فى الأندلس كلها إلى حرب الجهاد ضد النصارى ؛ وحشدت رغبة الانتقام والحماسة الدينية حول ابن هود جموعا كبيرة ، ووفد من إفريقية ذاتها كثير من المسلمين يدفعهم حب الاستشهاد ؛ وخرج المتوكل على رأس جيش ضخم من المشاة والفرسان ، والتى النصارى فى فحص شريش على ضفاف وادى لكة حيث كانوا يحرسون غنائمهم وأسراهم ودوابهم ؛ وكان عددهم قليلا لا يعدو ألفاً وخمسمائة مقاتل . وكان من الواضح أنه لا مفر لهم من الهلاك . ذلك أن جيش المسلمين كان من الكثرة بحيث استطاع أن يطوق النصارى تطويقاً تاما ؛ ولكن النصارى لم يسعهم إزاء هذا المأزق السىء إلا أن يجمعوا أمرهم ، وذكر قائدهم الفاريز ما أبداه طارق فى نفس المكان من بطولة ، وما أحرزه فى موقعة شريش بجنده القليل من النصر على جيش ضخم ، وحث جنده بنفس الكلمات على أن يخوضوا معركة الموت ؛ وبعد أن أمر بقتل الأسرى المسلمين وعددهم خمسمائة حتى لا تشغله

حراستهم أثناء المركة ، خاطب القشتاليين بقوله : « البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، ولا نجاة لكم إلا بعون الله ، فهيا بنا نفتدى الموت غالياً » . وبعد أن تضرعوا إلى الله والقديس ياقب ، واعترفوا وتلقوا الغفران ، احتشدوا عند بزوغ الفجر فى صفوف متراصة ، وقاد المقدمة الفار پيرز ، وقاد البقية الانفانت ألفونسو ، ووثبوا إلى الهجوم من الجانبين بقوة وعزم ، تحت صوت الأبواق ، وقرع الطبول ، ونفخ القرون ، وصيحة الحرب المروعة يلقيها الجند . وسرعان ما التف الفرسان المسلمون بكثرة حول النصارى من كل صوب ، ولاح هلاكهم محققا ، ولكن القشتاليين واجهوا حراب الأعداء بصفوف متراصة لا تخترق ، وردوا الفرسان المسلمين على أعقابهم ، وشقوا طريقهم إلى صفوف المشاة التى اختل نظامها من جراء ارتداد الفرسان ، وسحقوا كل معارضة فى طريقهم . وهكذا استطاع النصارى بالرغم من خسارتهم الفادحة أن يفروا من الهلاك . ومع أن المتوكل سير جنده لمطاردتهم ، فإنه لم يستطع أن يلحق بهم كبير أذى . ولاح هذا النصر للنصارى كأنه مفاجأة مدهشة ، حتى أنهم نسبوه إلى معونة القديس ياقب ، وزعموا أن القديس ياقب ظهر أثناء المركة على فرس أبيض ، وكان يقاتل المسلمين ويلقى الرعب فى قلوبهم ، ويلجئهم إلى الفرار . وزعم النصارى فوق ذلك لكى يزيدوا من روعة هذا النصر ، أنهم لم يفقدوا فى هذه الموقعة الدموية سوى رجل واحد ، وأن هذا الرجل قد عاقبه الله بالموت لأنه لم يتصاف قبيل المركة مع خصومه كما فعل الباقون . وتتفق الروايات النصرانية والإسلامية على أن هذه الموقعة قد حدثت فى سنة ١٢٣٣ م (نهاية سنة ٦٣٠ هـ) .

وفى العام التالى ، حينما حل وقت افتتاح الغزو ، سارت عدة فرق من الجند القشتاليين إلى الأندلس غازية ؛ فأحرزت كلها قسطاً من النجاح . وكان فرسان الجماعات الدينية قد افتتحوا فى أوائل العام بقيادة آدم أسقف بلازنسيا ، حصون تروالة ، ومجسيله ، ومدلين ، والهانجه . وافتتح فرسان القديس ياقب حصن منطيل . وفى الصيف خرج الملك فرديناند نفسه فى قواته ، وطوق مدينة أبده بآلات

الحصار حتى سلمت ودخلها القشتاليون فى سبتمبر سنة ١٢٣٤م (٦٣١هـ)، بعد أن سمح لحاميتها الإسلامية بالانسحاب.

وتلا الاستيلاء على أبده فتح أهم، هو فتح قرطبة. وكان المتوكل بن هود، حينما سقطت أبده يسير إلى غرناطة بجيش ضخم لمحاربة ابن الأحمر، ففى تلك الآونة سار قسم من الجيش النصرانى الذى حاصر أبده مع قوات أخرى إلى منطقة أندوجار، وعاثوا فى تلك الناحية، وأسروا كثيراً من المسلمين؛ وعلموا من هؤلاء الأسرى أن قرطبة فى حالة سيئة، وقد أهملت وسائل الدفاع عنها؛ وتطوع من بينهم بعض الخونة لمعاونة النصارى على افتتاح هذه القاعدة الأندلسية الهامة؛ وعمل النصارى بالمثل القائل: فى الجرأة نصف النجاح، فسارت الفرقة الصغيرة من الجند النصارى تحت جنح الظلام فى هدوء حتى وصلت إلى قصبة قرطبة الأمامية المسماة بالشرقية (أو شرقية قرطبة)، وذلك فى ٨ يناير سنة ١٢٣٦م؛ وساعد هطل المطر على إخفاء حركاتهم.

ووضع النصارى، بإرشاد الخونة من الأسرى، السلالم على الجدران، وصعد عليها عدة من الفرسان المغامرين دون أن يشعر بهم الحرس؛ ولما اقتربوا من أحد الأبراج التى تأوى بعض الحراس — وكان منهم حارس قد اشتراه النصارى — رد النصارى عليهم نداءهم مخادعين بأنهم من سريات التفتيش؛ وهكذا دهم النصارى الحراس المخلصين وقتلوهم بسرعة، وهدموا الجدران دون أن يشعر بهم أحد من المسلمين؛ واستولوا بذلك على أحد الأبراج المنيعة، وعلى قسم من السور، وعلى الباب المسمى باب مرطوس، وقتلوا حراسه، وفتحوه، فدخل منه إلى المدينة زملاؤهم المتربصون فى الخارج؛ وفاجأ النصارى أحياء الضاحية بالهجوم، وجرى دم السكان المسلمين غزيرا.

وحينما لاح الصبح علم الناس بما وقع من مداهمة القصبة الشرقية، وعندئذ بادر نفر من أشجع رجال الحامية إلى مهاجمة المعتدين فى الحال، وأخرجوهم غير مرة من شوارع القصبة، وألجأوهم إلى داخل البرج، ولكنهم لم يستطيعوا

مهاجمة البرج نفسه ، وبقى النصارى بذلك مسيطرين على القصبة ، وجدوا فى تحصينها بجميع الوسائل ، بوضع المتاريس وإقامة العمد وغيرها .

ورأى النصارى أنهم لا يستطيعون بجمعهم القليل غزو مثل هذه المدينة العظيمة ، التى يؤلف سكانها الذكور وحدهم جيشاً بأسره ، فأرسلوا على عجل رسولا إلى قائد هذه المنطقة الفار بيريز دى كاستروس ، وكذلك إلى الملك فرديناند نفسه ، راجين إرسال المدد السريع لإتمام فتح قرطبة .

وسار الفار بيريز بجميع جند الحدود ممن استطاع أن يقتطعهم من حاميات الحصون ، وانضم إلى الجند الذين ملكوا القصبة الشرقية ، ولكن عددهم لم يكن مع ذلك كافياً للقيام بأعمال ذات شأن . أما فرديناند الذى كان يقيم عندئذ فى مملكة ليون ، فما كاد يقف على هذا النبأ ، حتى اهتم له أيما اهتمام ، وسار فى الحال فى ثلاثين فارساً فقط ، وأصدر الأوامر بأن تتبعه جموع الفرسان بأسرع ما يستطاع ، وكذلك فرسان الجماعات الدينية والمدن أخذوا يجتمعون بسرعة وينضمون إلى الجيش . ولما كانت الأنهر قد فاضت بماء المطر الغزير ، وكان الوقت مبكراً لم تجر العادة فيه باشهار الحرب ، فقد عاق ذلك سير الجند ، واجتماع الصفوف ؛ ولهذا سار فرديناند فى قوة صغيرة إلى مدينة ردريك ، ثم اخترق ولاية استراماذوره إلى مدينة القلمة ، وبعث ينبئ النصارى المرابطين فى ضاحية قرطبة بمقدمه السريع ، متى اجتمع لديه الجند الذين أمر بحشدهم من كل صوب .

فأذكى ذلك من عزائم النصارى فى قرطبة إلى الذروة . أما أهل قرطبة أنفسهم فقد تولاهم الفزع والروع ؛ واتجه أملهم الوحيد فى النجاة إلى المتوكل محمد بن هود ؛ وأرسلوا إليه الرسل طالبين الإنجاد بأسرع ما يستطاع . ولم يكن ابن هود يجهل أى خطر يتعرض له الإسلام فى الأندلس إذا سقط هذا الحصن المنيع فى يد النصارى ؛ ومن ثم فانه لم يتردد فى أن يحشد فى الحال جيشاً ضخما ، وأن يسير على عجل لإنجاد المدينة المهددة ؛ فلما وصل إلى استجة ، علم بأن النصارى بقيادة ملكهم فرديناند قد اقتربوا من قرطبة فى جيش ضخم ؛ وهنا ذكر المتوكل

ما أصابه من قبل فى معارك خاضها مع قوات نصرانية أقل عدداً ، ولم تحقق له الكثرة العددية أى تفوق أو مزية ، وخشى العاقبة إذا اشتبك دون تبصر فى معركة لم يتحقق فيها بعد من قوى قوة أعدائه ؛ ولما عقد المجلس الحربى كان المتوكل من رأى قادته الذين نصحوا بإرسال الرسل للتحقق أولا من مبلغ قوى فرديناند ومواقعها الحقيقية ، ولم يوافق على رأى الذين نصحوا بالبحث عن العدو توا ومهاجمته على الأثر .

وكان فى جيش المسلمين فارس جليقى يدعى لورنسيوس سوارز ، كان الملك فرديناند قد نفاه من المملكة بسبب أعماله العنيفة ، فخرج منها مع بعض أتباعه من الجند والتحق بخدمة المتوكل ؛ فاستدعاه المتوكل ، وعهد إليه بأن يأتى إليه فى ظرف ثلاثة أيام بمعلومات وثيقة عن جيش فرديناند . وكان سوارز يبحث قبل كل شىء عن صالحه ، فرأى الفرصة سانحة لكى يحصل على عفو الملك فرديناند ، وإذن العودة إلى وطنه ؛ فانسل إلى المعسكر النصرانى ، وتوصل إلى مقابلة الملك ، ونبأه بحقيقة مهمته ، وبأنه قد اعتزم مخادعة المسلمين ، وأنه سيقدم إليهم عن قوى النصارى وصفاً لا يجرأون معه على محاولة إنقاذ قرطبة ، وأنه يجب إحكاما لخديعة المسلمين ، وخشية من أن يحصلوا على معلومات أخرى ، أن يأمر الملك بمضاعفة نيران الحرس ليلا .

ولما علم المتوكل من سوارز إثر عوده أن الجيش النصرانى يتفوق بكثرته تفوقا كبيرا ، وأنه حسن الأهبة والتسليح ، ساوره التردد فى أن يشتبك معه فى موقعة ؛ وبينما هو فى تردده وحيرته فيما يفعل ، إذ وصلته أنباء من أبى جميل زيان أمير بلنسية حملته على أن يعتزم أمره ؛ ذلك أن زيان حينما شدد عليه جايم ملك أراجون الضغط أرسل يستغيث بأخيه فى الدين ، ويطلب إليه المدد السريع ، ويمده نظير ذلك بخضوعه وطاعته إليه . وهكذا لاح لابن هود أمل فى الاستيلاء على مملكة بلنسية ، وخشى فى الوقت نفسه أن يكون جنده ما زالوا متأثرين بذكريات معاركه السابقة مع النصارى ، وأن يكونوا غير أهل للاشتباك

مع جيش فرديناند فى معركة ظافرة ، فترك قرطبة إلى مصيرها ، وهو يعزى نفسه وعنبها بأن أهل قرطبة ، وهم كثرة حاشدة ، قد يستطيعون رد النصارى ، وأنه حتى إذا سلمت المدينة ، فإنه من الميسور استردادها ، خصوصا وأنه يتعذر على النصارى أن يمكنوا سلطانهم من السكان المسلمين .

وكانت تضطرم فى تلك الأثناء حول قرطبة عدة معارك دموية شديدة ؛ وكان القرطبيون يقاتلون بمنتهى الشجاعة من أجل الوطن والحرية والحياة طالما خالجهم أمل الإنقاذ والغوث ، ويدافعون عن أنفسهم بمنتهى الشدة والبسالة فى الشوارع والميادين ، ويبدون ضروبا رائعة من الجلد والاحتمال ؛ ولكنهم لما علموا بأن المتوكل سوف يتركهم إلى مصيرهم ، وأنه سار بالفعل إلى نجدة أمير بلنسية ، خبت شجاعتهم ، وحل الخور واليأس لديهم مكان القوة والبسالة . وأما فرديناند ، فإنه بالعكس ، فضلا عن استقدام الجند من جميع الأنحاء بعد تحسن الجو ، أخذ يشدد فى حصار المدينة بكل ما وسع ، واستمر يبالغ فى التضييق عليها ، حتى اضطر أهلها إلى البدء فى مفاوضته من أجل التسليم ؛ بيد أنهم لم يحصلوا منه على أكثر من عهد بتأمين النفس والحرية ، ولم يسمح لهم بالاحتفاظ بشىء من أملاكهم وأموالهم ؛ وفى ٢٣ شوال سنة ٦٣٣ هـ الموافق ٢٩ يونيه سنة ١٢٣٦ م سقطت قرطبة فى يد النصارى بعد أن لبثت تحت حكم المسلمين خمسمائة وخمسة وعشرين عاما[1] .

وما كاد النصارى يستولون على المدينة حتى وضعوا صليبا فوق مسجدها الجامع ، الذى أقامه الخلفاء الأمويون بمنتهى البذخ والبهاء ، ورفعت راية ملك

---

(١) راجع فى حوادث سقوط قرطبة ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٩ و ١٨٣ ، ويسمى ابن خلدون فرديناند ملك قشتالة المتولى على قرطبة : « هرانده » (ص ١٨٣) مع أنه يسمى فرديناند عادة « بفردلند » (راجع ص ١٨٢) . وكذلك روض القرطاس ص ١٨٣ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٥ ، ويذكر المقرى هنا أن غرناطة سقطت فى يد النصارى فى ٢٣ شوال سنة ٦٣٦ هـ ، وهو تحريف ظاهر فيما يتعلق بالسنة . والمجمع عليه أنها سقطت فى سنة ٦٣٣ هـ .

قشتالة على أبراج « القصر » ، وانتظم موكب فى طليعته الكهنة المختلفون وفرسان الجماعات الدينية وجمهرة كبيرة من الفرسان ، ودخلوا المسجد الجامع وهم ينشدون أناشيد الحمد والشكر ؛ وفى الحال قام يوحنا أسقف أوسمه بتحويل المسجد إلى كنيسة نصرانية ، وأقام به القداس . ولما عثر فرديناند بالنواقيس التى انتزعها الحاجب المنصور فيما مضى من كنيسة القديس ياقب ضمن غنائمه ، وحملها الأسرى النصارى على أكتافهم إلى قرطبة ، أمر بأن تعاد بالمثل إلى مكانها الأصلى على أكتاف الأسرى المسلمين .

وغادر المسلمون المغلوبون قرطبة بقلوب محزونة ، وتفرقوا فى باقى مدن الأندلس ، واقتسم النصارى الأملاك والدور المهجورة ؛ ولما ذاع نبأ سقوط قرطبة ، خضع كثير من القلاع والحصون . وكان أهمها حصون : بياسة ، وأستجه ، والمدور ، ورتفيله ، وأشتبه .

وفى تلك الأثناء توفى المتوكل ، محمد بن هود ، فجأة ؛ فأثارت وفاته انقلابا كبيرا فى الأندلس ، إذ كان حتى وفاته أقوى الأمراء المسلمين فى جنوبى اسبانيا . وكان بعد أن ترك قرطبة إلى مصيرها قد سار إلى المرية معتزما أن ينقل جنده منها بالسفن كى يصل بسرعة إلى بلنسية ، وينجد زيان ضد الأرجونيين ؛ فاستقبله عبد الرحمن صاحب المرية فى قصره أعظم استقبال ، واحتفل لقدومه بإقامة المآدب والحفلات الشائقة . ولكنه لما آوى إلى غرفته للنوم ، انقض عليه مضيفه الخبيث الغادر ، وقتله خنقا ، وذلك فى ٢٧ جمادى الأولى سنة ٦٣٥ هـ (سنة ١٢٣٧ م) . وفى صباح الغد ، أذيعت إشاعة مفادها أن المتوكل توفى بالصرع بسبب الإفراط فى السكر [١].

---

(١) كان صاحب المرية يومئذ ، وهو الذى يسميه المؤلف بعبد الرحمن ، هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأموى الرميمى وزير ابن هود ؛ وكان يدعوه ذا الوزارتين ؛ وقد ولاه حكم المرية . ويذكر لنا ابن خلدون أن ابن هود حينما قدم على وزيره فى المرية توفى فى الحمام ، بيد أنه يشير إلى رواية قتله واتهام وزيره بذلك (ج ٤ ص ١٦٩) . وأورد المقرى تفاصيل أخرى عن علاقة ابن هود بوزيره الرميمى ، وعن وفاته (نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨١ و ٥٨٣) .

وقد أنفق المتوكل أيام حكمه كلها فى نضال مستمر ضد الاضطراب والثورة ، وضد أطماع الزعماء المسلمين ، وغزوات النصارى . ولم يكن من الميسور إزاء هذه الفوضى الشاملة والأخطار العديدة ، أن توطد دعائم الحكم ، وأن تجتمع له أسباب القوة . وكان المتوكل ، وهو عقب بنى هود الذين كانت لهم من قبل دولة قوية فى سرقسطة ، يرى آسفاً أن الإسلام فى جنوبى اسبانيا يقترب أيضاً من نهايته . وليس أدل على أهمية شخصه — كعامل فى جمع كلمة الأندلس — من أنه سرعان ما أذيع موته حتى تفرق الجيش الذى كان يقوده ، وعبثاً حاول القادة أن يعيدوا الجند إلى الصفوف . وقد أشاد شاعر العصر أبو بكر محمد بن أحمد الصابونى بخلال ابن هود وشجاعته ، فى قصائد غراء . واتهم المتوكل بأنه لم يكن قويا فى دينه ، وأن ذلك كان سبب هلاكه .

وآل تراث معظم الولايات التى حكمها ابن هود إلى محمد بن نصر بن الأحمر ، أمير جيان وأرجونه ؛ ولم يقتصر الأمر على استيلائه على المرية على يد حاكمها الغادر عبد الرحمن ، ولكنه استولى أيضا على غرناطة الحصن الهام ، وقاعدة مملكة ابن هود ، بدعوة من أهلها ، وذلك فى رمضان سنة ٦٣٥ ﻫ (أبريل سنة ١٢٣٨ م) ، وبها جعل مقر حكمه .

وسرعان ما اعترفت بطاعته أيضا مالقة وكثير غيرها من مدن الأندلس . أما إشبيلية وشريش ومدن الغرب (غربى الأندلس) فقد احتفظت باستقلالها أو انضوت تحت حكم الموحدين المحتضر .

وحكم فى باقى أراضى المتوكل — أى فى مرسية — فى البداية — أخوه على بن يوسف عضد الدولة ، ونودى به أميراً عليها فى الرابع من محرم سنة ٦٣٦ ﻫ (١٢٣٨م) ، ولكن حكمه لم يطل أمده ، إذ استولى على مملكته أبو جميل زيان بن مدافع بن يوسف بن سعد الجذامى ، وذلك فى الخامس عشر من رمضان من نفس العام ، وأسر ، ثم قطع رأسه بعد ذلك بأيام قلائل[1] . وعلى أثر ذلك اختلف الزعماء

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٥٠ .

واضطرم القتال بينهم من أجل رياسة المدينة ، وسادتها الفوضى الشاملة[١] .

وفى الوقت الذى كان فيه چايم ملك أراجون يتابع فتوحاته فى شرقى اسبانيا بعد أن انتزع قلعة بلنسية من أبى جميل زيان ، وقضى على إمارته فى ولاية بلنسية ، كان محمد بن الأحمر النصرى يزداد فى جنوبى اسبانيا قوة وسلطانا ، وكان ينضوى تحت لوائه كل مسلم يعنيه إنقاذ الإسلام ؛ وكان مولده بحصن أرجونه Arjuna فى أسرة قديمة عريقة فى النبل ، وكان قد ترك فلاحة الأرض (إذ كان كالرومان القدماء يفلح ضيعته بنفسه) ، وهرع إلى ميدان الحرب أيام خليفة الموحدين المأمون ، حينما ساد الاضطراب جميع أرجاء الأندلس ، وسقطت فريسة لغزوات النصارى ؛ وأذكت محاسن الصدف ، وعلامات ونبوءات عرضت له بإحراز السلطان ، شجاعته فى المعارك إلى الذروة ؛ ولما تفاقمت الخطوب على الأندلس من جراء غزوات النصارى المنظمة ، منحه الزعماء المتطلعون إلى العون لقاء شجاعته الرياسة أولاً فى أرجونة ، وهى موطن أسرته بنى نصر ، ثم على المدن المجاورة لها ؛ فوطد فيها رياسته بالرغم من معارضة ابن هود ، وبسطها من بعد وفاته على جزء كبير من جنوبى اسبانيا .

وأخذ محمد بن الأحمر يحشد من حوله جميع المسلمين الذين غادروا البلاد التى افتتحها النصارى ، وسرعان ما غدا عضد الإسلام الوحيد ، وأصبح كل من لم يؤيده ويلتف حوله يعتبر خارجا على الإسلام ؛ ثم دعا الشعب بأسره إلى محاربة النصارى ، وبعد أن حشد جموعا كبيرة من الفرسان ، وكذلك جيشا ضخما من المشاة ، سار إلى أرض النصارى ، وعسكر أمام قلعة مرطوس ، وكاد يتغلب عليها لولا أن قدم لإنجادها جيش من النصارى ، فرفع ابن الأحمر الحصار عنها ، ولكنه لم يحجم عن الاشتباك مع النصارى فى معركة أحرز النصر فيها ،

(٢) راجع ابن خلدون ج ٤ س ١٦٩ و ١٧٠ ؛ وفى روايته أن الذى ولى مرسية بعد وفاة ابن هود ولده أبو بكر محمد الملقب الواثق ؛ وتناوبها من بعده عدة من الزعماء . راجع أيضا نفح الطيب ج ٢ س ٥٨١ .

(سنة ١٢٣٨ م — ٦٣٦ هـ)، وبذلك أعاد الثقة إلى نفوس جنده فى قوة المسلمين .

واستطاع فرديناند بعد غزوات عديدة ، ومهاجمات لبعض المدن الصغرى ، أن يضم بالصلح والتراضى ولاية بأسرها ، هى مملكة مرسية . وكانت مرسية ، منذ مقتل محمد بن هود ، قد اقتسمها رهط من الزعماء ، وأصبح لكل مدينة ، بل وكل قلعة ، حاكم مستقل ، ينحصر نشاطه فى أن ينازع جاره ملكية مدينته أو منطقته ، أو أن يدفع عدوانه عن أملاكه . وهكذا شملت الحرب الأهلية جميع الولاية ، وعانى الشعب أروع الآلام من عسف الزعماء الطامعين المتطلعين إلى الحكم والسلطان . ولما بدا أن أمير غرناطة محمد بن الأحمر يرى إلى أن ينتهز فرصة تفرق الزعماء ، والاستيلاء على بلنسية ، وهو ما كان يرجوه الشعب لكى يتخلص من نير الطغاة الأصاغر ، آثر أولئك الزعماء أن يحتفظوا بسلطانهم كأتباع لملك قشتالة ، على أن ينزلوا عنه لابن الأحمر ، أو أن يتحدوا على مقاومته ؛ ولما نمى إليهم أن ألفونسو أكبر أولاد الملك فرديناند ، قدم إلى حدود الولاية على رأس قواته ، أرسل كل منهم إليه رسولا للمفاوضة وتقرير الشروط التى يرى أن يخضع لملك قشتالة وفقاً لها . وفى « الكراز » وقعت الشروط التى يخضع بمقتضاها محمد بن على بن هود والى مرسية ، وحكام لقنت ، وأريوله ، والحامه ، ولبيط ، وعقيقه ، وجنجاله ، وخلاصتها أن يبقى هؤلاء متمتعين بحكم مدنهم وموارد دخلهم ، وعليهم فى مقابل ذلك أن يدينوا بالطاعة لملك قشتالة باعتباره سيدهم الأعلى ، وأن يؤدوا له الجزية ، وأن يتعهدوا بأخذ جنود من النصارى فى القلاع والحصون . ولكن والى لورقة ، أبا بكر عزيز بن عبد الملك بن خطاب أبى أن يدخل فى هذا الاتفاق ، إذ كان يدعى السلطان على مملكة مرسية بأسرها باعتباره خلفاً للمتوكل محمد بن هود ، بيد أنه لم يستطع أن يحتفظ إلا بثلاث مدن هى لورقة ومولة وقرطاجنّة ، وكان ينيب عنه حاكما فى كل من مولة وقرطاجنة . كذلك كانت مدينتا شاطبة ودانية اللتان تبعدان عن أملاكه تعترفان بسلطانه ، وقد ولى عليهما أبا الحسين يحيى بن أحمد حاكما من قبله .

وبعد أن تلقى ألفونسو طاعة زعماء « الكراز » وهى مدينة تقع على مقربة من منابع نهرى شقورة والوادى الكبير ، وبذلك كفل لهم الحماية ضد أى اعتداء ، سار فى عدد كبير من الفرسان القشتاليين والزعماء الخاضعين إلى مدينة مرسية ، فدخلها بين مظاهر الاحتفال الفخمة (سنة ١٢٤٣ م — ٦٤١ هـ) ، ورتب فى المراكز الهامة ، فى الأراضى الجديدة ، جنوداً كامية تسهر على ولاء المسلمين . وحاول الفونسو عند عودته أن يرغم والى لورقة الذى أصر على رفض الخضوع على التسليم بالسيف ، واستطاع أن يفتتح قلعة مولة الواقعة على نهر شقوره (Segura) . ولكنه أخفق فى افتتاح قلعتى لورقة وقرطاجنة ، واكتفى بالعيث فى أرضهما (سنة ١٢٤٤ م) .

وهنا استطاع فرديناند لأول مرة أن يحارب أمير غرناطة بنجاح . فأرسل ولده ألفونسو مرة أخرى بجيش لافتتاح لورقة وقرطاجنة ، ومن ثم لتهديد غرناطة من هذه الناحية ، وسار بنفسه بجيش آخر من أندوجار إلى جيان ، وخرب هذه المنطقة ، وأرسل قسما من جيشه بقيادة نونيو جونزالز دى لارا إلى قلعة أرجونة لمحاصرتها . ولما كانت أرجونة غير مستعدة لحصار طويل ولم تزود بالمؤن (خصوصاً وقد كان القحط يعصف يومئذ بجنوبى اسبانيا) فقد فتحت أبوابها للنصارى ، وغادرها سكانها الذين أمنوا فى أنفسهم ، إلى أماكن أخرى من أملاك أمير غرناطة ؛ وشجع النصارى هذا النجاح فتابعوا فتوحهم واستولوا على حصون قسطيلة ، وبجالجر ، ومنتجر ، وكارتجز ؛ وفى ربيع نفس هذا العام (١٢٤٤ م) زحفوا على وادى قرطبة ، ولم يلق الفرسان القشتاليون مقاومة تذكر ، حتى وصلوا إلى ظاهر غرناطة ذاتها ، وبدأوا حصارها فى الحال ، ولكن تقدم الوقت وقيام المحصورين بهجمات عنيفة كانت تكبد القشتاليين خسائر فادحة ، وزحفت قوة إسلامية على مرطوس وراء خطوط القشتاليين ، كل هذه حملت النصارى على رفع الحصار ، والارتداد إلى أراضيهم ، وكانت هجمات المسلمين تتوالى عليهم حين العودة . وفى تلك الأثناء خرجت مرسية من قبضة النصارى مرة أخرى ؛

ذلك أن بعض المسلمين لزعمائهم الذين يعتمدون فى تمكين سلطانهم على الجند القشتاليين كان يشتد يوماً عن يوم ؛ فلما سار أبو جميل زيان عقب فقده لبلنسية واستيلاء جايم ملك أراجون عليها ، إلى مدينـة مرسية ، وغزا أراضيها بقوة لا بأس بها ، هب المسلمون لتحطيم النير الذى فرض عليهم ، ونادت شاطبة ودانية ، ومدن أخرى بانضوائها تحت لواء أمير بلنسية السابق . وسار عزيز بن عبد الملك والى لورقة فى قواته لمحاربته ، ولـكنه هزم وقتل فى معركة دامية (٢٦ رمضان سنة ٦٤٠ هـ — ١٢٤٢ م)[1] ، ومكن هذا النصر زيان من الاستيلاء على لورقة وقرطاجنة وعدة أماكن أخرى ؛ ولم يستطع القشتاليون مقاومته ، فطردوا من كل مكان . ولـما كان ملك أراجون يسيّر قواته أثناء ذلك لافتتاح شاطبة ودانية وكلتاهما تقع فى أراضى مرسية ، وتعتبرهما قشتالة واقعتين تحت سيادتها ، فقد كان تطور الحوادث على هـذا النحو نذيراً باضطرام الخلاف بين الملـكتين على حقوق الفتح فى أراضى مرسية .

وفى العام التالى ، أعنى سـنة ١٢٤٥م (٦٤٣ هـ) ، اعتزم ابن الأحمر أمير غرناطة أن يشحن قلعة جيـان بالمؤن والسلاح ، إذ كان يتوقع أن يهاجم ملك قشتالة هـذه القلعة الواقعة على الحدود ، فأرسل إليها قافلة من ألف وستمائة من دواب الحمل محملة بالمؤن والذخائر ، وسارت من غرناطة إلى جيان فى حراسة خمسمائة فارس ، فلما علمت قوات النصارى على الحدود بأمر هذه القافلة ، سارت إلى منطقة جيان مما يلى غرناطة ، وتربصت لمهاجمتها والاستيلاء عليها . ولـكن المسلمين علموا بهذا الـكمين فى الوقت المناسب ، وعادت القافلة إلى غرناطة . وأدرك النصارى من ذلك أن جيان ليست مزودة بالمؤن الـكافية ، فوجهوا عنايتهم لافتتاحها ، وبدأوا حصارها بتخريب جميع المناطق المحيطة بها ، حتى تصبح وقد غاض أملها فى تلقى أى قسط من المؤن ، ومع أن النصارى كانوا متفوقين فى العدد ، فقد

---

(١) راجع فى ترجمة عزيز بن عبد الملك الحلة السيراء ص ٢٤٩ وما بعدها ، وفى رواية ابن الأبار أن وفاته كانت فى جمادى الأولى سنة ٦٣٥ هـ .

دافعت الحامية عن المدينة ببسالة نادرة ؛ بيد أنه لما كانت جميع القلاع والحصون القريبة منها قد وقعت فى يد النصارى ، ولم يوفق ابن الأحمر حينما سار فى قواته من غرناطة بسرعة لإنجاد جيان بل هزمه النصارى ، فقد كان من الواضح أنه يتعذر على هذه القلعة التى تنقصها جميع وسائل الدفاع ، أن تصبر طويلا على هجمات القشتاليين ، وأمر فرديناند — الذى أقسم بالاستيلاء على المدينة — قواته بمتابعة الحصار بالرغم من قسوة الشتاء وهطل الأمطار ، خلافاً لما درج عليه النصارى فى غزواتهم .

ولما رأى أمير غرناطة عقم المضى فى المقاومة ، وأدرك أن فرديناند لن يقف فى فتوحه عند الاستيلاء على جيان ، اعتزم أن يقوم بخطوة حاسمة لتأمين أراضيه من عيث النصارى ، بل وحمايتها بمعاونتهم ؛ فسار إلى لقاء فرديناند ، فى معسكره أمام جيان واثقاً كل الثقة فى شهامته ، وعرفه بشخصه وبالغرض الذى أتى من أجله ؛ وقدم طاعته إلى ملك قشتالة باعتباره سيده الأعلى ، وصرح بأنه يحكم كل أراضيه من قبله على أداء الجزية ، ثم قبل يده إيذاناً بالخضوع له ؛ ودهش الملك فرديناند لما رأى من ثقة عدوه بالأمس ومن عروضه ، وأبت عليه شهامته أن يخيب ظن الأمير ؛ وفى الحال نهض لمعانقة ابن الأحمر ، وسماه صديقه وحليفه وصرح بأنه لن يعتدى على شىء من أراضيه ؛ وهكذا عقدت بين الأميرين معاهدة يحتفظ فيها أمير غرناطة بكل أراضيه ومدنه ، ويتعهد بأن يؤدى إليه جزية سنوية قدرها خمسون ألف مثقال من الذهب ، وأن يعاونه كلما طلب بعدد معين من الفرسان لمحاربة أعداء قشتالة ، سواء أكانوا من النصارى أو من المسلمين ؛ وتعهد أمير غرناطة فوق ذلك بأن يشهد اجتماع المجلس النيابى (الكورتيس) أسوة بباقى الأمراء التابعين للعرش ، وأن يشهد كل حفلات البلاط الرسمية ؛ وسُلمت قلعة جيان إلى فرديناند رهينة بصدق التعاقد ، ودخلها على أثر عود ابن الأحمر إلى غرناطة ، وذلك فى أبريل سنة ١٢٤٦ م (نهاية سنة ٦٤٣ هـ) ، بعد أن حاصرها عشرة أشهر ، وحول مسجدها الجامع إلى كنيسة ، ورتبت بها حامية قشتالية كبيرة .

وكان انتهاء الحرب ضد غرناطة بهذه السرعة الفجائية ، فى نفس الوقت الذى تفتتح فيه الغزوات ، مشجعاً لفرديناند على أن يضطلع بمشروع ضخم آخر . ذلك أن أمير غرناطة قد أصبح صديقاً لملك قشتالة يدين له بالولاء ، وعليه بوصفه تابعاً له أن يعاونه بقواته فى كل حرب يخوضها ؛ وكان فرديناند قد اضطر أن يرجئ افتتاح مرسية — حيث تضاءلت قوى الأحزاب من جراء المعارك المستمرة ، واعترف عدة من الزعماء بسيادة فرديناند — خوفاً من الاصطدام بأراجون ؛ وكان الخلاف على حق افتتاح شاطبة ودانية على وشك الوقوع بالفعل ؛ ولذا كان من الطبيعى أن يوجه فرديناند جيوشه الظفرة إلى ناحية أخرى يستطيع أن يحقق فيها فتوحا أهم ، لا ينازعه فى شأنها أحد من جيرانه النصارى ، تلك هى فياض الأندلس المباركة ، ومدينة إشبيلية الغنية ؛ وقلعتا قرمونه وقسنطينة المنيعتان ، وهى التى يحقق له افتتاحها امتلاك نهر الوادى الكبير كله ، ويقضى على البقية الباقية من سلطان الموحدين فى اسبانيا .

فلم تمض ثمانية أشهر على الاستيلاء على جيان ، حتى كان فرديناند قد رتب فيها كل شىء ؛ ثم خرج فى جيشه ، وبعد أن طلب إلى تابعه الجديد أمير غرناطة أن يسير معه إلى ميدان الحرب فى فرسانه وفقاً لشروط المعاهدة ، انقض على كورة قرمونة[1] ، وعاث فيها أيما عيث وانتسف فيها كل شىء ، وهو تمهيد لحصار المدن الكبيرة حتى يتعذر تموينها لبضعة أعوام . وفى الموعد المحدد حشد أمير غرناطة خمسمائة فارس حسنى الأهبة إلى جانب الجيش القشتالى ؛ وكان أول مكان حاصره النصارى قلعة وديره ؛ ولم يثبت المسلمون — لضعفهم — طويلا ، فبعثوا إلى محمد بن الأحمر وسلموا إليه المدينة ، مؤملين أن يجدوا منه كمسلمين معاملة أفضل ؛ وكاد ذلك يعكر صفو العلائق بينه وبين فرديناند ، ولكن كليهما كان عاقلا مستعدا لتضحية الأقل لاغتنام الأكثر ؛ فسلم ابن الأحمر المدينة إلى فرديناند بدوره فى البداية إلى حليفه كفتح أول . وسهل امتلاك هذه القلعة الواقعة بجوار

(١) وفى ياقوت قرمونية .

إشبيلية انتساف أراضيها باستمرار ، والتوسع فى تخريب بسائطها حتى شريش وقرمونة ، وكان يحاصرهما يومئذ فرسان القديس ياقب وقلمة رباح ؛ وحصل فرديناند على إذن البابا بأخذ أعشار الكنائس ليستعين بها على نفقات الحرب الكبيرة .

وكان من الواجب قبل أن يتمكن النصارى من محاصرة إشبيلية بنجاح أن يتغلبوا على ما حولها ، وأن يستعينوا أيضاً بأسطول يقطع عنها الميرة من جهة البحر . ولم يستطع النصارى تحقيق الشطر الأول إلا فى بداية سنة ١٢٤٧م (٦٤٤هـ) حيث انتسفوا الحدائق والكروم وأعواد الشجر ، وجميع المحاصيل ، فى كل مكان أبدى السكان فيه معارضة ؛ على أن معظم المسلمين آثروا التسليم والانضواء تحت لواء النصارى كرعايا يؤدون الجزية ، وآثرت قرمونه وقسنطينة ولوره ، والقوله ، وهى جميعاً حصون منيعة كان بوسعها أن تحتمل الحصار طويلا ، — بعد أن لبثت أشهراً تنتظر عبثاً ، وعرض عليها النصارى عقد الهدنة — أن تبادر بالخضوع ، فتغنم عطف الظافر ، على أن تتعرض بالقاومة الشديدة لقسوته ، كما حدث لقلمة قنطلانه التى اقتحمها النصارى ، وقتلوا كل من فيها ؛ واستطاع ابن الأحمر أمير غرناطة أن يحمل — بالنصح والإقناع — عدة حصون على التسليم ؛ وأن يحصل من الملك فرديناند على وعد ، بألا يستعمل العنف حيث لا ضرورة لاستعماله ، وأن يقدم النصارى شروطهم إلى كل مدينة وقلمة قبل أن يبدأوا حصارها . وبذلك استطاع ابن الأحمر أن يحقن كثيراً من الدماء ، واستولى النصارى بمعاونته على عدة من الحصون ، منها جويلانه ، وقلمة ريه ، وجرينة ، وغيرها .

وفى أوائل سنة ١٢٤٧م ، أنشأ النصارى فى ثغر سنتاندر برياسة رعوند بونفاشيوس ، وهو سيد من برغش ، أسطولا من ثلاث عشرة سفينة شراعية ، وسار هذا الأسطول ورسا عند مصب نهر الوادى الكبير ؛ واجتمعت فى الوقت نفسه جميع القوات التى طلب حشدها ؛ وعندئذ شرع النصارى فى تطويق

إشبيلية ؛ وكان أهل إشبيلية قد اختاروا لرياستهم يومئذ أميراً من الموحدين هو السيد أبو عبد الله ، وعهدوا إليه بالدفاع عن المدينة ، ودعا السيد أبو عبد الله ابن أخيه أبا الحسن بن أبي على حاكم قرمونة لمعاونته فى تنظيم الدفاع ، فبادر إلى تلبية دعوته ، لما رأى من أن إشبيلية قد غدت مقصد فرديناند ؛ وتلقت المدينة من إفريقية بعض المعاونة ؛ وأدرك السيدان أهمية المحافظة على طريق البحر وبقائه مفتوحا ، لكى يتسنى لإشبيلية تلقى المؤن باستمرار ، فاستقدما من الموحدين فى إفريقية أسطولا صغيراً رسا فى مصب الوادى الكبير عن ثغر شنت لقر ليمنع سير الأسطول القشتالى فى النهر .

ولكن الأسطول القشتالى استطاع بعد عدة معارك شديدة أن يحرز النصر ، وأن يغرق أو يعطل عدداً من سفن المسلمين ، وأن يأسر السفن الباقية ، وعمل الجند القشتاليون من جانبهم على إخلاء الشاطئ من الأعداء ؛ وهكذا استطاعت سفن النصارى أن تمخر عباب النهر . ومنذ ٢٠ أغسطس سنة ١٢٤٧م (٦٤٤هـ) كانت إشبيلية قد طوقت من كل مكان من البر والبحر ، واستمر الحصار طوال العام بأسره ؛ وجمع النصارى كل ما يحتاجون إليه ، وأقاموا الخيام فى كل ناحية ، حتى بدا كأن مدينة أخرى قد أقيمت إلى جانب المدينة المحصورة .

وبعد أن لبثت إشبيلية محصورة طول الشتاء ، وقد قطع عنها كل مدد من المؤن ، وكذلك ردت الأمداد التى حاول المسلمون فى غربى الأندلس إرسالها بقيادة محمد والى لبلة ، حشد فرديناند فى أوائل سنة ١٢٤٨ م قوات أضخم ، للاسراع فى افتتاح هذه القاعدة الهامة من قواعد الأندلس ؛ وتنافس الكبراء والفرسان الأسبان فى المساهمة فى هذا الفتح . وفى شهر مارس قدم إلى المعسكر النصرانى ولد الملك وولى عهده ألفونسو فى قوة مختارة من الجند القشتاليين ، وفى صحبته ألفونسو ولى عهد أراجون ، وبيدرو ولى عهد البرتغال ، وصاحب (كونت) أورقلة ، ومعهم جمهرة من الفرسان الأرجونيين والقطلونيين والبرتغاليين ثم وفد من بعدهم لوبيز دى هارو ومعه قوة من جند بسكونية وقشتالة القديمة ؛

وقدم يوحنا مطران شنت ياقب فى قوة مختارة من جند جليقية ؛ كما قدمت قوات من مدينة سالم ومداين وقورية وغيرها ؛ وقدم معظم الأساقفة وكثير من الأحبار والرهبان من جمعيات القديس دومينيك والقديس فرنسيس والقديس بندكت ، وأخذوا يلهبون بمواعظهم حماسة الجند ؛ وقدم محمد بن الأحمر أمير غرناطة ، — وفق تعهده — بقوة من الفرسان ، وعسكر أمام برج الفرج ، وأدى بحكمته وشجاعته ، وما قدمه من فرسان حسنى الأهبة ، لملك قشتالة خدمات جليلة ؛ وإذا صحت الروايات الإسلامية ، فان إشبيلية لم تقطع عن تلقى المؤن من طريق البحر ، وذلك بالرغم من أنه قد نشبت عند مصب الوادى الكبير معارك دموية شديدة ؛ وأخيراً قرر النصارى وفقاً لنصح ابن الأحمر أن يطوقوا المدينة تطويقاً تاما ، وكانوا قد حاصروها مدى ثمانية عشر شهراً ؛ وفى الثالث من شهر مايو سنة ١٢٤٨م نزلوا عند نصح أمير غرناطة ، ونصح أمير البحر رعوند ، وأحرقوا سفن المسلمين فى ميناء إشبيلية ، وذلك بأن دفعوا إليها بحراقتين تحملان آنية محملة بالكبريت والقار وغيرهما من المواد الملتهبة ، ثم دفعوا بعض السفن الثقيلة نحو قنطرة السفن بقوة الريح والتيار ، فحطموا سفنها المثبتة معا بسلاسل الحديد ، وقطعوا بذلك المواصلة بين المدينة ، وبين قلعة طريانة ؛ واستولى النصارى على قلعتى طريانه وجوليس ، ثم اقتحموا ضاحية الصفار وباب مقرينة ، ولم يبقوا فيها على أحد ، ومع ذلك فقد دافع المسلمون عن أنفسهم أشد دفاع ، واستعملوا فى قتالهم كثيراً من الآلات القاذفة والمكاحل ، وأنزلوا بالنصارى أضراراً فادحة ، وكانت مقذوفاتهم تشق الجواد المدرع من جانب إلى آخر .

وفى النهاية أضنى الحصار أهل إشبيلية ، ولاسيما بعد أن يئسوا من الإنجاد ، وأخذ شبح القحط يهددهم ، فنزلوا على حكم الظروف مرغمين وبدأوا المفاوضة فى تسليم المدينة ، متمسكين ببعض الشروط . وتقول الروايات النصرانية إن فرديناند لم يقبل أية مناقشة فى الشروط ، وتقول الروايات الإسلامية إنه قبل الشروط مغتبطاً ، لكى يعجل بالاستيلاء على المدينة ، أما شروط التسليم فتتلخص فيما يلى :

أن يكون المسلمون أحراراً فى أن يبقوا فى المدينة أحراراً آمنين محتفظين بمنازلهم وأموالهم لا يؤدون سوى الضرائب العادية ، أو أن يهاجروا منها بعد أن يبيعوا أملاكهم ؛ وأن يمنح الذين يرغبون فى الهجرة شهراً كاملا ، وأن يقوم النصارى بتسهيل رحيلهم سواء بالدواب فى طريق البر ، أو بالسفن فى طريق البحر ، وأن يسمح الملك فرديناند لأبى الحسن والى المدينة (والظاهر أنه كان آخر من ولى الأمر فيها) — وهو الذى يسميه النصارى أورانتس Orantes أن يبقى فى إشبيلية ، وأن يمنحه مبلغاً من المال لنفقته . بيد أنه آثر الهجرة ، وما كاد ينتهى من تسليم مفاتيح المدينة حتى ركب البحر فى نفس اليوم ، أى فى ٢٣ نوفمبر سنة ١٢٤٨ م الموافق ٦٤٦ هـ إلى سبتة وإفريقية حيث لحق بآله ، وكانوا يومئذ يتنازعون مع بنى مرين على السلطان .

وهكذا انتهى سلطان الموحدين فى إشبيلية بعد أن حكموها مائة وبضع سنين ؛ وقد حكمها المسلمون منذ فتح الأندلس خمسمائة وسبعة وثلاثين عاما ؛ وقد غادرها من المسلمين ثلاثمائة ألف ، وسار فريق منهم برفقة فرسان قلعة رباح إلى شريش ، ونزح القليل مع الموحدين إلى إفريقية ، وذهب آخرون إلى لبلة وغربى الأندلس ، وقصد أكثرهم إلى كورة غرناطة حيث وعدهم ابن الأحمر بحسن الوفادة والحماية . ودخل فرديناند المدينة بعد ذلك فى موكب فخم ، وقد حملت أمامه صورة السيدة العذراء ، وركب إلى جانبه ولده وولى عهده ألفونسو ، ومن ورائه باقى أبنائه ، ثم تبعهم ألفونسو ولى عهد أراجون ، وبيدرو ولى عهد البرتغال ، فجميع الأحبار المرافقين للجيش ورؤساء فرسان الجماعات الدينية ، واصطف من حولهم كبراء المملكة والفرسان ؛ وقصد الموكب إلى المسجد الجامع ؛ فقام الأحبار بتحويله إلى كنيسة ؛ ورفع فى الوقت نفسه علم النصرانية وعلم ملك قشتالة على قمة البرج الأعلى للكنيسة الجديدة وهو الذى سمى « بالجيرالدا » Giralda ، وصنع بباقى المساجد ما صنع بالمسجد الجامع ، وشهد المسلمون بأفئدة مكلومة ، كيف أزيلت قبور آبائهم وأجدادهم خلال هذا التغيير .

ولما انتهى النصارى من تحويل إشبيلية إلى مدينة نصرانية رأى فرديناند أن يفتتح أيضاً جميع المدن الواقعة على مصب الوادى الكبير وفى منطقة وادى لكة ، واستطاع أن يخضع بالفتح أو بالإرهاب فى سنة ١٢٥٠ م (٦٤٨ هـ) ، شريش الفرنتيرة ، ومدينة شذونة (مدينا سدونيا) وقلمة الغزال ، وباش ، وقادس ، وشنت لقر ، وثغر شنتمرية ، وروطة ، وأرك وغيرها [١] ، بل لقد فكر فرديناند قبل أن يتم إجلاء المسلمين عن الأندلس ، فى أن يعبر البحر بأسطول إلى إفريقية ويغزو هنالك ويفتتح ؛ وقام أسطول قشتالة بالفعل بقيادة أمير البحر رعوند بونفاشيوس بإحراز نصر على الأسطول المغربى فى سنة ١٢٥١ م (٦٤٩ هـ) ، بيد أنه لم يوفق إلى الاستفادة من هذا النصر نظراً لوفاة فرديناند بعد ذلك بقليل

---

(١) هى بالإفرنجية على التوالى Xeres de la Fronterra ، Medina — Sidonia ، Arcos ، Rota ، St Maria del Ponto ، St Lucar ، Velez ، Alcala de Gazules

الفصل الثامن

تاريخ البرتغال من عهد سانشو الأول

حتى افتتاح ألفونسو الثالث لولاية الغرب

---

١ — سانشو الأول الملقب بالمعمر

كان سانشو الأول قد ظهر منذ عهد أبيه ألفونسو بشجاعته وبراعته فى الحروب . ولما تولى العرش — فى ٦ ديسمبر سنة ١١٨٥ — رأى أن يتبع فيما يختص بعلاقته بالكرسى الرسولى ورجال الدين سياسة أخرى غير التى اتبعها سلفه . وكانت البرتغال بلا ريب مدينة بقيامها كمملكة مستقلة إلى حماية البابا ؛ ومن ذلك الحين كف القيصر ألفونسو ريمونديز عن محاربتها وقبل وساطة البابا ، ولم ينس ألفونسو هنريكيز طول حياته لمن يدين بعرشه بعد السيف ، ولبث على خضوعه نحو الكرسى الرسولى وعلى جوده نحو البابا والكنائس والأديار . بيد أنه لما ولى ابنه سانشو العرش ، كانت ظروف اسبانيا قد تغيرت تغيراً عظيما ، فشغلت الممالك الاسبانية النصرانية الأربع بقتال بعضها البعض ، وقتال الموحدين بلا انقطاع ؛ واستطاعت البرتغال أن تحرز من القوة ما أحرزته الممالك المجاورة ، وأن تحافظ على استقلالها دون حماية البابا ؛ وكان سانشو يغير حلفاءه وفقاً لما تملى به الحكمة والمصلحة ؛ وكان — حسب ماذكرنا من قبل — يثابر على محاربة المسلمين دون كلل . وقد افتتح كثيرا من حصون الحدود ، وعمرها بالسكان النصارى ، وأسبغ عليه التاريخ من أجل ذلك لقب «المعمر» Poplador وكان كأمير مستنير يعمل على تأييد

النظام والسلام والرفاهية فى مملكته ، ثم على تخفيف أعباء الحرب وغيرها من المكوس عن كاهل الشعب قدر استطاعته ؛ وقد شمل جماعات الفرسان بوافر جوده ، وعمل دائماً على توثيق روابطها ومصالحها بالعرش ؛ ومنح كثيراً من المدن والأماكن حقوقا وحريات خاصة ، فساعد ذلك على تقدمها ورفع شأنها ، وشجع الزراعة أعظم تشجيع ، ووزع الأراضى الجدبة والمهملة على فقراء الزراع لزرعها ، وأذكى همم العمال المجدين بالمنح والامتيازات ، وأسبغ الفلاحون البرتغاليون على ملكهم لقب « الفلاح » رمزاً إلى مالقوا من رعايته وحمايته .

وكانت مدينة شلب بعد أن افتتحها النصارى بمعاونة الجند الصليبيين من جنوبى ألمانيا ، قد سقطت مرة أخرى فى يد الموحدين وذلك نظراً لوقوعها فى قلب الأراضى الإسلامية ؛ ولكن سانشو عاد فافتتحها المرة الثانية فى سنة ١١٩٧ م (٥٩٣ هـ) ، وهدمها حتى غدت قاعاً صفصفاً ، ولبثت قفراً مدى حين ، وفقد المسلمون بفقدها حصناً من أمنع الحصون .

ولم تلق البرتغال فى الأعوام التالية سوى القليل من عدوان المسلمين ؛ ولكن خصاماً نشب بين سانشو وبين البابا سلستان الثالث من أجل زواج ابنته بابن عمها ألفونسو ملك ليون ؛ ثم نشب خصام عنيف آخر بينه وبين خلفه البابا أنوسان الثالث الذى ارتقى كرسى البابوية فى سنة ١١٩٨ م . وكان هـذا الحبر أشد صلابة وحرصاً من سلفه على تنفيذ حقوق البابوية ومطالبها ؛ فطالب سانشو بالجزية التى تعهد بأدائها ألفونسو هنريكيز للكرسى الرسولى وقدرها مائة قطعة من الذهب . ومع تسليمه بأن ألفونسو هنريكيز قد دفع من قبل إلى الكنيسة ألف قطعة من الذهب كأثر من آثار ورعه وتقواه ، فإن هذه الهبة لا يمكن أن تعتبر أداء مقدماً لجزية عشرة أعوام كما أراد أن يعتبرها سانشو ، وليس هنالك ما يدل على أن سانشو قد خضع لوجهة نظر البابا ؛ ذلك أنه بالرغم من مصادقة البابا على معاهدة الصلح بين قشتالة والبرتغال ، وإنذاره بمعاقبة المخالف بالحرمان ، وحمايته البرتغال بذلك من نكث قشتالة ، فإن سانشو لم يسلك نحو رجال الدين

مسلكا وديا . أجل لقد سمح للبابا بأن يشرف على تنظيم أحوال الكنائس في البرتغال ، وأن يرتب علائق جماعات الفرسان الدينية بالأساقفة ؛ ولكنه لم يكن يصبر على أي تصرف من الأحبار البرتغاليين أو البابا يرى فيه مساساً بهيبة العرش .

وهذا ما أثبته سانشو في فرصتين ، الأولى في خصام نشب بينه وبين أسقف بورتو ، والثانية في موقفه نحو أسقف قلمرية ؛ ذلك أن سانشو بالرغم من التجارب المحزنة التي عرفها ملوك اسبانيا النصرانية فيما عقدوه من زيجات لم ترض الكنيسة عنها ، عقد ألفونسو زواج ولي عهده ألفونسو من إحدى قريباته الأقربين هي أوراكا ابنة ألفونسو التاسع ملك ليون (سنة ١٢٠٨ م) ؛ ولكن أسقف بورتو الذي سبق أن غاضبه مراراً من قبل ، وظن مع ذلك أنه أرضاه بجوده وصلاته ، اعترض على هذا القران بشدة ، وأبى أن يبارك العروسين ؛ وزاد على ذلك أنه حينما قدم الملك وولي عهده إلى بورتو لم يقم نحوهما بإجراءات التكريم المادية ، وأعلن قرار الحرمان الديني ضد الزوجين الجديدين . وهنا استشاط سانشو من الأسقف غضباً ، وأمر بالقبض عليه ، ومصادرة أملاكه وأمواله ، ومعاقبة كل من آثر أن يتبع أقواله على اتباع الأوامر الملكية . نعم أطلق سراح الأسقف بعد ذلك بقليل حينما وعد بأن يسحب قرار الاعتراض والحرمان ، ولكنه لم يف بوعده ، بل فر إلى رومة ليستصرخ البابا . وأمر أنوسان الثالث المبعوث البابوي في سموره بأن يعمل على تسوية المشكل ، فترد إلى الأسقف جميع حقوقه ويُسحب قرار الاعتراض ، على أن لا يعود الملك إلى التدخل في شؤون الكنيسة . ولسنا نعرف كيف انتهت هذه الخصومة ، مما يدل على أن سانشو لبث هو الظافر المتغلب ؛ وقد حدث ذلك في سنة ١٢١٠ م .

وحدث قبل أن تنتهي هذه الخصومة أن نشب خصام أشد بين الملك وبين أسقف قلمرية . وكان الملك كثير العدوان على الحقوق الأسقفية ، هذا إلى ما يعانيه الأحبار من حفلات الصيد الملكية ، واضطرارهم إلى إضافة كثير من الناس والحيوان ؛ وكثيراً ما كان الملك يسخر من رجال الدين ويحقرهم ويبدي

غضبه عليهم ، وفوق ذلك فقد ألقى بعضهم إلى السجن . واحتج أسقف قلمرية على هذه الأمور لدى الملك أولا ؛ فلما لم تثمر شكواه ، كتب إلى البابا مباشرة متخطياً فى ذلك مطران براغا نظراً لميله إلى الملك ، ووصف له إلحاد الملك وصفاً مثيراً ، وزعم فى كتابه أن الملك يضيف لديه امرأة عرافة تسدى إليه النصح كل يوم . ثم إن الأسقف أعلن قرار الحرمان الكنسى فى دائرته ، ولكن سانشو أراد كعادته أن يأخذ كل شىء بالعنف ؛ فقبض على الأسقف قبل أن يتمكن من الفرار وسجنه . ولما علم البابا أنوسان بما حدث اهتم بأمر الأسقف ، وطلب الترضية إلى الملك ، ولكن سانشو أبى كل ترضية وتمسك بموقفه . بيد أنه لم يلبث أن مرض بعد ذلك بقليل وشعر بدنو أجله ؛ وهنا وهنت إرادته ، وساوره الندم وسعى إلى طلب الصفح ، ووعد بالترضية ، حتى يظفر بالغفران من رجال الدين ؛ وعلى أثر ذلك أعلن مطران براغا تبرئته من الحرمان وكل عقوبة أخرى .

والواقع أن سانشو قدم الدليل فى وصيته على أنه لم يكن يحقد على رجال الدين ؛ فقد كتب وصيته قبل وفاته بعامين (فى أكتوبر سنة ١٢٠٩ م) بمصادقة ومشهد عدة من الأساقفة والكبراء ؛ وفيها يجزل الصلات للأحبار ويطارح جميع نصوصها لمصادقة البابا ، ويوصى له بمائة سبيكة من الذهب ؛ وقد صادق عليها البابا ولم يجد فيها موضعاً للطعن . ولم يعش سانشو ليشهد مصادقة البابا على الوصية ، وإلغاء قرار الحرمان على يده ، إذ توفى فى ٢٧ مارس سنة ١٢١١ م ؛ وفى السابع من يونيه من نفس العام ، قبل أن يصل نبأ وفاته إلى رومة أقر البابا أنوسان الثالث إجراءات مطران براغا ، وصادق على الوصية ، ووعد بأن يعنى بالعمل على تنفيذها .

٢ — ألفونسو الثانى الملقب بالبادن

عنى سانشو الأول بأن يرتب لجميع أولاده موارد ثابتة ، وعلى ذلك فقد منح فى وصيته لبناته أيضاً أراضى معينة يملكنها ؛ وكان ألفونسو قد أقسم بأن يترك

لأخواته ما خصهن به والدهن ؛ ولكن هؤلاء رفضن أن يعترفن بسيادة الملك على الأراضى المقطوعة لهن ، واعتبر ألفونسو هذا الرفض من الأمور التى لا يمكن التسامح فيها . وكان هذا سبب الخصام . ذلك أن الأميرات خشية من تهديد أخيهن لهن فى حقوقهن حسبما يرينها ، قصدن إلى البابا أنوسان الثالث ، الذى وعد بأن يسهر على تنفيذ الوصية . فأعلن البابا دون درس الموضوع ، أنه حامى الأميرات ؛ ولم يقنع هؤلاء بهذه الحماية فسعين فى طلب المساعدة الخارجية خشية من عدوان أخيهن ، وكان ألفونسو التاسع ملك ليون على أهبة لأن يبذل هذه المساعدة . وكان يقيم فى بلاطه ولى عهد البرتغال بيدرو ، الذى غادر المملكة لخصام عائلى ؛ فسار هذا الأمير مع ولد أخته تيريزا وهو فرديناند ولى عهد ليون على رأس القوات المحاربة ؛ وغزا البرتغال ، وعاث فى أرضها ، ليرغم الملك ألفونسو الثانى على أن يرفع الحصار عن الأماكن التى اختص بها الأميرات ، بيد أن الجيش الفاتح بالرغم مما لقيه من مساعدة البرتغاليين ، وافتتاحه لبعض الحصون ، وبالرغم من أن مبعوثى البابا أعلنوا قرار الحرمان ضد ملك البرتغال ، لم يستطع أن يحول دون سقوط أملاك الأميرات فى يد أخيهن . وهنا فقط أبدى ألفونسو الثانى استعداده للصلح . وفى أثناء الهدنة التى عقدت سار بيدرو مع القوات البرتغالية للاشتراك فى محاربة المسلمين فى موقعة العقاب وأبدى شجاعة وبطولة . بيد أنه لم يمض سوى القليل حتى سار إلى مراكش ملتجئاً إلى سلطان الموحدين الذى كان يحاربه من قبل ، ثم حارب إلى جانبه ضد الخارجين عليه فى المغرب .

وفى تلك الأثناء نشبت الحرب فى البرتغال بين الملك وأخواته من جديد ؛ وأصدر مندوبو البابا الذين عهد إليهم بتسوية النزاع حكماً فى منتهى التعسف ، إذ قرروا دون البحث فيما إذا كان ألفونسو الثانى محقاً فى محاربة أخواته أم متجنياً عليهن ، أن يلزم بنفقات الحرب كلها ؛ ولما أبى ألفونسو أن يذعن لهذا الحكم ، صدر ضده قرار الحرمان الدينى مرة أخرى ، ولكن البابا أنوسان كان بعيد النظر فسارع إلى إصلاح الخطأ ، وقضى بعد بحث جديد لأسباب النزاع بإلغاء

حكم مندوبيه ، وإلغاء قرار الحرمان الذى صدر ضد الملك ، وبأن يعهد بالأماكن المتنازع عليها إلى فرسان الداوية ، وأن يعطى دخلها إلى الأميرات ، وأن تبقى خاضعة لحقوق الملك وسلطانه . أما نفقات الحرب وما ترتب عليها من الأضرار فيقدرها بعض المدول وتوزع على الفريقين بالإنصاف ؛ وصدر الحكم البابوى فى ٧ ابريل سنة ١٢١٦ م فاستقبله الفريقان بالرضى .

وعندئذ فقط استطاع ألفونسو الثانى أن يشهر الحرب على المسلمين ، وكان قد رسا فى تلك الآونة (يوليه سنة ١٢١٧ م) فى مياه اشبونة أسطول من ثلاثمائة سفينة مشحونة بالجند الصليبيين ، القادمين من جنوبى ألمانيا ، لإصلاح ما فسد من السفن أثناء الرحلة ؛ وكانت الحملة تحت قيادة الكونت فلهلم صاحب هولنده ، وجورج فون فيد ؛ فاستجاب معظم رجالها لدعوة رجال الدين البرتغاليين وأستاذ الفرسان ، وحملهم تقدم الفصل ، وأمل الظفر بالغنائم العظيمة ، على التخلف فى البرتغال ، والقيام بحملة ضد المسلمين . ولم يرفض هذا العرض سوى الفرزيين ، فأبحروا إلى فلسطين فى ثمانين سفينة . وسار باقى رجال الحملة مع الفرسان البرتغاليين ، وفرسان القديس ياقب ، وفرسان الداوية والاسبتارية ، وحاصروا قصر أبى دانس ؛ وفى الحال حشد ولاة قرطبة وجيان وإشبيلية جيشاً إسلاميا ضخما ، سار إلى إنجاد القلعة ، ولكن هزمه النصارى ؛ ونسب النصارى نصرهم فى تلك الموقعة إلى معونة فرقة من الملائكة فى صفة الفرسان كانوا يقاتلون إلى جانبهم فى ثياب بيض ؛ وسقط من المسلمين فى تلك الموقعة أربعة عشر ألفاً (١٠ سبتمبر سنة ١٢١٧ — ٦١٤[١] هـ) ولم يتمكن النصارى بالرغم من هذا النصر الباهر من الاستيلاء على القصر إلا بعد ذلك بستة أسابيع ؛ وعوملت المدينة التى فتحت أبوابها للمحاصرين فى ٢١ اكتوبر سنة ١٢١٧ ، معاملة مدينة فتحت عنوة ، فقتل من أهلها كل من كان أهلا لحمل السلاح ؛ وأخذ باقى

---

(١) وردت تفاصيل هذه الموقعة فى روض القرطاس (ص ١٦١) ، ويطلق على مدينة قصر أبى دانس بالأفرنجية Alcazar do sal .

السكان أسرى ؛ وسلمت المدينة بعد ذلك إلى فرسان شنت ياقب ، لما أظهروه أثناء القتال من شجاعة فائقة ، ولم يسافر الجنـد الصليبيون إلا فى أوائل العام التالى بعد أن قضوا الشتاء فى اشبونة ، فغادروا مياه البرتغال إلى فلسطين .

ولم يكن ميسوراً فى ذلك الوقت الذى تعقدت فيه شؤون البرتغال الكنسية أن يطول أمد الوئام بين الملك وأساقفة المملكة ؛ فقد طالب الملك الأساقفة بنصيبهم من نفقات الحرب من متحصل أملاكهم الواسعة ؛ ولم يكن يتاح للملك دائماً أن يقمع جرائم رعاياه ، التى كان يرتكب معظمها بسبب النظم السيئة وامتيازات رجال الدين ، كذلك رأى الملك أن يقدم رجال الدين الذين يخالفون قوانينه إلى القضاء العادى ليحاسبهم على مسلكهم ؛ فاحتج اصطفان مطران براغا على هذه الأمور كلها بشدة ، فكان جواب الملك أن نزع منه بعض أملاكه ؛ فاستشاط المطران غضباً ، وأصدر قرار الحرمان والتحريم ؛ فلم يعبأ الملك بذلك ، واضطر الأسقف أن يسعى إلى السلامة بالفرار ؛ وحاول البابا هونوريوس فى كتابين متتاليين أرسلهما إلى الملك أن يصلح بينه وبين الأسقف ، وحثهما على النسيان والصفح ، فذهبت جهوده عبثاً ، وعندئذ أصدر هونوريوس — بتحريض المطران الفار — قراراً (فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٢٢١) ، ينذر فيه الملك بأنه إذا لم يبادر إلى إنصاف المطران ، فإنه يصدر قرار الحرمان والتحريم ضد المملكة كلها ، ثم يأمر بعزله وتولية أمير آخر على العرش . ثم أصدر البابا أمراً آخر يطالب فيه الملك بالخضوع والطاعة ويكرر وعيده فى حالة المخالفة ، ولكن الملك لم يذعن مع ذلك ولم يسلم ، بيد أنه مالبث أن مرض وتوفى فى ٢٥ مارس سنة ١٢٢٣ م . وقد عجز ألفونسو فى أواخر حكمه عن متابعة الحرب بنفسه نظراً لبدانته المفرطة ، وهى التى أسبغت عليه لقب « البادن » بيد أنه كان مع ذلك يدير شؤون المملكة بكفاية ؛ وقد غير نظم البلاط ومنح حقوقاً خاصة لكثير من المدن ، وعنى باصدار طائفة من القوانين الجديدة .

وكان قد دعا عقب توليه العرش ، فى العام الأول من حكمه ، المجلس النيابى (الكورتيس) إلى الانعقاد فى قلمرية ، وأصدر بموافقته عدة قوانين ونظم عامة ،

أدرجت فيما بعد فى مجموعة القوانين التى أصدرها ألفونسو الخامس . ونص فى هذه القوانين على احترام الحرية الشخصية ، وأصلحت إجراءات المرافعات ، ونص على تأمين الملكية ، وعلى إلغاء المكوس الظالمة ، وتأييد بعض امتيازات الكنيسة ورجال الدين ، كما ألغيت منها بعض الامتيازات المفرقة .

٣ — سانشو الثانى الملقب بذى الثوب الكهنوتى

كان سانشو الثانى فى العشرين من عمره حينما خلف أباه على العرش ، وكانت مهمته الأولى أن يصلح بينه وبين رجال الدين ؛ ففى المجلس النيابى الذى عقده فى قلمرية فى يونية سنة ١٢٢٣ وضع اتفاق ينص على أن يحتفظ رجال الدين بجميع الحقوق التى آلت إليهم فى عهدى الملكين السابقين ، وأن تلغى جميع الحقوق والسلطات التعسفية التى كانت الكنيسة تشكو منها بحق ، وزيد على ذلك أن منح الأساقفة سلطات جديدة على حساب العرش ؛ ومع أن الملك اعتبر حامياً للكنيسة ، فإنه لم يكن يسمح له بأن يقضى فى الخصومات التى تنشأ فيما بين رجال الدين .

وعقد الملك مع مطران براغا اتفاقا خاصا تعهد فيه بأن يدفع له ستة آلاف قطعة من الذهب ، وأن يعوضه عن جميع الأضرار التى نزلت به من جراء النزاع ؛ وقام المطران من جانبه بالغاء قرار الحرمان والتحريم ، وتبرئة الموتى الذين دفنوا من قبل دون تبريك وفقا لطقوس الكنيسة .

كذلك عقد سانشو الصلح بينه وبين عماته ؛ فنزل لهم عن الأماكن التى وهبت لهم بمقتضى وصية جده . وقرر لهم راتباً سنويا قدره أربعة آلاف قطعة من الذهب ؛ واعترف الأميرات من جانبهن بسلطة الملك ، وأن يقدمن إليه وقت الحرب الجند اللازمين ، وأن تستعمل السكة الملكية فى أملاكهن ؛ وبعد وفاتهن تؤول الأماكن والحصون الهامة التى بأيديهن إلى العرش ؛ أما باقى أملاكهن فتوزع على الكنائس والأديار التى خصصت لها . وفى مقابل ذلك أيضاً رد فرديناند ملك ليون وقشتالة (سنة ١٢٣١) حصن سنت اشتبن الذى استولى عليه

إلى سانشو ! وهكذا سوى هذا النزاع الذى طال أمده بين أفراد الأسرة الملكية .

ولما انتهى سانشو من ترتيب جميع الشؤون التى يمكن أن تمس سلام المملكة الداخلى ، وقطع فى الحكم بضعة أعوام يدير الأمور بحزم وفطنة ، عول على أن يشهر الحرب على المسلمين ؛ وكانوا فى تلك الفترة يكثرون من الإغارة والعيث فى أطراف المملكة الجنوبية تارة بقيادة الأمراء الموحدين ، وتارة بقيادة خصومهم . وكان قد استولى عنوة على مدينة الواس فى سنة ١٢٢٦ ، وشحنها بالسكان النصارى الذين أعطاهم حق المشاركة فى احتلال يابره ؛ وفى الأعوام التالية كرر غزواته للأراضى الإسلامية . ولما أخذت دولة الموحدين فى الانهيار وقام ابن هود يحاول إنشاء دولة جديدة فى الأندلس والمغرب ، انتهز سانشو فرصة الاضطراب الذى ساد المملكة الإسلامية ، وعمل على توسيع حدوده الجنوبية ، فافتتح صربا ويورمنها وغيرها من القلاع ؛ وسر البابا جريجورى الحادى عشر لهذه الفتوح أيما سرور حتى أنه أصدر فى ٢١ أكتوبر سنة ١٢٣٤ م قراراً وعد فيه جميع النصارى الذين يحاربون مع الملك سانشو ضد المسلمين بغفران ذنوبهم ، كما لو كانوا قد اشتركوا فى الحرب الصليبية فى الأراضى المقدسة ، على أنه يبدو أنه لم يقصد البرتغال يومئذ لمحاربة المسلمين كثير من الصليبيين ، ومع ذلك فقد ضاعف سانشو العزم فى فتوحاته . وكان من أهمها فيما بعد الاستيلاء على مدينة مارتلة ، وهى مدينة كانت لموقعها الحصين تصلح قاعدة لفتوح أخرى ، وقد أعطاها سانشو لفرسان شنت ياقب تمكيناً للمحافظة عليها . وترتبت على هذا الفتح فتوحات أخرى فى الأراضى الإسلامية ؛ وهوجم المسلمون من البر والبحر ؛ وأثار البابا حماسة البرتغاليين بقرار جديد أصدره سنة ١٢٤٠ م ؛ وافتتح الفرسان البرتغاليون طبيرة وهى قلعة هامة فى الغرب فى سنة ١٢٤٣ م ؛ فوهبها سانشو أيضاً إلى فرسان شنت ياقب ، وهى هبة صادق عليها البابا .

وبالرغم من أن الملك بذل جهد استطاعته لإرضاء رجال الدين وجد فى محاربة المسلمين ، ونشر النصرانية ، وبالرغم من أنه كان يستند فى ذلك إلى تأييد البابا

فانه لم يستطع اجتناب النزاع مع جميع أساقفة المملكة ، فلم يكن هؤلاء ليهدأ لهم بال قبل إسقاطه عن العرش .

وقد اضطر سانشو أن ينزل عن هيبته الملوكية إرضاء لمطالب يوليان أسقف بورتو ؛ وكان هذا الحبر قد شكا منذ أوائل حكم سانشو إلى البابا ، بأن الملك يبسط سلطته القضائية على أسقفية بورتو ، وأبى الأسقف بيدرو خاف يوليان أن يسمح للملك أن يكون له اختصاص فى قضايا الأفراد الماديين أو المنازعات التى تقع بين رجال الدين ، أو أن يسمح لرعايا الأسقف بأن يؤخذوا للقتال مع الملك . ولو سلم الملك بهذه المطالب لغدا الأساقفة فى دوائرهم كالأمراء المستقلين .

وقدم الأسقف شكواه فى رومه إلى البابا ، فتولى الوساطة بينه وبين الملك ، وعقد اتفاق (فى سنة ١٢٠٣ م) يتعهد الملك بمقتضاه باحترام الحريات والحقوق الكنسية ، ولكنه يتمسك مقابل ذلك بأنه إذا نشبت الحرب ضد المسلمين فعلى أسقف بورتو وكذلك أساقفة المملكة الآخرين أن يقدموا إليه الجند المعونة ، وبأن يكون للقضاة الملكيين وحدهم حق الفصل فى الخصومات التى تقع بين الأفراد الماديين وبين رجال الدين ؛ على أن هذا الاتفاق لم يكن حاسماً للنزاع لأن البابا لم يصادق على هذه النقطة الأخيرة .

وسرعان ما اضطرم النزاع من جديد بين المدنيين ورجال الدين فإنه لم يمض سوى القليل على تسوية النزاع مع أسقف بورتو ، حتى أخذ الموظفون الملكيون يتدخلون فى الشؤون الدينية حسبما زعم مطران براغا . ولما لم يحقق الملك رغبة المطران فى عمل الترضية اللازمة ، أصدر المطران قرار التحريم ضد أولئك الموظفين الملكيين ، وتوجه بشكواه إلى البابا ؛ ويدل مضمون هذه الشكوى بوضوح على أن منح الامتيازات المفرقة لطبقة من الطبقات مما يحمل الطبقات الأخرى على أن تستعمل وسائل العنف والضغط لتفوز بنوع من المساواة ؛ وقد كانت الشكوى فى مجملها ضد الموظفين الملكيين أعنى ضد الملك الذى يعملون ويقضون باسمه وبأمره ، بيد أنها تضمنت أيضاً شكاوى معينة ضد الملك ذاته ، منها أنه أثناء

سفرائه يرهق الأديار والضياع الكنسية بطلب المال والمؤن ، وأنه يقبض إيراد الكنائس الخالية لحسابه ويولى أمرها المدنيين ، وأنه يدعى حق الحماية على بعض الكنائس الحرة ، ويسلمها إلى أشخاص من السفلة ؛ وأما الشكاوى التى قدمت فى حق الموظفين ، فأهمها أنهم يرهقون المطران ورجال الدين بالغرامات المالية لحملهم على الاشتراك فى الحرب ، وينفقون على إطعام رجال الملك وخيله من أموال الكنائس ، ويرغمون الأحبار على اتباع النظم الدنيوية ، ومن ذلك إرغامهم على الحضور أمام القضاة المدنيين فى قضايا النزاع على الملكية ، ومنعهم أن يتقبلوا الهبات أو الأوقاف من الأتقياء متى وصلت أملاكهم إلى حد معين ، وأنهم كثيراً ما يمنعون المطران من معاقبة القساوسة المذنبين ، وكثيراً ما يدخلون منازل القساوسة لأوهى الأعذار فيهينونهم ، ويسرقون أموالهم .

وفى ١٥ أبريل سنة ١٢٣٨ أصدر البابا قراراً بوجوب إلغاء هذه المساوئ ، وخول للمطران فى حالة ما إذا أصر الملك على موقفه ، أن يجدد ضده قرار الحرمان ؛ فإذا لم يكف هذا الإجراء ، لجأ البابا إلى وسائل أخرى ؛ ولم يجد سانشو فى المرسوم البابوى ما يمس حقوقه الملكية بصورة مباشرة ، فوافق على تنفيذ النص الخاص بحرية الكنائس كما ورد فى المرسوم ومراعاته ؛ وبذلك استطاع أن يجتنب العاصفة مرة أخرى .

على أن استسلام الملك لم يرق فى أعين فريق كبير من الأشراف . ذلك أنه كلما ارتفعت مرتبة رجال الدين وزادت امتيازاتهم زاد عبء المعونة العسكرية ونفقات الحرب على الأشراف . وكان الأشراف قد اعتادوا أن يحصلوا بالعنف والغصب من رجال الدين ما كان يخلق بهم أداؤه مختارين لو وزعت الحقوق والواجبات بصورة عادلة ، بحيث كانت امتيازات رجال الدين ، امتيازات اسمية أكثر منها فعلية . وكان على رأس خصوم الأحبار ، أخ فتى للملك هو الأنفانت فرديناند صاحب صربا ؛ وكان قد ارتكب ضد الكنائس والأديار كثيراً من ضروب العسف ، حتى أن مطران براغا جعل قرار الحرمان

يشمله . ووُجه اللوم إلى الملك كرة أخرى لأنه لم يقمع عدوان آله وصحبه ؛ واضطر الأنفانت فرديناند أن يذهب إلى رومه (سنة ١٢٣٩م) ليقدم ضراعته إلى البابا وليحصل على عفوه ؛ فعفا عنه البابا مقابل تعهده بألا يعتدى بعد على شيء من حقوق الكنيسة . ولكن سانشو لم يكن باستطاعته أن يرغم جميع أشراف مملكته الذين يرتكبون العسف ضد الكنيسة ، على مثل هذا الخضوع .

واستمر سانشو مدى أعوام أخرى يبذل أعظم الجهود فى أداء واجبات الحاكم اليقظ ، يتابع الحرب ضد المسلمين بنجاح ، ويكافح داخل المملكة ضروب الإخلال بالنظام والعسف أينما ظهرت ، ويدير دفة الحكم بمنتهى العناية والحرص ؛ بيد أن الصعاب كانت تتفاقم فى سبيله ، فقد بدأ الأشراف بالتحرك ، وكان أخص أقاربه على تفاهم معهم ، وكان رجال الدين يبغضونه ، ويترقبون الفرصة لإسقاطه ؛ ولهذا لم يكن غريباً أن ينحدر سانشو بعد هذه الأعوام الطويلة التى قضاها فى جهود عقيمة إلى نوع من السأم والخمول ، وأن يعمد أعداؤه إلى انتهاز هذا الظرف لإسقاطه ؛ واضطر سانشو أن يقف الحرب ضد المسلمين بعد أن تخلف عن طاعته فريق من الأشراف ، وحتى الحدود غدت دون دفاع كاف ضد غزوات المسلمين ؛ وعمد الأحبار — بدلا من البحث لدى الأشراف المخالفين عن سبب اضمحلال سير الحرب ، ومحاولة إقناعهم بالخضوع — إلى اتهام الملك بالإهمال والتواكل ، وتعريض المملكة بذلك إلى الخطر ، وانحازوا خفية إلى الثائرين .

وقد كان اضطرام أية ثورة ينذر سانشو بالويل . ذلك أن أخويه الفونسو وفرديناند ، وعمه بيدرو كانوا يمالئون الحركة الثورية ، وكان لكل منهم حزب من الثوار ؛ وكان الجمود الذى لزمه سانشو يومئذ ، وخضوعه المطلق لنفوذ زوجه السيئ ، وهى الملكة ماريا لوبيز دى هارو ، مما يثبط همم أقرب أنصاره ويشجع خصومه على اتخاذ خطوات سريعة حاسمة .

ولما كان سانشو دون ولد ، فقد كان ذلك يحفز الأمراء إلى الاهتمام بأمر المملكة ؛ وكانت أطماعهم تتفق مع أمانى الثوار فى خلع الملك عن عرشه . وكان

المعتقد أنه لا ينقص مثل هذه الخطوة سوى موافقة الكنيسة ؛ ولهذا اتجه الثوار وعلى رأسهم الأحبار بشكواهم إلى البابا أنوسان الرابع ، وكان يومئذ يعقد فى ليون مجلساً كنسيا (سنة ١٢٤٥م) لخلع القيصر فردريك الثانى ؛ فأصدر كتاباً إلى الملك بأن يعمل على تلافى أسباب الشكوى ، وأن يقدم الترضيات اللازمة ، وإلا اضطر الأب المقدس إلى أن يتخذ فى حق ملك البرتغال ومملكة البرتغال خطوات شديدة أخرى .

وذهب فى تلك الآونة أيضاً إلى المجلس الكنسى فى ليون أسقفا بورتو وقلمرية ومطران براغا ليعرضوا شكواهم شخصيا على البابا ؛ وكان يصحبهم عدة من الأشراف البرتغاليين كسفراء للملك يدافعون عن حقوقه ، بيد أنه تبين فيما بعد أنهم خائنون لقضية مليكهم ؛ وما كاد الأحبار والأشراف البرتغاليون يصلون إلى ليون حتى قدموا شكواهم ضد مليكهم ، وطلبوا عزله عن الملك ، وتولية أخيه الأنفانت الفونسو مكانه ؛ وكان هذا الأمير قد غدا بزواجه من الكونتة ماتيلده صاحبة بولونيا ، أميراً لهذه الولاية ؛ وكان قد توثقت صلاته بالكنيسة منذ أعوام ، وكان يعد بأن يقود جيشاً إلى المشرق لمحاربة الغزاة التتار ، وأن ينظم حملة صليبية ضد مسلمى الأندلس ؛ وكان الأحبار والأشراف الخوارج يرون فيه أداة لينة لتنفيذ خطتهم . واستجاب البابا أنوسان الرابع لرغبات هؤلاء النفر القلائل ، وقبل أن يصله من البرتغال جواب كتابه السابق ، أصدر فى ٢٤ يوليه سنة ١٢٤٥م قراراً بعزل الملك سانشو الثانى ، محتجا بأنه اغتصب بعض الأملاك الكنسية ، وترك الفوضى تغمر البلاد بعجزه وإهماله ، وتنصيب أخيه الأنفانت الفونسو صاحب بولونيا مكانه فى الحكم ، وقد كان من حقه أن يخلف سانشو فى الملك إذا توفى دون عقب ؛ وكان القرار يحمل بألفاظه معنى إقامة الفونسو وصيا لا ملكا ، ولكن تبين فيما بعد أن المقصود هو العزل الحقيقى . وكان الفونسو يومئذ فى باريس لدى خالته الملكة بلانكا والدة القديس لويس ، فانقلب عائداً إلى البرتغال . بيد أنه اضطر أن يقطع فى البداية لزعماء الأحبار الذين

ذكرناهم عهداً بأن يحترم جميع امتيازات رجال الدين ، وأن يبذل لهم امتيازات وحقوقا أخرى ، وأن يؤيد كل القوانين العامة والحقوق الخاصة ، بل تعهد لهم بأن يعطيهم نصيباً فى حكم المملكة .

قطع الفونسو على نفسه هذه العهود فى سبتمبر سنة ١٢٤٥م مشترطاً مع ذلك ألا تضر بحقوقه أو حقوق المملكة ، ثم ترك لزوجه إدارة الإمارة ، وركب البحر مع الأحبار والأشراف البرتغاليين ، عائدا إلى البرتغال ، فوصل إلى ثغر اشبونه فى نهاية سنة ١٢٤٥م ؛ وفى الحال أقبل الشعب على مبايعته بالطاعة والخضوع .

وكان تطور الحوادث على هذا النحو مفاجأة لسانشو ، فما تصور قط أن تفضى الأزمة إلى مثل هذه النهاية ، ولم يفكر فى الاستعداد لمحاربة خصمه وإخضاعه بقوة السيف . ذلك أن الفونسو كان معه رجال الدين وفريق من الأشراف ؛ ولم يكن لرأى الشعب يومئذ قيمة فى تأييد هذا أو ذاك ، ولكنه كان ينحاز حتما إلى الجانب الذى تؤيده الكنيسة والأشراف . هذا إلى أن مطران براغا وأسقف قلمرية ، قد استصدرا من البابا مرسوما يخولها أن يوقعا العقوبات الكنسية على كل مخالف لحكومة الفونسو ، وهكذا اضطر سانشو أن يبحث عن سلامة نفسه ؛ ففر إلى قشتالة ، ولجأ إلى ملكها فرديناند الثالث « المقدس » ، فاستقبله فى طليطلة ، ووعده — عملا بنصح الأساقفة وبعض الأشراف — بالمعاونة والتأييد ضد ثوار مملكته الذين نزعوه من العرش .

وخرج سانشو على رأس جيش جهزه له ملك قشتالة ، ومعه ألفونسو أكبر أبناء فرديناند الثالث ، وزحف على البرتغال ، بيد أن محاولته كان مقضيا عليها بالفشل . ذلك أن ألفونسو الثالث أمير البرتغال الجديد ، بادر إلى استمالة كثير من أنصار سانشو المترددين ، بالوعود والعطايا ، وإلى إرهاب أولئك الذين أصروا على معارضته وإخضاعهم ؛ ولم يبق إلى جانب الملك القديم سوى عدد من القلاع التى ثبت أصحابها على ولائهم ؛ فلما غزا الجيش القشتالى الأراضى البرتغالية ، لقيه ألفونسو فى قوى ضخمة ؛ بيد أنه قبل أن يشتبك معه فى القتال ، حاول أن يقنع

القشتاليين بالحسنى أن يعودوا إلى بلادهم ؛ وبعث إلى الأنفانت ألفونسو يطلعه على القرار البابوى ، وكيف أنه تلقى الحكم من الأب المقدس ، وأن كل من يقف فى سبيله يعرض نفسه لعقوبة الحرمان ؛ كذلك حث الأحبار الأنفانت على العود ؛ ورأى الأمير أنه لا يستطيع أن يحمل من تلقاء نفسه تبعة خطوة قد تعرض عواقبها قشتالة ذاتها للخطر ، فعاد بالجيش إلى قشتالة دون أن يشتبك مع البرتغاليين فى موقعة ما . وربما رأى سانشو فى تصرف القشتاليين من الحكمة وبعد النظر ، أكثر مما أبدوا من وفاء بعهودهم . ومع ذلك فقد آثر أن يعود ليعيش فى قشتالة على أن يحاول أن يجوز تقلبات الحرب فى مملكته . وقد كان أنصاره المخلصون يسيطرون على كثير من القلاع ، وكان فى وسعهم أن يهددوا حكومة ألفونسو أعواماً أخرى ، ولكن سانشوا آثر فيما يظهر دعة الحياة الخاصة ؛ وعاش الأمير الذى كان ولوعاً بالحرب ثلاثة أعوام أخرى كما يعيش الرهبان ، بين الاستغفار والصلاة وأداء الصدقات ؛ وهو أكثر اتصالا بالعالم الآخر منه بهذا العالم . وقد نعتقد أن لقبه وهو « ذو الثوب الكهنوتى » اشتق من هذه الحياة التى عاشها فى أعوامه الأخيرة ؛ ولكنا نعلم فى الواقع أن هذا اللقب يرجع إلى أن والدته كانت قد ألبسته وهو طفل — على أثر مرض خطر أصابه — ثوب راهب تبركا بالقديس أوغسطين ووفاء لنذر نذرته متى شفى . وتوفى سانشو فى طليطلة فى يناير سنة ١٢٤٨ م .

ومع أن سانشو قد نبذ عرشه ، وترك أنصاره إلى مصيرهم ، فانه مضت أعوام أخرى قبل أن يوطد ألفونسو سلطانه فى سائر أنحاء المملكة ، وقد اضطر إلى أن يحاصر كثيراً من القلاع مدداً طويلة ؛ ولم يستطع تغلباً عليها إلا بالجوع . وكانت قلعة قلمرية ما تزال تقاوم حتى موت سانشو ؛ وكان حاكمها مارتن دى فريتاس يدافع عنها وهو يعانى كل ما يفرضه حصار أعوام من ضروب الضيق والإرهاق ؛ بل لقد أبى أن يسلمها حتى بعد أن جاءت الأنباء بوفاة سانشو ، وطلب أن يتحقق بنفسه أولا من صدق الخبر ؛ فأعطاه ألفونسو أماناً وإذناً

بالسفر ، فسافر إلى طليطلة ؛ وطلب أن يفتح قبر سانشو ، وهنالك وضع بين يديه مفتاح قلعة قلمرية . ولما اطمأن إلى أنه أدى واجب الولاء لمليكه تاما ، عاد إلى القلمة ، وسلمها إلى ألفونسو .

٤ — فتوح ألفونسو الثالث فى ولاية الغرب

لم يتخذ ألفونسو الثالث لقب المُلك إلا بعد وفاة سانشو ، وعلى أثر ذلك دعا نواب الطبقات الثلاث إلى الاجتماع ، فبايعوه بالطاعة باعتباره « أميراً مالكا » ؛ أما قبل ذلك فكان يلقب فقط بالقائم بشؤون الدولة أو نائب الملك .

وما كاد ألفونسو يطمئن إلى توطد عرشه ، حتى أخذ يفكر فى استئناف الفتح فى ولاية الغرب (غربى الأندلس) ؛ وكانت الظروف يومئذ أشد ما تكون موافقة لإعلان الحرب على المسلمين ؛ ذلك أن سقوط إشبيلية فى يد فرديناند الثالث فى ذلك الحين قد أثار الروع فى باقى الأراضى الإسلامية . وكان سانشو الثانى قد افتتح معظم ولاية الغرب ، واستولى على عدة من القلاع الواقعة على ضفة وادى يانة اليسرى مثل موره وصربا ويامونت ، فلم يبق على تتمة إخضاع الأراضى الواقعة غربى مصب وادى يانة سوى الاستيلاء على بعض الحصون .

وكانت دولة الموحدين قد انهارت تمام الانهيار ، وساد التفرق بين مسلمى الأندلس ، وغدا أقوى أمرائهم ، أمير غرناطة من أتباع ملك قشتالة ، فلم يكن من الممكن أن تعتمد الحصون الإسلامية فى ولاية الغرب على أية مساعدة من الخارج ؛ وكان فى وسع الفونسو أن يطمئن إلى نجاح غزوته ؛ وقد بدأ بحصار قلعة فارو الواقعة بين شلب وطبيرة ، فطوقها من البر والبحر ؛ وسرعان ما اقتنع المسلمون بعبث المقاومة ، وجنحوا إلى تسليم المدينة (١٢٤٩م — ٦٤٧هـ) واُتفق على أن يحتفظ المسلمون الذين لم يرغبوا فى الهجرة بأموالهم ، بدينهم وأموالهم وشرائعهم ، وأن يكونوا رعايا الملك البرتغال ، يؤدون إليه من الضرائب ما كانوا يؤدونه فعلا إلى أمرائهم المسلمين ؛ وتلا الاستيلاء على فارو ، سقوط

المدن المجاورة بسهولة ؛ وكانت البفيره قد أخذت قبل ذلك بقليل ؛ ولم تستطع لوله وما جاورها أن تقوم بمقاومة تذكر ، فلم يأت منتصف سنة ١٢٥٠ م (٦٤٨ هـ) حتى سقطت ولاية الغرب كلها فى أيدى البرتغاليين . وفى العام التالى عبر البرتغاليون نهر وادى يانه ، ومضوا فى فتوحهم على ضفته اليسرى فى قلب الأندلس ، واستولوا على قلعتى أروشه وأرسينه الواقعتين على مقربة من لبلة ؛ وشجر الخلاف من أجل هذه الفتوح بين ملك البرتغال وملك قشتالة ، وسوف نقص فيما بعد كيف سوى هذا الخلاف بين الملكين ، وكذلك ما تبقى من سيرة الفونسو الثالث .

وهكذا غدت مملكة البرتغال — التى لم تكن عند قيامها فى عهد مؤسسها الملك الفونسو هنريكيز (ابن الريق) سوى الرقعة الممتدة بين نهرى منهو ومنديجو — بفضل جهود البرتغاليين وشجاعتهم ، فى ظرف قرن فقط ، ضعف ما كانت عليه ؛ وكان الملك الفونسو الأول قد استطاع خلال عدة حروب موفقة أن يدفع حدود المملكة إلى ماوراء نهر التاجه ، وأن يفتتح العاصمة أشبونه ؛ ثم غزا ولده سانشو الأول ولاية الغرب ، وافتتح منها عدة حصون ، بيد أن هذه الفتوح لم تكن ثابتة نظرا لبعد هذه الحصون وعزلتها ؛ ولم يمهد طريق الفتوح الثابتة فى الغرب إلا بعد أن افتتح الفونسو الثانى بمساعدة الجند الصليبيين قصر أبى دانس ؛ ثم جاء سانشو الثانى فأبدى همة مضاعفة ، وقام بفتح بعد فتح ، من الفاس إلى يامونت وطبيره ، وافتتح كل الأراضى الواقعة على ضفتى نهر وادى يانه الأسفل حتى مصبه ، ومهد بذلك السبيل إلى إتمام افتتاح ولاية الغرب ، وكان هذا الفتح من نصيب أخيه وخلفه الفونسو الثانى ، فى منتصف القرن الثالث عشر . ولم تزد مملكة البرتغال حتى يومنا فى حجمها على ما كانت عليه فى بداية حكم الفونسو الثالث .

الفصل التاسع

أحوال الدول الاسبانية

حتى وفاة فرديناند الثالث

يستمد فرديناند الثالث شهرته وعظمته فى التاريخ الاسبانى بالأخص من فتوحه ؛ ذلك أنه لم يوفق ملك اسبانى فى القرن السابق من المنصور الوسطى إلى ما وفق إليه من اجتناب جميع المنازعات مع جيرانه من الملوك ، حتى لا يشغل فى حروبه ضد المسلمين ؛ ولم يكن ثمة ريب فى أن الحماسة الدينية لنشر النصرانية كانت أهم البواعث التى حملته على خوض الحرب مع المسلمين بلا انقطاع ، بيد أنه لم يغفل مع ذلك مصالح المملكة السياسية ، فقد بقى مثلا على ارتباطه الوثيق مع أمير غرناطة . أما موقفه إزاء چايم ملك أراجون ، فقد كان بحيث يخشاه هذا الملك دائماً نظراً لما كان ينشب من خلاف بينه وبين أكبر أولاده وكثير من أشراف مملكته ؛ على أن فرديناند لم يكن ليخشى من أراجون شيئاً على سلامة أراضيه ؛ ذلك لأن فتوح چايم فى مملكة مرسية لم تكن لتهدد قشتالة فى شىء . وليس هناك ما يدل على أن فرديناند كان يطمح إلى امتلاك ناڤارا عقب وفاة ملكها سانشو السابع بلا عقب ، وقد كان الناڤاريون والأرجونيون يقاومون معاً مثل هذا التوسع من جانب قشتالة ؛ ولكن فرديناند كان أعقل من أن يقدم على مثل هذه الخطوة العقيمة ، التى كانت لتحول بلا ريب دون فتوحه فى الأندلس ؛ ومع أن ملك قشتالة كان قليل التدخل فى شؤون البرتغال الداخلية ، فإنه مع ذلك تولى حماية سانشو الثانى

حينما فقد عرشه على يد رجال الدين ، ثم حاول أن يرده إلى عرشه بقوة السيف (سنة ١٢٤٦م) ؛ ولكن حال دون تحقيق مشروعه قرار الحرمان البابوى ، ووفاة الملك المخلوع عقب ذلك ، وكان يقيم فى ظل رعايته فى طليطلة . كذلك يستمد چايم ملك أراجون شهرته بالأخص من فتوحاته ؛ وقد اشتهر أيضاً بأنه مشرع ومقنن ؛ ولكنه لم يكتسب هذه الصفة إلا فى النصف الأخير من حكمه وهى فترة تتصل بعصر آخر لا نعنى به هنا . وأبدى چايم فى مسألة وراثة العرش كثيراً من الضعف والتردد ، وكاد يقضى من جرائها على جميع ما أداه من خير لملكته ؛ ذلك أنه طلق زوجه الينور بحجة القرابة حينما أصبحت لا تروق له ؛ ومع ذلك فقد اختار ولده الفونسو الذى أعقبه منها وليا لعهد المملكة كلها ، وذلك على يد المجلس النيابى الذى عقده فى طركونه سنة ١٢٣٢م .

وكان هذا التصرف من جانب چايم مناقضاً للمعاهدة التى عقدها مع سانشو السابع ملك ناڤارا ؛ وكان هذا الملك — الذى لم يقم منذ موقعة العقاب بأى عمل حربى يذكر — يعيش مع جاره فى سلام دائم ، معتصما بجباله ، بيد أنه استيقظ من جموده ، منذ ضم فرديناند الثالث عرش قشتالة وليون فى مملكة واحدة ؛ وعقد مع ملك أراجون فى الاجتماع الذى تم بينهما فى تُطيله (سنة ١٢٣١م) معاهدة تحالف وثيق ضد قشتالة ، نص فيها على أن يتبنى كل من الملكين زميله ، وأن يخلفه فى عرشه ، وذلك بالرغم من أن چايم كان له ولد ، وكان سانشو قد اختار من قبل ولد أخته الكونت تيوبولد أمير شمبانيا ليخلفه فى عرش ناڤارا .

فلما أعلن چايم فى العام التالى ولده الفونسو وليا لعهده ليخلفه فى جميع مملكته ، قضى بذلك على معاهدته مع ملك ناڤارا . بيد أنه تقدم نحو عرش ناڤارا بطلبات مجحفة ، حينما توفى سانشو السابع فى السابع من أبريل سنة ١٢٣٤م ، فى الثمانين من عمره ؛ واختار نواب الطبقات بالإجماع ابن أخته الكونت تيوبولد أمير شمبانيا ملكا شرعيا لناڤارا . وكان عدول ملك أراجون

عن دعواه الباطلة ضد نافارا ، يرجع بالأخص إلى اشتغاله بالغزو فى أراضى المسلمين أكثر مما يرجع إلى اعتراضات رجال الدين والبابا جريجورى التاسع . وهكذا بقى تيوبولد حتى وفاته ملكا لمملكته بلا منازع ، وخلفه فى العرش عقبه . أما تاريخ هذه الأسرة الجديدة التى تولت عرش نافارا ، والتى تدين لمؤسسها بتنظيم الدولة وتزويدها بكثير من القوانين الحكيمة ، فيدخل فى تاريخ العصر التالى .

وكان تصرف فرديناند إزاء چايم ملك أراجون مليئاً بالشهامة . ذلك أن چايم طلق زوجه الأميرة الينور القشتالية بحجة القرابة ، واختار الفونسو ولده (سنة ١٢٣٢م) وليا لعهده ، ولكنه عاد فانتزع منه بعض أجزاء المملكة ليعطيها لأبنائه من زواجه الثانى ؛ ومع ذلك فقد بذل فرديناند كل ما فى وسعه لكى يهدئ بوساطته ما ترتب على تصرفات چايم التعسفية من الاضطرابات فى أراجون ؛ ولما تزوج چايم فى سنة ١٢٣٥م بالأميرة يولانتا ابنة اندرياس الثانى ملك المجر ، ورزق منها بأولاد جدد ، قرر على يد المجلس النيابى الذى عقد فى دروقه سنة ١٢٤٣ م ، أن يعطى ولده من زواجه الأول الفونسو ، أراجون وحدها ، وأن يعطى ولده من زواجه الثانى بيدرو ولاية قطلونيـة . وقد أثار هذا التصرف من جانب چايم غضب ولى العهد وجميع الأشراف ؛ وكادت أن تترتب عليه حرب دموية بين الوالد والابن ، لولا أن وفق فرديناند بتدخله إلى اجتنابها ؛ ذلك أنه أرسل ولده البكر الفونسو ، إلى ملك أراجون ، فعقد مؤتمراً فى المسيرة (سنة ١٢٤٤ م) ، واستطاع أن يسوى النزاع القائم بين قشتالة وأراجون على حق الفتوح فى ولاية مرسية ، وأن يسوى فى نفس الوقت ما شجر من خلاف بين الأحزاب الأرجونية . كذلك عقد الفونسو ولى عهد قشتالة خطبته على يولانتا ابنة چايم توثيقاً لعلائق الصداقة بين المملكتين المتجاورتين ، واشترط أن تعطى الأماكن المختلف عليها بين قشتالة وأراجون كمهر لها .

وما كاد النظام يستتب فى أراجون حتى وجه چايم كل عنايته لتزويد المملكة بالقوانين الكفيلة بتقدم الشعب ورفاهته ؛ فأعد فى أوائل سنة ١٢٤٧ م على يد المجلس النيابى المنعقد فى وشقة تشريعاً جديداً قام بوضعه جماعة من علماء القانون والعرف ؛ وكان واضحاً أن هذا التشريع الجديد يرمى إلى الحد من امتيازات الأشراف ، والتوسع فى حقوق الطبقة الوسطى . وجمعت قوانين المملكة المختلفة فى هذا التشريع وشرح منها ما كان غامضاً ، ونقح منها ما كان فى حاجة إلى التنقيح ؛ ونص على أنه فى الأحوال الغامضة يُرجع إلى رأى ذوى النزاهة والمعرفة الذين خبروا هذه الشؤون ؛ وأضيفت إلى التشريع أيضاً مجموعة الأوامر القديمة المتعلقة بالحقوق الشخصية ، وإجراءات المرافعات ، والنظم الإدارية . ولم تبحث الأصول الدستورية ، وقصد بذلك على ما يلوح أن تمحى الامتيازات التى يتمتع بها الأمراء التابعون بمضى الزمن ، على أن چايم لم يخطر فى باله أن الحقوق الملكية التى لم تسجل بوضوح ستغدو هى ذاتها موضعاً لاعتداء الأمراء ، وهو ما وقع بالفعل فيما بعد .

وكان ثمة فكرة مشئومة تلاحق الملك چايم وهى تقسيم المملكة بين أبنائه . وما كاد ينتهى من تزويد أراجون بالقوانين الصالحة ، وهى خير قوانين عرفت يومئذ فى أوربا ، حتى أخذت تغلب عليه تحريضات زوجه البارعة الطموحة يولانتا . وكانت الملكة تريد أن يمنح جميع أبنائها مناطق من أراضى المملكة ، فاستطاعت أن تحمل زوجها على أن يضع لها تقسيما جديداً (سنة ١٢٤٨ م) ؛ وبمقتضى هذا التقسيم خص ألفونسو ، ولد الملك من زواجه الأول ؛ بولاية أراجون فقط ، ومنح بيدرو أكبر أبناء يولانتا ولاية قطلونية وجزيرة ميورقة وباقى الجزر الشرقية ، وحصل أخوه چايم على ولاية بلنسية ، وفرناندو على إمارة روسيون وكونفلان ، وشرطانية ومونبلييه ، وعدة أماكن أخرى شمالى البرنيه ؛ أما أصغرهم سانشو فقد التحق برجال الدين ، ولم يحصل على شىء ، بيد أنه رقى رغم حداثته إلى أرفع المناصب الدينية .

وما لبث هذا التقسيم أن أثار فى أراجون حرباً أهلية أخرى ، وثار ألفونسو أكبر الأبناء من جديد ، وتحالف معه الأنفانت البرتغالى بيدرو صاحب بلنسية الغنى بمواردها ، وكان قد تنازل عن ميورقه لقاء بلنسية . وقد أرغم الأميران مدى حين على مغادرة المملكة ، بيد أنهما انضما فى معظم أنصارهما — وهم أشجع فرسان أراجون وبلنسية — إلى الملك فرديناند الثالث ، وقدما إليه خدمات جلى فى محاصرة إشبيلية وافتتاحها ؛ ولهذا كان من الواضح لجايم أن ابتعادهما عن المملكة لم يضع للحرب حدا ، ولكنه أرجأها فقط . ورأى جايم لكى يحول دون تفاقم الاضطراب فى المملكة ودون تدخل قشتالة فى شؤونها الداخلية أن يدعو نواب الطبقات إلى الاجتماع فى القنيش (سنة ١٢٥٠ م) ؛ واختار النواب عدة محكمين للفصل فى منازعات الأحزاب والعمل على التوفيق بينها ؛ ويرجع الفضل بالأخص إلى نصح فرديناند فى أن ولى العهد ألفونسو ، والأمير البرتغالى — وكانا يقيمان يومئذ فى إشبيلية — انتهيا بالخضوع إلى هيئة المحكمين . وكان ملك قشتالة يرجو مخلصاً أن يعود السلام الداخلى إلى أراجون ، وعلى هذا فقد اضطر ولى العهد ألفونسو أن يخضع إلى القرار الذى أصدرته هيئة المحكمين التى ندبها مجلس النواب فى برشلونه فى ٢٦ مارس سنة ١٢٥١ ، وإن لم يكن هذا القرار فى صالحه ؛ وكان القرار يقضى بأن يخص ألفونسو بأراجون وحدها والفتوح الجديدة فى ولاية بلنسية ، ويؤيد منح ولاية قطلونية للولد الثانى بيدرو ، وأن يعطى الولد الثالث جايم جزيرتى ميورقة ومنورقة ومونبلييه ، والولد الرابع فرديناند ولاية روسيون وشرطانيه وكونفلان . وهكذا حمل جايم بحبه الأعمى لأولاده من زواجه الثانى على أن يمزق مملكة أراجون ، فى الوقت الذى عظمت فيه قوتها بافتتاح بلنسية ، وفى الوقت الذى استطاعت فيه قشتالة باتحادها مع ليون وفتوحها فى جنوبى اسبانيا أن تقضى على التوازن بين الدول الاسبانية ؛ بيد أن حكم جايم الطويل الحازم ، وموت ولى العهد ألفونسو قبل أبيه حالا دون انقسام وحدات المملكة الرئيسية وهى أراجون وقطلونية وبلنسية . أما فرديناند ملك قشتالة فقد استطاع

بالعكس أن يوطد وحدة الأراضى التى ورثها ، والتى افتتحها ، وأن يغنم بذلك عرفان الأمة الاسبانية التى اعتبرته بحق مؤسس المملكة الاسبانية .

ولما شعر فرديناند بدنو أجله ، استدعى ولده وولى عهده ألفونسو ، وهو الذى اختير منذ مولده فى سنة ١٢٢٢ م على يد مجلس برغش لولاية العهد ، وأوصاه بحضور الأشراف أن يعنى بأمر إخوته الخمسة وأن يكون لهم بمثابة الأب ، وأن يعامل الملكة — وهى چان دى بونتيه التى تزوجها فرديناند فى سنة ١٢٣٨ م بعد وفاة زوجه الأولى بياتريس — بمنتهى الرفق والتبجيل ، وأن يترك للأمراء التابعين حقوقهم وامتيازاتهم ، وألا يفرض شيئاً من الضرائب إلا إذا قضت بذلك الضرورة القاهرة ، وأن يسهر على تحقيق العدالة بين النـاس دون تفريق بين أحد منهم ، وأن يحكم المملكة فى خشية من الله . وفى ٣٠ مايو سنة ١٢٥٢ م توفى فرديناند مأسوفاً عليه من الجميع بعد أن حكم قشتالة خمسة وثلاثين عاما ، وحكم ليون اثنتين وعشرين عاما . ودفن فى إشبيليه آخر فتوحه ، وكان قد جعلها قاعدة لملكته ؛ وأسبغ عليه معاصروه — نظراً لورعه وتقواه — لقب « المقدس » ، ورويت عن قبره أساطير عديدة ؛ وخلع عليه البابا كليمنضوس العاشر لقب القداسة فى سنة ١٦٧٧ ، تحقيقاً لرغبة الملك كارلوس الثانى .

***

ومنذ تولت الأسرة البرجونية عرش قشتالة وليون ، وقعت فى نظم الحكم فى هاتين الدولتين تغييرات عديدة وإن تكن غير جوهرية . وكان أثر النظم والتقاليد الفرنسية قد أخذ يبدو مذ تبوأت الأسرة النافارية عرش قشتالة ، ولكن زاد هذا الأثر ظهوراً ، مذ وليت الأسرة البرجونية المتفرعة من أسرة كابيه الملكية ، عرش المملكة الاسبانية . فزادت سلطة الملك بعد أن كانت محدودة جدا ، وألغى مبدأ حق الانتخاب ؛ وكان حصول الملوك على حق اختيار أولياء العهد راجعاً بالأخص إلى أن الفتوح التى يقومون بها فى الحروب الموفقة ، تعتبر ملكا خالصاً لهم يتصرفون فيه بما شاءوا ، وكان الملك يحصل فى هذه التصرفات على موافقة

الكبراء من الأشراف والقواد والأساقفة ، وهم الذين حققت هذه الفتوح على أيديهم ، ولكن هذه الموافقة لم تكن فرضاً لازماً ، وإنما كانت تؤخذ فقط لتسهيل إجراءات التصرف ؛ ومن ثم فقد تبوأ معظم ملوك قشتالة وليون العرش بطريق الوصايا الملكية من أسلافهم ، وهى وصايا كان يصادق عليها دائماً كبراء المملكة ؛ وكان لكل ملك أن يقسم ولايات المملكة بين أبنائه . ولكن مملكة تقوم على مبدأ الانتخاب تأبى مثل هذا التقسيم . وكان فرديناند الثالث ، الذى تولى عرش ليون بالرغم من إرادة أبيه وحرمانه إياه فى وصيته ، أول من وضع لخير المملكة قانوناً يحرم تقسيم مملكة قشتالة وليون المتحدة (وذلك فى سنة ١٢٣٠ على ما يظهر) ولكن لم ينص فيه صراحة — فى حالة ما إذا لم يوجد عقب مباشر من الذكور — ماذا يتبع فى توريث الفروع أو إلى أى حد يفضل فرع الذكور ، على الأعقاب من الإناث . ومع أن فرديناند الثالث كان يسيطر على نحو ثلثى شبه الجزيرة ، وقد دفع أطراف مملكة قشتالة إلى حدود لم يوفق إليها أحد من أسلافه ، فإنه لم يفعل ما فعله ملوك قشتالة السابقين من ادعاء السيادة على باقى الممالك النصرانية ولم يتخذ كبعض أسلافه لقب القيصر .

وكانت الحقوق الملكية ونظم البلاط فى هذا العصر باقية على النحو الذى شرحناه من قبل[1] ؛ فالوزير الأول يسمى « محافظ القصر » Majordomus ويليه وزير الحرب أو حامل السلاح Armiger ؛ وكان وزير العدل يسمى Merinus Major ؛ ويتولى توقيع المراسيم والتصرفات الملكية السجل الملكى والمستشار الملكى . وحدث أثناء عهد الوصاية على الفونسو النبيل ، وهنرى الأول ، أن استطاع الأشراف أن يغتصبوا معظم سلطات الحكم ؛ وكان سن الرشد قد عين عند بلوغ الملك الرابعة عشرة ؛ وقد بلغت غطرسة الأشراف يومئذ حداً عظيماً بحيث كان من المألوف أن يرفضوا طاعة الملك ، بل لقد زعموا لأنفسهم يومئذ حقاً خطراً على كيان المملكة هو أن فى وسعهم أن يرفضوا

---

(١) راجع ص ١٣٢ وما بعدها من الجزء الأول من هذا الكتاب .

الولاء للملك وأن يختاروا أميراً غيره ؛ وقد استطاع الفونسو النبيل ، وكذلك فرديناند الثالث فى أعوام حكمه الأخير أن يحطا سلطان الأشراف — وقد كانوا يعفون من الضرائب ويملكون الضياع الواسعة والحصون والقلاع — وذلك بالأخص بمعاونة رجال الدين الأقوياء الأثرياء ، ورفع الطبقات الأخرى من الناحية الاجتماعية ؛ ومما يذكر فى ذلك أن الفونسو النبيل قد نزع من الأشراف هيبتهم ، واضطهدهم ، وسلح المدن والفلاحين لحاربتهم ؛ وعاون الكفاح المستمر ضد المسلمين فى المدن ، ولا سيما فى أطراف المملكة الجنوبية على إنهاض الروح العسكرية ؛ وكانت هذه المدن كلها تقريباً تحكم نفسها طبقاً لقوانينها وتقاليدها الخاصة fueros ، وهى التى حصلت عليها أو انتزعتها من الملك ؛ وكانت تنزل إلى ميدان الحرب بأعلامها وقوادها مجهزة أحسن تجهيز ، وكثيراً ما تحرز النصر الباهر على العدو ، وتعود جيوشها مثقلة بالغنائم ؛ وظهرت بالأخص فى هذا الميدان عدة مدن من قشتالة الجديدة واسترمادوره مثل آبله ، وصوريا ، وسقوبية ، ومدينة ردريك ، وشلمنقة وغيرها . وفى أواخر القرن الثانى عشر صادق على مرسوم أصدره الفونسو النبيل منظما لوراثة العرش زعماء خمسين مدينة منها اثنتا عشرة تقع شمال نهر دوره ، وتقع الباقية فى جنوبه ، وتقع فى المنحدر الجنوبى لوادى الرملة منها أربع عشرة ، وتقع فى المنحدر الشمالى الشرقى أربع وعشرون . ولما كان فرديناند الثالث قد افتتح فى القرن الثالث عشر عدة مدن كبيرة مثل بياسة وأبدة وجيان وقرطبة وإشبيلية وغيرها وشحنها بالسكان النصارى ، فقد كانت الطبقة الثالثة يومئذ غنية بمددها ؛ وكان نواب الطبقة الثالثة يمثلون عندئذ فى المجالس النيابية ؛ ومن الخطأ أن يقال إن نواب الطبقة الثالثة مثلوا فى الكورتيس (البرلمان) لأول مرة فى عهد الفونسو الحادى عشر فى سنة ١٣٢٥م ؛ وكانت المدن التى تمتعت فيما بعد ، فى سنة ١٣٤٩ ، فى مملكة قشتاله وليون المتحدة بحق إرسال نوابها إلى البرلمان ثمانى عشرة فقط .

وكان ابتداء مجلس البرلمان (الكورتيس) خلال القرنين الثانى عشر والثالث

عشر عن الشؤون الكنسية يبدو شيئاً فشيئاً ، وغدت الشؤون الكنسية تبحث فى مجالس خاصة (synod) ؛ وكان الأساقفة عثلون فى البرلمان كسابق عهدهم ، ولكن — بالأخص — باعتبارهم من الكبراء والأشراف ؛ وكان الكورتيس يدعى فى هذه العصور بالأخص فى أحوال ثلاث :

أولاً — حين صدور المراسيم الملكية الخاصة بوراثة العرش والوصاية ، وإصدار القوانين ، أو إصدار النظم المتعلقة بادارة شؤون الدولة ، مما يجب أن يحوز مصادقة الأشراف .

ثانياً — عند إعلان الحرب على المسلمين ، وذلك للمصادقة على توزيع نفقات الحرب ، وتقرير عدد الجند الذين يجب حشدهم .

ثالثاً — عند فرض الضرائب وتقريرها ؛ ولما كانت هذه المسألة تهم المدن بنوع خاص ، فقد جرت العادة شيئاً فشيئاً أن يدعى مأمورو الملك وزعماء المدن إلى مجالس الكورتيس ؛ ولم يكن لهؤلاء حق التصويت فى هذا الشأن ، ولكن كان لهم أن يبدوا رأيهم ، وأن يبدوا اعتراضاتهم فى الأحوال التى يرون فيها فداحة الضرائب . وكان يوجد ثمة إلى جانب الضرائب المادية فروض وخدمات أخرى ، مثل تقديم المؤن والأقوات للجيش وأعمال التحصينات والحراسة فى المدن والأماكن القريبة من حدود الأعداء .

هذا ، ولما كان لكل مدينة وكل ضيعة وكل دير تقريباً قانون خاص تجرى العدالة بمقتضاه ، فقد كان من الممكن يومئذ نظراً لتجنى الأشراف وسيادة حق القوة ، أن يقع التصادم بين مختلف القوانين ؛ بيد أن مثل هذا التصادم كان أقل مما نتصور . فقد كانت كل جهة تتمسك بقانونها دون أن تعبأ بمعارضة الآخرين . وكان السكان الذين يستقرون فى المدن المفتوحة حديثاً يحصلون على قانون جديد ، يقتبسونه عادة من مدينة سبقت لهم السكنى فيها . بيد أنه كان يجب الحصول على مصادقة الملك . وقد رأى فرديناند الثالث — لكى يحقق نوعاً من المساواة فى التقنين فى أراضى مملكته — أن يصدر تشريعاً عاما يستند بقدر الاستطاعة إلى

القانون القوطى وإلى القوانين الخاصة المختلفة . بيد أن هذا المشروع لم يتحقق ، وأصدر ولده وخلفه ألفونسو العاشر تشريعاً جديداً ، ولكن على أسس أخرى غير التى رآها أبوه .

كذلك وضع فرديناند الثالث الأسس الأولى لمجلس قشتالة الملكى ، وهو عبارة عن محكمة استئناف عليا لجميع المملكة . وكانت هذه المحكمة تتألف من عشرة من كبار المشترعين من رجال الدين والمدنيين ؛ وكانت هى الملاذ الأخير فى المنازعات ، وفى وسعها أن تنقح أحكام المحاكم الدنيا أو تعيد النظر فيها أو تنقضها ؛ بيد أن المستأنف كان ملزماً بأن يودع مبلغاً كبيراً قدره ألف وخمسمائة دبلون (عملة اسبانية) ، يضيع عليه إذا لم يحكم لصالحه .

وكما أن فرديناند الثالث ، لم يستطع أن يبسط سيادة قشتالة على باقى الممالك النصرانية ، فكذلك لم يحاول مطران طليطلة أن يجدد السيادة التى كانت لكنيسته على باقى الكنائس الاسبانية ؛ وقد كان مطرانا شنت ياقب وطركونه يعارضان فى ذلك أشد المعارضة . وظهرت هذه المعارضة بشكل واضح منذ عهد المطران ردريك الطليطلى حيث احتج زملاؤه على طوافه فى دوائرهم بهيئة رسمية وإصدار البراءات وغيرها من أعمال وظيفته ؛ وعقد يومئذ مجتمع دينى (سنة ١٢٤٠ م) تقرر فيه أن مطران طليطلة يعرض الأماكن التى يمر بها على هذا النحو إلى الحرمان . ولم يرض البابا عن هذا القرار ، ولكن المطارنة الأسبان أصروا على رفض سيادة مطران طليطلة عليهم . ولم يغيروا موقفهم حتى عند ما تولى سانشو ولد فرديناند الثالث منصب المطران فى سنة ١٢٥١ م .

ونلاحظ فيما يتعلق بالشؤون الكنسية أن هيبة الأساقفة ورجال الدين قد عانت كثيراً من جراء الحروب المستمرة ضد المسلمين ، فكثيراً ما تولى الأساقفة القيادة ، وكثيراً ما حرضوا على أعمال القسوة ضد المسلمين ؛ وترتب على ذلك أن شابت الوحشية طباع الشعب ورجال الدين . ثم تلا ذلك ظروف محزنة جنح فيها الملوك — بالرغم من معارضة الكنيسة — إلى الزواج من أقاربهم ؛

وجلبوا بذلك قرار الحرمان والتحريم على أنفسهم وعلى الشعب ، واضطهدوا رجال الدين الذين أطاعوا البابا ، وأبدى فريق من الشعب احتقاره للآخرين ؛ وغاضت العواطف الدينية حسب اعتراف الأساقفة أنفسهم شيئاً فشيئاً ؛ بيد أنها عادت فقويت من جديد فى ظل حكم فرديناند المستنير . وحذا هذا الملك الورع ، الذى اضطر أيضاً إلى حماية سلطته من رجال الدين ، حذو الفونسو النبيل ، فى إنشاء الأسقفيات والكنائس والأديار فى المدن التى فتحت حديثاً ؛ وتمسك الملوك بحقهم القديم فى تعيين الأساقفة ، وشدد فى هذا التمسك الفونسو النبيل وفرديناند المقدس ؛ وشدد الكرسى الرسولى من جانبه فى إنكار هذا الحق على الملوك . كذلك كان على رجال الدين أن يقدموا الجند إلى الجيش أسوة بالأشراف ؛ بل كان على الأساقفة أن يؤدوا قسما من أعشار الكنائس كضريبة حرب المعاونة فى الكفاح ضد المسلمين . بيد أنهم لم يكونوا يؤدونه إلا بموافقة البابا . وفيما عدا ذلك كان رجال الدين يتمتعون بالإعفاء من الضرائب منذ أيام الفونسو النبيل ، ولم يتمتعوا بهذا الامتياز من قبل . كذلك تقرر فى عهد هذا الملك ألا يضع الملك يده على تركات الأحبار وألا يستغلها بصورة مؤقتة ، بل تترك بجملتها إلى خلفائهم ، وكان على الأحبار مقابل ذلك أن يصلوا من أجل صحة الملك ورفاهته ؛ وكان فرديناند الثالث يشجع العمل على تحسين أخلاق الكهنة ؛ واستطاع المندوب البابوى ، الذى كثيراً ما تولى عقد الاجتماعات الكنسية ، وجماعات الرهبان الجديدة من الدومنكيين والفرنسيسكانيين ، الذين ذاعت هيئاتهم فى اسبانيا منذ تأسيسها فى سنة ١٢١٨ ، بما أبدوا من ضروب الاعتدال والورع والتقشف ، أن يكونوا قدوة للكهنة الذين طغت عليهم العواطف الدنيوية وأن يردوهم إلى حظيرة الدين . بيد أنه مما لا يمكن إنكاره أن التعصب الدينى ، وشهوة الكهنة إلى السلطان ، واعتناق الخرافات الدينية ، قد أخذت يومئذ تنتشر فى اسبانيا . .

وهنا أخذت الحرب ضد المسلمين تزداد عنفاً وقسوة ، وأخذ اليهود قسراً إلى التنصير بالرغم من اعتراض البابا على ذلك ، وأرغموا على أن يلبسوا من الثياب

ما عبزهم ، ومنعوا من تحصيل أعشار الكنائس ؛ وعوقب الذين ينتمون إلى الألبيين[1] ، أو يعتنقون مبادئ غير الكثلكة بالموت حرقاً ؛ وكان الملك فرديناند الثالث يمقت الملاحدة أشد المقت ، حتى أنه تولى بنفسه فى بالانسيا (سنة ١٢٣٦ م) إضرام النار فى محرقة أعدت لإحراق ملحد . ولم يذع فى عصر من العصور عن ظهور المعجزات مثلما أذيع عنها فى النصف الأول من القرن الثالث عشر ؛ فحيثما أحرز النصارى فى الحرب نصراً باهراً ظهر القديس ياقب ، أو الفارس القديس جورج ، أو السيدة العذراء فى المعركة ، ومعها مدد غير منتظر لأولئك الذين أشرفوا على الهلاك ؛ وقيل إن راهباً من ليون يدعى مارتن معروفاً بغبائه وجهله ، نزل عليه القديس ازيدور ، وأطعمه الكتاب المقدس ، فملئ بذلك علماً وحكمة ، واستطاع أن يؤلف كتباً عديدة فى أعوص المسائل الدينية ؛ ولما ذاعت التعاليم الإلحادية التى يرجع بعضها إلى مبادئ الألبيين ، أصدر المجمع الدينى المنعقد فى طركونه سنة ١٢٣٣ م قراراً بتحريم قراءة العهدين القديم والجديد على المدنيين حتى فى غير الاجتماعات العامة . وكذلك ذاع يومئذ اكتشاف آثار القديسين ورفاتهم ، ووضعها فى الكنائس فى المدن الكبيرة ؛ وعرفت اسبانيا فى ذلك الوقت أيضاً قديسين معاصرين مثل القديس دومنيك مؤسس الهيئة المعروفة باسمه ، وقد أعلن قديساً فى سنة ١٢٣٤ م

وكان من جراء الحروب المستمرة ضد المسلمين أن أسبغت حتماً على الأمة الاسبانية لوناً شديداً من الخشونة والقسوة ، ولم يحل دون تحولها إلى نوع من الهمجية المطلقة سوى شرف الفروسة والعاطفة الدينية ، بيد أننا لا نجد أثر هاتين الخلتين الشهيرتين دائماً فى الشعب الاسبانى ؛ ففى أثناء حروب أسرتى كاسترو ولارا فى قشتالة ، والحروب الأهلية التى وقعت فى عهد هنرى الأول ، وأثناء حداثة الملك جايم ، بدا كأن الصفات الرفيعة قد غاضت فى نفوس الفرسان ولم يبق مكانها سوى الرذائل من العنف والاضطهاد والعنت والتمرد تسود هذه

(١) سبق أن أشرنا إلى مذهب الألبيين فى هامش ص ١١٠ من هذا الجزء

الأراضى التمسة ، حتى لقد كان رجال الدين والنساء فرائس لهذا الاعتداء . ولما كان رجال الدين قد أثروا من جراء الهبات المتواصلة والإعفاء من كل الضرائب — بل ومن أداء ضريبة الحرب ضد المسلمين أحياناً — فكثيراً ما كان الفرسان والأشراف يحقدون عليهم ، وينتزعون منهم بالعنف ما يرونه زائداً عن حاجتهم . وقد قتل مطرانان فى طركونه بيد اثنين من أكابر أشراف المملكة ، وكثيراً ما وقع النهب والقتل والحرق دون خشية من الله ؛ ولم يبد الناس من الطاعة للملك إلا بقدر ما رأوه ضروريا ؛ وكثيراً ما كان الملوك أنفسهم يقدمون الأمثلة السيئة من أعمال العنف ، مثل چايم حينما أمر بقطع لسان أسقف جيرونه ، ولولم يعمد الفونسو النبيل فى أواخر عهده وكذلك فرديناند الثالث إلى كبح جماح الفرسان بحزم وقوة ، لانهارت نظم الدولة كلها فى قشتالة . ومن المدهش حقا أن نرى رجال الدين فى هذا العصر الذى ساد فيه قانون القوة ، يقنعون الفونسو النبيل بإلغاء « حق الإنقاذ »[١] ، وسن عقوبات شديدة لمن يرتكب النهب من السفن الجانحة .

وليس من المستغرب أن تزدهر الفنون والعلوم فى مثل هذه العصور التى سادها الاضطراب والفوضى ، فقد دلت التجربة فى كثير من البلدان على أنه كثيراً ما تزدهر العلوم فى ظل قعقعة السلاح . وفى هذا العصر بالذات أسست الجامعات الأولى التى عرفتها اسبانيا النصرانية فى بالانسيا وشلمنقة . على أن ازدهار العلوم والفنون فى قشتالة وأراجون يرجع بالأخص إلى العصر التالى ولا سيما فى عهدى الفونسو العاشر والفونسو الحادى عشر .

ولا تقدم إلينا المصادر فيما يتعلق بأراجون التى يحفل تاريخها الدستورى بكثير من المسائل الهامة ، قبل عهد چايم سوى قليل من الوثائق المتناثرة ، كذلك من الواضح أن هذا الملك وخلفاءه قد سنوا كثيراً من النظم الدستورية التى لم

(١) المقصود هنا حق الاستيلاء على تعويض مقابل مساعدة السفينة على النجاة من الغرق .

نعثر على أصولها فى عصور سابقة . وقد تناولنا فيما تقدم كل ما يتعلق بتاريخ أراجون الداخلى من الشؤون الهامة فى القرون الأولى من العصور الوسطى ، وذلك عند الكلام على حكم الملك بيدرو الثانى ؛ أما غير ذلك من الشؤون فيرجع إلى عصر لاحق .

* * *

وقد نستعرض فى لمحة سريعة تلك العصور التى قامت فيها السيادة النصرانية على شبه الجزيرة الاسبانية ، ونتساءل بعد تأمل أهم حوادث هذه السيرة ، أليس من المسلم به أنها عبارة عن صراع دموى حافل بالتقلبات شهره الاسبان ضد المسلمين فى سبيل امتلاك شبه الجزيرة ، وهى ملكية رأى أبناء القوط دائماً أنها من حقوقهم الخالدة . وقد استطاع فرديناند القدس وجايم الفاتح لأول مرة أن يحطما تفوق الإسلام نهائيا ، وأن يحققا للاسبان سيادة الأراضى الاسبانية بالرغم من أنها بقيت مدى حين مسرحاً لهذا الصراع ، وبقى المسلمون فى مملكة غرناطة فى رقعة من الأرض تمتد بين مملكتى قشتالة وأراجون وتشرف على المضيق .

إن السيف يفتتح الأراضى ، ثم ينظمها القانون إلى دول ؛ وقد بقى الفرسان ورجال الدين هما الدعامتان اللتان تمدان الشعب الاسبانى بالقوة اللازمة لسحق الصرح العربى المغربى . ولما خف عبء الصراع الدائم ، ولم يبق المرء عاما بعد عام يعيش فى المعسكر ويخوض ميدان الحرب ، زادت عناية الاسبان بالزراعة والصناعة والتجارة والعلوم والفنون . ولم يكن من الميسور قبل أن تسقط بلنسية وقرطبة وإشبيلية فى يد النصارى أن تزدهر الزراعة والصناعة والتجارة والعلوم بين النصارى كما ازدهرت بين جيرانهم المسلمين . ذلك لأن النصارى كانوا يسيطرون فقط على القسم الشمالى المجدب من شبه الجزيرة ، ولأن الأيدى العاملة كانت تؤخذ دائماً للحرب ، ولأن الدول النصرانية فيما عدا قطلونية كانت منقطعة عن البحر الأبيض المتوسط ، ولأن الحرب وحدها كانت سبيل الشرف والثراء والصيت . وكانت النظم التأسيسية ترمى كلها إلى توزيع الحقوق ، حينما

تفرض أعباء الحرب ، ولم يكن يستثنى من ذلك رجال الدين . فلما توطدت حياة اسبانيا فى شبه الجزيرة بعد صراع دام خمسة قرون أمكن أن يعنى التشريع بحقوق الأفراد بعد الجهود التى بذلت للعناية برفاهة الدولة ورخائها ؛ ولم تكن الحرب أو الضرورة القاهرة عندئذ باعث النظم التأسيسية ؛ ولكن كان التوسع الحر فى الحقوق هو الذى يوجه التشريع ، وكان التشريع ينظم أسس الدولة .

الفصل العاشر

نظم الدولة وفنون الحرب وأحوال الحضارة

فى دولتى المرابطين والموحدين

كانت دولة المرابطين تشبه فى قيامها ونموها واضمحلالها خليفتها ، دولة الموحدين شبهاً عجيباً : كلتاهما قد وضع أسسها داعية دينى ، وقاد الجند الذين غمرتهم الحماسة الدينية قادة عظام موهوبون من نصر إلى نصر ، وأنشأوا من هذه الفتوح دولة زودوها بنظم ، وأسرة ملوكية وراثية . بيد أنه ما كادت العوامل التى حركت هذه الشعوب — وخلقت ونظمت كل شىء — يغيض معينها ، وما كادت حماسة الشعوب تخبو ، وتفتر همم السلطان الحربية ، حتى انهارت هاتان الدولتان العسكريتان بمثل السرعة التى قامتا بها .

وكان من أشد العوامل التى ساعدت على بسط سيادة هاتين الدولتين فى شمال إفريقية ، رغبة البربر والمغاربة الذين فرض العرب عليهم سلطانهم ، فى أن يحطموا نير السيادة الأجنبية ، وأن يلتفوا حول الأسر القومية ؛ ولكن الأمر كان على عكس ذلك فى اسبانيا المسلمة حيث لم تكن كتلة الشعب من المغاربة ، بل كانت عربية (مصرية أسيوية) ، فقد كانت الدولتان المغربيتان ، تعتبران بالرغم من كونهما قد استدعيتا لمحاربة النصارى ، غاصبتين ليس غير ؛ وكان الزعماء والأسر الملوكية بالأخص ، وهم الذين جنت سيادة الإفريقيين على حقوقهم ، يبغضونهم ويحقدون عليهم ؛ وحتى بعد أن فنى معظم الأسر العربية العريقة فى

الأندلس وفى شرق اسبانيا ، لم يكن من الميسور إخضاع الشعب بغير القوة القاهرة . ومع أن الحروب المستمرة ضد النصارى الأسبان كانت تحتم الاحتفاظ فى شبه الجزيرة بقوى ضخمة ، فان اسبانيا المسلمة كانت مع ذلك ، فى ظل دولة المرابطين ، وكذلك فى ظل دولة الموحدين ، أغنى ولاية فى الدولة المغربية ؛ كما أنها كانت فى نفس الوقت أشد أجزائها تعرضاً لعسف الحكام العسكريين ؛ وكان من الطبيعى أن يترتب على غزو هذه القبائل المغربية الخشنة ، انهيار الثراء العظيم والنعماء السابغة اللذين عرفتهما الأندلس من قبل فى عهد الدولة الأموية وعهد ملوك الطوائف ، وأن تفتر العناية بالعلوم والفنون ؛ بيد أنه من المدهش أن نرى مسلمى الأندلس فى تلك العصور المضطربة التى ساد فيها الخراب والعيث ، ينافسون إخوانهم المسلمين فى المشرق فى جميع نواحى العلوم والحضارة .

١ — نظم الدولة وفنون الحرب عند المرابطين

كانت نظم الدولة التى قامت عليها مملكة المرابطين من صنع يوسف بن تاشفين ، فهو الذى أعطى المملكة حدودها ودعامتها الأساسية . واستطاع بعد أن أسس العاصمة مراكش ، وافتتح أقطار المغرب والأندلس أن يتخذ — باعتباره زعيم المرابطين فى الشؤون الدينية والدنيوية — ألقاب الخلافة وأمير المؤمنين دون أن يكون من فروع الدوحة النبوية ، تشبهاً فى ذلك بأعظم أمراء الإسلام فى عصره ، خلفاء بغداد العباسيين ، وخلفاء القاهرة الفاطميين ، وأن يجعل الملك متوارثاً فى أسرته ؛ وكانت تقام صلاة الجمعة فى المساجد باسم هذا السلطان المطلق ، وتضرب السكة باسمه فى جميع أنحاء المملكة . وكان لون المرابطين السواد على مثل الدولة العباسية ؛ يحملون الأعلام السود ، ويرتدون المعاطف السوداء .

وكان كل سلطان يختار أثناء حياته ولى عهده بنفسه ، وكان يختار عادة من بين أبنائه أنجبهم وأكفأهم للاضطلاع بالحكم ؛ فقد اختار يوسف بن تاشفين مثلا لولاية عهده أصغر أبنائه . وكان من أهم عوامل الخلاف على وراثة العرش فيما

بعد ، أنه لم يصدر قانون صريح ينظم وراثة العرش ، فى حالة ما إذا فات أمير المؤمنين القائم أن يختار خلفه . وكان تعيين ولى العهد يجرى وفقاً لرسوم فخمة ، فيعقد مجلس من زعماء القبائل والولاة والعلماء والفقهاء ، وتعرض عليه رغبة السلطان ، ويصرح المجتمعون بأنهم يقبلون ولى العهد المختار سلطانهم المستقبل ويبايعونه بالطاعة إذا شاء ذلك أميرهم ؛ وللأمير إذا شاء أن يقيل ولى عهـده وأن يختار بدلاً منه ؛ ويجب على الوزير أن يحرر وثيقة بوراثة العرش ، تودع فى المحفوظات الملـكية .

ومتى تولى سلطان المرابطين الحـكم بايعه بالطاعة أولاً أفراد أسرته ، ثم الأمراء المرابطون ، وأقسموا له يمين الإخلاص والطاعة ، ثم يتلوهم زعماء القبائل وعمال الحـكومة ؛ ويخطر الشعب بمرسوم يتلى فى المساجد ، ويستبدل اسم الملك الراحل فى خطبة الجمعة باسم الملك الجديد .

ويُعهد بحكم الأقاليم إلى الأمراء المرابطين الذين لم يولوا الملك ؛ وكانت الأندلس أهم هذه الأقاليم ، ويعهد بولايتها عادة إلى الأمير الذى يعين لولاية العهد ، ويلقب عندئذ بلقب خاص به وهو « النائب » ؛ ويتخذ مركز الحـكم على الأغلب فى غرناطة أو إشبيلية أو قرطبة ؛ ويلى الأندلس فى الأهمية ولاية فاس ، وهى عاصمة المملـكة الثانية ، وفيها حاول الأمراء المرابطون من آل تاشفين أكثر من مرة أن ينشئوا مملـكة مستقلة .

ويعاون أمير المؤمنين فى القيـام بأعباء الحـكم مجلس للدولة مؤلف من الوزراء ؛ وينتقل هذا المجلس معه أثناء الحرب ؛ ويوزع الوزراء فروع الإدارة والحـكم بين أنفسهم ؛ ويتولى رياسـة المجلس كبير الوزراء أو الوزير الأول ؛ ويتولى الوزير الـكاتب إعداد جميع الوثائق الرسمية العامة .

ويقوم نظام الدولة كله على أسس عسكرية ؛ وأمير المؤمنين هو قائد الجيش الأعلى ؛ وولاته هم فى الوقت نفسه من قواد الجيش يتزعمون منه أقساما معينة ، بل كان قضاة المدن أنفسهم أيضاً من القواد العسكريين ؛ وكان معظم الموظفين فى

البلاط وفى الولايات ينتمون إلى قبيلتى لمتونة وكدالة الحربيتين ، وهما اللتان يرجع إليهما أصل المرابطين أنفسهم . هـذا وقد عمل يوسف بن تاشفين على الاحتفاظ بمعظم طرائقهم فى تنظيم فنون الحرب . وكان اللمتونيون شعباً وافر البراعة شديد المراس فى الحرب لا يفرون أمام عدو مهما تفوق عليهم فى العدد ؛ وكانوا يرتبون صفوفهم فى المعركة ببراعة ؛ ومع أن قوتهم الأصلية كانت تقوم على الفرسان ، فإنهم كانوا يقدمون فى الصف الأول أشجع جندهم من المشاة ، يتقلدون الحراب الطويلة ، ويغرسونها فى الأرض .

وقد أكمل يوسف بن تاشفين تنظيم اللمتونيين وأعدهم للحرب أعظم إعداد ؛ وكانت دعامة جيشه قوة من الفرسان حسنة الدربة مزودة بأفضل سلاح ، وصل عددها فى عهده إلى مائة ألف مقاتل ؛ وكانت كل فرقة تحمل علمها الخاص من مختلف الألوان ، وعليه رسوم ونقوش خاصة ، ولهـا زعيمها الخاص ، ويخرج الجيش إلى الحرب تحت قرع الطبول وصوت الأبواق ، وقد رتبت الصفوف حسب القبائل .

وكان ترتيب المعركة عند المرابطين يقوم على نظام خماسى . ويتقدم الجيشَ ، الجندُ المشاة ، ووحدات الفرسان الخفيفة ، وحملة القسى ، وحملة النبال ، ويرتبون فى الجناحين ؛ ويتكون القلب من وحدات الفرسان المرابطية الثقيلة ، وهى التى كان لهـا على الأغلب القول الحسم فى المعارك ؛ وكانت القوى الخلفية أو القوى الاحتياطية ، يقودها الخليفة بنفسـه إذا كان مصاحباً للجيش ، وتتألف من صفوة جنود الجيش ؛ وقوى الحرس المختلفة . وكان لـكل قسم من القوى المقاتلة قائده الخاص ؛ ويجتمع القادة جميعاً فى مجلس الحرب الذى يعقد قبيل المعركة ويتلقون الأوامر والتعليمات من القائد الأعلى ؛ وكان الجند ينظمون وفقا للأقاليم والمدن ، فيؤلف الأندلسيون مثلا قسما خاصا من الجيش ، يحمـل أعلام إشبيلية وقرطبة وجيان ومالقة وغرناطة وغيرها . ولـكن قوى الحرس الخاص كانت تؤلف من أشجع الجند من مختلف الولايات ، ويشترط فى قبولهم أن يكونوا من ذوى القوام

الحسن ، والشجاعة الفائقة ، والقوة والبراعة . وجمع يوسف بن تاشفين بواسطة تجار الرقيق فى إقليم غانة عدداً كبيراً من العبيد ، واختار منهم أمهرهم وزودهم بالسلاح والخيل ، ودربهم على جميع فنون القتال ، وأنشأ منهم حرسه الخاص الأسود من ألفى رجل . وأنشأ على مثل هذا النمط حرساً خاصا من الأندلسيين ، يتألف من فتيان من النصارى المعاهدين الذين يحتم عليهم اعتناق الإسلام ؛ وكان يوسف يحبوهم بعطفه وصلاته ، وينعم على من امتاز منهم بالإخلاص والشجاعة بمختلف الهبات من الخيل والثياب والسلاح والعبيد . وكان علىّ بن يوسف أول أمير مرابطى اختار حرسه الخاص من بين النصارى ، وهو تصرف كان له وقع سيء بين المسلمين المحافظين .

وكان الجند عند السير ينظمون كما لو كانوا على وشك خوض المعركة ؛ وكانت الأقوات والخيام تحمل وراء الجيش على ظهور الدواب ؛ ويتبعها الرعاة وهم يقودون قطعان الماشية من كل صنف ؛ ومتى حط الجيش رحاله ، أقيم معسكر فى منتهى الانتظام . وكان يوسف بن تاشفين لايقتصر فى استعمال الجمال على حمل الأثقال ، ولكنه كان فى حروبه بالأندلس ضد النصارى يستعملها بالأخص مكان الخيل لكى يستعين بمنظرها الغريب على بث الروع فى نفوس الأعداء ، ويقال إن هذه الخطة نجحت فى موقعة بطليوس ؛ ومما يلفت النظر أنه لم يرو قط أنهم استعملوا الفيلة فى الحرب مثلما كان يعمل القرطاجنيون القدماء .

وكان المرابطون فى أيامهم الأول ، حينما قامت دولتهم وازدهرت ، يقاتلون فى الحروب تحت قيادة يوسف بمنتهى الإقدام والشجاعة ، ويطلبون الموت شهداء فى سبيل الإسلام اجتناء لنعيم جنة الخلد ؛ ومن ثم كانت هجماتهم من العنف بحيث لم يقو أحد على ردهم ؛ وكان هـذا الشغف بالكفاح يبدو بنوع خاص فى الجهاد ضد النصارى الأسبان ؛ وكانت الصلاة تقام قبل بدء المعركة ، ومتى تمت هزيمة العدو ، أقيمت أهرام من رؤوس القتلى النصارى ، وأذن المؤذنون عليها للصلاة كأنها مآذن ؛ وأذيعت أنباء النصر بين الشعب من منابر المساجد

وقرئ منها للناس بيان أمير المؤمنين عن الموقعة .

وكان الخليفة يختص من الغنائم بالخمس وفقاً لأحكام الإسلام ، ويوزع الباقي بين الجند .

والظاهر أن المرابطين بالرغم من بسالتهم فى المعارك ، وبالرغم من أنهم كانوا يعرفون آلات الحصار وطرائق رميها ، لم يكونوا على براعة كافية بفنون الحصار ؛ ويرجع السبب فى ذلك إلى أن دعامة قوتهم كانت ترتكز إلى الفرسان ، وهم أقل براعة فى فنون الحصار . على أنهم كانوا يجيدون الامتناع بالقلاع ، ويجيدون تحصينها ، وقد دللوا فى مواطن كثيرة على أنهم يحسنون الدفاع عن الأماكن الحصينة .

وكان الأسطول يتألف من سفن النقل أكثر مما يتألف من سفن القتال ، وذلك لأن الغرض الأساسى من إنشائه ، هو حفظ المواصلات بين المغرب والأندلس ونقل الجند ؛ وقد استخدم الأسطول فى فتح بلنسية والجزائر الشرقية (البليار) ولكن لم تنشب أية موقعة بحرية .

وكانت اسبانيا المسلمة فيما يتعلق بالحكم والإدارة فى ظل المرابطين ، كأنها عبارة عن معسكر ضخم ، وذلك نظراً لاضطرام الحرب ضد النصارى بلا انقطاع ، ولأن المرابطين كانوا يرتابون فى ولاء الأندلسيين ؛ وهكذا كانت الأندلس تعامل دائماً كولاية على وشك الخروج والثورة ، ويحتلها باستمرار سبعة عشر ألف فارس من المرابطين ، يقيمون فى المدن والقلاع الهامة ؛ منها فى إشبيلية حامية من سبعة آلاف ، وفى غرناطة حامية من ثلاثة آلاف ، وفى قرطبة حامية من ألف ؛ وكان كل فارس يتقاضى مرتباً شهريا قدره خمسة دنانير مرابطية ، هذا عدا الطعام المجانى ؛ وكان قواد هذه الحاميات وكذلك الولاة وقضاة المدن ، ومعظم الموظفين من المغاربة ، ولاسيما من اللمتونيين ؛ أما المسلمون من الأصول العربية والمصرية والسورية والفارسية فقد أهملوا وأغضى عنهم ؛ وعلى هذا فقد كان من الطبيعى ألا يرى مسلمو الأندلس فى المرابطين سوى طغاة ظالمين . وفى عهد يوسف بن

تاشفين كان من المتعذر أن تبدو المساوئ التى كان من المحتوم أن تترتب على نظامه وصنوف الظلم والإرهاق التى يرتكبها الولاة ، لأنه كان من وقت إلى آخر يطوف بنفسه أرجاء مملكته الشاسعة ، ويتحرى أحوال المدن وحكوماتها ، ويستمع إلى الظلامات ، ويتخذ ما يجب لإقامة العدل وحفظ الأمن ؛ ولكن المساوئ غلبت فى عهد الملوك الضعفاء بسرعة ولاسيما فى الأندلس ؛ وكان الأندلسيون أكثر احتمالا لخشونة الجند والقادة ، لأنهم كانوا على الأقل رجالا تغلب عليهم البساطة والصراحة ، بعيدين عن الخداع والجشع ؛ ولكنهم لم يحتملوا القضاة والعلماء الذين اختصوا بالفصل فى شؤونهم ؛ ذلك لأنهم بدلا من أن يولوهم العدل والحماية كانوا يغلبون فى معاملتهم الظلم والاضطهاد والخديعة والجشع وكل صنوف الشر والإرهاق ؛ وكان الموكلون بتحصيل الضرائب عادة من اليهود ، يجمعون المكوس من المسلمين والنصارى المعاهدين ، طبقا لعدد الأنفس ، وكانوا بذلك أداة فى يد الوظفين يوجهونهم وفق أهوائهم وجشعهم ؛ ثم انتهى الأمر بأن حذا الجند حذو الموظفين وأخذوا يعتدون فى المدن على حريات الأفراد وأموالهم ، وهكذا جنح الشعب إلى الثورة ، وانتهى المرابطون بأن فقدوا الأندلس سراعا حينما غزاها الموحدون .

وكان لايزال يقطن جنوبى اسبانيا فى أوائل القرن الثانى عشر ، كثير من النصارى المعاهدين Mozarabes [1] ، وكانوا يتمتعون بحرية الشعائر ، ويحتفظون ببعض القوانين القوطية ولهم أساقفتهم وقضاتهم ؛ ولكن حدث أن ثار النصارى المعاهدون ليرفعوا عنهم النير الأجنبى ، وليساعدوا ألفونسو الأول ملك أراجون فى حملته ضد غرناطة ومالقة ، فترتب على ذلك أن عمل خليفة المرابطين على تشريد معظم السكان النصارى ونقلهم من الأندلس إلى إفريقية [2] ؛ فهلك معظمهم من الحرمان وتغير الطقس ، ودخل بعضهم فى جيش الخليفة ، وحارب معه ، وألفى

(١) راجع الهامش فى ج ١ ص ١٥٣ .

(٢) راجع تفصيل ذلك فى الجزء الأول ص ١٥٤ — ١٥٦ .

أمير المؤمنين على ابن تاشفين أن النصارى يستطيعون أن يؤدوا كثيراً من الخدمات ، فمين فى بلاطه فرساناً من النصارى ، وأنشأ منهم فرقة خاصة فى الجيش ، أسدت إليه خدمات طيبة فى حربه ضد الموحدين ؛ وعهد إلى النصارى بتحصيل الضرائب فى المغرب ، على نحو ما كان يحدث فى الأندلس من قيام اليهود بهذا العمل .

ولم يتمتع اليهود — وكان عددهم كبيراً فى المغرب والأندلس — بنوع من التسامح إلا فى عهد خلفاء يوسف بن تاشفين . وقد كان يوسف شديد العداء لليهود ، وكان يريد أن يرغمهم على اعتناق الإسلام ، لأنهم فى زعمه ، وكما ورد فى بعض الكتب القديمة ، تعهدوا أيام النبى باعتناق الإسلام ، إذا لم يظهر مسيحهم المنتظر بعد خمسمائة عام . ولم يستطع اليهود اتقاء الاضطهاد إلا بعد أن بذلوا مبالغ طائلة من المال ، واشتروا بذلك سلامتهم وحرية شعائرهم .

ولم يبد سلاطين المرابطين كبير عناية بأمر العلوم والفنون والشعر ، وتقدم المعارف ؛ وقد اضطهدوا كل ما عنيت الدول العربية بتشجيعه من قبل ؛ وطاردوا العلوم الفلسفية والكلامية التى تنكرها التعاليم المرابطية ، وحظروا قراءة الكتب التى تحتويها وأحرقوها علناً ؛ وكذلك حُرّمت وأحرقت جميع الكتب التى تتضمن قصص الفروسية والقصص المادى ، ولم يحذ الأمراء المرابطون حذو أسلافهم العرب إلا فى فن العمارة ؛ فقد أنشأ يوسف بن تاشفين بالأخص كثيراً من المساجد والثكنات والقياسر ، والمساكن ، واختط الشوارع والأسواق ، ولم يدخر وسعاً فى العمل على ترقية جميع المنشآت الضرورية والنافعة .

٢ — نظم الدولة وفنون الحرب عند الموحدين

كانت نظم الدولة عند الموحدين ترجع إلى أسس دينية ؛ وكانت أقل طغياناً من نظم المرابطين ، وكان الموحدون أقل عداء للتربية والعلوم ؛ ومع ذلك فقد كانت نظمهم كلها ترمى إلى تأسيس دولة عسكرية ؛ ومن ثم فقد كانت دولتهم تشبه دولة المرابطين من وجوه كثيرة ، سواء فى قيامها أو نموها ثم سقوطها .

وكانت دولة الموحدين ترمى إلى إحياء مجد الإسلام الذابل فى شمال إفريقية ، وإن لم يكن ذلك على يد أسرة عربيــة ، بل على يد أسرة من أهل البلاد . وقد وضع أسس هذه الدولة داعية دينى ، زعم أنه المهدى محيي مجد الإسلام فى المغرب وإمام الدولة الجديدة .

وقد لقيت نظم الدولة التى وضعها المهدى تغييرات جوهرية على يد مؤسس الدولة الموحدية ، ووارث سلطان المهدى ، ونعنى عبد المؤمن بن على ، وهو من أعظم القادة والساسة فى العصور الوسطى ؛ وقد كان شأنه فى تأسيس أسرته أعظم من شأن يوسف بن تاشفين بالنسبة للأسرة المرابطية . ويسمى بعض المؤرخين العرب سلاطين الموحدين ببنى عبد المؤمن ، نسبه إلى مؤسس الأسرة . وكان عبــد المؤمن أحد العشرة الذين اختارهم الإمام المهدى ليكونوا وزراءه ووضع فيهم أعظم الثقة ؛ وقد زود منذ فتوته بأعظم سلطة ، واستطاع بعد موت سيده ، بدهائه وعظيم هيبته وبراعته الحربية التى دلل عليها من قبل ، أن يستخلص السلطان لنفسه ؛ وبعد أن قضى على دولة المرابطين ، تبوأ عرش مراكش ، ونادى بنفسه خليفة الموحدين وأمير المؤمنين ، ووضع للمملكة الجديدة التى شملت حدود الدولة الراحلة ، نظما اشتقت من نظم الموحدين وتعاليم المهدى وصبغها بنظمه العسكرية الخاصة ؛ ودعى فى الخطبة فى المساجد التى طهرت من جديد لخليفة الموحدين كما كان يدعى لخليفة المرابطين من قبل ؛ بل لقد أمر عبد المؤمن بهدم مساجد مراكش وبنائها من جديد ؛ وضرب الموحدون سكة جديدة مربعة مكان السكة المرابطية المستديرة ، ونقش عليها إلى جانب اسم الخليفة القائم والعبارات الإسلامية المعتادة اسم المهدى أيضاً ، وهو مما يؤكد أصل الدولة الدينى ؛ كذلك ذكر اسم المهدى فى الصلاة ، وكان يحَج إلى قبره فى تينمال ، كما يحج إلى قبر النبى . (كذا)

وكان لون الموحدين السياسى البياض ؛ ويرتدى الموحدون المعاطف البيضاء فى الحفلات الرسمية ؛ وكانوا يستعملون إلى جانب البياض : اللون الأخضر ، بيد

أنهم كانوا يقصرون استعماله ، فيما يظهر ، على بعض المناسبات الخاصة ، ولا سيما عند إعلان الجهاد ضد النصارى .

وكذلك لم يكن عند الموحدين قانون ثابت لوراثة العرش ؛ وكان السلطان يختار بنفسه ولى عهده من ولده وفقاً لمشيئته ، وذلك بغض النظر عن حقوق الولد البكر ؛ ولما انقطع تسلسل الوراثة من الأب إلى الابن ، عجلت المنازعات على العرش بانهيار المملكة ؛ وكان بوسع أمير المؤمنين أن يحصل لولى العهد الذى اختاره على مبايعة بالطاعة من مجلس الدولة والزعماء ، بل كان يشركه أحياناً فى الحكم معه كشريك فى الملك ، وفى تلك الحالة يذكر اسمه فى الخطبة إلى جانب اسم أمير المؤمنين ؛ وكانت مدينة تينمال التى دفن بها المهدى ، أيضاً مدفناً للملوك الموحدين .

وعند ما يتولى السلطان الملك ، يبايعه بالطاعة أولا الحاضرون من أمراء بنى عبد المؤمن ، ثم الوزراء ، ومجلسا الدولة ، والزعماء ، ثم الشعب أخيراً ؛ ويذاع نبأ جلوسه فى جميع أنحاء المملكة ؛ ويتخذ كل سلطان شعاراً خاصاً لتوقيعه وأعلامه الملكية .

وكان الأمراء الموحدون ينعتون أنفسهم بلقب السيادة فيتقدم اسمهم دائماً لقب « السيد » ؛ وتوزع بينهم ولايات المملكة ؛ وكان ذلك من أهم الأسباب التى عجلت باضمحلال دولة الموحدين إذ ثارت المنازعات على العرش ، ولم يكن يعوز الأمير الطموح أن يعمل لاستقلاله عن العرش ، بل أن يدعى الخلافة لنفسه .

وكان يعاون أمير المؤمنين فى تصريف شؤون الحكم عشرة وزراء كان كبيرهم يتخذ لقب الحاجب كما كانت الحال أيام الأمويين ؛ وكثيراً ما كان السلطان يعين أولاده فى سلك الوزارة ؛ وكان الحاجب يقوم بتبليغ المراسيم والأوامر التى يصدرها الخليفة شفويا ؛ وإذا اقتضى الأمر اصدار مراسيم مكتوبة ، وقعها

الحاجب كما يوقعها الوزير الكاتب[1] ، وكان يتولى الإشراف على القضاء ثلاثة من الوزراء يسمون قضاة فى نفس الوقت ؛ وثلاثة فقهاء يقومون بالنظر فى كل ما يتعلق بالدين والتعليم والمعارف ؛ ويتولى الشؤون المالية وزير يسمى والى الخزانة ؛ وهؤلاء الوزراء جميعاً لم يكن عملهم قاصراً على أعباء الحكم وشؤون الدولة ، بل كانوا أيضاً موظفين فى البلاط ، عليهم أن يعنوا بكل ما يتعلق بشخص الخليفة ، باعتبارهم خدامه الأوائل ، وعلى ذلك فقد كان من بينهم الطبيب الخاص ، والنديم ، والقارئ ، والأمين .

وكان ثمة إلى جانب هؤلاء الوزراء العشرة مجلسان يعاونان أمير المؤمنين فى تصريف الشؤون ؛ ولم يكن فى اجتماع هذين المجلسين ما يحد من إرادة أمير المؤمنين أو سلطانه ، وإنما كان القصد من إنشائهما أن يجد أمير المؤمنين فى معاونتهما وسيلة لتخفيف أعباء المهام عن كاهله ؛ وكان أمير المؤمنين يعهد بالبحث والفصل فى الأعمال التى ليست لها أهمية خاصة إلى مجلس الخمسين ، وبالأعمال الأقل أهمية إلى مجلس السبعين . ثم حدث أثناء حكم المستنصر ، وقت أن كان قاصراً تحت الوصاية ، أن اغتصب أعمامه وأبناء أعمامه السلطة فى الأقاليم ، وانتزع مجلسا الدولة أيضاً لنفسيهما كثيراً من السلطة ، حتى أصبحا يقرران أمر وراثة العرش ، ويعينان أو يعزلان ، وفق مشيئتهما ، خليفة بعد خليفة . ولكن الخليفة المأمون عول على أن يسترد سلطان العرش المطلق ؛ ولما أصدر أعضاء المجلسين قراراً بعزله أمر بهم فأعدموا ؛ وغير فى نظام المجلسين وأنشأهما من جديد حرصاً على الظاهر ؛ وقصر عملهما على معاونة وزير العدل ، والفصل فى المنازعات بين الأشخاص العاديين ، وحظر عليهما التدخل فى أى شأن من شؤون الدولة . وأراد المأمون أيضاً أن يحمل الشعب على احترام نظامه الجديد ، فذهب إلى حد الطعن فى نظام المهدى ، وفى شخص مؤسسه ، وأعلن أن المهدى مخاتل مخادع ، وكتب

---

(١) هو الوزير الذى يتولى كتابة الوثائق السلطانية وصياغتها ؛ ومنصبه يقابل منصب كاتب ديوان الإنشاء فى الدول المصرية .

كتابا فى المساوئ التى يرتكبها عمال الدولة ، ونوه بأهمية المبدأ القائل بأنه لا يصح أن يوجد إلى جانب الحكومة الطائفة أية سلطة أخرى أو قوانين أخرى غير شريعة الله (أى القرآن) وإرادة الأمير .

وكان عبد المؤمن قد قام قبل ذلك بإحداث بضعة تغييرات فى النظام الأساسى الذى وضعه المهدى ؛ وكان المهدى قد قسم الموحدين جميعاً إلى عشر طبقات ؛ وكانت هذه الطبقات العشر تأتى قبل باقى الشعوب الخاضعة لسلطان الموحدين ؛ وكانت الطبقة الأولى وفقاً لهذا النظام تتألف من الوزراء العشرة ، وتتألف الثانية من مجلس الخمسين ، والثالثة من مجلس السبعين ، والرابعة من العلماء ، والخامسة من الحفاظ والمحدثين ، والسادسة من أقرباء المهدى ، والسابعة من أبناء قبيلة هرغة وهى قبيلة المهدى ، والثامنة من أهل تينمال ، والتاسعة من أهل جرميوت ، والعاشرة من باقى جند الموحدين ؛ وكان لكل طبقة من هذه الطبقات مكان خاص للاجتماع فى السلم ووقت الحرب ، وعند السير ، وحين إقامة المعسكرات .

ولما تولى عبد المؤمن الحكم ، ألغى نظام الطبقات العشر ولم يبق منه سوى مجلسى الخمسين والسبعين . أما النظم العسكرية فتركها برمتها على ما كانت عليه وقت المهدى ، ولم يحدث فيها سوى تحسينات يسيرة بوصفه قائد الجيش الأعلى ؛ وكانت دعامة جيش الموحدين ، على نقيض جيش المرابطين ، ترتكز إلى قوة المشاة ؛ وكان تقسيم الجيش كله ، يجرى حسب الطريقة الجرمانية القديمة ، على نظام العشريات ؛ ولكل وحدة قائدها الخاص ؛ وكانت الصفوف تكتسب على هذا النحو براعة فى حركاتها وتحولاتها ، إذ كان الجند والقادة على جانب عظيم من المران ؛ وكان المشاة من جند الموحدين يحشدون بالأخص من القبائل البربرية ، ويحملون حراباً طولها اثنتا عشرة قدماً ، وتسمى « الأمراس » ، يلقونها فى وجوه أعدائهم بمنتهى العنف .

وكان إنشاء جيش الموحدين يقوم على عناصر مختلفة من الجند ؛ وكانت نواة الجيش تتألف من الجند النظاميين والحرس ، وهم نخبة بارعة فى جميع ضروب

القتال ؛ وكان الحرس يتألف من العبيد ومن رجال القبائل ؛ وفى أواخر أيام دولة الموحدين أنشئ أيضاً حرس من الأندلسيين ، وحرس من الأسبان . أما باقى الجند النظاميين فكانوا من الذين يجب على القبائل المغربية أن تقدمهم إلى الخدمة العسكرية وفقاً لنظام خاص ، وكانوا يدربون على الفنون العسكرية زمناً طويلا ؛ وإلى جانب هذه الجنود النظامية التى كان يزودها الأمير بالسلاح ، وتعنى الدولة بالإنفاق عليها ، كانت القبائل عند ما تنشب الحرب تقدم نصيبها من المشاة والفرسان والسلاح والمؤن ؛ وعند ما تنشب حرب الجهاد ضد الأسبان النصارى كان يدعى المتطوعون إلى القتال فى سبيل الله ؛ وكانت هذه الجنود المختلفة تحارب فى المعركة ، تفرق بينها أعلامها المختلفة الألوان والأشكال ، ولكن بحيث يتخذ قوادها بالاتفاق مع القائد الأعلى نفس الأماكن التى خصصت لهم من أمير المؤمنين .

وكان كل ما يتعلق بالحرب ينظم تنظيما دقيقاً ؛ وكان النظام الصارم يسود أثناء السير وفى المعسكر ؛ ولما كنا قد تحدثنا فيما تقدم فى تاريخ عبد المؤمن عن نظام السير لدى الموحدين ونظام إقامة المعسكر ، فانا نكتفى بالإحالة عليه اتقاء التكرار[1] .

وكانت تتخذ قبل الإقدام على خوض المعركة عدة إجراءات ، فيعقد عادة مجلس حربى ، يبحث فيه أمير المؤمنين — أو القائد الأعلى فى غيبته — مع قواد الوحدات المختلفة خطة المعركة ، ويتقرر فيه متى وأين تقوم كل فرقة بالهجوم أو الارتداد ، أو الانتظار فى المؤخرة . وكان من أهم فنون الحرب لدى الموحدين ، خدع الحرب ، ولم يشتبكوا فى موقعة ما دون أن يدبروا فيها نوعاً من الكمين لأعدائهم ، كأن يتصنعوا الفرار ونحو ذلك ؛ وكانوا يستطلعون على يد عيونهم وقواتهم الخفيفة كل ما يتعلق بالعدو من عدده ومواقعه وأحواله ، ثم يرتبون خططهم على أساس هذه المعلومات .

---

(١) راجع ما كتبه المؤلف عن ذلك فى ص ٥٥ و٥٦ من هذا الجزء .

ومتى استقر الرأى على خوض المعركة ، فإن أمير المؤمنين بعد أن يستعرض الجند ، وبعد أن يتم ترتيبهم للقتال ، يضرب قبته الحمراء ، يخفق عليها علمه الأبيض ، ويستحضر فرسه المطهمة ، ثم يرتدى ثوب عبد المؤمن الحربى ، ويجلس فى خيمته على درعه ، وفى إحدى يديه سيفه المسلول ، وفى الأخرى المصحف ؛ وكانت هذه نذر اقتراب المعركة .

وكان نظام المعركة يقوم عند الموحدين عادة على فكرة التربيع[1] ؛ وكل قسم من الجيش يوضع تحت إمرة قائد خاص ، ويؤلف جانباً من الزوايا الأربع لترتيب المعركة ؛ وكانت قوة الجيش الرئيسية تتألف من المشاة النظاميين ، وتوضع فى الصفوف الأولى ، وتسلح بحراب طويلة جدا ، يتقلدها الجند بأيديهم وأرجلهم ؛ ويلى هؤلاء صفوف من الجند قد سلحوا بالسيوف وتقلدوا الدروع الكبيرة المستديرة ، ثم يليهم حملة النبال والقسى ؛ وكانت قوة الفرسان تحتل المكان الأوسط من المربع ، ويخصص لها أمكنة معينة فى جميع جوانب المربع وتفتح لها مخارج سريعة ، بحيث تستطيع صفوف الفرسان أن تنطلق منها كما تنطلق من القلعة المحصورة ، ثم تعود إلى أماكنها الداخلية ، دون أن تخل بنظام المشاة ؛ ويقوم بالهجوم الأول أولئك المتطوعون الذين وهبوا أنفسهم فى سبيل الله ، تحت قرع الطبول وصوت الأبواق والقرون ، رافعين أعلامهم الخضراء ، تؤيدهم القوات الخفيفة ؛ فإذا استطاع العدو أن يرد هؤلاء وأن يتقدم حتى مواقف الجنود الموحدية النظامية ، وقف حملة الحراب أمامه كالسد الحديدى الذى لا يخترق ، واستقبل حملة القسى والنبال المهاجمين بسيل من السهام والحجارة ؛ فاذا استطاع العدو أيضاً أن يخترق صفوف حملة الحراب ، وقف أمامه حملة السيوف والدروع متأهبين لرده ، وأمكن للفرسان أن يخفوا إلى معاونتهم من الأماكن الداخلية ؛ وحتى لو استطاع العدو أن يتغلب على القلب والجناحين ، ولاح له بعد احتلال الأماكن الداخلية أنه قد أحرز النصر ، فى الإمكان أن

(١) راجع الحلل الموشية ص ٩٨ ؛ وقد أشير إلى هذا النظام فى الجزء الأول ص ٢٠٩ .

تستمر المقاومة ؛ وحينئذ تتقدم قوات الضلع الرابع من المربع ، وهى الاحتياطى المكون من صفوة الجند ، ولا سيما جند الحرس الخاص ، ويقودها للقتال أمير المؤمنين بنفسه ، وكثيراً ما كانت تحرز النصر بشجاعتها وخبرتها ؛ وكانت هذه القوات تمتنع أحياناً داخل دائرة من السلاسل الحديدية ، تبرز منها الحراب الطويلة ، فتثخن بذلك فى العدو قتلاً ؛ ولما كانت قوة الجيش الرئيسية لدى المرابطين والنصارى الأسبان تتألف من صفوف الفرسان الثقيلة ، فقد كانت هذه الطريقة فى ترتيب أوضاع المعركة ، تفيد أيما فائدة فى رد العدو الذى يتفوق فى قوى الفرسان .

وكان الموحدون يتفوقون كثيراً على المرابطين فى فن الحصار ، وكانت أمنع المدن تتحطم أمام آلات الحصار والقذف التى يستعملونها ؛ وكان عبد المؤمن بنوع خاص أستاذاً فى هذا الفن الحربى ؛ وكان يستعين بتأييد العناصر ، حيثما عجزت شجاعة الجند وآلات الحصار ؛ ففى حصار فاس التى قاومت أسوارها المنيعة كل جهوده ، استعان على إسقاطها بمياه النهر ، وذلك بأن سلطها على المدينة بعد أن حجزها حيناً فى خزانات كبيرة ، ثم أطلقها فجأة فى مجارى صناعية على أسوار المدينة ؛ وأحرق وأسقط أبراج وهران بواسطة نار محرقة يؤيدها قصف الآلات ؛ وافتتح المهدية بوسائل مماثلة ؛ وحطم جدرانها التى بلغ من سمكها أن كان يسير عليها فارسان متجاوران ؛ واستطاع الموحدون أيضاً الاستيلاء عنوة على مراكش وذلك بالرغم من قلاعها المنيعة وسكانها الكثيرين ؛ واستولى الموحدون فى الأندلس على كثير من القلاع ، حسبما ذكرنا فى سياق تاريخهم ؛ وسقط فى أيديهم كثير من القلاع الواقعة فى أصعب المنحدرات والمفاوز الجبلية وذلك بفضل آلات حصارهم المنيفة التى كانت تقذف كتلاً هائلة من الحجارة ، وكرات ملتهبة من الحديد . وليس فى وسعنا أن نقول بطريق التحقيق أن هذه الآلات كانت مدافع ، وإن الموحدين كانوا قد عرفوا البارود يومئذ ؛ بيد أنه يحتمل أن تكون هذه هى الحقيقة . ذلك أنه لم يمض قليل على ذلك ، أعنى فى

أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر ، حتى شاع بين مسلمى إفريقية استعمال الآلات القاصفة التى تقذف الكرات الملتهبة ؛ ووصف هذه الآلات لايدع مجالا للشك فى أن هذه الكرات كانت تقذف بواسطة البارود .

كذلك كان للموحدين قوة بحرية لا بأس بها ؛ فضرورة الاتصال الدائم بين إفريقية واسبانيا ، ونقل مئات ألوف الجند إلى شبه الجزيرة كانتا تحتمان الاحتفاظ بأسطول نقل ؛ بيد أن أمراء الموحدين كانوا إلى جانب ذلك يحتفظون بأسطول حربى ؛ وقد افتتحوا الجزائر الشرقية وكثيراً من الثغور الواقعة على البحر بمعاونة أسطولهم ؛ وفى عهد يوسف أبى يعقوب ، نشبت عدة مواقع بحرية بين الموحدين والقطلونيين على مقربة من طرطوشة ، وأحرز أمير البحر الموحدى كثيراً من ضروب التفوق . وفى حصار المهدية التى كان يحتلها النورمانيون اصحاب صقلية ، قدم من صقلية أسطول نصرانى من مائتى سفينة ليحاول إنقاذ المدينة فهاجمه أمير البحر الموحدى عبد الله بن ميمون ، وكان لديه أسطول كبير من السفن الأندلسية والمغربية ، ونشبت بين المسلمين والنصارى معركة بحرية كبيرة ، لم تغن فيها براعة النورمانيين فى البحر شيئاً ، وأحرز المسلمون عليهم نصراً باهراً ، وأحرقوا وأغرقوا جانباً من سفنهم واستولوا على جانب آخر منها .

وكان عبد المؤمن قد وضع حدود الولايات والمناطق المختلفة ، وفرض على كل منها الضرائب المناسبة لحالتها وثروتها ومحاصيلها ، وكذلك ما يجب أن تقدمه كل منها من الجند من مختلف الأصناف سواء فى حرب الجهاد المقدسة ضد النصارى أو فى مقاتلة أى عدو آخر من أعداء المملكة . وكان ينظر فى ذلك إلى عدد السكان وحالة المكان ؛ فثلا كانت مراكش تقدم أربعمائة بحار وثغرها مائة وخمسون ، وتقدم كل من طنجة وسبتة . ومرسى عريف ووهران ومرسى حنين مائة بحار ، وتقدم الأندلس ثمانمائة ؛ وكانت قبيلة كومية وحدها وهى من بطون زناتة تقدم عشرين ألف فارس ، وذلك لشهرتها بتربية الخيل ؛ كذلك كان يحدد نصيب كل منطقة ودائرة من السلاح عدداً وصنفاً ، وعدد الخيل ودواب

الحمل والجمال ؛ وكانت تقام مصانع السلاح فى مختلف أنحاء المملكة ، وتصنع فيها السهام والسيوف والحراب والدروع وغيرها من أدوات الهجوم والدفاع .

وأنشئت المدارس الحربية لكى تحفظ الروح العسكرية بين الموحدين وتعاون على إخراج القادة الأكفاء والمحاربين البواسل ؛ وكان يجمع لها الفتيان بالألوف وبالأخص من قبيلة مصمودة ، وتراعى بينهم وحدة السن ، فيدرسون آثار المهدى وتعاليمه ويحفظونها عن ظهر قلب ، ثم يتدربون على استعمال جميع صنوف السلاح وفنون الركوب والسباحة ، ويدرسون كل مايتعلق بالحصار والبحر والقتال ؛ وكانوا يتبارون فى السباق ، ورمى الحراب ، والقتال بالقوس والدروع ، والركوب ، والسباحة ؛ وكانت تقام بجوار مراكش بركة ، وضعت فيها القوارب والأفلاك وسفن الحرب الصغيرة ، وفيها يتعلم الطلاب التجديف ، وقيادة السفن ، وكل ما تتطلبه الحرب البحرية من فنون ومهارة ؛ وكان هؤلاء الفتيان الذين يسمون بالحفاظ يعرضون من وقت إلى آخر أعمالهم وبراعتهم أمام أمير المؤمنين ؛ ويخص أولئك الذين يمتازون منهم بالبراعة والجرأة والعزم وحضور البديهة بجوائز الأمير وصلاته ، أو يتلقون منه ثناءه ومديحه فى عبارات مشجعة ، فكان ذلك يذكى همم الفتيان للحظوة برضى الأمير وعطفه ؛ وكان التعليم فى هذه المدارس الحربية على نفقة الحكومة ويمنح الطلاب الخيل والسلاح مجاناً ؛ وكان يتخرج فيها بين أولئك الحفاظ معظم القواد ، وحكام القلاع ، وكبار الضباط .

وهناك كثير من الدلائل تؤيد أن الجند النظاميين الموحدين كانوا يتقاضون مرتباً ؛ وذكر بعض المؤرخين المسلمين أن بعض الأمراء كانوا يهبون الجند كثيراً من المال لكى يكسبوهم إلى جانبهم .

وفيما يتعلق بإدارة المملكة التى أمر عبد المؤمن بمسحها جميعاً من حدود الصحراء إلى جبال سيارا مورنيا (جبل الشارات) فى اسبانيا ، ومن المحيط الأطلنطى إلى الحدود المصرية ، فقد رأى أمير المؤمنين عبد المؤمن نزولا على رغبة أشياخ القبائل ، أن يقسم إدارة الولايات بين أبنائه الأمراء (السادة) على أن تكون

هذه الإدارة وراثية فى عقبهم ؛ وكان يقوم بالعمل إلى جانب هؤلاء السادة نفر من الحكام (النواب) والوزراء يتوارث أبناؤهم وأقاربهم مناصبهم أيضاً ؛ وكانت هذه الولايات أو الإمارات تقسم إلى دوائر ، لكل دائرة حاكمها أو قاضيها الخاص ؛ فمثلا كانت ولاية بلنسية تشمل دوائر شاطبة ودانية ومرسية والجزائر الشرقية ؛ وكانت ولاية قرطبة تشمل دوائر بياسة وجيان وأبده وأندوجار وغيرها ؛ وولاية إشبيلية تشمل دوائر الغرب وشريش وشذونة وأستجة وقرمونة ومالقة ؛ وولاية غرناطة تشمل دوائر المرية ووادى آش والمنكب وغيرها . وكانت الضرائب تفرض على الولايات وفقاً لحالة السكان وتربة الأرض ، وكذلك وفقاً لخصبها وإنتاجها ونوع الإنتاج وثروتها من الدواب ؛ وكان من المتبع عند جلوس الخليفة الجديد أن تترك المكوس المتأخرة ، وأن يوزع بيت المال مبالغ كبيرة على الفقراء ؛ وكان المشرف على بيت المال والمدبر لأموال الدولة يلقب بوالى الخزانة . وكان الوزراء ورجال البلاط والحشم يتقاضون مرتباتهم من الخليفة ، وكذلك يتناول القضاة والفقهاء من الخزانة الموحدية جرايات منتظمة ، وكثيراً ما كانت تزاد هذه الجرايات فى عهد الأمراء الأجواد ، وكانت جميع المنشآت العامة مثل المساجد والحصون (القصبات) والقصور والأبراج وجسور الماء والشوارع والقناطر ، والمستشفيات والملاجئ ينفق عليها من خزانة الدولة ؛ وكذلك يتقاضى الأطباء والمرضون فى المستشفيات مرتباتهم منها ؛ وكان الدخل يتكون فى مملكة الموحدين ، فضلا عن الضرائب العامة ، من محصول الذهب والفضة المستخرج من مناجم إفريقية والأندلس ، ومن الغنائم التى تؤخذ فى الحرب ، حيث كان للخليفة وفقاً للشريعة الإسلامية أن يتقاضى منها الخمس . وقد كان هذا الدخل عظيما بلا ريب ؛ يدل على ذلك ما قام به الخليفة يوسف أبو يعقوب وولده المنصور فى المغرب والأندلس من الأبنية العظيمة من متحصل المناجم وغنائم الحرب . وكان المنصور سيئ الأداء بالنسبة للقائمين بشأن البناء ؛ وقد كان هؤلاء يضطلعون بنفقات البناء ، بيد أنهم قلما كانوا يصبرون على هذه النفقات نظراً لضخامتها ؛

ذلك لأن حقوقهم كانت تؤدى ببطء ، وقلما كانوا يجرأون على المطالبة بها ؛ فاذا وفقوا إلى تقديم مطالبهم برفق ولباقة وفى الوقت المناسب ، ألفوا قبولا من الخليفة وأداء سريعاً .

ولما أخذت مملكة الوحدين فى الاضمحلال عقب موقعة العقاب فى عهد حكومة المستنصر الضعيفة ، واستطاع الولاة (السادة) من أعضاء الأسرة الملكية أن ينشئوا لأنفسهم حكومات مستقلة ، عمدوا إلى تنظيم الإدارة والمناصب وإجراء العدالة وفقاً لأهوائهم ؛ فكان القاضى أو الوالى لايستطيع الاحتفاظ بمنصبه إلا إذا لم يتقدم آخر إلى إحراز هذا المنصب بدفع ثمن أكبر مما دفعه هو . ذلك أن المناصب كلها غدت سلماً تباع وتشترى ، وعكف الوظفون الذين جروا على شراء مناصبهم بالمال الطائل ، بدلا من تحقيق العدالة والنظام بين الناس ، على امتصاص دمائهم بشراهة ؛ فكان هذا من العوامل التى عجلت بسقوط دولة الوحدين .

٣ — لمحة عن حضارة الأندلس
فى عهد المرابطين والموحدين

ظهر المرابطون من بين سكان الصحراء البدو الساذجين ، فكانوا أعداء لكل حضارة عربية ؛ ومن ثم كانت حكومتهم كريح الصحراء اللافح حين يهب على الفياض النضرة ، تعمل لتحطيم جميع العلوم والفنون والصنائع التى وصلت فى ظل السيادة العربية فى الأندلس إلى ذروة التقدم والازدهار ؛ وكان أولئك الحكام القساة يمقتون القبائل العربية وثقافتها ، ويعملون على سحق هذه الثقافة بكل ما وسعوا ؛ فكانوا يطاردون العلماء الذين ينحرفون عن معتقداتهم ويحرقون كتبهم ، ويعملون بالأخص على تحطيم الروح الشعرية الأندلسية التى كانت تجد متعتها فى قريض الفروسة والقصص المفرق . وكانت قراءة هذه الكتب تحظر ويعاقب قارئها بأشد العقوبات ، وتعدم أينما وجدت ؛ وكانت المعاهد والمدارس

والمكتبات تتناقص شيئاً فشيئاً ، وكان قيام البقية الباقية منها يرجع إلى أن سيادة المرابطين لم تطل بعد القضاء على الأسر الملكية فى الأندلس أكثر من نصف قرن ، وإلى أن الأواخر من ملوك المرابطين قد غمرهم سحر التمدن دون أن يشعروا فكفوا عن مطاردة الحضارة والثقافة العربيتين ، ومالوا إلى مصادقة الشعراء والعلماء ، ولاسيما أولئك الذين شادوا فى نظمهم ونثرهم بمديح حكومتهم وغزواتهم . على أن سيادة المرابطين كان لها من جهة أخرى أثر حسن فى تكييف روح الشعب الأندلسى ، فقد حلت فى ظلها مكان الفروسة المائعة ، والملاهى الناعمة ، والدعابة المصطنعة ، والفتور النسوى : روح حربية قوية ، واعتدال متقشف ، وذكاء فطرى ، ورجولة متينة .

ولقى فن العمارة ، الذى يهواه أغلظ الطغاة لدى المرابطين قبولا وتشجيعاً ؛ بيد أنه لم يصل فى ظلهم إلى ما وصل إليه فى عهد أسلافهم ، أو عهد أخلافهم الموحدين ؛ وعنى ملوك المرابطين بالأخص بإنشاء المساجد العديدة ذات الأبراج العالية ، وإنشاء الأسوار القوية حول المدن ، والقلاع المنيعة (القصبات) ، والقصور الشاسعة ؛ وكانوا يراعون فى جميع منشآتهم العناصر الضرورية قبل عناصر الفخامة والجمال . وقد أنشأوا مع ذلك بعض أبنية من المرمر ذات حدائق غناء ، وفساقى بديعة ؛ على أن هذه المنشآت الفخمة كانت دائماً قليلة نادرة بحيث عنى المؤرخون بذكرها عناية خاصة .

ولم يكن الموحدون أيضاً من حماة العلوم والحضارة ؛ وقد نشأوا أيضاً فى مهاد القبائل العسكرية الساذجة ؛ بيد أنهم لم يبدوا من الغلو فى مطاردة الثقافة مثل ما أبداه أسلافهم ؛ وقد أبطلوا مطاردة القبائل العربيـة ، وأباحوا دراسة تعاليم الفيلسوف الغزالى بعد أن حظرت فى عهد المرابطين ، وأباحوا قراءة كتبه وغيرها من الكتب المحظورة ، وأطلقوا حرية العلوم والفنون ؛ ولما وقفوا على أسرار الحضارة العربية التى أخذت تنهض من جديد ، غدوا من حماتها ، وعنوا بتشجيع بعض أصناف العلوم ونشرها ؛ وازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة فى نفس

الوقت فى جميع أنحاء المملكة ، وغمرت الشعب موجة من الرخاء ؛ وهو من العناصر المشجعة للتقدم العقلى بين الشعوب ؛ وازدهرت الزراعة فى الأندلس بنوع خاص ، وعولجت بالأساليب الفنية ، وتقدمت زراعة الفاكهة ، وكانت تزرع فى ولايتى بلنسية وإشبيلية بالأخص مساحات كبيرة من قصب السكر ؛ وتنمو حول مدينة إشبيلية غابات كبيرة من الزيتون ، وبالقرب منها نحو مائة ألف معصرة لاستخراج الزيت ؛ وكانت الترع تخترق جميع أرجاء ولاية بلنسية وتروى أراضيها ؛ وكانت تقوم إلى جانب مصانع السلاح المديدة ، مصانع مختلفة أخرى ولاسيما مصانع الصناعات الجلدية فى قرطبة ، ومصانع الورق فى شاطبة ؛ وقد عرف ورق الكتان فى اسبانيا منذ القرن الثانى عشر ، وكتبت معاهدة صلح عقدت فى سنة ١١٧٨ م بين الفونسو الثانى ملك أراجون والفونسو ملك قشتالة على ورق من هذا النوع ؛ وكانت التجارة تزدهر أيما ازدهار فى ثغور المرية ، وبلنسية ، ودانية ، ومالقة ، وإشبيلية .

وكانت المعاهد والمدارس التى أسست فى مراكش وفاس ترمى بالأخص إلى تخريج الجند البارعين أكثر مما ترمى إلى تخريج العلماء ، بيد أن العناية فى هذه المؤسسات لم تكن تقتصر على تربية الأجسام وتدريبها على فنون الحرب وحمل السلاح ، بل كانت تشمل تثقيف العقول ، وتزويدها بالمعارف الضرورية ، وتعاليم المهدى الدينية ؛ ثم كانت تنشأ معاهد خاصة بالعلماء ، وتميز طوائفهم وفقاً لمختلف الدرجات والكفايات ، ويمنحون مختلف الهبات والصلات ؛ وفى ذلك كله مايدل على أن الموحدين كانوا يعنون بنواح أخرى غير الحرب وأنهم كانوا يشجعون العلوم والفنون ؛ بيد أنه لا ينكر أن ملوك الموحدين كانوا يعنون قبل كل شىء بالعلوم والفنون الضرورية التى يمكن الانتفاع بها فى الحياة بسهولة ، أكثر من عنايتهم بالعلوم النظرية الخالصة ، فتراهم مثلا يشجعون الطب والأطباء ، ويرفعونهم أحياناً إلى مرتبة الوزارة ، وينشئون المستشفيات للمرضى وذوى العاهات والعمى والعرج والضعفاء ، وينشئون

الشوارع والقناطر ؛ وفى البقاع المنعزلة القليلة السكان ينشئون الفنادق وأحواض الماء والآبار لينتفع بها السابلة ، ويحصنون الحدود ، ويزودون المدن بالقلاع والمساجد والثكنات والمخازن وجسور الماء .

وابتنى عبد المؤمن من الأموال التى غنمها من المرابطين عدة أبنية فخمة فى مراكش ؛ وكان من بين المساجد والمعاهد التى أنشأها المسجد الجامع الذى يتبع القصر ، وهو من صنع المهندس الشهير « الأحوص » المالق ، وقد أنشأه على أبدع طراز وفن ؛ وكان بهذا المسجد مخارج وأروقة بديعة الصنع ، وممرات سرية تمتد خفية إلى القصر ، بحيث يستطيع أمير المؤمنين أن يزور المسجد وأن يغادره دون أن يراه أحد . وكان منبر هذا المسجد قطعة فنية رائعة ، صنع من خشب الصندل الأحمر والأصفر ، وصنع كل ما فيه من إطارات ومزالج ومقاطيع ومسامير من الذهب والفضة صناعة فائقة ؛ وكانت المقصورة التى يجلس بها أمير المؤمنين أثناء صلاة الجمعة ذات تركيب عجيب ؛ فقد كانت حسب أقوال المؤرخين المسلمين تسع نحو ألف شخص ، وكانت تتحرك بواسطة عجلات ثبتت فى أسفلها ، ولها ستة أذرع أو جوانب تمتد بواسطة مفاصل متحركة ؛ وقد صنعت هذه العجلات والمفاصل بحيث لا يترتب عليهما عند تحريكها أقل صوت ، بل تدور جميعاً فى أتم سكون ، ونظمت الحركات بطريقة هندسية دقيقة بحيث تتحرك جميعاً فى وقت واحد متى رفع الستار عن أحد البابين اللذين يدخل منهما أمير المؤمنين إلى المسجد عند صلاة الجمعة ؛ وكانت المقصورة تبرز من جانب ، ويبرز المنبر من الجانب الثانى ، وتلتف الجوانب فى نفس الوقت حول مجلس أمير المؤمنين ، كذلك نظم المنبر بحيث يفتح بابه متى صعد إليه الخطيب ، ويغلق من تلقاء نفسه متى اتخذ الخطيب مكانه ، وذلك كله دون أن يسمع أو يرى أثر لهذه الحركات ، كذلك نظمت أبواب المقصورة على هذا النمط ذاته .

وأنشأ عبد المؤمن فى ظاهر مراكش حديقة غناء تبلغ مساحتها ثلاثة أميال مربعة وغرس فيها أطيب الفواكه وأندر الغراس وأكثرها تنوعا ؛ وكان الماء

يجلب إليها من أغمات ، وقد صنعت فيها عدة فساقى بديعة ؛ وكان إيراد أشجار الزيتون يقدر وحده فى كل عام بثلاثين ألف دينار موحدى .

وأنشأ فى تونس ، فى أعلى مكان منها ، حصناً ذا أبراج جميلة ، مثلثة الزوايا ، وأقيمت بين المدينة والحصن عدة مدارس ومعاهد ؛ وأوصل الماء الحلو من رباط الفتح إلى سلا بواسطة قنطرة مائية ؛ وأراد أن يخلد ذكرى زعيم من زعماء القبائل افتداه بحياته فى مؤامرة دبرت لقتله ، فابتنى له مدفناً عظيما ، وأمر أن تأتى عشر أسر من كل قبيلة مغربية إلى هذا المكان وتبنى حوله مدينة جديدة سميت بالبطحاء وغدت مزاراً يحج الناس إليه من كل فج[١] . كذلك أتم عبد المؤمن تحصين جبل طارق ، وأشرف على إتمامها الأحوص المهندس الفنان .

وكان يوسف ولد عبد المؤمن أيضاً من عشاق البناء ؛ وفى عهده أنشئ فى مارتله برج شاهق العلو ؛ وعنى بالأخص أن ينشىء فى إشبيلية عدة أبنية عظيمة منها مسجد فخم وإلى جانبه عدة مدارس ومعاهد ، ومنها قنطرة من السفن على نهر الوادى الكبير ، ثبتت فيها السفن معا بالسلاسل ، ومخازن كبيرة ، وأسواق للفاكهة ، ورصيف بطول النهر ، ومراسى للتفريغ زودت بالدرج ؛ كذلك أنشأ قنطرة مائية تمد إشبيلية بماء الشرب ؛ وعنى عناية خاصة باستغلال مناجم الذهب والفضة فى إفريقية والأندلس ، وكان منها مناجم غنية جدا فى مدينة جيان.

وكان يعقوب المنصور ولد يوسف أشد منه شغفاً بالأبنية الفخمة ؛ وقد ذكر المؤرخون المسلمون بين المنشآت العديدة التى أمر بإقامتها عدة ؛ منها فى مراكش مساجد بأبراج عالية وقصور ذات حدائق غناء ، وحصن ذو أبراج عالية ، ومنها مدينتان جديدتان إحداهما بجوار سلا ، وهى رباط الفتح ولها مسجد فخم ، والأخرى فى الأندلس على نهر الوادى الكبير وتسمى حصن الفرج ؛ وأتم المنصور مسجد إشبيلية الكبير ذا المنارة العالية ، وزود برجه بزر ضخم ؛ وكان هذا الزر من الضخامة بحيث اقتضى الأمر توسيع الباب الذى أدخل منه ؛ وكانت الأعواد

---

(١) راجع ص ٥٩ من هذا الجزء .

الحديدية التي تحمله تزن أربعين ربعاً ، وصنعها ورفعها إلى أعلى المنارة المعلم أبو الليث الصقلي ، وموهت تلك التفاتيح بما قيمته مائة ألف دينار ؛ وسمى هذا البرج فيما بعد بالجيرالدا Giralda ، وكان يستعمل في الوقت نفسه مرصداً لرصد النجوم[1] ؛ ورفع الزر الضخم إلى قمة المنارة بطريقة فنية استعملت فيها الآلات ، وذلك بإشراف الرياضي والفلكي الشهير جبر الذي ينسب إليه اكتشاف الجبر خطأ ؛ وابتنى محمد ولد المنصور حول مدينة فاس أسواراً جديدة ، وكان عبد المؤمن قد هدم أسوارها وزودها بقلعة ضخمة ، وأنشأ في كثير من المدن الأخرى تحصينات قوية ؛ وأنشأ في مراكش مسجداً فخماً في مكان منعزل قليل السكان ، وأمر سكان الأحياء المجاورة أن يصلوا فيه وأن يغلقوا المساجد التي في أحيائهم ، وزود الحي الذي يقطنه الأندلسيون بماء الشرب بواسطة قنطرة مائية ، وأنشأ المأمون قبل أن يمتلى العرش ، وقت أن كان والياً لإشبيلية في ثغر مالقة قصراً عظيماً سمى بالقصر السعيد .

أما فيما يتعلق بالعلوم ، وهى التي استؤنفت في عهد الموحدين ، فقد كانت المعاهد المغربية في مراكش وفاس وتونس ، والمعاهد الأندلسية في إشبيلية وقرطبة وغرناطة وبلنسية ومرسية يومئذ مجمع العلوم والمعارف التي كانت ذائعة في ذلك العصر ؛ وكان على رأس هذه المعاهد عمداء ، كان منهم بعض اليهود الذين أبدوا في العلوم براعة خاصة في ظل الموحدين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ؛ وكانت هذه المعاهد تقدم إلى الطلاب كتباً دراسية في كل العلوم لتكون لهم مقدمة وتمهيداً ، وكانت المحاضرات تفتتح وتختتم بالاحتفالات والخطب ؛ ويؤدى الطلبة بعد إتمام الدراسة امتحاناً في مختلف العلوم ؛ وكانت هذه المعاهد كلها مزودة بالمكتبات ، ولا يزال يوجد إلى اليوم في مكتبة الاسكوريال فهرس للكتب والمؤلفات التي كانت موجودة في معاهد غرناطة في أوائل القرن الثالث عشر .

وإذا استثنينا المؤلفات التي تعنى بالثقافة العربية أو الأندلسية المحضة والتي لم يكن لها تأثير في سير الحركة العقلية الأوربية ، مثل كتب الدين والفقه واللغة

(١) راجع روض القرطاس ص ١٥١ . وكذلك الهامش في ص ٨٨ من هذا الجزء

والبلاغة والشعر ، التى كتبت فى الأندلس فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، والتى عرفنا من بعضها أجزاء كاملة كما عرفنا محتويات البعض الآخر وذلك بالأخص من مؤلف العلامة الغزيرى[1] ، فانه يبقى علينا أن نتحدث عما أداه الأندلسيون والمغاربة فى عهد المرابطين والموحدين ، فى الفلسفة والرياضة والعلوم الطبيعية والتاريخ ؛ ولا بد لنا هنا أن نذكر الكتاب اليهود المعاصرين ، وهم الذين كتبوا عن آثارهم الدينية وعن اللغة العبرية ، كما كتبوا عن الفلسفة والعلوم الطبيعية والطب ، وذلك لأنهم وضعوا مؤلفاتهم باللغة العربية أو تلقوا دراساتهم بالأخص فى المعاهد العربية أو تولوا التدريس فيها .

فمنذ القرن الحادى عشر وضع يهوذا شويج الفاسى قاموساً عبريا ، ومباحث قيمة عن الإنشاء والترقيم فى اللغة العبرية ، لم يطبع منهـا شىء حتى وقتنا ، وفى القرن الثانى عشر ازدهرت المباحث العلمية اليهودية فى اسبانيا بنوع خاص ، وكتب الربّن يهوذا لاوى المتوفى سنة ١١٥٣ م عن الحقيقة والإلهيات فى الدين اليهودى ، ووضع ابن عزرا الطليطلى المتوفى سنة ١١٦٧ م ، والمسمى بالحكيم الكبير ، شرحا لفظيا لنصوص كتب العهد القديم ، وكتب عدة مؤلفات فى النحو والفلسفة والفلك والطب ، ولم يطبع من كتبه الطبية سوى القليل ؛ واشتهر آل كمخى ، وهم يوسف الأب ، وكان موجوداً نحو سنة ١١٦٠ م ، وابناه موسى وداود اللذان عاشا فى أواخر القرن الثانى عشر ، بشروحهم للعهد القديم والأجرومية العبرية ، على أن أشهر مشاهير الكتاب والعلماء اليهود هو الرّاب موسى بن ميمون القرطبى المولود سنة ١١٣٩ م والمتوفى سنة ١٢٠٥ م ، وهو علامة ضليع تولى التدريس فى جامعة إشبيلية ، ثم عين طبيباً للسلطان صلاح الدين ، ثم عميداً لأحد معاهد الإسكندرية ، ثم عميداً لأحد معاهد القاهرة ،

---

(١) مؤلف الغزيرى Casiri المشار إليه هنا ، هو الفهرس الذى وضعه الغزيرى اللبنانى فى أواخر القرن الثامن عشر باللاتينية للكتب العربية الموجودة فى قصر الأسكوريال بعنوان « المكتبة العربية الاسبانية Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis » وصف فيه محتويات هذه الكتب وأتى على ملخصات الكثير منها .

وبها توفى ، وكتب ابن ميمون مؤلفات عديدة فى جميع العلوم تقريباً ، ولكن لم يطبع منها سوى القليل ؛ وهى تتناول بالأخص شرح الكتب الدينية اليهودية والطب والفلسفة ؛ وقد أرغمه القرار الذى أصدره عبد المؤمن — مهدداً اليهود بالموت ومصادرة الأملاك — على أن يعتنق الإسلام فى الظاهر ؛ بيد أنه سرعان ما انتهز الفرصة للسفر إلى مصر ، وهنالك اشتغل حينا بالمتاجرة فى الأحجار الكريمة .

وازدهرت الفلسفة بالأخص فى معاهد الأندلس ؛ وكانت العلوم الطبيعية والرياضية ترتبط بالفلسفة عادة ؛ ومنذ النصف الأول من القرن الحادى عشر نبغ أبو على الحسين بن سينا[١] المتوفى سنة ١٠٣٧ (٤٢٨ هـ) فى الفلسفة والطب .

وكتب أبو حامد محمد الغزالى الطوسى المتوفى سنة ١١١٩ م (٥١٣ هـ) عدداً عظيما من الكتب واشتهر بالأخص بكتابه «تهافت الفلاسفة» ، وأفتى جميع معاهد الأندلس والمغرب باشارة سلطان المرابطين بأن هـذا الكتاب يحتوى على آراء إلحادية ، ومنعت قراءته وأحرقت نسخة أينما وجدت[٢] ؛ ولكن مؤسس دولة الموحدين (المهدى) أعاد مكانة أعظم فلاسفة الإسلام الدينيين فى المغرب إلى ما كانت عليه ، بل عادت أعظم مما كانت فى أى وقت ، وذلك بالرغم من أن كثيراً من علماء الأندلس كانوا يخالفون آراء الغزالى ؛ بيد أنه من الأسف أن مؤلفات هذا المفكر العظيم الذى تحتل كتبه وحدها حيزاً عظيما فى الآداب العربية لم ينشر منها سوى القليل[٣] .

وكان أبو جعفر بن الطفيل الأشبيلى المتوفى سـنة ١١٧٦ م (٥٧١ هـ) أوفر

(١) يسمى الأفرنج ابن سينا Avicenna كما هو معروف وسوف نثبت الأسماء الأفرنجية لأولئك العلماء فى نهاية الكتاب مع مقابلها العربى .

(٢) هذا ما ذكره المؤلف ولكن الحقيقة أن كتاب الغزالى الذى منع وصودر بالأندلس والمغرب فى عهد المرابطين هو كتاب إحياء علوم الدين (راجع الحاشية فى ص ١٩٦ من الجزء الأول) .

(٣) كتب المؤلف ذلك منذ نحو قرن . أما اليوم فان عشرات من مؤلفات الغزالى قد طبعت غير مرة ، وهى ذائعة فى جميع أنحاء العالم الإسلامى .

حظا ، فقد طبعت رسالته الشهيرة « حي بن يقظان » بنصها العربي ، وطبعت ترجمتها اللاتينية والألمانية ، وحازت إعجاب المفكر العظيم لايبنتز[١] ؛ وهي قصة صبي ترك وحيداً في جزيرة منعزلة ، واستطاع بواسطة التأمل وحده أن يؤمن بوجود الخالق وأن يتعرف قوانين الطبيعة .

واشتهر أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد بالأخص من بين الفلاسفة الأندلسيين الذين استطاعوا بتراجمهم وشروحهم وتعليقاتهم أن يمهدوا لدراسة الفلسفة اليونانية ولاسيما فلسفة أرسطو بين المفكرين المسلمين ؛ وقد ولد بقرطبة وتوفي سنة ١١٩٨ م (٥٩٤ هـ) ؛ وكان كثير الكتابة متضلعاً في علوم كثيرة ؛ وقد تفوق بنوع خاص في الطب والفلسفة ؛ ومن مؤلفاته التي طبعت وذاعت شرحه القيم لفلسفة أرسطو ، وشرحه لجمهورية أفلاطون (وهو فيلسوف لا يميل إليه المفكرون المسلمون على العموم) ، ورده على كتاب الغزالي « تهافت الفلاسفة » بكتاب سماه « تهافت التهافت » . كذلك يحتل ابن رشد المقام الأول بين علماء الأندلس في علم الطب ، ولاسيما من أجل نظرياته الطبية التي يحاول أن ينوه فيها بالفروق القائمة بين تعاليم أرسطو وتعاليم جالينوس ، وأن يدافع عن نظريات الأول ضد نظريات الثاني[٢] .

وإلى جانب مشاهير الأطباء مثل أبي بكر بن زكريا الرازي ، وابن سينا وابن ميمون مؤلف « مختصرات جالينوس » وماسويه بن حمش الماريديني المتوفى سنة ١١٦٠ م مؤلف كتاب « الأدوية والمعالجة » ، يجب أن نذكر أبا القاسم خلف ابن عباس القرطبي المتوفى سنة ١١٢٢ م (٥١٦ هـ) ، وقد نبغ في الطب والجراحة والصيدلة نبوغا فائقاً ، واشتهر بكتبه القيمة عن الجراحة والآلات الجراحية ، وعلاج النقطة ، والأورام السرطانية ، وأمراض النساء ، وتحضير الأدوية ؛ ولم يطبع بعد كتابه الجامع في علم الطب ؛ والظاهر أنه كان عارفا باستعمال حرق الخروط القطني على الجلد ؛ وكان يستعمل عملية استخراج الحصى من القضيب بنجاح .

---

(١) لايبنتز Leibnitz فيلسوف وعالم رياضي ألماني (١٦٤٦ — ١٧١٦) .

(٢) أوردنا ترجمة موجزة لابن رشد في هامش ص ٦٥ من هذا الجزء .

واشتهر أبو مروان عبد الملك بن زهر الأشبيلى المتوفى سنة ١١٦٨ م (٥٦٤ هـ) بالأخص بقوة الملاحظة الخاصة ، وهو أوفر الأطباء المسلمين علما وبراعة ؛ ويبدو ذلك بوضوح فى كتابه « التيسير فى المداواة والتدبير » ؛ وقد شغل مدى أعوام طويلة منصب الطبيب الخاص لسلطان الموحدين أبى يعقوب .

وأما فى العلوم الطبيعية ولاسيما فى التاريخ الطبيعى ، فقد نبغ بالأخص العلامة النباتى ضياء الدين عبد الله بن أحمد بن البيطار المالقى المتوفى سنة ١٢٤٨ م (٦٤٦ هـ) وقد تولى الوزارة فى أواخر حياته لحكومة دمشق ، وسما شأنه ؛ وساح فى جميع الأقطار المعروفة يومئذ فى أوربا وإفريقية وآسيا ، وضمن نتائج دراساته وبحوثه كتابه المعروف عن ممالك الطبيعة الثلاث ، وفيه يتحدث بالترتيب الأبجدى عن خواص النبات والسموم والحيوانات ؛ ولم يطبع من مؤلفه سوى جزء صغير .

وأما فى الكيمياء — وهى فى الواقع علم ندين به كله إلى العرب — فقد قام الأطباء والعلماء الطبيعيون الأندلسيون باكتشافات هامة ؛ بيد أنه من الصعب أن نعين الأوقات التى تمت فيها هذه الاكتشافات .

كذلك يدين العالم فى الرياضيات بكثير من الفضل للعلماء العرب والأندلسيين وقد كان علم الجبر أهم ما اكتشفوه فى هذا الميدان ؛ على أن هذا العلم لا يستقى اسمه من اسم العلامة جبر الأشبيلى الذى عاش فى القرن الثانى عشر ، والذى كتب كتابا عن « الدوائر » ، ولكن يستقيه من كلمة « الجبر » العربية ، ومعناها جبر الأعداد الكسرية إلى مجموع واحد ؛ ويسمى العرب ما نسميه نحن « بالجبر » « الجبر والمقابلة » ؛ والمعروف عن ثابت بن قرة أنه كان من أعظم علماء الجبر ؛ كذلك كان ابن رشد متفوقا فى الرياضيات ، وقد وضع مختصراً لكتاب « المجسطى » لبطليموس ؛ وطبقت الرياضة أيضاً فى دراسة الموسيقى ، وعرف الأندلسيون الأنغام المسجلة « النوتات » قبل أن يعرفها مكتشفها المزعوم جيدو دى أريتسو وبذيعها فى إيطاليا .

وكان الفلك من العلوم المحبوبة عند العرب ؛ وكان الملوك ، وكذلك الأمر

المغربيـة يشجعون دراسته تشجيعاً كبيراً ؛ وكان التنجيم يرتبط بهذا العلم أيما ارتباط . وقد ابتنى سلطان الموحدين يعقوب المنصور فى سنة ١١٩٦ م (٥٩٢ هـ) فى مسجد إشبيلية الجامع برجا عالياً ليكون مرصداً ؛ ومن الواضح أنه أول مرصد بنى فى أوربا ؛ ووضع المنصور فى سنة ١١٥٧ م (٥٥٢ هـ) أزياجا فلـكية عن كسوف الشمس ، وكتب معاصره البتراجى Alpetragius المراكشى رسالة عن الأجرام ترجمت إلى اللاتينية وطبعت ، ولـكن أزياج المنصور لم تطبع .

أما كون البوصلة اختراعا عربيا فما لاشك فيه ، يدل على ذلك ما كان يستعمل من قبل من الألفاظ لوصف اتجاه الإبرة الممغنطة مثل قولهم « الشارون » للدلالة على الشمال ، و « الأفرون » للدلالة على الجنوب ، وهى ألفاظ اشتقت من العربية ؛ ولم يقتصر العرب على استعمال هـذا الاختراع فى رحلاتهم البحرية منذ القرن الثانى عشر ، بل استعملوه أيضاً فى رحلاتهم الصحراوية ؛ كذلك كان يستعمل فى الحياة اليومية لتعيين اتجاه القبلة للصلاة ، ومعرفة مواقع الجهات الأربع .

كذلك وضع مسلمو المغرب فى تلك العصور مؤلفات قيمة فى علم الجغرافيا ، وأهم هذه المؤلفات هو الـكتاب الضخم الذى وضعه الشريف الادريسى ، أبو عبد الله بن محمد السبتى الذى عاش حوالى سـنة ١٠٩٩ إلى سنة ١١٧٥ م ، (٤٩٣ — ٥٧٠ هـ) . وقد وضع الإدريسى مؤلفه فى صقلية فى سنة ١١٥٣ م (٥٤٨ هـ) بعنوان « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » . بيد أنه لم يطبع منه سوى مختصر فقط[1] ، وعمل الإدريسى أيضاً لملك صقلية روجر (رجار) الثانى كرة أرضية جغرافية من الفضة ، وقد طبع كوندى من « نزهة المشتاق » الجزء الخاص باسبانيا ، ونشر منه العلامة الألمانى هارتمان قطعاً أخرى .

---

(١) طبع مختصر نزهة المشتاق المشار إليه فى سنة ١٥٩٧ م فى رومة فى مجلد واحد ؛ ويوجد بدار الـكتب نسخة فتوغرافية غير كاملة من نزهة المشتاق ؛ وقد طبعت منـه أجزاء مختلفة ؛ وتولى العلامة المستشرق دوزى نشر القسم الخاص بالأندلس والمغرب مع ترجمته الفرنسية .

وأما فيما يتعلق بالتاريخ ، فإن عصر المرابطين لم يكن مشجعاً على كتابته ، إذ كانت حكومتهم تُخضع المؤلفات التاريخية لرقابة صارمة ، وكانت تأمر باحراق جميع الكتب التي لا تروق لها . فلما جاءت حكومة الموحدين أبدت تسامحا فى البداية وألغت رقابة المؤلفات التاريخية ، وسمحت بالكتابة عن تاريخ الدولة ؛ ومع ذلك فقد كان لزاما على المؤرخين أن يكتبوا بمعاف عن الأسرة الموحدية ، وقد هدد خلفاء عبد المؤمن المؤرخين بالموت إذا كتبوا عن حكومتهم أموراً لا تسر . ومع ذلك فانا نجد فى بعض المؤلفات الأندلسية المعاصرة أقوالا تدل على أن مؤلفيها لم يخشوا من قول الحقيقة ، وكثيراً ما ترد بها مطاعن شديدة على سلاطين الموحدين ووزرائهم ؛ ولم يطبع إلى اليوم مؤلف منها بنصه الكامل ولكن الغزيرى أورد شذوراً منها ، وترجمت أقسام كبيرة وصغيرة منها فى مؤلفى دومبى Dombay وكوندى Condé ، وإليك أهم أولئك المؤرخين :

• أبو مروان حيّان بن خلف بن حسين بن حيّان المتوفى سنة ١٠٨٦ م (٤٧٩ هـ) كتب تاريخاً للأندلس فى عشر مجلدات[١] ، ومؤلفا تاريخيا آخر فى ستين جزءاً ، وكتابه أهم المصادر بالنسبة لبداية عصر المرابطين ، ومن أهم المؤلفات التاريخية فى عصره ، ويغلب الصدق على روايته .

الحُمَيدى ، وهو أبو عبد الله بن محمد بن أبى نصر المتوفى حوالى سنة ١١٠٠ م (٤٩٣ هـ) ، وقد كتب تراجم لمشاهير رجال الأندلس ، وهو قيم بالأخص فيما يتعلق بتراجم العلماء[٢] ، وأهم منه أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال القرطبى المتوفى سنة ١١٨٣ م (٥٧٨ هـ) ، ومؤلفاته مصدر فى منتهى الأهمية لتاريخ القرن

---

(١) هو كتاب المقتبس فى أخبار أهل الأندلس ؛ ولم يصلنا منه سوى قطع صغيرة ؛ وقد طبعت إحداها أخيراً بعناية بعض المستشرقين ؛ وأما الكتاب الثانى فهو كتاب «المبين» ؛ وقد ترجم له ابن خلكان (ج ١ ص ٢١٠) وذكر أن مولده فى سنة ٣٦٧ هـ ووفاته سنة ٤٦٩ هـ

(٢) كتاب الحميدى المشار إليه هو كتاب جذوة المقتبس فى تاريخ علماء الأندلس وترجمته فى ابن خلكان (ج ١ ص ٦١٤) .

الحادى عشر وقسم من القرن الثانى عشر[1] .

أبو على بن رشيد وابن ختم ، وقد عاشا فى أواسط القرن الثانى عشر وعاصرا المهدى ، وكتبا عن قيام دولة الموحدين وحياة المهدى ، وحملا عليه صراحة ، وقد اختصرهما أبو مروان الذى عاش فى القرن الثالث عشر .

ابن الأبار القضاعى البلنسى الذى عاش فى أواسط القرن الثالث عشر ، وقد انتفع فى تاريخه عن اسبانيا بكتب المؤلفين السابقين ؛ وهو بالنسبة لتاريخ بنى هود فى سرقسطة والمرابطين والموحدين مصدر فى غاية الأهمية ؛ وقد وصف لنا أحوال دولة الموحدين فى أواخر أيامها ، وكذلك فتوح النصارى فى الأندلس ، وصف معاصر وشاهد عيان[2] .

ابن الخطيب (وهو لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد) ، وقد ولد بمدينة لوشة من أعمال غرناطة سنة ١٣١٣م (٧١٣هـ) وتوفى سنة ١٣٧٤م (٧٧٦هـ) ؛ ألف فضلا عما كتبه من المؤلفات التاريخية العديدة كتاباً عن تاريخ ملوك الاسبان ، وكتاباً آخر عن أعلام الاسبانيين وكلاهما قيم فى بابه ، وقد أورد الغزيرى منهما شذوراً فى معجمه[3] . وكان من معاصريه ابن عبد الحليم الغرناطى ،

---

(١) أشهر كتب ابن بشكوال كتاب الصلة الذى ذيل به على كتاب علماء الأندلس لابن الفرضى ، وقد تناول فيه أخبار علماء الأندلس وأعيانها حتى عصره ؛ وطبع فى مجلدين ضمن المكتبة الأندلسية .

(٢) كتب ابن الأبار المتوفى سنة ٦٥٩ هـ تكملة لكتاب الصلة لابن بشكوال ترجم فيها لأعيان أهل الأندلس وعلمائها وشعرائها ، وطبعت فى مجلدين ضمن المكتبة الأندلسية ، وله أيضاً كتاب الحلة السيراء فى تراجم بعض أعيان الأندلس منذ الفتح إلى عصره ؛ طبع بعناية المستشرق دوزى وهو قيم جداً بالنسبة لتاريخ الطوائف وتاريخ الأندلس فى القرن السادس الهجرى .

(٣) كان ابن الخطيب من أعظم وزراء الأندلس وكتابها وشعرائها فى القرن الثامن الهجرى ؛ وله ثبت حافل من المؤلفات التاريخية والأدبية ، منها كتاب « الاحاطة فى أخبار غرناطة » وهو أشهرها ، وتاريخ الدولة النصرية ؛ وريحانة الكتاب . والسحر والشعر . والكتيبة الكامنة فى أدباء المائة الثامنة وغيرها . وله رسائل وقصائد لا تحصى . وقد أفرد له المقرى صاحب نفح الطيب من مؤلفه مجلدين كبيرين ألم فيهما بكثير من أخباره وآثاره .

وقد كان مؤرخاً ذا شأن لدولتى المرابطين والموحدين ، وقد ترجم مؤلفه التاريخى عن فاس ومراكش — وهو الذى اعتمد فى وضعه على المصادر العربية فى تاريخ إفريقية والأندلس وكذلك على المحفوظات الملكية — بنصه إلى الاسبانية بعناية كوندى ، وقد نقل فيه عن المؤرخين السابقين مثل ابن حيان وغيره ، أحياناً شذوراً برمتها وأحياناً بطريق التلخيص[1].



« تم الكتاب »

(١) كتاب ابن عبد الحليم الغرناطى المشار إليه هنا هو كتاب « الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس » وهو فى الواقع من تأليف أبى الحسن على بن عبد الله بن أبى زرع الفاسى ، ونسبته إلى ابن عبد الحليم الغرناطى ضعيفة ، وقد نشر هذا الكتاب بعناية المستشرق تورنبرج مع ترجمة لاتينية بمدينة أوبساله سنة ١٨٤٣ ؛ وقد انتفع به المؤلف انتفاعاً كبيراً .

ملحق

لفهرس الأعلام الجغرافية والتاريخية

نشرنا فى الجزء الأول من هـذا الـكتاب (ص ٢٦٩) فهرساً الأعلام الجغرافية والتاريخية الأندلسية ومقابلها الأوربى ؛ وقد وردت بالجزء الثانى أعلام جغرافية وتاريخية جديدة لم ترد بالجزء الأول ، فرأينا أن نثبتها فى هذا الملحق على النحو الآتى :

أبو القاسم (خلف بن عباس القرطبى)	Abulcasis
القنطرة	Alcantra
القصر أو قصر أبى دانس	Alcázar, Alcazar da sol
لقنت (وقد وردت محرفة فى ج ١)	Alicante
ابن باجه	Avempace. Avenpace
ابن زهر الأشبيلى	Avenzoar
ابن رشد	Averroes
ابن سينا	Avicenna
ريانه	Burriana
شنترين	Cintrin
وادى لكه	Guadelete.
موسى بن ميمون	Maimonides
مكناسة الأندلس	Miqueneza, Miquenenza

حصن العقاب أو موقعة العقاب	Navas di Tolosa
أوسمه	Osma
الرازى (أبو بكر بن زكريا)	Rasis
سربطرة أو شربطارة	Salvatierra
نهر شقورة (وقد وردت محرفة فى ج ١)	Segura
ترجاله	Turgiello-Turillo
أورقلة	Urgel
شقر — جزيرة شقر	Xucar

فهرس الموضوعات

الجزء الثانى

الكتاب الرابع

سيادة الموحدين

والحكومات الخماسية النصرانية فى شبه الجزيرة الاسبانية

صفحة

صفحة

الكتاب الخامس

اضمحلال سيادة الموحدين وازدياد تفوق قشتالة وأراجون

فى النصف الأول من القرن الثالث عشر

صفحة



الإشراف اللغـوى : عــزة شـــبل
الإشـراف الفنــى : محسن مصطفى

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة